سید قطب

فی ظلال القرآن

في ظلال القرآن

بقلم

سيد قطب

الجزء العاشر

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من بقية سورة الأنفال وأول سورة التوبة

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

يتألف هذا الجزء من بقية سورة الأنفال - التي وردت أوائلها في الجزء التاسع - ومن قسم كبير من سورة التوبة . . وسنمضي أولا مع بقية الأنفال . أما سورة التوبة فسنعرف بها في موضعها من هذا الجزء إن شاء الله .

* * *

لقد ألممنا بالخطوط الرئيسية للسورة في مطلعها عند نهاية الجزء التاسع[1] . وهذه البقية منها تمضي على هذه الخطوط الرئيسية فيها . . إلا أن الظاهرة التي تلمح بوضوح في سياق السورة، هي أن هذا الشطر الأخير منها ، يكاد يكون مماثلا في سياقه وترتيب موضوعاته للشطر الأول منها ، ومع انتفاء التكرار بسبب تجدد الموضوعات ، إلا أن ترتيب هذه الموضوعات في السياق يكاد يجعل هذا الشطر دورة ، والشطر الأول دورة ، بينهما هذا التناسق العجيب !

لقد بدأ الشطر الأول بالحديث عن الأنفال وتنازعهم عليها ؛ فردها إلى الله والرسول . . ثم دعاهم إلى التقوى ،وبين لهم حقيقة الإيمان ليرتفعوا إليها . . ثم كشف لهم عن تدبير الله وتقديره في الموقعة التي يتنازعون أنفالها ، مستحضرا جانبا من مواقف المعركة ومشاهدها ، فإذا التدبير كله لله ، والمدد كله من الله ، والمعركة كلها مسوقة لتحقيق إرادة الله ، وإن هم فيها إلا ستار وأداة . . ثم أهاب بهم من وراء هذا الذي كشفه لهم من حقيقة المعركة إلى الثبات عند الزحف؛ وطمأنهم إلى نصرة الله ومعيته ، وإلى تخذيل الله لأعدائهم وأخذهم بذنوبهم . . ثم حذرهم خيانة الله وخيانة الرسول وفتنة الأموال والأولاد ؛ وأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يحذر الذين كفروا عاقبة ما هم فيه ؛ وأن يقبل منهم الاستجابة - لو استجابوا - ويكل خبيئهم إلى الله؛ وأمر المسلمين أن يقاتلوهم إن تولوا حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . .

(١) من ص ٢١٨ إلى ص ٢٢٨

Marfat.com

وكذلك يسير هذا الشطر الثاني .. يبدأ ببيان حكم الله فى الغنائم - بعد أن ردها إلى الله ورسوله - ثم يدعوهم إلى الإيمان بالله وما أنزله على عبده يوم الفرقان يوم التقى الجمعان .. ثم يكشف لهم عن تدبير الله وتقديره فى الموقعة التى جاءت بهذه الغنائم ؛ ويستحضر جانبا آخر من مواقف المعركة ومشاهدها ، يتجلى فيه هذا التقدير وذلك التدبير ، كما يتجلى فيه أنهم لم يكونوا سوى أداة لقدر الله وستار .. ثم يهيب بهم من وراء هذا الذى كشفه لهم من حقيقة المعركة إلى الثبات عند اللقاء ، وإلى ذكر الله ، وطاعته وطاعة رسوله ؛ ويحذرهم التنازع مخافة الفشل والانكسار ؛ ويدعوهم إلى الصبر ؛ وتجنب البطر والرياء فى الجهاد ؛ ويحذرهم عاقبة الكفار الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، منخدعين بمكر الشيطان؛ ويدعوهم إلى التوكل على الله وحده ، القوى القادر على النصر الحكيم فى تقديره وتدبيره .. ثم يريهم سنة الله فى أخذ الكافرين المكذبين بذنوبهم .. وكما ذكر الملائكة فى الشطر الأول وهم يثبتون المؤمنين ويضربون أعناق الكفار وأيديهم ، فكذلك يذكر فى هذا الشطر الثانى أن الملائكة يتوفون الذين كفروا يضربون وجوههم وأدبارهم .. وكما قال فى الشطر الأول عن الذين كفروا : إنهم شر الدواب ، فكذلك يكرر هنا هذا الوصف بمناسبة الحديث عن نقضهم لعهدهم كلما عاهدوا ، وتمهيدا لما يأمر به الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - من أحكام التعامل معهم فى الحرب والسلم ؛ وهى أحكام مفصلة للعلاقات بين المعسكر الإسلامى والمعسكرات المعادية والمسالمة ، بعضها أحكام نهائية ، وبعضها أحكام استكملت فيما بعد فى سورة التوبة ..

وإلى هنا تكاد تكون هذه الدورة الثانية فى السورة مطابقة - من حيث طبيعة الموضوعات ومن حيث ترتيبها فى السياق - لما جاء فى الدورة الأولى ، مع شىء من التفصيل فى أحكام المعاملات بين المعسكر الإسلامى وسائر المعسكرات .

ثم تزيد فى ختام السورة موضوعات وأحكام أخرى متصلة بها ، ومكملة لها :

يذكر الله - سبحانه - رسوله - صلى الله عليه وسلم - والذين آمنوا معه ، بمنته عليهم فى تأليف قلوبهم ، وقد كانت مستعصية على التأليف لولا إرادة الله ورحمته ومنته .

ويطمئنهم الله كذلك إلى كفايته لهم وحمايته .. ومن ثم يأمر رسوله بتحريضهم على القتال ؛ ويريهم أنهم بإيمانهم - إذا صبروا - أكفاء لعشرة أضعافهم من الذين كفروا الذين لا يفقهون ،

Marfat.com

لأنهم لا يؤمنون ! وأنهم فى أضعف حالاتهم أكفاء لضعفهم من الذين كفروا ـ متى صبروا . والله مع الصابرين .

ثم يعاتبهم الله سبحانه على قبولهم الفدية فى الأسرى ؛ وهم لم يثخنوا فى الأرض بعد ، ولم يخضدوا شوكة عدوهم ؛ ولم يستقر سلطانهم وتثبت دولتهم . فيقرر بهذا منهج الحركة الإسلامية فى المراحل المختلفة والأحوال المتعددة ، ويدل على مرونة هذا المنهج وواقعيته فى مواجهة الواقع فى المراحل المختلفة . . وكذلك يبين الله لهم كيف يعاملون من فى أيديهم من الأسرى ، وكيف يحببونهم فى الإيمان ، ويزينونه فى قلوبهم ؛ ثم يخذل الله هؤلاء الأسرى عن محاولة الخيانة مرة أخرى ويئيسهم من جدواها ؛فالله الذى أمكن منهم أول مرة حين خانوه بالكفر، سيمكن منهم مرة أخرى لوخانوا رسوله صلى الله عليه وسلم .

وأخيراً تجيء الأحكام المنظمة لعلاقات الجماعة المسلمة فيما بينها ، وعلاقاتها بالمجموعات التى تدخل فى الإسلام ، ولكنها لاتلحق بدارالإسلام ، ثم علاقاتها بالذين كفروا فى حالاتمعينة، ومن حيث المبدأ العام أيضا . حيث تتجلى فى هذه الأحكام طبيعة التجمع الإسلامى ؛ وطبيعة المنهج الإسلامى كله ؛ وحيث يبدو بوضوح كامل أن « التجمع الحركى » هو قاعدة الوجود الإسلامى ، الذى تنبثق منه أحكامه فى المعاملات الداخلية والخارجية ؛ وأنه لا يمكن فصل العقيدة والشريعة فى هذا الدين عن الحركة والوجود الفعلى للمجتمع المسلم .

وهذا حسبنا فى هذا التمهيد القصير ، لنواجه بعده النصوص القرآنية بالتفصيل :

« وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ . . إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ . . وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا

Marfat.com

وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ، وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَٰدِ
وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ
عَن بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ، وَلَوْ أَرَاكَهُمْ
كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَلَٰكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ *
وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ، لِيَقْضِيَ اللَّهُ
أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ .

يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ
تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَا تَنَٰزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّٰبِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ
النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَٰنُ
أَعْمَٰلَهُمْ ، وَقَالَ : لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ، فَلَمَّا تَرَاءَتِ
الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ، وَقَالَ : إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ ، إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ ، إِنِّيٓ
أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ * إِذْ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ
هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ، وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

« وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ،
وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ *
كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، إِنَّ
اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ * ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ
يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ

Marfat.com

كَذَّبُوا بِئَايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ، وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ، وَكُلٌّ كَانُوا ظَٰلِمِينَ » .

السياق متصل بين مطالع هذا الدرس وخواتم الدرس الماضى فى آخر الجزء التاسع .. فهو استطراد فى أحكام القتال الذى بدأ الحديث عنه هناك فى قوله تعالى : « ... قل للذين كفروا : إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف ، وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير ، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم ، نعم المولى ونعم النصير » ..

ثم تابع الحديث فى هذا الدرس عن أحكام الغنائم التى تنشأ من النصر فى ذلك القتال الذى بين غايته وهدفه : « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » ..

ومع أن غاية الجهاد قد تحددت بهذا النص الواضح ؛ وتبين منها أنه جهاد لله ، وفى سبيل أهداف تخص دعوة الله ودينه ومنهجه للحياة . . ومع أن ملكية الأنفال التى تتخلف عن هذا الجهاد قد بت فى أمرها من قبل ، فردت إلى الله والرسول ، وجرد منها المجاهدون لتخلص نيتهم وحركتهم لله . . مع هذا وذلك فإن المنهج القرآنى الربانى يواجه الواقع الفعلى بالأحكام المنظمة له . فهناك غنائم وهناك محاربون . وهؤلاء المحاربون يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم : هم يتطوعون للجهاد ، وهم يجهزون أنفسهم على نفقتهم الخاصة ؛ وهم يجهزون غيرهم من المجاهدين الذين لايجدون ماينفقون . . ثم هم يغنمون من المعركة غنائم . يغنمونها بصبرهم وثباتهم وبلائهم فى الجهاد . . ولقد خلص الله نفوسهم وقلوبهم من أن يكون فيها شىء يحيك من شأن هذه الغنائم فرد ملكيتها ابتداء لله ورسوله . . وهكذا لم يعد من بأس فى إعطائهم نصيبهم من هذه الغنائم – وهم يشعرون أنهم إنما يعطيهم الله ورسوله – فيلبى هذا الإعطاء حاجتهم الواقعية ، ومشاعرهم البشرية ، دون أن ينشأ عنه محظور من التكالب عليه ، والتنازع فيه ، بعد ذلك الحسم الذى جاء فى أول السورة . .

إنه منهج الله الذى يعلم طبيعة البشر ؛ ويعاملهم بهذا المنهج المتوازن المتكامل ، الذى يلبى

Marfat.com

حاجات الواقع كما يلبي مشاعر البشر ؛ وفى الوقت ذاته يتقى فساد الضمائر وفساد المجتمع ، من أجل تلك المغانم !

* * *

« واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل . . إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . . والله على كل شيء قدير » . .

وبين الروايات المأثورة والآراء الفقهية خلاف طويل . . أولا : حول مدلول « الغنائم » ومدلول « الأنفال » هل هما شيء واحد ، أم هما شيئان مختلفان ؟ وثانيا : حول هذا الخمس ـ الذى يتبقى بعد الأخماس الأربعة التى منحها الله للمقاتلين ـ كيف يقسم ؟ وثالثا : حول خمس الخمس الذى لله . أهو الخمس الذى لرسول الله ، أم هو خمس مستقل ؟ . . ورابعا : حول خمس الخمس الذى لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أهو خاص به أم ينتقل لكل إمام بعده ؟ وخامسا : حول خمس الخمس الذى لأولى القربى ، أهو باق فى قرابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، كما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم يرجع إلى الإمام يتصرف فيه ؟ وسادسا : أهى أخماس محددة يقسم إليها الخمس ، أم يترك التصرف فيه كله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولخلفائه من بعده ؟ . . . وخلافات أخرى فرعية .

ونحن ـ على طريقتنا فى هذه الظلال ـ لا ندخل فى هذه التفريعات الفقهية التى يحسن أن تطلب فى مباحثها الخاصة . . هذا بصفة عامة . . وبصفة خاصة فإن موضوع الغنائم بجملته ليس واقعا إسلاميا يواجهنا اليوم أصلا . فنحن اليوم لسنا أمام قضية واقعة ، لسنا أمام دولة مسلمة وإمامة مسلمة وأمة مسلمة تجاهد فى سبيل الله ، ثم تقع لها غنائم تحتاج إلى التصرف فيها ! لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية أول مرة ؛ ورجع الناس إلى الجاهلية التى كانوا عليها ، فأشركوا مع الله أربابا أخرى تصرف حياتهم بشرائعها البشرية ! ولقد عاد هذا الدين أدراجه ليدعو الناس من جديد إلى الدخول فيه . . إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . . إلى إفراد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية والسلطان . والتلقى فى

Marfat.com

هذا الشأن عن رسول الله وحده ! وإلى التجمع تحت قيادة مسلمة تعمل لإعادة إنشاء هـذا الدين فى حياة البشر ، والتوجه بالولاء كله لهذا التجمع ولقيادته المسلمة ؛ ونزع هذا الولاء من المجتمعات الجاهلية وقياداتها جميعا .

هـذه هى القضية الحية الواقعية التى تواجه اليوم هذا الدين ؛ وليس هناك ـ فى البـدء ـ قضية أخرى سواها . . ليس هناك قضية غنائم ، لأنه ليس هناك قضية جهاد ! بل ليس هناك قضية تنظيمية واحدة . لا فى العلاقات الداخلية ولا فى العلاقات الخارجية ، وذلك لسبب بسيط : هو أنه ليس هناك مجتمع إسلامى ذو كيان قائم مستقل ، يحتاج إلى الأحكام التى تضبط العلاقات فيه والعلاقات بينه وبين غيره من المجتمعات الأخرى ! ! !

والمنهج الإسلامى منهج واقعى ، لايشتغل بقضايا ليست قائمة بالفعل ؛ ومن ثم لايشتغل أصلا بأحكام تتعلق بهـذه القضايا التى لاوجود لها من ناحية الواقع ! . . إنه منهج أكثر جدية وواقعية من أن يشتغل بالأحكام ! هـذا ليس منهج هذا الدين . هذا منهج الفارغين الذين ينفقون أوقات الفراغ فى البحوث النظرية وفى الأحكام الفقهية ، حيث لامقابل لها من الواقع أصلا ! بدلا من أن ينفقوا هذه الجهود فى إعادة إنشاء المجتمع المسلم وفق المنهج الحركى الواقعى لهذا الدين نفسه : دعوة إلى لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ؛ ينشأ عنها دخول فئة فى هذا الدين من جديد ـ كما دخل فيه الناس أول مرة ـ كما ينشأ عن هـذا الدخول فى الدين تجمع حركى ذو قيادة مسلمة وذو ولاء خاص به وذو كينونة مستقلة عن المجتمعات الجاهلية .. ثم يفتح الله بينه وبين قومه بالحق .. ثم يحتاج حينئذ ـ وحينئذ فقط ـ إلى الأحكام التى تنظم علاقاته فيما بينه ؛ كما يحتاج إلى الأحكام التى تنظم علاقاته مع غـيره . . وحينئذ ـ وحينئذ فقط ـ يجتهد المجتهدون فيه لاستنباط الأحكام التى تواجه قضاياه الواقعية ـ فى الداخل وفى الخارج ـ وحينئذ ـ وحينئذ فقط ـ تكون لهذا الاجتهاد قيمته ، لأنه تكون لهذا الاجتهاد جديته وواقعيته !

من أجل هذا الإدراك لجدية المنهج الحى الواقعى الحركى لهـذا الدين ، لاندخل هنا فى تلك التفصيلات الفقهية الخاصة بالأنفال والغنائم ؛ حتى يحين وقتها عندما يشاء الله ؛ وينشأ المجتمع الإسلامى ، ويواجه حالة جهاد فعلى ، تنشأ عنه غنائم تحتاج إلى أحكام ! وحسبنا ـ

Marfat.com

فى هذه الظلال ـ أن نتتبع الأصل الإيمانى فى السياق التاريخى الحركى ، والنهج القرآنى التربوى . فهذا هو العنصر الثابت ، الذى لايتأثر بالزمن فى هـذا الكتاب الكريم . . وكل ماعداه تبع له وقائم عليه (١) :

إن الحكم العام الذى تضمنه النص القرآنى :

« واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل » .

يتلخص فى رد أربعة أخماس كل شىء من الغنيمة إلى المقاتلين ، واستبقاء الخمس يتصرف فيه رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ والأئمة المسلمون القائمون على شريعة الله المجاهدون فى سبيل الله ، من بعده فى هذه المصارف : « لله وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل » . . بما يواجه الحاجة الواقعة عند وجود ذلك المغنم .

. . وفى هذا كفاية . .

أما التوجيه الدائم بعد ذلك فهو ماتضمنه شطر الآية الأخير :

« إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان ، والله على كل شىء قدير » . .

إن للإيمان أمارات تدل عليه ؛ والله ـ سبحانه ـ يعلق الاعتراف لأهل بدر ـ وهم أهل بدر ـ بأنهم آمنوا بالله ، وبما أنزله على عبده يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . . يعلق الاعتراف لأهل بدر هؤلاء بالإيمان ، على قبولهم لما شرع الله لهم فى أمر الغنائم فى صدر الآية ؛ فيجعل هذا شرطا لاعتبارهم عنده قد آمنوا بالله وبما أنزله على عبده من القرآن ؛ كما يجعـله مقتضى لإعلانهم الإيمان لابد أن يتحقق ليتحقق مدلول هذا الإعلان .

وهكذا نجد مدلول الإيمان ـ فى القرآن ـ واضحا جازماً لاغبش فيه ، ولا تمحيص ولا تأويل مما استحدثته التطويلات الفقهية فيما بعد ، عندما وجدت الفرق والمذاهب والتأويلات ،

---

(١) يراجع بتوسع مقدمة سورة الأنعام فى الطبعة الثانية المنقحة من الجزء السابع : ص٨٧ـص١١٦ كما يراجع فصل : « كيف الخلاص » من كتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » لمؤلف .

Marfat.com

ودخل الناس فى الجدل والفروض المنطقية الذهنية ، كما دخل الناس - بسبب الفرق المذهبية والسياسية - فى الاتهامات ودفع الاتهامات ؛ وصار النبز بالكفر ، ودفع هذا النبز ، لايقومان على الأصول الواضحة البسيطة لهذا الدين ؛ إنما يقومان على الغرض والهوى ومكايدة النافين والمخالفين ! عندئذ وجد من ينبز مخالفيه بالكفر لأمور فرعية ؛ ووجد من يدفع هذا الاتهام بالتشدد فى التحرج والتغليظ على من ينبز غيره بهذه التهمة . . وهذا وذلك غلو سببه تلك الملابسات التاريخية . . أما دين الله فواضح جازم لاتميع فيه ولا تفصيص ولا غلو . . «ليس الإيمان بالتمنى ولكن ماوقر فى القلب وصدقه العمل» . . ولا بد لقيامه من قبول ماشرع الله وتحقيقه فى واقع الحياة . . والكفر : رفض ماشرع الله ، والحكم بغير ما أنزل الله ، والتحاكم إلى غير شرع الله . . فى الصغير وفى الكبير سواء . . أحكام صريحة جازمة بسيطة واضحة . . وكل ماوراءها فهو من صنع تلك الخلافات والتأويلات . .

وهذا نموذج من التقريرات الصريحة الواضحة الجازمة من قول الله سبحانه :

« واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل.. إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » . .

ومثله سائر التقريرات الواضحة الجازمة الصريحة التى ترسم حقيقة الإيمان وحدوده فى كتاب الله .

لقد نزع الله ملكية الغنيمة ممن يجمعونها فى المعركة ؛ وردها إلى الله والرسول - فى أول السورة - ليخلص الأمر كله لله والرسول ؛ وليتجرد المجاهدون من كل ملابسة من ملابسات الأرض ؛ وليسلموا أمرهم كله - أوله وآخره - لله ربهم وللرسول قائدهم ؛ وليخوضوا المعركة لله وفى سبيل الله ، وتحت راية الله ، طاعة لله ؛ يحكمونه فى أرواحهم ، ويحكمونه فى أموالهم ويحكمونه فى أمرهم كله بلا تعقيب ولااعتراض .. فهذا هو الإيمان .. كما قال لهم فى مطلع السورة وهو ينتزع منهم ملكية الغنيمة ويردها إلى الله ورسوله :

« يسألونك عن الأنفال . قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، وأطيعوا الله ورسوله .. إن كنتم مؤمنين .. » .

Marfat.com

حتى إذا استسلموا لأمر الله ، وارتضوا حكمه ذاك ، فاستقر فيهم مدلول الإيمان .. عاد ليرد عليهم أربعة أخماس الغنيمة ، ويستبقى الخمس على الأصل ـ لله والرسول ـ يتصرف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينفق منه على من يعولهم فى الجماعة المسلمة من ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .. عاد ليرد عليهم الأخماس الأربعة ، وقد استقر فى نفوسهم أنهم لا يملكونها ابتداء بحق الغزو والفتح ، فهم إنما يغزون لله ويفتحون لدين الله ؛ إنما هم يستحقونها بمنح الله لهم إياها ؛ كما أنه هو الذى يمنحهم النصر من عنده ؛ ويدبر أمر المعركة وأمرهم كله .. وعاد كذلك ليذكرهم بأن الاستسلام لهذا الأمر الجديد هو الإيمان .. هو شرط الإيمان ، وهو مقتضى الإيمان ..

« واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .. إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان .. » .

وهكذا تتواتر النصوص ، لتقرر أصلا واضحا جازما من أصول هذا الدين فى اعتبار مدلول الإيمان وحقيقته وشرطه ومقتضاه .

ثم نقف أمام وصف الله ـ سبحانه ـ لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله : « عبدنا » فى هذا الموضع الذى يرد إليه فيه أمر الغنائم كلها ابتداء ، وأمر الخمس المتبقى أخيرا :

« إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » ..

إنه وصف موحٍ .. إن العبودية لله هى حقيقة الإيمان ؛ وهى فى الوقت ذاته أعلى مقام للإنسان يبلغ إليه بتكريم الله له ؛ فهى تجلى وتذكر فى المقام الذى يوكل فيه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ التبليغ عن الله ، كما يوكل إليه فيه التصرف فيما خوله الله .

وإنه لكذلك فى واقع الحياة ! إنه لكذلك مقام كريم .. أكرم مقام يرتفع إليه الإنسان ..

إن العبودية لله وحده هى العاصم من العبودية للهوى ، والعاصم من العبودية للعباد .. وما يرتفع الإنسان إلى أعلى مقام مقدر له ، إلا حين يعتصم من العبودية لهواه كما يعتصم من العبودية لسواه .

Marfat.com

إن الذين يستنكفون أن يكونوا عبيداً لله وحده ، يقعون من فورهم ضحايا لأحط العبوديات الأخرى . يقعون من فورهم عبيدا لهواهم وشهواتهم ونزواتهم ودفعاتهم ؛ فيفقدون من فورهم إرادتهم الضابطة التي خص الله بها نوع « الإنسان » من بين سائر الأنواع ؛ وينحدرون في سلم الدواب فإذا هم شر الدواب ، وإذا هم كالأنعام بل هم أضل ، وإذا هم أسفل سافلين بعد أن كانوا - كما خلقهم الله - في أحسن تقويم .

كذلك يقع الذين يستنكفون أن يكونوا عبيداً لله في شر العبوديات الأخرى وأحطها .. يقعون في عبودية العبيد من أمثالهم ، يصرفون حياتهم وفق هواهم ، ووفق ما يبدو لهم من نظريات واتجاهات قصيرة النظر ، مشوبة بحب الاستعلاء ، كما هي مشوبة بالجهل والنقص والهوى !

ويقعون في عبودية « الحتميات » التي يقال لهم : إنه لاقبل لهم بها ، وإنه لابد من أن يخضعوا لها ولا يناقشوها .. « حتمية التاريخ » .. و « حتمية الاقتصاد » .. و « حتمية التطور » وسائر الحتميات المادية التي تمرغ جبين « الإنسان » في الرغام وهو لا يملك أن يرفعه ، ولا أن يناقش - في عبوديته البائسة الذليلة - هذه الحتميات الجبارة المذلة المخيفة !(١)

ثم نقف كذلك أمام وصف الله - سبحانه - ليوم بدر بأنه يوم الفرقان :

« إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » ..

لقد كانت غزوة بدر - التي بدأت وانتهت بتدبير الله وتوجيهه وقيادته ومدده - فرقانا .. فرقانا بين الحق والباطل - كما يقول المفسرون إجمالا - وفرقانا بمعنى أشمل وأوسع وأدق وأعمق كثيرا ..

كانت فرقانا بين الحق والباطل فعلا .. ولكنه الحق الأصيل الذي قامت عليه السماوات والأرض ، وقامت عليه فطرة الأشياء والأحياء .. الحق الذي يتمثل في تفرد الله - سبحانه - بالألوهية والسلطان والتدبير والتقدير ؛ وفي عبودية الكون كله : سمائه وأرضه ، أشيائه وأحيائه ، لهذه الألوهية المتفردة ولهذا السلطان المتوحد ، ولهذا التدبير وهذا التقدير بلا معقب ولا شريك ..

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : « التطور والثبات في حياة البشرية » وكتاب : « جاهلية القرن العشرين » لمحمد قطب .

Marfat.com

والباطل الزائف الطارئ الذي كان يعم وجه الأرض إذ ذاك ؛ ويغشى على ذلك الحق الأصيل ؛ ويقيم في الأرض طواغيت تتصرف في حياة عباد الله بما تشاء ، وأهواء تصرف أمر الحياة والأحياء ! .. فهذا هو الفرقان الكبير الذي تم يوم بدر ؛ حيث فرق بين ذلك الحق الكبير وهذا الباطل الطاغي ؛ وزيل بينهما فلم يعودا يلتبسان !

لقد كانت فرقانا بين الحق والباطل بهذا المدلول الشامل الواسع الدقيق العميق ، على أبعاد وآماد : كانت فرقانا بين هذا الحق وهذا الباطل في أعماق الضمير .. فرقانا بين الوحدانية المجردة المطلقة بكل شعبها في الضمير والشعور ، وفي الخلق والسلوك ، وفي العبادة والعبودية ؛ وبين الشرك في كل صوره التي تشمل عبودية الضمير لغير الله من الأشخاص والأهواء والقيم والأوضاع والتقاليد والعادات ...

وكانت فرقانا بين هذا الحق وهذا الباطل في الواقع الظاهر كذلك .. فرقانا بين العبودية الواقعية للأشخاص والأهواء ، وللقيم والأوضاع ،وللشرائع والقوانين ، وللتقاليد والعادات... وبين الرجوع في هذا كله لله الواحد الذي لا إله غيره ، ولا متسلط سواه ، ولا حاكم من دونه، ولا مشرع إلا إياه .. فارتفعت الهامات لا تنحني لغير الله ؛ وتساوت الرؤوس لا تخضع إلا لحاكميته وشرعه ؛ وتحررت القطعان البشرية التي كانت مستعبدة للطغاة ..

وكانت فرقانا بين عهدين في تاريخ الحركة الإسلامية : عهد الصبر والمصابرة والتجمع والانتظار . وعهد القوة والحركة والمبادأة والاندفاع.. والإسلام بوصفه تصورا جديدا للحياة، ومنهجا جديدا للوجود الإنساني ، ونظاما جديدا للمجتمع ، وشكلا جديدا للدولة .. بوصفه إعلانا عاما لتحرير « الإنسان » في « الأرض » بتقرير ألوهية الله وحده وحاكميته ، ومطاردة الطواغيت التي تغتصب ألوهيته وحاكميته .. الإسلام بوصفه هذا لم يكن له بد من القوة والحركة والمبادأة والاندفاع ، لأنه لم يكن يملك أن يقف كامنا منتظرا على طول الأمد . لم يكن يستطيع أن يظل عقيدة مجردة في نفوس أصحابه ، تتمثل في شعائر تعبدية لله ، وفي أخلاق سلوكية فيما بينهم . ولم يكن له بد أن يندفع إلى تحقيق التصور الجديد ، والمنهج الجديد ، والدولة الجديدة، والمجتمع الجديد ، في واقع الحياة ؛ وأن يزيل من طريقها العوائق المادية التي تكبتها وتحول

Marfat.com

بينها وبين التطبيق الواقعي في حياة المسلمين أولا ؛ ثم في حياة البشرية كلها أخيرا .. وهي لهذا التطبيق الواقعي جاءت من عند الله(١) ..

وكانت فرقانا بين عهدين في تاريخ البشرية .. فالبشرية بمجموعها قبل قيام النظام الإسلامي هي غير البشرية بمجموعها بعد قيام هذا النظام .. هذا التصور الجديد الذي انبثق منه هذا النظام . وهذا النظام الجديد الذي انبثق من هذا التصور . وهذا المجتمع الوليد الذي يمثل ميلادا جديدا للإنسان . وهذه القيم التي تقوم عليها الحياة كلها ويقوم عليها النظام الاجتماعي والتشريع القانوني سواء .. هذا كله لم يعد ملكا للمسلمين وحدهم منذ غزوة بدر وتوكيد وجود المجتمع الجديد . إنما صار – شيئا فشيئا – ملكا للبشرية كلها ؛ تأثرت به سواء في دار الإسلام أم في خارجها، سواء بصداقة الإسلام أم بعداوته !.. والصليبيون الذين زحفوا من الغرب، ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه في ربوعه ، قد تأثروا بتقاليد هذا المجتمع الإسلامي الذي جاءوا ليحطموه ؛ وعادوا إلى بلادهم ليحطموا النظام الإقطاعي الذي كان سائدا عندهم ، بعد ما شاهدوا بقايا النظام الاجتماعي الإسلامي ! والتتار الذين زحفوا من الشرق ليحاربوا الإسلام ويقضوا عليه – بإيحاء من اليهود والصليبيين من أهل دار الإسلام ! – قد تأثروا بالعقيدة الإسلامية في النهاية ؛ وحملوها لينشروها في رقعة من الأرض جديدة ؛ وليقيموا عليها خلافة ظلت من القرن الخامس عشر إلى القرن العشرين في قلب أوربا ! .. وعلى أية حال فالتاريخ البشري كله – منذ وقعة بدر – متأثر بهذا الفرقان في أرض الإسلام ، أو في الأرض التي تناهض الإسلام على السواء(٢).

وكانت فرقانا بين تصورين لعوامل النصر وعوامل الهزيمة . فجرت وكل عوامل النصر الظاهرية في صف المشركين ؛ وكل عوامل الهزيمة الظاهرية في صف العصبة المؤمنة ، حتى لقال المنافقون والذين في قلوبهم مرض : « غر هؤلاء دينهم » . . وقد أراد الله أن تجرى المعركة على هذا النحو – وهي المعركة الأولى بين الكثرة المشركة والقلة المؤمنة – لتكون فرقانا بين تصورين وتقديرين لأسباب النصر وأسباب الهزيمة ؛ ولتنتصر العقيدة القوية على الكثرة العددية

(١) يراجع ما جاء في الجزء التاسع عن أهداف الجهاد الإسلامي في تقديم سورة الأنفال : ص١٦٦–ص٢٠١

(٢) يراجع في كتاب : « هذا الدين » فصول : « منهج مؤثر » و « رصيد الفطرة » و « رصيد التجربة » و « خطوط مستقرة » .

Marfat.com

وعلى الزاد والعتاد ؛ فيتبين للناس أن النصر للعقيدة الصالحة القوية ، لا لمجرد السلاح والعتاد ؛ وأن أصحاب العقيدة الحقة عليهم أن يجاهدوا ويخوضوا غمار المعركة مع الباطل غير منتظرين حتى تتساوى القوى المادية الظاهرية ، لأنهم يملكون قوة أخرى ترجح الكفة ؛ وأن هذا ليس كلاما يقال ، إنما هو واقع متحقق للعيان .

وأخيرا فلقد كانت بدر فرقانا بين الحق والباطل بمدلول آخر . ذلك المدلول الذي يوحي به قول الله تعالى في أوائل هذه السورة :

« وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

لقد كان الذين خرجوا للمعركة من المسلمين ، إنما خرجوا يريدون عير أبي سفيان واغتنام القافلة . فأراد الله لهم غير ما أرادوا . أراد لهم أن تفلت منهم قافلة أبي سفيان (غير ذات الشوكة) وأن يلاقوا نفير أبي جهل (ذات الشوكة) وأن تكون معركة وقتال وقتل وأسر ؛ ولا تكون قافلة وغنيمة ورحلة مريحة ! وقال لهم الله ـ سبحانه ـ إنه صنع هذا :

« ليحق الحق ويبطل الباطل » . .

وكانت هذه إشارة لتقرير حقيقة كبيرة . . إن الحق لا يحق ، وإن الباطل لا يبطل ـ في المجتمع الإنساني ـ بمجرد البيان « النظري » للحق والباطل . ولا بمجرد الاعتقاد « النظري » بأن هذا حق وهذا باطل . . إن الحق لا يحق ولا يوجد في واقع الناس ؛ وإن الباطل لا يبطل ولا يذهب من دنيا الناس ، إلا بأن يتحطم سلطان الباطل ويعلو سلطان الحق ، وذلك لا يتم إلا بأن يغلب جند الحق ويظهروا ، ويهزم جند الباطل ويندحروا . . فهذا الدين منهج حركي واقعي ، لا مجرد « نظرية » للمعرفة والجدل ! أو لمجرد الاعتقاد السلبي !

ولقد حق الحق وبطل الباطل بالموقعة ؛ وكان هذا النصر العملي فرقانا واقعيا بين الحق والباطل بهذا الاعتبار الذي أشار إليه قول الله تعالى في معرض بيان إرادته ـ سبحانه ـ من

Marfat.com

وراء المعركة ، ومن وراء إخراج الرسول - صلى الله عليه وسلم - من بيته بالحق ؛ ومن وراء إفلات القافلة (غير ذات الشوكة) ولقاء الفئة ذات الشوكة . .

ولقد كان هذا كله فرقانا فى منهج هذا الدين ذاته ، تتضح به طبيعة هذا المنهج وحقيقته فى حس المسلمين أنفسهم .. وإنه لفرقان ندرك اليوم ضرورته ؛ حينما ننظر إلى ما أصاب مفهومات هذا الدين من تميع فى نفوس من يسمون أنفسهم مسلمين ! حتى ليصل هذا التميع إلى مفهومات بعض من يقومون بدعوة الناس إلى هذا الدين ! (١)

وهكذا كان يوم بدر « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان » بهذه المدلولات المنوعة الشاملة العميقة . .

« والله على كل شىء قدير » . .

وفى هذا اليوم مثل من قدرته على كل شىء . . مثل لا يجادل فيه مجادل ، ولا يمارى فيه ممار . . مثل من الواقع المشهود ، الذى لا سبيل إلى تفسيره إلا بقدرة الله . وأن الله على كل شىء قدير .

* * *

وهنا يعود السياق إلى يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . . يعود إلى المعركة ، فيعيد عرضها بأسلوب عجيب فى استحضار مشاهدها ومواقفها ، كما لو كانت معروضة فعلا ، ويكشف عن تدبير الله فى إدارتها . حتى ليكاد الإنسان يرى يد الله - سبحانه - من وراء الأحداث والحركات كما يكشف عن غاية ذلك التدبير التى تحققت كما أرادها الله سبحانه :

« إذ أنتم بالعدوة الدنيا ، وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم . ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ، ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا . ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة ، وإن الله لسميع عليم . إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ، ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ، ولكن الله سلم ، إنه عليم بذات الصدور . وإذ يريكموهم

(١) كان موضع هذه اللفتة فى الجزء التاسع عند استعراض هذا النص . ولكن لم يفتح به على وقتها ، وفتح على به هنا . والحمد لله أولا وأخيرا .

Marfat.com

إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، وإلى الله ترجع الأمور » .

إن المعركة شاخصة بمواقع الفريقين فيها ؛ وشاهدة بالتدبير الخفى من ورائها . . إن يد الله تكاد ترى ، وهى توقف هؤلاء هنا ، وهؤلاء هناك ، والقافلة من بعيد ! والكلمات تكاد تشف عن تدبير الله فى رؤيا الرسول - صلى الله عليه وسلم - وفى تقليل كل فريق فى عين الفريق الآخر ، وفى إغراء كل منهما بالآخر . . وما يملك إلا الأسلوب القرآنى الفريد ، عرض الشاهد وما وراء المشاهد بهذه الحيوية ، وبهذه الحركة المرئية ، وفى مثل هذه المساحة الصغيرة من التعبير !

وهذه المشاهد التى تستحضرها النصوص ، قد مر بنا فى استعراض الوقعة من السيرة الإشارة إليها . . ذلك أن المسلمين حين خرجوا من المدينة نزلوا بضفة الوادى القريبة من المدينة ؛ ونزل جيش المشركين بقيادة أبى جهل بالضفة الأخرى البعيدة من المدينة ؛ وبين الفريقين ربوة تفصلهما . . أما القافلة فقد مال بها أبو سفيان إلى سيف البحر أسفل من الجيشين .

ولم يكن كل من الجيشين يعلم بموقع صاحبه . وإنما جمعهما الله هكذا على جانبى الربوة لأمر يريده . حتى لو أن بينهما موعدا على اللقاء ما اجتمعا بمثل هذه الدقة والضبط من ناحية المكان والموعد ! وهذا ما يذكر الله به العصبة المسلمة ليذكرها بتدبيره وتقديره .

« إذ أنتم بالعدوة الدنيا ، وهم بالعدوة القصوى ، والركب أسفل منكم ، ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد ، ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا » . .

إن وراء هذا التلاقى على غير موعد - بهذه الدقة وبهذا الضبط - لأمرا مقضيا يريد الله تحقيقه فى عالم الواقع ، ويدبر له هذا التدبير الخفى اللطيف ؛ ويجعلكم أنتم أداة تحقيقه ، ويهيئ له جميع الظروف التى تيسر لكم القيام به !

أما هذا الأمر المقتضى الذى دبر الله الظروف لتحقيقه فهو الذى يقول عنه :

« ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة » . .

Marfat.com

والهلاك يعبر به عن مدلوله المباشر ، كما يعبر به عن الكفر . وكذلك الحياة فإنها قد تفيد مدلولها المباشر وقد يعبر بها عن الإيمان . . وهذا المدلول الثانى أظهر هنا ، وذلك كما قال الله سبحانه فى مثل هـذا المعنى : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ » . . فعبر عن الكفر بالموت وعبر عن الإيمان بالحياة ؛ وجرى فى هذا على نظرة الإسلام لحقيقة الكفر وحقيقة الإيمان . هذه النظرة التى أوضحناها بشىء من التفصيل عند استعراض هـذه الآية من سورة الأنعام فى الجزء الثامن (١) .

ووجه ترجيح هذا المدلول هنا أن يوم بدر ـ كما قال الله سبحانه ـ كان « يوم الفرقان » وقد فرق الله فيه بين الحق والباطل ـ كما ذكرنا منذ قليل ـ ومن ثم فإن من يكفر بعدها فإنما يكفر فى غير شبهة ـ يكفر عن بينة فيهلك عن بينة ـ ومن يؤمن بعدها فإنما يؤمن عن بينة واضحة تبرزها المعركة . .

إن الموقعة ـ بظروفها التى صاحبتها ـ تحمل بينة لا تجحد ، وتدل دلالة لا تنكر ، على تدبير وراء تدبير البشر ، وعلى قوى وراءها غير قوة البشر . . إنها تثبت أن لهذا الدين رباً يتولى أصحابه متى أخلصوا له وجاهدوا فى سبيله وصبروا وثبتوا ، وأنه لو كان الأمر إلى القوى المادية الظاهرة ما هزم المشركون ولا انتصرت العصبة المسلمة هذا الانتصار العظيم . .

ولقد قال المشركون أنفسهم لحليفهم الذى أراد أن يمدهم بالرجال وهم ذاهبون للقتال : « فلعمرى لئن كنا إنما نقاتل الناس فما بنا من ضعف عنهم ، ولئن كنا إنما نقاتل الله ـ كما يزعم محمد ـ فما لأحد بالله من طاقة » ! ولقد علموا ـ لو كان العلم يجدى ـ أنهم إنما يقاتلون الله كما قال لهم محمد الصادق الأمين ، وأنه ما لأحد بالله من طاقة . . فإذا هلكوا بعد ذلك بالكفر فإنما يهلكون عن بينة !

هذا ما يتبادر إلى الذهن من معنى هذا التعقيب : « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » .. ولكن يبقى وراءه إيحاء آخر :

إن وقوع المعركة بين جند الحق وجند الباطل ؛ واستعلاء سلطان الحق فى عالم الواقع ـ بعد

---

(١) ص٣٥ ـ ص٣٨ من الطبعة الثانية المنقحة من الجزء الثامن من الظلال .

Marfat.com

استعلائه فى عالم الضمائر – إن هذا كله مما يعين على جلاء الحق للعيون والقلوب ؛ وعلى إزالة اللبس فى العقول والنفوس ؛ بحيث يتبين الأمر بهذا الفتح ويتجلى ؛ فلا تعود لمن يختار الهلاك – أى الكفر – شبهة فى الحق الذى استعلن واستعلى ؛ كما أن الذى يريدأن يحيا – أى يؤمن– لايعود لديه شك فى أن هذا هو الحق الذى ينصره الله ، ويخذل الطغاة .

وهذا يعود بنا إلى ماقدمناه فى الجزء التاسع – فى التعريف بسورة الأنفال – من الحديث عن ضرورة الجهاد لتحطيم قوى الشر وسلطان الطاغوت ؛ وإعلاء راية الحق وسلطان الله .. فهذا مما يعين على جلاء الحق : « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة » .. كما أن هذه اللفتة تساعدنا على تفهم أبعاد الإيحاء الذى يعطيه قول الله تعالى ،فى هذه السورة :« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ... » فإعداد القوة والإرهاب بها مما يعين على جلاء الحق فى أنماط من القلوب . لاتستيقظ ولاتتبين إلا على إيقاعات القوة التى تحمل الحق وتنطلق به لإعلان تحرير « الإنسان » فى « الأرض » كما أسلفنا .(١)

والتعقيب على ذلك الجانب من التدبير الإلهى فى المعركة ، وعلى غاية هذا التدبير التى تحققت فعلا هو :

« وإن الله لسميع عليم » ..

فهو – سبحانه – لايخفى عليه شىء مما يقول فريق الحق أو فريق الباطل ؛ولا شىء مما يخفونه فى صدورهم وراء الأقوال والأفعال ؛ وهو يدبر ويقدر باطلاعه على الظواهر وعلمه بالسرائر ، وهو السميع العليم ..

وبعد هذا التعقيب الذى يتوسط استعراض المعركة وأحداثها وملابساتها يمضى السياق فى هذا الاستعراض ؛ ويكشف التدبير الخفى اللطيف :

« إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ،ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر .ولكن الله سلم . إنه عليم بذات الصدور » ..

ولقد كان من تدبير الله فى المعركة أن يرى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الكافرين فى الرؤيا فى منامه قليلا لا قوة لهم ولا وزن . فينبىء أصحابه برؤياه ، فيستبشروا بها ويتشجعوا على

(١) يراجع بتوسع الجزء التاسع الطبعة الثانية المنقحة : ص ١٦٥ – ص ٢٠١

Marfat.com

خوض المعركة .. ثم يخبر الله هنا لم أراهم لنبيه قليلا . فلقد علم - سبحانه - أنه لو أراهم له كثيرا ، لفت ذلك فى قلوب القلة التى معه ، وقد خرجت على غير استعداد ولا توقع لقتال ، ولضعفوا عن لقاء عدوهم ؛ وتنازعوا فيما بينهم على ملاقاتهم : فريق يرى أن يقاتلهم وفريق يرى تجنب الالتحام بهم .. وهذا النزاع فى هذا الظرف هو أبأس مايصيب جيشا يواجه عدوا !

« ولكن الله سلم . إنه عليم بذات الصدور » ..

ولقد كان - سبحانه - يعلم بذوات الصدور ؛ فلطف بالعصبة المسلمة أن يعرضها لما يعلمه من ضعفها فى ذلك الموقف ؛ فأرى نبيه المشركين فى رؤياه قليلا ، ولم يرهم إياه كثيرا ..

والرؤيا صادقة فى دلالتها الحقيقية. فقد رآهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قليلا ..وهم كثير عددهم ،ولكن قليل غناؤهم ، قليل وزنهم فى المعركة ، قلوبهم خواء من الإدراك الواسع ، والإيمان الدافع ، والزاد النافع .. وهذه الحقيقة الواقعة -من وراء الظاهر الخادع- هى التى أراها الله لرسوله ؛ فأدخل بها الطمأنينة على قلوب العصبة المسلمة . والله عليم بسرائرهم ، مطلع على قلة عددهم وضعف عدتهم ، وما تحدثه فى نفوسهم لو عرفوا كثرة عدوهم ، من ضعف عن المواجهة ؛ وتنازع على الالتحام أو الإحجام . وكان هذا تدبيرا من تدبير الله العليم بذات الصدور .

وحينما التقى الجمعان وجها لوجه ، تكررت الرؤيا النبوية الصادقة ، فى صورة عيانية من الجانبين ؛ وكان هذا من التدبير الذى يذكرهم الله به ؛ عند استعراض المعركة وأحداثها وما وراءها .

« وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ، ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا ، وإلى الله ترجع الأمور » . .

ولقد كان فى هذا التدبير الإلهى ما أغرى الفريقين بخوض المعركة . . والمؤمنون يرون أعداءهم قليلا - لأنهم يرونهم بعين الحقيقة ! - والمشركون يرونهم قليلا - وهم يرونهم بعين الظاهر - ومن وراء الحقيقتين اللتين رأى كل فريق منهما صاحبه بها ، تحققت غاية التدبير الإلهى ؛ ووقع الأمر الذى جرى به قضاؤه . .

Marfat.com

« وإلى الله ترجع الأمور » . .

وهو التعقيب المناسب لتحقق التدبير ووقوع القضاء . . . فهو أمر من الأمور التى مرجعها لله وحده ، يصرفها بسلطانه ، ويوقعها بإرادته ، ولا تند عن قدرته وحكمه . ولا ينفذ شيء فى الوجود إلا ما قضاه وأجرى به قدره .

* * *

وإذ إن الأمر كذلك . . التدبير تدبير الله . والنصر من عند الله . والكثرة العددية ليست هى التى تكفل النصر . والعدة المادية ليست هى التى تقرر مصير المعركة . . فليثبت الذين آمنوا إذن حين يلقون الذين كفروا ؛ وليتزودوا بالعدة الحقيقية للمعركة ؛ وليأخذوا بالأسباب الموصولة بصاحب التدبير والتقدير ، وصاحب العون والمدد ، وصاحب القوة والسلطان ؛ وليتجنبوا أسباب الهزيمة التى هزمت الكفار على كثرة العدد وكثرة العدة ؛ وليتجردوا من البطر والكبرياء والباطل ؛ وليحترزوا من خداع الشيطان ، الذى أهلك أولئك الكفار ؛ وليتوكلوا على الله وحده فهو العزيز الحكيم :

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا . واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ؛ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم . واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط . وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم . فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال : إنى برىء منكم ، إنى أرى ما لا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب . إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض: غر هؤلاء دينهم ! ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » . .

وفى هذه الفقرات القليلة تحتشد معان وإيحاءات ، وقواعد وتوجيهات ، وصور ومشاهد ؛ وتتشخص مواقف من المعركة كأنها حية واقعة ، وتتكشف خواطر ومشاعر وضمائر وسرائر . . مما يحتاج تصويره إلى أضعاف هذه المساحة من التعبير ؛ ثم لا يبلغ ذلك شيئاً من هذا التصوير المدهش الفريد !

Marfat.com

إنها تبدأ بنداء الذين آمنوا - في سلسلة النداءات المتكررة للعصبة المسلمة في السورة - وتوجيههم إلى الثبات عند لقاء الأعداء ، وإلى التزود بزاد النصر ؛ والتأهب بأهبته .

« يا إيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين . ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط » . .

فهذه هي عوامل النصر الحقيقية : الثبات عند لقاء العدو . والاتصال بالله بالذكر . والطاعة لله والرسول . وتجنب النزاع والشقاق . والصبر على تكاليف المعركة . والحذر من البطر والرئاء والبغي . .

فأما الثبات فهو بدء الطريق إلى النصر . فأثبت الفريقين أغلبهما . وما يُدرى الذين آمنوا أن عدوهم يعانى أشد مما يعانون ؛ وأنه يألم كما يألمون ، ولكنه لا يرجو من الله ما يرجون ؛ فلا مدد له من رجاء في الله يثبت أقدامه وقلبه ! وأنهم لو ثبتوا لحظة أخرى فسينخذل عدوهم وينهار ؛ وما الذي يزلزل أقدام الذين آمنوا وهم واثقون من إحدى الحسنيين : الشهادة أو النصر ؟ بينما عدوهم لا يريد إلا الحياة الدنيا؟وهو حريص على هذه الحياة التي لا أمل له وراءها ولا حياة له بعدها ، ولا حياة له سواها ؟ !

وأما ذكر الله كثيرا عند لقاء الأعداء فهو التوجيه الدائم للمؤمن ؛ كما أنه التعليم المطرد الذي استقر في قلوب العصبة المؤمنة ، وحكاه عنها القرآن الكريم في تاريخ الأمة المسلمة في موكب الإيمان التاريخي .

ومما حكاه القرآن الكريم من قول سحرة فرعون عندما استسلمت قلوبهم للإيمان فجأة ، فواجههم فرعون بالتهديد المروع البشع الطاغي ، قولهم : « وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا . ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين » . .

ومما حكاه كذلك عن الفئة القليلة المؤمنة من بني إسرائيل ، وهي تواجه جالوت وجنوده : « ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » . .

Marfat.com

ومما حكاه عن الفئات المؤمنة على مدار التاريخ فى مواجهة المعركة : « وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين . وما كان قولهم إلا أن قالوا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا ، وثبت أقدامنا، وانصرنا على القوم الكافرين » . .

ولقد استقر هذا التعليم فى نفوس العصبة المسلمة ؛ فكان هذا شأنها حيثما واجهت عدوا . وقد حكى الله ـ فيما بعد ـ عن العصبة التى أصابها القرح فى « أحد » ؛ فلما دعيت إلى الخروج ثانى يوم ، كان هذا التعليم حاضرا فى نفوسها : « الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » . .

إن ذكر الله عند لقاء العدو يؤدى وظائف شتى : إنه الاتصال بالقوة التى لا تغلب ؛ والثقة بالله الذى ينصر أولياءه . . وهو فى الوقت ذاته استحضار حقيقة المعركة وبواعثها وأهدافها ، فهى معركة لله ، لتقرير ألوهيته فى الأرض ، وطرد الطواغيت المغتصبة لهذه الألوهية ؛ وإذن فهى معركة لتكون كلمة الله هى العليا ؛ لا للسيطرة ، ولا للمغنم ، ولا للاستعلاء الشخصى أو القومى . . كما أنه توكيد لهذا الواجب ـ واجب ذكر الله ـ فى أحرج الساعات وأشد المواقف . . وكلها إيحاءات ذات قيمة فى المعركة ؛ يحققها هذا التعليم الربانى .

وأما طاعة الله ورسوله ، فلكى يدخل المؤمنون المعركة مستسلمين لله ابتداء ؛ فتبطل أسباب النزاع التى أعقبت الأمر بالطاعة : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . . فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه ؛ وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذى يوجه الآراء والأفكار . فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسى للنزاع بينهم ـ مهما اختلفت وجهات النظر فى المسألة المعروضة ـ فليس الذى يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر ، إنما هو الهوى الذى يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها ! وإنما هو وضع « الذات » فى كفة ، والحق فى كفة ؛ وترجيح الذات على الحق ابتداء ! . . ومن ثم هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة . . إنه من عمليات « الضبط » التى لا بد منها فى المعركة . . إنها طاعة القيادة العليا فيها ، التى تنبثق منها طاعة الأمير الذى

Marfat.com

يقودها . وهى طاعة قلبية عميقة لا مجرد الطاعة التنظيمية فى الجيوش التى لا تجاهد لله ، ولا يقوم ولاؤها للقيادة على ولائها لله أصلا . . والمسافة كبيرة كبيرة . .

وأما الصبر . فهو الصفة التى لا بد منها لخوض المعركة . . أية معركة . . فى ميدان النفس أم فى ميدان القتال .

« واصبروا ، إن الله مع الصابرين » . .

وهذه المعية من الله هى الضمان للصابرين بالفوز والغلب والفلاح . .

ويبقى التعليم الأخير :

« ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، والله بما يعملون محيط » . .

يبقى هذا التعليم ليحمى العصبة المؤمنة من أن تخرج للقتال متبطرة طاغية تتعاجب بقوتها ! وتستخدم نعمة القوة التى أعطاها الله لها فى غير ما أرادها . . والعصبة المؤمنة إنما تخرج للقتال فى سبيل الله ؛ تخرج لتقرير ألوهيته سبحانه فى حياة البشر ، وتقرير عبودية العباد لله وحده . وتخرج لتحطيم الطواغيت التى تغتصب حق الله فى تعبيد العباد له وحده ، والتى تزاول الألوهية فى الأرض بمزاولتها للحاكمية ــ بغير إذن الله وشرعه ــ وتخرج لإعلان تحرير « الإنسان » فى « الأرض » من كل عبودية لغير الله ، تستذل إنسانية الإنسان وكرامته . وتخرج لحماية حرمات الناس وكراماتهم وحرياتهم ، لا للاستعلاء على الناس واستعبادهم والتبطر بنعمة القوة باستخدامها هذا الاستخدام المنكر . وتخرج متجردة من حظ نفسها فى المعركة جملة ، فلا يكون لها من النصر والغلب إلا تحقيق طاعة الله فى تلبية أمره بالجهاد ؛ وفى إقامة منهجه فى الحياة ؛ وفى إعلاء كلمته فى الأرض ؛ وفى التماس فضله بعد ذلك ورضاه . . حتى الغنائم التى تخلفها المعركة فهى من فضل الله . .

ولقد كانت صورة الخروج بطرا ورئاء الناس وصدا عن سبيل الله حاضرة أمام العصبة المسلمة ؛ يرونها فى خروج قريش بالصورة التى خرجت بها ؛ كما كانت صورة العاقبة لهذا الخروج حاضرة فيما أصاب قريشا التى خرجت فى ذلك اليوم بفخرها وعزها وكبريائها تحاد الله ورسوله : وعادت فى آخر اليوم بالذل والخيبة والانكسار والهزيمة . . وكان الله سبحانه يذكر العصبة المسلمة بشىء حاضر له وقعه وله إيحاؤه :

Marfat.com

« ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله . والله بما يعملون محيط » ..

والبطر والمراءاة والصد عن سبيل الله تتجلى كلها فى قولة أبى جهل ، وقد جاءه رسول أبى سفيان - بعد أن ساحل بالعير فنجت من رصد المسلمين - يطلب إليه الرجوع بالنفير ، إذ لم تعد بهم حاجة لقتال محمد وأصحابه. وكانت قريش قد خرجت بالقيان والدفوف يغنون وينحرون الجزر على مراحل الطريق . فقال أبو جهل : « لا والله لا نرجع حتى نرد بدرا ، فنقيم ثلاثا ، ننحر الجزر ، ونطعم الطعام ، ونشرب الخمر ،وتعزف القيان علينا ، فلن تزال العرب تهابنا أبدا ».. فلما عاد الرسول إلى أبى سفيان برد أبى جهل قال : « واقوماه ! هذا عمل عمرو ابن هشام (يعنى أبا جهل) كره أن يرجع ،لأنه ترأس على الناس فبغى ،والبغى منقصة وشؤم ، إن أصاب محمد النفير ذللنا » .. وصحت فراسة أبى سفيان ، وأصاب محمد - صلى الله عليه وسلم - النفير ؛ وذل المشركون بالبطر والبغى والرياء والصد عن سبيل الله ؛ وكانت بدر قاصمة الظهر لهم :

« والله بما يعملون محيط » ..

لا يفوته منهم شيء ، ولا يعجزه من قوتهم شيء ، وهو محيط بهم وبما يعملون .

ويمضى السياق يصور وسوسة الشيطان للمشركين وإغراءهم بهذا الخروج الذى نالهم منه ما نالهم من الذل والخيبة والخسار والانكسار :

« وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنى جار لكم . فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه ، وقال : إنى برىء منكم ، إنى أرى ما لا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد العقاب » ..

ولقد وردت فى هذه الآية والحادث الذى تشير إليه عدة آثار ؛ ليس من بينها حديث عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا ما رواه مالك فى الموطأ : حدثنا أحمد ابن الفرج ، قال : حدثنا عبد الملك ابن عبد العزيز ابن الماجشون ، قال: حدثنا مالك ، عن إبراهيم ابن أبى عبلة ، عن طلحة ابن عبيد الله ابن كريز :أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -قال : « ما رئى إبليس يوما

Marfat.com

هو فيه أصغر ولا أحقر ولا أدحر ولا أغيظ من يوم عرفة ، وذلك مما يرى من تنزيل الرحمة والعفو عن الذنوب ، إلا ما رأى يوم بدر ! قالوا : يارسول الله وما رأى يوم بدر ؟ قال : « أما إنه رأى جبريل يزع الملائكة » ..

وفي هذا الأثر عبد الملك ابن عبد العزيز ابن الماجشون ، وهو ضعيف الحديث ، والخبر مرسل .

فأما سائر الآثار فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ من طريق علي ابن أبي طلحة وطريق ابن جريج . وعن عروة ابن الزبير من طريق ابن إسحاق . وعن قتادة من طريق سعيد ابن جبير . وعن الحسن وعن محمد ابن كعب . وهذه أمثلة منها من رواية ابن جرير الطبري :

◆ حدثني المثنى ، قال : حدثنا عبد الله ابن صالح ، قال : حدثني معاوية عن علي ابن أبي طلحة ، عن ابن عباس قال : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه راية ، في صورة رجل من بني مدلج ، والشيطان في صورة سراقة ابن مالك ابن جعشم . فقال الشيطان للمشركين : « لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم » . . فلما اصطف الناس أخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين ، فولوا مدبرين . وأقبل جبريل إلى إبليس ، فلما رآه ، وكانت يده في يد رجل من المشركين ، انتزع إبليس يده فولى مدبرا هو وشيعته ، فقال الرجل : ياسراقة ، تزعم أنك لنا جار ؟ قال : « إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب » وذلك حين رأى الملائكة .

◆ حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة قال : قال ابن إسحاق : حدثني يزيد ابن رومان . عن عروة ابن الزبير قال : لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي بينها وبين بني بكر ـ يعني من الحرب ـ فكاد ذلك أن يثنيهم . فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة ابن مالك ابن جعشم المدلجي ، وكان من أشراف كنانة ، فقال : أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه . فخرجوا سراعا .

◆ حدثنا بشر ابن معاذ قال : حدثنا يزيد ، حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : « وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم » إلى قوله : « شديد العقاب » قال : ذكر لنا أنه رأى جبريل تنزل معه

Marfat.com

الملائـكة فزعم عدو الله أنه لايد له بالملائـكة ،وقال : « إنى أرى ما لا ترون إنى أخاف الله »..
وكذب والله عدو الله ، مابه مخافة الله ،ولـكن علم أن لا قوة له ولا منعة له ، وتلك عادة عدو
الله لمن أطاعه واستقاد له ، حتى إذا التقى الحق والباطل أسلمهم شر مسلم ، وتبرأ منهم
عنـد ذلك .

ونحن ـ على منهجنافى هذه الظلال ـ لا نتعرض لهذه الأمور الغيبية بتفصيل لم يرد به نص قرآنى
أو حديث نبوى صحيح متواتر . فهى من أمور الاعتقاد التى لا يلتزم فيها إلا بنص هذه درجته.
ولـكننا فى الوقت ذاته لا نقف موقف الإنـكار والرفض . .

وفى هذا الحادث نص قرآنى يثبت منه أن الشيطان زين للمشركين أعمالهم ، وشجعهم
على الخروج بإعلان إجارته لهم ونصرته إياهم ؛ وأنه بعد ذلك ـ لما تراءى الجمعان أى رأى
أحدهما الآخر ـ « نكص على عقبيه وقال : إنى أرى ما لا ترون ، إنى أخاف الله ، والله شديد
العقاب » . . فخذلهم وتركهم يلاقون مصيرهم وحدهم ، ولم يوف بعهده معهم . .

ولـكننا لا نعلم الـكيفية التى زين لهم بها أعمالهم ، والتى قال لهم بها : لا غالب لـكم اليوم
من الناس وإنى جار لـكم . والتى نـكص بها كذلك وقال ما قاله بعد ذلك . .

الـكيفية فقط هى التى لا نجزم بها . ذلك أن أمر الشيطان كله غيب ؛ ولا سبيل لنا
إلى الجزم بشىء فى أمره إلا فى حدود النص المسلم . والنص هنا لا يذكر الـكيفية إنما
يثبت الحادث . .

فإلى هنا ينتهى اجتهادنا . ولا نميل إلى المنهج الذى تتخذه مدرسة الشيخ محمد عبده فى
التفسير من محاولة تأويل كل أمر غيبى من هذا القبيل تأويلا معينا ينفى الحركة الحسية عن
هذه العوالم . وذلك كقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير الآية :

« وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال : لا غالب لـكم اليوم من الناس وإنى جار
لـكم » . . أى واذكر أيها الرسول المؤمنين ، إذ زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم
بوسوسته ، وقال لهم بما ألقاه فى هواجسهم : لا غالب لـكم اليوم من الناس ، لا أتباع محمد
الضعفاء ولا غيرهم من قبائل العرب ، فأنتم أعز نفرا وأكثر نفيرا وأعظم بأسا ، وإنى مع

Marfat.com

اهذ ــ أو والحال أنى ــ جار لكم . قال البيضاوى فى تفسيره : وأوهمهم أن اتباعهم إياه ، فيما يظنون أنها قربات ، مجير لهم ، حتى قالوا : اللهم انصر أهدى الفئتين وأفضل الدينين » .

« فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه » . . أى فلما قرب كل من الفريقين المتقاتلين من الآخر ، وصار بحيث يراه ويعرف حاله ، وقبل أن يلقاه فى المعركة ويصطلى نار القتال معه ، نكص : أى رجع القهقرى ، وتولى إلى الوراء ، وهو جهة العقبين (أى مؤخرى الرجلين) وأخطأ من قال من المفسرين : إن المراد بالترائى التلاقى ــ والمراد : أنه كف عن تزيينه لهم وتغريره إياهم ، فخرج الكلام مخرج التمثيل بتشبيه وسوسته بما ذكر بحال المقبل على الشيء ؛ وتركها بحال من ينكص عنه ويوليه دبره . ثم زاد على هذا ما يدل على براءته منهم ، وتركه إياهم وشأنهم وهو (وقال : إنى برىء منكم ، إنى أرى ما لا ترون ، إنى أخاف الله) أى تبرأ منهم وخاف عليهم ، وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله المسلمين بالملائكة (والله شديد العقاب) يجوز أن يكون هذا من كلامه ويجوز أن يكون مستأنفا » .

... « أقول : معنى هذا أن جند الشيطان الخبيث كانوا منبثين فى المشركين يوسوسون لهم بملابستهم لأرواحهم الخبيثة ما يغريهم ويغرهم ؛ كما كان الملائكة منبثين فى المؤمنين يلهمونهم بملابستهم لأرواحهم الطيبة ما يثبتون به قلوبهم ويزيدهم ثقة بوعد الله بنصرهم . . . »

وهذا الميل الظاهر إلى تفسير أفعال الملائكة بأنها مجرد ملابسة لأرواح المؤمنين ؛ وقد جزم فى موضع آخر بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر على الرغم من قول الله تعالى : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان » ــ وتفسير فعل الشيطان بأنه مجرد ملابسة لأرواح المشركين . . هو منهج تلك المدرسة بجملتها . . ومثله تفسير « الطير الأبابيل » بأنها ميكروبات الجدرى ! فى تفسير الشيخ محمد عبده لجزء عم . . هذا كله مبالغة فى تأويل هذه النصوص المتعلقة بأمور غيبية ؛ حيث لا ضرورة لهذا التأويل ، لأنه ليس هناك ما يمنع من الدلالة الصريحة للألفاظ فيها . . وكل ما ينبغى هو الوقوف وراء النصوص بلا تفصيلات لا تدل عليها دلالة صريحة . . وهو المنهج الذى اتخذناه فعلا(١) . .

(١) يراجع تفسيرنا لسورة الفيل وتعقيبنا على تفسير الشيخ محمد عبده لها فى الجزء الثلاثين من الظلال ص ٢٥٢ ــ ص ٢٥٦

Marfat.com

وبعد ، فإنه بينما كان الشيطان يخدع المشركين الذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله ، ويشجعهم على الخروج ، ثم يتركهم لمصيرهم البائس . . . كان المنافقون والذين فى قلوبهم ضعف ، يظنون بالعصبة المؤمنة الظنون ؛ وهم يرونها تواجه جحافل المشركين ، وهى قليلة العدد ضعيفة العدة ؛ ويرون ـ بقلوبهم المدخولة ونظرتهم إلى الظواهر المادية الخادعة ـ أن المؤمنين أوردوا أنفسهم موارد التهلكة ، مخدوعين بدينهم ، ظانين أنه ينصرهم أو يقيهم :

« إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : غر هؤلاء دينهم » . .

والمنافقون والذين فى قلوبهم مرض قيل : إنهم مجموعة من الذين مالوا إلى الإسلام فى مكة ـ ولكن لم تصح عقيدتهم ولم تطمئن قلوبهم ـ خرجوا مع النفير مزعزعين ، فلما رأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين قالوا هذه المقالة !

والمنافقون والذين فى قلوبهم مرض لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة ؛ فهم يرون ظواهر الأمور ، دون أن تهديهم بصيرة إلى بواطنها ؛ ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة فى العقيدة ، والثقة فى الله ، والتوكل عليه ، واستصغار شأن الجموع والقوى التى لا ترتكن إلى عقيدة فى الله تمنحها القوة الحقيقية .. فلا جرم يظنون المسلمين يومئذ مخدوعين فى موقفهم ، مغرورين بدينهم ، واردين موارد التهلكة بتعرضهم لجحافل المشركين التى يرونها !

إن الواقع المادى الظاهر لا يختلف من ناحية مظهره عند القلوب المؤمنة وعند القلوب الخاوية من الإيمان . ولكن الذى يختلف هو التقدير والتقويم لهذا الواقع المادى الظاهر.. فالقلوب الخاوية تراه ولا ترى شيئا وراءه ؛ والقلوب المؤمنة ترى ما وراءه من « الواقع » الحقيقى ! الواقع الذى يشمل جميع القوى ، ويوازن بينها موازنة صحيحة :

« ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » . .

هذا ما تدركه القلوب المؤمنة وتطمئن إليه ؛ وما هو محجوب عن القلوب الخاوية فلا

Marfat.com

تحسب حسابه ! وهذا ما يرجح الكفة ، ويقرر النتيجة ، ويفصل فى القضية فى نهاية المطاف فى كل زمان وفى كل مكان .

وقولة المنافقين والذين فى قلوبهم مرض ، عن العصبة المسلمة يوم بدر : « غر هؤلاء دينهم » . . هى قولة المنافقين والذين فى قلوبهم مرض كلما رأوا العصبة المسلمة تتعرض لجحافل الطاغوت فى عنفوانه ؛ وعدتها الأساسية التى تملكها هى هـذا الدين ؛ وهى هذه العقيدة الدافعة الدافقة ؛ وهى الغيرة على ألوهية الله وعلى حرمات الله ؛ وهى التوكل على الله والثقة بنصره لأوليائه .

إن المنافقين والذين فى قلوبهم مرض يقفون ليتفرجوا والعصبة المسلمة تصارع جحافل الطاغوت ، وفى نفوسهم سخرية من هذه العصبة التى تتصدى للخطر ، وتستخف بالخطر ! وفى نفوسهم عجب كذلك ودهشة من اقتحام العصبة المسلمة للمكاره الظاهرة ، وللأخطار الواضحة . . إنهم هم لا يعرفون مبررا لهذا التهور ــ كما يسمونه ــ وللإلقاء بالنفس إلى التهلكة ! . . إنهم يحسبون الحياة كلها ــ بما فيها الدين والعقيدة ــ صفقة فى سوق التجارة . إن كانت ظاهرة الربح أقدموا عليها ؛ فأما إذا كان الخطر فالسلامة أولى ! . . إنهم لا يدركون الأمور ببصيرة المؤمن ، ولا يزنون النتائج كذلك بميزان الإيمان . . إنها فى حس المؤمن وميزانه صفقة رابحة دائما ؛ فهى مؤدية إلى إحدى الحسنيين : النصر والغلب ، أو الشهادة والجنة . . ثم إن حساب القوى فى نفسه يختلف ؛ فهناك الله . . وهذ ما لا يدخل فى حساب المنافقين والذين فى قلوبهم مرض !

والعصبة المسلمة فى كل مكان وفى كل زمان مدعوة إلى أن تزن بميزان الإيمان والعقيدة ؛ وأن تدرك ببصيرة المؤمن وقلبه ، وأن ترى بنور الله وهداه ، وألا تتعاظمها قوى الطاغوت الظاهرة ، وألا تستهين بقوتها ووزنها فإن معها الله ، وأن تلقى بالها دائما إلى تعليم الله سبحانه للمؤمنين :

« ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم » . .

. . وصدق الله العظيم . .

Marfat.com

وأخيرا يعرض السياق القرآني مشهدا من مشاهد التدخل الإلهي في المعركة، والملأ الأعلى من الملائكة - بأمر الله وإذنه - يشارك في أخذ الذين كفروا بالتعذيب والتأنيب؛ والملائكة يقبضون أرواحهم في صورة منكرة، ويؤذونهم أذى مهينا - جزاء على البطر والاستكبار - ويذكرونهم في أشد اللحظات ضيقا وحرجا بسوء أعمالهم وبسوء مآلهم، جزاء وفاقا لا يظلمهم الله فيه شيئا .. ويقرر السياق في إثر عرض هذا المشهد أن أخذ الكفار بتكذيبهم سنة ماضية: «كدأب آل فرعون والذين من قبلهم» «ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» وأنه كذلك أخذ فرعون وملأه، وكذلك يأخذ كل من يفعل فعله ويشرك شركه:

«ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وذوقوا عذاب الحريق. ذلك بما قدمت أيديكم، وأن الله ليس بظلام للعبيد. كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله، فأخذهم الله بذنوبهم، إن الله قوي شديد العقاب. ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وأن الله سميع عليم. كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم، فأهلكناهم بذنوبهم، وأغرقنا آل فرعون. وكل كانوا ظالمين».

والآيتان الأوليان في هذا المقطع:

«ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم، وذوقوا عذاب الحريق، ذلك بما قدمت أيديكم، وأن الله ليس بظلام للعبيد» ..

قد تعنيان حال المشركين يوم بدر؛ والملائكة تشترك في المعركة - كما قال لهم الله سبحانه: «فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب» .. وإن كنا - كما قلنا عند استعراض هذا النص في الجزء التاسع - لا ندري كيف تضرب الملائكة فوق الأعناق وكل بنان. ولكن جهلنا بالكيفية لا يدعونا إلى تأويل هذا النص عن مدلوله الظاهر؛ وهو أن هناك أمرا من الله للملائكة بالضرب، وأن الملائكة «لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون»(١) .. وتكون هاتان الآيتان

(١) وليس كالذي قاله المرحوم السيد رشيد رضا من أنه ثبت أن الملائكة لم تشترك في المعركة يوم بدر إلا بمخالطة أرواح المؤمنين وتثبيتهم. فهذا مخالف لظاهر النص. والنص أولى بالاتباع.

Marfat.com

هنا تذكيرا بما كان يوم بدر ؛ وتكملة لحكاية فعل الملائكة فيه بالذين كفروا ..

كما أن هاتين الآيتين قد تعنيان حالة دائمة كلما توفت الملائكة الذين كفروا .. فى يوم بدر وفى غيره .. ويكون قوله تعالى : « ولو ترى » .. موجها توجيه الخطاب لكل من يرى ، كما يكثر مثل هذا الأسلوب فى التوجيه إلى المشاهد البارزة التى من شأنها أن يتوجه إليها كل من يرى ..

وسواء كان هذا أو ذاك . فالتعبير القرآنى يرسم صورة منكرة للذين كفروا ، والملائكة تستل منهم أرواحهم فى مشهد مهين ؛ يضيف المهانة والخزى ، إلى العذاب والموت :

« ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم » ..

ثم يتحول السياق من صيغة الخبر إلى صيغة الخطاب :

« وذوقوا عذاب الحريق » ..

ليرد المشهد حاضرا كأنه اللحظة مشهود ؛ وكأنما جهنم بنارها وحريقها فى المشهد وهم يدفعون إليها دفعا مع التأنيب والتهديد :

« ذلك بما قدمت أيديكم » ..

وأنتم إنما تلاقون جزاء عادلا ، تستحقونه بما قدمت أيديكم :

« وأن الله ليس بظلام للعبيد » ..

وهذا النص - بما يعرضه من مشهد « عذاب الحريق » - يثير فى النفس سؤالا : ترى هذا تهديد من الملائكة للذين كفروا بعذاب المستقبل المقرر لهم - كأنه واقع بهم - بعد البعث والحساب؟ أم إنهم يلاقون عذاب الحريق بمجرد توفيهم ؟ ..

وكلاهما جائز ، لا يمنع مانع من فهمه من النص القرآنى .. ولا نحب أن نزيد شيئا على هذا التقرير .. فهو أمر من أمور الغيب الذى استأثر الله بعلمه ؛ وليس علينا فيه إلا اليقين بوقوعه. وهو واقع ماله من دافع . أما موعده فعلم ذلك عند علام الغيوب .

وننتقل من هذه الوقفة الخاطفة ، مع السياق فى انتقاله إلى تقرير الحقيقة الكلية وراء هذا المشهد . . إن أخذ الذين كفروا بالمهانة والعذاب ، سنة ماضية لا تتخلف ولا تتبدل ؛ فهذا هو المصير المحتوم الذى جرت به السنة من قديم :

Marfat.com

« كدأب آل فرعون والذين من قبلهم ؛ كفروا بآيات الله ، فأخذهم الله بذنوبهم ، إن الله قوى شديد العقاب » ..

إن الله — سبحانه — لا يكل الناس إلى فلتات عابرة ، ولا إلى جزاف لا ضابط له .. إنما هي سنته يمضى بها قدره .. وما أصاب المشركين فى يوم بدر ، هو ما يصيب المشركين فى كل وقت ؛ وقد أصاب آل فرعون والذين من قبلهم :

« كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم » ..

ولم يعجزوه — سبحانه — ولم يتخلف عنهم عقابه :

« إن الله قوى شديد العقاب » .

ولقد آتاهم الله من نعمته ، ورزقهم من فضله ، ومكن لهم فى الأرض ، وجعلهم خلائف فيها .. وهذا كله إنما يعطيه الله للناس ابتلاء منه وامتحانا ، لينظر أيشكرون أم يكفرون ؟ ولكنهم كفروا ولم يشكروا ؛ وطغوا وبغوا بما أعطوا ، وغيرتهم النعمة والقوة فصاروا جبابرة وطواغيت كفرة فجرة .. وجاءتهم آيات الله فكفروا بها .. وعندئذ حقت عليهم سنة الله فى أخذ الكافرين بعد أن تبلغهم آياته فيكذبوا بها .. وعندئذ غير الله النعمة ، وأخذهم بالعذاب ، ودمر عليهم تدميرا :

« ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . وأن الله سميع عليم . كدأب آل فرعون والذين من قبلهم . كذبوا بآيات ربهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأغرقنا آل فرعون . وكل كانوا ظالمين » ..

لقد أهلكهم الله بعد التكذيب بآياته . ولم يهلكهم قبلها سبحانه — مع أنهم كانوا كافرين — لأن هذه سنته ورحمته : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » .. وهو يعبر هنا عن آل فرعون والذين من قبلهم من أمثالهم الذين كذبوا بآيات الله فأهلكهم .. بأنهم « كانوا ظالمين » .. مستخدما لفظ « الظلم » بمعنى « الكفر » أو « الشرك » وهذا هو الاستعمال الغالب فى القرآن ..

ولا بد أن نقف قليلا عند نص هذه الآية :

« ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ..

Marfat.com

إنه ، من جانب ، يقرر عدل الله فى معاملة العباد ؛ فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ، ويبدلوا سلوكهم ، ويقلبوا أوضاعهم ، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه للابتلاء والاختبار من النعمة التى لم يقدروها ولم يشكروها.. ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق الإنسانى أكبر تكريم ، حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجرى عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله؛ ويجعل التغيير القدرى فى حياة الناس مبنيا على التغيير الواقعى فى قلوبهم ونواياهم وسلوكهم وعملهم ، وأوضاعهم التى يختارونها لأنفسهم . . ومن الجانب الثالث يلقى تبعة عظيمة ـ تقابل التكريم العظيم ـ على هذا الكائن . فهو يملك أن يستبقى نعمة الله عليه ويملك أن يزاد عليها ، إذا هو عرف فشكر ؛ كما يملك أن يزيل هذه النعمة عنه إذا هو أنكر وبطر ، وانحرفت نواياه فانحرفت خطاه .

وهذه الحقيقة الكبيرة تمثل جانبا من جوانب « التصور الإسلامى لحقيقة الإنسان » ؛ وعلاقة قدر الله به فى هذا الوجود ؛ وعلاقته هو بهذا الكون وما يجرى فيه .. ومن هذا الجانب يتبين تقدير هذا الكائن فى ميزان الله ؛ وتكريمه بهذا التقدير ؛ كما تتبين فاعلية الإنسان فى مصير نفسه وفى مصير الأحداث من حوله ؛ فيبدو عنصرا إيجابيا فى صياغة هذا المصير ـ بإذن الله وقدره الذى يجرى من خلال حركته وعمله ونيته وسلوكه ـ وتنتفى عنه تلك السلبية الذليلة التى تفرضها عليه المذاهب المادية ، التى تصوره عنصرا سلبيا إزاء الحتميات الجبارة . حتمية الاقتصاد ، وحتمية التاريخ ، وحتمية التطور . . . إلى آخر الحتميات التى ليس للكائن الإنسانى إزاءها حول ولا قوة ، ولا يملك إلا الخضوع المطلق لما تفرضه عليه وهو ضائع خانع مذلول(١) !

كذلك تصور هذه الحقيقة ذلك التلازم بين العمل والجزاء فى حياة هذا الكائن ونشاطه ؛ وتصور عدل الله المطلق ، فى جعل هذا التلازم سنة من سننه يجرى بها قدره ، ولا يظلم فيها عبد من عبيده :

« وأن الله ليس بظلام للعبيد » . .

---

(١) يراجع فصل : « حقيقة الإنسان » فى القسم الثانى من كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » .

Marfat.com

« فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين » ..

« ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

.. والحمد لله رب العالمين ..

« إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ * فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ * وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوٓا ، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ * وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ، إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * وَإِن يُرِيدُوٓا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ، إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ، إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ * ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا

Marfat.com

مِائَتَيْنِ ، وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ .

« مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ، وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ، وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ : إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ؛ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ، وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ - إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ - وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ، وَأُو۟لُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ » .

Marfat.com

هذا الدرس الأخير من سورة الأنفال يتضمن الكثير من قواعد التعامل مع المعسكرات المتنوعة فى السلم والحرب ؛ والتنظيمات الداخلية للمجتمع الإسلامى وعلاقته بالمنظمات الخارجية؛ ونظرة الإسلام إلى العهود والمواثيق فى شتى الأحوال ؛ ونظرته كذلك إلى علاقات الدم والجنس والأرض وعلاقات العقيدة .

ومنه تتبين عدة قواعد وأحكام بعضها نهائى فى موضوعه ؛ وبعضها مرحلى كان يواجه أحوالا معينة واقعة، ثم أدخلت عليه التعديلات النهائية المستقرة فى سورة التوبة قرب نهاية العهد المدنى .

ومن بين هذه القواعد والأحكام حسب ورودها فى السياق القرآنى :

◆ أن الذين يعاهدون المعسكر الإسلامى، ثم يخلفون عهدهم معه هم شر الدواب .. ومن ثم ينبغى أن يؤدبهم المعسكر الإسلامى تأديبا يلحظ فيه الإرهاب الذى يشرد بهم ويشرد من وراءهم ممن تراودهم نية نقض العهد أو نية مهاجمة المعسكر الإسلامى .

◆ أن المعاهدين الذين تخشى القيادة الإسلامية منهم نقض العهد والخيانة ؛ فإن لهذه القيادة أن تنبذ إليهم عهدهم ، وتعلمهم بإلغائه . ومن ثم تصبح فى حل من قتالهم وتأديبهم وإرهاب من وراءهم من أمثالهم .

◆ أنه يجب على المعسكر الإسلامى إعداد العدة دائما واستكمال القوة بأقصى الحدود الممكنة؛ لتكون القوة المهتدية هى القوة العليا فى الأرض ؛ التى ترهبها جميع القوى المبطلة ؛ والتى تتسامع بها هذه القوى فى أرجاء الأرض ،فتهاب أولا أن تهاجم دار الإسلام ؛ وتستسلم كذلك لسلطان الله فلا تمنع داعية إلى الإسلام فى أرضها من الدعوة، ولا تصد أحدا من أهلها عن الاستجابة ،ولا تدعى حق الحاكمية وتعبيد الناس ، حتى يكون الدين كله لله .

◆ أنه إذا جنح فريق من غير المسلمين إلى مسالمة المعسكر الإسلامى وموادعته وعدم الوقوف فى وجهه فإن القيادة الإسلامية تقبل منهم المسالمة، وتعاهدهم عليها . فإن أضمروا الخديعة ولم يبد فى الظاهر ما يدل عليها ، ترك أمرهم إلى الله ، وهو يكفى المسلمين شر الخادعين .

◆ أن الجهاد فريضة على المسلمين حتى لو كان عدد أعدائهم أضعاف عددهم. وأنهم منصورون بعون الله على أعدائهم ، وأن الواحد منهم كفء لعشرة من الأعداء، وكفء لاثنين فى أضعف الحالات . وفريضة الجهاد إذن لا تنتظر تكافؤ القوى الظاهرة بين المؤمنين وعدوهم ؛ فحسب

Marfat.com

المؤمنين أن يعدوا مااستطاعوا من القوى ، وأن يثقوا بالله ، وأن يثبتوا فى المعركة ، ويصبروا عليها ؛ والبقية على الله . ذلك أنهم يملكون قوة أخرى غير القوى المادية الظاهرة ..

• أن المعسكر الإسلامى يجب أن يكون همه ابتداء القضاء على قوة الطاغوت بتحطيم كل أسباب القوة . فإذا كان أسر المقاتلين وفداؤهم لايحقق هذه الغاية ، فإن هذا الإجراء يستبعد.. ذلك أنه لايكون للرسل وأتباعهم أسرى إلا بعد أن يثخنوا فى الأرض ، فيدمروا قوة عدوهم ، ويستعلوا هم فى الأرض ويتمكنوا بقوتهم ؛ وعندئذ لايكون هناك من بأس فى أخذ الأسرى وفدائهم . أما قبل ذلك فالتقتيل فى المعركة أولى وأجدى .

• أن الغنائم حل للمسلمين فى المعركة من أموال المشركين . كما أحل لهم أن يأخذوا فدية الأسرى بعد أن يثخنوا فى الأرض ويتمكنوا فيها ويخضدوا شوكة عدوهم ويحطموها .

• أن الأسرى فى المعسكر المسلم ينبغى أن يرغبوا فى الإسلام . بوعد الله لهم أن يعطيهم خيرا مما أخذ منهم من الغنيمة أو الفداء . مع تحذيرهم من الخيانة ببأس الله الذى أمكن منهم أول مرة .

• أن آصرة التجمع فى المجتمع الإسلامى هى العقيدة ؛ ولكن الولاء فى هذا المجتمع لا يكون إلا على أساس العقيدة والتنظيم الحركى معا . فالذين آمنوا وهاجروا والذين آووا ونصروا بعضهم أولياء بعض. أما الذين آمنوا ولم يهاجروا إلى دار الإسلام، فلا ولاء بينهم وبين المعسكر المسلم فى دار الإسلام .. أى لاتناصر ولا تكافل .. ولاينصرهم المسلمون إلا إذ اعتدى عليهم فى عقيدتهم ؛ وكان هذا الاعتداء من قوم ليس بينهم وبين المسلمين عهد .

• أن قيام التجمع والولاء فى المجتمع المسلم على آصرة العقيدة والتنظيم الحركى ، لا يمنع أن يكون أولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ؛ فيكونوا أقرب فى الولاء ــ متى تحقق شرط العقدة وشرط التنظيم الحركى ــ فأما قرابة الرحم وحدها فلا تنشئ أولوية ولا ولاء إذا انفصمت رابطة العقيدة ورابطة التنظيم الحركى .

هذه ــ على وجه الإجمال ــ هى المبادئ والقواعد التى يتضمنها هذا الدرس ؛ وهى تمثل جملة

Marfat.com

صالحة من قواعد النظام الإسلامى الداخلى والخارجى.. وسنحاول أن نتناولها بشىء من التفصيل فى مواجهة النصوص القرآنية :

* * *

« إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة ، وهم لا يتقون . فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين . ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ، إنهم لا يعجزون . وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ،وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون . وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم . وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » ..

هذه الآيات كانت تواجه حالة قائمة بالفعل فى حياة الجماعة المسلمة ، عند نشأة الدولة المسلمة بالمدينة ؛ وتزود القيادة المسلمة بالأحكام التى تواجه بها هذه الحالة .

وهى تمثل إحدى قواعد العلاقات الخارجية بين المعسكر المسلم وما حوله من المعسكرات الأخرى ، ولم تدخل عليها إلا تكملات وتعديلات جانبية فيما بعد ؛ ولكنها ظلت إحدى القواعد الأساسية فى المعاملات الإسلامية الدولية .

إنها تقرر إمكان إقامة عهود تعايش بين المعسكرات المختلفة ؛ ما أمكن أن تصان هذه العهود من النكث بها ؛ مع إعطاء هذه العهود الاحترام الكامل والجدية الحقيقية . فأما إذا اتخذ الفريق الآخر هذه العهود ستارا يدبر من ورائه الخيانة والغدر ؛ ويستعد للمبادأة والشر ؛ فإن للقيادة المسلمة أن تنبذ هذه العهود ، وتعلن الفريق الآخر بهذا النبذ ؛ وتصبح مطلقة اليد فى اختيار وقت الضربة التالية للخائنين الغادرين .. على أن تكون هذه الضربة من العنف والشدة بحيث ترهب كل من تحدثه نفسه بالتعرض للمجتمع المسلم سرا أو جهرا ! .. فأما الذين يسالمون

Marfat.com

للمسكر الإسلامى ؛ ويريدون عدم التعرض للدعوة الإسلامية ، أو الحيلولة دون وصولها إلى كل سمع ؛ فإن للقيادة المسلمة أن توادعهم مادام ظاهرهم يدل على أنهم يجنحون إلى السلم ويريدونها(١) .

وهذه ــ كما هو ظاهر ــ مواجهة عملية واقعية لحالات عملية واقعية فى العلاقات بين المعسكرات المتجاورة ؛ لاترفض الموادعة ــ متى تحقق للدعوة الإسلامية الأمان الحقيقى وزوال العقبات المادية من طريقها وهى تتحرك لتبلغ الأسماع والقلوب ــ وفى الوقت ذاته لاتسمح أن تكون عهود الموادعة ستارا للأعداء ، وترسا يتترسون به لضرب المجتمع المسلم غيلة وغدرا .

أما الحالة الواقعة التى كانت هذه النصوص تواجهها فى مجتمع المدينة يومذاك ، فقد نشأت من الظروف التى واجهتها القيادة المسلمة فى أول العهد بالهجرة إلى المدينة ، والتى يلخصها الإمام ابن القيم فى زاد المعاد بقوله : « ولما قدم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام : قسم صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ولا يوالوا عليه عدوه ــ وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم ــ وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة . وقسم تاركوه فلم يصالحوه ولم يحاربوه ، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه .. ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره وانتصاره فى الباطن . ومنهم من كان يحب ظهور عدوه عليه وانتصارهم . ومنهم من دخل معه فى الظاهر ، وهو مع عدوه فى الباطن ليأمن الفريقين ، وهؤلاء هم المنافقون فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالى » ..

وكان من بين من صالحهم ووادعهم طوائف اليهود الثلاثة المقيمين حول المدينة ؛ وهم بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة . كما كان من بينهم قبائل من المشركين مجاورة للمدينة .

وظاهر أن هذه الأوضاع لم تكن إلا أوضاعا مؤقتة ، تواجه أحوالا واقعة ؛ ولم تكن أحكاما نهائية فى العلاقات الدولية الإسلامية ؛ وأنها عدلت فيما بعد بتعديلات متوالية ، حتى استقرت فى الأحكام التى نزلت فى سورة براءة ..

وهذه المراحل التى مرت بها هذه العلاقات سبق فى الجزء التاسع أن نقلنا لها تلخيصا

(١) ولقد نظمت هذه الحالات تنظيما نهائيا فيما بعد فى سورة التوبة .

Marfat.com

جيداً للإمام ابن القيم في زاد المعاد . ولا نرى بأساً من إعادة هذا التلخيص هنا لضرورته :

« فصل في ترتيب سياق هديه (صلى الله عليه وسلم) مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقي الله عز وجل .. أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربه الذي خلق . وذلك أول نبوته . فأمره أن يقرأ في نفسه ، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ . ثم أنزل عليه : « يا أيها المدثر . قم فأنذر » فنبأه بقوله : « اقرأ » وأرسله بـ « يا أيها المدثر » . ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين . ثم أنذر قومه . ثم أنذر من حولهم من العرب . ثم أنذر العرب قاطبة . ثم أنذر العالمين . فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ؛ ويؤمر بالكف والصبر والصفح . ثم أذن له في الهجرة وأذن له في القتال . ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله . ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله .. ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة .. فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد ، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد ، وأمر أن يقاتل من نقض عهده .. ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها : فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام . وأمره بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم . فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان . وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم .. وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام : قسماً أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم . وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم . وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه أو كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ، فإذا انسلخت قاتلهم .. فقتل الناقض لعهده ؛ وأجل من لا عهد له ، أو له عهد مطلق ، أربعة أشهر . وأمره أن يتم للموفي بعهده عهده إلى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم . وضرب على أهل الذمة الجزية ... إلخ » ..

ومن مراجعة هذا التلخيص الجيد ، ومراجعة أحداث السيرة ، وتاريخ نزول السور والآيات

Marfat.com

التي تتضمن هذه الأحكام ، يتبين لنا أن آيات سورة الأنفال التي نحن بصددها هنا ، تمثل مرحلة وسيطة بين ما كان عليه الحال أول العهد بالمدينة ، وما انتهى إليه الحال بعد نزول سورة براءة. ويجب أن تدرس هذه النصوص في ضوء هذه الاعتبارات . . ومع أنها تقرر بعض القواعد الأساسية ، إلا أنها لا تمثلها في صورتها النهائية . فالصورة النهائية تمثلها نصوص سورة براءة ، والتطبيقات العملية لها في أواخر حياة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما سيأتي ..

وفي ضوء هذا البيان نستطيع أن نواجه هذه النصوص القرآنية :

* * *

« إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون. الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون » ..

ولفظ « الدواب » وإن كان يشمل كل ما دب على الأرض ، فيشمل الأناسي فيما يشمل ، إلا أنه - كما أسلفنا - يلقي ظلا خاصا حين يطلق على الآدميين .. ظل البهيمة .. ثم يصبح هؤلاء الآدميون شر البهيمة التي تدب على الأرض ! وهؤلاء هم الذين كفروا حتى بلغ بهم الكفر ألا يصير حالهم إلى الإيمان ! وهم الذين ينقضون عهدهم في كل مرة ولا يتقون الله في مرة !

وقد وردت روايات متعددة في المقصودين بهذا النص .. قيل : إنهم بنو قريظة ، وقيل : إنهم بنو النضير . وقيل : إنهم بنو قينقاع. وقيل: إنهم الأعراب الذين كانوا حول المدينة من المشركين.. والنص والواقع التاريخي كلاهما يحتمل أن يكونوا هؤلاء جميعا . فلقد نقض اليهود عهودهم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طائفة طائفة ، كما أنه قد تكرر نقض المشركين لعهودهم أيضا.. والمهم أن نعلم أن هذه النصوص تتحدث عن حالة واقعة قبل بدر وبعدها ، إلى حين نزول هذه الآيات . ولكن الحكم الصادر فيها ، المصور لطبيعة الناقضين للعهد يصور حالة دائمة ، ويقرر صفة ثابتة ..

فهؤلاء الذين كفروا ولجوا في الكفر « فهم لا يؤمنون » . . فسدت بذلك فطرتهم ، وباتوا بذلك شر الدواب عند الله . هؤلاء الذين ينقضون كل عهد أبرموه ، فتجردوا بذلك من خصيصة

Marfat.com

إنسانية أخرى ـ خصيصة التقيد بالعهد ـ وانطلقوا من كل قيد ، كما تنطلق البهيمة ، لولا أن البهيمة مقيدة بضوابط فطرتها ، وهؤلاء لاضابط لهم . فهم بذلك شر الدواب عند الله !

هؤلاء الذين لايستطيع أحد أن يطمئن إلى عهدهم وجوارهم .. جزاؤهم هو حرمانهم الأمن كما حرموا غيرهم الأمن ؛ وجزاؤهم هو تخويفهم وتشريدهم ، والضرب على أيديهم بشدة لاترهبهم وحدهم ، إنما ترهب من يتسامع بهم ممن وراءهم من أمثالهم ، والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن بعده من المسلمين ، مأمورون ـ إذا التقوا بأمثال هؤلاء فى القتال ـ أن يصنعوا بهم ذلك الصنيع :

« فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون » ..

وإنه لتعبير عجيب ، يرسم صورة للأخذ المفزع ، والهول المرعب ، الذى يكفى السماع به للهرب والشرود . فما بال من يحل به هذا العذاب الرعيب ؟ إنها الضربة المروّعة يأمر الله تعالى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأخذ بها هؤلاء الذين مردوا على نقض العهد ، وانطلقوا من ضوابط الإنسان ، ليؤمن المعسكر الإسلامى أولا ، وليدمر هيبة الخارجين عليه أخيرا ؛ وليمنع كائنا من كان أن يجرؤ على التفكير فى الوقوف فى وجه المد الإسلامى من قريب أو من بعيد . .

إنها طبيعة هذا المنهج التى يجب أن تستقر صورتها فى قلوب العصبة المسلمة . إن هذا الدين لابد له من هيبة ، ولابد له من قوة ، ولابد له من سطوة ، ولابد له من الرعب الذى يزلزل الطواغيت حتى لاتقف للمد الإسلامى ، وهو ينطلق لتحرير « الإنسان » فى « الأرض » من كل طاغوت . والذين يتصورون أن منهج هذا الدين هو مجرد الدعوة والتبليغ ، فى وجه العقبات المادية من قوى الطاغوت ، هم ناس لايعرفون شيئا عن طبيعة هذا الدين !

وهذا هو الحكم الأول يتعلق بحالة نقض العهد فعلا مع المعسكر الإسلامى ؛ وما ينبغى أن يتبع فى ضرب الناقضين للعهد وإرهابهم وإرهاب من وراءهم بالضربة القاصمة المروعة الهائلة .

فأما الحكم الثانى فيتعلق بحالة الخوف من نقض العهد وتوقع الخيانة ؛ وذلك بظهور أفعال وأمارات تدل على أن القوم يهمون بنقض العهد فعلا :

Marfat.com

« وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء . إن الله لا يحب الخائنين » ..

إن الإسلام يعاهد ليصون عهده ؛ فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية؛ ولم يخن ولم يغدر ؛ ولم يغش ولم يخدع ؛ وصارح الآخرين بأنه نقض يده من عهدهم . فليس بينه وبينهم أمان .. وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة ، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة .. إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ ؛ ولا يروع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم .. فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة ، لأن كل خصم قد أخذ حذره ؛ فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير مغدور به إنما هو غافل ! وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة لأنها ليست غادرة !

إن الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع ؛ ويريد للبشرية أن تعف ؛ فلا يبيح الغدر في سبيل الغلب ؛ وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد ؛ ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة .

إن الإسلام يكره الخيانة ، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود ؛ ومن ثم لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة .. إن النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ ؛ ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة ، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة .. وليس مسلما من يبرر الوسيلة بالغاية ، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي والحساسية الإسلامية ، لأنه لا انفصال في تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات .. إن الشط المرع لا يغري المسلم بخوض بركة من الوحل ، فإن الشط المرع لا بد أن تلوثه الأقدام الملوثة في النهاية .. من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة :

« إن الله لا يحب الخائنين » .

ويجب أن نذكر أن هذه الأحكام كانت تتنزل والبشرية بجملتها لا تتطلع إلى مثل هذا الأفق المشرق . لقد كان قانون الغابة هو قانون المتحاربين حتى ذلك الزمان . قانون القوة التي لا تتقيد بقيد متى قدرت . ويجب أن نذكر كذلك أن قانون الغابة هو الذي ظل يحكم المجتمعات الجاهلية كلها بعد ذلك إلى القرن الثامن عشر الميلادي حيث لم تكن أوربا تعرف شيئا عن المعاملات

Marfat.com

الدولية إلا ما تقتبسه فى أثناء تعاملها مع العالم الإسلامى . ثم هى لم ترتفع قط حتى اللحظة إلى هذا الأفق فى عالم الواقع ؛ حتى بعد ما عرفت نظريا شيئا اسمه القانون الدولى ! وعلى الذين يبهرهم « التقدم الفنى فى صناعة القانون » أن يدركوا حقيقة « الواقع » بين الإسلام والنظم المعاصرة جميعا !

وفى مقابل هذه النصاعة وهذه النظافة يمد الله المسلمين النصر ، ويهوّن عليهم أمر الكفار والكفر !

« ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ، إنهم لايعجزون » ..

فتبييتهم الغدر والخيانة لن يمنحهم فرصة السبق ، لأن الله لن يترك المسلمين وحدهم ، ولن يفلت الخائنين لخيانتهم . والذين كفروا أضعف من أن يعجزوا الله حين يطلبهم ، وأضعف من أن يعجزوا المسلمين والله ناصرهم .

فليطمئن أصحاب الوسائل النظيفة — متى أخلصوا النية فيها لله — من أن يسبقهم أصحاب الوسائل الخسيسة . فإنما هم منصورون بالله الذى يحققون سنته فى الأرض ، ويعلون كلمته فى الناس ، وينطلقون باسمه . يجاهدون ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده بلا شريك .

ولكن الإسلام يتخذ للنصر عدته الواقعية التى تدخل فى طوق العصبة المسلمة ؛ فهو لا يعلق أبصارها بتلك الآفاق العالية إلا وقد أمن لها الأرض الصلبة التى تطمئن عليها أقدامها ؛ وهيأ لها الأسباب العملية التى تعرفها فطرتها وتؤيدها تجاربها ؛ وإلا إذا أعدها هى للحركة الواقعية التى تحقق هذه الغايات العلوية :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم . وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون » .

فالاستعداد بما فى الطوق فريضة تصاحب فريضة الجهاد ؛ والنص يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها ؛ ويخص « رباط الخيل » لأنه الأداة التى كانت بارزة عند من كان يخاطبهم بهذا القرآن أول مرة .. ولو أمرهم بإعداد أسباب لايعرفونها فى ذلك الحين مما سيجد مع الزمن لخاطبهم بمجهولات محيرة — تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا — والمهم هو عموم التوجيه :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ..

Marfat.com

إنه لابد للإسلام من قوة ينطلق بها في « الأرض » لتحرير « الإنسان » .. وأول ماتصنعه هذه القوة في حقل الدعوة : أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها؛ فلا يصدوا عنها ، ولايفتنوا كذلك بعد اعتناقها .. والأمر الثاني : أن ترهب أعداء هذا الدين فلا يفكروا في الاعتداء على « دار الإسلام » التي تحميها تلك القوة .. والأمر الثالث : أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لايفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي ، وهو ينطلق لتحرير « الإنسان» كله في « الأرض » كلها.. والأمر الرابع : أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية ، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها ؛ ولاتعترف بأن الألوهية لله وحده ؛ ومن ثم فالحاكمية له وحده سبحانه ..

إن الإسلام ليس نظاما لاهوتيا يتحقق بمجرد استقراره عقيدة في القلوب ، وتنظيما للشعائر ، ثم تنتهي مهمته ! إن الإسلام منهج عملي واقعي للحياة ؛ يواجه مناهج أخرى تقوم عليها سلطات وتقف وراءها قوى مادية . فلا مفر للإسلام – لإقرار منهجه الرباني – من تحطيم تلك القوى المادية، وتدمير السلطات التي تنفذ تلك المناهج الأخرى ، وتقاوم المنهج الرباني ..

وينبغي للمسلم ألا يتمتم ولا يجمجم وهو يعلن هذه الحقيقة الكبيرة .. ينبغي ألا يستشعر الخجل من طبيعة منهجه الرباني . ينبغي أن يذكر أن الإسلام حين ينطلق في الأرض إنما ينطلق لإعلان تحرير الإنسان بتقرير ألوهية الله وحده وتحطيم ألوهية العبيد ! إنه لاينطلق بمنهج من صنع البشر ؛ ولا لتقرير سلطان زعيم ، أو دولة ، أو طبقة، أو جنس ! إنه لاينطلق لاسترقاق العبيد ليفلحوا مزارع الأشراف كالرومان ؛ ولا لاستغلال الأسواق والخامات كالرأسمالية الغربية؛ ولا لفرض مذهب بشري من صنع بشر جاهل قاصر كالشيوعية وما إليها من المذاهب البشرية .. إنما ينطلق بمنهج من صنع الله العليم الحكيم الخبير البصير ؛ ولتقرير ألوهية الله وحده وسلطانه لتحرير « الإنسان » في « الأرض » من العبودية للعبيد ..

هذه هي الحقيقة الكبيرة التي يجب أن يدركها المهزومون الذين يقفون بالدين موقف الدفاع؛ وهم يتمتمون ويجمجمون للاعتذار عن المد الإسلامي ! والجهاد الإسلامي(١)

---

(١) تراجع بتوسع الرسالة القيمة بعنوان : « الجهاد في سبيل الله » للسيد أبي الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية في باكستان . كما يراجع ما كتبناه عن الجهاد في مقدمة سورة الأنفال ص ١٦٥ – ص ١٨٦ من الجزء التاسع .

Marfat.com

ويحسن أن نعرف حدود التكليف بإعداد القوة . فالنص يقول :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ..

فهي حدود الطاقة إلى أقصاها . بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها .

كذلك يشير النص إلى الغرض الأول من إعداد القوة :

« ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم » ..

فهو إلقاء الرعب والرهبة في قلوب أعداء الله الذين هم أعداء العصبة المسلمة في الأرض . الظاهرين منهم الذين يعلمهم المسلمون ؛ ومن وراءهم ممن لا يعرفونهم ، أو لم يجهروا لهم بالعداوة ، والله يعلم سرائرهم وحقائقهم . وهؤلاء ترهبهم قوة الإسلام ولو لم تمتد بالفعل إليهم . والمسلمون مكلفون أن يكونوا أقوياء ، وأن يحشدوا ما يستطيعون من أسباب القوة ليكونوا مرهوبين في الأرض ؛ ولتكون كلمة الله هي العليا ، وليكون الدين كله لله .

ولما كان إعداد العدة يقتضي أموالا ، وكان النظام الإسلامي كله يقوم على أساس التكافل ، فقد اقترنت الدعوة إلى الجهاد بالدعوة إلى إنفاق المال في سبيل الله :

« وما تنفقوا من شيء - في سبيل الله - يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » ..

وهكذا يجرد الإسلام الجهاد والنفقة في سبيله ، من كل غاية أرضية ، ومن كل دافع شخصي ؛ ومن كل شعور قومي أو طبقي ، ليتمحض خالصا لله « في سبيل الله » لتحقيق كلمة الله ، ابتغاء رضوان الله .

ومن ثم ينفي الإسلام من حسابه - منذ الوهلة الأولى - كل حرب تقوم على أمجاد الأشخاص والدول . وكل حرب تقوم للاستغلال وفتح الأسواق . وكل حرب تقوم للقهر والإذلال . وكل حرب تقوم لتسويد وطن على وطن ، أو قوم على قوم ، أو جنس على جنس ، أو طبقة على طبقة .. ويستبقي نوعا واحدا من الحركة .. حركة الجهاد في سبيل الله .. والله - سبحانه - لا يريد تسويد جنس ولا وطن ولا قوم ولا طبقة ولا فرد ولا شعب . إنما يريد أن تسود ألوهيته وسلطانه وحاكميته . وهو غني عن العالمين . ولكن سيادة ألوهيته هي وحدها التي تكفل الخير والبركة والحرية والكرامة للعالمين .

Marfat.com

والحكم الثالث فى هذه النصوص هو الحكم المتعلق بمن يريدون المهادنة والموادعة للمعسكر الإسلامى ؛ ويجنحون إلى السلم والمسالمة ؛ وتدل ظواهرهم وأفعالهم على رغبتهم فى السلم حقا :

« وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله . إنه هو السميع العليم » ..

والتعبير عن الميل إلى السلم بالجنوح ، تعبير لطيف ، يلقى ظل الدعة الرقيق . فهى حركة جناح يميل إلى جانب السلم ، ويرخى ريشه فى وداعة ! كما أن الأمر بالجنوح إلى السلم مصحوب بالتوكل على الله السميع العليم الذى يسمع ما يقال ويعلم ما وراءه من مخبآت السرائر . وفى التوكل عليه الكفاية والأمان .

وبالعودة إلى تلخيص الإمام ابن القيم لطوائف الكفار ومواقفهم من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وموقفه كذلك منهم ، أول العهد بالمدينة إلى يوم بدر ونزول هذا الحكم ، يتبين أن هذا النص يتعلق بالفريق الذى اعتزل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولم يقاتله ؛ وجنح إلى السلم ولم يظهر العداء والمقاومة للدعوة الإسلامية ، ولا للدولة المسلمة . وقد أمر الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يترك هذا الفريق ، وأن يقبل مهادنته ومسالمته (وذلك حتى نزلت براءة ونزل فيها إمهال من لم يكن له عهد ، أو كان له عهد غير مؤقت ، مدة أربعة أشهر ، يكون له بعدها حكم آخر بحسب موقفه) ومن ثم فهو ليس حكما نهائيا على إطلاقه الذى يؤخذ من نصه مجردا عن هذه الملابسات ، ومجردا كذلك عن النصوص التالية له فى الزمن ، وعن التصرفات الواقعية بعده لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن النص كان له نوع من العموم فى الحكم فى حينه . فقد عمل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – به – حتى نزلت سورة براءة – ومن عمله به كان صلح الحديبية فى السنة السادسة للهجرة ..

ولقد اتجه بعض الفقهاء إلى اعتبار الحكم نهائيا ودائما فسروا الجنوح إلى السلم بقبول أداء الجزية .. ولكن هذا لا يتفق مع الواقع التاريخى ؛ فإن أحكام الجزية نزلت فى سورة براءة بعد السنة الثامنة للهجرة ، وهذه الآية نزلت فى السنة الثانية بعد بدر ؛ ولم تكن أحكام الجزية موجودة . والأقرب إلى الصحة بمراجعة الأحداث وتواريخ النزول والطبيعة الحركية

Marfat.com

للمنهج الإسلامى ، أن يقال : إن هذا الحكم ليس نهائيا ؛ وأنه عدل أخيرا بالأحكام النهائية التى نزلت فى سورة براءة (التوبة) والتى انتهى بها الناس إلى أن يكونوا مع الإسلام : إما محاربين يحاربون. وإما مسلمين تحكمهم شريعة الله . وإما أهل ذمة يؤدون الجزية وهم على عهدهم ما استقاموا .. وهذه هى الأحكام النهائية التى تنتهى إليها حركة الجهاد الإسلامى . وكل ما عداها هو حالات واقعية يسعى الإسلام إلى تغييرها حتى تنتهى إلى هـذه الأوضاع الثلاثة التى تمثل العلاقات النهائية ، وهى العلاقات التى يمثلها الحديث الذى أخرجه مسلم ورواه الإمام أحمد :

قال أحمد : حدثنا وكيع ، حدثنا سفيان ، عن علقمة بن مرثد ، عن سليمان بن بريد ، عن أبيه ، عن بريد ابن الخطيب الأسلمى - رضى الله عنه - قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا بعث أميرا على سرية أو جيش أوصاه فى خاصة نفسه بتقوى الله ، وبمن معه من المسلمين خيرا ، وقال : « اغزوا باسم الله . فى سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال ، أو خلال ، فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم، وكف عنهم . ادعهم إلى الإسلام. فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين . فإن أبوا واختاروا دارهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ، ولا يكون لهم فى الفىء والغنيمة نصيب ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية . فإن أجابوا فاقبل منهم وكف عنهم . فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم » . .

والمشكل فى هذا الحديث هو ذكر الهجرة ودار المهاجرين ، مع ذكر الجزية .. والجزية لم تفرض إلا بعد الفتح ؛ وبعد الفتح لم تعد هجرة (بالقياس إلى الجماعة المسلمة الأولى التى انتهت إلى دار إسلام وفتح وتمكن) والثابت أن الجزية لم تفرض إلا بعد السنة الثامنة ؛ وأنها من ثم لم تؤخذ من المشركين العرب لأنهم أسلموا قبل نزول الجزية . فقبلت بعد ذلك من أمثالهم من المشركين المجوس ، وهم مثلهم فى الشرك ؛ ولو نزلت أحكام الجزية وفى الجزيرة مشركون لقبلت منهم كما يقرر الإمام ابن القيم . وهو فيما ذكر قول أبى حنيفة وأحد قولى الإمام أحمد (أما القرطبى فقد روى هذا القول عن الأوزاعى ومالك ، وروى غيره عن أبى حنيفة) :

وعلى أية حال فالذى ننتهى إليه ، أن قول الله تعالى :

Marfat.com

« وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم » ..

لايتضمن حكما مطلقا نهائيا فى الباب ، وأن الأحكام النهائية نزلت فيما بعد فى سورة براءة . إنما أمر الله رسوله أن يقبل مسالمة وموادعة ذلك الفريق الذى اعتزله فلم يقاتله سواء كان قد تعاهد ، أو لم يتعاهد معه حتى ذلك الحين . وأنه ظل يقبل السلم من الكفار وأهل الكتاب حتى نزلت أحكام سورة براءة . فلم يعد يقبل إلا الإسلام أو الجزية ــ وهذه هى حالة المسالمة التى تقبل مااستقام أصحابها على عهدهم ــ أو هو القتال مااستطاع المسلمون هذا ؛ ليكون الدين كله لله .

ولقد استطردت ــ بعض الشىء ــ فى هذا البيان وذلك لجلاء الشبهة الناشئة من الهزيمة الروحية والعقلية التى يعانيها الكثيرون ممن يكتبون عن « الجهاد فى الإسلام » ؛ فيثقل ضغط الواقع الحاضر على أرواحهم وعقولهم ؛ ويستكثرون على دينهم ــ الذى لايدركون حقيقته ــ أن يكون منهجه الثابت هو مواجهة البشرية كلها بواحدة من ثلاث : الإسلام ، أو الجزية ، أو القتال ، وهم يرون القوى الجاهلية كلها تحارب الإسلام وتناهضه ؛ وأهله ــ الذين ينتسبون إليه وهم لايدركون حقيقته ولا يشعرون بها شعورا جديا ــ ضعاف أمام جحافل أتباع الديانات والمذاهب الأخرى ؛ كما يرون طلائع العصبة المسلمة الحقة قلة بل ندرة ؛ ولاحول لهم فى الأرض ولا قوة .. وعندئذ يعمد أولئك الكتاب إلى لَىِّ أعناق النصوص ليؤولوها تأويلا يتمشى مع ضغط الواقع وثقله ؛ ويستكثرون على دينهم أن يكون هذا منهجه وخطته !

إنهم يعمدون إلى النصوص المرحلية . فيجعلون منها نصوصا نهائية ؛ وإلى النصوص المقيدة بحالات خاصة ، فيجعلون منها نصوصا مطلقة الدلالة ؛ حتى إذا وصلوا إلى النصوص النهائية المطلقة أولوها وفق النصوص المقيدة المرحلية ! وذلك كله كى يصلوا إلى أن الجهاد فى الإسلام هو مجرد عملية دفاع عن أشخاص المسلمين ، وعن دار الإسلام عندما تهاجم ! وأن الإسلام يتهالك على أى عرض للمسالمة . والمسالمة معناها مجرد الكف عن مهاجمة دار الإسلام ! إن الإسلام ــ فى حسهم ــ يتقوقع ، أو يجب أن يتقوقع داخل حدوده ــ فى كل وقت ــ وليس له الحق أن يطالب الآخرين باعتناقه ، ولا بالخضوع لمنهج الله ، اللهم إلا بكلمة أو نشرة أو بيان ! أما القوة

Marfat.com

المادية ـ الممثلة فى سلطان الجاهلية على الناس ـ فليس للإسلام أن يهاجمها إلا أن تهاجمه ، فيتحرك حينئذ للدفاع !

ولو أراد هؤلاء المهزومون روحيا وعقليا أمام ضغط الواقع الحاضر ، أن يلتمسوا فى أحكام دينهم ما يواجه هذا الواقع ـ دون لىّ لأعناق النصوص ـ لوجدوا فيه هذه الواقعية الحركية فى أحكامه وتصرفاته المرحلية التى كان يواجه بها ضغط الواقع المشابه لما نواجهه نحن اليوم ؛ ولاستطاعوا أن يقولوا : إنه فى مثل هذه الحال كان الإسلام يتصرف على هذا النحو ، ولكن هذه ليست هى القواعد الدائمة ؛ إنما هى الأحكام والتصرفات التى تواجه الضرورة .

وهذه أمثلة ونماذج من الأحكام والتصرفات المرحلية فى أوقات الضرورات :

◆ لقد عقد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أول مقدمه المدينة مع اليهود حول المدينة والمشركين عهدا على المسالمة والموادعة والدفاع المشترك عن المدينة . مع التسليم بأن السلطة العليا فى المدينة هى سلطة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتعهد منهم بالدفاع عن المدينة معه ضد قريش ، والكف عن مناصرة أى مهاجم للمدينة ، أو عقد أى حلف مع المشركين المحاربين دون إذن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفى الوقت ذاته أمره الله أن يقبل السلم ممن يجنحون إلى السلم ، وإن كانوا لا يعقدون معه عهدا ، وأن يوادعهم ما وادعوه ... ثم تغير هذا كله فيما بعد كما ذكرنا .

◆ ولما كانت غزوة الخندق ؛ وتجمع المشركون على المدينة ؛ ونقضت بنو قريظة العهد ؛ وخاف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على المسلمين ؛ عرض على عيينة ابن حصن الفزارى ، والحارث ابن عوف المرى رئيس غطفان الصلح على ثلث ثمار المدينة ، وأن ينصرفا بقومهما ويدعا قريشا وحدها . وكانت هذه المقالة من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهما مراوضة ولم تكن عقدا . فلما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهما أنهما قد رضيا ، استشار سعد ابن معاذ وسعد ابن عبادة فقالا : يارسول الله ، هذا أمر تحبه فنصنعه لك ؟ أو شىء أمرك الله به فنسمع له ونطيع ؟ أو أمر تصنعه لنا ؟ فقال : « بل أمر أصنعه لكم ، فإن العرب قد رمتكم عن قوس واحدة » فقال له سعد ابن معاذ : يارسول الله ، والله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك

Marfat.com

وعبادة الأوثان ، ولا نعبد الله ولا نعرفه ، وما طمعوا قط أن ينالوا منا ثمرة ، إلا شراء أو قِرى . فحين أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك ، نعطيهم أموالنا ! والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم . . فسر بذلك رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقال : « أنتم وذاك » وقال لعيينة والحارث : « انصرفا ، فليس لكما عندنا إلا السيف » . . فهذا الذي فكر فيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إجراء لمواجهة الضرورة . . وليس حكما نهائيا . .

◆ وعقد رسول الله مع مشركي قريش صلح الحديبية – وهم على شركهم – بشروط لم يسترح إليها المسلمون ، وذلك على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين ، وأن يأمن الناس بعضهم من بعض ، وأن يرجع عنهم عامه ذلك ، حتى إذا كان العام المقبل قدمها وخلوا بينه وبين مكة فأقام بها ثلاثا ، وألا يدخلها إلا بسلاح الراكب والسيوف في القرب ، وأن من أتى المشركين من أصحاب النبي لم يردوه ، ومن أتاه من أصحاب المشركين رده ... وقد رضي رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بما ألهمه الله – هذه الشروط ، التي تبدو في ظاهرها مجحفة ، لأمر يريده الله ألهم به رسوله . . وفيها متسع – على كل حال – لمواجهة الظروف المشابهة ، تتصرف من خلاله القيادة المسلمة . .

إن المنهج الحركي لهذا الدين يواجه الواقع دائما بوسائل مكافئة ، وهو منهج متحرك مرن ، ولكنه متين واضح ، والذين يلتمسون فيه مايواجهون به الواقع في كل حالة لن يضطروا إلى ليّ أعناق النصوص وتأويلها تأويلات تأباها ! وإنما المطلوب هو تقوى الله ، والتحرج من تطويع دينه لواقع الشر الجاهلي ، والهزيمة به والوقوف به موقف الدفاع ، وهو دين مسيطر حاكم ، يلبي – وهو في مركز الاستعلاء والمبادأة – كل حاجات الواقع وضروراته والحمد لله . .

وعندما أمر الله تعالى رسوله – صلى الله عليه وسلم – أن يقبل موادعة من وادعوه ، وأن يجنح للسلم معهم متى جنحوا إليه ؛ وجهه إلى التوكل عليه ، وطمأنه إلى إحاطته سبحانه بسرائر القوم المخبوءة :

« وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم » . .

Marfat.com

ثم أمنه من خداعهم ، إن هم أرادوا خيانته ، وبيتوا الغدر من وراء الجنوح إلى السلم . وقال له : إن الله حسبه وكافيه وحافظه ؛ وهو الذى أيده بنصره ـ فى بدر ـ وأيده بالمؤمنين وجمع قلوبهم على الود والإخاء فى الإسلام ؛ وكانت عصية على التآلف ، لا يملك تأليفها إلا الله القدير الحكيم :

« وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت مافى الأرض جميعا ماألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم » ..

حسبك الله ، فهو كافيك .. وهو الذى أيدك بنصره أول مرة ، وأيدك بالمؤمنين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه ؛ وجعل منهم قوة موحدة ، بعد أن كانت قلوبهم شتى ، وعداواتهم جاهرة وبأسهم بينهم شديدا . سواء كان المقصود هم الأوس والخزرج ـ وهم الأنصار ـ فقد كان بينهم فى الجاهلية من الثارات والدماء والمنازعات ما يستحيل معه الالتئام فضلا على هذا الإخاء الذى لم تعرف له الأرض نظيرا ولا شبيها . أو كان المقصود هم المهاجرون ، وهم كانوا كالأنصار فى الجاهلية .. أو كان الجميع مقصودين ، فقد كانت هذه هى حالة عرب الجزيرة جميعا !

ولقد وقعت المعجزة التى لا يقدر عليها إلا الله ؛ والتى لا تصنعها إلا هذه العقيدة ؛ فاستحالت هذه القلوب النافرة ، وهذه الطباع الشموس ، إلى هذه الكتلة المتراصة المتآخية الذلول بعضها لبعض ، المحب بعضها لبعض ، المتآلف بعضها مع بعض ، بهذا المستوى الذى لم يعرفه التاريخ ؛ والذى تتمثل فيه حياة الجنة وسمتها البارزة ـ أو يمهد لحياة الجنة وسمتها البارزة ـ : « ونزعنا ما فى قلوبهم من غل إخوانا على سرر متقابلين » .

إن هذه العقيدة عجيبة فعلا . إنها حين تخالط القلوب ، تستحيل إلى مزاج من الحب والألفة ومودات القلوب ، التى تلين جاسيها ، وترقق حواشيها ، وتندى جفافها ، وتربط بينها برباط وثيق عميق رفيق . فإذا نظرة العين ، ولمسة اليد ، ونطق الجارحة ، وخفقة القلب ، ترانيم من التعارف والتعاطف ، والولاء والتناصر ، والسماحة

Marfat.com

والمودة ، لا يعرف سرها إلا من ألف بين هذه القلوب ؛ ولاتعرف مذاقها إلا هذه القلوب !

وهذه العقيدة تهتف للبشرية بنداء الحب في الله ؛ وتوقع على أوتارها ألحان الخلوص له والالتقاء عليه ، فإذا استجابت وقعت تلك المعجزة التي لايدري سرها إلا الله ، ولا يقدر عليها إلا الله .

يقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « إن من عباد الله لأناسا ماهم بأنبياء ولاشهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى » قالوا : يارسول الله تخبرنا من هم . قال : « هم قوم تحابوا بروح الله بينهم ، على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، والله إن وجوههم لنور وإنهم لعلى نور . لا يخافون إذا خاف الناس ، ولايحزنون إذا حزن الناس »... (أخرجه أبو داود) .

ويقول – صلى الله عليه وسلم – : « إن المسلم إذا لقي أخاه المسلم ،فأخذ بيده تحاتت عنهماذنوبهما كاتتحات الورق عن الشجرة اليابسة في يوم ريح عاصف . وإلاغفر لهما ذنوبهماولو كانت مثل زبد البحار ».. (رواه الطبراني)

وتتوارد أقوال الرسول تترى في هذا الباب ؛ وتشهد أعماله بأصالة هذا العنصر في رسالته عليه الصلاة والسلام ؛ كما تشهد الأمة التي بناها على الحب أنها لم تكن مجرد كلمات مجنحة ، ولا مجرد أعمال مثالية فردية ؛ إنما كانت واقعا شامخا قام على هذا الأساس الثابت ، بإذن الله ، الذي لا يقدر على تأليف القلوب هكذا سواه .

* * *

بعد ذلك يمضي السياق يطمئن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والعصبة المسلمة من ورائه، إلى ولاية الله – سبحانه – له ولها ؛ وهو حسبه وحسبها ؛ ثم يأمره بتحريض المؤمنين على القتال في سبيل الله ؛ فهم أكفاء لعشرة أمثالهم ممن لايفقهون فقههم ؛ وهم على الأقل أكفاء لمثليهم في أضعف الحالات :

« ياأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين . ياأيها النبي حرض المؤمنين على القتال»

Marfat.com

إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا، بأنهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم ، وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين » ..

ويقف الفكر ليستعرض القوة التي لا راد لها ، ولا معقب عليها — قوة الله القوى العزيز — وأمامها تلك القوة الضئيلة العاجزة الهزيلة — التي تتصدى لكتائب الله — فإذا الفرق شاسع ، والبون بعيد . وإذا هي معركة مضمونة العاقبة ، معروفة النهاية ، مقررة المصير .. وهذا كله يتضمنه قوله تعالى :

« يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » ..

ومن ثم يأتي الأمر بتحريض المؤمنين على القتال — في سبيل الله — وقد تهيأت كل نفس ، واستعد كل قلب وشد كل عصب ، وتحفز كل عرق ؛ وانسكبت في القلوب الطمأنينة والثقة واليقين :

« يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال » ..

حرضهم وهم لعدوهم وعدو الله كفء ، وإن قل عددهم وكثر أعداؤهم وأعداء الله حولهم :

« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفا من الذين كفروا » ..

فأما تعليل هذا التفاوت فهو تعليل مفاجئ عجيب . ولكنه صادق عميق :

« بأنهم قوم لا يفقهون » ..

فما صلة الفقه بالغلب في ظاهر الأمر ؟ ولكنها صلة حقيقية ، وصلة قوية .. إن الفئة المؤمنة إنما تمتاز بأنها تعرف طريقها ، وتفقه منهجها ، وتدرك حقيقة وجودها وحقيقة غايتها .. إنها تفقه حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ؛ فتفقه أن الألوهية لا بد أن تتفرد وتستعلى ، وأن العبودية يجب أن تكون لله وحده بلا شريك . وتفقه أنها هي — الأمة المسلمة — المهتدية بهدى الله ، المنطلقة في الأرض بإذن الله لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ؛ وأنها هي المستخلفة عن الله في الأرض ؛ الممكنة فيها لا لتستعلى هي وتستمتع ؛ ولكن لتعلى كلمة الله

Marfat.com

وتجاهد فى سبيل الله ؛ ولتعمر الأرض بالحق ؛ وتحكم بين الناس بالقسط ؛ وتقيم فى الأرض مملكة الله التى تقوم على العدل بين الناس .. وكل ذلك فقه يسكب فى قلوب العصبة المسلمة النور والثقة والقوة واليقين ؛ ويدفع بها إلى الجهاد فى سبيل الله فى قوة وفى طمأنينة للعاقبة تضاعف القوة . بينما أعداؤها « قوم لا يفقهون » . قلوبهم مغلقة ، وبصائرهم مطموسة ؛ وقوتهم كليلة عاجزة مهما تكن متفوقة ظاهرة . إنها قوة منقطعة معزولة عن الأصل الكبير !

وهذه النسبة .. واحد لعشرة .. هى الأصل فى ميزان القوى بين المؤمنين الذين يفقهون والكافرين الذين لايفقهون .. وحتى فى أضعف حالات المسلمين الصابرين فإن هذه النسبةهى: واحد لاثنين :

« الآن خفف اللهعنكم وعلم أن فيكمضعفا ، فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، والله مع الصابرين » ..

وقد فهم بعض المفسرين والفقهاء أن هذه الآيات تتضمن أمراً للذين آمنوا ألا يفر الواحد منهم من عشرة فى حالة القوة ، وألا يفر الواحد من اثنين فى حالة الضعف .. وهناك خلافات فرعية كثيرة لا ندخل نحن فيها .. فالراجح عندنا أن الآيات إنما تتضمن حقيقة فى تقدير قوة المؤمنين فى مواجهة عدوهم فى ميزان الله وهو الحق ؛ وأنها تعريف للمؤمنين بهذه الحقيقة لتطمئن قلوبهم ، وتثبت أقدامهم ؛ وليست أحكاما تشريعية - فيما نرجح - والله أعلم بما يريد .

* * *

ومن التحريض على القتال ينتقل السياق إلى بيان حكم الأسرى - بمناسبة تصرف الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين فى أسرى بدر - وإلى الحديث إلى هؤلاء الأسرى وترغيبهم فى الإيمان وما وراءه من حسن العوض عما فاتهم وعما لحقهم من الخسارة فى الموقعة :

« وما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ، تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة ، والله عزيز حكيم . لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم . فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ، واتقوا الله ، إن الله غفور رحيم .

« ياأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى : إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً يؤتكم خيرا مما

Marfat.com

أخذ منكم ويغفر لكم ، والله غفور رحيم . وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ، والله عليم حكيم » . .

قال ابن إسحاق - وهو يقص أخبار الغزوة - : « فلما وضع القوم أيديهم يأسرون ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى العريش ، وسعد ابن معاذ قائم على باب العريش الذى فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متوشحا السيف فى نفر من الأنصار يحرسون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخافون عليه كرة العدو ، ورأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما ذكر لى ، فى وجه سعد الكراهية لما يصنع الناس ، فقال له رسول الله - صلى الله - عليه وسلم - : « والله لكأنك ياسعد تكره مايصنع القوم ! » قال : أجل والله يارسول الله . كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك ، فكان الإثخان فى القتل أحب إلىّ من استبقاء الرجال !

وروى الإمام أحمد - بإسناده - عن ابن عباس عن عمر رضى الله عنهم - قال : لما كان يومئذ التقوا ، فهزم الله المشركين ، فقتل منهم سبعون رجلا وأسر منهم سبعون رجلا ، واستشار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبا بكر وعمر وعليا . فقال أبو بكر : يارسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ؛ وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « ماترى ياابن الخطاب ؟ » قال قلت : والله ماأرى رأى أبى بكر ، ولكنى أرى أن تمكنى من فلان - قريب لعمر - فأضرب عنقه ، وتمكن عليا من عقيل (ابن أبى طالب) فيضرب عنقه ، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه ، حتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين ، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم ! . . فهوى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ماقال أبو بكر ولم يهو ماقلت ، وأخذ منهم الفداء . . فلما كان من الغد - قال عمر - فغدوت إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وأبى بكر وهما يبكيان . فقلت : مايبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد تباكيت لبكائكما ! قال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « للذى عرض على أصحابك من أخذهم الفداء . لقد عرض علىّ عذابكم

Marfat.com

أدنى من هـذه الشجرة ـ لشجرة قريبة من النبي صلى الله عليه وسلم ـ وأنزل الله عز وجل : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » إلى قوله :« فـكلوا مما غنمتم حلالا طيبا » فأحل لهم الغنائم . . . ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وابن جرير وابن مردويه من طرق عن عكرمة ابن عمار اليمانى .

وقال الإمام أحمد : حدثنا على ابن هاشم ، عن حميد ، عن أنس ـ رضى الله عنه ـ قال : استشار النبي صلى الله عليـه وسلم الناس فى الأسارى يوم بدر ، فقال : « إن الله قد أمكنـكم منهم » فقام عمر ابن الخطاب فقال : يارسول الله اضرب أعناقهم . فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : « ياأيها الناس إن الله قد أمكنـكم منهم وإنما هم إخوانـكم بالأمس » فقام عمر فقال : يارسول الله ، اضرب أعناقهم . فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال للناس مثل ذلك . فقام أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال : يارسول الله نرى أن تعفو عنهم وأن تقبل منهم الفداء . قال : فذهب عن وجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما كان فيـه من الغم ، فعفا عنهم وقبل منهم الفداء . قال : وأنزل الله عز وجل : « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » . .

وقال الأعمش ، عن عمر ابن مرة ، عن أبى عبيدة ، عن عبد الله ، قال : لما كان يوم بدر قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ماتقولون فى الأسارى ؟ » فقال أبو بكر يارسول الله ، قومك وأهلك ، استبقهم واستتبهم لعل الله أن يتوب عليهم . . وقال عمر : يارسول الله ، كذبوك وأخرجوك فقدمهم فاضرب أعناقهم . . وقال عبد الله ابن رواحة : يارسول الله أنت فى واد كثير الحطب ، فأضرم الوادى عليهم نارا ثم ألقهم فيه ! فسكت رسول الله ـ صلى الله علية وسلم ـ فلم يرد عليهم شيئا . ثم قام فدخل . فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر . وقال ناس : يأخذ بقول عمر . وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله ابن رواحة . ثم خرج عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تـكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك ياأبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال : « فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم » وإن مثلك ياأبا بكر كمثل عيسى عليه السلام قال : « إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت

Marfat.com

العزيز الحكيم » . وإن مثلك ياعمر كمثل موسى عليه السلام قال : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » . وإن مثلك ياعمر كمثل نوح عليه السلام قال : « رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا » . أنتم عالة فلا ينفكن أحد منهم إلا بفداء أو ضربة عنق » . قال ابن مسعود : قلت : يارسول الله ، إلا سهيل ابن بيضاء فإنه يذكر الإسلام ! فسكت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما رأيتني فى يوم أخوف من أن تقع علىّ حجارة من السماء منى فى ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إلاسهيل ابن بيضاء » . فأنزل الله عز وجل : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض . . .) إلى آخر الآية . . . (رواه الإمام أحمد والترمذى من حديث أبى معاوية عن الأعمش به ، والحاكم فى مستدركه وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه) .

والإثخان المقصود : التقتيل حتى تضعف شوكة المشركين وتشتد شوكة المسلمين ، وهذا ما كان ينبغى قبل أن يكون للنبي والمسلمين أسرى يستبقونهم ويطلقونهم بالفدية كما حدث فى بدر . فعاتب الله المسلمين فيه .

لقد كانت غزوة بدر هى المعركة الأولى بين المسلمين والمشركين . وكان المسلمون مايزالون قلة والمشركون مايزالون كثرة . وكان نقص عدد المحاربين من المشركين مما يكسر شوكتهم ويذل كبرياءهم ويعجزهم عن معاودة الكرة على المسلمين . وكان هذا هدفا كبيرا لايعدله المال الذى يأخذونه مهما يكونوا فقراء .

وكان هنالك معنى آخر يراد تقريره فى النفوس وتثبيته فى القلوب . . ذلك هو المعنى الكبير الذى عبر عنه عمر رضى الله عنه فى صرامة ونصاعة وهو يقول : « وحتى يعلم الله أن ليس فى قلوبنا هوادة للمشركين » . .

لهذين السببين البارزين نحسب ـ والله أعلم ـ أن الله ـ سبحانه ـ كره للمسلمين أن يأخذوا الأسرى يوم بدر وأن يفادوهم بمال . ولهذه الظروف الواقعية التى كان يواجهها النص ـ وهو يواجهها كلما تكررت هذه الظروف ـ قال الله تعالى :

« ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » . .

Marfat.com

ولذلك عرّض القرآن بالمسلمين الذين قبلوا الفداء فى أسرى المعركة الأولى :

« تريدون عرض الدنيا » . .

أى : فأخذتموهم أسرى بدل أن تقتلوهم ؛ وقبلتم فيهم الفداء وأطلقتموهم !

« والله يريد الآخرة » . .

والمسلمون عليهم أن يريدوا مايريد الله ، فهو خير وأبقى . والآخرة تقتضى التجرد من إرادة عرض الدنيا !

« والله عزيز حكيم » . .

قدر لكم النصر ، وأقدركم عليه ، لحكمة يريدها من قطع دابر الكافرين « ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

« لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » . .

ولقد سبق قضاء الله بأن يغفر لأهل بدر مايفعلون ؛ فوقاهم سبق قضائه فيهم ما كان يستحقه أخذهم الفداء من العذاب العظيم !

ثم زادهم الله فضلا ومنة ؛ فجعل غنائم الحرب حلالا لهم ـ ومنها هذه الفدية التى عوتبوا فيها ـ وكانت محرمة فى الديانات قبلهم على أتباع الرسل ـ مذكرا إياهم بتقوى الله ، وهو يذكر لهم رحمته ومغفرته ، لتتوازن مشاعرهم تجاه ربهم ، فلا تغرهم المغفرة والرحمة ، ولا تنسيهم التقوى والتحرج والمخافة :

« فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا ، واتقوا الله ، إن الله غفور رحيم » . .

ثم يلمس قلوب الأسرى لمسة تحيي فيها الرجاء ، وتطلق فيها الأمل ، وتشيع فيها النور ، وتعلقها بمستقبل خير من الماضى ، وبحياة أكرم مما كانوا فيه ، وبكسب أرجح مما فقدوا من مال وديار . وبعد ذلك كله بالمغفرة والرحمة من الله :

« ياأيها النبي قل لمن فى أيديكم من الأسرى : إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم » . .

هذا الخير كله معلق بأن تصلح قلوبهم فتتفتح لنور الإيمان ؛ فيعلم الله أن فيها خيرا . . والخير

Marfat.com

هو الإيمان حتى مايحتاج إلى ذكر وتنصيص . الخير محض الخير ،والذى لايسمى شىء ماخيرا إلا أن يستمد منه وينبثق منه ويقوم عليه .

إن الإسلام إنما يستبقى الأسرى لديه ، ليلمس فى قلوبهم مكامن الخير والرجاء والصلاح ، وليوقظ فى فطرتهم أجهزة الاستقبال والتلقى والتأثر والاستجابة للهدى . لا ليستذلهم انتقاما ، ولا ليسخرهم استغلالا ؛ كما كانت تتجه فتوحات الرومان ؛ وكما تتجه فتوحات الأجناس والأقوام !

عن الزهرى عن جماعة سماهم قال : بعثت قريش فى فداء أسراهم ، ففدى كل قوم أسيرهم بما رضوا . وقال العباس : يارسول الله قد كنت مسلما ! فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —: الله أعلم بإسلامك ، فإن تكن كما تقول فإن الله يجزيك ، وأما ظاهرك فقد كان علينا ، فافتد نفسك وابنى أخيك نوفل ابن الحارث ابن عبدالمطلب ، وعقيل ابن أبى طالب ابن عبد المطلب ، وحليفك عتبة ابن عمرو أخى بنى الحارث ابن فهر » : قال : ماذاك عندى يارسول الله ! قال : « فأين المال الذى دفنته أنت وأم الفضل ، قلت لها : إن أصبت فى سفرى هذا فهذا المال الذى دفنته لبنى الفضل وعبد الله وقثم ؟ » . قال : « والله يارسول الله إنى لأعلم أنك رسول الله . إن هذا لشىء ماعلمه أحد غيرى وغير أم الفضل . فاحسب لى يارسول الله ما أصبتم منى — عشرين أوقيــة من مال كان معى ! — فقال رسول الله — صلى الله عليــه وسلم — : « لا . ذاك شىء أعطانا الله تعالى منك » . ففدى نفسه وبنى أخويه وحليفه . فأنزل الله عز وجل : « ياأيهــا النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم » . . قال العباس : فأعطانى الله مكان العشرين الأوقية فى الإســلام عشرين عبــدا كلهم فى يده مال يضرب به ، مع ما أرجو من مغفرة الله عز وجل .

وفى الوقت الذى يفتح الله للأسارى نافذة الرجاء للشرق الرحيم ، يحذرهم خيانة الرسول — صلى الله عليه وسلم — كما خانوا الله من قبل فلاقوا هذا المصير :

« وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم ، والله عليم حكيم» ..

لقد خانوا الله فأشركوا به غيره ، ولم يفردوه سبحانه بالربوبية ، وهو قد أخذ العهد على فطرتهم فخانوا عهده . فإن أرادوا خيانة رسوله — صلى الله عليه وسلم — وهم أسرى فى يديه ،

Marfat.com

فليذكروا عاقبة خيانتهم الأولى التى أوقعتهم فى الأسر ، ومكنت منهم رسول الله وأولياءه . . والله « عليم » بسرائرهم « حكيم » فى إيقاع العقاب بهم :

« والله عليم حكيم » . .

قال القرطبى فى التفسير ، قال ابن العربى : لما أسر من أسر من المشركين ، تكلم قوم منهم بالإسلام ، ولم يمضوا فيه عزيمة ، ولا اعترفوا به اعترافا جازما . ويشبه أنهم أرادوا أن يقربوا من المسلمين ولا يبعدوا من المشركين ـ قال علماؤنا : إن تكلم الكافر بالإيمان فى قلبه وبلسانه ولم يمض فيه عزيمة لم يكن مؤمنا . وإذا وجد مثل ذلك من المؤمن كان كافرا . إلا ما كان من الوسوسة التى لا يقدر على دفعها ، فإن الله قد عفا عنها وأسقطها . وقد بين الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحقيقة فقال : « وإن يريدوا خيانتك » . أى إن كان هذا القول منهم خيانة ومكرا « فقد خانوا الله من قبل » بكفرهم ومكرهم بك وقتالهم لك . وإن كان هذا القول منهم خيرا ، ويعلمه الله ، فيقبل منهم ذلك ويعوضهم خيرا مما خرج عنهم ، ويغفر لهم ماتقدم من كفرهم وخيانتهم ومكرهم .

* * *

وأخيرا يختم هذا الدرس ، وتختم السورة معه ، ببيان طبيعة العلاقات فى المجتمع المسلم ، وطبيعة العلاقات بينه وبين المجتمعات الأخرى ؛ وبيان الأحكام المنظمة لهذه العلاقات وتلك ؛ ومنه تتبين طبيعة المجتمع المسلم ذاته ؛ والقاعدة التى ينطلق منها والتى يقوم عليها كذلك . . إنها ليست علاقات الدم ، ولا علاقات الأرض ، ولا علاقات الجنس ، ولا علاقات التاريخ ، ولا علاقات اللغة ، ولا علاقات الاقتصاد . . ليست هى القرابة ، وليست هى الوطنية ، وليست هى القومية ، وليست هى المصالح الاقتصادية . . إنما هى علاقة العقيدة ، وعلاقة القيادة ، وعلاقة التنظيم الحركى . . فالذين آمنوا وهاجروا إلى دار الهجرة والإسلام ، متجردين من كل مايمسكهم بأرضهم وديارهم وقومهم ومصالحهم ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ؛ والذين آووهم ونصروهم ودانوا معهم لعقيدتهم وقيادتهم فى تجمع حركى واحد ، أولئك بعضهم أولياء بعض . . والذين آمنوا ولم يهاجروا ليس بينهم وبين المجتمع المسلم ولاية ؛ لأنهم لم يتجردوا

Marfat.com

بعد للعقيدة ، ولم يدينوا بعد للقيادة ؛ ولم يلتزموا بعد بتعليمات التجمع الحركى الواحد . . وفى داخل هذا التجمع الحركى الواحد تعتبر قرابة الدم أولى فى الميراث وغيره . . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض كذلك . . هـذه هى الخطوط الرئيسية فى العلاقات والارتباطات ، كما تصورها هذه النصوص الحاسمة :

« إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض . والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا . وإن استنصروكم . . فى الدين . . فعليكم النصر ـ إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ـ والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض .. إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير . . والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم . وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، إن الله بكل شىء عليم » . .

والولاية بين المسلمين فى إبان نشأة المجتمع المسلم إلى يوم بدر ، كانت ولاية توارث وتكافل فى الديات وولاية نصرة وأخوة قامت مقام علاقات الدم والنسب والقرابة . . حتى إذا وجدت الدولة ومكن الله لها بيوم الفرقان فى بدر بقيت الولاية والنصرة ، ورد الله الميراث والتكافل فى الديات إلى قرابة الدم ، داخل المجتمع المسلم . . فأما الهجرة التى يشير إليها النص ويجعلها شرطا لتلك الولاية ـ العامة والخاصة ـ فهى الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام ـ لمن استطاع ـ فأما الذين يملكون الهجرة ولم يهاجروا ، استمساكا بمصالح أو قرابات مع المشركين ، فهؤلاء ليس بينهم وبين المجتمع المسلم ولاية ، كما كان الشأن فى جماعات من الأعراب أسلموا ولم يهاجروا لمثل هـذه الملابسات ، وكذلك بعض أفراد فى مكة من القادرين على الهجرة . . وهؤلاء وأولئك أوجب الله على المسلمين نصرهم ـ إن استنصروهم فى الدين خاصة ـ على شرط ألا يكون الاعتداء عليهم من قوم بينهم وبين المجتمع المسلم عهد ، لأن عهود المجتمع المسلم وخطته الحركية أولى بالرعاية !

Marfat.com

ونحسب أن هذه النصوص والأحكام تدل دلالة كافية على طبيعة المجتمع المسلم والاعتبارات الأساسية فى تركيبه العضوى ، وقيمه الأساسية . ولكن هذه الدلالة لا تتضح الوضوح الكافى إلا ببيان تاريخى عن نشأة هذا المجتمع التاريخية ؛ والقواعد الأساسية التى انبثق منها وقام عليها ؛ ومنهجه الحركى والتزاماته :

* * *

إن الدعوة الإسلامية - على يد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم - إنما تمثل الحلقة الأخيرة فى سلسة الدعوة الطويلة إلى الإسلام بقيادة موكب الرسل الكرام .. وهذه الدعوة على مدار التاريخ البشرى كانت تستهدف أمرا واحدا : هو تعريف الناس بإلههم الواحد وربهم الحق ؛ وتعبيدهم لربهم وحده ونبذ ربوبية الخلق .. ولم يكن الناس - فيما عدا أفرادا معدودة فى فترات قصيرة - ينكرون مبدأ الألوهية ويجحدون وجود الله البتة ؛ إنما هم كانوا يخطئون معرفة حقيقة ربهم الحق ، أو يشركون مع الله آلهة أخرى : إما فى صورة الاعتقاد والعبادة ؛ وإما فى صورة الحاكمية والاتباع ؛ وكلاهما شرك كالآخر يخرج به الناس من دين الله ، الذى كانوا يعرفونه على يد كل رسول ، ثم ينكرونه إذا طال عليهم الأمد ، ويرتدون إلى الجاهلية ، التى أخرجهم منها ، ويعودون إلى الشرك بالله مرة أخرى .. إما فى الاعتقاد والعبادة ، وإما فى الاتباع والحاكمية ، وإما فيهما جميعا ..

هذه طبيعة الدعوة إلى الله على مدار التاريخ البشرى .. إنها تستهدف « الإسلام » .. إسلام العباد لرب العباد ؛ وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، بإخراجهم من سلطان العباد وحاكميتهم وشرائعهم وقيمهم وتقاليدهم ، إلى سلطان الله وحاكميته وشريعته وحده فى كل شأن من شؤون الحياة .. وفى هذا جاء الإسلام على يد محمد صلى الله عليه وسلم ، كما جاء على أيدى الرسل الكرام قبله .. جاء ليرد الناس إلى حاكمية الله كشأن الكون كله الذى يحتوى الناس ؛ فيجب أن تكون السلطة التى تنظم حياتهم هى السلطة التى تنظم وجوده ؛ فلا يشذوا هم بمنهج وسلطان وتدبير غير المنهج والسلطان والتدبير الذى يصرف الكون كله . بل الذى يصرف وجودهم هم أنفسهم فى غير الجانب الإرادى من حياتهم . فالناس محكومون بقوانين فطرية من صنع الله فى نشأتهم ونموهم وصحتهم ومرضهم ، وحياتهم وموتهم ؛ كما هم محكومون بهذه القوانين فى اجتماعهم

Marfat.com

وعواقب ما يحل بهم نتيجة لحركتهم الاختيارية ذاتها ؛ وهم لا يملكون تغيير سنة الله بهم فى هذا كله ؛ كما أنهم لا يملكون تغيير سنة الله فى القوانين الكونية التى تحكم هذا الكون وتصرفه.. ومن ثم ينبغى أن يثوبوا إلى الإسلام فى الجانب الإرادى من حياتهم ؛ فيجعلوا شريعة الله هى الحاكمة فى كل شأن من شؤون هذه الحياة ، تنسيقا بين الجانب الإرادى فى حياتهم والجانب الفطرى ، وتنسيقا بين وجودهم كله بشطريه هذين وبين الوجود الكونى[1]..

ولكن الجاهلية التى تقوم على حاكمية البشر للبشر ، والشذوذ بهذا عن الوجود الكونى ؛ والتصادم بين منهج الجانب الإرادى فى حياة الإنسان والجانب الفطرى .. هذه الجاهلية التى واجهها كل رسول بالدعوة إلى الإسلام لله وحده . والتى واجهها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بدعوته .. هذه الجاهلية لم تكن متمثلة فى « نظرية » مجردة . بل ربما أحيانا لم تكن لها « نظرية » على الإطلاق ! إنما كانت متمثلة دائما فى تجمع حركى . متمثلة فى مجتمع ، خاضع لقيادة هذا المجتمع ، وخاضع لتصوراته وقيمه ومفاهيمه ومشاعره وتقاليده وعاداته ، وهو مجتمع عضوى بين أفراده ذلك التفاعل والتكامل والتناسق والولاء والتعاون العضوى ، الذى يجعل هذا المجتمع يتحرك – بإرادة واعية أو غير واعية – للمحافظة على وجوده ؛ والدفاع عن كيانه والقضاء على عناصر الخطر التى تهدد ذلك الوجود وهذا الكيان فى أية صورة من صور التهديد.

ومن أجل أن الجاهلية لا تتمثل فى « نظرية » مجردة ، ولكن تتمثل فى تجمع حركى على هذا النحو ؛ فإن محاولة إلغاء هذه الجاهلية ، ورد الناس إلى الله مرة أخرى ، لا يجوز – ولا يجدى شيئا – أن تتمثل فى « نظرية » مجردة . فإنها حينئذ لا تكون مكافئة للجاهلية القائمة فعلا والمتمثلة فى تجمع حركى عضوى ، فضلا على أن تكون متفوقة عليها كما هو المطلوب فى حالة محاولة إلغاء وجود قائم بالفعل ، لإقامة وجود آخر يخالفه مخالفة أساسية فى طبيعته وفى منهجه وفى كلياته وجزئياته . بل لا بد لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثل فى تجمع عضوى حركى أقوى فى قواعده النظرية والتنظيمية ، وفى روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك التجمع الجاهلى القائم فعلا .

---

(١) يراجع بتوسع فى هذه النقطة كتاب : « مبادىء الإسلام » للسيد أبو الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية فى باكستان . كما يراجع فصل : « شريعة كونية » فى كتاب « معالم فى الطريق » .

Marfat.com

والقاعدة النظرية التى يقوم عليها الإسلام ـ على مدار التاريخ البشرى ـ هى قاعدة : «شهادة أن لا إله إلا الله » . أى إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية والربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية . . إفراده بها اعتقادا فى الضمير ، وعباده فى الشعائر ، وشريعة فى واقع الحياة . فشهادة أن لا إله إلا الله ، لاتوجد فعلا ؛ ولاتعتبر موجودة شرعا إلا فى هذه الصورة المتكاملة التى تعطيها وجودا جديا حقيقيا يقوم عليه اعتبار قائلها مسلما أو غير مسلم ..

ومعنى تقرير هذه القاعدة من الناحية النظرية . . أن تعود حياة البشر بجملتها إلى الله ، لايقضون هم فى أى شأن من شؤونها ، ولا فى أى جانب من جوانبها ، من عند أنفسهم ؛ بل لابد لهم أن يرجعوا إلى حكم الله فيها ليتبعوه .. وحكم الله هذا يجب أن يعرفوه من مصدر واحد يبلغهم إياه ؛ وهو رسول الله ..وهذا يتمثل فى شطر الشهادة الثانى من ركن الإسلام الأول : «شهادة أن محمدا رسول الله » .

هذه هى القاعدة النظرية التى يتمثل فيها الإسلام ويقوم عليها ـ وهى تنشىء منهجا كاملا للحياة حين تطبق فى شؤون الحياة كلها ؛ يواجه به المسلم كل فرع من فروع الحياة الفردية والجماعية ، فى داخل دار الإسلام وخارجها ؛ فى علاقاته بالمجتمع المسلم وفى علاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى(١)..

ولكن الإسلام ـ كما قلنا ـ لم يكن يملك أن يتمثل فى « نظرية » مجردة ؛ ليعتنقها من يعتنقها اعتقادا ويزاولها عبادة ؛ ثم يبقى معتنقوها على هذا النحو أفرادا ضمن الكيان العضوى للتجمع الحركى الجاهلى القائم فعلا . فإن وجودهم على هذا النحو ـ مهما كثر عددهم ـ لايمكن أن يؤدى إلى « وجود فعلى » للإسلام . لأن الأفراد « المسلمين نظريا » الداخلين فى التركيب العضوى للمجتمع الجاهلى سيظلون مضطرين حتما للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضوية . سيتحركون طوعا أو كرها ، بوعى أو بغير وعى لقضاء الحاجات الأساسية لحياة هذا المجتمع الضرورية لوجوده وسيدافعون عن كيانه ؛ وسيدفعون العوامل التى تهدد وجوده وكيانه ؛ لأن الكائن العضوى يقوم بهذه الوظائف بكل أعضائه سواء أرادوا أم لم يريدوا .. أى أن الأفراد « المسلمين نظريا » سيظلون يقومون « فعلا » بتقوية المجتمع الجاهلى الذى يعملون « نظريا » لإزالته ؛ وسيظلون

(١) يراجع فصل : « لا إله إلا الله منهج حياة » فى كتاب : « معالم فى الطريق »

Marfat.com

خلايا حية فى كيانه تمده بعناصر البقاء والامتداد ! وسيعطونه كفاياتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا ويقوى ، وذلك بدلا من أن تكون حركتهم فى اتجاه تقويض هذا المجتمع الجاهلى ، لإقامة المجتمع الإسلامى !

ومن ثم لم يكن بد أن تتمثل القاعدة النظرية للإسلام (أى العقيدة) فى تجمع عضوى حركى منذ اللحظة الأولى .. لم يكن بد أن ينشأ تجمع عضوى حركى آخر غير التجمع الجاهلى ، منفصل ومستقل عن التجمع العضوى الحركى الجاهلى الذى يستهدف الإسلام إلغاءه . وأن يكون محور هذا التجمع الجديد هو القيادة الجديدة المتمثلة فى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومن بعده فى كل قيادة إسلامية تستهدف رد الناس إلى ألوهية الله وحده وربوبيته وقوامته وحاكميته وسلطانه وشريعته — وأن يخلع كل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ولاءه من التجمع العضوى الحركى الجاهلى — أى التجمع الذى جاء منه — ومن قيادة ذلك التجمع — فى أية صورة كانت ، سواء كانت فى صورة قيادة دينية من الكهنة والسدنة والسحرة والعرافين ومن إليهم ، أو فى صورة قيادة سياسية واجتماعية واقتصادية كالتى كانت لقريش ، وأن يحصر ولاءه فى التجمع العضوى الحركى الإسلامى الجديد وفى قيادته المسلمة .

لم يكن بد أن يتحقق هذا منذ اللحظة الأولى لدخول المسلم فى الإسلام ، ولنطقه بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . لأن وجود المجتمع المسلم لا يتحقق إلا بهذا . لا يتحقق بمجرد قيام القاعدة النظرية فى قلوب أفراد مهما تبلغ كثرتهم ؛ لا يتمثلون فى تجمع عضوى متناسق متعاون ؛ له وجود ذاتى مستقل ، يعمل أعضاؤه عملا عضويا — كأعضاء الكائن الحى — على تأصيل وجوده وتعميقه وتوسيعه ؛ وعلى الدفاع عن كيانه ضد العوامل التى تهاجم وجوده وكيانه . ويعملون فى هذا تحت قيادة مستقلة عن قيادة المجتمع الجاهلى تنظم تحركهم وتنسقها ، وتوجهه لتأصيل وتعميق وتوسيع وجودهم الإسلامى . ولمكافحة ومقاومة وإزالة الوجود الآخر الجاهلى .

وهكذا وجد الإسلام .. هكذا وجد متمثلا فى قاعدة نظرية مجملة — ولكنها شاملة — يقوم عليها فى نفس اللحظة تجمع عضوى حركى مستقل منفصل عن المجتمع الجاهلى ومواجه لهذا المجتمع .. ولم يوجد قط فى صورة « نظرية » مجردة عن هذا الوجود الفعلى .. وهكذا يمكن أن

Marfat.com

يوجد الإسلام مرة أخرى .. ولاسبيل لإعادة نشأته فى ظل المجتمع الجاهلى فى أى زمان وفى أى مكان ، بغير الفقه الضرورى لطبيعة نشأته العضوية الحركية .

وحين ندرك طبيعة هذه النشأة وأسرارها الفطرية ؛ وندرك معها طبيعة هذا الدين وطبيعة منهجه الحركى ـ على مابينا فى مقدمة سورة الأنفال فى الجزء التاسع(١) ـ ندرك معه مدلولات هذه النصوص والأحكام التى نواجهها فى ختام هذه السورة ، فى تنظيم المجتمع المسلم وتنظيم علاقاته مع المؤمنين المهاجرين المجاهدين ـ بطبقاتهم ـ والذين آووا ونصروا ؛ وعلاقاته مع الذين آمنوا ولم يهاجروا ؛ وعلاقاته مع الذين كفروا .. إنها كلها تقوم على أساس ذلك الفقه بطبيعة النشأة العضوية الحركية للمجتمع الإسلامى .

ونستطيع الآن أن نواجه هذه النصوص والأحكام الواردة فيها :

* * *

« إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض . والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا . وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر ـ إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ـ والله بما تعملون بصير . والذين كفروا بعضهم أولياء بعض . . إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » ..

لقد انخلع كل من قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فى مكة من الولاء لأسرته ، والولاء لعشيرته ، والولاء لقبيلته ، والولاء لقيادته الجاهلية الممثلة فى قريش ؛ وأعطى ولاءه وزمامه لمحمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللتجمع الصغير الناشىء الذى قام بقيادته. فى حين وقف المجتمع الجاهلى يدفع عن وجوده الذاتى خطر هذا التجمع الجديد ـ الخارج عليه حتى قبل اللقاء فى المعركة الحربية ـ ويحاول سحق هذا التجمع الوليد فى نشأته .

عندئذ آخى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بين أعضاء هذا التجمع الوليد .. أى أنه حول هؤلاء « الأفراد » الآتين من المجتمع الجاهلى أفرادا ، إلى « مجتمع » متكافل ، تقوم

(١) ص   من من الجزء التاسع من الطبعة الثانية المنقحة

Marfat.com

رابطة العقيدة فيه مقام رابطة الدم والنسب ؛ ويقوم الولاء لقيادته الجديدة مقام الولاء للقيادة الجاهلية ، ويقوم الولاء فيه للمجتمع الجديد مقام كل ولاء سابق.

ثم لما فتح الله للمسلمين دار الهجرة في المدينة ؛ بعد أن وجد فيها مسلمون بايعوا القيادة الإسلامية على الولاء المطلق ، والسمع والطاعة في المنشط والمكره ، وحماية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مما يحمون منه أموالهم وأولادهم ونساءهم ؛ وقامت الدولة المسلمة في المدينة بقيادة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عاد رسول الله فآخى بين المهاجرين والأنصار تلك المؤاخاة التي تقوم مقام رابطة الدم والنسب كذلك بكل مقتضياتها . بما في ذلك الإرث والديات والتعويضات التي تقوم بها رابطة الدم في الأسرة والعشيرة .. وكان حكم الله تعالى :

« إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض » ..

أولياء في النصرة ، وأولياء في الإرث ، وأولياء في الديات والتعويضات وسائر ما يترتب على رابطة الدم والنسب من التزامات وعلاقات..

ثم وجد أفراد آخرون دخلوا في هذا الدين عقيدة ؛ ولكنهم لم يلتحقوا بالمجتمع المسلم فعلا .. لم يهاجروا إلى دار الإسلام التي تحكمها شريعة الله وتدبر أمرها القيادة المسلمة ؛ ولم ينضموا إلى المجتمع المسلم الذي أصبح يملك دارا يقيم فيها شريعة الله ؛ ويحقق فيها وجوده الكامل ؛ بعدما تحقق له وجوده في مكة نسبيا ، بالولاء للقيادة الجديدة والتجمع في تجمع عضوى حركي ، مستقل ومنفصل عن المجتمع الجاهلي ومواجه له بهذا الوجود المستقل المميز .

وجد هؤلاء الأفراد سواء في مكة ، أو في الأعراب حول المدينة . يعتنقون العقيدة ، ولكنهم لا ينضمون للمجتمع الذي يقوم على هذه العقيدة ؛ ولا يدينون فعلا دينونة كاملة للقيادة القائمة عليه ..

وهؤلاء لم يعتبروا أعضاء في المجتمع المسلم ؛ ولم يجعل الله لهم ولاية ـ بكل أنواع الولاية ـ مع هذا المجتمع ، لأنهم بالفعل ليسوا من المجتمع الإسلامي . وفي هؤلاء نزل هذا الحكم :

« والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا . وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر ، إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » ..

Marfat.com

وهذا الحكم منطقى ومفهوم مع طبيعة هـذا الدين ـ التى أسلفنا ـ ومع منهجه الحركى الواقعى . فهؤلاء الأفراد ليسوا أعضاء فى المجتمع المسلم ؛ ومن ثم لاتكون بينهم وبينه ولاية .. ولكن هناك رابطة العقيدة ؛ وهذه لاترتب ـ وحدها ـ على المجتمع المسلم تبعات تجاه هؤلاء الأفراد ؛ اللهم إلا أن يعتدى عليهم فى دينهم ؛ فيفتنوا مثلا عن عقيدتهم . فإذا استنصروا المسلمين ـ فى دار الإسلام ـ فى مثل هذا ، كان على المسلمين أن ينصروهم فى هذه وحدها . على شرط ألا يخل هذا بعهد من عهود المسلمين مع معسكر آخر . ولو كان هذا المعسكر هو المعتدى على أولئك الأفراد فى دينهم وعقيدتهم ! ذلك أن الأصل هو مصلحة المجتمع المسلم وخطته الحركية وما يترتب عليها من تعاملات وعقود . فهذه لها الرعاية أولا ، حتى تجاه الاعتداء على عقيدة أولئك الذين آمنوا ، ولكنهم لم ينضموا للوجود الفعلى لهذا الدين المتمثل فى التجمع الإسلامى ..

.. وهذا يعطينا مدى الأهمية التى يعلقها هـذا الدين على التنظيم الحركى الذى يمثل وجوده الحقيقى ..

والتعقيب على هذا الحكم :

« والله بما تعملون بصير » ..

فكل عملكم تحت بصره ـ سبحانه ـ يرى مداخله ومخارجه ، ومقدماته ونتائجه ، وبواعثه وآثاره .

وكما أن المجتمع المسلم مجتمع عضوى حركى متناسق متكافل متعاون يتجمع فى ولاء واحد، فكذلك المجتمع الجاهلى :

« والذين كفروا بعضهم أولياء بعض » ..

إن الأمور بطبيعتها كذلك ـ كما أسلفنا . إن المجتمع الجاهلى لا يتحرك كأفراد ؛ إنما يتحرك ككائن عضوى ، تندفع أعضاؤه ، بطبيعة وجوده وتكوينه ، للدفاع الذاتى عن وجوده وكيانه. فهم بعضهم أولياء بعض طبعا وحكما .. ومن ثم لا يملك الإسلام أن يواجههم إلا فى صورة مجتمع آخر له ذات الخصائص ، ولكن بدرجة أعمق وأمتن وأقوى . فأما إذا لم يواجههم بمجتمع ولاؤه بعضه لبعض ، فستقع الفتنة لأفراده من المجتمع الجاهلى ـ لأنهم لا يملكون مواجهة المجتمع الجاهلى المتكافل أفرادا ـ وتقع الفتنة فى الأرض عامة بغلبة الجاهلية على الإسلام بعد وجوده.

Marfat.com

ويقع الفساد فى الأرض بطغيان الجاهلية على الإسلام ؛ وطغيان ألوهية العباد على ألوهية الله ؛ ووقوع الناس عبيدا للعباد مرة أخرى . وهو أفسد الفساد :

« إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » ..

ولا يكون بعد هذا النذير نذير ، ولا بعدهذا التحذير تحذير .. والمسلمون الذين لايقيمون وجودهم على أساس التجمع العضوى الحركى ذى الولاء الواحد والقيادة الواحدة ، يتحملون أمام الله – فوق مايتحملون فى حياتهم ذاتها – تبعة تلك الفتنة فى الأرض ، وتبعة هذا الفساد الكبير .

ثم يعود السياق القرآنى ليقرر أن الإيمان الحق إنما يتمثل فى هذه الصورة :

« والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم » ..

أولئك هم المؤمنون حقا . . فهذه هى الصورة الحقيقية التى يتمثل فيها الإيمان . . هذه هى صورة النشأة الحقيقية والوجود الحقيقى لهذا الدين . . إنه لايوجد حقيقة بمجرد إعلان القاعدة النظرية ؛ ولا بمجرد اعتناقها ؛ ولا حتى بمجرد القيام بالشعائر التعبدية فيها .. إن هذا الدين منهج حياة لا يتمثل فى وجود فعلى ، إلا إذا تمثل فى تجمع حركى . . أما وجوده فى صورة عقيدة فهو وجود حكمى ، لا يصبح (حقا) إلا حين يتمثل فى تلك الصورة الحركية الواقعية..

وهؤلاء المؤمنون حقا ، لهم مغفرة ورزق كريم .. والرزق يذكر هنا بمناسبة الجهاد والإنفاق والإيواء والنصرة وتكاليف هذا كله .. وفوقه المغفرة وهى من الرزق الكريم . بل هى أكرم الرزق الكريم .

ثم يلحق بالطبقة الأولى من المهاجرين المجاهدين ، كل من يهاجر بعد ذلك ويجاهد – وإن كانت للسابقين درجتهم كما تقرر النصوص القرآنية الأخرى – إنما هذا إلحاق فى الولاء والعضوية فى المجتمع الإسلامى :

« والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم » ..

ولقد ظل شرط الهجرة قائما حتى فتح مكة ؛ حين دانت أرض العرب للإسلام ولقيادته ، وانتظم الناس فى مجتمعه . فلا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد وعمل . كما قال رسول الله

Marfat.com

ـ صلى الله عليه وسلم ـ غير أن ذلك إنما كان فى جولة الإسلام الأولى التى حكم فيها الأرض ألفا ومائتى عام تقريبا ؛ لم ينقطع فيها حكم شريعة الإسلام ، وقيام القيادة المسلمة على شريعة الله وسلطانه .. فأما اليوم وقد عادت الأرض إلى الجاهلية ؛ وارتفع حكم الله ـ سبحانه ـ عن حياة الناس فى الأرض ، وعادت الحاكمية إلى الطاغوت فى الأرض كلها ، ودخل الناس فى عبادة العباد بعد إذ أخرجهم الإسلام منها .. الآن تبدأ جولة جديدة أخرى للإسلام ـ كالجولة الأولى ـ تأخذ ـ فى التنظيم ـ كل أحكامها المرحلية ، حتى تنتهى إلى إقامة دار إسلام وهجرة ؛ ثم تمتد ظلال الإسلام مرة أخرى ـ بإذن الله ـ فلا تعود هجرة ولكن جهاد وعمل ؛ كما حدث فى الجولة الأولى ..

ولقد كانت لفترة البناء الأولى للوجود الإسلامى أحكامها الخاصة ، وتكاليفها الخاصة .. قام الولاء فى العقيدة مقام الولاء فى الدم ، فى كل صوره وأشكاله ، وفى كل التزاماته ومقتضياته . بما فى ذلك الإرث والتكافل فى الديات والمغارم .. فلما أن استقر الوجود الإسلامى يوم الفرقان فى بدر عدلت أحكام تلك الفترة الاستثنائية ، اللازمة لعملية البناء الأولى ، المواجهة لتكاليفها الاستثنائية . وكان من هذه التعديلات عودة التوارث والتكافل فى الديات وغيرها إلى القرابة ـ ولكنه فى إطار المجتمع المسلم فى دار الإسلام :

« وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » ..

فلا بأس بعد استقرار الوجود الفعلى للإسلام ، من أولوية ذوى القربى فى داخل الإطار العام . . إن هذا يلبى جانبا فطريا فى النفس الإنسانية . ولا ضرر من تلبية المشاعر الفطرية فى النفس الإنسانية ، مادام أن ليس هناك مايعارض هذه المشاعر من تكاليف الوجود الإسلامى .. إن الإسلام لا يحطم المشاعر الفطرية ؛ ولكنه يضبطها . يضبطها لتستقيم مع الحاجات العليا للوجود الإسلامى ؛ فمتى انقضت هذه الحاجات عاد يلبيها ـ فى إطاره العام . ومن ثم تكون لبعض الفترات الاستثنائية فى الحركة تكاليفها الخاصة ، التى ليست واردة فى الأحكام النهائية للإسلام ، التى تحكم المجتمع الإسلامى المستقر الآمن فى حياته العادية .. وكذلك ينبغى أن نفقه تكاليف مرحلة البناء الأولى ؛ وطبيعة الإسلام العامة وأحكامه الأخرى ..

« إن الله بكل شىء عليم » ..

Marfat.com

وهو التعقيب المناسب على هذه الأحكام والتنظيمات والمشاعر، وتداخلها وتنظيمها وتنسيقها. فهي من العلم المحيط بكل شيء .. علم الله تعالى ..

* * *

وبعد فإن الإسلام - وهو يبني الأمة المسلمة على هذه القاعدة وفق هذا المنهج؛ ويقيم وجودها على أساس التجمع العضوي الحركي؛ ويجعل آصرة هذا التجمع هي العقيدة - إنما كان يستهدف إبراز «إنسانية الإنسان» وتقويتها وتمكينها، وإعلاءها على جميع الجوانب الأخرى في الكائن الإنساني. وكان يمضي في هذا على منهجه المطرد في كل قواعده وتعليماته وشرائعه وأحكامه ..

إن الكائن الإنساني يشترك مع الكائنات الحيوانية - بل الكائنات المادية - في صفات توهم أصحاب «الجهالة العلمية!» مرة بأنه حيوان كسائر الحيوان؛ ومرة بأنه مادة كسائر المواد! ولكن الإنسان مع اشتراكه في هذه «الصفات» مع الحيوان ومع المادة له «خصائص» تميزه وتفرده؛ وتجعل منه كائناً فريداً - كما اضطر أصحاب «الجهالة العلمية!» أخيراً أن يعترفوا والحقائق الواقعة تلوي أعناقهم لياً، فيضطرون لهذا الاعتراف في غير إخلاص ولا صراحة[1]!

والإسلام - بمنهجه الرباني - يعمد إلى هذه الخصائص التي تميز «الإنسان» وتفرده بين الخلائق؛ فيبرزها وينميها ويعليها .. وهو حين يجعل آصرة العقيدة هي قاعدة التجمع العضوي الحركي، التي يقيم على أساسها وجود الأمة المسلمة، إنما يمضي على خطته تلك. فالعقيدة تتعلق بأعلى ما في «الإنسان» من «خصائص» ..

إنه لا يجعل هذه الآصرة هي النسب، ولا اللغة، ولا الأرض، ولا الجنس، ولا اللون، ولا المصالح، ولا المصير الأرضي المشترك .. فهذه كلها أواصر يشترك فيها الحيوان مع الإنسان. وهي أشبه شيء وأقرب شيء إلى أواصر القطيع، وإلى اهتمامات القطيع، وإلى الحظيرة والمرعى والثغاء الذي يتفاهم به القطيع! أما العقيدة التي تفسر للإنسان وجوده، ووجود هذا الكون من حوله تفسيراً كلياً؛ كما تفسر له منشأ وجوده ووجود الكون من حوله، ومصيره ومصير الكون من حوله؛ وترده إلى كائن أعلى من هذه المادة وأكبر وأسبق وأبقى، فهي أمر آخر يتعلق

---

(١) في مقدمة هؤلاء جوليان هاكسلي من أصحاب «الداروينية الحديثة».

Marfat.com

بروحه وإدراكه المميز له من سائر الخلائق، والذى ينفرد به عن سائر الخلائق ؛ والذى يقرر « إنسانيته » فى أعلى مراتبها ؛ حيث يخلف وراءه سائر الخلائق .

ثم إن هذه الآصرة ـ آصرة العقيدة والتصور والفكرة والمنهج ـ هى آصرة حرة ؛ يملك الفرد الإنسانى اختيارها بمحض إرادته الواعية . فأما أواصر القطيع تلك فهى مفروضة عليه فرضا ، لم يخترها ولا حيلة له كذلك فيها .. إنه لا يملك تغيير نسبه الذى نماه ؛ ولا تغيير الجنس الذى تسلسل منه ؛ ولا تغيير اللون الذى ولد به . فهذه كلها أمور قد تقررت فى حياته قبل أن يولد ، لم يكن له فيها اختيار ، ولا يملك فيها حيلة .. كذلك مولده فى أرض بعينها ، ونطقه بلغة بعينها بحكم هذا المولد ، وارتباطه بمصالح مادية معينة ومصير أرضى معين ـ مادامت هذه هى أواصر تجمعه مع غيره ـ كلها مسائل عسيرة التغيير ؛ ومجال « الإرادة الحرة » فيها محدود .. ومن أجل هذا كله لا يجعلها الإسلام هى آصرة التجمع الإنسانى .. فأما العقيدة والتصور والفكرة والمنهج ، فهى مفتوحة دائما للاختيار الإنسانى ، ويملك فى كل لحظة أن يعلن فيها اختياره ؛ وأن يقرر التجمع الذى يريد أن ينتمى إليه بكامل حريته ؛ فلا يقيده فى هذه الحالة قيد من لونه أو لغته أو جنسه أو نسبه ، أو الأرض التى ولد فيها ، أو المصالح المادية التى تتحول بتحول التجمع الذى يريده ويختاره .

.. وهنا كرامة الإنسان فى التصور الإسلامى ..

ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامى فى هذه القضية ؛ ولإقامة التجمع الإسلامى على آصرة العقيدة وحدها ، دون أواصر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريبة والحدود الإقليمية السخيفة ! ولإبراز « خصائص الإنسان » فى هذا التجمع وتنميتها وإعلائها ، دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان .. كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعا مفتوحا لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات ، بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة ! وأن صبت فى بوتقة المجتمع الإسلامى خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها ؛ وانصهرت فى هذه البوتقة وتمازجت ؛ وأنشأت مركبا عضويا فائقا فى فترة تعد نسبيا قصيرة ؛ وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة

Marfat.com

ضخمة تحوى خلاصة الطاقة البشرية فى زمانها مجتمعة. على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال فى ذلك الزمان .

لقد اجتمع فى المجتمع الإسلامى المتفوق : العربى والفارسى والشامى والمصرى والمغربى والتركى والصينى والهندى والرومانى والإغريقى والأندونيسى والإفريقى ... إلى آخر الأقوام والأجناس. وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة فى بناء المجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية . ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما « عربية » إنما كانت دائما « إسلامية » . ولم تكن يوما ما « قومية » إنما كانت دائما « عقيدية » ..

ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة ، وبآصرة الحب ، وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة .. فبذلوا جميعا أقصى كفاياتهم ، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم ؛ وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية التاريخية فى بناء هذا المجتمع الواحد الذى ينتسبون إليه جميعا على قدم المساواة؛ وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد ؛ وتبرز فيها « إنسانيتهم » وحدها بلا عائق .. وهذا مالم يتجمع قط لأى تجمع آخر على مدار التاريخ ! ..

لقد كان أشهر تجمع بشرى فى التاريخ القديم هو تجمع الإمبراطورية الرومانية مثلا . فقد ضمت بالفعل أجناسا متعددة ؛ ولغات متعددة ، وألوانا متعددة ، وأرضين متعددة ... ولكن هذا كله لم يقم على آصرة « إنسانية » ولم يتمثل فى قيمة عليا كالعقيدة . لقد كان هناك تجمع طبقى على أساس طبقة الأشراف وطبقة العبيد فى الإمبراطورية كلها من ناحية ، وتجمع عنصرى على أساس سيادة الجنس الرومانى ـ بصفة عامة ـ وعبودية سائر الأجناس الأخرى .. ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامى ؛ ولم يؤت الثمار التى آتاها التجمع الإسلامى .

كذلك قامت فى التاريخ الحديث تجمعات أخرى .. تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلا .. ولكنه كان كالتجمع الرومانى الذى هو وريثه ! تجمعا قوميا استغلاليا ؛ يقوم على أساس سيادة القومية الإنجليزية ، واستغلال المستعمرات التى تضمها الإمبراطورية . . ومثله الإمبراطوريات الأوربية كلها : الإمبراطورية الأسبانية والبرتغالية فى وقت ما ، والإمبراطورية الفرنسية .. وكلها فى ذلك المستوى الهابط البشع المقيت !

Marfat.com

وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعا من نوع آخر ، يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون . ولكنها لم تقمه على قاعدة « إنسانية » عامة . إنما أقامته على القاعدة « الطبقية » .. فكان هذا التجمع هو الوجه الآخر للتجمع الروماني القديم .. هذا تجمع على قاعدة طبقة « الأشراف » ؛ وذلك تجمع على قاعدة طبقة « الصعاليك » (البروليتريا) والعاطفة التي تسوده هي عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى !

وما كان لمثل هذا التجمع الصغير البغيض أن يثمر إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني .. فهو ابتداء قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها باعتبار أن « المطالب الأساسية » للإنسان هي « الطعام والمسكن والجنس » - وهي مطالب الحيوان الأولية - وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام !!!

لقد تفرد الإسلام بمنهجه الرباني في إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلائها في بناء المجتمع الإنساني .. ومازال مفردا .. والذين يعدلون عنه إلى أي منهج آخر ، يقوم على أية قاعدة أخرى من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة .. إلى آخر هذا النتن السخيف هم أعداء الإنسان حقا ! هم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله ؛ ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق .. وهم في الوقت ذاته يسبحون ضد التيار ؛ ويعملون ضد خط الصعود الإنساني ؛ ليعودوا بالإنسان إلى التجمع على مثل ما تتجمع عليه « البهائم » من الحظيرة والكلأ ! بعد أن رفعه الله إلى ذلك المقام الكريم الذي يتجمع فيه على ما يليق أن تتجمع عليه « الناس » !

وأعجب العجب أن يسمى التجمع على خصائص الإنسان العليا تعصبا وجمودا ورجعية ، وأن يسمى التجمع على مثل خصائص الحيوان تقدما ورقيا ونهضة ؛ وأن تقلب القيم والاعتبارات كلها ؛ لا لشيء إلا للهروب من التجمع على أساس العقيدة .. خصيصة الإنسان العليا ..

ولكن الله غالب على أمره .. وهذه الانتكاسات الحيوانية الجاهلية في حياة البشرية لن يكتب لها البقاء .. وسيكون ما يريده الله حتما .. وستحاول البشرية ذات يوم أن تقيم تجمعاتها

Marfat.com

على القاعدة التى كرم الله الإنسان بها . والتى تجمع عليها المجتمع المسلم الأول فكان له تفرده التاريخى الفائق . وستبقى صورة هذا المجتمع تلوح على الأفق ، تتطلع إليها البشرية وهى تحاول مرة أخرى أن ترقى فى الطريق الصاعد إلى ذلك المرتقى السامى الذى بلغت إليه فى يوم من الأيام . .

Marfat.com

سورة التوبة
مدنية وآياتها ١٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة مدنية من أواخر ما نزل من القرآن - إن لم تكن هى آخر ما نزل من القرآن[١] - ومن ثم قد تضمنت أحكاما نهائية فى العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم فى الأرض ؛ كما تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته ، وتحديد قيمه ومقاماته ، وأوضاع كل طائفة فيه وكل طبقة من طبقاته[٢] ، ووصف واقع هذا المجتمع بجملته وواقع كل طائفة منه وكل طبقة وصفاً دقيقاً مصورا مبينا .

والسورة - بهذا الاعتبار - ذات أهمية خاصة فى بيان طبيعة المنهج الحركى للإسلام ومراحله وخطواته - حين تراجع الأحكام النهائية التى تضمنتها مع الأحكام المرحلية التى جاءت فى السور قبلها - وهذه المراجعة تكشف عن مدى مرونة ذلك المنهج وعن مدى حسمه كذلك . وبدون هذه المراجعة تختلط الصور والأحكام والقواعد ، كما يقع كلما انتزعت الآيات التى تتضمن أحكاما مرحلية فجعلت نهائية ؛ ثم أريد للآيات التى تتضمن الأحكام النهائية أن تفسر وتؤول لتطابق تلك الأحكام المرحلية ؛ وبخاصة فى موضوع الجهاد الإسلامى ، وعلاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى . مما نرجو أن يوفقنا الله لإيضاحه وبيانه فى هذا التقديم ؛ وفى ثنايا استعراض النصوص القرآنية للسورة .

* * *

(١) الرواية الراجحة أن سورة النصر هى آخر سورة نزلت . .

(٢) الطبقات التى نعنيها فى المجتمع المسلم ليست طبقات اجتماعية بالمعنى الصغير المفهوم الآن من الطبقية ولكنها الطبقات التى تقوم على قيم إسلامية بحتة كالسابقين من المهاجرين والأنصار ، وأهل بدر ، وأصحاب بيعة الرضوان ومن أنفق من قبل الفتح وقاتل ، ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل ، والقاعدين ، والمنافقين ... الخ

Marfat.com

ومن مراجعة نصوص السورة مراجعة موضوعية؛ ومراجعة ماجاء فى الروايات المأثورة عن أسباب النزول وملابساته؛ ومراجعة أحداث السيرة النبوية كذلك.. يتبين أن السورة بجملتها نزلت فى العام التاسع من الهجرة.. ولكنها لم تنزل دفعة واحدة.. ومع أننا لانملك الجزم بالمواقيت الدقيقة التى نزلت فيها مقاطع السورة فى خلال العام التاسع، إلا أنه يمكن الترجيح بأنها نزلت فى ثلاث مراحل.. المرحلة الأولى منها كانت قبل غزوة تبوك فى شهر رجب من هذا العام. والمرحلة الثانية كانت فى أثناء الاستعداد لهذه الغزوة ثم فى ثناياها. والمرحلة الثالثة كانت بعد العودة منها. أما مقدمات السورة من أولها إلى نهاية الآية الثامنة والعشرين منها فقد نزلت متأخرة فى نهاية السنة التاسعة قبيل موسم الحج فى ذى القعدة أو فى ذى الحجة.. وهذا – على الإجمال – هو كل مايمكن ترجيحه والاطمئنان إليه.

* * *

وقد تضمنت السورة فى المقطع الأول منها – من أولها إلى ختام الآية الثامنة والعشرين – تحديدا للعلاقات النهائية بين المعسكر الإسلامى والمشركين عامة فى الجزيرة؛ مع إبراز الأسباب الواقعية والتاريخية والعقيدية التى يقوم عليها هذا التحديد، بالأسلوب القرآنى الموحى المؤثر، وفى تعبيرات قوية الإيقاع حاسمة الدلالة، عميقة التأثير؛ هذه نماذج منها:

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين. فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر، واعلموا أنكم غير معجزى الله، وأن الله مخزى الكافرين. وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله، فإن تبتم فهو خير لكم، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم. إلا الذين عاهدتم من المشركين، ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين، فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم، وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد؛ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، إن الله غفور رحيم. وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لايعلمون ».

« كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله – إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام؟ –

Marfat.com

فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر، إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون . ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ، وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم . أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ؟ والله خبير بما تعملون ... » .

... « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء - إن استحبوا الكفر على الإيمان - ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ،وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها.. أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله . . فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » ...

... « يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله - إن شاء - إن الله عليم حكيم » ..

وظاهر من الأسلوب القرآنى فى الآيات التى اقتطفناها هنا ، وفى آيات المقطع كله ؛ ومن القوة فى التحضيض والتأليب على قتال المشركين ومقاطعتهم فى الجزيرة قاطبة ، مدى ما كان يتلج فى نفوس الجماعة المسلمة- أو فريق منها على الأقل له وزنه - من التحرج والتخوف والتردد فى اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة فى ذلك الحين ، بسبب عوامل شتى نرجو أن نكشف عنها فى هذا التقديم وفى أثناء استعراض النصوص القرآنية قريباً .

أما المقطع الثانى - فى السورة - فقد تضمن تحديدا للعلاقات النهائية كذلك بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب عامة ؛ مع بيان الأسباب العقيدية والتاريخية والواقعية التى تحتم هذا

Marfat.com

التحديد ؛ وتكشف كذلك عن طبيعة الإسلام وحقيقته المستقلة ؛ وعن انحراف أهل الكتاب عن دين الله الصحيح عقيدة وسلوكا ؛ بما يجعلهم ـ فى اعتبار الإسلام ـ ليسوا على دين الله الذى نزله لهم ؛ والذى به صاروا أهل كتاب :

« قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .

« وقالت اليهود عزير ابن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله . . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون .

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون .

ياأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم .. هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

وظاهر كذلك من الأسلوب القرآنى فى هذا المقطع أنه مواجهة لما كان فى النفوس يومذاك من تهيب وتردد فى مواجهة أهل الكتاب عامة ـ أو الغالبية العظمى منهم ـ بهذا اللون من العلاقات التى تنص عليها الآية الأولى فى المقطع . . وحقيقة إن المقصود ـ كان ـ بالمواجهة ابتداء هم الروم وحلفاؤهم من نصارى العرب فى الشام وما وراءها ؛ وهذا وحده كان يكفى للتردد والتهيب ؛ لما كان للروم من بأس وصمعة تاريخية بين أهل الجزيرة . . ولكن النص عام فى أهل الكتاب عامة ؛ ممن تنطبق عليهم الأوصاف الواردة فى الآية كما سنفصل ـ إن شاء الله ـ عند مواجهة النصوص .

وفى المقطع الثالث يبدأ النعى على المتثاقلين الذين دعوا إلى التجهز للغزوة فتثاقلوا إلى الأرض

Marfat.com

وتكاسلوا عن النفير . . وهؤلاء ليسوا كلهم من المنافقين كما سيتبين ، مما يشي بمشقة هذه الخطوة ، وهذه الغزوة ، على النفوس فى ذلك الحين للأسباب التى نرجو أن نفصلها ـ بإذن الله ـ ونقف عندها فى حينها :

«ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم: انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ، ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضروه شيئا . والله على كل شىء قدير . إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم . انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم صادقين » .

وظاهر من صيغ التأنيب والتهديد والتوكيد المكررة فى هذا المقطع ؛ ومن تذكير الذين آمنوا بنصر الله للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ أخرجه الذين كفروا ؛ دون أن يكون لأحد من البشر مشاركة فى هذا النصر ؛ ومن الأمر الجازم لهم بأن ينفروا خفافا وثقالا . . ظاهر من هذا كله ما كان فى الموقف من مشقة ومن تخلف ومن قعود ومن تهيب ومن تردد ، اقتضى هذا الحشد من التأنيب والتهديد والتوكيد والتذكير والأمر الشديد . .

ثم يجىء المقطع الرابع فى سياق السورة ـ وهو أطول مقاطعها ، وهو يستغرق أكثر من نصفها ـ فى فضح المنافقين وأفاعيلهم فى المجتمع المسلم ، ووصف أحوالهم النفسية والعملية ، ومواقفهم فى غزوة تبوك وقبلها وفى أثنائها وما تلاها ، وكشف حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم فى التخلف عن الجهاد وبث الضعف والفتنة والفرقة فى الصف ، وإيذاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والخلص من المؤمنين . يصاحب هذا الكشف تحذير الخلصاء من المؤمنين من كيد المنافقين ، وتحديد العلاقات بين هؤلاء وهؤلاء ، والمفاصلة بين الفريقين وتميز كل منهما بصفاته وأعماله . . وهذا القطاع يؤلف فى الحقيقة جسم السورة ؛ ويتجلى من خلاله كيف عاد النفاق بعد فتح مكة فاستشرى بعد ما كاد أن يتلاشى من المجتمع المسلم قبيل الفتح ، مما

Marfat.com

سنكشف عن أسبابه فى فقرة تالية . ولن نملك أن نستعرض هنا هذا القطاع بطوله فنكتفى بفقرات منه تدل على طبيعته :

« لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون . . . » .

. . . « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ، وقيل : اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ، ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم . . والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل ، وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » .

«ومنهم من يقول : ائذن لى ولا تفتنى ، ألا فى الفتنة سقطوا ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . إن تصبك حسنة تسؤهم ، وإن تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل ، ويتولوا وهم فرحون » . . .

. . . « ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وما هم منكم ، ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون » .

« ومنهم من يلمزك فى الصدقات فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون . ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا: حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا إلى الله راغبون » . . .

... « ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن . قل : أذن خير لكم ، يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » .

« يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين . ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ، ذلك الخزى العظيم » .

« يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم ، قل : استهزئوا إن الله مخرج ماتحذرون . ولئن سألتهم ليقولن : إنما كنا نخوض ونلعب ، قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم

Marfat.com

تستهزئون ؟ . لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ، إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين » .

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ،ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ، ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم » ...

... « ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير . يحلفون بالله ماقالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا ، وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ، فإن يتوبوا يك خيرا لهم ، وإن يتولوا يعذبهم عذابا أليما في الدنيا والآخرة ، وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير » ..

« ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون » ...

« الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لايجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم . استغفر لهم أولا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لايهدى القوم الفاسقين » .

« فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا : لاتنفروا فى الحر ، قل : نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون . فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ، فاستأذنوك للخروج ، فقل : لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين . ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون . ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون » ...

الخ ... الخ

وهذه الحملة الطويلة الكاشفة تشى بما كان للمنافقين فى هذه الفترة من محاولات كثيرة

Marfat.com

لإيذاء الصف المسلم وفتنته وشغله بشتى الفتن والدسائس والأكاذيب عن وجهته . كما أنها فى الوقت ذاته تكشف عن حالة من الخلخلة وعدم التناسق فى التكوين العضوى للمجتمع الإسلامى فى هذه الفترة ؛ يشير إليها قول الله سبحانه : « وفيكم سماعون لهم » كما يشير إليها النهى المشدد عن الاستغفار للمنافقين أو الصلاة عليهم .. هذه الحالة التى نشأت عن دخول جماعات كثيرة فى الإسلام بعد الفتح لم يكن الإيمان قد استقر فى قلوبهم ، ولا كانوا قد انطبعوا بالطابع الإسلامى الصحيح ؛ مما سنفصل القول فيه بعد استعراض التصنيف القرآنى الوارد فى السورة لهذه الجماعات المتنوعة التى كان المجتمع المسلم يتألف منها فى هذه الفترة .

والمقطع الخامس فى سياق السورة هو الذى يتولى هذا التصنيف . ومنه نعلم أنه كان إلى جوار السابقين المخلصين من المهاجرين والأنصار ـ وهم الذين كانوا يؤلفون قاعدة المجتمع المسلم الصلبة القوية ـ جماعات أخرى .. الأعراب وفيهم المخلصون والمنافقون والذين لم تخالط قلوبهم بشاشة الإيمان والمنافقون من أهل المدينة . وآخرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ولم يتم انطباعهم بالطابع الإسلامى ولم يصهروا فى بوتقة الإسلام تماما . وطائفة مجهولة الحال لا تعرف حقيقة مصيرها متروك أمرها لله وفق ما يعلمه من حقيقة حالها ومآلها . ومتآمرون يتسترون باسم الدين ! .. والنصوص القرآنية تتحدث عن هذه الجماعات كلها فى اختصار مفيد ؛ وتقرر كيف تعامل فى المجتمع المسلم ، وتوجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والخلص من المسلمين إلى طريقة التعامل مع كل منهم :

« الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرما ، ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم . ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ؛ ألا إنها قربة لهم ، سيدخلهم الله فى رحمته ، إن الله غفور رحيم » .

« والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم » .

« وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة ، مردوا على النفاق ، لاتعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم » .

Marfat.com

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم ... » .

... « وآخرون مرجون لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ، والله عليم حكيم » .

« والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لاتقم فيه أبدا، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ،والله يحب المطهرين ... الخ » .

وظاهر من تعدد الطوائف والطبقات والمستويات الإيمانية في المجتمع المسلم ـ كما تصفه هذه النصوص ـ مدى الخلخلة التي وجدت فيه بعد الفتح، مما كان المجتمع قد برئ منه أو كاد قبيل فتح مكة كما سيجيء .

والمقطع السادس في سياق السورة يتضمن تقريراً لطبيعة البيعة الإسلامية مع الله على الجهاد في سبيله وطبيعة هذا الجهاد وحدوده ، وواجب أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب فيه ، وأنه لا يحل لهم أن يتخلفوا عنه وما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ؛ وضرورة المفاصلة مع المشركين والمنافقين .. وفي ثنايا هذا المقطع يرد بيان لما قضى الله به في شأن بعض الذين تخلفوا عن الغزوة مخلصين غير منافقين ؛ ووصف لبعض أحوال المنافقين وموقفهم تجاه ما يتنزل من القرآن الكريم :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله ، فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » ...

. . . « ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ، من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم » . . .

. . . « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد

Marfat.com

ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، إنه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم » . . .

. . . « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنه لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لايضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا ، إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون . وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، لعلهم يحذرون » .

« يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظه ، واعلموا أن الله مع المتقين » . . .

. . . « وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا ، صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون » . .

وفى النهاية تختم السورة بصفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبتوجيهه من ربه إلى التوكل عليه وحده والاكتفاء بكفالته سبحانه :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رءوف رحيم . فإن تولوا فقل : حسبى الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » .

* * *

ولقد أطلنا الاقتباس من نصوص السورة فى هذا الاستعراض الإجمالى ـ قبل مواجهة هذه النصوص فيما بعد بالتفصيل ـ عن قصد ! ذلك أن سياق السورة يرسم صورة كاملة للمجتمع المسلم فى فترة مابعد الفتح ، ويصف تكوينه العضوى . . وفى هذه الصورة يتجلى نوع من الخلخلة وقلة التناسق بين مستوياته الإيمانية ؛ كما تتكشف ظواهر وأعراض من الشح بالنفس والمال ،

Marfat.com

ومن النفاق والضعف ، والتردد فى الواجبات والتكاليف ، والخلط وعدم الوضوح فى تصور العلاقات بين المعسكر الإسلامى والمعسكرات الأخرى ، وعدم المفاصلة الكاملة على أساس العقيدة - وإن كان هذا كله لا يتعارض مع وجود القاعدة الصلبة الأمينة الخالصة من المهاجرين والأنصار - مما استدعى حملات طويلة مفصلة ومنوعة للكشف والتوعية والبيان والتقرير ، تشى بحاجة المجتمع إليها .

ولقد سبق أن أشرنا إجمالا إلى أن سبب هذه الحالة هو دخول جماعات كثيرة متنوعة من الناس فى الإسلام بعد الفتح ؛ لم تتم تربيتها ؛ ولم تنطبع بعد بالطابع الإسلامى الأصيل . إلا أن هذه الإشارة المجملة لا يمكن فهمها بوضوح إلا بمراجعة الواقع التاريخى الحركى قبل الفتح وبعده . . وسنحاول أن نلم به هنا بأشد اختصار ممكن ؛ قبل التعليق بشىء على دلالة هذا الواقع التاريخى ومغزاه ، ودلالة النصوص القرآنية التى وردت فى سياق هذه السورة كذلك .

* * *

لقد ولدت الحركة الإسلامية فى مكة على محك الشدة ؛ فلم تكد الجاهلية - ممثلة فى قريش - تحس بالخطر الحقيقى الذى يتهددها من دعوة : « أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضى لا يستمد من سلطان الله ؛ ومن تمرد نهائى على كل طاغوت فى الأرض والفرار منه إلى الله . ثم بالخطر الجدى من التجمع الحركى العضوى الجديد الذى أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذا التجمع الذى يدين منذ اليوم الأول بالطاعة لله ولرسول الله ؛ ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة فى قريش والأوضاع السائدة فى هذه الجاهلية .

لم تكد الجاهلية - ممثلة فى قريش أول الأمر - تحس بهذا الخطر وذاك حتى شنتها حربا شعواء على الدعوة الجديدة ، وعلى التجمع الجديد ، وعلى القيادة الجديدة ؛ وحتى أرصدت لها كل ما فى جعبتها من أذى ومن كيد ومن فتنة ومن حيلة . .

لقد انتفض التجمع الجاهلى ليدفع عن نفسه الخطر الذى يتهدد وجوده بكل ما يدفع به الكائن العضوى خطر الموت عن نفسه . . وهذا هو الشأن الطبيعى الذى لامفر منه كلما

Marfat.com

قامت دعوة إلى ربوبية الله للعالمين ؛ فى مجتمع جاهلى يقوم على أساس من ربوبية العباد للعباد ؛ وكلما تمثلت الدعوة الجديدة فى تجمع حركى جديد ، يتبع فى تحركه قيادة جديدة ، ويواجه التجمع الجاهلى القديم مواجهة النقيض للنقيض ! (١)

وعندئذ تعرض كل فرد فى التجمع الإسلامى الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها ، إلى حد إهدار الدم فى كثير من الأحيان .. ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والانضمام إلى التجمع الإسلامى الوليد ، والدينونة لقيادته الجديدة ، إلا كل من نذر نفسه لله ؛ وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب والموت فى أبشع الصور فى بعض الأحيان ..

بذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عودا فى المجتمع العربى ؛ فأما العناصر التى لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى ؛ وكان هذا النوع قليلا ، فقد كان الأمر كله معروفا مكشوفا من قبل ؛ فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام ، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين .

وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة ، ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مكة ؛ ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك فى المدينة ؛ مع السابقين من الأنصار الذين وإن كانوا لم يصطلوها فى أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون ، إلا أن بيعتهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - (بيعة العقبة) قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين .. قال ابن كثير فى التفسير : « وقال محمد ابن كعب القرظى وغيره : قال عبد الله ابن رواحة رضى الله عنه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم (يعنى ليلة العقبة) : اشترط لربك ولنفسك ماشئت . فقال : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا : فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » . قالوا : ربح البيع ، ولا نقيل ولا نستقيل » .

---

(١) يراجع فى هذا الجزء التعليق على الآيات الأخيرة فى سورة الأنفال ص ٦٧ - ص ٧١ .

Marfat.com

ولقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول الله هذه البيعة ؛ ولا يرتقبون من ورائها شيئا إلا الجنة ؛ ويوثقون هذا البيع فيعلنون أنهم لايقبلون أن يرجعوا فيه ولا أن يرجع فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! يعلمون أنهم لايبايعون على أمر هين ؛ بل كانوا مستيقنين أن قريشا وراءهم ، وأن العرب كلها سترميهم ؛ وأنهم لن يعيشوا بعدها فى سلام مع الجاهلية الضاربة الأطناب من حولهم فى الجزيرة وبين ظهرانيهم فى المدينة .

ومن رواية ابن كثير فى كتابه : « البداية والنهاية » : « قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر ابن خيثم ، عن أبى الزبير ، عن جابر . قال : مكث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة عشر سنين ، يتبع الناس فى منازلهم . . عكاظ والمجنة . . وفى المواسم ، يقول : « من يؤوينى ؟ من ينصرنى ؟ حتى أبلغ رسالة ربى وله الجنة » . فلا يجد أحدا يؤويه ولا ينصره . حتى إن الرجل ليخرج من اليمن ، أو من مضر - كذا قال فيه - فيأتيه قومه وذوو رحمه فيقولون : احذر غلام قريش لايفتنك . ويمضى بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله إليه من يثرب ، فآويناه وصدقناه ، فيخرج الرجل منا فيؤمن به ، ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه ، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام . ثم ائتمروا جميعا ، فقلنا : حتى متى نترك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يطوف ويطرد فى جبال مكة ويخاف ؟ فرحل إليه منا سبعون رجلا حتى قدموا عليه فى الموسم (١) ، فواعدناه شعب العقبة ، فاجتمعنا عندها من رجل ورجلين ، حتى توافينا . فقلنا : يارسول الله علام نبايعك ؟ قال : « تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، والنفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأن تقولوا فى الله لاتخافوا فى الله لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى فتمنعونى إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ، ولكم الجنة » . فقمنا إليه وأخذ بيده أسعد ابن زرارة - وهو من أصغرهم - وفى رواية البيهقى - وهو أصغر السبعين - إلا أنا . فقال : رويدا ياأهل يثرب فإنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجه اليوم مناوأة العرب

(١) المحقق أنهم اثنان وسبعون : ولكن العرب كثيرا ماتحذف الكسر !

Marfat.com

كافة ، وقتل خياركم ، وتعضكم السيوف . فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله ، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فبينوا ذلك فهو أعذر لكم عند الله . . قالوا : أبطِ عنا يا أسعد ! فوالله لا ندع هذه البيعة ، ولا نُسلبها أبدا ! قال : فقمنا إليه ، فبايعناه ، وأخذ علينا وشرط ، ويعطينا على ذلك الجنة » (وقد رواه الإمام أحمد أيضا والبيهقي من طريق داود ابن عبد الرحمن العطار – زاد البيهقي عن الحاكم – بسنده إلى يحي ابن سليم كلاهما عن عبد الله ابن عثمان ابن خيثم عن أبي إدريس به نحوه . وهذا إسناد جيد على شرط مسلم ولم يخرجوه . وقال البزار : وروى غير واحد غير ابن خيثم ، ولا نعلمه يروى عن جابر إلا من هذا الوجه) .

فقد كان الأنصار إذن يعلمون – عن يقين واضح – تكاليف هذه البيعة ؛ وكانوا يعلمون أنهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئا فى هذه الحياة الدنيا – حتى ولا النصر والغلبة – وأنهم لم يوعدوا عليها إلا الجنة . . ثم كان هذا مدى وعيهم بها ومدى حرصهم عليها . . فلا جرم أن يكونوا – مع السابقين من المهاجرين الذين بُنوا هذا البناء وأعدوا هذا الإعداد – هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة . .

ولكن مجتمع المدينة لم يظل بهذا الخلوص والنقاء . . لقد ظهر الإسلام وفشا فى المدينة ؛ واضطر أفراد كثيرون – ومعظمهم من ذوى المكانة فى قومهم – أن يجاروا قومهم احتفاظا بمكانتهم فيهم . . حتى إذا كانت وقعة بدر قال كبير هؤلاء عبد الله ابن أبيّ ابن سلول : هذا أمر قد توجه ! وأظهر الإسلام نفاقا . ولابد أن كثيرين قد جرفتهم الموجة فدخلوا فى الإسلام تقليدا – ولو لم يكونوا منافقين – ولكنهم لم يكونوا بعد قد فقهوا فى الإسلام ولا انطبعوا بطابعه . . مما أنشأ تخلخلا فى بناء المجتمع المدنى ناشئا عن اختلاف مستوياته الإيمانية .

وهنا أخذ المنهج القرآنى التربوى الفريد ، بقيادة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعمل عمله فى هذه العناصر الجديدة ؛ ويعمل كذلك على إعادة التناسق والتوافق بين المستويات العقيدية والخلقية والسلوكية للعناصر المختلفة الداخلة فى جسم المجتمع الوليد .

Marfat.com

وحين نراجع السور المدنية ـ بترتيب النزول التقريبي ـ فإننا نطلع على الجهد الكبير الذى بذل فى عملية الصهر الجديدة المستمرة للعناصر المتنوعة فى المجتمع المسلم ؛ وبخاصة أن هذه العناصر ظلت تتوارد على هذا المجتمع ـ على الرغم من وقفة قريش العنيدة وتأليبها لكل قبائل الجزيرة ، ومن وقفة اليهود البشعة وتأليبهم كذلك للعناصر المعادية للدين الجديد والتجمع الجديد ـ وظلت الحاجة مستمرة لعمليات الصهر والتنسيق بصورة دائمة لاتفتر ولا تغفل لحظة . .

ومع هذا الجهد كله كانت ما تزال تظهر بين الحين والحين ـ وبخاصة فى فترات الشدة ـ أعراض من الضعف ، والنفاق والتردد ،والشح بالنفس والمال ، والتهيب من مواجهة المخاطر . . وبصفة خاصة أعراض من عدم الوضوح العقيدى الذى يحسم فى العلاقة بين المسلم وقرابته من أهل الجاهلية . . والنصوص القرآنية فى السور المتوالية تكشف لنا عن طبيعة هذه الأعراض التى كان المنهج القرآنى يتعرض لها بالعلاج بشتى أساليبه الربانية الفريدة . . نذكر منها على سبيل المثال :

◆ « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ، وإن فريقا من المؤمنين لكارهون. يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم ، وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون(١) » . . .
(الأنفال : ٥ ـ ٨)

◆ « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات. فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، ومايعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون : آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولو الألباب.

---

(١) يراجع تفسير هذه الآيات والملابسات التى أحاطت بنزولها فى الجزء التاسع من الظلال ص ٢٤٢ ـ ص ٢٤٨ من الطبعة الثانية المنقحة .

Marfat.com

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، إن الله لا يخلف الميعاد » ... (آل عمران : ٧ - ٩)

◆ « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، ولئن قوتلتم لننصرنكم ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قوتلوا لاينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لاينصرون . لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لايفقهون » ... (الحشر : ١١ - ١٣)

◆ « ياأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها ، وكان الله بما تعملون بصيرا . إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم ،وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ،وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا . وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض : ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا. وإذ قالت طائفة منهم : ياأهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ، ويستأذن فريق منهم النبى يقولون: إن بيوتنا عورة - وما هى بعورة - إن يريدون إلا فرارا . ولودخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا ... الخ » (الأحزاب : ٩ - ١٤)

◆ « ياأيها الذين آمنوا خذوا حذركم ، فانفروا ثبات أو انفروا جميعا . وإن منكم لمن ليبطئن ، فإن أصابتكم مصيبة قال : قد أنعم الله علىّ إذ لم أكن معهم شهيدا . ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن - كأن لم تكن بينكم وبينه مودة - : ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما»... (النساء : ٧١ - ٧٣)

◆ « ألم تر إلى الذين قيل لهم : كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية ، وقالوا : ربنا لم كتبت علينا القتال ؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب ! قل : متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى،ولا تظلمون فتيلا . أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ، وإن تصبهم حسنة يقولوا : هذه من عند الله ، وإن تصبهم سيئة يقولوا : هذه من عندك . قل : كل من عند الله، فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا ... » (النساء : ٧٧ - ٧٨)

Marfat.com

◆ « إنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم . ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله . فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم » . . (محمد : ٣٦ - ٣٨) .

◆ « ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ، ماهم منكم ولا منهم ، ويحلفون على الكذب وهم يعلمون . أعد الله لهم عذابا شديداً ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . اتخذوا أيمانهم جُنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين . لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شىء ، ألا إنهم هم الكاذبون . استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين ، كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ، إن الله قوى عزيز . لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » . . . (المجادلة : ١٤ - ٢٢) .

◆ « ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لايهدى القوم الظالمين . فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون : نخشى أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده ، فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا : أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ؟ حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين » . . . (المائدة : ٥١ - ٥٣) .

◆ ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ، تسرون إليهم بالمودة ، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله

Marfat.com

منكم فقد ضل سواء السبيل . إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ، ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ، وودوا لو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير . قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده . إلا قول إبراهيم لأبيه : لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير » . . . (الممتحنة : ١ - ٤) .

وحسبنا هذه النماذج العشرة من شتى السور ، للدلالة على ما كان يظهر فى المجتمع المسلم من أعراض . . نتيجة طبيعية وحتمية لدخول عناصر جديدة فيه بصفة مستمرة ، لايتم صهرها وتنسيقها مع القاعدة الصلبة الخالصة إلا بعد فترة وجهد وتربية مستمرة . .

إلا أن قوام المجتمع المسلم فى المدينة كان يظل سليما فى جملته بسبب اعتماده أساسا على تلك القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والأنصار ؛ وما تحدثه من تماسك وصلابة فى قوامه فى وجه جميع الأعراض والظواهر والخلخلة أحيانا ، والتعرض للمخاطر التى تكشف عن هذه العناصر التى لم يتم بعد صهرها ونضجها وتماسكها وتناسقها .

وشيئا فشيئا كانت هذه العناصر تنصهر وتتطهر وتتناسق مع القاعدة ؛ ويقل عدد الناشزين من ضعاف القلوب ومن المنافقين ؛ ومن المترددين كذلك والمتهيبين ؛ وممن لم يتم فى نفوسهم الوضوح العقيدى الذى يقيمون على أساسه كل علاقاتهم مع الآخرين . . حتى إذا كان قبيل فتح مكة كان المجتمع الإسلامى أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة ؛ وأقرب ما يكون بجملته إلى النموذج الذى يهدف إليه المنهج التربوى الربانى الفريد . .

نعم إنه كانت فى هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوتة أنشأتها الحركة العقيدية ذاتها ؛ فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها فى الحركة وسبقها وثباتها . . تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . وتميز أهل بدر . وتميز أصحاب بيعة الرضوان فى الحديبية . ثم تميز بصفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا . وجاءت النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والأوضاع العملية فى المجتمع المسلم ، تؤكد هذه الأقدار التى أنشأتها الحركة بالعقيدة وتنص عليها .

Marfat.com

◆ « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبدا، ذلك الفوز العظيم » .. (التوبة : ١٠٠) .

◆ « لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال : اعملوا ماشئتم ، فقد وجبت لكم الجنة » . . . (من حديث أخرجه البخارى . وكان هذا رد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على عمر ـ رضى الله عنه ـ وقد استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أن يضرب عنق حاطب ابن أبى بلتعة حينما أدركته لحظة ضعف فأرسل إلى قريش سرا ينبئهم بتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم لفتح مكة) .

◆ « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم مافى قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ، ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيما » . . . (الفتح : ١٨ - ١٩) .

◆ « لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا ، وكلا وعد الله الحسنى ، والله بما تعملون خبير » . . . (الحديد : ١٠) .

◆ « مهلا ياخالد ، دع عنك أصحابى ، فوالله لو كان لك أحد ذهبا ، ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحة » . . . (أورده ابن القيم فى زاد المعاد وهو رد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خالد ابن الوليد إذ تلاحى مع عبد الرحمن ابن عوف ـ رضى الله عنهما ـ وخالد هو سيف الله . ولكن عبد الرحمن من السابقين الأولين . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لخالد : « دع عنك أصحابى » وهو يعنى هذه الطبقة ذات القدر الخاص المتميز فى المجتمع المسلم فى المدينة .

ولكن تميز هذه الطبقات بأقدارها الإيمانية التى أنشأتها الحركة الإسلامية ، لم يكن مانعا أن تتقارب المستويات الإيمانية وتتناسق فى مجتمع المدينة قبيل الفتح ؛ وأن يتوارى الكثير من أعراض الخلخلة فى الصف ، والكثير من ظواهر الضعف والتردد ، والشح بالنفس والمال ،

Marfat.com

وعدم الوضوح العقيدى ، والنفاق . . . من ذلك المجتمع . بحيث يمكن اعتبار المجتمع المدنى بجملته هو القاعدة الإسلامية .

إلا أن فتح مكة فى العام الثامن الهجرى ، وما أعقبه من استسلام هوازن وثقيف فى الطائف ، وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش فى الجزيرة ، قد عاد فصب فى المجتمع المسلم أفواجا جديدة كثيرة دخلت فى الدين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الإيمانية ؛ وفيهم كارهون للإسلام منافقون ؛ وفيهم المتساقون إلى الإسلام الظاهر القاهر ، وفيهم المؤلفة قلوبهم ، دون انطباع بحقائق الإسلام الجوهرية ولا امتزاج بروحه الحقيقية .

لقد كانت وقفة قريش العنيدة الطويلة حاجزا قويا دون انسياح الإسلام فى الجزيرة العربية . فقد كانت قريش هى صاحبة الكلمة العليا فى الشؤون الدينية فى الجزيرة - فوق ما كان لها من نفوذ اقتصادى وسياسى وأدبى كذلك - فكانت وقفتها فى وجه الدين الجديد ، بهذه الصورة العنيدة ، مدعاة لصرف العرب فى أنحاء الجزيرة عن الدخول فيه ، أو على الأقل مدعاة للتردد والانتظار حتى تنجلى المعركة بين قريش وهذا النبى من أبنائها ! . . . فلما دانت قريش بالفتح، ودانت بعدها هوازن وثقيف فى الطائف ؛ وكانت قبائل اليهود الثلاث القوية فى المدينة قد خضدت شوكتها نهائيا فأجليت بنو قينقاع وبنو النضير إلى الشام ، وأبيدت بنو قريظة ، واستسلمت خيبر الاستسلام الأخير . . . كان ذلك إيذانا بدخول الناس فى دين الله أفواجا ، وانسياح الإسلام فى أرجاء الجزيرة كلها فى خلال عام واحد .

غير أن هذا الاتساع الأفقى فى رقعة الإسلام قد أعاد معه جميع الأعراض والظواهر التى ظهرت فى المجتمع بعد انتصار بدر - ولكن على نطاق أوسع - بعد ما كاد المجتمع يبرأ منها بتأثير التربية الطويلة المدى ، المستمرة التأثير فى خلال السنوات السبع بعد بدر الكبرى ! ولولا أن المجتمع المدنى بجملته كان قد تحول إلى أن يكون هو القاعدة الصلبة الخالصة لهذه العقيدة ، والأساس الركين لهذا المجتمع ؛ لكان هناك خطر كبير من هذا الاتساع الأفقى السريع فى رقعة الإسلام فى الجزيرة . ولكن الله الذى كان يدبر لهذا الأمر ويرعاه ، كان قد أعد العصبة المؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لتكون هى القاعدة الأمينة لهذا الدين

Marfat.com

بعد التوسع النسبي الذى جاء به انتصار بدر ؛ كما أنه ـ سبحانه ـ كان قد أعد المجتمع المدنى بجملته ليكون هو القاعدة الأمينة بعد التوسع الشديد السريع الذى جاء به فتح مكة . . والله أعلم حيث يجعل رسالته . .

وأول ماظهر من ذلك كان يوم حنين الذى جاء عنه فى هذه السورة : « التوبة » : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ؛ وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين » . .

وكان من الأسباب الظاهرة لهذه الهزيمة فى أول الأمر أن ألفين من « الطلقاء » الذين أسلموا يوم الفتح ، قد خرجوا مع الآلاف العشرة من جند المدينة الذين فتحوا مكة . فكان وجود هذين الألفين ـ مع عشرة آلاف ـ سببا فى اختلال التوازن فى الصف ـ بالإضافة إلى عامل المفاجأة من هوازن ـ ذلك أن الجيش لم يكن كله من القاعدة الصلبة الخالصة التى تمت تربيتها وتناسقها فى الزمن الطويل مابين بدر والفتح .

كذلك كان ماظهر فى أثناء غزوة تبوك من الأعراض والظواهر المؤذية ثمرة طبيعية لهذا الاتساع الأفقى السريع ؛ ودخول تلك الأفواج الجديدة ، بمستوياتها الإيمانية والتنظيمية المخلخلة . . هذه الظواهر والأعراض التى تحدثت عنها سورة التوبة ، والتى اقتضت تلك الحملات الطويلة المفصلة المنوعة الأساليب ، التى أشرنا إليها فى المقتطفات الممثلة لكل مقاطع السورة .

ونستطيع أن نستطرد هنا لنتابع خطوات الواقع التاريخى للمجتمع المسلم بعد عامين اثنين من الفتح ؛ عندما قبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فارتدت الجزيرة العربية كلها ؛ ولم يثبت إلا مجتمع المدينة ـ القاعدة الصلبة الخالصة ـ فهذه الظاهرة يسهل الآن تفسيرها . . إن عامين اثنين بعد الفتح لم يكونا كافيين لاستقرار حقيقة الإسلام فى نفوس هذه الأفواج الكثيرة التى دخلت فى دين الله بعد الفتح ، بمستوياتها الإيمانية المخلخلة . فلما قبض رسول الله ـ صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم ـ ارتجت الجزيرة المخلخلة ، وثبتت القاعدة الصلبة . واستطاعت هذه القاعدة بصلابتها وخلوصها وتناسقها أن تقف فى وجه التيار ؛ وأن ترده عن مجراه الجارف ؛ وأن تحوله إلى الإسلام مرة أخرى ..

إن رؤية هذه الحقيقة ـ على هذا النحو ـ كفيلة بأن ترينا تدبير الله الحكيم فى المحنة الطويلة التى تعرضت لها الدعوة فى مكة ـ فى أول الأمر ـ وحكمته فى تسليط المشركين الطواغيت على الفئة المسلمة يؤذونها ، ويفتنونها عن دينها ، ويهدرون دماءها ، ويفعلون بها الأفاعيل !

لقد كان الله سبحانه يعلم أن هذا هو المنهج القويم لتربية الجماعة الأولى وتكوين القاعدة الصلبة لهذه العقيدة . وأنه بدون هذه المحنة الطويلة لاتصلب الأعواد ولا تثبت للضغوط ؛ وأن هذه الدرجة من الصلابة والخلوص والتجرد والإصرار والمضى فى سبيل الله على الأذى والعذاب والقتل والتنكيل والتشريد والتجويع ، وقلة العدد ، وانعدام النصير الأرضى . . . إن هذه الدرجة هى وحدها التى تصلح للقاعدة الأصيلة الثابتة عند نقطة الانطلاق الأولى ..

إن هذه القاعدة الصلبة من المهاجرين الأوائل هى التى انضم إليها السابقون من الأنصار، ليكونوا القاعدة فى المدينة ـ قبل بدر ـ وليكونوا هم الحراس الأقوياء الأشداء فى فترة التخلخل التى أعقبت النصر فى بدر ، بالتوسع الأفقى الذى جاء بأعداد جديدة لم تنضج بعد ، ولم تتناسق مع القاعدة فى مستواها الإيمانى والتنظيمى .

وأخيرا فإن القاعدة الصلبة التى اتسعت أبعادها قبيل الفتح ، حتى صارت تتمثل فى المجتمع المدنى بجملته ، هى التى حرست الإسلام وصانته من الهزات بعد الفتح ثم من الهزة الكبرى بعد وفاة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وارتداد الجزيرة عن الإسلام .

إن هذه الحقيقة ـ كما أنها ترينا تدبير الله الحكيم فى المحنة الطويلة التى تعرضت لها الدعوة فى مكة ؛ وفى الأهوال والمشاق والأخطار التى تعرض لها المجتمع المسلم فى المدينة حتى الحديبية ـ

Marfat.com

هى كذلك تكشف لنا عن طبيعة المنهج الحركى للدعوة الإسلامية المتجددة فى أى زمان وفى أى مكان ..

إنه ابتداء يجب توجيه الحرص كله لإقامة القاعدة الصلبة من المؤمنين الخلص، الذين تصهرهم المحنة فيثبتون عليها ؛ والعناية بتربيتهم تربية إيمانية عميقة تزيدهم صلابة وقوة ووعيا ؛ ذلك مع الحذر الشديد من التوسع الأفقى قبل الاطمئنان إلى قيام هذه القاعدة الصلبة الخالصة الواعية المستنيرة . فالتوسع الأفقى قبل قيام هذه القاعدة خطر ماحق يهدد وجود أية حركة ، لا تسلك طريق الدعوة الأولى من هذه الناحية ، ولا تراعى طبيعة المنهج الحركى الربانى النبوى الذى سارت عليه الجماعة الأولى .

على أن الله — سبحانه — هو الذى يتكفل بهذا لدعوته . فحيثما أراد لها حركة صحيحة ، عرّض طلائعها للمحنة الطويلة ؛ وأبطأ عليهم النصر ؛ وقللهم ؛ وبطأ الناس عنهم ؛ حتى يعلم منهم أن قد صبروا وثبتوا ، وتهيأوا وصلحوا لأن يكونوا هم القاعدة الصلبة الخالصة الواعية الأمينة . . ثم نقل خطاهم بعد ذلك بيده — سبحانه — والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

* * *

والآن نعرض — على وجه الإجمال — للموضوعات الرئيسية التى تضمنتها السورة ، وبخاصة الأحكام النهائية التى قررتها فى علاقة المعسكر الإسلامى بسائر المعسكرات حوله . . فالأحكام التى وردت فى هذه السورة — بوصفها آخر ما نزل من الأحكام — هى التى تمثل قمة الخط الحركى للمنهج الإسلامى . .

ونحب هنا أن نعيد ما قلناه فى الجزء التاسع — فى تقديم سورة الأنفال — عن طبيعة هذا المنهج ؛ لنفهم على ضوئه هذه الأحكام النهائية الأخيرة ؛ ولو كان فى إعادته شىء من التكرار فى كتاب الظلال . ذلك أن قرب هذه الفقرات التى سنعيدها هنا ضرورى لحيوية السياق :

« لقد لخص الإمام ابن القيم سياق الجهاد فى الإسلام فى « زاد المعاد » فى الفصل الذى عقده باسم : « فصل فى ترتيب سياق هديه مع الكفار والمنافقين من حين بعث إلى حين لقى الله عز وجل : أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربه الذى خلق . وذلك

Marfat.com

أول نبوته . فأمره أن يقرأ فى نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ . ثم أنزل عليه : « ياأيها المدثر قم فأنذر » فنبأه بقوله: «اقرأ » وأرسله بـ« ياأيها المدثر » . ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين . ثم أنذر قومه . ثم أنذر من حولهم من العرب . ثم أنذر العرب قاطبة . ثم أنذر العالمين . فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ؛ ويؤمر بالكف والصبر والصفح . ثم أذن له فى الهجرة ، وأذن له فى القتال . ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله . ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله . . ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة . وأهل حرب . وأهل ذمة . . فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد ؛ فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد . وأمر أن يقاتل من نقض عهده . . ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها : فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا فى الإسلام . وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم . فجاهد الكفار بالسيف والسنان ، والمنافقين بالحجة واللسان . وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم . . وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقسام : قسما أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم . وقسما لهم عهد موقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم . وقسما لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ؛ فإذا انسلخت قاتلهم . . فقتل الناقض لعهده ، وأجل من لا عهد له ، أوله عهد مطلق ، أربعة أشهر ، وأمره أن يتم للموفى بعهده عهده إلى مدته ؛ فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم . وضرب على أهل الذمة الجزية . . فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة . . ثم آلت حالة أهل العهد والصلح إلى الإسلام ، فصاروا معه قسمين : محاربين وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه . . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به . ومسالم له آمن . وخائف محارب . . وأما سيرته فى المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله ؛ وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ؛ وأمر أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ؛ ونهى أن يصلى عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ؛ وأخبر

Marfat.com

أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم .. فهذه سيرته فى أعدائه من الكفار والمنافقين » . . انتهى

« ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد فى الإسلام تتجلى سمات أصيلة وعميقة فى المنهج الحركى لهذا الدين ، جديرة بالوقوف أمامها طويلا . ولكننا فى هذه الظلال لا نملك إلا أن نشير إليها إشارات مجملة :

« السمة الأولى : هى الواقعية الجدية فى منهج هذا الدين . . فهو حركة تواجه واقعا بشريا . . وتواجهه بوسائل مكافئة لوجوده الواقعى . . إنها تواجه جاهلية اعتقادية تصورية ، تقوم عليها أنظمة واقعية عملية ، تسندها سلطات ذات قوة مادية . . ومن ثم تواجه الحركة الإسلامية هذا الواقع كله بما يكافئه .. تواجهه بالدعوة والبيان لتصحيح المعتقدات والتصورات؛ وتواجهه بالقوة والجهاد لإزالة الأنظمة والسلطات القائمة عليها ، تلك التى تحول بين جمهرة الناس وبين التصحيح بالبيان للمعتقدات والتصورات ؛ وتخضعهم بالقهر والتضليل ، وتعبدهم لغير ربهم الجليل . . إنها حركة لا تكتفى بالبيان فى وجه السلطان المادى . كما أنها لا تستخدم القهر المادى لضمائر الأفراد . . وهذه كتلك سواء فى منهج هذا الدين وهو يتحرك لإخراج الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده كما سيجىء .

« والسمة الثانية فى منهج هذا الدين .. هى الواقعية الحركية .. فهو حركة ذات مراحل . كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية . وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التى تليها . . فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة ، كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة . والذين يسوقون النصوص القرآنية للاستشهاد بها على منهج هذا الدين فى الجهاد ، ولا يراعون هذه السمة فيه ، ولا يدركون طبيعة المراحل التى مر بها هذا المنهج ، وعلاقة النصوص المختلفة بكل مرحلة منها . . الذين يصنعون هذا يخلطون خلطا شديدا ، ويلبسون منهج هذا الدين لبسا مضللا ، ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد النهائية . ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصا نهائيا ، يمثل القواعد النهائية فى هذا الدين . ويقولون — وهم مهزومون روحيا وعقليا تحت ضغط الواقع البائس لذرارى المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان — : إن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع ! ويحسبون أنهم يسدون لهذا الدين

Marfat.com

جميلا بتخليه عن منهجه ، وهو إزالة الطواغيت جميعا من الأرض جميعا ، وتعبيد الناس لله وحده ، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد ! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته ، ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة . بعد تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة ، أو قهرها حتى تدفع الجزية ، وتعلن استسلامها ، والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة ، تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها .

« والسمة الثالثة : هي أن هذه الحركة الدائبة ، والوسائل المتجددة ، لا تخرج هذا الدين عن قواعده المحددة ، ولا عن أهدافه المرسومة . فهو منذ اليوم الأول ـ سواء وهو يخاطب العشيرة الأقربين ، أو يخاطب قريشا ، أو يخاطب العرب أجمعين ، أو يخاطب العالمين . . إنما يخاطبهم بقاعدة واحدة ؛ ويطلب منهم الانتهاء إلى هدف واحد . . هو إخلاص العبودية لله ، والخروج من العبودية للعباد . . لا مساومة في هذه القاعدة ولا لين . . ثم يمضي إلى تحقيق هذا الهدف الواحد ، في خطة مرسومة ، ذات مراحل محددة ، لكل مرحلة وسائلها المتجددة . . على نحو ما أسلفنا في الفقرة السابقة .

« والسمة الرابعة : هي ذلك الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى ـ على النحو الملحوظ في ذلك التلخيص الجيد الذي نقلناه عن زاد المعاد ـ وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام لله هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه ؛ أو أن تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوته بأي حائل من نظام سياسي ، أو قوة مادية . وأن تخلي بينه وبين كل فرد ، يختاره أو لا يختاره بمطلق إرادته . ولكن لا يقاومه ولا يحاربه . فإن فعل ذلك أحد ، كان على الإسلام أن يقاتله حتى يقتله ، أو يعلن استسلامه ! (١) »

* * *

في ضوء هذا البيان نستطيع أن نفهم لم كانت هذه الأحكام الأخيرة الواردة في هذه السورة : من براءة الله ورسوله من عهود المشركين ؛ وإمهال ذوي العهود الموقوتة منهم ـ ممن لم ينقضوا

---

(١) يراجع بقية ما جاء في مقدمة سورة الأنفال عن الجهاد في الإسلام ص ١٦٦ ـ ص ٢٠١ من الجزء التاسع الطبعة الثانية المنقحة .

Marfat.com

مع المسلمين عهدا ، ولم يظاهروا عليهم أحدا - إلى مدتهم . وإمهال ذوى العهود غير الموقوتة - ممن لم ينقضوا مع المسلمين عهدا كذلك ولم يظاهروا عليهم أحدا - إلى أربعة أشهر ؛ ومثلهم من لم يكن لهم مع المسلمين عهد أصلا من المشركين . ونبذ عهود الناقضين لعهودهم ، مع إمهالهم أربعة أشهر يسيحون فى الأرض آمنين . فإذا انسلخت هذه الأشهر أخذوا وقتلوا حيث وجدوا وحوصروا ومنعوا من التنقل وهم آمنون . . كما نفهم الأحكام الواردة فيها عن قتال أهل الكتاب المنحرفين عن دين الله الصحيح ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . . ثم الأحكام الواردة بجهاد المنافقين مع الكافرين بالغلظة عليهم ، وعدم الصلاة على موتاهم أو القيام على قبورهم . . وكلها أحكام تعدل الأحكام المرحلية السابقة فى السور التى نزلت قبل التوبة . وهذا التعديل نحسب أنه أصبح مفهوما لنا الآن ، فى ضوء ذلك البيان !

وليس هنا مجال تفصيل القول فى هذه الأحكام الأخيرة ، ولا فى الأحكام المرحلية السابقة لها ؛ ولا فى غيرها من موضوعات السورة الأخرى ، فسنعرض لهذا كله بالتفصيل - إن شاء الله - عند استعراض النصوص القرآنية فى سياق السورة بالتفصيل .

ولكننا فقط نبادر فنقول : إن تلك الأحكام المرحلية ليست منسوخة بحيث لا يجوز العمل بها فى أى ظرف من ظروف الأمة المسلمة بعد نزول الأحكام الأخيرة فى سورة التوبة . ذلك أن الحركة والواقع الذى تواجهه فى شتى الظروف والأمكنة والأزمنة هى التى تحدد - عن طريق الاجتهاد المطلق - أى الأحكام هو أنسب للأخذ به فى ظرف من الظروف ، فى زمان من الأزمنة ، فى مكان من الأمكنة ! مع عدم نسيان الأحكام الأخيرة التى يجب أن يصار إليها ، متى أصبحت الأمة المسلمة فى الحال التى تمكنها من تنفيذ هذه الأحكام ؛ كما كان حالها عند نزول سورة التوبة ، وما بعد ذلك أيام الفتوحات الإسلامية التى قامت على أساس من هذه الأحكام الأخيرة النهائية . سواء فى معاملة المشركين أو أهل الكتاب .

إن المهزومين فى هذا الزمان أمام الواقع البائس لذرارى المسلمين - الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان - وأمام الهجوم الاستشراقى الماكر على أصل الجهاد فى الإسلام ؛ يحاولون أن يجدوا فى النصوص المرحلية مهربا من الحقيقة التى يقوم عليها الانطلاق الإسلامى فى الأرض

Marfat.com

لتحرير الناس كافة من عبادة العباد، وردهم جميعا إلى عبادة الله وحده ؛ وتحطيم الطواغيت والأنظمة والقوى التي تقهرهم على عبادة غير الله ، والخضوع لسلطان غير سلطانه ، والتحاكم إلى شرع غير شرعه . .

ومن ثم تراهم يقولون مثلا : إن الله سبحانه يقول : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله » . . ويقول : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ».. ويقول : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » . . . ويقول عن أهل الكتاب : « قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » . .

فالإسلام إذن لا يقاتل إلا الذين يقاتلون أهل دار الإسلام في داخل حدود هذه الدار أو الذين يهددونها من الخارج ! وأنه قد عقد صلح الحديبية مع المشركين . وأنه قد عقد معاهدة مع يهود المدينة ومشركيها ! ومعنى ذلك - في تصورهم المهزوم - أن لا علاقة للإسلام إذن بسائر البشر في أنحاء الأرض . ولا عليه أن يعبدوا ما يعبدون من دون الله . ولا عليه أن يتخذ الناس بعضهم بعضا أربابا من دون الله في الأرض كلها ما دام هو آمنا داخل حدوده الاقليمية ! وهو سوء ظن بالإسلام وسوء ظن بالله - سبحانه ! - تمليه الهزيمة أمام الواقع البائس النكد الذي يواجههم ؛ وأمام القوى العالمية المعادية التي لا طاقة لهم بها في اللحظة الحاضرة !

وهان الأمر لو أنهم حين يهزمون روحيا أمام هذه القوى لا يحيلون هزيمتهم إلى الإسلام ذاته ؛ ولا يحملونه على ضعف واقعهم الذي جاءهم من بُعدهم عن الإسلام أصلا ! ولكنهم يأبون إلا أن يحملوا ضعفهم هم وهزيمتهم على دين الله القوي المتين !

إن هذه النصوص التي يلتجئون إليها نصوص مرحلية تواجه واقعا معينا . وهذا الواقع المعين قد يتكرر وقوعه في حياة الأمة المسلمة . وفي هذه الحالة تطبق هذه النصوص المرحلية لأن واقعها يقرر أنها في مثل تلك المرحلة التي واجهتها تلك النصوص بتلك الأحكام . ولكن هذا ليس معناه أن هذه هي غاية المنى ؛ وأن هذه هي نهاية خطوات هذا الدين . . إنما معناه أن

Marfat.com

على الأمة المسلمة أن تمضى قدما فى تحسين ظروفها ؛ وفى إزالة العوائق من طريقها ، حتى تتمكن فى النهاية من تطبيق الأحكام النهائية الواردة فى السورة الأخيرة ، والتى كانت تواجه واقعا غير الواقع الذى واجهته النصوص المرحلية .

إن النصوص الأخيرة تقول فى شأن المشركين :

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله ، وأن الله مخزى الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ، ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم . وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » . .

وتقول فى شأن أهل الكتاب :

« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ، ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . .

فإذا كان المسلمون اليوم لا يملكون بواقعهم تحقيق هذه الأحكام ؛ فهم ـ اللحظة ومؤقتا ـ غير مكلفين بتحقيقها ـ ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ـ ولهم فى الأحكام المرحلية سعة يتدرجون معها حتى ينتهوا إلى تنفيذ هذه الأحكام الأخيرة عندما يكونون فى الحال التى يستطيعون معها تنفيذها . . ولكن عليهم ألا يلووا أعناق النصوص النهائية لتوافق أحكام النصوص المرحلية . وعليهم ألا يحملوا ضعفهم الحاضر على دين الله القوى المتين . وعليهم أن يتقوا الله فى مسخ هذا الدين وإصابته بالهزال بحجة أنه دين السلم والسلام ! إنه دين السلم والسلام فعلا ، ولكن على أساس إنقاذ البشرية كلها من عبادة غير الله ، وإدخال البشرية كافة فى السلم كافة . . إنه

Marfat.com

منهج الله هذا الذى يراد البشر على الارتفاع إليه ، والاستمتاع بخيره ؛ وليس منهج عبد من العبيد ؛ ولا مذهب مفكر من البشر ؛ حتى يخجل الداعون إليه من إعلان أن هدفهم الأخير هو تحطيم كل القوى التى تقف فى سبيله ؛ لإطلاق الحرية للناس أفرادا فى اختياره ..

* * *

إنه حين تكون المذاهب التى يتبعها الناس مذاهب بشرية من صنع العبيد ؛ وحين تكون الأنظمة والشرائع التى تصرف حياتهم من وضع العبيد أيضا . فإنه فى هذه الحالة يصبح لكل مذهب ولكل نظام الحق فى أن يعيش داخل حدوده آمنا ، مادام أنه لا يعتدى على حدود الآخرين ، ويصبح من حق هذه المذاهب والأنظمة والأوضاع المختلفة أن تتعايش وألا يحاول أحدها إزالة الآخر !

فأما حين يكون هناك منهج إلهى وشريعة ربانية ، ووضع العبودية فيه لله وحده ؛ وتكون إلى جانبه مناهج ومذاهب وأوضاع من صنع البشر العبودية فيها للعباد . . فإن الأمر يختلف من أساسه . ويصبح من حق المنهج الإلهى أن يجتاز الحواجز البشرية ؛ ويحرر البشر من العبودية للعباد ؛ ويتركهم أحرارا فى اختيار العقيدة التى يختارونها فى ظل الدينونة لله وحده .

والمهزومون الذين يحاولون أن يلووا أعناق النصوص ليا ليخرجوا من الحرج الذى يتوهمونه فى انطلاق الإسلام وراء حدوده الأولى ليحرر البشر فى الأرض كلها من العبودية لغير الله . ينسون هذه الحقيقة الكبرى . . وهى أن هناك منهجا ربانيا العبودية فيه لله وحده يواجه مناهج بشرية العبودية فيها للعبيد ! ! !

إن للجهاد المطلق فى هذا الدين مبرراته النابعة من ذات المنهج الإلهى ؛ فليراجعها المهزومون الذين يحملون هزيمتهم وضعفهم على هذا الدين [1] . لعل الله أن يرزقهم القوة من عنده ؛ وأن يجعل لهم الفرقان الذى وعد به عباده المتقين !

وأخيرا فإن هذه السورة لم تكتب البسملة فى أولها كبقية السور – فى مصحف عثمان رضى

---

(١) يراجع فى تقديم سورة الأنفال ماورد عن مبررات الجهاد الإسلامى ص ١٦٦ – ص ٢٠١ من الجزء التاسع من الطبعة الثانية المنقحة :

Marfat.com

الله عنه وهو عمدة المصاحف ـ وقد روى الترمذى ـ بإسناده ـ عن ابن عباس قال : « قلت لعثمان ابن عفان ماحملكم أن عمدتم إلى الأنفال ـ وهى من المثانى ـ [1] وإلى براءة ـ وهى من المئين ـ وقرنتم بينهما ، ولم تكتبوا بينهما سطر « بسم الله الرحمن الرحيم » ؟ ووضعتموها فى السبع الطوال ؟ ماحملكم على ذلك ؟ فقال عثمان : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان مما يأتى عليه الزمان وهو تنزل عليه السور ذات العدد . فكان إذا نزل عليه الشىء دعا بعض من كان يكتب ، فيقول : « ضعوا هذه الآية فى السورة التى يذكر فيها كذا وكذا » . وكانت الأنفال من أول مانزل بالمدينة . وكانت براءة من آخر مانزل من القرآن . وكانت قصتها شبيهة بقصتها . وخشيت أنها منها . وقبض رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يبين لنا أنها منها . فمن أجل ذلك قرنت بينهما ، ولم أكتب بينهما سطر : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، ووضعتهما فى السبع الطوال » .

وهذه الرواية أقرب الروايات إلى تقديم تفسير مقبول لوضع السورتين هكذا ، وعدم الفصل بينهما بسطر : « بسم الله الرحمن الرحيم » . كما أنها تفيدنا فى تقرير أن وضع الآيات فى السور ، وترتيبها فى مواضعها ، كان يتم بأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حياته . وأن سورا متعددة كانت تظل مفتوحة فى الوقت الواحد ؛ فإذا نزلت آية أو آيات فى مناسبة واقعة تواجه واقعا قائما . أو تكمل حكما أو تعد له ، وفق المنهج الحركى الواقعى لهذا الدين ، أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن توضع فى موضعها من سورتها . . وبذلك كانت هناك حكمة معينة فى أن تتضمن كل سورة ما تضمنته من الآيات ، وحكمة معينة كذلك فى ترتيبها فى مواضعها من السورة .

ولقد لاحظنا ـ كما أثبتنا ذلك مرارا فى التعريف بالسور ـ أن هناك « شخصية » خاصة لكل سورة ؛ وسمات معينة تحدد ملامح هذه الشخصية . كما أن هناك جوا معينا وظلالا معينة . ثم تعبيرات بعينها فى السورة الواحدة . تؤكد هذه الملامح ، وتبرز تلك الشخصية ! ولعل فى

(١) السور التى لاتبلغ آياتها مئة وليست من القصار .

Marfat.com

الفقرة السابقة ، وفى حديث ابن عباس قبلها ، مايفسر هـذه الظاهرة الواضحة التى أثبتناها مرارا فى التعريف بالسور فى هذه الظلال .

والآن نكتفى بهذا القدر فى التعريف المجمل بالسورة ؛ وننتقل إلى مواجهـة النصوص القرآنية فى سياقها .

. . وعلى الله التوفيق ومنه التيسير . .

Marfat.com

سورة التوبة
مدنية وآياتها ١٢٩

« بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ، وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ * وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا ، فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ . فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ .

« كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ؟ - إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ * كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ؟ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ

Marfat.com

هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ * فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ
وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى
دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ .

« أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ
أَوَّلَ مَرَّةٍ ؟ أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ
ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ * وَيُذْهِبْ
غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟
وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ
وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ، وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ .

« مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ،
أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ، فَعَسَىٰٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ .

« أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ؟ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ * ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ،
وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ ، وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا
نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟

Marfat.com

الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ : إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ .

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ * ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ * ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ »

هـذا المقطع من سياق السور نزل متأخرا عن بقيتها ؛ وإن كان قد جاء ترتيبه فى مقدماتها . وترتيب الآيات فى السوره كان يتم ـ كما تقدم ـ بأمر رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ فهو أمر توقيفى منه صلى الله عليه وسلم .

وهو يتضمن إنهاء العهود التى كانت قائمة بين المسلمين والمشركين حتى ذلك الحـين . سواء كان هذا الإنهاء بعد أربعة أشهر لمن كانت عهودهم مطلقة ، أو الناكثين لعهودهم ؛ أو كان بعد انتهاء الأجل لمن كانت لهم عهود مقيدة ، ولم ينقصوا المسلمين شيئا ولم يظاهروا عليهم أحدا . . فعلى الجملة كانت النتيجة الأخيرة هى إنهاء العهود مع المشركين فى الجزيرة العربية ؛ وإنهـاء مبدأ التعاقد أصلا مع المشركين بعد ذلك . بالبراءة المطلقة من المشركين ، وباستنـكار أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله .

Marfat.com

ومن بين مايتضمنه كذلك عدم السماح للمشركين بالطواف بالمسجد الحرام أو عمارته فى صورة من الصور بعد ذلك . خلافا لما كان عليه العهد العام المطلق بين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمشركين ، أن يأمن بعضهم بعضا فى البيت الحرام والأشهر الحرم مع بقائهم على شركهم .

والذى يراجع أحداث السيرة النبوية ووقائعها ، ليرى من خلالها الواقع التاريخى للمنهج الحركى الإسلامى ؛ ويراجع كذلك طبيعة هذا المنهج فى ذاته ومراحله وأهدافه .. يرى بوضوح أن هذه الخطوة الحاسمة فى العلاقات بين المعسكر الإسلامى فى الجزيرة وسائر معسكرات المشركين ـ وكذلك بينه وبين معسكرات أهل الكتاب التى تقررت فى هذه السورة ـ كان قد جاء موعدها ، وتمهدت لها الأرض ، وتهيأت لها الأحوال ، وأصبحت هى الخطوة الطبيعية فى أوانها المحتوم .

كان قد تبين من الواقع العملى مرحلة بعد مرحلة ، وتجربة بعد تجربة ، أنه لا يمكن التعايش بين منهجين للحياة بينهما هذا الاختلاف الجذرى العميق البعيد المدى الشامل لكل جزئية من جزئيات الاعتقاد والتصور ، والخلق والسلوك ، والتنظيم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ـ والإنسانى ـ وهو الاختلاف الذى لابد أن ينشأ من اختلاف الاعتقاد والتصور .. منهجين للحياة أحدهما يقوم على عبودية العباد لله وحده بلا شريك ؛ والآخر يقوم على عبودية البشر للبشر ، وللآلهة المدعاة ، وللأرباب المتفرقة . ثم يقع بينهما التصادم فى كل خطوة من خطوات الحياة ؛ لأن كل خطوة من خطوات الحياة فى أحد المنهجين لا بد أن تكون مختلفة مع الأخرى ، ومتصادمة معها تماما ، فى مثل هذين المنهجين وفى مثل هذين النظامين .

إنها لم تكن فلتة عارضة أن تقف قريش تلك الوقفة العنيدة لدعوة « أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » فى مكة . ولا أن تحاربها هذه الحرب الجائرة فى المدينة . . ولم تكن فلتة عارضة أن يقف اليهود فى المدينة كذلك لهذه الحركة ؛ وأن يجمعهم مع المشركين معسكر واحد ـ وهم من أهل الكتاب ! ـ وأن يؤلب اليهود وتؤلب قريش قبائل العرب فى الجزيرة فى غزوة الأحزاب لاستئصال شأفة ذلك الخطر الذى يتهدد الجميع بمجرد قيام الدولة فى المدينة

Marfat.com

على أساس هذه العقيدة ، وإقامة نظامها وفق ذلك المنهج الربانى المتفرد ! . . وكذلك سنعلم بعد قليل أنها لم تكن فلتة عابرة أن يقف النصارى - وهم من أهل الكتاب كذلك ! - لهذه الدعوة ولهذه الحركة سواء فى اليمن أم فى الشام ؛ أم فيما وراء اليمن ووراء الشام إلى آخر الزمان ! . . إنها طبائع الأشياء . . إنها أولا طبيعة المنهج الإسلامى التى يعرفها جيدا -ويستشعرها بالفطرة - أصحاب المناهج الأخرى ! طبيعة الإصرار على إقامة مملكة الله فى الأرض، وإخراج الناس كافة من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ؛ وتحطيم الحواجز المادية التى تحول بين « الناس كافة » وبين حرية الاختيار الحقيقية .. ثم إنها ثانيا طبيعة التعارض بين منهجين للحياة لا التقاء بينهما فى كبيرة ولا صغيرة ؛ وحرص أصحاب المناهج الأرضية على سحق المنهج الربانى الذى يتهدد وجودهم ومناهجهم وأوضاعهم قبل أن يسحقهم ! . . فهى حتمية لا اختيار فيها - فى الحقيقة - لهؤلاء ولا هؤلاء !

وكانت هذه الحتمية تفعل فعلها على مدى الزمن ، وعلى مدى التجارب ؛ وتتجلى فى صور شتى ، تؤكد وتعمق ضرورة الخطوة النهائية الأخيرة التى أعلنت فى هذه السورة ؛ ولم تكن الأسباب القريبة المباشرة التى تذكرها بعض الروايات إلا حلقات فى سلسلة طويلة ممتدة على مدى السيرة النبوية الشريفة ، وعلى مدى الحركة الإسلامية منذ أيامها الأولى . .

وبهذه السعة فى النظرة إلى الجذور الأصيلة للموقف ، وإلى تحركاته المستمرة ، يمكن فهم هذه الخطوة الأخيرة . وذلك مع عدم إغفال الأسباب القريبة المباشرة ، لأنها بدورها لا تعدو أن تكون حلقات فى تلك السلسلة الطويلة .

وقد ذكر الإمام البغوى فى تفسيره أن المفسرين قالوا : إنه لما خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى تبوك أرجف المنافقون ، وأخذ المشركون ينقضون عهودهم ؛ فأنزل الله الآيات بالنسبة لهؤلاء ، مع إمهالهم أربعة أشهر إن كانت مدة عهدهم أقل ، أو قصرها على أربعة أشهر إن كانت أكثر .

وذكر الإمام الطبرى - بعد استعراضه الأقوال فى تفسير مطلع السورة - : وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال : الأجل الذى جعله الله لأهل العهد من المشركين ، وأذن لهم

Marfat.com

بالسياحة فيه بقوله : « فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر » إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته . فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه ، فإن الله جل ثناؤه أمر نبيه – صلى الله عليه وسلم – بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين » .

ومما رواه الطبرى كذلك – بإسناده – عن مجاهد قوله : « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » قال : أهل العهد : مدلج والعرب الذين عاهدهم ، ومن كان له عهد . قال : أقبل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من تبوك حين فرغ منها ، وأراد الحج . ثم قال : «إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة ، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك » . فأرسل أبا بكر وعليا رحمة الله عليهما . فطافا بالناس بذى المجاز ، وبأمكنتهم التى كانوا يتبايعون بها ، وبالموسم كله ، وآذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر . فهى الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات : عشرون من آخر ذى الحجة إلى عشر يخلون من شهر ربيع الآخر . ثم لا عهد لهم . وآذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا (١) . فآمن الناس أجمعون حينئذ ، ولم يسح أحد » .

وهذه الأسباب القريبة المباشرة لاشك كان لها وزنها فى اتخاذ الخطوة الأخيرة الحاسمة . ولكنها بدورها ليست إلا حلقات فى السلسلة الطويلة ؛ الناشئة ابتداء من الحتمية الجذرية الكبيرة : وهى تعارض المنهجين أصلا ، وعدم إمكان التعايش بينهما إلا فترات اضطرارية تنتهى حتما . .

وقد أراد المرحوم الشيخ رشيد رضا أن يلم بحلقات السلسلة منذ بدء الدعوة – وإن يكن لم يحاول أن يلم بأصل الاختلاف الجذرى الدائم الذى ينشىء هذه السلسلة بحلقاتها ؛ والذى ينتهى بما انتهت إليه حتما – فقال فى تفسير المنار :

---

(١) واضح من النص القرآنى أنه أمهل ذوى العهود غير الناقضين إلى مدتهم . ولعل مجاهدا – رضى الله عنه – إنما عنى ذلك إجمالا . .

Marfat.com

« من المشهور القطعي الذي لاخلاف فيه ، أن الله تعالى بعث محمدا رسوله وخاتم النبيين بالإسلام الذي أكمل به الدين ، وجعل آيته الكبرى هذا القرآن المعجز للبشر من وجوه كثيرة ، ذكرنا كلياتها في تفسير : (٢ : ٣) (ص ١٩٠ - ص ٢٢٨ ج ١) وأقام بناء الدعوة إليه على أساس البراهين العقلية والعلمية المقنعة والملزمة (١) ؛ ومنع الإكراه فيه والحمل عليه بالقوة ، كما بيناه في تفسير (٢ : ٢٥٦ ص ٢٦ - ص ٤٠ ج ٣) فقاومه المشركون ، وفتنوا المؤمنين بالتعذيب والاضطهاد لصدهم عنه ، وصدوه (ص) عن تبليغه للناس بالقوة ؛ ولم يكن أحد ممن اتبعه يأمن على نفسه من القتل أو التعذيب ، إلا بتأمين حليف أو قريب . فهاجر من هاجر منهم المرة بعد المرة ؛ ثم اشتد إيذاؤهم للرسول (ص) حتى ائتمروا بحبسه الدائم أو نفيه أو قتله علنا في دار الندوة ؛ ورجحوا في آخر الأمر قتله ؛ فأمره الله تعالى بالهجرة ، كما تقدم في تفسير (٨ : ٣٠ وإذ يمكر بك الذين كفروا - ص ٦٥٠ ج ٩) فهاجر (ص) وصار يتبعه من قدر على الهجرة من أصحابه إلى حيث وجدوا من مهاجرهم بالمدينة المنورة أنصارا لله ولرسوله يحبون من هاجر إليهم ، ويؤثرونهم على أنفسهم . وكانت الحال بينهم وبين مشركي مكة وغيرهم من العرب حال حرب بالطبع ومقتضى العرف العام في ذلك العصر . وعاهد (ص) أهل الكتاب من يهود المدينة وما حولها على السلم والتعاون ، فخانوا وغدروا ، ونقضوا عهودهم له بما كانوا يوالون المشركين ويظاهرونهم كلما حاربوه . كما تقدم بيان ذلك كله في تفسير سورة الأنفال من هذا الجزء (ص ٥٣ - ص ٦٨) .

« وقد عاهد (ص) المشركين في الحديبية على السلم والأمان عشر سنين بشروط تساهل معهم فيها منتهى التساهل ، عن قوة وعزة ، لا عن ضعف وذلة ، ولكن حبا بالسلم ونشر دينه بالإقناع والحجة (٢) . ودخلت خزاعة في عهده (ص) كما دخلت بنو بكر في عهد قريش ؛ ثم

(١) لابد أن ننبه هنا إلى منهج مدرسة الأستاذ الشيخ محمد عبده ، المتأثرة بفلسفة غريبة عن الإسلام وهي فلسفة « ديكارت » مما جعلها تركز تركيزا شديدا على « العقل » وتعطيه أكثر من مجاله في مسائل العقيدة . فلا بد أن نضيف إلى البراهين العقلية والعلمية البراهين الفطرية البديهية كذلك في هذا الدين ومجاوبتها لكل الكينونة البشرية بما فيها العقل والذهن .

(٢) هذا كلام صحيح إذا أريد به أن نشر العقيدة بالإقناع والحجة هو قاعدة هذه الحركة . ولكنه يتجاوز مداه المأمون حين يراد به أن الجهاد في الإسلام لايكون إلا دفاعا عن المسلمين ، وأن السلم واجبة في غير هذه الحالة . . كما يتجه المؤلف رحمه الله .

Marfat.com

عدا هؤلاء على أولئك وأعانتهم قريش بالسلاح فنقضوا عهدهم ، فكان ذلك سبب عودة الحرب العامة معهم ، وفتحه (ص) لمكة ، الذى خضد شوكة الشرك وأذل أهله ؛ ولكنهم مازالوا يحاربونه حيث قدروا ؛ وثبت بالتجربة لهم فى حالى قوتهم وضعفهم أنهم لا عهود لهم ، ولا يؤمن نقضهم وانتقاضهم ، وكما يأتى قريبا فى قوله تعالى من هذه السورة ٧ : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ـ إلى قوله فى آخر آية ١٢ ـ فقاتلوا أئمة الكفر ، إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » . أى لا عهود لهم يرعونها ويفون بها . والمراد أنه لا يمكن أن يعيش المسلمون معهم بحكم المعاهدات المرعية ، فيأمن كل منهم شر الآخر وعدوانه ، مع بقائهم على شركهم الذى ليس له شرع يدان به (١) ، فيجب الوفاء بالعهد بإيجابه . كيف وقد سبقهم إلى الغدر ونقض الميثاق ، من كانوا أجدر بالوفاء وهم أهل الكتاب (٢) ؟ !

« هذا هو الأصل الشرعى الذى بنى عليه ما جاءت به هذه السورة من نبذ عهودهم المطلقة ، وإتمام مدة عهدهم المؤقتة لمن استقام عليها ؛ وأما حكمة ذلك فهى محو بقية الشرك من جزيرة العرب بالقوة ، وجعلها خالصة للمسلمين ، مع مراعاة الأصول السابقة فى قوله تعالى : (٢ : ١٩٠ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم) وقوله : (٨ : ٦١ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) بقدر الإمكان . وإن قال الجمهور بنسخ هذه الآية بآية السيف من هذه السورة ونبذ عهود الشرك » .. انتهى .

وظاهر من هذا الاستعراض ومن التعقيب عليه ـ ومما جاء بعده فى تفسير السورة فى تفسير المنار ـ أنه مع لمس السبب الأصيل العميق الكامن وراء هذه السلسلة من نقض العهود ، وابتداء أول فرصة لحرب الإسلام وأهله من المشركين وأهل الكتاب ، فإن المؤلف لا يتابع

(١) و (٢) من العجيب أنه مع لمس المؤلف ـ رحمه الله ـ لهذه الحقيقة الأصيلة التى هى القاعدة الأساسية لعدم إمكان التعايش على أساس المعاهدات بين المعسكر الإسلامى ومعسكر الشرك ومعسكر أهل الكتاب ـ إلا فى فترات موقوتة لا تمثل قاعدة دائمة ـ فإنه اتجه إلى أن قاعدة العلاقات بين المعسكر الإسلامى وهذه المعسكرات هى المعاهدات السلمية مالم يقع الاعتداء على المسلمين فى دارهم ! وأن هذا ممكن دائما ! وغيره هو الاستثناء ! وأن الأمر خاص بمشركى الجزيرة . . (وهذا صحيح نسبيا ، ولكن حقيقة الأمر فى المشركين عامة هى ذاتها حقيقة مشركى الجزيرة . كما سنبين فى أثناء مواجهة النصوص) .

Marfat.com

هذا السبب إلى جذوره ؛ ولا يرى امتداده وشموله ؛ ولا يستشرف الحقيقة الكبيرة فى طبيعة هذا الدين وطبيعة منهجه الحركى ؛ وطبيعة الاختلاف الجذرى بين منهج الله ومناهج العبيد ، التى لا يمكن الالتقاء على شىء منها ؛ وبالتالى لا يمكن التعايش الطويل بين المعسكرات القائمة على منهج الله وهذه المناهج أصلا !

فأما الأستاذ محمد عزة دروزة فى تفسيره للسورة فى كتابه : « التفسير الحديث » فيبعد جدا عن هذه الحقيقة الكبرى ؛ ولا يلمس ذلك السبب الأصيل العميق أصلا . ذلك أنه مشغول ـ كغيره من الكتاب المحدثين الواقعين تحت ضغط الواقع البائس لذرارى المسلمين ، وللقوة الظاهرة لمعسكرات المشركين والملحدين وأهل الكتاب فى هذا الزمان ـ بتلمس شهادة لهذا الدين بأنه دين السلم والسلام ؛ الذى لا يعنيه إلا أن يعيش داخل حدوده فى سلام ! فمتى أمكنت المهادنة والمعاهدة فهو حريص عليها ، لا يعدل بها هدفا آخر !

وهو من ثم لا يرى سببا لهذه النصوص الجديدة الأخيرة فى سورة التوبة إلا نقض بعض المشركين لعهودهم مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأن الذين لم ينقضوا عهودهم ـ سواء كانت مؤقتة أو مؤبدة ـ فقد جاءت السورة بالمحافظة عليها . وأنه حتى إذا انقضت عهودهم فإنه يجوز أن تعقد معهم معاهدات جديدة ! وكذلك الناكثون أنفسهم ! وأن الآيات المرحلية هى الأصل الذى يقيد عموم الآيات الأخيرة فى هذه السورة ! ! !

وفى ذلك يقول فى شرح قوله تعالى : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم » . .

« وفى الآيتين وما قبلهما صور من السيرة النبوية فى أواخر العهد المدنى ، حيث ينطوى فيهما أنه كان بين المسلمين والمشركين عهود سلم بعد الفتح المكى ربما كانت ممتدة إلى ما قبله ، وأن من المشركين من ظلوا أوفياء لعهودهم ، ومنهم من نقض أو ظهرت منه علائم النقض والغدر .

Marfat.com

« ولقد نبهنا قبل على أن أهل التأويل والمفسرين يسمون الآية الثانية من الآيتين اللتين نحن في صددها آية السيف ، ويعتبرونها ناسخة لكل آية فيها أمر بالتسامح والتساهل مع المشركين وإمهالهم والإغضاء والصفح والإعراض عنهم . وتوجب قتالهم إطلاقا . وبعضهم يستثنى المعاهدين منهم إلى مدتهم ، وبعضهم لا يستثنيهم ولا يجوّز قبول غير الإسلام منهم بعد نزولها ونبهنا على ما فى ذلك من غلو ومناقضة للتقريرات القرآنية المتضمنة لأحكام محكمة بعدم قتال غير الأعداء وترك المسالمين والموادين وبرهم والإقساط إليهم . ولقد كرر المفسرون أقوالهم ورواياتهم عن قدماء أهل التأويل فى مناسبة هذه الآية ، فروى ابن كثير عن ابن عباس أن الآية أمرت النبي صلى الله عليه وسلم بأن يضع السيف فى من عاهدهم حتى يدخلوا فى الإسلام ، وأن ينقض ما كان سمى لهم من عهد وميثاق . وقد روى المفسر نفسه قولا عجيبا عن سليمان ابن عيينة جمع فيه بين هذه الآيات وآيات أخرى من هذه السورة وغيرها ليست فى صدد قتال المشركين سماها الأسياف ، وقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم بعث على ابن أبي طالب بها حين بعثه يؤذن فى الناس يوم الحج الأكبر ، منها هذه الآية وسماها سيفا فى المشركين من العرب ، وسيفا فى قتال أهل الكتاب وهى آية التوبة هذه : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »(٢٩) وسيفا فى المنافقين وهو هذه الآية من سورة التوبة أيضا : «يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير» (٧٣) وسيفا فى قتال الباغين وهو هذه الآية فى سورة الحجرات : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » (٩) . ومن العجيب أن الطبرى ذهب إلى أن هذه الآية تشمل المعاهدين ومن لا عهد لهم إطلاقا دون تفريق . مع أنه قرر فى سياق آية الممتحنة هذه : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » (٨) أنها محكمة وأن الله لا ينهى المسلمين عن البر والإقساط لمن يقف منهم موقف المسالمة والمحاسنة والحياد من أية ملة كانوا . وهؤلاء قد لا يكونون معاهدين !

« كل هذا والآية كما هو واضح من فحواها وسياقها هى فى صدد قتال المشركين المعاهدين الناقضين لعهدهم وحسب . بحيث يسوغ القول إن اعتبارها آية سيف وجعلها شاملة لكل مشرك

Marfat.com

إطلاقا تحميل لها مما لايتحمله هـذا السياق والفحوى ، وكذلك الأمر فى اعتبارها ناسخة للتقريرات المنطوية فى آيات عديدة والتى عليها طابع المبدأ المحكم العام ، مثل عـدم الإكراه فى الدين والدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن والحث على البر والإقساط لمن لايقاتل المسلمين ولا يخرجونهم من ديارهم على ما نبهنا عليـه فى مناسبات عديدة سابقة . ويأتى بعد قليل آية فيها أمر صريح للمسلمين بالاستقامة على عهدهم مع المشركين الذين عاهدوهم عنـد المسجد الحرام ما استقاموا لهم ، وفى هـذه الآية دليل قوى على وجاهة ماتقرره إن شاء الله .

« وقدترد مسألتان فى صدد ما ينطوى فى الآيتين من أحكام أولاهما : أن الاستثناء الوارد فى أولى الآيتين محدد بانقضاء مدة العهد ، فهل يكون المعاهدون من المشركين حين انقضاء هذه المـدة موضع براءة الله ورسوله ويجب قتالهم ؟ وكلام المفسرين ينطوى على الإجابة عن هـذا السؤال بالإيجاب . ولم نطلع على أثر نبوى وثيق فى هذا الصدد . ونرى أن كلام المفسرين يصح أن يكون محل توقف إذا أريد به الإطلاق . وأن الأمر يتحمل شيئا من التوضيح : فالمعاهدون إما أن يكونوا أعداء للمسلمين قبل العهد ، وقد وقع حرب وقتال بينهم ، ثم عاهدهم المسلمون كما كان شأن قريش وصلحهم مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الحديبية . وإما أن يـكونوا قد رغبوا فى موادعة المسلمين ومسالمتهم دون أن يـكون قد وقع بينهم عداء وقتال . وآية النساء هـذه : « إلا الذين يصلون إلى قوم بينـكم وبينهم ميثاق ، أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم، ولو شاء الله لسلطهم علـيكم فلقاتلوكم. فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إلـيكم السلم فما جعل الله لـكم عليهم سبيلا » (٩٠) تنطوى فيها على ما نعتقد حالة واقعية مثـل ذلك . وفى روايات السيرة بعض الأمثلة حيث روى ابن سعد أن النبى صلى الله عليـه وسلم وادع بنى صخر من كنانة ألا يغزوهم ولا يغزوه ولا يـكثروا عليه ولا يعينوا عليه عدوا ، وكتب بينه وبينهم كتابا بذلك . وليس فى الآية ولا فى غيرها مايمنع تجديد العهد أو تمديده مع هؤلاء ولا مع أولئك إذا رغبوا ولم يـكن قد ظهر منهم نقض ولا نية غدر . وليس للمسلمين أن يرفضوا ذلك لأنهم إنما أمروا بقتال من يقاتلهم ويعتدى عليهم بشكل من الأشكال . وفى الآية التى تأتى بعد قليل والتى تأمر المسلمين بصراحة بالاستقامة على عهدهم مع المشركين ما استقاموا لهم قرينة على ما نقول إن شاء الله .

Marfat.com

« أما المسألة الثانية : فهى ماتفيده الفقرة الأخيرة من الآية الثانية من كون تخلية سبيل المشركين والكف عن قتالهم بسبب نقضهم منوطين بتوبتهم عن الشرك وإقامتهم الصلاة وإيتائهم الزكاة .

« والذى يتبادرلنا فى صدد هذه المسألة أن المشركين بعد أن نقضوا عهدهم وقاتلهم المسلمون فقدوا حق العهد ثانية . وصار من حق المسلمين أن يفرضوا الشرط الذى يضمن لهم الأمن والسلامة ، وهو توبتهم عن الشرك ودخولهم فى الإسلام وقيامهم بواجباته التعبدية والمالية . ولا يعد هذا من قبيل الإكراه فى الدين ، بقطع النظر عن أن الشرك يمثل مظاهر انحطاط الإنسانية وتسخيرها لقوى وأفكار وعقائد سخيفة مغايرة للعقل والمنطق والحق ، كما يمثل نظاما جاهليا فيه التقاليد الجائرة والعادات المنكرة والعصبيات الممقوتة ، وأن الإسلام الذى يشترط عليهم الدخول فيه يضمن لهم الخلاص من ذلك ، والارتفاع بهم إلى مستوى الكمال الإنسانى عقلا وخلقا وعبادة وعقيدة وعملا . على أننا لسنا نرى فى الآيات مع ذلك مايمنع المسلمين أن يجددوا العهد مع الناكثين بعد الحرب ثانية إذا كانت مصلحتهم تقتضى ذلك . وقد لايكونون قادرين على متابعة الحرب ، أو على إخضاعهم بالقوة . والله تعالى أعلم » . . . انتهى

وواضح من هذه الفقرات التى اقتطفناها ومن أمثالها فى تفسير المؤلف كله أنه ابتداء لايلقى باله إلى حق الإسلام المطلق فى أن ينطلق فى الأرض لتحرير البشرية من العبودية للعباد ، وردها إلى الله وحده ، حينما كان ذلك ممكنا له ، بغض النظر عما إذا كان هناك اعتداء على أهله داخل حدودهم الإقليمية أم لم يكن . . فهو يستبعد هذا المبدأ ابتداء . وهو المبدأ الذى يقوم عليه الجهاد فى الإسلام . وبدونه يفقد دين الله حقه فى أن يزيل العقبات المادية من طريق الدعوة ، ويفقد كذلك جديته وواقعيته فى مواجهة الواقع البشرى بوسائل مكافئة له فى مراحل متعددة بوسائل متجددة ، ويصبح عليه أن يواجه القوى المادية بالدعوة العقيدية ! وهو هزال لايرضاه الله لدينه فى هذه الأرض (١) !

---

(١) يراجع ما كتبناه عن الجهاد وما اقتبسناه من كتاب الأستاذ المودودى عن (الجهاد فى سبيل الله) فى الجزء التاسع من هذه الطبعة من الظلال من ص ١٦٦ — ص ٢٠١ .

Marfat.com

وواضح كذلك أن المؤلف لايلق باله إلى طبيعة المنهج الحركى فى الإسلام ، ومواجهته للواقع بوسائل مكافئة . فهو يحيل الأحكام النهائية الأخيرة على النصوص المرحلية قبلها . دون التفات إلى أن النصوص السابقة كانت تواجه حالات واقعة غير الحالة التى جاءت النصوص الأخيرة تواجهها .. وحقيقة إن هذه الأحكام ليست (منسوخة) بمعنى أنه لايجوز الأخذ بها مهما تكن الأحوال ـ بعد نزول الأحكام الأخيرة ـ فهى باقية لمواجهة الحالات التى تكون من نوع الحالات التى واجهتها . ولكنها لاتقيد المسلمين إذا واجهتهم حالات كالتى واجهتها النصوص الأخيرة ، وكانوا قادرين على تنفيذها . .

. . إن الأمر فى حاجة إلى سعة ومرونة وإدراك لطبيعة هذا الدين وطبيعة منهجه الحركى كما أسلفنا . .

* * *

وبعد ، فإننا نعود إلى العبارة التى افتتحنا بها الفقرة السابقة :

« والذى يراجع أحداث السيرة النبوية ووقائعها ، ليرى من خلالها الواقع التاريخى للمنهج الحركى الإسلامى ، ويراجع كذلك طبيعة هذا المنهج فى ذاته ومراحله وأهدافه .. يرى بوضوح أن هذه الخطوة الحاسمة فى العلاقات بين المعسكر الإسلامى فى الجزيرة وسائر معسكرات المشركين ـ وكذلك بينه وبين معسكرات أهل الكتاب التى تقررت فى هذه السورة ـ كان قد جاء موعدها ، وتمهدت لها الأرض ، وتهيأت لها الأحوال ، وأصبحت هى الخطوة الطبيعية فى أوانها المحتوم » .

كانت التجربة تلو التجربة قد كشفت عن القانون الحتمى الذى يحكم العلاقات بين المجتمع المسلم الذى يُفرد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والقوامة والحاكمية والتشريع ؛ والمجتمعات الجاهلية التى تجعل هذا كله لغير الله ، أو تجعل فيه شركاء لله .. هذا القانون الحتمى هو قانون الصراع الذى يعبر عنه قول الله سبحانه : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » .. (الحج : ٤٠) والذى يقول عنه سبحانه كذلك : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » . . (البقرة : ٢٥١) .

وقد ظهرت آثار هذا القانون الحتمى فى ظاهرتين بارزتين :

إحداهما : انطلاق الإسلام خطوة بعد خطوة ، وغزوة بعد غزوة ، ومرحلة بعد مرحلة ؛

Marfat.com

لنشر منهج الله فى الأرض حوله ؛ وإبلاغ كلمة الله إلى أرض بعد أرض وإلى قبيلة بعد قبيلة - فى طريقه إلى إبلاغها إلى الناس كافة وإزالة الحواجز المادية التى تحول دون هذا الإعلان العام والبلوغ إلى كل بنى الإنسان - حتى فتحت مكة ، وخضدت شوكة قريش العقبة الكبرى فى طريق الزحف الإسلامى ، واستسلمت هوازن وثقيف فى الطائف أقوى القبائل بعد قريش فى طريق هذا الزحف . وأصبحت للإسلام قوته التى ترهب عدوه ؛ وتسمح بالقيام بالخطوة النهائية الحاسمة فى الجزيرة - تمهيدا لما وراءها من أرض الله حسبما تتهيأ الظروف الملائمة لكل خطوة تالية ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله .

وثانيتهما : نقض العهود التى كانت المعسكرات الجاهلية تعقدها مع المسلمين - فى ظروف مختلفة - عهدا بعد عهد ؛ بمجرد أن تتاح لها فرصة نقضها ، وعند أول بادرة تشير إلى أن المعسكر الإسلامى فى ضائقة تهدد وجوده ؛ أو على الأقل تجعل هذا النقض مأمون العاقبة على ناقضيه من المشركين - ومن أهل الكتاب من قبلهم - فما كانت هذه العهود - إلا نادرا - عن رغبة حقيقية فى مسالمة الإسلام ومهادنة المسلمين ؛ إنما كانت عن اضطرار واقعى إلى حين ! فما تطيق المعسكرات الجاهلية طويلا أن ترى الإسلام مازال قائما حيالها ؛ مناقضا فى أصل وجوده لأصل وجودها ؛ مخالفا لها مخالفة جذرية أصيلة فى الصغيرة والكبيرة من مناهجها ، يهدد بقاءها بما فى طبيعته من الحق والحيوية والحركة والانطلاق لتحطيم الطاغوت كله ، ورد الناس جميعا إلى عبادة الله وحده .

وهذه الظاهرة الأخيرة والقاعدة الأصيلة التى تقوم عليها هى التى يقررها الله سبحانه فى قوله عن المشركين : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » . . . (البقرة : ٢١٧) والتى يقول فيها عن أهل الكتاب : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق » . . (البقرة : ١٠٩) ويقول فيها كذلك : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » . . (البقرة : ١٢٠) فيعلن - سبحانه - بهذه النصوص القطعية عن وحدة الهدف بين جميع معسكرات الجاهلية تجاه الإسلام والمسلمين ؛ وعن قوة الإصرار على هذا الهدف وامتدادها عبر الزمان ، وعدم توقيتها بظرف أو زمان !

Marfat.com

وبدون إدراك ذلك القانون الحتمى فى طبيعة العلاقات بين التجمع الإسلامى والتجمعات الجاهلية، وتفسير الظواهر التى تنشأ عنه - على مدار التاريخ - بالرجوع إليه، لا يمكن فهم طبيعة الجهاد فى الإسلام؛ ولا طبيعة تلك الصراعات الطويلة بين المعسكرات الجاهلية والمعسكر الإسلامى. ولا يمكن فهم بواعث المجاهدين الأوائل، ولا أسرار الفتوحات الإسلامية؛ ولا أسرار الحروب الوثنية والصليبية التى لم تفتر قط طوال أربعة عشر قرناً؛ والتى ما تزال مشبوبة على ذرارى المسلمين - وإن كانوا لسوء حظهم تخلوا عن حقيقة الإسلام ولم يبق لهم منه إلا العنوان - فى المعسكرات الشيوعية والوثنية والصليبية كلها: فى روسيا والصين ويوغسلافيا وألبانيا. وفى الهند وكشمير. وفى الحبشة وزنجبار وقبرص وكينيا وجنوب افريقية والولايات المتحدة .. وذلك فوق عمليات السحق الوحشية البشعة لطلائع البعث الإسلامى فى كل مكان فى العالم الإسلامى - أو الذى كان إسلامياً بتعبير أدق - وتعاون الشيوعية والوثنية والصليبية مع الأوضاع التى تتولى سحق هذه الطلائع، ومد يد الصداقة إليها، وإمدادها بالمعونات التى تبلغ حد الكفالة، وإقامة ستار من الصمت حولها وهى تسحق هذه الطلائع الكريمة!

إن شيئاً من هذا كله لا يصبح مفهوماً بدون إدراك ذلك القانون الحتمى والظواهر التى يتجلى فيها ..

وقد تجلى ذلك القانون - كما أسلفنا - قبيل نزول سورة التوبة وبعد فتح مكة فى هاتين الظاهرتين اللتين أسلفنا الحديث عنهما. وظهر بوضوح أنه لابد من اتخاذ تلك الخطوة الحاسمة فى الجزيرة سواء تجاه المشركين - وهو مانواجهه فى هذا المقطع من السورة - أو تجاه أهل الكتاب، وهو ما سنواجهه فى المقطع التالى مباشرة والذى بعده ..

* * *

ولكن وضوح ذلك كله للقيادة المسلمة - حينذاك - لم يكن معناه وضوحه - بنفس الدرجة - لكل الجماعات والطوائف فى المجتمع المسلم. وبخاصة حديثى العهد بالإيمان والمؤلفة قلوبهم، فضلاً على ضعاف القلوب والمنافقين!

كان فى المجتمع المسلم - ولعل بعض هؤلاء من كرام المسلمين وخيارهم - من يتحرج من

Marfat.com

إنهاء العهود مع المشركين جميعا ـ بعد أربعة أشهر للناكثين ومن لهم عهود غير مؤقتة ومن لم يحاربوا المسلمين ولو من غير عهد ومن لهم عهود أقل من أربعة ؛ وبعد انقضاء الأجل لمن لهم عهود موقوتة ولم ينقصوا المسلمين شيئا ولم يظاهروا عليهم أحدا ـ ولئن كانوا يستسيغون نبذ عهود الناكثين والذين يخاف منهم الخيانة ، كما سبق فى الحكم المرحلى الذى تضمنته سورة الأنفال : « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » . . (الأنفال : ٥٨) فإن إنهاء عهود غيرهم بعد أربعة أشهر أو بعد الأجل المقدر ، ربما بدا لهم مخالفا لما عهدوه وألفوه من معاهدة المعاهدين وموادعة الوادعين وترك المهادنين .. ولكن الله ـ سبحانه ـ كان يريد أمرا أكبر من المألوف ؛ وخطوة وراء ما انتهت إليه الأمور !

وكان فى المجتمع المسلم كذلك ـ ولعل بعض هؤلاء من كرام المسلمين وخيارهم كذلك ـ من يرى أنه لم تعد هناك ضرورة لقتال المشركين عامة ، ومتابعتهم حتى يفيئوا إلى الإسلام ؛ بعدما ظهر الإسلام فى الجزيرة وغلب ؛ ولم تبق إلا جيوب متناثرة هنا وهناك لا خوف منها على الإسلام اليوم . ومن المتوقع أن تفىء رويدا رويدا ـ فى ظل السلم ـ إلى الإسلام .. ولا يخلو هذا الفريق من التحرج من قتال الأقرباء والأصدقاء ومن تربطهم بهم علاقات اجتماعية واقتصادية متنوعة ، متى كان هناك أمل فى دخولهم فى الإسلام بغير هذا الإجراء العنيف . . ولكن الله سبحانه كان يريد أن تقوم آصرة التجمع على العقيدة وحدها ، وأن تخلص الجزيرة للإسلام ، وأن تصبح كلها قاعدة أمينة له ؛ وهو يعلم أن الروم يبيتون للإسلام على مشارف الشام كما سيجىء !

وكان فى المجتمع المسلم ـ ولعل بعض هؤلاء كان من كرام المسلمين وخيارهم أيضا ! ـ من يخشى الكساد الذى يتوقعه من تعطل الصلات التجارية والاقتصادية فى أنحاء الجزيرة بسبب إعلان القتال العام على المشركين كافة فيها ؛ وتأثير ذلك فى موسم الحج ، وبخاصة بعد إعلان ألا يحج بعد العام مشرك ، وألا يعمر المشركون مساجد الله . وبخاصة حين يضيف إلى هذا الاعتبار عدم ضرورة هذه الخطوة ؛ وإمكان الوصول إليها بالطرق السلمية البطيئة ! .. ولكن الله سبحانه كان يريد أن تقوم آصرة التجمع على العقيدة وحدها ـ كما تقدم ـ وأن تكون العقيدة أرجح فى ميزان القلوب المؤمنة من كل ما عداها . سواء من القرابات والصداقات ؛

Marfat.com

أم من المنافع والمصالح . كما أنه ـ سبحانه ـ كان يريد أن يعلمهم أنه هو الرزاق وحده ، وأن هـذه الأسباب الظاهرة للرزق ليست هى الأسباب الوحيدة التى يملك أن يسخرها لهم بقدرته .

وكان فى المجتمع المسلم من ضعاف القلوب والمترددين والمؤلفة قلوبهم والمنافقين ، وغيرهم كذلك ممن دخلوا فى دين الله أفواجا ولم ينطبعوا بعد بالطابع الإسلامى من يفرق من قتال المشركين كافة ؛ ومن الكساد الذى ينشأ من تعطيل المواسم ، وقلة الأمن فى التجارة والتنقل وانقطاع الأواصر والصلات ؛ وتكاليف الجهاد العام فى النفوس والأموال . ولا يجد فى نفسه دافعا لاحتمال هذا كله ، وهو إنما دخل فى الإسلام الغالب الظاهر المستقر ؛ فهى صفقة رابحة بلا عناء كبير . . أما هذا الذى يرادون عليه فمالهم وماله وهم حديثو عهد بالإسلام وتكاليفه ؟! . . وكان الله ـ سبحانه ـ يريد أن يمحص الصفوف والقلوب ، وهو يقول للمسلمين « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خبير بما تعملون » . .

هذه الأعراض المتشابكة فى المجتمع المسلم المختلط ـ بعد الفتح ـ اقتضت ذلك البيان الطويل المفصل المتعدد الأساليب والإيحاءات فى هذا المقطع ، لمعالجة هذه الرواسب فى النفوس ، وهـذه الخلخلة فى الصفوف ، وتلك الشبهات حتى فى قلوب بعض المسلمين المخلصين . .

اقتضت أن تفتتح السورة بهذا الإعلان العام ببراءة الله ورسوله من المشركين ، وأن يتكرر إعلان البراءة من الله ورسوله بعـد آية واحدة بنفس القوة ونفس النغمة العالية ؛ حتى لا يبقى لقلب مؤمن أن يبقى على صلة مع قوم يبرأ الله منهم ويبرأ رسوله :

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » . . (١)

« وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله » . . (٣)

واقتضت تطمين المؤمنين وتخويف المشركين بأن الله مخزى الكافرين ، وأن الذين يتولون لا يعجزون الله ولا يفلتون من عذابه :

Marfat.com

« فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين » . . . (٢)

« فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » . . . (٣)

واقتضت استنكار أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ـ إلا الذين عاهدوا ثم استقاموا فيستقام لهم مدة عهدهم ما استقاموا عليه ـ مع تذكير للمؤمنين بأن المشركين لا يرقبون فيهم عهدا ولا يتذممون من فعلة لو أنهم قدروا عليهم ، وتصوير كفرهم ، وكذبهم فيما يظهرونه لهم أحيانا من مودة بسبب قوتهم :

« كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ـ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين ـ كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون » . . . (٧ ـ ١٠) .

واقتضت استثارة الذكريات المريرة فى نفوس المسلمين ؛ واستجاشة مشاعر الغيظ والانتقام وشفاء الصدور من أعدائهم وأعداء الله ودين الله :

« ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ؟ أتخشونهم؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم » . . (١٣ ـ ١٥) .

واقتضت الأمر بالمفاصلة الكاملة على أساس العقيدة ؛ ومقاومة مشاعر القرابة والمصلحة معا ؛ والتخيير بينها وبين الله ورسوله والجهاد فى سبيله ، ووقف المسلمين على مفرق الطريق :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم

Marfat.com

وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » .. (٢٣ - ٢٤)

واقتضت تذكيرهم بنصر الله لهم فى مواطن كثيرة ، وأقربها يوم حنين الذى هزموا فيه فلم ينصرهم إلا الله بجنده وبتثبيته لرسوله :

« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين ؛ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين » . . . « ٢٥ - ٢٦ » .

واقتضت أخيرا تطمينهم من ناحية الرزق الذى يخشون عليه من كساد الموسم وتعطل التجارة ؛ وتذكيرهم أن الرزق منوط بمشيئة الله لا بهذه الأسباب الظاهرة التى يظنونها :

« يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا . وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ، إن الله عليم حكيم » . . . (٢٨)

وهذه التوكيدات والتقريرات ، وهذه الإيحاءات والاستثارات ، وهذه الحملة الطويلة المنوعة الأساليب . . تشى - كما أسلفنا - بحالة المجتمع المسلم بعد الفتح ، ودخول العناصر الجديدة الكثيرة فيه ؛ وبعد التوسع الأفقى السريع الذى جاء إلى المجتمع المسلم بهذه الأفواج التى لم تنطبع بعد بطابع الإسلام . . ولولا أن مجتمع المدينة كان قد وصل مع الزمن الطويل ، والتربية الطويلة إلى درجة من الاستقرار والصلابة والخلوص والاستنارة ، لكانت هذه الظواهر مثار خطر كبير على وجود الإسلام ذاته كما ذكرنا ذلك مرارا من قبل .

والآن نكتفى بهذا القدر من الحديث العام عن ذلك المقطع الأول من السورة وما يشى به من حالة المجتمع فى حينه ؛ لنواجه نصوصه بالتفصيل :

* * *

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ،

Marfat.com

واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين . وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر : أن الله برىء من المشركين ورسوله ، فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم . إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا ـ فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين . فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد ، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم . وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » . .

هذه الآيات ـ وما بعدها إلى الآية الثامنة والعشرين ـ نزلت تحدد العلاقات النهائية بين المجتمع الإسلامى الذى استقر وجوده فى المدينة وفى الجزيرة العربية ـ بصفة عامة ـ وبين بقية المشركين فى الجزيرة الذين لم يدخلوا فى هذا الدين . . سواء منهم من كان له عهد مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنقضه ، حينما لاح له أن مواجهة المسلمين للروم ـ حين توجهوا لمقابلتهم فى تبوك ـ ستكون فيها القاضية على الإسلام وأهله ، أو على الأقل ستضعف من شوكة المسلمين وتهد من قوتهم . . ومن لم يكن له عهد ولكنه لم يتعرض للمسلمين من قبل بسوء . . ومن كان له عهد ـ موقوت أو غير موقوت ـ فحافظ على عهده ولم ينقص المسلمين شيئا ولم يظاهر عليهم أحدا . . فهؤلاء جميعا نزلت هذه الآيات وما بعدها لتحدد العلاقات النهائية بينهم وبين المجتمع المسلم ؛ فى ظل الاعتبارات التى أسلفنا الحديث عنها بشىء من التوسع سواء فى تقديم السورة ، أو فى تقديم هذا الدرس خاصة .

وأسلوب هذه الآيات وإيقاع التعبير فيها ، يأخذ شكل الإعلان العام ، ورنينه العالى ؛ فيتناسق أسلوب التعبير وإيقاعه مع موضوعه والجو الذى يحيط بهذا الموضوع : على طريقة القرآن فى التعبير (١) .

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » فصل : « التناسق الفنى » وفصل : « طريقة القرآن » .

Marfat.com

وقد وردت روايات متعددة فى ظروف هذا الإعلان، وطريقة التبليغ به، ومن قام بالتبليغ أصحها وأقربها إلى طبائع الأشياء وأكثرها تناسقا مع واقع الجماعة المسلمة يومذاك ماقرره ابن جرير وهو يستعرض هـذه الروايات. ونقتطف هنا من تعليقاته مايمثل رؤيتنا لحقيقة الواقعة مغفلين مالانوافقه عليه من كلامه وماتناقض فيه بعض قوله مع بعض. إذ كنا لاننافش الروايات المتعددة ولا نناقش تعليقات الطبرى؛ ولكن نثبت مانرجح أنه حقيقة ماحـدث من مراجعة ماورد وتحقيقه:

قال فى رواية له عن مجاهد: « براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » .. قال: أهل العهد: مدلج والعرب الذين عاهدهم، ومن كان له عهد. قال: أقبل رسول الله - صلى الله عليـه وسلم - من تبوك حين فرغ منهـا، وأراد الحج، ثم قال: إنه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة، فلا أحب أن أحج حتى لايكون ذلك. فأرسل أبابكر وعليا رحمة الله عليهما. فطافا بالنـاس، بذى المجاز وبأمكنتهم التى كانوا يتبايعون بهـا، وبالموسم كله؛ وآذنوا أصحاب العهد بأن يأمنوا أربعة أشهر. فهى الأشهر الحرم المنسلخات المتواليـات: عشرون من آخر ذى الحجة إلى عشر يخلون من شهر ربيع الآخر. ثم لاعهد لهم. وآذن الناس كلهم بالقتال إلا أن يؤمنوا. فآمن الناس أجمعون حينئذ، ولم يسح أحد».

وقال - بعد استعراض جملة الروايات فى حقيقة الأجل ومبدئه ونهايته والمقصودين به:

« وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب قول من قال: الأجل الذى جعله الله لأهل العهد من المشركين، وأذن لهم بالسياحة فيه بقوله: « فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر » إنما هو لأهل العهد الذين ظاهروا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونقضوا عهدهم قبل انقضاء مدته. فأما الذين لم ينقضوا عهدهم ولم يظاهروا عليه، فإن الله جل ثناؤه أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بإتمام العهد بينه وبينهم إلى مدته بقوله: « إلا الذين عاهـدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكـم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم، إن الله يحب المتقين » .. (سورة التوبة: ٤).

« فإن ظن ظان أن قول الله تعالى ذكره: « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » (سورة التوبة: ٥) يدل على خلاف ماقلنا فى ذلك، إذ كان ذلك ينبئ على

Marfat.com

أن الفرض على المؤمنين كان بعد انقضاء الأشهر الحرم قتل كل مشرك ، فإن الأمر فى ذلك بخلاف ماظن ، وذلك أن الآية التى تتلو ذلك تبين عن صحة ماقلنا ، وفساد ماظنه من ظن أن انسلاخ الأشهر الحرم كان يبيح قتل كل مشرك كان له عهد من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو لم يكن كان له منه عهد . وذلك قوله : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ـ إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين » . (سورة التوبة : ٧) فهؤلاء مشركون ؛ وقد أمر الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين بالاستقامة لهم فى عهدهم مااستقاموا لهم بترك نقض صلحهم ، وترك مظاهرة عدوهم عليهم .

« وبعد ، ففى الأخبار المتظاهرة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أنه حين بعث عليا رحمة الله عليه ببراءة إلى أهل العهود بينه وبينهم ، أمره فيما أمره أن ينادى به فيهم : « ومن كان بينه وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عهد فعهده إلى مدته » ، أوضح الدليل على صحة ماقلنا . وذلك أن الله لم يأمر نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنقض عهد قوم كان عاهدهم إلى أجل فاستقاموا على عهدهم بترك نقضه ، وأنه إنما أجل أربعة أشهر من كان قد نقض قبل التأجيل ، أومن كان له عهد إلى أجل غير محدود . فأما من كان أجله محدودا ، ولم يجعل بنقضه على نفسه سبيلا ، فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان بإتمام عهده إلى غايته مأمورا . وبذلك بعث مناديه ينادى به فى أهل الموسم من العرب » .

وقال فى تعقيب آخر على الروايات المتعددة فى شأن العهود :

« فقد أنبأت هذه الأخبار ونظائرها عن صحة ماقلنا ، وأن أجل الأشهر الأربعة إنما كان لمن وصفنا . فأما من كان عهده إلى مدة معلومة فلم يجعل لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمؤمنين لنقضه ومظاهرة أعدائهم سبيلا ، فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد وفى له بعهده إلى مدته ، عن أمر الله إياه بذلك . وعلى ذلك ظاهر التنزيل ، وتظاهرت به الأخبار عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ » .

وإذا نحن تركنا الروايات التى بها ضعف ، وما يمكن أن يكون قد تركه الخلاف السياسى ـ فيما بعد ـ بين شيعة على ـ رضى الله عنه ـ وأنصار الأمويين ، أو أهل السنة ، من الأثر فى

Marfat.com

بعض الروايات ؛ فإننا نستطيع أن نقول : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعث بأبي بكر ـ رضى الله عنه ـ أميرا للحج فى هـذا العام لما كرهـه من الحج والمشركون يطوفون بالبيت عراة . ثم نزلت أوائل سورة التوبة هذه ؛ فبعث بها عليا ـ رضى الله عنه ـ فى أثر أبي بكر . فأذن بها فى الناس ـ بكل ماتضمنته من أحكام نهائية ومنها ألا يطوف بعد العام بالبيت مشرك .

وقد روى الترمذى فى كتاب التفسير ـ بإسناده ـ عن على قال : « بعثنى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين أنزلت « براءة » بأربع . أن لا يطف بالبيت عريان ، ولا يقرب المسجد الحرام مشرك بعد عامهم هذا ، ومن كان بينه وبين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عهد فهو إلى مدته ، ولايدخل الجنة إلا نفس مسلمة » ...وهذا الخبر هو أصح ماورد فى هذا الباب. فنكتفى به .

* * *

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين » ..

هذا الإعلان العام ، بهذا الإيقاع العالى؛ يتضمن المبدأ العام للعلاقة بين المسلمين والمشركين فى ذلك الحين فى جزيرة العرب قاطبة . إذ كانت العهود المشار إليها هى التى كانت بين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمشركين فى الجزيرة . والإعلان ببراءة الله وبراءة رسوله من المشركين ، يحدد موقف كل مسلم ؛ ويوقع إيقاعا عميقا عنيفا على قلب كل مسلم ، بحيث لا يبقى بعد ذلك مراجعة ولاتردد !

ثم تأتى بعد الإعلان العام البيانات والمخصصات والشروح لهذا الإعلان :

« فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر ، واعلموا أنكم غير معجزى الله ، وأن الله مخزى الكافرين » ..

فهذا بيان للمهلة التى أجل الله المشركين إليها : أربعة أشهر يسيرون فيها ويتنقلون ويتاجرون ويصفون حساباتهم ، ويعدّلون أوضاعهم .. آمنين .. لايؤخذون على غرة وهم آمنون إلى عهودهم . حتى أولئك الذين نقضوا عهودهم عند أول بادرة لاحت لهم ، وعند أول توقع بأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين لن ينقلبوا إلى أهليهم من تبوك ؛ وأن

Marfat.com

الروم سيأخذونهم أسرى ! كما توقع المرجفون فى المدينة والمنافقون ! ومتى كان ذلك ؟ كان بعد فترة طويلة من العهود التى ماتكاد تبرم حتى تنقض ؛ وبعد سلسلة طويلة من التجارب التى تقطع بأن المشركين لن يزالوا يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا .. وفى أى عصر تاريخى ؟ فى العصر الذى لم تكن البشرية كلها تعرف لها قانونا إلا قانون الغابة ؛ ولم يكن بين المجتمعات المختلفة إلا القدرة على الغزو أو العجز عنه ! بلا إنذار ولا إخطار ولا رعاية لعهد متى سنحت الفرصة !.. ولكن الإسلام هو الإسلام منذ ذلك الزمان .. ذلك أنه منهج الله الذى لاعلاقة له بالزمان فى أصوله ومبادئه . فليس الزمان هو الذى يرقيه ويطوره ؛ ولكنه هو الذى يرقى البشرية ويطورها حول محوره وداخل إطاره ؛ بينما هو يواجه واقعها المتطور المتغير - بتأثيره - بوسائل متجددة ومكافئة لما يطرأ عليها فى أثناء تحركه بها قدما من تطور وتغير .

ومع المهلة التى يعطيها للمشركين يزلزل قلوبهم بالحقيقة الواقعة ؛ ويوقظهم إلى هذه الحقيقة ليفتحوا عيونهم عليها . إنهم بسياحتهم فى الأرض لن يعجزوا الله فى الطلب ! ولن يفلتوا منه بالهرب ! ولن يفلتوا من مصير محتوم قدره وقرره : أن يخزيهم ويفضحهم ويذلهم :

« واعلموا أنكم غير معجزى الله ، وأن الله مخزى الكافرين » ..

وإلى أين يفلتون ويهربون فيعجزون الله عن طلبهم والإتيان بهم ؟ وهم فى قبضته -سبحانه- والأرض كلها فى قبضته كذلك ؟! وقد قدر وقرر أن يذلهم فيخزيهم ولاراد لقضائه ؟!

بعد ذلك يبين الموعد الذى تعلن فيه هذه البراءة وتبلغ إلى المشركين لينذروا بها وبالموعد المضروب فيها :

« وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر : أن الله برىء من المشركين ورسوله . فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » ..

ويوم الحج الأكبر اختلفت الروايات فى تحديده : أهو يوم عرفة أم يوم النحر . والأصح أنه يوم النحر . والأذان البلاغ ؛ وقد وقع للناس فى الموسم ؛ وأعلنت براءة الله ورسوله من المشركين كافة - من ناحية المبدأ - وجاء الاستثناء فى الإبقاء على العهد إلى مدته فى الآية

Marfat.com

التالية . والحكمة واضحة فى تقرير المبدأ العام ابتداء فى صورة الشمول ؛ لأنه هو الذى يمثل طبيعة العلاقات النهائية . أما الاستثناء فهو خاص بحالات تنتهى بانتهاء الأجل المضروب . وهذا الفهم هو الذى توحى به النظرة الواسعة لطبيعة العلاقات الحتمية بين المعسكر الذى يجعل الناس عبيدا لله وحده ، والمعسكرات التى تجعل الناس عبيدا للشركاء ، كما أسلفنا فى التقديم للسورة والتقديم لهذا المقطع منها كذلك .

ومع إعلان البراءة المطلقة يجىء الترغيب فى الهداية والترهيب من الضلالة :

« فإن تبتم فهو خير لكم ، وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله ، وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » . .

وهذا الترهيب وذلك الترغيب فى آية البراءة ؛ يشيران إلى طبيعة المنهج الإسلامى . إنه منهج هداية قبل كل شىء . فهو يتيح للمشركين هذه المهلة لا لمجرد أنه لا يحب أن يباغتهم ويفتك بهم متى قدر — كما كان الشأن فى العلاقات الدولية ولا يزال ! — ولكنه كذلك يمهلهم هذه المهلة للتروى والتدبر ، واختيار الطريق الأقوم ؛ ويرغبهم فى التوبة عن الشرك والرجوع إلى الله ؛ ويرهبهم من التولى ، وييئسهم من جدواه ، وينذرهم بالعذاب الأليم فى الآخرة فوق الخزى فى الدنيا . ويوقع فى قلوبهم الزلزلة التى ترجها رجا لعل الركام الذى ران على الفطرة أن ينفض عنها ، فتسمع وتستجيب !

ثم . . هو طمأنة للصف المسلم ، ولكل ما فى قلوب بعضه من مخاوف ومن تردد وتهيب ؛ ومن تحرج وتوقع . فالأمر قد صار فيه من الله قضاء . والمصير قد تقرر من قبل الابتداء !

وبعد تقرير المبدأ العام فى العلاقات بالبراءة المطلقة من المشركين ومن عهودهم يجىء الاستثناء المخصص للحالات المؤقتة ، التى يصار بعدها إلى ذلك المبدأ العام :

« إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ، ولم يظاهروا عليكم أحدا ، فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين » . .

وأصح ما قيل عن هؤلاء الذين ورد فيهم هذا الاستثناء أنهم جماعة من بنى بكر — هم بنو خزيمة ابن عامر من بنى بكر ابن كنانة — لم ينقضوا عهدهم الذى كان فى الحديبية مع قريش

Marfat.com

وحلفائهم ، ولم يشتركوا مع بنى بكر فى العدوان على خزاعة ، ذلك العدوان الذى أعانتهم عليه قريش ، فانتقض بذلك عهد الحديبية ، وكان فتح مكة بعد سنتين اثنتين من الحديبية ، وكان العهد لمدة عشر سنوات من الحديبية . وكانت هذه الجماعة من بنى بكر بقيت على عهدها وبقيت على شركها . فأمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هنا أن يتم إليهم عهدهم إلى مدتهم . والذى يؤيد ماذهبنا إليه - وهو رواية محمد ابن عباد ابن جعفر - أن السدى يقول : « هؤلاء بنو ضمرة وبنو مدلج حيان من بنى كنانة . وأن مجاهد يقول : « كان لبنى مدلج وخزاعة عهد فهو الذى قال الله « فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم » .. غير أنه يلاحظ أن خزاعة كانت قد دخلت فى الإسلام بعد الفتح . وهذا خاص بالمشركين الذين بقوا على شركهم ... كما يؤيده ماسيجىء فى الآية السابعة من قوله تعالى : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين » . . فهذان الحيان من كنانة ممن عاهدوا عند المسجد الحرام فى الحديبية ، ثم لم ينقصوا المسلمين شيئا ولم يظاهروا عليهم أحدا . فهم المعنيون فى الاستثناء أولا وأخيرا كما ذهب إلى ذلك المفسرون الأوائل ، وقد أخذ بهذا القول الأستاذ الشيخ رشيد رضا . وذهب الأستاذ محمد عزة دروزة إلى أن المعنيين بالمعاهدين عند المسجد الحرام هم طائفة أخرى غير المذكورة فى الاستثناء الأول . ذلك أنه كان يحب أن يذهب إلى جواز قيام معاهدات دائمة بين المسلمين والمشركين ، فارتكن إلى قوله تعالى : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » ليستدل منه على جواز تأبيد المعاهدات ! وهو قول بعيد كل البعد عن طبيعة الموقف ، وعن طبيعة المنهج ، وعن طبيعة هذا الدين أيضا كما بينا ذلك مرارا .

لقد وفى الإسلام لهؤلاء الذين وفوا بعهدهم ، فلم يمهلهم أربعة أشهر - كما أمهل كل من عداهم - ولكنه أمهلهم إلى مدتهم . ذلك أنهم لم ينقصوا المسلمين شيئا مما عاهدوهم عليه ، ولم يعينوا عليهم عدوا ، فاقتضى هذا الوفاء لهم والإبقاء على عهدهم إلى نهايته . . ذلك مع حاجة الموقف الحركى للمجتمع المسلم فى ذلك الحين إلى تخليص الجزيرة بجملتها من الشرك ؛ وتحويلها إلى قاعدة أمينة للإسلام ؛ لأن أعداءه على حدود الجزيرة قد تنبهوا لخطره ، وأخذوا يجمعون له كما سيجىء فى الحديث عن غزوة تبوك - ومن قبل كانت وقعة مؤتة إنذارا بهذا

Marfat.com

التحفز الذى أخذ فيه الروم . فضلا على تحالفهم مع الفرس فى الجنوب فى اليمن ، للتألب على الدين الجديد .

ولقد حدث ماذكره ابن القيم من أن هؤلاء الذين استثناهم الله وأمر بالوفاء لهم بعهودهم قد دخلوا فى الإسلام قبل أن تنقضى مدتهم . بل حدث أن الآخرين الذين كانوا ينقضون عهودهم وغيرهم ممن أمهلوا أربعة أشهر يسيحون فيها فى الأرض ، لم يسيحوا فى الأرض وإنما اختاروا الإسلام أيضا !

لقد علم الله ـ سبحانه ـ وهو ينقل بيده خطى هـذه الدعوة ، أنه كان الأوان قد آن لهذه الضربة الأخيرة ؛ وأن الظروف كانت قد تهيأت والأرض كانت قد مهدت ؛ وأنها تجىء فى أوانها المناسب ؛ وفق واقع الأمر الظاهر ، وفق قدر الله المضمر المغيب . فكان هذا الذى كان .

ونقف أمام التعقيب الإلهى على الأمر بالوفاء بالعهد للموفين بعهدهم :

« فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين » . .

إنه يعلق الوفاء بالعهد بتقوى الله وحبه ـ سبحانه ـ للمتقين . فيجعل هذا الوفاء عبادة له ؛ وتقوى يحبها من أهلها .. وهذه هى قاعدة الأخلاق فى الإسلام . . إنها ليست قاعدة المنفعة والمصلحة ؛ وليست قاعدة الاصطلاح والعرف المتغيرين أبدا . . إنها قاعـدة العبادة لله وتقواه . فالمسلم يتخلق بما يحبه الله منه ويرضاه له ؛ وهو يخشى الله فى هـذا ويتطلب رضاه . ومن هنا سلطان الأخلاق فى الإسلام ؛ كما أنه من هنا مبعثها الوجدانى الأصيل . . ثم هى فى الطريق تحقق منافع العبـاد ، وتؤمن مصالحهم ، وتنشىء مجتمعا تقل فيـه الاحتـكاكات والتناقضات إلى أقصى حد ممكن ، وترتفع بالنفس البشرية صُعدا فى الطريق الصاعد إلى الله ...

وبعد تقرير الحـكم ببراءة الله ورسوله من المشركين . . المعاهدين وغير المعاهدين منهم سواء . . مع استثناء الذين لم ينقصوا المسلمين شيئا ولم يظاهروا عليهم أحدا بالوفاء لهم بعهدهم إلى مدتهم . يجىء ذكر الإجراء الذى يتخذه المسلمون بعد انقضاء الأجل المضروب :

Marfat.com

« فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم ، وخذوهم ، واحصروهم ، واقعدوا لهم كل مرصد . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » ..

وقد اختلفت الأقوال عن المقصود هنا بقوله تعالى : « الأشهر الحرم » . . هل هى الأشهر الحرم المصطلح عليها وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ثم رجب : وعلى ذلك يكون الوقت الباقى بعد الأذان فى يوم الحج الأكبر بهذه البراءة هو بقية الحجة ثم المحرم . . خمسين يوما . . أم إنها أربعة أشهر يحرم فيها القتال ابتداء من يوم النحر فتكون نهايتها فى العشرين من ربيع الآخر ؟ .. أم إن الأجل الأول للناقضين عهودهم . وهذا الأجل الثانى لمن ليس لهم عهد أصلا أو لمن كان له عهد غير مؤقت ؟

والذى يصح عندنا أن الأربعة الأشهر المذكورة هنا غير الأشهر الحرم المصطلح عليها . وإنما أطلق عليها وصف الأشهر الحرم لتحريم القتال فيها ؛ بإمهال المشركين طوالها ليسيحوا فى الأرض أربعة أشهر . وأنها عامة - إلا فيمن لهم عهد مؤقت ممن أمهلوا إلى مدتهم - فإنه مادام أن الله قد قال لهم : « فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر » فلا بد أن تكون هذه الأشهر الأربعة ابتداء من يوم إعلانهم بها .. وهذا هو الذى يتفق مع طبيعة الإعلان .

وقد أمر الله المسلمين - إذا انقضت الأشهر الأربعة - أن يقتلوا كل مشرك أنى وجدوه أو يأسروه أو يحصروه إذا تحصن منهم أو يقعدوا له مترصدين لا يدعونه يفلت أو يذهب - باستثناء من أمروا بالوفاء لهم إلى مدتهم - بدون أى إجراء آخر معه . ذلك أن المشركين أنذروا وأمهلوا وقتا كافيا ؛ فهم إذن لا يقتلون غدرا ، ولا يؤخذون بغتة ، وقد نبذت لهم عهودهم ، وعلموا سلفا ما ينتظرهم .

غير أنها لم تكن حملة إبادة ولا انتقام . . إنما كانت حملة إنذار ودفع إلى الإسلام :

« فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ، إن الله غفور رحيم » ..

لقد كانت هنالك وراءهم اثنتان وعشرون سنة من الدعوة والبيان ؛ ومن إيذائهم للمسلمين وفتنتهم عن دينهم ، ومن حرب للمسلمين وتأليب على دولتهم . . ثم من سماحة لهذا الدين .

Marfat.com

ورسوله وأهله معهم .. وإنه لتاريخ طويل .. ومع هذا كله فلقد كان الإسلام يفتح لهم ذراعيه ؛ فيأمر الله نبيه والمسلمين الذين أوذوا وفتنوا وحوربوا وشردوا وقتلوا .. كان يأمرهم أن يكفوا عن المشركين إن هم اختاروا التوبة إلى الله ، والتزموا شعائر الإسلام التى تدل على اعتناقهم هذا الدين واستسلامهم له وقيامهم بفرائضه . وذلك أن الله لا يرد تائبا مهما تكن خطاياه :

.. « إن الله غفور رحيم » ..

ولا نحب أن ندخل هنا فى الجدل الفقهى الطويل الذى تعرضت له كتب التفسير وكتب الفقه حول هذا النص :

« فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم » ..

وعما إذا كانت هذه شرائط الإسلام التى يكفر تاركها ؟ ومتى يكفر ؟ وعما إذا كان يكتفى بها من التائب دون بقية أركان الإسلام المعروفة ؟ .. الخ

فما نحسب أن هذه الآية بصدد شىء من هذا كله . إنما هو نص كان يواجه واقعا فى مشركى الجزيرة يومذاك . فما كان أحدهم ليعلن توبته ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة إلا وهو يعنى الإسلام كله ، ويعنى استسلامه له ودخوله فيه . فنصت الآية على التوبة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، لأنه ما كان ليفعل هذا منهم فى ذلك الحين إلا من نوى الإسلام وارتضاه بكامل شروطه وكامل معناه . وفى أولها الدينونة لله وحده بشهادة أن لا إله إلا الله ، والاعتراف برسالة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ بشهادة أن محمدا رسول الله .

فليست هذه الآية بصدد تقرير حكم فقهى ، إنما هى بصدد إجراء واقعى له ملابساته .

وأخيرا فإنه مع هذه الحرب المعلنة على المشركين كافة بعد انسلاخ الأشهر الأربعة يظل الإسلام على سماحته وجديته وواقعيته كذلك . فهو لا يعلنها حرب إبادة على كل مشرك كما قلنا . إنما يعلنها حملة هداية كلما أمكن ذلك . فالمشركون الأفراد ، الذين لا يجمعهم تجمع جاهلى يتعرض للإسلام ويتصدى ؛ يكفل لهم الإسلام ــ فى دار الإسلام ــ الأمن ، ويأمر الله ــ سبحانه ــ

Marfat.com

رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يجيرهم حتى يسمعوا كلام الله ويتم تبليغهم فحوى هذه الدعوة ؛ ثم أن يحرسهم حتى يبلغوا مأمنهم .. هذا كله وهم مشركون .

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » ..

إن هذا يعني أن الإسلام حريص على كل قلب بشرى أن يهتدي وأن يثوب ؛ وأن المشركين الذين يطلبون الجوار والأمان فى دار الإسلام يجب أن يعطوا الجوار والأمان ؛ ذلك أنه فى هذه الحالة آمن حربهم وتجمعهم وتألبهم عليه ؛ فلا ضير إذن من إعطائهم فرصة سماع القرآن ومعرفة هذا الدين ؛ لعل قلوبهم أن تتفتح وتتلقى وتستجيب .. وحتى إذا لم تستجب فقد أوجب الله لهم على أهل دار الإسلام أن يحرسوهم بعد إخراجهم حتى يصلوا إلى بلد يأمنون فيه على أنفسهم !!!

ولقد كانت قمة عالية تلك الإجارة والأمان لهم فى دار الإسلام .. ولكن قمم الإسلام الصاعدة ما تزال تتراءى قمة وراء قمة .. وهذه منها .. هذه الحراسة للمشرك ، عدو الإسلام والمسلمين ممن آذى المسلمين وفتنهم وعاداهم هذه السنين .. هذه الحراسة له حتى يبلغ مأمنه خارج حدود دار الإسلام !

.. إنه منهج الهداية لا منهج الإبادة ، حتى وهو يتصدى لتأمين قاعدة الإسلام للإسلام ..

والذين يتحدثون عن الجهاد فى الإسلام فيصمونه بأنه كان لإكراه الأفراد على الاعتقاد ! والذين يهولهم هذا الاتهام ممن يقفون بالدين موقف الدفاع ؛ فيروحون يدفعون هذه التهمة بأن الإسلام لا يقاتل إلا دفاعا عن أهله فى حدوده الإقليمية ! هؤلاء وهؤلاء فى حاجة إلى أن يتطلعوا إلى تلك القمة العالية التى يمثلها هذا التوجيه الكريم :

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » ..

إن هذا الدين إعلام لمن لا يعلمون ، وإجارة لمن يستجيرون ، حتى من أعدائه الذين

Marfat.com

شهروا عليه السيف وحاربوه وعاندوه . . ولـكنه إنما يجاهد بالسيف ليحطم القوى المادية التى تحول بين الأفراد وسماع كلام الله ؛ وتحول بينهم وبين العلم بما أنزل الله ؛ فتحول بينهم وبين الهدى ، كما تحول بينهم وبين التحرر من عبادة العبيد؛ وتلجئهم إلى عبادة غير الله .. ومتى حطم هذه القوى ، وأزال هـذه العقبات ، فالأفراد - على عقيدتهم - آمنون فى كنفه ؛ يعاملهم ولا يرهبهم ويجيرهم ولا يقتلهم ؛ ثم يحرسهم ويكفلهم حتى يبلغوا مأمنهم . . هـذا كله وهم يرفضون منهج الله !

وفى الأرض اليوم أنظمة ومناهج وأوضاع من صنع العبيد ؛ لا يأمن فيها من يخالفها من البشر على نفسه ولا على ماله ولا على عرضه ولا على حرمة واحدة من حرمات الإنسان ! ثم يقف ناس يرون هذا فى واقع البشر وهم يتمتمون ويجمجمون لدفع الاتهام الكاذب عن منهج الله بتشويه هذا المنهج وإحالته إلى محاولة هازلة قوامها الكلام فى وجه السيف والمدفع فى هذا الزمان وفى كل زمان !

* * *

« كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ، إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ؟ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون . فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون . وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم ، وطعنوا فى دينكم ، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » .

لما انتهى فى مجموعة الآيات السابقة إلى تقرير الأحكام النهائية الأخيرة بين المجتمع المسلم والباقين من المشركين فى الجزيرة ، وهى تعنى إنهاء حالة التعاهد والمهادنة معهم جميعا .. بعضهم بعد مهلة أربعة أشهر ، وبعضهم بعد انتهاء مدتهم . . حيث يؤول الأمر بعد هذه الأحكام إلى

Marfat.com

حالتين اثنتين : توبة وإقامة للصلاة وإيتاء للزكاة ـ أى دخول فى الإسلام وأداء لفرائضه ـ أو قتال وحصار وأسر وإرصاد ..

لما انتهى إلى الأمر بإنهاء حالة التعاقد على ذلك الوجه أخذ فى هذه المجموعة الجديدة من الآيات يقرر ـ عن طريق الاستفهام الاستنكارى ـ أنه لاينبغى ولا يجوز وليس من المستساغ أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله . وهو استنكار للمبدأ فى ذاته ؛ واستبعاد له من أساسه ا بقوله تعالى : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله » .

ولما كان هذا الاستنكار فى هذه المجموعة التالية فى السياق للمجموعة الأولى ، قد يفهم منه نسخ ما كان قد تقرر فى المجموعة الأولى من إمهال ذوى العهود الموفين بعهودهم الذين لم ينقصوا المسلمين شيئا ولم يظاهروا عليهم أحدا إلى مدتهم . . فقد عاد يقرر هذا الحكم مرة أخرى بقوله : « إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين » .. وجاءت فى هذا التوكيد الجديد زيادة بيان .. إذ كان الأمر الأول مطلقا بالوفاء بعهود من استقاموا على عهودهم إلى مدتهم .. فجاء هذا التوكيد يقيد هذا الإطلاق بأن هذا الوفاء مرهون باستقامتهم فى المستقبل إلى نهاية المدة كذلك كما استقاموا فى الماضى . وهى دقة بالغة فى صياغة النصوص فى هذه العلاقات والمعاملات ، وعدم الاكتفاء بالمفهومات الضمنية ، وإتباعها بالمنطوقات القطعية .

ونظرا لما أسلفنا بيانه فى مقدمات السورة ومقدمات هذا المقطع منها ، من الظواهر والأعراض والاعتبارات التى كانت قائمة فى المجتمع المسلم يومئذ تجاه هذه الخطوة الحاسمة الخطيرة ، فقد أخذ السياق يثير فى نفوس المسلمين ما يدفع عنهم التردد والتحرج والتهيب ، باطلاعهم على حقيقة حال المشركين ومشاعرهم ونواياهم تجاه المسلمين ، وأنهم لا يرعون فيهم عهدا ، ولا يتحرجون فيهم من شىء ولا يتذممون ، وأنهم لا يفون بعهد ، ولا يرتبطون بوعد؛ وأنهم لا يكفون عن الاعتداء متى قدروا عليه . وأن لا سبيل لمهادنتهم أو ائتمانهم مالم يدخلوا فيما دخل فيه المسلمون .

* * *

Marfat.com

« كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ؟ » . .

إن المشركين لايدينون لله بالعبودية خالصة ، وهم كذلك لايعترفون برسالة رسوله . فكيف يجوز أن يكون لهؤلاء عهد عند الله وعند رسوله ؟ إنهم لايواجهون بالإنكار والجحود عبداً مثلهم ، ولا منهجاً من مناهج العبيد من أمثالهم . إنما هم يواجهون بالجحود خالقهم ورازقهم ؛ وهم يحادون الله ورسوله بهذا الجحود ابتداء . . فكيف يجوز أن يكون لهم عهد عند الله وعند رسوله ؟

هذه هي القضية التي يثيرها هذا السؤال الاستنكاري . . وهي قضية تنصب على مبدأ التعاهد ذاته ؛ لا على حالة معينة من حالاته . .

وقد يستشكل على هذا بأنه كانت للمشركين عهود فعلا ؛ وبعض هذه العهود أمر الله بالوفاء بها . وأنه قد وقعت عهود سابقة منذ قيام الدولة المسلمة في المدينة . عهود مع اليهود وعهود مع المشركين . وأنه وقع عهد الحديبية في السنة السادسة للهجرة . وأن النصوص القرآنية في سور سابقة كانت تجيز هذه العهود ؛ وإن كانت تجيز نبذها عند خوف الخيانة . . فإذا كان مبدأ التعاهد مع المشركين هو الذي يرد عليه الإنكار هنا ، فكيف إذن أبيحت تلك العهود وقامت حتى نزل هذا الاستنكار الأخير لمبدأ التعاهد ؟ !

وهذا الاستشكال لامعنى له في ظل الفهم الصحيح لطبيعة المنهج الحركي الإسلامي الذي أسلفنا الحديث عنه في مطالع هذه السورة وفي مطالع سورة الأنفال قبلها . . لقد كانت تلك المعاهدات مواجهة للواقع في حينه بوسائل مكافئة له ؛ أما الحكم النهائي فهو أنه لاينبغي أن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله . . كانت أحكاما مرحلية في طريق الحركة الإسلامية التي تستهدف ابتداء ألا يكون في الأرض شرك بالله ؛ وأن تكون الدينونة لله وحده . . ولقد أعلن الإسلام هدفه هذا منذ أول يوم ولم يخدع عنه أحداً . فإذا كانت الظروف الواقعية تقضي بأن يدع من يسالمونه ابتداء من المشركين ليتفرغ لمن يهاجمونه ؛ وأن يوادع من يريدون موادعته في فترة من الفترات . وأن يعاهد من يريدون معاهدته في مرحلة من المراحل . فإنه لايغفل لحظة عن هدفه النهائي الأخير ؛ كما أنه لايغفل عن أن هذه الموادعات والمعاهدات

Marfat.com

من جانب بعض المشركين موقوتة من جانبهم هم أنفسهم . وأنهم لابد مهاجموه ومحاربوه ذات يوم ؛ وأنهم لن يتركوه وهم يستيقنون من هدفه ؛ ولن يأمنوه على أنفسهم إلا ريثما يستعدون له ويستديرون لمواجهته . . ولقد قال الله للمسلمين منذ أول الأمر : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » . . وهى قولة الأبد التى لاتتخصص بزمن ولا بيئة ! وقولة الحق التى لاتتعلق بظرف ولا حالة !

ومع استنكار الأصل ، فقد أذن الله ـ سبحانه ـ بإتمام عهود ذوى العهود الذين لم ينقصوا المسلمين شيئا ولم يظاهروا عليهم أحدا إلى مدتها ، مع اشتراط أن تكون الاستقامة على العهد ـ فى هذه المدة ـ من المسلمين مقيدة باستقامة ذوى العهود عليها :

« إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين » . .

وهؤلاء الذين تشير الآية إلى معاهدتهم عند المسجد الحرام ليسوا طائفة أخرى غير التى ورد ذكرها من قبل فى قوله تعالى : « إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، إن الله يحب المتقين » . . كما فهم بعض المفسرين المحدثين . . فهى طائفة واحدة ذكرت أول مرة بمناسبة عموم البراءة وإطلاقها ، لاستثنائها من هذا العموم . وذكرت مرة ثانية بمناسبة استنكار مبدأ التعاهد ذاته مع المشركين مخافة أن يظن أن هذا الحكم المطلق فيه نسخ للحكم الأول . . وذكرت التقوى وحب الله للمتقين هنا وهناك بنصها للدلالة على أن الموضوع واحد . كما أن النص الثانى مكمل للشروط المذكورة فى النص الأول . ففى الأول اشتراط استقامتهم فى الماضى ، وفى الثانى اشتراط استقامتهم فى المستقبل . وهى دقة بالغة فى صياغة النصوص ـ كما أسلفنا ـ لا تلحظ إلا بضم النصين الواردين فى الموضوع الواحد ، كما هو ظاهر ومتعين .

ثم يعود لاستنكار مبدأ التعاهد بأسبابه التاريخية والواقعية ؛ بعد استنكاره بأسبابه العقيدية والإيمانية ؛ ويجمع بين هذه وتلك فى الآيات التالية :

« كيف ؟ وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة ، يرضونكم بأفواههم وتأبى

Marfat.com

قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . لايرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون » . .

كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ؟ وهم لايعاهدونكم إلا فى حال عجزهم عن التغلب عليكم . ولو ظهروا عليكم وغلبوكم لفعلوا بكم الأفاعيل فى غير مراعاة لعهد قائم بينهم وبينكم ، وفى غير ذمة يرعونها لكم ؛ أو فى غير تحرج ولا تذمم من فعل يأتونه معكم ! فهم لايرعون عهدا ، ولا يقفون كذلك عند حد فى التنكيل بكم ؛ ولا حتى الحدود المتعارف عليها فى البيئة والتى يذمون لو تجاوزوها . فهم لشدة مايكنونه لكم من البغضاء يتجاوزون كل حد فى التنكيل بكم ، لو أنهم قدروا عليكم . مهما يكن بينكم وبينهم من عهود قائمة . فليس الذى يمنعهم من أى فعل شائن معكم أن تكون بينكم وبينهم عهود ؛ إنما يمنعهم أنهم لايقدرون عليكم ولا يغلبونكم ! . . وإذا كانوا اليوم - وأنتم أقوياء - يرضونكم بأفواههم بالقول اللين والتظاهر بالوفاء بالعهد . فإن قلوبهم تغلى عليكم بالحقد ؛ وتأبى أن تقيم على العهد ؛ فما بهم من وفاء لكم ولا ود !

« وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله . إنهم ساء ما كانوا يعملون » . .

وهذا هو السبب الأصيل لهذا الحقد الدفين عليكم ، وإضمار عدم الوفاء بعهودكم ، والانطلاق فى التنكيل بكم - لو قدروا - من كل تحرج ومن كل تذمم . . إنه الفسوق عن دين الله ، والخروج عن هداه . فلقد آثروا على آيات الله التى جاءتهم ثمنا قليلا من عرض هذه الحياة الدنيا يستمسكون به ويخافون فوته . وقد كانوا يخافون أن يضيع عليهم الإسلام شيئا من مصالحهم ؛ أو أن يكلفهم شيئا من أموالهم ! فصدوا عن سبيل الله بسبب شرائهم هذا الثمن القليل بآيات الله . صدوا أنفسهم وصدوا غيرهم (فسيجىء أنهم أئمة الكفر) . . أما فعلهم هذا فهو الفعل السيء الذى يقرر الله سوءه الأصيل :

« إنهم ساء ما كانوا يعملون ! » . .

ثم إنهم لايضمرون هذا الحقد لأشخاصكم ؛ ولا يتبعون تلك الخطة المنكرة معكم بذواتكم . .

Marfat.com

إنهم يضطغنون الحقد لكل مؤمن ؛ ويتبعون هذا المنكر مع كل مسلم .. إنهم يوجهون حقدهم وانتقامهم لهذه الصفة التى أنتم عليها .. للإيمان ذاته .. كما هو المعهود فى كل أعداء الصفوة الخالصة من أهل هذا الدين ، على مدار التاريخ والقرون .. فكذلك قال السحرة لفرعون وهو يتوعدهم بأشد أنواع التعذيب والتنكيل والتقتيل : « وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا » .. وكذلك قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأهل الكتاب بتوجيه من ربه : « قل . ياأهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله ؟ » وقال سبحانه عن أصحاب الأخدود الذين أحرقوا المؤمنين : « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » . فالإيمان هو سبب النقمة ، ومن ثم هم يضطغنون الحقد لكل مؤمن ، ولا يراعون فيه عهدا ولا يتذممون من منكر :

« لا يرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون » ..

فصفة الاعتداء أصيلة فيهم .. تبدأ من نقطة كرههم للإيمان ذاته وصدودهم عنه ؛ وتنتهى بالوقوف فى وجهه ؛ وتربصهم بالمؤمنين ؛ وعدم مراعاتهم لعهد معهم ولا صلة ، إذا هم ظهروا عليهم ؛ وأمنوا بأسهم وقوتهم . وعندئذ يفعلون بهم الأفاعيل غير مراعين لعهد قائم ، ولا متحرجين ولا متذممين من منكر يأتونه معهم .. وهم آمنون .. !

ثم يبين الله كيف يقابل المؤمنون هذه الحال الواقعة من المشركين :

« فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين ، ونفصل الآيات لقوم يعلمون. وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » ..

إن المسلمين يواجهون أعداء يتربصون بهم ؛ ولا يقعد هؤلاء الأعداء عن الفتك بالمسلمين بلا شفقة ولا رحمة إلا عجزهم عن ذلك . لا يقعدهم عهد معقود ، ولا ذمة مرعية ، ولا تحرج من مذمة ، ولا إبقاء على صلة .. ووراء هذا التقرير تاريخ طويل ، يشهد كله بأن هذا هو الخط الأصيل الذى لا ينحرف إلا لطارئ زائل ، ثم يعود فيأخذ طريقه المرسوم !

هذا التاريخ الطويل من الواقع العملى ؛ بالإضافة إلى طبيعة المعركة المحتومة بين منهج الله الذى يخرج الناس من العبودية للعباد ويردهم إلى عبادة الله وحده ، وبين مناهج الجاهلية

Marfat.com

التي تعبد النـاس للعبيد . . يواجهه المنهج الحركي الإسلامي بتوجيه من الله سبحانه ، بهـذا الحسم الصريح :

« فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانـكم في الدين ونفصل الآيات لقـوم يعلمون » . .

« وإن نـكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينـكم فقاتلوا أئمة الـكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون » . .

فإما دخول فيما دخل فيه المسلمون ، وتوبة عما مضى من الشرك والاعتداء . وعندئذ يصفح الإسلام والمسلمون عن كل مالقوا من هؤلاء المشركين المعتدين ؛ وتقـوم الوشيجة على أساس العقيدة ؛ ويصبح المسلمون الجـدد إخوانا للمـسلمين القدامى ؛ ويسقط ذلك الماضي كله بمساءاته من الواقع ومن القلوب !

« ونفصل الآيات لقوم يعلمون » . .

فهذه الأحكام إنما يدركها ويدرك حكمتها الذين يعلمون وهم المؤمنون .

وإما نـكث لما يبايعون عليه من الإيمان بعد الدخول فيه ، وطعن في دين المسلمين . فهم إذن أئمة في الـكفر ، لاأيمان لهم ولا عهود . وعندئذ يكون القتال لهم ؛ لعلهم حينئذ أن يثوبوا إلى الهـدى . . كما سبق أن قلنا : إن قوة المعسكر المسلم وغلبته في الجهـاد قد ترد قلوبا كثيرة إلى الصواب ؛ وتريهم الحق الغالب فيعرفونه ؛ ويعلمون أنه إنما غلب لأنه الحق ؛ ولأن وراءه قوة الله ؛ وأن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ صادق فيما أبلغهم من أن الله غالب هو ورسله . فيقودهم هذا كله إلى التوبة والهدى . لا كرها وقهرا، ولـكن اقتناعا بالقلب بعد رؤية واضحة للحق الغالب . كما وقع وكما يقع في كثير من الأحايين .

* * *

وبعد .. فما المدى الذي تعمل فيه هذه النصوص ؟ ما المدى التاريخي والبيئي ؟ أهي خاصة بأهل الجزيرة العربية في ذلك الزمان المحدد ؟ أم إن لها أبعادا أخرى في الزمان والمـكان ؟

إن هذه النصوص كانت تواجه الواقع في الجزيرة العربية بين المعسكر الإسلامي ومعسكرات

Marfat.com

المشركين . وما من شك أن الأحكام الواردة بها مقصود بها هذا الواقع . وأن المشركين المعنيين فيها هم مشركو الجزيرة . .

هذا حق فى ذاته . . ولكن ترى هذا هو المدى النهائى لهذه النصوص ؟

إن علينا أن نتتبع موقف المشركين - على مدى التاريخ - من المؤمنين . ليتكشف لنا المدى الحقيقى لهذه النصوص القرآنية ؛ ولنرى الموقف بكامله على مدار التاريخ :

أما فى الجزيرة العربية فلعل ذلك معلوم من أحداث السيرة المشهورة . ولعل فى هذا الجزء من الظلال وحده مايكفى لتصوير مواقف المشركين من هذا الدين وأهله منذ الأيام الأولى للدعوة فى مكة حتى هذه الفترة التى تواجهها نصوص هذه السورة .

وحقيقة إن المعركة الطويلة الأمد لم تكن بين الإسلام والشرك بقدر ما كانت بين الإسلام وأهل الكتاب من اليهود والنصارى . ولكن هذا لاينفى أن موقف المشركين من المسلمين كان دائما هو الذى تصوره آيات هذا المقطع من السورة :

« كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة ! يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون . اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . لايرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون » . .

لقد كان هذا هو الموقف الدائم للمشركين وأهل الكتاب من المسلمين . فأما أهل الكتاب فندع الحديث عنهم إلى موعده فى المقطع الثانى من السورة ؛ وأما المشركون فقد كان هذا دأبهم من المسلمين على مدار التاريخ . .

وإذا نحن اعتبرنا أن الإسلام لم يبدأ برسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - إنما ختم بهذه الرسالة . وأن موقف المشركين من كل رسول ومن كل رسالة من قبل إنما يمثل موقف الشرك من دين الله على الإطلاق ؛ فإن أبعاد المعركة تترامى ؛ ويتجلى الموقف على حقيقته ؛ كما تصوره تلك النصوص القرآنية الخالدة ، على مدار التاريخ البشرى كله بلا استثناء !

ماذا صنع المشركون مع نوح ، وهود ، وصالح ، وإبراهيم ، وشعيب ، وموسى ، وعيسى ، عليهم صلوات الله وسلامه والمؤمنين بهم فى زمانهم ؟ ثم ماذا صنع المشركون مع محمد - صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم ـ والمؤمنين به كذلك ؟ . . إنهم لم يرقبوا فيهم إلاً ولا ذمة متى ظهروا عليهم وتمكنوا منهم . .

وماذا صنع المشركون بالمسلمين أيام الغزو الثانى للشرك على أيدى التتار ؟ ثم ما يصنع المشركون والملحدون اليوم بعد أربعة عشر قرنا بالمسلمين فى كل مكان ؟ .. إنهم لا يرقبون فيهم إلاً ولا ذمة ، كما يقرر النص القرآنى الصادق الخالد . .

عندما ظهر الوثنيون التتار على المسلمين فى بغداد وقعت المأساة الدامية التى سجلتها الروايات التاريخية والتى نكتفى فيها بمقتطفات سريعة من تاريخ أبى الفداء (ابن كثير) المسمى « البداية والنهاية » فيما رواه من أحداث عام ٦٥٦ هـ :

« ومالوا على البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان . ودخل كثير من الناس فى الآبار ، وأماكن الحشوش ، وقنى الوسخ ، وكمنوا كذلك أياما لا يظهرون . وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى الخانات ، ويغلقون عليهم الأبواب ، فتفتحها التتار ، إما بالكسر وإما بالنار ، ثم يدخلون عليهم ، فيهربون منهم إلى أعالى الأمكنة ، فيقتلونهم بالأسطحة ، حتى تجرى الميازيب من الدماء فى الأزقة ـ فإنا لله وإنا إليه راجعون ـ كذلك فى المساجد والجوامع والربط . ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم (١) ، وإلى دار الوزير ابن العلقمى الرافضى ، وطائفة من التجار أخذوا أمانا بذلوا عليه أموالا جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم . وعادت بغداد بعد ما كانت آنس المدن كلها كأنها خراب ، ليس فيها إلا القليل من الناس ، وهم فى خوف وجوع وذلة وقلة . .

« وقد اختلف الناس فى كمية من قتل ببغداد من المسلمين فى هذه الوقعة . فقيل ثمانمائة ألف . وقيل : ألف ألف . وقيل : بلغت القتلى ألفى ألف نفس .. فإنا لله وإنا إليه راجعون ،

---

(١) ذلك أن اليهود والنصارى (من أهل الذمة !) كانوا ممن كاتب التتار لغزو عاصمة الخلافة والقضاء على الإسلام والمسلمين فيها ؛ وممن دلوا على عورات المدينة ، وشاركوا مشاركة فعلية فى هذه الكارثة واستقبلوا التتار الوثنيين بالترحاب ، ليقضوا لهم على المسلمين الذين أعطوهم ذمتهم ووفروا لهم الأمن والحماية .

Marfat.com

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ـ وكان دخولهم إلى بغداد في أواخر المحرم . وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يوما . . وكان قتل الخليفة المستعصم بالله أمير المؤمنين يوم الأربعاء رابع عشر صفر ، وعفى قبره ، وكان عمره يومئذ ستا وأربعين سنة وأربعة أشهر . ومدة خلافته خمس عشرة سنة وثمانيــة أشهر وأيام . وقتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد ، وله خمس وعشرون سنة . ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبدالرحمن وله ثلاث وعشرون سنة ، وأسر ولده الأصغر مبارك وأسرت أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم . .

◆ وقتـل أستـاذدار الخـلافة الشيخ محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي ، وكان عدو الوزير ، وقتل أولاده الثلاثة : عبد الله وعبد الرحمن وعبد الكريم وأكابر الدولة واحدا بعد واحد . منهم الدويدار الصغير مجاهد الدين أيبك ، وشهاب الدين سليمان شاه ، وجماعـة من أمراء السنة وأكابر البلد . . وكان الرجـل يستدعى به من دار الخلافة من بني العباس ، فيخرج بأولاده ونسائه ، فيذهب إلى مقبرة الخـلال ، تجاه المنظرة ، فيذبح كما تذبح الشاة ، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه .. وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صـدر الدين علي ابن النيـار . وقتل الخطباء والأئمة وحمـلة القرآن . وتعطلت المساجد والجماعات والجمعات مدة شهور ببغداد . .

« ولمـا انقضى الأمر المقدر ، وانقضت الأربعون يوما ، بقيت بغداد خاوية على عروشها ، ليس بها أحـد إلا الشـاذ من النـاس ، والقتلى في الطرقات كأنها التلول ، وقد سقط عليهم المطر ، فتغيرت صورهم ، وأنتنت من جيفهم البلد ، وتغير الهواء ، فحصل بسببه الوباء الشديد حتى تعدى وسرى في الهواء إلى بلاد الشام ، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون . فإنا لله وإنا إليه راجعون . .

« ولمـا نودي ببغداد بالأمان ، خرج من تحت الأرض من كان بالمطـامير والقنى والمقـابر كأنهم الموتى إذا نبشـوا من قبـورهم ؛ وقد أنكر بعضهم بعضـا ، فلا يعرف الوالد ولده ، ولا الأخ أخاه ، وأخـذهم الوباء الشديد . فتفـانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى . . » الخ الخ .

Marfat.com

هـذه صورة من الواقع التاريخي ، حينما ظهر المشركون على المسلمين فلم يرقبوا فيهم إلاً ولاذمة . فهل كانت صورة تاريخية من الماضي البعيد الموغل في الظلمات ، اختص بها التتار في ذلك الزمان ؟

كلا ! إن الواقع التاريخي الحديث لا تختلف صوره عن هذه الصورة ! . . إن ماوقع من الوثنيين الهنود عند انفصال باكستان لا يقل شناعة ولا بشاعة عما وقع من التتار في ذلك الزمان البعيد . . إن ثمانية ملايين من المهاجرين المسلمين من الهند ـ ممن أفزعتهم الهجمات البربرية المتوحشة على المسلمين الباقين في الهند فآثروا الهجرة على البقاء ـ قد وصل منهم إلى أطراف باكستان ثلاثة ملايين فقط ! أما الملايين الخمسة الباقية فقد قضوا بالطريق . . طلعت عليهم العصابات الهندية الوثنية المنظمة المعروفة للدولة الهندية جيدا والتي يهيمن عليها ناس من الكبار في الحكومة الهندية ، فذبحتهم كالخراف على طول الطريق . وتركت جثثهم نهبا للطير والوحش ، بعد التمثيل بها ببشاعة منكرة ، لا تقل ـ إن لم تزد ـ على ماصنعه التتار بالمسلمين من أهل بغداد ! .. أما المأساة البشعة المروعة المنظمة فكانت في ركاب القطار الذي نقل الموظفين المسلمين في أنحاء الهند إلى باكستان ، حيث تم الاتفاق على هجرة من يريد الهجرة من الموظفين المسلمين في دوائر الهند إلى باكستان واجتمع في هـذا القطار خمسون ألف موظف .. ودخل القطـار بالخمسين ألف موظف في نفق بين الحدود الهندية الباكستانيـة يسمى (ممر خيبر) .. وخرج من النـاحيـة الأخرى وليس به إلا أشلاء ممزقة متناثرة في القطار ! .. لقد أوقفت العصابات الهندية الوثنية المدربة الموجهة ، القطار في النفق . ولم تسمح له بالمضي في طريقه إلا بعد أن تحول الخمسون ألف موظف إلى أشلاء ودماء ! .. وصدق قول الله سبحانه : « كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمـة » .. وما تزال هذه المذابح تتكرر في صور شتى حتى الآن .. وكان أقربها في هذا العام ..

ثم ماذا فعل خلفاء التتـار في الصين الشيوعيـة وروسيا الشيوعية بالمسلمين هناك ؟ . . لقد أبادوا من المسلمين في خلال ربع قرن ستة وعشرين مليونا .. بمعدل مليون في السنة .. وما تزال عمليات الإبادة ماضية في الطريق .. ذلك غير وسائل التعذيب الجهنمية التي تقشعر لهولهـا الأبدان . وفي هذا العـام وقع في القطاع الصيني من التركستان المسلمة مايغطي على

Marfat.com

بشاعات التتار .. لقد جيء بأحد الزعماء المسلمين ، فحفرت له حفرة في الطريق العام . وكلف المسلمون تحت وطأة التعذيب والإرهاب ، أن يأتوا بفضلاتهم الآدمية (التي تتسلمها الدولة من الأهالي جميعا لتستخدمها في السماد مقابل ماتصرفه لهم من الطعام !!!) فيلقوها على الزعيم المسلم في حفرته . . وظلت العملية ثلاثة أيام والرجل يختنق في الحفرة على هذا النحو حتى مات !

كذلك فعلت يوغسلافيا الشيوعية بالمسلمين فيها . حتى أبادت منهم مليونا منذ الفترة التي صارت فيها شيوعية بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم . وما تزال عمليات الإبادة والتعذيب الوحشي ـ التي من أمثلتها البشعة إلقاء المسلمين رجالا ونساء في « مفارم » اللحوم التي تصنع لحوم (البولوبيف) ليخرجوا من الناحية الأخرى عجينة من اللحم والعظام والدماء ـ ماضية إلى الآن !!!

وما يجري في يوغسلافيا يجري في جميع الدول الشيوعية والوثنية .. الآن . . في هذا الزمان . . ويصدق قول الله سبحانه : « كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة ؟ » . « لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة ، وأولئك هم المعتدون » ..

إنها لم تكن حالة طارئة ولا وقتية في الجزيرة العربية . ولم تكن حالة طارئة ولا وقتية في بغداد . . إنها الحالة الدائمة الطبيعية الحتمية ؛ حيثما وجد مؤمنون يدينون بالعبودية لله وحده ؛ ومشركون أو ملحدون يدينون بالعبودية لغير الله . في كل زمان وفي كل مكان .

ومن ثم فإن تلك النصوص ـ وإن كانت قد نزلت لمواجهة حالة واقعة في الجزيرة ، وعنت بالفعل تقرير أحكام التعامل مع مشركي الجزيرة ـ إلا أنها أبعد مدى في الزمان والمكان . لأنها تواجه مثل هذه الحالة دائما في كل زمان وفي كل مكان . والأمر في تنفيذها إنما يتعلق بالمقدرة على التنفيذ في مثل الحالة التي نفذت فيها في الجزيرة العربية ،ولا يتعلق بأصل الحكم ولا بأصل الموقف الذي لا يتبدل على الزمان . .

* * *

« ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ، وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدأوكم أول مرة ؟

Marfat.com

أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم . أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ، ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ؟ والله خبير بما تعملون » . .

تجيء هذه الفقرة بعد الفقرة السابقة التي تقرر فيها الاستنكار من ناحية المبدأ لأن يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله ؛ والأمر بتخيير المشركين في الجزيرة بين الدخول فيما دخل فيه المسلمون أو قتالهم - إلا من استجار فيجار حتى يسمع كلام الله ثم يبلغ مأمنه خارج دار الإسلام - وبيان علة هذا الاستنكار ؛ وهي أنهم لا يرعون إلاً ولا ذمة في مؤمن متى ظهروا على المؤمنين .

تجيء هذه الفقرة لمواجهة ما حاك في نفوس الجماعة المسلمة - بمستوياتها المختلفة التي سبق الحديث عنها - من تردد وتهيب للإقدام على هذه الخطوة الحاسمة ! ومن رغبة وتعلل في أن يفيء المشركون الباقون إلى الإسلام دون اللجوء إلى القتال الشامل ! ومن خوف على النفوس والمصالح وركون إلى أيسر الوسائل ! . . .

والنصوص القرآنية تواجه هذه المشاعر والمخاوف والتعلات باستجاشة قلوب المسلمين بالذكريات والأحداث القريبة والبعيدة تذكرهم بنقض المشركين لما أبرموه معهم من عقود وما عقدوه معهم من أيمان . وتذكرهم بما هم به المشركون من إخراج الرسول - صلى الله عليه وسلم - من مكة قبل الهجرة . وتذكرهم بأن المشركين هم الذين بدأوهم بالاعتداء في المدينة . . ثم تثير فيهم الحياء والنخوة أن يكونوا إنما يخشون لقاء المشركين . والله أولى أن يخشوه إن كانوا مؤمنين . . ثم تشجعهم على قتال المشركين لعل الله أن يعذبهم بأيديهم ، فيكونوا هم ستارا لقدر الله في تعذيب أعدائه وأعدائهم ، وخزيانهم وقهرهم . وشفاء صدور المؤمنين الذين أوذوا في الله منهم . . ثم تواجه التعلات التي تحيك في صدور البعض من الأمل في دخول المشركين الباقين في الإسلام دون حرب ولا قتال . تواجه هذه التعلات بأن الرجاء الحقيق في أن يفيء هؤلاء إلى الإسلام أولى أن يتعلق بانتصار المسلمين ، وهزيمة المشركين . فيومئذ قد يفيء بعضهم - ممن يقسم الله له التوبة - إلى الإسلام المنتصر الظاهر الظافر ! . وفي النهاية تلفتهم الآيات

Marfat.com

إلى أن سنة الله هى ابتلاء الجماعات بمثل هذه التكاليف ليظهر حقيقة ماهم عليه . وأن السنة لا تتبدل ولا تحيد ..

* * *

« ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ، وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدأوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه ، إن كنتم مؤمنين » ..

إن تاريخ المشركين مع المسلمين كله نكث للأيمان ، ونقض للعهود . وأقرب ما كان من هذا نقضهم لعهدهم مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحديبية . ولقد قبل ـ صلى الله عليه وسلم ـ من شروطهم ـ بإلهام من ربه وهداية ـ ماحسبه بعض أفاضل أصحابه قبولا للدنية ! ووفى لهم بعهده أدق مايكون الوفاء وأسماه . ولكنهم هم لم يفوا ، وخاسوا بالعهد بعد عامين اثنين ، عند أول فرصة سنحت .. كما أن المشركين هم الذين هموا بإخراج الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قبل فى مكة ؛ وبيتوا أمرهم فى النهاية على قتله قبل الهجرة . وكان هذا فى بيت الله الحرام الذى يأمن فيه القاتل منهم على دمه وماله ؛ حتى لكان الواحد يلقى قاتل أخيه أو أبيه فى الحرم فلا يمسه بسوء . أما محمد رسول الله ، الداعى إلى الهدى والإيمان وعبادة الله وحده ، فلم يرعوا معه هذه الخصلة ؛ وهموا بإخراجه ؛ ثم تآمروا على حياته ؛ وبيتوا قتله فى بيت الله الحرام ، بلا تحرج ولا تذمم مما يتحرجون منه ويتذممون مع أصحاب الثارات ! .. كذلك كانوا هم الذين هموا بقتال المسلمين وحربهم فى المدينة . فهم الذين أصروا ـ بقيادة أبى جهل ـ على ملاقاة المسلمين بعد أن نجت القافلة التى خرجوا لها ؛ ثم قاتلوهم بادئين فى أحد وفى الخندق . ثم جمعوا لهم فى حنين كذلك . . وكلها وقائع حاضرة أو ذكريات قريبة ؛ وكلها تنم عن الإصرار الذى يصفه قول الله تعالى : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » كما تنم عن طبيعة العلاقة بين المعسكر الذى يعبد آلهة من دون الله تجاه المعسكر الذى لا يعبد إلا الله . .

وحين يستعرض السياق هذا الشريط الطويل من الذكريات والمواقف والأحداث ، فى هذه اللمسات السريعة العميقة الإيقاع فى قلوب المسلمين ، يخاطبهم :

« أتخشونهم ؟ » ..

Marfat.com

فإنهم لايقعدون عن قتال المشركين هؤلاء إلا أن تكون هى الخشية والخوف والتهيب !

ويعقب على السؤال بما هو أشد استجاشة للقلوب من السؤال :

« فالله أحق أن تخشوه ، إن كنتم مؤمنين » ..

إن المؤمن لايخشى أحدا من العبيد . فالمؤمن لايخشى إلا الله . فإذا كانوا يخشون المشركين فالله أحق بالخشية ، وأولى بالمخافة ؛ ومايجوز أن يكون لغيره فى قلوب المؤمنين مكان !

وإن مشاعر المؤمنين لتثور ؛ وهى تستجاش بتلك الذكريات والوقائع والأحداث .. وهم يذكرون تآمر المشركين على نبيهم صلى الله عليه وسلم .. وهم يستعرضون نكث المشركين لعهودهم معهم وتبييتهم لهم الغدر كلما التمسوا منهم غرة ، أو وجدوا فى موقفهم ثغرة. وهم يتذكرون مبادأة المشركين لهم بالعداء والقتال بطرا وطغيانا.. وفى غمرة هذه الثورة يحرض المؤمنين على القتال :

« قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم ، وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم » ..

قاتلوهم يجعلكم الله ستار قدرته ، وأداة مشيئته ، فيعذبهم بأيديكم ويخزهم بالهزيمة وهم يتخايلون بالقوة ، وينصركم عليهم ويشف صدور جماعة من المؤمنين ممن آذاهم وشردهم المشركون . يشفها من غيظها المكظوم ، بانتصار الحق كاملا ، وهزيمة الباطل ، وتشريد المبطلين ..

وليس هذا وحده ولكن خيرا آخر يُنتظر وثوابا آخر يُنال :

« ويتوب الله على من يشاء » ..

فانتصار المسلمين قد يرد بعض المشركين إلى الإيمان ، ويفتح بصيرتهم على الهدى حين يرون المسلمين يُنصرون ، ويحسون أن قوة غير قوة البشر تؤيدهم ، ويرون آثار الإيمان فى مواقفهم — وهذا ما كان فعلا — وعندئذ ينال المسلمون المجاهدون أجر جهادهم ، وأجر هداية الضالين بأيديهم ؛ وينال الإسلام قوة جديدة تضاف إلى قوته بهؤلاء المهتدين التائبين :

« والله عليم حكيم » .

عليم بالعواقب المخبوءة وراء المقدمات . حكيم يقدر نتائج الأعمال والحركات .

Marfat.com

إن بروز قوة الإسلام وتقريرها ليستهوى قلوبا كثيرة تصد عن الإسلام الضعيف ، أو الإسلام المجهول القوة والنفوذ . وإن الدعوة إلى الإسلام لتختصر نصف الطريق حين تكون الجماعة المسلمة بادية القوة ، مرهوبة الجانب ، عزيزة الجناب .

على أن الله سبحانه وهو يربى الجماعة المسلمة بالمنهج القرآنى الفريد لم يكن يعدها وهى فى مكة قلة قليلة مستضعفة مطاردة ، إلا وعدا واحدا : هو الجنة . ولم يكن يأمرها إلا أمرا واحدا : هو الصبر .. فلما أن صبرت وطلبت الجنة وحدها دون الغلب ، آتاها الله النصر ؛ وجعل يحرضها عليه ويشفى صدورها به . ذلك أن الغلب والنصر عندئذ لم يكن لها ولكن لدينه وكلمته . وإن هى إلا ستار لقدرته ..

ثم إنه لم يكن بد أن يجاهد المسلمون المشركين كافة ، وأن تنبذ عهود المشركين كافة ؛ وأن يقف المسلمون إزاءهم صفا .. لم يكن بد من ذلك لكشف النوايا والخبايا ، ولإزالة الأستار التى يقف خلفها من لم يتجرد للعقيدة ، والأعذار التى يحتج بها من يتعاملون مع المشركين للكسب ، ومن يوادونهم لآصرة من قربى أو مصلحة . . لم يكن بد من إزالة هذه الأستار والمعاذير ، وإعلان المفاصلة للجميع ، لينكشف الذين يخبأون فى قلوبهم خبيئة ، ويتخذون من دون الله ورسوله والمؤمنين وليجة ، يلجون منها إلى مصالحهم وروابطهم مع المشركين ، فى ظل العلاقات غير المتميزة أو الواضحة بين المعسكرات المختلفة : « أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ، والله خبير بما تعملون » .

لقد كان فى المجتمع المسلم ــ كما هو الحال عادة ــ فئة تجيد المداورة ، وتنفذ من الأسوار ، وتتقن استخدام الأعذار . وتدور من خلف الجماعة ، وتتصل بخصومها استجلابا للمصلحة ولو على حساب الجماعة ، مرتكنة إلى ميوعة العلاقات ووجود ثغرات فى المفاصلة بين المعسكرات . فإذا وضحت المفاصلة وأعلنت قطعت الطريق على تلك الفئة ، وكشفت المداخل والمسارب للأنظار .

وإنه لمن مصلحة الجماعة ، ومن مصلحة العقيدة ، أن تهتك الأستار وتكشف الولائج ،

Marfat.com

وتعرف المداخل ، فيمتاز المكافحون المخلصون ، وينكشف المداورون الملتوون ، ويعرف الناس كلا الفريقين على حقيقته ، وإن كان الله يعلمهم من قبل :

« والله خبير بما تعملون » ..

ولكنه سبحانه يحاسب الناس على ما ينكشف من حقيقتهم بفعلهم وسلوكهم . وكذلك جرت سنته بالابتلاء لينكشف الخبء وتتميز الصفوف ، وتتمحص القلوب. ولا يكون ذلك كما يكون بالشدائد والتكاليف والمحن والابتلاءات .

* * *

« ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ؛ أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون . إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين . أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر ، وجاهد في سبيل الله ؟ لا يستوون عند الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ، وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم » .

وبعد البراءة والإعلان لم يبق عذر ولا حجة لمن لا يقاتل المشركين ؛ ولم يعد هنالك تردد في حرمانهم زيارة البيت أو عمارته ، وقد كانوا يقومون بهما في الجاهلية ، وهنا ينكر السياق على المشركين أن يكون لهم الحق في أن يعمروا بيوت الله ، فهو حق خالص للمؤمنين بالله ، القائمين بفرائضه ؛ وما كانت عمارة البيت في الجاهلية وسقاية الحاج لتغير من هذه القاعدة .. وهذه الآيات كانت تواجه ما يحيك في نفوس بعض المسلمين الذين لم تتضح لهم قاعدة هذا الدين .

* * *

« ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر » . .

فهو أمر مستنكر منذ الابتداء ، ليس له مبرر لأنه مخالف لطبائع الأشياء . إن بيوت الله خالصة

Marfat.com

لله ، لايذكر فيها إلا اسمه ، ولا يدعى معه فيها أحد غيره ، فكيف يعمرها من لايعمر التوحيد قلوبهم ، ومن يدعون مع الله شركاء ، ومن يشهدون على أنفسهم بالكفر شهادة الواقع الذى لايملكون إنكاره ، ولا يسعهم إلا إقراره ؟

« أولئك حبطت أعمالهم » . .

فهى باطلة أصلا ، ومنها عمارة بيت الله التى لاتقوم إلا على قاعدة من توحيد الله .

« وفى النار هم خالدون » . .

بما قدموا من الكفر الواضح الصريح .

إن العبادة تعبير عن العقيدة ؛ فإذا لم تصح العقيدة لم تصح العبادة ؛ وأداء الشعائر وعمارة المساجد ليست بشىء مالم تعمر القلوب بالاعتقاد الإيمانى الصحيح ، وبالعمل الواقع الصريح ، وبالتجرد لله فى العمل والعبادة على السواء :

« إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله » . .

والنص على خشية الله وحده دون سواه بعد شرطى الإيمان الباطن والعمل الظاهر ، لايجىء نافلة . فلا بد من التجرد لله ؛ ولا بد من التخلص من كل ظل للشرك فى الشعور أو السلوك ؛ وخشية أحد غير الله لون من الشرك الخفى ينبه إليه النص قصدا فى هذا الموضع ليتمحض الاعتقاد والعمل كله لله . وعندئذ يستحق المؤمنون أن يعمروا مساجد الله ، ويستحقون أن يرجوا الهداية من الله :

« فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » . .

فإنما يتوجه القلب وتعمل الجوارح ، ثم يكافىء الله على التوجه والعمل بالهداية والوصول والنجاح .

هذه هى القاعدة فى استحقاق عمارة بيوت الله ؛ وفى تقويم العبادات والشعائر على السواء بينها الله للمسلمين والمشركين ، فما يجوز أن يسوى الذين كانوا يعمرون الكعبة ويسقون الحجيج فى الجاهلية ، وعقيدتهم ليست خالصة لله ، ولا نصيب لهم من عمل أو جهاد ، لايجوز أن يسوى

Marfat.com

هؤلاء – لمجرد عمارتهم للبيت وخدمتهم للحجيج – بالذين آمنوا إيمانا صحيحا وجاهدوا فى سبيل الله وإعلاء كلمته :

« أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ؟ » .. « لايستوون عند الله » .

وميزان الله هو الميزان وتقديره هو التقدير .

« والله لايهدى القوم الظالمين » .

المشركين الذين لايدينون دين الحق ، ولايخلصون عقيدتهم من الشرك ، ولو كانوا يعمرون البيت ويسقون الحجيج .

وينتهى هذا المقطع بتقرير فضل المؤمنين المهاجرين المجاهدين ، وماينتظرهم من رحمة ورضوان ، ومن نعيم مقيم وأجر عظيم :

« الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله ، وأولئك هم الفائزون . يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم » ..

وأفعل التفضيل هنا فى قوله : « أعظم درجة عند الله » ليس على وجهه ، فهو لايعنى أن للآخرين درجة أقل ، إنما هو التفضيل المطلق . فالآخرون « حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون » فلا مفاضلة بينهم وبين المؤمنين المهاجرين المجاهدين فى درجة ولا فى نعيم .

* * *

ثم يمضى السياق فى تجريد المشاعر والصلات فى قلوب الجماعة المؤمنة ، وتمحيصها لله ولدين الله ؛ فيدعو إلى تخليصها من وشائج القربى والمصلحة واللذة ، ويجمع كل لذائذ البشر ، وكل وشائج الحياة ، فيضعها فى كفة ، ويضع حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيله فى الكفة الأخرى ، ويدع للمسلمين الخيار .

« ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء – إن استحبوا الكفر على الإيمان – ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون . قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها . . أحب إليكم

Marfat.com

من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله لا يهدى القوم الفاسقين » . .

إن هذه العقيدة لاتحتمل لها فى القلب شريكا ؛ فإما تجرد لها ، وإما انسلاخ منها . وليس المطلوب أن ينقطع المسلم عن الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ؛ ولا أن يترهبن ويزهد فى طيبات الحياة . . كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب ، ويخلص لها الحب ، وأن تكون هى المسيطرة والحاكمة ، وهى المحركة والدافعة . فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة ؛ على أن يكون مستعدا لنبذها كلها فى اللحظة التى تتعارض مع مطالب العقيدة .

ومفرق الطريق هو أن تسيطر العقيدة أو يسيطر المتاع ؛ وأن تكون الكلمة الأولى للعقيدة أو لعرض من أعراض هذه الأرض . فإذا اطمأن المسلم إلى أن قلبه خالص لعقيدته فلا عليه بعد هذا أن يستمتع بالأبناء والإخوة وبالزوج والعشيره ؛ ولا عليه أن يتخذ الأموال والمتاجر والمساكن ؛ ولا عليه أن يستمتع بزينة الله والطيبات من الرزق . - فى غير سرف ولا مخيلة - بل إن المتاع بها حينئذ لمستحب ، باعتباره لونا من ألوان الشكر لله الذى أنعم بها ليتمتع بها عباده ، وهم يذكرون أنه الرازق المنعم الوهاب .

* * *

« يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء - إن استحبوا الكفر على الإيمان - » . .

وهكذا تتقطع أواصر الدم والنسب ، إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة . وتبطل ولاية القرابة فى الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة فى الله . فلله الولاية الأولى ، وفيها ترتبط البشرية جميعا ، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك ، والحبل مقطوع والعروة منقوضة .

« ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون » . .

و« الظالمون » هنا تعنى المشركين . فولاية الأهل والقوم - إن استحبوا الكفر على الإيمان - شرك لايتفق مع الإيمان

ولا يكتفى السياق بتقرير المبدأ ، بل يأخذ فى استعراض ألوان الوشائج والمطامع

Marfat.com

واللذائذ ؛ ليضعها كلها فى كفة ويضع العقيدة ومقتضياتها فى الكفة الأخرى : الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة (وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج) والأموال والتجارة (مطمع الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها) .. وفى الكفة الأخرى : حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيله . الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته. الجهاد وما يتبعه من تعب ونصب ، وما يتبعه من تضيق وحرمان ، وما يتبعه من ألم وتضحية ، وما يتبعه من جراح واستشهاد . . وهو ـ بعد هذا كله ـ « الجهاد فى سبيل الله » مجردا من الصيت والذكر والظهور . مجردا من المباهاة ، والفخر والخيلاء . مجردا من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه . وإلا فلا أجر عليه ولا ثواب . .

«قل : إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله . . فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . . . » .

ألا إنها لشاقة . ألا وإنها لكبيرة . ولكنها هى ذاك . . وإلا :

« فتربصوا حتى يأتى الله بأمره » .

وإلا فتعرضوا لمصير الفاسقين :

« والله لا يهدى القوم الفاسقين » . .

وهذا التجرد لا يطالب به الفرد وحده ، إنما تطالب به الجماعة المسلمة ، والدولة المسلمة . فما يجوز أن يكون هناك اعتبار لعلاقة أو مصلحة يرتفع على مقتضيات العقيدة فى الله ومقتضيات الجهاد فى سبيل الله .

وما يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف ، إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه ـ فالله لا يكلف نفسا إلا وسعها ـ وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال ؛ وأودع فيها الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها . . لذة الشعور بالاتصال بالله ، ولذة الرجاء فى رضوان الله ، ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط ، والخلاص من

Marfat.com

ثقلة اللحم والدم ، والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء . فإذا غلبتها ثقلة الأرض ففي التطلع إلى الأفق ما يجدد الرغبة الطامعة في الخلاص والفكاك .

* * *

ثم لمسة للمشاعر بالذكرى ، وباستعراض صفحة من الواقع الذي عاشه المسلمون إذ ذاك منذ قريب . . المواطن التي نصرهم الله فيها ، ولم تكن لهم قوة ولا عدة ويوم . حنين الذي هزموا فيه بكثرتهم ثم نصرهم الله بقوته . يوم أن انضم إلى جيش الفتح ألفان فقط من الطلقاء ! يوم أن غفلت قلوب المسلمين لحظات عن الله مأخوذة بالكثرة في المدد والعتاد . ليعلم المؤمنون أن التجرد لله ، وتوثيق الصلة به هي عدة النصر التي لا تخذلهم حين تخذلهم الكثرة في العدد والعتاد ؛ وحين يخذلهم المال والإخوان والأولاد :

« لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ،ثم وليتم مدبرين ؛ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم » .

ولقد كان نصر الله لهم في المواطن الكثيرة قريبا من ذاكرتهم لا يحتاج إلى أكثر من الإشارة . فأما وقعة حنين (١) فكانت بعد فتح مكة في شوال سنة ثمان من الهجرة . وذلك لما فرغ ـ صلى الله عليه وسلم ـ من فتح مكة ، وتمهدت أمورها ، وأسلم عامة أهلها ، وأطلقهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فبلغه أن هوازن جمعوا له ليقاتلوه ، وأن أميرهم مالك ابن عوف النضري ، ومعه ثقيف بكمالها ، وبنو جشم، وبنو سعد ابن بكر ، وأوزاع من بنى هلال ـ وهم قليل ـ وناس من بنى عمرو ابن عامر وعوف ابن عامر ؛ وقد أقبلوا ومعهم النساء والولدان والشاء والنعم ؛ وجاءوا بقضهم وقضيضهم . فخرج إليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في جيشه الذي جاء معه للفتح وهو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب ، ومعه الذين أسلموا من أهل مكة ،وهم الطلقاء، في ألفين ؛ فسار بهم إلى العدو؛ فالتقوا بواد بين مكة

(١) بتصرف قليل عن ابن كثير في التفسير .

Marfat.com

والطائف يقال له « حنين » فكانت فيه الواقعة فى أول النهار فى غلس الصبح . انحدروا فى الوادى وقد كمنت فيه هوازن ، فلما توجهوا لم يشعر المسلمون إلا بهم قد بادروهم ، ورشقوا بالنبال ، وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد كما أمرهم ملكهم . فعند ذلك ولى المسلمون مدبرين ـ كما قال الله عز وجل ـ وثبت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يومئذ وهو راكب بغلته الشهباء ، يسوقها إلى نحر العدو ،والعباس آخذ بركابها الأيمن ، وأبو سفيان ابن الحارث ابن عبد المطلب آخذ بركابها الأيسر ، يثقلانها لئلا تسرع السير ، وهو ينوه باسمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ويدعو المسلمين إلى الرجعة ، ويقول : « إلى ياعباد الله . إلى أنا رسول الله » ويقول فى تلك الحال : « أنا النبي لا كذب . أنا ابن عبد المطلب » وثبت معه من أصحابه قريب من مئة ، ومنهم من قال ثمانون ؛ فمنهم أبو بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ والعباس وعلى والفضل ابن عباس ، وأبو سفيان ابن الحارث ، وأيمن ابن أم أيمن ، وأسامة ابن زيد ، وغيرهم ـ رضى الله عنهم ـ ثم أمر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمه العباس وكان جهير الصوت أن ينادى بأعلى صوته : ياأصحاب الشجرة ـ يعنى شجرة بيعة الرضوان التى بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار تحتها على ألا يفروا عنه ـ فجعل ينادى بهم : ياأصحاب السمرة ، ويقول تارة : ياأصحاب سورة البقرة . فجعلوا يقولون : يالبيك ، يالبيك . وانعطف الناس فتراجعوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى إن الرجل منهم إذا لم يطاوعه بعيره على الرجوع لبس درعه ثم انحدر عنه وأرسله ، ورجع بنفسه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما اجتمعت شرذمة منهم عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمرهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يصدقوا الحملة . . . وانهزم المشركون فأتبع المسلمون أقفاءهم يقتلون ويأسرون ، وما تراجع بقية الناس إلا والأسرى مجندلة بين يدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

هذه هى المعركة التى اجتمع فيها للمسلمين ـ للمرة الأولى ـ جيش عدته اثنا عشر ألفا فأعجبتهم كثرتهم ، وغفلوا بها عن سبب النصر الأول ، فردهم الله بالهزيمة فى أول المعركة إليه ؛ ثم نصرهم بالقلة المؤمنة التى ثبتت مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والتصقت به .

والنص يعيد عرض المعركة بمشاهدها المادية ، وبانفعالاتها الشعورية :

Marfat.com

« إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » . .

فمن انفعال الإعجاب بالكثرة ، إلى زلزلة الهزيمة الروحية ، إلى انفعال الضيق والحرج حتى لكأن الأرض كلها تضيق بهم وتشد عليهم : إلى حركة الهزيمة الحسية ، وتولية الأدبار والنكوص على الأعقاب . .

« ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » . .

وكأنما السكينة رداء ينزل فيثبت القلوب الطائرة ويهدئ الانفعالات الثائرة .

« وأنزل جنودا لم تروها » . .

فلا نعلم ماهيتها وطبيعتها . . وما يعلم جنود ربك إلا هو . .

« وعذب الذين كفروا » .

بالقتل والأسر والسلب والهزيمة :

« وذلك جزاء الكافرين » . .

« ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء ، والله غفور رحيم » . .

فباب المغفرة دائما مفتوح لمن يخطئ ثم يتوب .

إن معركة حنين التي يذكرها السياق هنا ليعرض نتائج الانشغال عن الله ، والاعتماد على قوة غير قوته ،لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية . حقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة. إن الكثرة العددية ليست بشيء ، إنما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة . وإن الكثرة لتكون أحيانا سببا فى الهزيمة ، لأن بعض الداخلين فيها ، التائهين فى غمارها ، ممن لم يدركوا حقيقة العقيدة التى ينساقون فى تيارها ، تتزلزل أقدامهم وترتجف فى ساعة الشدة ؛ فيشيعون الاضطراب والهزيمة فى الصفوف ، فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون فى توثيق صلتهم بالله ، انشغالا بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسر النصر فى الحياة .

لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة ، لا بالزبد الذى يذهب جفاء ، ولا بالهشيم الذى تذروه الرياح !

* * *

Marfat.com

وعند ما يبلغ السياق إلى هـذا المقطع ، ويلمس وجـدان المسلمين بالذكرى القريبة من التاريخ ، ينهى القول فى شأن المشركين . ويلقى الـكلمة الباقية فيهم إلى يوم الدين :

« يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعـد عامهم هذا ؛ وإن خفتم عيلة فسوف يغنيـكم الله من فضله إن شاء . إن الله عليم حـكيم » . .

إنما المشركون نجس . يجسم التعبير نجاسة أرواحهم فيجعلها ماهيتهم وكيانهم . فهم بكليتهم وبحقيقتهم نجس ، يستقذره الحس ، ويتطهر منه المتطهرون ! وهو النجس المعنوى لا الحسى فى الحقيقة ، فأجسامهم ليست نجسة بذاتها . إنما هى طريقة التعبير القرآنية بالتجسيم (١) .

« نجس . فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » . .

وتلك غاية فى تحريم وجودهم بالمسجد الحرام ، حتى لينصب النهى على مجرد القرب منـه ، ويعلل بأنهم نجس وهو الطهور !

ولـكن الموسم الاقتصادى الذى ينتظره أهـل مكة ؛ والتجارة التى يعيش عليها معظم الظاهرين فى الجزيرة ؛ ورحلة الشتاء والصيف التى تـكاد تقوم عليها الحيـاة . . . إنها كلها ستتعرض للضياع بمنع المشركين من الحج ؛ وبإعلان الجهاد العام على المشركين كافة . .

نعم ! ولـكنها العقيدة . والله يريد أن تخلص القلوب كلها للعقيدة !

وبعد ذلك ، فالله هو المتـكفل بأمر الرزق من وراء الأسباب المعهودة المألوفة :

« وإن خفتم عيلة فسوف يغنيـكم الله من فضله إن شاء » . .

وحين يشاء الله يستبدل أسبابا بأسباب ؛ وحين يشاء يغلق بابا ويفتح الأبواب .

« إن الله عليم حكيم » . .

يدبر الأمر كله عن علم وعن حكمة ، وعن تقدير وحساب . .

* * *

لقد كان المنهج القرآنى يعمل ، فى المجتمع المسلم الذى نشأ من الفتح ؛ والذى لم تـكن مستوياته الإيمانية قد تناسقت بعد . .

---

(١) يراجع فصل « التخييل الحسى والتجسيم » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

وكما أننا نلمح من خلال السياق فى هذا المقطع ما كان يعتور هـذا المجتمع من ثغرات . فـكذلك نلمح عمل المنهج القرآنى فى سد هذه الثغرات . ونلمح الجهد الطويل المبذول لتربيـة هذه الأمة بهذا المنهج القرآنى الفريد .

إن القمة التى كان المنهج القرآنى ينقل خطى هذه الأمة لتبلغ إليها ، هى قمـة التجرد لله ، والخلوص لدينه . وقمة المفاصلة على أساس العقيدة مع كل أواصر القربى وكل لذائذ الحيـاة . وكان هذا يتم من خلال ما يبثه المنهج القرآنى من وعى لحقيقة الفوارق والفواصل بين منهج الله الذى يجعل الناس كلهم عبيدا لله وحده ، ومنهج الجاهلية الذى يجعل الناس أربابا بعضهم لبعض . . وهما منهجان لا يلتقيان . . ولا يتعايشان . .

وبدون هذا الفقه الضرورى لطبيعة هـذا الدين وحقيقته ، وطبيعة الجاهليـة وحقيقتها ؛ لا يملك إنسان أن يقوّم الأحكام الإسلامية ، التى تقرر قواعد المعاملات والعلاقات بين المعسكر المسلم وسائر المعسكرات .

« قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ، حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ .

« وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ : عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ، وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى : ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ . ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ . قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ! أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ؟ * ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ؛ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ، لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ، سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ ، وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ

Marfat.com

ٱلْكَٰفِرُونَ * هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ، وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ؛ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ ، فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ . هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ، فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ » . .

هـذا المقطع الثانى فى سياق السورة ؛ يستهدف تقرير الأحكام النهائية فى العلاقات بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب ؛ كما استهدف المقطع الأول منها تقرير الأحكام النهائية فى العلاقات بين هذا المجتمع والمشركين فى الجزيرة .

وإذا كانت نصوص المقطع الأول فى منطوقها تواجه الواقع فى الجزيرة يومئذ ؛ وتتحدث عن المشركين فيها ؛ وتحدد صفات ووقائع وأحداثا تنطبق عليهم انطباقا مباشرا . فإن النصوص فى المقطع الثانى ـ الخاصة بأهل الكتاب ـ عامة فى لفظها ومدلولها ؛ وهى تعنى كل أهل الكتاب . سواء منهم من كان فى الجزيرة ومن كان خارجها كذلك .

هذه الأحكام النهائية التى يتضمنها هذا المقطع تحتوى تعديلات أساسية فى القواعد التى كانت تقوم عليها العلاقات من قبل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب ـ وبخاصة النصارى منهم ـ فلقد كانت وقعت المواقع قبل ذلك مع اليهود ؛ ولكن حتى هذا الوقت لم يكن قد وقع منها شىء مع النصارى .

والتعديل البارز فى هـذه الأحكام الجديدة هو الأمر بقتال أهل الكتاب المنحرفين عن دين الله حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . . فلم تعد تقبل منهم عهود موادعة ومهادنة إلا على هـذا الأساس . . أساس إعطاء الجزية . . وفى هـذه الحالة تتقرر لهم حقوق الذمى

Marfat.com

المعاهد ؛ ويقوم السلام بينهم وبين المسلمين . . فأما إذا هم اقتنعوا بالإسلام عقيدة فاعتنقوه فهم من المسلمين . .

إنهم لا يكرَهون على اعتناق الإسلام عقيدة . فالقاعدة الإسلامية المحكمة هى : « لا إكراه فى الدين » . . ولكنهم لا يتركون على دينهم إلا إذا أعطوا الجزية ، وقام بينهم وبين المجتمع المسلم عهد على هذا الأساس .

وهذا التعديل الأخير فى قواعد التعامل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب لا يفهم على طبيعته إلا بالفقه المستنير لطبيعة العلاقات الحتمية بين منهج الله ومناهج الجاهلية من ناحية . ثم لطبيعة المنهج الحركى الإسلامى ، ومراحله المتعددة ، ووسائله المتجددة المكافئة للواقع البشرى المتغير من الناحية الأخرى .

وطبيعة العلاقة الحتمية بين منهج الله ومناهج الجاهلية هى عدم إمكان التعايش إلا فى ظل أوضاع خاصة وشروط خاصة ؛ قاعدتها ألا تقوم فى وجه الإعلان العام الذى يتضمنه الإسلام لتحرير الإنسان بعبادة الله وحده والخروج من عبادة البشر للبشر ، أية عقبات مادية من قوة الدولة ، ومن نظام الحكم ، ومن أوضاع المجتمع على ظهر الأرض ! ذلك أن منهج الله يريد أن يسيطر ، ليخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ـ كما هو الإعلان العام للإسلام ـ ومناهج الجاهلية تريد ـ دفاعا عن وجودها ـ أن تسحق الحركة المنطلقة بمنهج الله فى الأرض، وأن تقضى عليها . .

وطبيعة المنهج الحركى الإسلامى أن يقابل هذا الواقع البشرى بحركة مكافئة له ومتفوقة عليه ، فى مراحل متعددة ذات وسائل متجددة . . والأحكام المرحلية والأحكام النهائية فى العلاقات بين المجتمع المسلم والمجتمعات الجاهلية تمثل هذه الوسائل فى تلك المراحل .

ومن أجل أن يحدد السياق القرآنى فى هذا المقطع من السورة طبيعة هذه العلاقات ، حدد حقيقة ما عليه أهل الكتاب ؛ ونص على أنه « شرك » و « كفر » و « باطل » وقدم الوقائع التى يقوم عليها هذا الحكم ، سواء من واقع معتقدات أهل الكتاب والتوافق والتضاهى بينها وبين معتقدات « الذين كفروا من قبل » . أو من سلوكهم وتصرفهم الواقعى كذلك .

Marfat.com

والنصوص الحاضرة تقرر :

أولا : أنهم لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .

ثانيا : أنهم لايحرمون ماحرم الله ورسوله .

ثالثا : أنهم لايدينون دين الحق .

رابعا : أن اليهود منهم قالت : عزير ابن الله . وأن النصارى منهم قالت : المسيح ابن الله وأنهم فى هذين القولين يضاهئون قول الذين كفروا من قبل سواء من الوثنيين الإغريق ، أو الوثنيين الرومان ، أو الوثنيين الهنود ، أو الوثنيين الفراعنة ، أو غيرهم من الذين كفروا (وسنفصل فيما بعد أن التثليث عند النصارى ، وادعاء البنوة لله منهم أو من اليهود مقتبس من الوثنيات السابقة وليس من أصل النصرانية ولا اليهودية) .

خامسا : أنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله . كما اتخذوا المسيح ربا . وأنهم بهذا خالفوا عما أمروا به من توحيد الله والدينونة له وحده ، وأنهم لهذا « مشركون » !

سادسا : أنهم محاربون لدين الله يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، وأنهم لهذا « كافرون » !

سابعا : أن كثيرا من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله .

وعلى أساس هذه الأوصاف وهذا التحديد لحقيقة ماعليه أهل الكتاب ، قرر الأحكام النهائية التى تقوم عليها العلاقات بينهم وبين المؤمنين بدين الله ، القائمين على منهج الله . .

ولقد يبدو أن هذا التقرير لحقيقة ماعليه أهل الكتاب ، مفاجىء ومغاير للتقريرات القرآنية السابقة عنهم ؛ كما يحلو للمستشرقين والمبشرين وتلاميذهم أن يقولوا ، زاعمين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غير أقواله وأحكامه عن أهل الكتاب عندما أحس بالقوة والقدرة على منازلتهم !

ولكن المراجعة الموضوعية للتقريرات القرآنية ـ المكية والمدنية ـ عن أهل الكتاب ،

Marfat.com

تظهر بجلاء أنه لم يتغير شيء فى أصل نظرة الإسلام إلى عقائد أهل الكتاب التى جاء فوجدهم عليها، وانحرافها وابطلانها؛ وشركهم وكفرهم بدين الله الصحيح - حق بما أنزل عليهم منه وبالنصيب الذى أوتوه من قبل - أما التعديلات فهى محصورة فى طريقة التعامل معهم.. وهذه - كما قلنا مرارا - تحكمها الأحوال والأوضاع الواقعية المتجددة. أما الأصل الذى تقوم عليه - وهو حقيقة ما عليه أهل الكتاب - فهو ثابت منذ اليوم الأول فى حكم الله عليهم.

ونضرب هنا بعض الأمثلة من التقريرات القرآنية عن أهل الكتاب وحقيقة ماهم عليه.. ثم نستعرض مواقفهم الواقعية من الإسلام وأهله، تلك المواقف التى انتهت إلى هذه الأحكام النهائية فى التعامل معهم:

فى مكة لم تكن توجد جاليات يهودية أو نصرانية ذات عدد أو وزن فى المجتمع.. إنما كان هناك أفراد، يحكى القرآن عنهم أنهم استقبلوا الدعوة الجديدة إلى الإسلام بالفرح والتصديق والقبول؛ ودخلوا فى الإسلام، وشهدوا له ولرسوله بأنه الحق المصدق لما بين أيديهم.. ولا بد أن يكون هؤلاء ممن كان قد بقى على التوحيد من النصارى واليهود؛ وممن كان معهم شىء من بقايا الكتب المنزلة.. وفى أمثال هؤلاء وردت مثل هذه الآيات:

- « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا: آمنا به، إنه الحق من ربنا، إنا كنا من قبله مسلمين »... (القصص: ٥٢ - ٥٣).
- « قل: آمنوا به أولا تؤمنوا، إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا، ويقولون: سبحان ربنا، إن كان وعد ربنا لمفعولا. ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا »... (الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩)
- « قل أرأيتم إن كان من عندالله وكفرتم به، وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله، فآمن واستكبرتم، إن الله لا يهدى القوم الظالمين »... (الأحقاف: ١٠).
- « وكذلك أنزلنا إليك الكتاب، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به، ومن هؤلاء من يؤمن به، وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون »... (العنكبوت: ٤٧)
- « أفغير الله أبتغى حكما، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق، فلا تكونن من الممترين »... (الأنعام: ١١٤)

Marfat.com

◆ « والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ، ومن الأحزاب من ينكر بعضه . قل : إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ، إليه أدعو وإليه مآب » . . . (الرعد : ٣٦)

وقد تكررت هذه الاستجابة من أفراد كذلك في المدينة ؛ حكى عنهم القرآن بعض المواقف في السور المدنية ؛ مع النص في بعضها على أنهم من النصارى ، ذلك أن اليهود كانوا قد اتخذوا موقفا آخر غير ما كان يتخذه أفراد منهم في مكة ، عندما أحسوا خطر الإسلام في المدينة :

◆ « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم ، خاشعين لله لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، أولئك لهم أجرهم عند ربهم ، إن الله سريع الحساب » . . . (آل عمران : ١٩٩)

◆ « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى. ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا، وأنهم لايستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لانؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ؟ فأثابهم الله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين » . . . (المائدة : ٨٢ – ٨٥)

ولكن موقف هؤلاء الأفراد لم يكن يمثل موقف الغالبية من أهل الكتاب في الجزيرة – ومن اليهود منهم بصفة خاصة – فقد جمل هؤلاء يشنون على الإسلام ، منذ أن أحسوا خطره عليهم في المدينة ، حربا خبيثة ، يستخدمون فيها كل الوسائل التي حكاها القرآن عنهم في نصوص كثيرة ؛ كما أنهم في الوقت ذاته رفضوا الدخول في الإسلام طبعا ؛ وأنكروا وجحدوا مافي كتبهم من البشارة بالرسول – صلى الله عليه وسلم – ومن تصديق القرآن لمابين أيديهم من بقايا كتبهم الحقة ؛ مما كان أولئك الأفراد الطيبون يعترفون به ويقرونه ويجاهرون به في وجه المنكرين الجاحدين ! . . كذلك أخذ القرآن يتنزل بوصف هذا الجحود وتسجيله ؛ وبتقرير ماعليه أهل الكتاب هؤلاء من الانحراف والفساد والبطلان في شتى السور المدنية . . على أن القرآن المكي لم يخل من تقريرات عن حقيقة ماعليه أهل الكتاب . نذكر من ذلك :

Marfat.com

◆ « ولما جاء عيسى بالبينات قال : قد جئتكم بالحكمة ، ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه، فاتقوا الله وأطيعون. إن الله هو ربى وربكم فاعبدوه، هذا صراط مستقيم . فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم » ... (الزخرف : ٦٣ - ٦٥)

◆ « وماتفرقوا إلا من بعد ماجاءهم العلم - بغيا بينهم - وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب » ... (الشورى : ١٤)

◆ « وإذ قيل لهم : اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم ، وقولوا : حطة ، نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين .فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم ، فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون . واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت ، إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون »... (الأعراف : ١٦١ - ١٦٣)

◆ « وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ، إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم » ... (الأعراف : ١٦٧)

◆ « فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون : سيغفر لنا ، وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه . ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق ، ودرسوا مافيه ؟ والدار الآخرة خير للذين يتقون ، أفلا تعقلون ؟ » . . . (الأعراف : ١٦٩)

أما القرآن المدنى فقد تضمن الكلمة الأخيرة فى حقيقة ماعليه أهل الكتاب ؛ كما حكى عنهم أشنع الوسائل وأبشع الطرق فى حرب هذا الدين وأهله فى قطاعات طويلة من سور البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، وغيرها . قبل أن يقرر الكلمة النهائية فى أمرهم كله فى سورة التوبة . وسنكتفى هنا بنماذج محدودة من هذه التقريرات القرآنية الكثيرة :

◆ « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون ؟ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا . وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ؟ أفلا تعقلون ؟ أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون ؟ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى ، وإن هم إلا يظنون .فويل

Marfat.com

للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون : هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم ، وويل لهم مما يكسبون » ... (البقرة : ٧٥ – ٧٩)

◆ « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات ، وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون ؟ وقالوا : قلوبنا غُلف . بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله – بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده – فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين . وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله ، قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقاً لما معهم . قل : فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ؟ » ... (البقرة : ٨٧-٩١)

◆ « قل : يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله ؟ والله شهيد على ما تعملون . قل : يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ؟ وما الله بغافل عما تعملون » ... (آل عمران : ٩٨ – ٩٩)

◆ « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ؟ أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » ... (النساء : ٥١ – ٥٢)

◆ « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح : يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار ، وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون ! » ... (المائدة : ٧١ – ٧٥)

من مراجعة هذه النصوص القرآنية وأمثالها – وهو كثير فى القرآن المكى والمدنى على

Marfat.com

السواء - يتبين أن النظرة إلى حقيقة ماعليه أهل الكتاب من الانحراف عن دين الله الصحيح لم يتغير فيها شيء في التقريرات الأخيرة الواردة في السورة الأخيرة . وأن وصمهم بالانحراف والفسوق والشرك والكفر ليس جديدا ، ولا يعبر عن اتجاه جديد فيما يختص بحقيقة الاعتقاد.. وذلك مع ملاحظة أن القرآن الكريم ظل يسجل للفريق المهتدى الصالح من أهل الكتاب هداه وصلاحه . فقال تعالى منصفا للصالحين منهم :

◆ « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » ... (الأعراف : ١٥٩)

◆ « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما، ذلك بأنهم قالوا : ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » ... (آل عمران : ٧٥)

◆ « ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس ، وباءوا بغضب من الله ، وضربت عليهم المسكنة ، ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . ليسوا سواء : من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات ، وأولئك من الصالحين ومايفعلوا من خير فلن يكفروه ؛ والله عليم بالمتقين » ... (آل عمران : ١١٢ - ١١٥)

أما الذى وقع فيه التعديل فعلا فهو أحكام التعامل مع أهل الكتاب . فترة بعد فترة . ومرحلة بعد مرحلة . وواقعة بعد واقعة . وفق المنهج الحركى الواقعى لهذا الدين فى مواجهة أحوال أهل الكتاب وتصرفاتهم ومواقفهم مع المسلمين .

ولقد جاء زمان كان يقال فيه للمسلمين :

◆ « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن - إلا الذين ظلموا منهم - وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » ... (العنكبوت : ٤٦)

◆ « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وماأنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى وماأوتى النبيون من ربهم ، لانفرق بين أحد منهم ، ونحن

Marfat.com

له مسلمون . فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، وإن تولوا فإنما هم فى شقاق ،فسيكفيكم الله ، وهو السميع العليم » ... (البقرة : ١٣٦ - ١٣٧)

◆ « قل : ياأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم : ألا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » . . . (آل عمران : ٦٤)

◆ « ودكثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ، إن الله على كل شىء قدير » . . . (البقرة : ١٠٩)

ثم أتى الله بأمره الذى وكل المؤمنين إليه ؛ فوقعت أحداث ، وتعدلت أحكام ، وجرى المنهج الحركى الواقعى الإيجابى فى طريقه حتى كانت هذه الأحكام النهائية الأخيرة ، فى هذه السورة ، على النحو الذى رأينا . .

إنه لم يتغير شىء فى نظرة هذا الدين إلى حقيقة ما عليه أهل الكتاب من فساد العقيدة ؛ ومن الشرك بالله والكفر بآياته . . إنما الذى تغير هو قاعدة التعامل . . وهذه إنما تحكمها تلك الأصول التى أسلفنا الحديث عنها فى مطلع هذا الفصل التمهيدى لهذا المقطع من سياق السورة ، فى هذه الفقرات :

« وهذا التعديل الأخير فى قواعد التعامل بين المجتمع المسلم وأهل الكتاب لايفهم على طبيعته ، إلا بالفقه المستنير لطبيعة العلاقات الحتمية بين منهج الله ومناهج الجاهلية من ناحية . ثم لطبيعة المنهج الحركى الإسلامى ومراحله المتعددة ، ووسائله المتجددة ، المكافئة للواقع البشرى المتغير ، من الناحية الأخرى . ... الخ » .

* * *

والآن نأخذ فى شىء من استعراض طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم سواء من الناحية الموضوعية الثابتة ، أو من ناحية المواقف التاريخية الواقعة . . . فهذه هى العناصر الرئيسية التى انتهت إلى هذه الأحكام النهائية .

Marfat.com

إن طبيعة الموقف بين أهل الكتاب والمجتمع المسلم يجب البحث عنها أولا : فى تقريرات الله ـ سبحانه ـ عنها ، باعتبار أن هذه هى الحقيقة النهائية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ؛ وباعتبار أن هذه التقريرات ـ بسبب كونها ربانية ـ لا تتعرض لمثل ما تتعرض له الاستنباطات والاستدلالات البشرية من الأخطاء . . وثانيا : فى المواقف التاريخية المصدقة لتقريرات الله سبحانه !

إن الله سبحانه يقرر طبيعة موقف أهل الكتاب من المسلمين فى عدة مواضع من كتابه الكريم . . وهو تارة يتحدث عنهم ـ سبحانه ـ وحدهم، وتارة يتحدث عنهم مع الذين كفروا من المشركين ؛ باعتبار أن هنالك وحدة هدف ـ تجاه الإسلام والمسلمين ـ تجمع الذين كفروا من أهل الكتاب والذين كفروا من المشركين . وتارة يتحدث عن مواقف واقعية لهم تكشف عن وحدة الهدف ووحدة التجمع الحركى لمواجهة الإسلام والمسلمين . . والنصوص التى تقرر هذه الحقائق من الوضوح والجزم بحيث لا تحتاج منا إلى تعليق . . وهذه نماذج منها . .

- « مايود الذين كفروا من أهل ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم » . . . (البقرة : ١٠٥)
- « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم ، من بعد ماتبين لهم الحق » . . . (البقرة : ١٠٩)
- « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » . . . (البقرة : ١٢٠)
- « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم » . . . (آل عمران : ٦٩)
- « وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم »... (آل عمران :٧٢-٧٣)
- « ياأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » . . . (آل عمران : ١٠٠) . . .
- « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ، والله أعلم بأعدائكم . . . » . . . (النساء : ٤٤ ـ ٤٥)

Marfat.com

◆ « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا » ... (النساء : ٥١)

وفي هذه النماذج وحدها مايكفي لتقرير حقيقة موقف أهل الكتاب من المسلمين ... فهم يودون لو يرجع المسلمون كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق . وهم يحددون موقفهم النهائي من المسلمين بالإصرار على أن يكونوا يهودا أو نصارى ، ولا يرضون عنهم ولا يسالمونهم إلا أن يتحقق هذا الهدف ، فيترك المسلمون عقيدتهم نهائيا . وهم يشهدون للمشركين الوثنيين بأنهم أهدى سبيلا من المسلمين ! ... الخ .

وإذا نحن راجعنا الأهداف النهائية للمشركين تجاه الإسلام والمسلمين كما يقررها الله – سبحانه – في قوله تعالى :

◆ «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » ... (البقرة:٢١٧)

◆ « ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة » ... (النساء : ١٠٢)

◆ « إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون » ... (الممتحنة : ٢)

◆ « وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاًّ ولا ذمة » ... (التوبة : ٨)

◆ « لايرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمة » ... (التوبة : ١٠)

إذا نحن راجعنا هذه التقريرات الربانية عن المشركين ، وجدنا أن الأهداف النهائية لهم تجاه الإسلام والمسلمين ، هي بعينها – وتكاد تكون بألفاظها – هي الأهداف النهائية لأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين كذلك .. مما يجعل طبيعة موقفهم مع الإسلام والمسلمين هي ذاتها طبيعة موقف المشركين .

وإذا نحن لاحظنا أن التقريرات القرآنية الواردة في هؤلاء وهؤلاء ترد في صيغ نهائية ، تدل بصياغتها على تقرير طبيعة دائمة ، لا على وصف حالة مؤقتة ، كقوله تعالى في شأن المشركين :

Marfat.com

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » . .

وقوله تعالى فى شأن أهل الكتاب :

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » . .

إذا نحن لاحظنا ذلك تبين لنا بغير حاجة إلى أى تأويل للنصوص ، أنها تقرر طبيعة أصيلة دائمة للعلاقات ؛ ولا تصف حالة مؤقتة ولا عارضة !

فإذا نحن ألقينا نظرة سريعة على الواقع التاريخى لهذه العلاقات ، متمثلة فى مواقف أهل الكتاب ـ من اليهود والنصارى ـ من الإسلام وأهله ، على مدار التاريخ ، تبين لنا تماما ماذا تعنيه تلك النصوص والتقريرات الإلهية الصادقة ؛ وتقرر لدينا أنها كانت تقرر طبيعة مطردة ثابتة ، ولم تكن تصف حالة مؤقتة عارضة .

إننا إذا استثنينا حالات فردية ـ أو حالات جماعات قليلة ـ من التى تحدث القرآن عنها وحواها الواقع التاريخى بدت فيها الموادة للإسلام والمسلمين ؛ والاقتناع بصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصدق هذا الدين . ثم الدخول فيه والانضمام لجماعة المسلمين .. وهى الحالات التى أشرنا إليها فيما تقدم . . فإننا لا نجد وراء هذه الحالات الفردية أو الجماعية القليلة المحدودة ، إلا تاريخا من العداء العنيد ، والكيد الناصب ، والحرب الدائبة ، التى لم تفتر على مدار التاريخ . .

فأما اليهود فقد تحدثت شتى سور القرآن عن مواقفهم وأفاعيلهم وكيدهم ومكرهم وحربهم؛ وقد وعى التاريخ من ذلك كله مالم ينقطع لحظة واحدة منذ اليوم الأول الذى واجههم الإسلام فى المدينة حتى اللحظة الحاضرة !

وليست هذه الظلال مجالا لعرض هذا التاريخ الطويل . ولكننا سنشير فقط إلى قليل من كثير من تلك الحرب المسعورة التى شنها اليهود على الإسلام وأهله على مدار التاريخ . .

لقد استقبل اليهود رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودينه فى المدينة شر مايستقبل أهل دين سماوى رسولا يعرفون صدقه ، ودينا يعرفون أنه الحق . .

استقبلوه بالدسائس والأكاذيب والشبهات والفتن يلقونها فى الصف المسلم فى المدينة بكافة

Marfat.com

الطرق الملتوية الماكرة التي يتقنها اليهود . . شككوا في رسالة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم يعرفونه ؛ واحتضنوا المنافقين وأمدوهم بالشبهات التي ينشرونها في الجو وبالتهم والأكاذيب. وما فعلوه في حادث تحويل القبلة ، وما فعلوه في حادث الإفك ، وما فعلوه في كل مناسبة ، ليس إلا نماذج من هذا الكيد اللئيم . . وفي مثل هذه الأفاعيل كان يتنزل القرآن الكريم . وسور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والحشر والأحزاب والتوبة وغيرها تضمنت من هذا الكثير : (١)

◆ « ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم - وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا - فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين . بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله - بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده - فباءوا بغضب على غضب ، وللكافرين عذاب مهين » ... (البقرة : ٨٩ - ٩٠) .

◆ « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون » ... (البقرة : ١٠١) .

◆ « سيقول السفهاء من الناس : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها . قل : لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » ... (البقرة : ١٤٢) .

◆ « يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون . يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ؟ » ... (آل عمران : ٧٠ - ٧١) .

◆ « وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون » ... (آل عمران . ٧٢) .

◆ « وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب، ويقولون هو من عند الله ، وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » . (آل عمران : ٧٨)

◆ « قل : يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ؟ قل : يا أهل

(١) تراجع مقدمات سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة في الطبعة الثانية المنقحة من الظلال .

Marfat.com

الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون»... (آل عمران : ٩٨ - ٩٩) .

◆ «يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ! فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، فقالوا : أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ؛ ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات ... » ... (النساء : ١٥٣) .

◆ « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » ... (التوبة : ٣٢) .

كذلك شهد التاريخ نقض اليهود لعهودهم مرة بعد مرة وتحرشهم بالمسلمين ، مما أدى إلى وقائع بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة وخيبر . كما شهد تأليب اليهود للمشركين فى الأحزاب ، مما هو معروف مشهور .

ثم تابع اليهود كيدهم للإسلام وأهله منذ ذلك التاريخ .. كانوا عناصر أساسية فى إثارة الفتنة الكبرى التى قتل فيها الخليفة الراشد عثمان ابن عفان - رضى الله عنه - وانتثر بعدها شمل التجمع الإسلامى إلى حد كبير .. وكانوا رأس الفتنة فيما وقع بعد ذلك بين على - رضى الله عنه - ومعاوية .. وقادوا حملة الوضع فى الحديث والسيرة وروايات التفسير .. وكانوا من الممهدين لحملة التتار على بغداد وتقويض الخلافة الإسلامية ..

فأما فى التاريخ الحديث فهم وراء كل كارثة حلت بالمسلمين فى كل مكان على وجه الأرض؛ وهم وراء كل محاولة لسحق طلائع البعث الإسلامى ؛ وهم حماة كل وضع من الأوضاع التى تتولى هذه المحاولة فى كل أرجاء العالم الإسلامى !

ذلك شأن اليهود ، فأما شأن الفريق الآخر من أهل الكتاب ، فهو لا يقل إصرارا على العداوة والحرب من شأن اليهود !

لقد كانت بين الرومان والفرس عداوات عمرها قرون . . ولكن ما إن ظهر الإسلام فى الجزيرة ؛ وأحست الكنيسة بخطورة هذا الدين الحق على ما صنعته هى بأيديها وسمته « المسيحية » وهو ركام من الوثنيات القديمة ، والأضاليل الكنسية ، متلبسا ببقايا من كلمات

Marfat.com

المسيح - عليه السلام - وتاريخه[1].. حتى رأينا الرومان والفرس ينسون ما بينهم من نزاعات تاريخية قديمة وعداوات وثارات عميقة، ليواجهوا هذا الدين الجديد.

ولقد أخذ الروم يتجمعون فى الشمال هم وعمالهم من الغساسنة لينقضوا على هذا الدين. وذلك بعد أن قتلوا الحارث ابن عمير الأزدى رسول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى عامل بصرى من قبل الروم - وكان المسلمون يؤمنون الرسل ولكن النصارى غدروا برسول النبى صلى الله عليه وسلم وقتلوه - مما جعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يبعث بجيش الأمراء الشهداء الثلاثة: زيد ابن حارثة، وجعفر ابن أبى طالب، وعبد الله ابن رواحة فى غزوة «مؤتة» فوجدوا تجمعا للروم تقول الروايات عنه: إنه مئة ألف من الروم ومعه من عملائهم فى الشام من القبائل العربية النصرانية مئة ألف أخرى؛ وكان جيش المسلمين لا يتجاوز ثلاثة آلاف مقاتل. وكان ذلك فى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة.

ثم كانت غزوة تبوك التى يدور عليها معظم هذه السورة (وسيجىء تفصيل القول فيها فى موضعه إن شاء الله تعالى). ثم كان جيش أسامة ابن زيد الذى أعده رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبيل وفاته؛ ثم أنفذه الخليفة الراشد أبو بكر - رضى الله عنه - إلى أطراف الشام؛ لمواجهة تلك التجمعات الرومانية التى تستهدف القضاء على هذا الدين!

ثم اشتعل مرجل الحقد الصليبى منذ موقعة اليرموك الظافرة، التى أعقبها انطلاق الإسلام لتحرير المستعمرات الإمبراطورية الرومانية فى الشام ومصر وشمال إفريقية وجزر البحر الأبيض. ثم بناء القاعدة الإسلامية الوطيدة فى الأندلس فى النهاية.

إن «الحروب الصليبية» المعروفة بهذا الاسم فى التاريخ، لم تكن هى وحدها التى شنتها الكنيسة على الإسلام.. لقد كانت هذه الحروب مبكرة قبل هذا الموعد بكثير.. لقد بدأت فى الحقيقة منذ ذلك التاريخ البعيد.. منذ أن نسى الرومان عداواتهم مع الفرس؛ وأخذ النصارى يعينون الفرس ضد الإسلام فى جنوب الجزيرة. ثم بعد ذلك فى «مؤتة». ثم فيما تلا موقعة اليرموك الظافرة.. ثم تجلت ضراوتها ووحشيتها فى الأندلس عندما زحفت الصليبية

---

(1) يراجع فصل: «الفصام النكد» فى كتاب: «المستقبل لهذا الدين».

Marfat.com

على القاعدة الإسلامية فى أوربة ، وارتكبت من الوحشية فى تعذيب ملايين المسلمين وقتلهم هناك مالم يعرف التاريخ له نظيرا من قبل . . وكذلك تجلت فى الحروب الصليبية فى الشرق بمثل هذه البشاعة التى لاتتحرج ولا تذمم ؛ ولا تراعى فى المسلمين إلاّ ولا ذمة .

ومما جاء فى كتاب « حضارة العرب » لجوستاف لوبون ـ وهو فرنسى مسيحى ـ :

« كان أول ما بدأ به ريكاردوس الإنجليزى أنه قتل أمام معسكر المسلمين ، ثلاثة آلاف أسير سلموا أنفسهم إليه ، بعد أن قطع على نفسه العهد بحقن دمائهم . ثم أطلق لنفسه العنان باقتراف القتل والسلب ، مما أثار صلاح الدين الأيوبى النبيل ، الذى رحم نصارى القدس ، فلم يمسهم بأذى ، والذى أمد فيليب وقلب الأسد بالمرطبات والأدوية والأزواد ، أثناء مرضهما (١) » .

كذلك كتب كاتب مسيحى آخر (اسمه يورجا) (٢) يقول :

« ابتدأ الصليبيون سيرهم على بيت المقدس بأسوأ طالع ، فكان فريق من الحجاج يسفكون الدماء فى القصور التى استولوا عليها . وقد أسرفوا فى القسوة فكانوا يبقرون البطون ، ويبحثون عن الدنانير فى الأمعاء ! أما صلاح الدين ، فلما استرد بيت المقدس بذل الأمان للصليبيين ، ووفى لهم بجميع عهوده ، وجاد المسلمون على أعدائهم ووطأوهم مهاد رأفتهم ، حتى أن الملك العادل ، شقيق السلطان ، أطلق ألف رقيق من الأسرى ، ومنّ على جميع الأرمن ، وأذن للبطريرك بحمل الصليب وزينة الكنيسة ، وأبيح للأميرات والملكة بزيارة أزواجهنّ » .

ولا يتسع المجال فى الظلال لاستعراض ذلك الخط الطويل للحروب الصليبية ـ على مدار التاريخ ـ ولكن يكفى أن نقول : إن هذه الحرب لم تضع أوزارها قط من جانب الصليبية . ويكفى أن نذكر ماذا حدث فى زنجبار حديثا . حيث أبيد المسلمون فيها عن بكرة أبيهم ، فقتل منهم اثنا عشر ألفا وألقى الأربعة الآلاف الباقون فى البحر منفيين من الجزيرة ! ويكفى أن نذكر ماذا وقع فى قبرص ، حيث منع الطعام والماء عن الجهات التى يقطنها بقايا المسلمين هناك ليموتوا

(١ ، ٢) نقلا عن كتاب : الشريعة الإسلامية والقانون الدولى العام للأستاذ على على منصور .

Marfat.com

جوعا وعطشا ، فوق ماسلط عليهم من التقتيل والتذبيح والتشريد ! ويكفي أن نذكر ماتزاوله الحبشة في اريترية وفي قلب الحبشة ، وما تزاوله كينيا مع المائة ألف مسلم الذين ينتمون إلى أصل صومالي ، ويريدون أن ينضموا إلى قومهم المسلمين في الصومال ! ويكفي أن نعلم ماذا تحاوله الصليبية في السودان الجنوبي !

ويكفي لتصوير نظرة الصليبيين إلى الإسلام أن ننقل فقرة من كتاب لمؤلف أوربي صدر سنة ١٩٤٤ يقول فيه .

« لقد كنا نخوف بشعوب مختلفة . ولكننا بعد اختبار ، لم نجد مبررا لمثل هذا الخوف .. لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودي ، والخطر الأصفر ، وبالخطر البلشفي . إلا أن هذا التخويف كله لم يتفق كما تخيلناه . إننا وجدنا اليهود أصدقاء لنا ، وعلى هذا يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد ! ثم رأينا أن البلاشفة حلفاء لنا . أما الشعوب الصفراء فهنالك دول ديمقراطية كبرى تقاومها . ولكن الخطر الحقيقي كامن في نظام الإسلام ، وفي قوته على التوسع والإخضاع ، وفي حيويته . . إنه الجدار الوحيد في وجه الاستعمار الأوربي (١) »

ولا نستطيع أن نمضي أبعد من ذلك في استعراض تاريخ تلك الحرب العاتية التي أعلنتها الصليبية على الإسلام وما تزال . . وقد تحدثنا من قبل مرارا في أجزاء الظلال السابقة ـ بمناسبة النصوص القرآنية الكثيرة ـ عن طبيعة هذه المعركة ، الطويلة ، ومسائلها وأشكالها . فحسبنا هذه الإشارات السريعة هنا بالإحالة على بعض المراجع الأخرى القريبة (٢) .

* * *

وهكذا نرى من هذا الاستعراض السريع ـ بالإضافة إلى ماقلناه من قبل عن طبيعة الإعلان الإسلامي العام بتحرير الإنسان ، وتحفز الجاهلية في الأرض كلها لسحق الحركة التي تحمل هذا الإعلان العام وتنطلق به في الأرض كلها ـ أن هذه الأحكام الأخيرة الواردة في

---

(١) من كتاب جورج براون نقلا عن كتاب: « التبشير والاستعمار في البلاد العربية » للدكتور مصطفى خالدي ، والدكتور عمر فروخ .

(٢) يراجع كتاب : « الاستعمار والتبشير » للدكتور مصطفى خالدي والدكتور عمر فروخ . وكتاب: « الغارة على العالم الإسلامي » للأستاذين الباقي ومحب الدين الخطيب . وكتاب : « الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر » للدكتور محمد محمد حسين . وكتاب : « هل نحن مسلمون » لمحمد قطب .

Marfat.com

هذه السورة ، هي المقتضى الطبيعي لهذه الحقائق كلها مجتمعة ؛ وأنها ليست أحكاما محددة بزمان، ولا مقيدة بحالة . وإن كان هذا في الوقت ذاته لا ينسخ الأحكام المرحلية السابقة النسخ الشرعي الذي يمنع العمل بها في الظروف والملابسات التي تشابه الظروف والملابسات التي نزلت فيها . فهناك دائما طبيعة المنهج الإسلامي الحركية ، التي تواجه الواقع البشري مواجهة واقعية ، بوسائل متجددة ، في المراحل المتعددة .

وحقيقة أن هذه الأحكام النهائية الواردة في هذه السورة كانت تواجه حالة بعينها في الجزيرة ؛ وكانت تمهيدا تشريعيا للحركة المتمثلة في غزوة تبوك ، لمواجهة تجمع الروم على أطراف الجزيرة مع عمالهم للانقضاض على الإسلام وأهله ـ وهي الغزوة التي يقوم عليها محور السورة ـ ولكن وضع أهل الكتاب تجاه الإسلام وأهله لم يكن وليد مرحلة تاريخية معينة . إنما كان وليد حقيقة دائمة مستقرة ؛ كما أن حربهم للإسلام والمسلمين لم تكن وليدة فترة تاريخية معينة . فهي ما تزال معلنة ولن تزال . . إلا أن يرتد المسلمون عن دينهم تماما !.. وهي معلنة بضراوة وإصرار وعناد ، بشتى الوسائل على مدار التاريخ ! ومن ثم فهذه الأحكام الواردة في هذه السورة أحكام أصيلة وشاملة وغير موقوتة بزمان ولا مقيدة بمكان . . ولكن العمل بالأحكام إنما يتم في إطار المنهج الحركي الإسلامي ، الذي يجب أن يتم الفقه به ، قبل أن يتحدث المتحدثون عن الأحكام في ذاتها . وقبل أن يحمل واقع ذراري المسلمين ـ الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان ـ وضعفهم وانكسارهم على دين الله القوي المتين !

إن الأحكام الفقهية في الإسلام كانت ـ وستظل دائما ـ وليدة الحركة وفق المنهج الإسلامي . والنصوص لا يمكن فهمها إلا باستصحاب هذه الحقيقة . . وفرق بعيد بين النظرة إلى النصوص كأنها قوالب في فراغ ؛ والنصوص في صورتها الحركية وفق المنهج الإسلامي . ولا بد من هذا القيد : « الحركة وفق المنهج الإسلامي » فليست هي الحركة المطلقة خارج المنهج ؛ بحيث نعتبر « الواقع البشري » هو الأصل أيا كانت الحركة التي أنشأته ، ولكن « الواقع البشري » يصبح عنصرا أساسيا في فقه الأحكام إذا كان قد أنشأه المنهج الإسلامي ذاته .

وفي ظل هذه القاعدة تسهل رؤية تلك الأحكام النهائية في العلاقات بين أهل الكتاب

Marfat.com

والمجتمع المسلم ؛ وهى تتحرك الحركة الحية ؛ فى مجالها الواقعى ؛ وفق ذلك المنهج الحركى الواقعى الإيجابى الشامل .

وحسبنا هذا التمهيد المجمل لنواجه فى ظله النصوص القرآنية الواردة فى هذا المقطع :

* * *

« قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . .

هذه الآية ـ والآيات التالية لها فى السياق ـ كانت تمهيدا لغزوة تبوك ؛ ومواجهة الروم وعمالهم من الغساسنة المسيحيين العرب . . وذلك يلهم أن الأوصاف الواردة فيها هى صفات قائمة بالقوم الموجهة إليهم الغزوة ؛ وأنها إثبات حالة واقعة بصفاتها القائمة. وهذا مايلهمه السياق القرآنى فى مثل هذه المواضع . . فهذه الصفات القائمة لم تذكر هنا على أنها شروط لقتال أهل الكتاب ؛ إنما ذكرت على أنها أمور واقعة فى عقيدة هؤلاء الأقوام وواقعهم ؛ وأنها مبررات ودوافع للأمر بقتالهم . ومثلهم فى هذا الحكم كل من تكون عقيدته وواقعه كعقيدتهم وواقعهم . .

وقد حدد السياق من هذه الصفات القائمة :

أولا : أنهم لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .

ثانيا : أنهم لايحرمون ماحرم الله ورسوله .

ثالثا : أنهم لا يدينون دين الحق .

ثم بين فى الآيات التالية كيف أنهم لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ، ولايدينون دين الحق . وذلك بأنهم :

أولا : قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ؛ وأن هذا القول يضاهىء قول الذين كفروا من قبلهم من الوثنيين . فهم مثلهم فى هذا الاعتقاد الذى لايعد صاحبه مؤمنا بالله ولا باليوم الآخر . (وسنبين بالضبط كيف أنه لايؤمن باليوم الآخر) ،

ثانيا : اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح ابن مريم . وأن هذا

Marfat.com

مخالف لدين الحق .. وهو الدينونة لله وحده بلاشركاء .. فهم بهذا مشركون لايدينون دين الحق .

ثالثا : يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم . فهم محاربون لدين الله . ولا يحارب دين الله مؤمن بالله واليوم الآخر يدين دين الحق أبدا .

رابعا : يأكل كثير من أحبارهم ورهبانهم أموال الناس بالباطل . فهم إذن لا يحرمون ماحرم الله ورسوله (سواء كان المقصود برسوله رسولهم أو محمد صلى الله عليه وسلم) :

وهذه الصفات كلها كانت واقعة بالقياس إلى نصارى الشام والروم . كما أنها واقعة بالقياس إلى غيرهم منذ أن حرفت المجامع المقدسة دين المسيح عليه السلام ؛ وقالت ببنوة عيسى عليه السلام ، وبتثليث الأقانيم- على كل مابين المذاهب والفرق من خلاف يلتقى كله على التثليث ! - على مدار التاريخ حتى الآن !

وإذن فهو أمر عام ، يقرر قاعدة مطلقة فى التعامل مع أهل الكتاب ، الذين تنطبق عليهم هذه الصفات التى كانت قائمة فى نصارى العرب ونصارى الروم .. ولايمنع من هذا العموم أن الأوامر النبوية استثنت أفرادا وطوائف بأعيانها لتترك بلا قتال كالأطفال والنساء والشيوخ والعجزة والرهبان الذين حبسوا أنفسهم فى الأديرة ... بوصفهم غير محاربين - فقد منع الإسلام أن يقاتل غير المحاربين من أية ملة - وهؤلاء لم تستثنهم الأوامر النبوية لأنهم لم يقع منهم اعتداء بالفعل على المسلمين . ولكن لأنه ليس من شأنهم أصلا أن يقع منهم الاعتداء . فلا محل لتقييد هذا الأمر العام بأن المقصود به هم الذين وقع منهم اعتداء فعلا - كما يقول المهزومون الذين يحاولون أن يدفعوا عن الإسلام الاتهام ! - فالاعتداء قائم ابتداء . الاعتداء على ألوهية الله ! والاعتداء على العباد بتعبيدهم لغير الله ! والإسلام حين ينطلق للدفاع عن ألوهية الله - سبحانه- والدفاع عن كرامة الإنسان فى الأرض، لابد أن تواجهه الجاهلية بالمقاومة والحرب والعداء.. ولا مفر من مواجهة طبائع الأشياء !

إن هذه الآية تأمر المسلمين بقتال أهل الكتاب « الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر».. والذى يقول ببنوة عزير لله أو بنوة المسيح لله لايمكن أن يقال عنه : إنه يؤمن بالله . وكذلك الذى

Marfat.com

يقول : إن الله هو المسيح ابن مريم . أو إن الله ثالث ثلاثة . أو إن الله تجسد فى المسيح ... إلى آخر التصورات الكنسية التى صاغتها المجامع المقدسة على كل مابينها من خلاف ! .. والذين يقولون : إنهم لن يدخلوا النار إلا أياما معدودات مهما ارتكبوا من آثام بسبب أنهم أبناء الله وأحباؤه وشعب الله المختار ، والذين يقولون : إن كل معصية تغفر بالاتحاد بالمسيح وتناول العشاء المقدس ؛ وأنه لامغفرة إلا عن هـذا الطريق ! هؤلاء وهؤلاء لايقال : إنهم يؤمنون باليوم الآخر ..

وهذه الآية تصف أهل الكتاب هؤلاء بأنهم «لايحرمون ماحرم الله ورسوله» .. وسواء كان المقصود بكلمة « رسوله » هو رسولهم الذى أرسل إليهم ، أو هو النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فالفحوى واحدة . ذلك أن الآيات التالية فسرت هذا بأنهم يأكلون أموال الناس بالباطل . وأكل أموال الناس بالباطل محرم فى كل رسالة وعلى يد كل رسول .. وأقرب النماذج لأكل أموال الناس بالباطـل هو المعاملات الربوية . وهو مايأخذه رجال الكنيسة مقابل « صك الغفران » ! وهو الصد عن دين الله والوقوف فى وجهه بالقوة وفتنة المؤمنين عن دينهم . وهو تعبيد العباد لغير الله وإخضاعهم لأحكام وشرائع لم ينزلها الله .. فهذا كله ينطبق عليـه : « ولايحرمون ماحرم اللهورسوله » .. وهذا كله قائم فى أهل الكتاب ، كما كان قائمايومذاك !

كذلك تصفهم الآية بأنهم « لايدينون دين الحق » .. وهذا واضح مما سبق بيانه . فليس بدين الحق أى اعتقاد بربوبية أحد مع الله . كما أنه ليس بدين الحق التعامل بشريعة غير شريعة الله ، وتلقى الأحكام من غير الله ، والدينونة لسلطان غير سلطان الله . وهذا كله قائم فى أهل الكتاب ، كما كان قائما فيهم يومذاك ..

والشرط الذى يشترطه النص للكف عن قتالهم ليس أن يسلموا .. فلا إكراه فى الدين . ولكن أن يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون .. فما حكمة هذا الشرط ، ولماذا كانت هذه هى الغاية التى ينتهى عندها القتال ؟

إن أهل الكتاب بصفاتهم تلك حرب على دين الله اعتقادا وسلوكا ؛ كما أنهم حرب على المجتمع المسلم بحكم طبيعة التعارض والتصادم الذاتيين بين منهج الله ومنهج الجاهلية الممثلة فى عقيدة أهل الكتاب وواقعهم ـ وفق ماتصوره هذه الآيات ـ كما أن الواقع التاريخى قد أثبت حقيقة التعارض

Marfat.com

وطبيعة التصادم ؛ وعدم إمكان التعايش بين المنهجين؛ وذلك بوقوف أهل الكتاب فى وجه دين الله فعلا ، وإعلان الحرب عليه وعلى أهله بلا هوادة خلال الفترة السابقة لنزول هذه الآية (وخلال الفترة اللاحقة لها إلى اليوم أيضا !) .

والإسلام - بوصفه دين الحق الوحيد القائم فى الأرض - لابد أن ينطلق لإزالة العوائق المادية من وجهه ؛ ولتحرير الإنسان من الدينونة بغير دين الحق ؛ على أن يدع لكل فرد حرية الاختيار ، بلا إكراه منه ولا من تلك العوائق المادية كذلك .

وإذن فإن الوسيلة العملية لضمان إزالة العوائق المادية ، وعدم الإكراه على اعتناق الإسلام فى الوقت نفسه ، هى كسر شوكة السلطات القائمة على غير دين الحق ؛ حتى تستسلم ؛ وتعلن استسلامها بقبول إعطاء الجزية فعلا .

وعندئذ تتم عملية التحرير فعلا ، بضمان الحرية لكل فرد أن يختار دين الحق عن اقتناع . فإن لم يقتنع بقى على عقيدته ،وأعطى الجزية .لتحقيق عدة أهداف :

أولها : أن يعلن بإعطائها استسلامه وعدم مقاومته بالقوة المادية للدعوة إلى دين الله الحق .

وثانيها : أن يساهم فى نفقات الدفاع عن نفسه وماله وعرضه وحرماته التى يكفلها الإسلام لأهل الذمة (الذين يؤدون الجزية فيصبحون فى ذمة المسلمين وضمانتهم) ويدفع عنها من يريد الاعتداء عليها من الداخل أو من الخارج بالمجاهدين من المسلمين .

وثالثها : المساهمة فى بيت مال المسلمين الذى يضمن الكفالة والإعاشة لكل عاجز عن العمل ، بما فى ذلك أهل الذمة ، بلا تفرقة بينهم وبين المسلمين دافعى الزكاة .

ولا نحب أن نستطرد هنا إلى الخلافات الفقهية حول من تؤخذ منهم الجزية ومن لا تؤخذ منهم . ولا عن مقادير هذه الجزية . ولا عن طرق ربطها ومواضع هذا الربط .. ذلك أن هذه القضية برمتها ليست معروضة علينا اليوم ، كما كانت معروضة على عهود الفقهاء الذين أفتوا فيها واجتهدوا رأيهم فى وقتها .

إنها قضية تعتبر اليوم « تاريخية » وليست « واقعية » ..إن المسلمين اليوم لايجاهدون!..

Marfat.com

ذلك أن المسلمين اليوم لا يوجدون ! .. إن قضية « وجود » الإسلام ووجود المسلمين هى التى تحتاج اليوم إلى علاج !

والمنهج الإسلامى ـ كما قلنا من قبل مرارا ـ منهج واقعى جاد ؛ يأبى أن يناقش القضايا المعلقة فى الفضاء ؛ ويرفض أن يتحول إلى مباحث فقهية لا تطبق فى عالم الواقع ـ لأن الواقع لا يضم مجتمعا مسلما تحكمه شريعة الله ، ويصرّف حياته الفقه الإسلامى ـ ويحتقر الذين يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بمثل هذه المباحث فى أقضية لا وجود لها بالفعل ؛ ويسميهم « الأرأيتيين » الذين يقولون : « أرأيت لو أن كذا وقع فما هو الحكم ؟ »

إن نقطة البدء الآن هى نقطة البدء فى أول عهد الناس برسالة الإسلام .. أن يوجد فى بقعة من الأرض ناس يدينون دين الحق ؛ فيشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .. ومن ثم يدينون لله وحده بالحاكمية والسلطان والتشريع ؛ ويطبقون هذا فى واقع الحياة .. ثم يحاولون أن ينطلقوا فى الأرض بهذا الإعلان العام لتحرير الإنسان .. ويومئذ ـ ويومئذ فقط ـ سيكون هناك مجال لتطبيق النصوص القرآنية والأحكام الإسلامية فى مجال العلاقات بين المجتمع المسلم وغيره من المجتمعات .. ويومئذ ـ ويومئذ فقط ـ يجوز الدخول فى تلك المباحث الفقهية ، والاشتغال بصياغة الأحكام ، والتقنين للحالات الواقعة التى يواجهها الإسلام بالفعل ، لا فى عالم النظريات !

وإذا كنا قد تعرضنا لتفسير هذه الآية ـ من ناحية الأصل والمبدأ ـ فإنما فعلنا هذا لأنها تتعلق بمسألة اعتقادية وترتبط بطبيعة المنهج الإسلامى . وعند هذا الحد نقف ، فلا نتطرق وراءه إلى المباحث الفقهية الفرعية احتراما لجدية المنهج الإسلامى وواقعيته وترفعه على هذا الهزال !

* * *

« وقالت اليهود : عزير ابن الله ؛ وقالت النصارى : المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟ » . .

لما أمر الله المسلمين بقتال أهل الكتاب « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . . كانت هنالك ملابسات فى واقع المجتمع المسلم فى المدينة ـ تحدثنا عنها فى تقديم السورة وتقديم

Marfat.com

المقطع الأول منها - تدعو إلى توكيد هـذا الأمر وتقويته ؛ وجـلاء الأسباب والعوامل التى تحتمه ؛ وإزالة الشبهات والمعوقات التى تحيك فى بعض النفوس تجاهه . وبخاصة أن طاعة هذا الأمر كانت تقتضى مواجهة الروم فى أطراف الشام . والروم كانوا مرهوبين من العرب قبـل الإسلام ؛ وكانوا مسيطرين على شمال الجزيرة لفترة طويلة ؛ ولهم أعوان من القبائل العربية ، وسلطنة خاضعة لنفوذهم هى سلطنة الغساسنة . . وحقيقة أن هذه لم تـكن أول ملحمة يخوضها المسلمون مع الروم، بعد أن أعزالله أولئك العرب بالإسلام، وجعل منهم أمة تواجه الروم والفرس بعد أن كانوا قبائل لاتجرؤ ولا تفـكر فى الالتحام بالروم والفرس ؛ وكل ماعرف عنها من شجاعة إنما يتبدى فى قتال بعضها لبعض ، وفى الغارات والثارات والنهب والسلب ! ولـكن مهابة الروم كانت مازال باقيـة فى أعماق النفوس - وبخاصة تلك التى لم يتم انطباعها بالطابع الإسـلامى الأصيل - وكانت آخر ملحمة كبيرة بين المسلمين والروم - وهى غزوة مؤتة - ليست فى صالح المسلمين . وقد احتشد فيها من الروم وعملائهم من نصارى العـرب ما روى أنه مئتا ألف !

كل هـذه الملابسات - سواء مايتعلق منها بتركيب المجتمع المسلم فى هـذه الفترة ؛ أو مايختص برواسب المهابة للروم والتخوف من الالتحام معهم ؛ مضافا إليها ظروف الغزوة ذاتها - وقد سميت غزوة العسرة لما سنبينه من الظروف التى أحاطت بها - وفوق ذلك كله شبهة أن الروم وعمـالهم من نصارى العرب هم أهل كتاب . . كل هـذه الملابسات دعت إلى زيادة الإيضاحات والبيانات القوية لتقرير حتمية هذا الأمر ، وإزالة الشبهات والمعوقات النفسية، وجلاء الأسباب والعوامل لتلك الحتمية . .

وفى هذه الآية يبين السياق القرآنى ضلال عقيدة أهل الـكتاب هؤلاء ؛ وأنها تضاهى عقيدة المشركين من العرب ، والوثنيين من قدامى الرومان وغيرهم . وأنهم لم يستقيموا على العقيدة الصحيحة التى جاءتهم بها كتبهم ؛ فلا عـبرة إذن بأنهم أهل كتاب ، وهم يخالفون فى الاعتقاد الأصل الذى تقوم عليـه العقيدة الصحيحة فى كتبهم . والذى يلفت النظر هو ذكر اليهود هنـا وقولهم : عزير ابن الله ؛ فى حين أن الآيات كانت بصدد التوجيه والتحضير

Marfat.com

لمواجهة الروم وحلفائهم من نصارى العرب . . وذلك – على ما نرجح – يرجع إلى أمرين :

الأول : أنه لما كان نص الآيات عاما ؛ والأمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون عاما ؛ فقد اقتضى السياق بيان الأصل الاعتقادى الذى يستند إليه هذا الأمر العام فى شأن أهل الكتاب عامة من اليهود والنصارى سواء .

الثانى : أن اليهود كانوا قد رحلوا من المدينة إلى أطراف الشام ؛ بعدما اشتبكوا مع الإسلام والمسلمين فى حرب مريرة منذ مقدم الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة . انتهت بإجلاء بنى قينقاع وبنى النضير إلى أطراف الشام ؛ ثم وأفراد من بنى قريظة . فكان اليهود يومئذ فى طريق الانطلاق الإسلامى إلى أطراف الشام . مما اقتضى أن يشملهم ذلك الأمر ، وأن يشملهم هذا البيان .

وقول النصارى : « المسيح ابن الله » معلوم مشهور ؛ وما تزال عليه عقائدهم حتى اللحظة منذ أن حرفها بولس ، ثم تم تحريفها على أيدى المجامع المقدسة – كما سنبين – فأما قول اليهود : « عزير ابن الله » فليس شائعا ولا معروفا اليوم . والذى فى كتب اليهود المدونة الباقية سفر باسم « عزرا » –وهوعزير– نعت فيه بأنه كاتب ماهر فى توراة موسى ، وأنه وجه قلبه لالتماس شريعة الرب . . ولكن حكاية هذا القول عن اليهود فى القرآن دليل قاطع على أن بعضهم على الأقل – وبخاصة يهود المدينة – زعموا هذا الزعم ، وراج بينهم ؛ وقد كان القرآن يواجه اليهود والنصارى مواجهة واقعية ؛ ولو كان فيما يحكيه من أقوالهم مالا وجود له بينهم لكان هذا حجة لهم على تكذيب ما يرويه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولما سكتوا عن استخدام هذا على أوسع نطاق !

وقد أورد المرحوم الشيخ رشيد رضا فى الجزء العاشر من تفسير المنار (ص ٣٧٨ – ص ٣٨٥) خلاصة مفيدة عن مكانة عزرا عند اليهود وعلق عليها كذلك تعليقا مفيدا ننقل منه هنا فقرات تفيدنا فى بيان حقيقة ماعليه اليهود إجمالا . قال :

« جاء فى دائرة المعارف اليهودية (طبعة ١٩٠٣) أن عصر عزرا هو ربيع التاريخ الملى

Marfat.com

لليهودية الذى تفتحت فيه أزهاره وعبق شذا ورده . وأنه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة (وفى الأصل عربة أو مركبة الشريعة)[1] لو لم يكن جاء بها موسى (التلمود ٢١ ب) فقد كانت نسيت . ولكن عزرا أعادها أو أحياها . ولولا خطايا بنى إسرائيل لاستطاعوا رؤية الآيات (المعجزات) كما رأوها فى عهد موسى . . اهـ . . وذكر فيها أنه كتب الشريعة بالحروف الأشورية ـ وكان يضع علامة على الكلمات التى يشك فيها ـ وأن مبدأ التاريخ اليهودى يرجع إلى عهده .

وقال الدكتور جورج بوست فى قاموس الكتاب المقدس : عزرا (عون) كاهن يهودى وكاتب شهير سكن بابل مدة « ارتحشثتا » الطويل الباع ؛ وفى السنة السابعة للملك أباح لعزرا بأن يأخذ عددا وافرا من الشعب إلى أورشليم نحو سنة ٤٥٧ ق . م (عزرا ص ٧) وكانت مدة السفر أربعة أشهر .

« ثم قال : وفى تقليد اليهود يشغل عزرا موضعا يقابل بموضع موسى وإيليا ؛ ويقولون إنه أسس المجمع الكبير ، وأنه جمع أسفار الكتاب المقدس ، وأدخل الأحرف الكلدانية عوض العبرانية القديمة ، وأنه ألف أسفار « الأيام » و « عزرا » و « نحميا » .

« ثم قال : ولغة سفر « عزرا » من ص ٤ : ٨ - ٦ : ١٩ كلدانية ، وكذلك ص ٧ : ١ - ٢٧ ، وكان الشعب بعد رجوعهم من السبى يفهمون الكلدانية أكثر من العبرانية . اهـ .

« وأقول : إن المشهور عند مؤرخى الأمم ، حتى أهل الكتاب منهم ، أن التوراة التى كتبها موسى عليه السلام ووضعها فى تابوت العهد أو بجانبه ، قد فقدت قبل عهد سليمان عليه السلام . فإنه لما فتح التابوت فى عهده لم يوجد فيه غير اللوحين اللذين كتبت فيهما الوصايا العشر (٢) ، كما تراه فى سفر الملوك الأول . وأن (عزرا) هذا هو الذى كتب التوراة

---

(١) لعل تعبير « حامل الشريعة » أدق فى ترجمة الأصل الإنجليزى من عبارة « ناشر الشريعة » .

(٢) جاء فى القرآن الكريم عن هذه الواقعة : « إن آية ملكه (أى طالوت) أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة » .

Marfat.com

وغيرها بعد السبي بالحروف الكلدانية ، واللغة الكلدانية الممزوجة ببقايا اللغة العبرية التي نسي اليهود معظمها . ويقول أهل الكتاب : إن عزرا كتبها كما كانت بوحي أو بإلهام من الله . . وهذا مالا يسلمه لهم غيرهم ، وعليه اعتراضات كثيرة مذكورة في مواضعها من الكتب الخاصة بهذا الشأن ، حتى من تآليفهم ، كذخيرة الألباب للكاثوليك ـ وأصله فرنسي ـ وقد عقد الفصلين الحادي عشر والثاني عشر لذكر بعض الاعتراضات على كون الأسفار الخمسة لموسى . ومنها قوله :

« جاء في سفر عزرا (٤ ف ١٤ عدد ٢١) أن جميع الأسفار المقدسة حرقت بالنار في عهد « بنو خذ نصر » حيث قال : « إن النار أبطلت شريعتك فلم يعد سبيل لأي امرئ أن يعرف ماصنعت ! (١) » ويزاد على ذلك أن عزرا أعاد بوحي الروح القدس تأليف الأسفار المقدسة التي أبادتها النار ، وعضده فيها كتبة خمسة معاصرون ، ولذلك ترى « ترتوليانوس » والقديس « إيريناوس » والقديس « إيرونيموس » والقديس « يوحنا الذهبي » والقديس « باسيليوس » وغيرهم يدعون عزرا : مرمم الأسفار المقدسة المعروفة عند اليهود . . اهـ . .

إلى أن قال :

. . . « نكتفي بهذا البيان هنا ولنا فيه غرضان : (أحدهما) : أن جميع أهل الكتاب مدينون لعزير هذا في مستند دينهم وأصل كتبهم المقدسة عندهم . (وثانيهما): أن هذا المستند واهي النسيان متداعي الأركان ، وهذا هو الذي حققه علماء أوربة الأحرار (٢) . فقد جاء في ترجمته من دائرة المعارف البريطانية بعد ذكر مافي سفره وسفر نحميا من كتابته للشريعة : أنه

---

(١) ونحن نقول : إن قول القرآن أصدق . وقد قرر أنه كان هناك (بقية) !

(٢) يجب أن ننبه نحن في الظلال إلى دلالة مثل هذه العبارات (الأحرار) في مدرسة الشيخ محمد عبده وتلاميذها ، فقد كانت هذه المدرسة بجملتها متأثرة بمناهج تفكير وبأفكار غربية غريبة على منهج التفكير الإسلامي الخالص ، وكان هذا التأثر يجعلها تنظر إلى كتاب أوربا الناهضين للكنيسة بوصفهم أحراراً . وكذلك الكتاب الذين يكتبون عن الديمقراطية والحرية الغربية ، وكذلك إلى الأوضاع الأوربية نظرة استحسان . وكانت تدعو إلى الأخذ بما تسميه (الصالح من هذه الأفكار والأوضاع) بناء على ذلك التأثر .. وهذا مزلق خطر ، كان يعطف عليه لورد كرومر وأمثاله من الصليبيين ! والأمر في حاجة إلى نظرة أعمق وأوسع وإلى استقلال واستغناء بالمنهج الإسلامي .

Marfat.com

جاء فى روايات أخرى متأخرة عنها أنه لم يعد إليهم الشريعة التى أحرقت فقط ، بل أعاد جميع الأسفار العبرية التى كانت أتلفت ، وأعاد سبعين سفرا غير قانونية (أبو كريف) ! ثم قال كاتب الترجمة فيها : وإذا كانت الأسطورة الخاصة بعزرا هذا قد كتبها من كتبها من المؤرخين بأقلامهم من تلقاء أنفسهم ، ولم يستندوا فى شىء منها إلى كتاب آخر ، فكتاب هـذا العصر يرون أن أسطورة عزرا قد اختلقها أولئك الرواة اختلاقا . . (انظر ص ١٤ ج ٩ من الطبعة الرابعة عشرة سنة ١٩٢٩)

« وجملة القول : أن اليهود كانوا وما يزالون يقدسون عزيرا هذا حق إن بعضهم أطلق عليه لقب « ابن الله » . ولا ندرى أكان إطلاقه عليه بمعنى التكريم الذى أطلق على إسرائيل وداود وغيرهما ، أم بالمعنى الذى سيأتى قريبا عن فيلسوفهم (فيلو) وهو قريب من فلسفة وثنيى الهند التى هى أصل عقيدة النصارى (١) . وقد اتفق المفسرون على أن إسناد هـذا القول إليهم يراد به بعضهم لا كلهم . .

. . . « وأما الذين قالوا هذا القول من اليهود فهم بعض يهود المدينة ، كالذين قال الله فيهم : « وقالت اليهود : يد الله مغلولة ، غلت أيديهم » ! . . الآية . . والذين قال فيهم : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء » ردا على قوله تعالى : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا » . ويحتمل أن يكون قد سبقهم إليه غيرهم ولم ينقل إلينا . .

« روى ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو الشيخ ، وابن مردويه عن ابن عباس (رضى) قال : أتى رسول الله (ص) سلام بن مشكم ، ونعمان بن أوفى ، وأبو أنس وشاس بن قيس ، ومالك بن الصيف ، فقالوا : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا ، وأنت لا تزعم أن عزير ابن الله ؟ ! . . . الخ .

« ومن المعلوم أن بعض النصارى الذين قالوا : إن المسيح ابن الله كانوا من اليهود . وقد

---

(٢) ونحن نرى أنه لا مجال لهذا التردد ، فإن النص القرآنى يلهم أن قول اليهود : « عزير ابن الله » هو كقول النصارى : « المسيح ابن الله » كلاهما مقصود به ما يضاهئ قول الذين كفروا من قبل ! فهو من إسناد البنوة التى تخرج قائلها من دين الحق وتلحقه بالكافرين والمشركين .

Marfat.com

كان (فيلو) الفيلسوف اليهودى الإسكندرى المعاصر للمسيح يقول : إن لله ابنا هو كلمته التى خلق بها الأشياء . فعلى هذا لايبعد أن يكون بعض المتقدمين على عصر البعثة المحمدية قد قالوا: إن عزيرا ابن الله بهذا المعنى » . .

ومن هذا البيان يتضح ماوراء حكاية القرآن لقول اليهود هـذا ـ فى هذه المناسبة التى يتوخاها السياق ـ فهى تقرير حقيقة ماعليه فريق من أهل الكتاب من فساد الاعتقاد ، الذى لايتفق معه أن يكونوا مؤمنين بالله ، أو أن يكونوا يدينون دين الحق . وهـذه هى الصفة الأساسية التى قام عليها حكم القتال . وإن يكن القصد من القتال ليس هو إكراههم على الإسلام؛ وإنما هو كسر شوكتهم التى يقفون بها فى وجه الإسلام ؛ واستسلامهم لسلطانه ليتحرر الأفراد ـ فى ظل هذا الاستسلام ـ من التأثر بالضغوط التى تقيد إرادتهم فى اختيار دين الحق من غير إكراه من هنا أو من هناك .

أما قول النصارى « المسيح ابن الله » وأنه ثالث ثلاثة فهو ـ كما قلنا ـ شائع مشهور ، وعليه جميع مذاهبهم منذ أن حرف بولس رسالة المسيح القائمة على التوحيد كبقية الرسالات ؛ثم أتمت تحريفها المجامع المقدسة ، وقضت على أصل فكرة التوحيد قضاء نهائيا !

ومنكتفى مرة أخرى بنقل ملخص جيد فى عقائد النصارى عن تفسير المنار للأستاذ الشيخ محمد رشيد رضا ـ جاء فيه بعنوان : « ثالوث : Trinité - y » .

« كلمة تطلق عند النصارى على وجود ثلاثة أقانيم معاً فى اللاهوت تعرف بالأب والابن والروح القدس ، وهـذا التعليم هو من تعاليم الكنيسة الكاثوليكية والشرقية وعموم البروتستانت إلا ماندر ،والذين يتمسكون بهذا التعليم يذهبون إلى أنه مطابق لنصوص الكتاب المقدس ، وقد أضاف اللاهوتيون إليه شروحا وإيضاحات اتخذوها من تعاليم المجامع القديمة وكتابات آباء الكنيسة العظام . وهى تبحث عن طريقة ولادة الأقنوم الثانى وانبثاق الأقنوم الثالث ، ومابين الأقانيم الثلاثة من النسبة ، وصفاتهم المميزة وألقابهم . ومع أن لفظة ثالوث لاتوجد فى الكتاب المقدس ، ولايمكن أن يؤتى بآية من العهد القديم تصرح بتعليم الثالوث ، قد اقتبس المؤلفون المسيحيون القدماء آيات كثيرة تشير إلى وجود صورة جمعية فى اللاهوت ؛

Marfat.com

ولكن إذ كانت تلك الآيات قابلة لتفاسير مختلفة كانت لا يوثق بها كبرهان قاطع على تعليم الثالوث بل كرموز إلى الوحى الواضح الصريح الذى يعتقدون أنه مذكور فى العهد الجديد . وقد اقتبس منه مجموعان كبيران من الآيات كحجج لإثبات هذا التعليم (أحدهما) الآيات التى ذكر فيها الأب والابن والروح القدس معاً (والآخر) التى ذكر فيها كل منهم على حدة والتى تحتوى على نوع أخص صفاتهم ونسبة أحدهم إلى الآخر .

؛ والجدال عن الأقانيم فى اللاهوت ابتدأ فى العصر الرسولى . وقد نشأ على الأكثر عن تعاليم الفلاسفة الهيلانيين والغنوسطيين فإن ثيوفيلوس أسقف إنطاكية فى القرن الثانى استعمل كلمة « ترياس » باليونانية ، ثم كان « ترتليانوس » أول من استعمل كلمة « ترينيتاس » المرادفة لها ومعناها الثالوث ، وفى الأيام السابقة للمجمع النيقاوى حصل جدال مستمر فى هذا التعليم وعلى الخصوص فى الشرق؛ وحكمت الكنيسة على كثير من الآراء بأنها أراتيكية(١) ومن جملتها آراء الأبيونيين الذين كانوا يعتقدون أن المسيح إنسان محض « والسابليين » الذين كانوا يعتقدون أن الأب والابن والروح القدس إنما هى صور مختلفة أعلن بها الله نفسه للناس « والأريوسيين » الذين كانوا يعتقدون أن الابن ليس أزليا كالأب بل هو مخلوق منه قبل العالم ، ولذلك هو دون الأب وخاضع له ، « والمكدونيين » الذين أنكروا كون الروح القدس أقنوما .

« وأما تعليم الكنيسة فقد قرره المجتمع النيقاوى سنة ٣٢٥ للميلاد ، ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ وقد حكما بأن الابن والروح القدس مساويان للأب فى وحدة اللاهوت ، وأن الابن قد ولد منذ الأزل من الأب ، وأن الروح القدس منبثق من الأب ، ومجمع طليطلة المنعقد سنة ٥٨٩ حكم بأن الروح القدس منبثق من الابن أيضا ، وقد قبلت الكنيسة اللاتينية بأسرها هذه الزيادة وتمسكت بها ، وأما الكنيسة اليونانية فمع أنها كانت فى أول الأمر ساكتة لا تقاوم قد أقامت الحجة فيما بعد على تغيير القانون حاسبة ذلك بدعة .

---

(١) المراد بالأراتيكية المبتدعة ، من الأرتقة ، والأشهر الهرتقة ، وبعضهم يقول : هرطقة بقلب التاء طاء وأصله تفخيمها .

Marfat.com

« وعبارة (ومن الابن أيضا) لاتزال من جملة الموانع الكبرى للاتحاد بين الكنيسة اليونانية والكاثوليكية، وكتب اللوثيريين والكنائس المصلحة أثبتت تعليم الكنيسة الكاثوليكية للثالوث على ما كان عليه من دون تغيير ، ولكن قد ضاد ذلك منذ القرن الثالث عشر جمهور كبير من اللاهوتيين وعدة طوائف جديدة كالسوسينيانيين والجرمانيين والموحدين والعموميين وغيرهم حاسبين ذلك مضادا للكتاب المقدس والعقل ، وقد أطلق « سويد تبراغ » الثالوث على أقنوم المسيح معلما بثالوث . ولكن لاثالوث الأقانيم بل ثالوث الاقنوم . وكان يفهم بذلك أن ماهو إلهى فى طبيعة المسيح هو الأب ، وأن الإلهى الذى اتحد بناسوت المسيح هو الابن ،وأن الإلهى الذى انبثق منه هو الروح القدس ، وانتشار مذهب العقليين فى الكنائس اللوثيرية والمصلحة أضعف مدة من الزمان اعتقاد الثالوث بين عدد كبير من اللاهوتيين الجرمانيين .

« وقد ذهب (كنت) إلى أن الأب والابن والروح القدس إنما تدل على ثلاث صفات أساسية فى اللاهوت . وهى القدرة والحكمة والمحبة ، أو على ثلاثة فواعل عليا وهى الخلق والحفظ والضبط ، وقد حاول كل من هيجين وشلنغ أن يجعلا لتعليم الثالوث أساسا تخيليا وقد اقتدى بهما اللاهوتيون الجرمانيون المتأخرون ، وحاولوا المحاماة عن تعليم الثالوث بطرق مبنية على أسس تخيلية ولاهوتية ؛ وبعض اللاهوتيين الذين يعتمدون على الوحى لايتمسكون بتعليم استقامة الرأى الكنائسية بالتدقيق كما هى مقررة فى مجمعى نيقية والقسطنطينية المسكونيين ، وقد قام محامون كثيرون فى الأيام المتأخرة لعضد آراء السابليين على الخصوص » اهـ .

ومن هـذا العرض المجمل المفيد ، يتبين أن جميع الطوائف والمذاهب المسيحية الكنسية لاتدين دين الحق ، الذى يقوم على توحيد الله سبحانه ؛ وعلى أنه ليس كمثله شيء ؛ وأنه لاينبثق منه ـ سبحانه ـ أحد !

وكثيرا ماذكر « الأريوسيون » على أنهم « موحدون » وإطلاق اللفظ هكذا مضلل فالآريوسيون لايوحدون التوحيد المفهوم من دين الله الحق ، إنما هم يخلطون ! فبينما هم يقررون أن المسيح ليس أزليا كالله ـ وهذا حق ـ ـ يقررون فى الوقت نفسه أنه (الابن)! وأنه مخلوق من (الأب) قبل خلق العالم ! وهذا لايعتبر من « التوحيد » الحقيقى فى شيء !

Marfat.com

ولقد صدر حكم الله بالكفر الصريح على من يقولون : المسيح ابن الله . وعلى من يقولون: المسيح هو الله . وعلى من يقولون : إن الله ثالث ثلاثة . ولا تجتمع صفة الكفر وصفة الإيمان فى عقيدة ، ولا فى قلب . إنما هما أمران مختلفان !

والتعقيب القرآنى على قول اليهود : « عزير ابن الله » . وقول النصارى : « المسيح ابن الله » يثبت أنهم فى هذا يماثلون قول الذين كفروا من قبل ومعتقداتهم وتصوراتهم :

« ذلك قولهم بأفواههم ، يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » ..

فهو أولا يثبت أن هذا القول صادر منهم ، وليس مقولا عنهم . ومن ثم يذكر « أفواههم » لاستحضار الصورة الحسية الواقعية - على طريقة القرآن فى التصوير - إذ أنه مفهوم أن قولهم يكون بأفواههم . فهذه الزيادة ليست لغوا - تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا - وليست إطنابا زائدا، إنما هى طريقة التعبير القرآنية التصويرية ؛ فهى التى تستحضر « صورة » القول ، وتحيلها واقعية كأنها مسموعة مرئية! وذلك فضلا على ماتؤديه من معنى بيانى آخر - إلى جانب استحياء الصورة وإثباتها - وهو أن هذا القول لاحقيقة له فى عالم الواقع ؛ إنما هو مجرد قول بالأفواه ، ليس وراءه موضوع ولا حقيقة !

ثم نجىء إلى ناحية أخرى من الإعجاز القرآنى الدال على مصدره الربانى . ذلك قول الله سبحانه :

« يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » .

ولقد كان المفسرون يقولون عن هذه الآية : إن المقصود بها أن قولتهم ببنوة أحد لله ، تماثل قول المشركين العرب ببنوة الملائكة لله . . وهذا صحيح . ولكن دلالة هذا النص القرآنى أبعد مدى . ولم يتضح هذا المدى البعيد إلا حديثا بعد دراسة عقائد الوثنيين فى الهند ومصر القديمة والإغريق . مما اتضح معه أصل العقائد المحرفة عند أهل الكتاب - وبخاصة النصارى - وتسربها من هذه الوثنيات إلى تعاليم « بولس الرسول » أولا ؛ ثم إلى تعاليم المجامع المقدسة أخيرا . .

إن الثالوث المصرى المؤلف من أوزوريس وإيزيس وحوريس هو قاعدة الوثنية الفرعونية . وأوزوريس يمثل (الأب) وحوريس يمثل (الابن) فى هذا الثالوث .

Marfat.com

وفى علم اللاهوت الإسكندرى الذى كان يدرس قبل المسيح بسنوات كثيرة « الكلمة هى الإله الثانى » ويدعى أيضا « ابن الله البكر » .

والهنود كانوا يقولون بثلاثة أقانيم أو ثلاث حالات يتجلى فيها الإله : « برهما » فى حالة الخلق والتكوين . و « فشنو » فى حالة الحفظ والقوامة . و « سيفا » فى حالة الإهلاك والإبادة . . وفى هذه العقيدة ، أن « فشنو » هو (الابن) المنبثق والمتحول عن اللاهوتية فى (برهما) !

وكان الأشوريون يؤمنون بالكلمة ، ويسمونها (مردوخ) ويعتقدون أن مردوخ هذا هو ابن الله البكر !

وكان الإغريق يقولون بالإله المثلث الأقانيم . وإذا شرع كهنتهم فى تقديم الذبائح يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات ، ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع ، ويرشون المجتمعين حول المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات . . إشارة إلى التثليث . . وهذه الشعائر هى التى أخذتها الكنيسة عما وراءها من العقائد الوثنية وضمتها للنصرانية تضاهىء بها قول الذين كفروا من قبل !

ومراجعة عقائد الوثنيين القدامى - التى لم تكن معروفة وقت نزول القرآن - مع هذا النص القرآنى : « يضاهئون قول الذين كفروا من قبل » - كما أنها تثبت أن أهل الكتاب لايدينون دين الحق ، ولا يؤمنون بالله الإيمان الصحيح - تبين كذلك جانبا من جوانب الإعجاز فى القرآن الكريم ، بالدلالة على مصدره ، وأنه من لدن عليم خبير . .

وبعد هذا التقرير والبيان تختم الآية المبينة لحقيقة ما عليه أهل الكتاب من الكفر والشرك ، بقوله تعالى :

« قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟ »

و . . نعم . . قاتلهم الله ! كيف يصرفون عن الحق الواضح البسيط ، إلى هذه الوثنية المعقدة الغامضة التى لا تستقيم لدى عقل أو ضمير ؟ !

* * *

ثم ينتقل السياق القرآنى إلى صفحة أخرى من صحائف الانحراف الذى عليه أهل الكتاب؛

Marfat.com

تتمثل فى هـذه المرة لافى القول والاعتقاد وحدها ؛ ولـكن كذلك فى الواقع القائم على الاعتقاد الفاسد :

« اتخـذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم . وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا ، لا إله إلا هو ، سبحانه عما يشركون » . .

وفى هذه الآية استمرار فى وجهة السياق فى هذا المقطع من السورة . من إزالة الشبهة فى أن هؤلاء أهل كتاب . . فهم إذن على دين الله . . فهى تقرر أنهم لم يعودوا على دين الله ، بشهادة واقعهم ـ بعد شهادة اعتقادهم ـ وأنهم أمروا بأن يعبدوا الله وحده ، فاتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ـ كما اتخذوا المسيح ابن مريم ربا ـ وأن هذا منهم شرك بالله . . تعالى الله عن شركهم . . فهم إذن ليسوا مؤمنين بالله اعتقادا وتصورا ؛ كما أنهم لايدينون دين الحق واقعاً وعملا .

وقبل أن نقول : كيف اتخـذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا ، نحب أن نعرض الروايات الصحيحة التى تضمنت تفسير رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للآية . وهو فصل الخطاب .

الأحبار : جمع حَبر أو حِبر بفتح الحاء أو بكسرها ، وهو العالم من أهل الـكتاب وكثر إطلاقه على علماء اليهود .. والرهبان : جمع راهب ، وهو عند النصارى المتبتل المنقطع للعبادة ؛ وهو عادة لايتزوج ، ولا يزاول الـكسب ، ولا يتـكلف للمعاش .

وفى « الدر المنثور » . . روى الترمذى (وحسنه) وابن المـنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى سننه وغـيرهم عن عدى ابن حاتم ـ رضى الله عنه ـ قال : أتيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقرأ فى سورة براءة : « اتخـذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » فقال : « أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ، ولـكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئا استحلوه . وإذا حرموا عليهم شيئا حرموه » .

وفى تفسير ابن كثير : وروى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير ـ من طرق ـ عن عدى ابن حاتم ـ رضى الله عنه ـ أنه لما بلغته دعوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فر إلى الشام ، وكان قد تنصر فى الجاهلية . فأسرت أخته وجماعة من قومه . ثم منّ رسول الله ـ صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم - على أخته وأعطاها ، فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام ، وفي القدوم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقدم عدى المدينة - وكان رئيسا في قومه طيء وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم - فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفي عنق عدى صليب من فضة ، وهو يقرأ هذه الآية : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » قال : فقلت : إنهم لم يعبدوهم . فقال : بلى ! إنهم حرموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام ، فاتبعوهم : فذلك عبادتهم إياهم . . . » .

وقال السدى : استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم . ولهذا قال تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا » أى الذى إذا حرم الشىء فهو الحرام ، وما حلله فهو الحلال ، وما شرعه اتبع ، وما حكم به نفذ .

وقال الألوسى فى التفسير :

« الأكثرون من المفسرين قالوا : ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا أنهم آلهة العالم . بل المراد أنهم أطاعوهم فى أوامرهم ونواهيهم » . .

ومن النص القرآنى الواضح الدلالة ؛ ومن تفسير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو فصل الخطاب ، ثم من مفهومات المفسرين الأوائل والمتأخرين ، تخلص لنا حقائق فى العقيدة والدين ذات أهمية بالغة نشير إليها هنا بغاية الاختصار .

- أن العبادة هى الاتباع فى الشرائع بنص القرآن وتفسير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاليهود والنصارى لم يتخذوا الأحبار والرهبان أربابا بمعنى الاعتقاد بألوهيتهم أو تقديم الشعائر التعبدية إليهم . . ومع هذا فقد حكم الله - سبحانه - عليهم بالشرك فى هذه الآية -وبالكفر فى آية تالية فى السياق - لمجرد أنهم تلقوا منهم الشرائع فأطاعوها واتبعوها .. فهذا وحده - دون الاعتقاد والشعائر - يكفى لاعتبار من يفعله مشركا بالله ، الشرك الذى يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله فى عداد الكافرين .

- أن النص القرآنى يسوى فى الوصف بالشرك واتخاذ الأرباب من دون الله ، بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوه واتبعوه ، وبين النصارى الذين قالوا بألوهية

Marfat.com

المسيح اعتقادا وقدموا إليه الشعائر فى العبادة . فهذه كتلك سواء فى اعتبار فاعلها مشركا بالله، الشرك الذى يخرجه من عداد المؤمنين ويدخله فى عداد الكافرين ..

◆ أن الشرك بالله يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عباده ؛ ولو لم يصحبه شرك فى الاعتقاد بألوهيته ؛ ولا تقديم الشعائر التعبدية له .. كما هو واضح من الفقرة السابقة .. ولكنا إنما نزيدها هنا بيانا !

وهذه الحقائق - وإن كان المقصود الأول بها فى السياق هو مواجهة الملابسات التى كانت قائمة فى المجتمع المسلم يومئذاك من التردد والتهيب للمعركة مع الروم ، وجلاء شبهة أنهم مؤمنون بالله لأنهم أهل كتاب - هى كذلك حقائق مطلقة تفيدنا فى تقرير « حقيقة الدين » عامة ..

إن دين الحق الذى لايقبل الله من الناس كلهم دينا غيره هو « الإسلام » .. والإسلام لايقوم إلا باتباع الله وحده فى الشريعة - بعد الاعتقاد بألوهيته وحده وتقديم الشعائر التعبدية له وحده - فإذا اتبع الناس شريعة غير شريعة الله صح فيهم ماصح فى اليهود والنصارى من أنهم مشركون لايؤمنون بالله - مهما كانت دعواهم فى الإيمان - لأن هذا الوصف يلحقهم بمجرد اتباعهم لتشريع العباد لهم من دون الله ، بغير إنكار منهم يثبت منه أنهم لايتبعون إلا عن إكراه واقع بهم ، لاطاقة لهم بدفعه ، وأنهم لايقرون هذا الافتئات على الله ..

إن مصطلح « الدين » قد انحسر فى نفوس الناس اليوم ، حتى باتوا يحسبونه عقيدة فى الضمير ، وشعائر تعبدية تقام اوهذا ماكان عليه اليهود الذين يقرر هذا النص المحكم - ويقرر تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم - أنهم لم يكونوا يؤمنون بالله ، وأنهم أشركوا به ، وأنهم خالفوا عن أمره بألا يعبدوا إلا إلها واحدا ، وأنهم اتخذوا أحبارهم أربابا من دون الله .

إن المعنى الأول للدين هو الدينونة - أى الخضوع والاستسلام والاتباع - وهذا يتجلى فى اتباع الشرائع كما يتجلى فى تقديم الشعائر . والأمر جد لايقبل هذا التميع فى اعتبار من يتبعون شرائع غير الله - دون إنكار منهم يثبتون به عدم الرضا عن الافتئات على سلطان الله - مؤمنين بالله ،

Marfat.com

مسلمين ، لمجرد أنهم يعتقدون بألوهية الله سبحانه ويقدمون له وحده الشعائر .. وهذا التميع هو أخطر مايعانيه هذا الدين فى هذه الحقبة من التاريخ ؛ وهو أفتك الأسلحة التى يحاربه بها أعداؤه ؛ الذين يحرصون على تثبيت لافتة « الإسلام » على أوضاع ، وعلى أشخاص ، يقرر الله سبحانه فى أمثالهم أنهم مشركون لا يدينون دين الحق ، وأنهم يتخذون أربابا من دون الله .. وإذا كان أعداء هـذا الدين يحرصون على تثبيت لافتة الإسلام على تلك الأوضاع وهؤلاء الأشخاص ؛ فواجب حماة هـذا الدين أن ينزعوا هذه اللافتات الخادعة ؛ وأن يكشفوا ماتحتها من شرك وكفر واتخاذ أرباب من دون الله .. « وماأمروا إلاليعبدوا إلها واحدا ، سبحانه عما يشركون » ..

* * *

ثم يمضى السياق خطوة أخرى فى تحريض المؤمنين على القتال :

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الـكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » ..

إن أهل الـكتاب هؤلاء لايقفون عند حـد الانحراف عن دين الحق ، وعبادة أرباب من دون الله . وعـدم الإيمان بالله واليوم الآخر ـ وفق المفهوم الصحيح للإيمـان بالله واليوم الآخر ـ إنمـا هم كذلك يعلنون الحرب على دين الحق ؛ ويريدون إطفاء نور الله فى الأرض المتمثل فى هذا الدين ، وفى الدعوة التى تنطلق به فى الأرض ، وفى المنهج الذى يصوغ على وفقه حياة البشر ..

« يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم » ..

فهم محاربون لنور الله . سواء بما يطلقونه من أكاذيب ودسائس وفتن ؛ أو بما يحرضون به أتباعهم وأشياعهم على حرب هذا الدين وأهله ، والوقوف سدا فى وجهه ـ كما كان هو الواقع الذى تواجهه هذه النصوص وكما هو الواقع على مدار التاريخ .

وهـذا التقرير ـ وإن كان يراد به استجاشة قلوب المسلمين إذ ذاك ـ هو كذلك يصور طبيعة الموقف الدائم لأهـل الـكتاب من نور الله المتمثل فى دينه الحق الذى يهدى الناس بنور الله .

Marfat.com

« ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » ..

وهو الوعد الحق من الله ، الدال على سنته التى لاتتبدل ، فى إتمام نوره بإظهار دينه ولو كره الكافرون ..

وهو وعد تطمئن له قلوب الذين آمنوا ؛ فيدفعهم هذا إلى المضى فى الطريق على المشقة واللأواء فى الطريق ؛ وعلى الكيد والحرب من الكافرين (والمراد بهم هنا هم أهل الكتاب السابق ذكرهم) . . كما أنه يتضمن فى ثناياه الوعيد لهؤلاء الكافرين وأمثالهم على مدار الزمان !

ويزيد السياق هذا الوعيد وذلك الوعد توكيدا :

هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » ..

وفى هذا النص يتبين أن المراد بدين الحق الذى سبق فى قوله تعالى : « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . . هو هذا الدين الذى أرسل الله به رسوله الأخير . وأن الذين لايدينون بهذا الدين هم الذين يشملهم الأمر بالقتال ..

وهذا صحيح على أى وجه أولنا الآية . فالمقصود إجمالا بدين الحق هو الدينونة لله وحده فى الاعتقاد والشعائر والشرائع ـ وهذه هى قاعدة دين الله كله ، وهو الدين الممثل أخيرا فيما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ـ فأيما شخص أو قوم لم يدينوا لله وحده فى الاعتقاد والشعائر والشرائع مجتمعة ؛ انطبق عليهم أنهم لايدينون دين الحق ، ودخلوا فى مدلول آية القتال .. مع مراعاة طبيعة المنهج الحركى للإسلام ، ومراحله المتعددة ، ووسائله المتجددة كما قلنا مرارا .

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » . .

وهذا توكيد لوعد الله الأول : « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » . . ولكن فى صورة أكثر تحديدا . فنور الله الذى قرر سبحانه أن يتمه ، هو دين الحق الذى أرسل به رسوله ليظهره على الدين كله .

Marfat.com

ودين الحق ـ كما أسلفنا ـ هو الدينونة لله وحده فى الاعتقاد والعبادة والتشريع مجتمعة . وهو متمثل فى كل دين سماوى جاء به رسول من قبل . . ولا يدخل فيه طبعا تلك الديانات المحرفة المشوهة المشوبة بالوثنيات فى الاعتقاد التى عليها اليهود والنصارى اليوم . كما لا تدخل فيه الأنظمة والأوضاع التى ترفع لافتة الدين ، وهى تقيم فى الأرض أربابا يعبدها الناس من دون الله ، فى صورة الاتباع للشرائع التى لم ينزلها الله .

والله سبحانه يقول : إنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .. ويجب أن نفهم « الدين » بمدلوله الواسع الذى بيناه ، لندرك أبعاد هذا الوعد الإلهى ومداه . .

إن « الدين » هو « الدينونة » . . فيدخل فيه كل منهج وكل مذهب وكل نظام يدين الناس له بالطاعة والاتباع والولاء ..

والله سبحانه يعلن قضاءه بظهور دين الحق الذى أرسل به رسوله على « الدين » كله بهذا المدلول الشامل العام !

إن الدينونة ستكون لله وحده . والظهور سيكون للمنهج الذى تتمثل فيه الدينونة لله وحده .

ولقد تحقق هذا مرة على يد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وخلفائه ومن جاء بعدهم فترة طويلة من الزمان . وكان دين الحق أظهر وأغلب ؛ وكانت الأديان التى لا تخلص فيها الدينونة لله تخاف وترجف ! ثم تخلى أصحاب دين الحق عنه ؛ خطوة فخطوة بفعل عوامل داخلة فى تركيب المجتمعات الإسلامية من ناحية وبفعل الحرب الطويلة المدى ، المنوعة الأساليب ، التى أعلنها عليه أعداؤه من الوثنيين وأهل الكتاب سواء ..

ولكن هذه ليست نهاية المطاف .. إن وعد الله قائم ، ينتظر العصبة المسلمة ، التى تحمل الراية وتمضى ، مبتدئة من نقطة البدء ، التى بدأت منها خطوات رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يحمل دين الحق ويتحرك بنور الله ..

* * *

Marfat.com

ثم يخطو السياق الخطوة الأخيرة فى هـذا المقطع من السورة ، مصورا كيف أن أهـل الكتاب لا يحرمون ماحرم الله ورسوله ، بعد ما أشار إلى هذه الحقيقة فى قوله : « اتخـذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » التى فسرها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأنهم « أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال ، فاتبعوهم » . . فبين أنهم إذن لا يحرمون ماحرم الله ورسوله ، إنما يحرمون ماحرمه عليهم الأحبار والرهبان !

يخطو السياق الخطوة الأخيرة فى بيان هذه الحقيقة مخاطبا بها الذين آمنوا كاشفا لهم فى هذا الخطاب عن حقيقة أهل الكتاب :

« ياأيها الذين آمنوا ، إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله . والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . هـذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » . .

وفى الآية الأولى استطراد فى بيان دور الأحبار والرهبان الذين اتخـذهم أهل الكتاب أربابا من دون الله ، فاتبعوهم فيما يشرعون لهم من المعاملات ومن العبادات سواء . فهؤلاء الأحبار والرهبان يجعلون من أنفسهم ويجعلهم قومهم أربابا تتبع وتطاع ؛ وهم فيما يشرعون يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله .

وأكل أموال الناس كان يتمثل فى صور شتى وما يزال :

منها ما يأخذونه على فتاوى تحليل الحرام وتحريم الحلال لصالح من يملكون المال أو السلطان . ومنها ما يأخذه القسيس أو الكاهن مقابل الاعتراف له بالخطايا وغفرانه ـ بالسلطان المخول للكنيسة فى زعمهم ـ لتلك الخطايا ! ومنها الربا ـ وهو أوسع أبوابها وأبشعها ـ وغيرها كثير .

كذلك ما يجمعونه من أموال الناس لمحاربة دين الحق ؛ وقد كان الرهبان والأساقفة والكرادلة والبابوات يجمعون مئات الملايين فى الحروب الصليبية ، وما يزالون يجمعونها للتبشير والاستشراق للصد عن سبيل الله .

Marfat.com

ولابد أن نلحظ الدقة القرآنية والعدل الإلهى فى قول الله تعالى فى ذلك .

« إن كثيرا من الأحبار والرهبان .. » .

للاحتراز من الحكم على القليل منها الذى لايزاول هذه الخطيئة . ولابد من أفراد فى أية جماعة من الناس فيهم بقية خير .. ولايظلم ربك أحدا ..

والكثير من الأحبار والرهبان يكنزون هذه الأموال التى يأكلونها بالباطل . وقد شهد تاريخ هؤلاء الناس أموالا ضخمة تنتهى إلى أيدى رجال الدين وتؤول إلى الكنائس والأديرة. وقد جاء عليهم زمان كانوا أكثر ثراء من الملوك المتسلطين والأباطرة الطغاة !

والسياق القرآنى يصور عذابهم فى الآخرة بما كنزوا، وعذاب كل من يكنز الذهب والفضة ولاينفقها فى سبيل الله ، فى مشهد من المشاهد التصويرية الرائعة المروعة :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم ، فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » ..

إن رسم المشهد هكذا فى تفصيل ؛ وعرض مشهد العملية منذ خطواتها الأولى إلى خطواتها الأخيرة ، ليطيل المشهد فى الخيال والحس .. وهى إطالة مقصودة :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ..

ويسكت السياق : وتنتهى الآية على هذا الإجمال والإبهام فى العذاب ..

ثم يأخذ فى التفصيل بعد الإجمال :

« يوم يحمى عليها فى نار جهنم » .

وينتظر السامع عملية الإحماء !

ثم ها هى ذى حميت واحمرت . وهاهى ذى معدة مهيأة . فليبدأ العذاب الأليم ... هاهى ذى الجباه تكوى ... لقد انتهت عملية الكى فى الجباه ، فليداروا على الجنوب ... هاهى ذى الجنوب تكوى ... لقد انتهت هذه فليداروا على الظهور ... هاهى ذى الظهور تكوى...لقد انتهى هذا اللون من العذاب ؛ فليتبعه الترذيل والتأنيب :

Marfat.com

« هذا ما كنزتم لأنفسكم » . .

هذا هو بذاته الذى كنزتموه للذة ، فانقلب أداة لهذا اللون الأليم من العذاب !

« فذوقوا ما كنتم تكنزون » !

ذوقوه بذاته ، فهو هو الذى تذوقون منه مسه للجنوب والظهور والجباه !

ألا إنه لمشهد مفزع مروع ، يعرض فى تفصيل وتطويل وأناة !

وهو يعرض أولا لتصوير مصائر الكثير من الأحبار والرهبان . . ثم لتصوير مصائر الكانزين للذهب والفضة لا ينفقونها فى سبيل الله . . والسياق يمهد لغزوة العسرة كذلك حينذاك !

وبعد . فلا بد أن نقف هنا وقفة قصيرة للتعقيب . نبرز فيها دلالة هذا البيان الربانى لحقيقة ماعليه أهل الكتاب من عقيدة ومن دين ومن خلق ومن سلوك ـ وذلك بالإضافة إلى الإشارات التى أوردناها خلال الفقرات السابقة .

إن تعرية أهل الكتاب من شبهة أنهم على شىء من دين الله ، ألزم وأشد ضرورة من بيان حال المشركين الصريحين فى شركهم ،الشاهدين على أنفسهم بالكفر بظاهر عقائدهم وشعائرهم .. ذلك أن نفوس المسلمين لاتنطلق الانطلاق الكامل لمواجهة الجاهلية إلا حين يتجلى لها تماما وجه الجاهلية ! ووجه الجاهلية مكشوف صريح فيما يختص بالمشركين ؛ وليس الحال كذلك فيما يختص بأهل الكتاب (ومن يزعمون أنهم على شىء من دين الله من أمثالهم ، كالشأن فى الغالبية العظمى ممن يدعون أنفسهم اليوم « مسلمين » !)

ولقد احتاج الانطلاق الكامل لمواجهة المشركين كثيراً من البيان فى هذه السورة ، نظرا للملابسات التى شرحناها فى التقديم لهذه السورة وفى التقديم للمقطع الأول منها كذلك . حيث قال الله ـ سبحانه ـ للمؤمنين :

● « كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله . إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام ، فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ، إن الله يحب المتقين . كيف وإن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلاً ولا ذمة ؛ يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون . اشتروا

Marfat.com

بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله ، إنهم ساء ما كانوا يعملون . لايرقبون فى مؤمن إلاً ولا ذمة وأولئك هم المعتدون » .

◆ « ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ، وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدأوكم أول مرة ؟ أتخشونهم ؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين ، ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء ، والله عليم حكيم » . .

◆ « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ، أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون » .

◆ « ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون » .

. . . الخ . . . الخ . . .

وإذا كان الانطلاق لمجاهدة المشركين قد اقتضى كل هذه الحملة ـ وأمرهم ظاهر ـ نظرا لتلك الملابسات التى كانت قائمة فى التكوين العضوى للمجتمع المسلم فى تلك الفترة . . فقد كان الانطلاق لمجاهدة أهل الكتاب فى حاجة إلى حملة أشد وأعمق . تستهدف ـ أول ماتستهدف ـ تعرية أهل الكتاب هؤلاء من تلك « اللافتة » الشكلية التى لم تعد وراءها حقيقة ؛ وتظهرهم على حقيقتهم الواقعية . . مشركين كالمشركين . . كفارا كالكفار . . محاربين لله ولدينه الحق كأمثالهم من المشركين الكافرين . . ضلالا يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . . فى مثل هذه النصوص القاطعة الصريحة :

◆ « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وقالت اليهود : عزير ابن الله ، وقالت النصارى : المسيح ابن الله . ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل . قاتلهم الله ! أنى يؤفكون ؟ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ؛ وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو ، سبحانه عما

Marfat.com

يشركون . يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره . ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون . . ياأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . . . الخ » . .

وذلك بالإضافة إلى التقريرات القرآنية الحاسمة ـ فى السور المكية والمدنية على السواء ـ عن حقيقة ما انتهى إليه أمر أهل الكتاب من الشرك والكفر والخروج من دين الله الذى جاءهم به أنبياؤهم من قبل ؛ فضلا على وقفتهم من رسالة الله الأخيرة ، التى على أساس موقفهم منها يتحدد وصفهم بالكفر أو بالإيمان .

فلقد سبق أن ووجه أهل الكتاب بأنهم ليسوا على شىء من دين الله أصلا فى قوله تعالى :

« قل : ياأهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والإنجيل . . وما أنزل إليكم من ربكم . وليزيدن كثيرا منهم ماأنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا فلا تأس على القوم الكافرين » . . (المائدة : ٦٨) .

كذلك سبق وصفهم بالكفر ، وضمهم إلى المشركين فى هذه الصفة . . يهودا ونصارى . . أو مجتمعين فى صفة « أهل الكتاب » فى مثل قوله تعالى :

- « وقالت اليهود : يد الله مغلولة ! غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا . بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء . وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا . . . » . . . (المائدة : ٦٤) .
- « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم . . . » . . . (المائدة : ٧٢)
- « لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة . . . » . . . (المائدة : ٧٣)
- « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة » . . . « البينة : ١ » .

وغيرها كثير ، أثبتنا بعضه فيما تقدم ، والقرآن الكريم ـ مكيه ومدنيه ـ حافل بمثل هذه التقريرات .

Marfat.com

وإذا كانت الأحكام القرآنية قد جعلت لأهل الكتاب بعض الامتيازات فى التعامل عن المشركين . وذلك كإحلال طعامهم للمسلمين ، وإجازة التزوج بالمحصنات (أى العفيفات) من نسائهم . . فإن ذلك لم يكن مبنيا على أساس أنهم على شىء من دين الله الحق ؛ ولكن كان مراعى فيه - والله أعلم - أن لهم أصلا من دين وكتاب - وإن كانوا لا يقيمونه - فمن الممكن محاكمتهم إلى هذا الأصل الذى يدعون أنهم عليه ! فهم فى هذا يفترقون عن المشركين الوثنيين الذين لا كتاب لهم ؛ لأنه ليس لهم من أصل يردون إليه ويمكن محاكمتهم له . . أما تقريرات القرآن عن حقيقة ماعليه أهل الكتاب من عقيدة ودين ، فهى صريحة وحاسمة فى أنهم ليسوا على شىء من دين الله ؛ بعد ماتركوا كتبهم ودينهم إلى ذلك الذى صنعه لهم أحبارهم ورهبانهم ومجامعهم وكنائسهم ! وفى قول الله - سبحانه - فصل الخطاب فى هذا الموضوع !

والمهم الآن أن نبرز دلالة هذا البيان الربانى لحقيقة ما عليه أهل الكتاب من العقيدة والدين . .

إن هذه « اللافتة » المضللة التى ليس وراءها شىء من الحقيقة ، تحول دون الانطلاق الإسلامى الكامل لمواجهة « الجاهلية » . فتحتم - إذن - إزالة هذه اللافتة ؛ وتعريتهم من ظلها الخادع ؛ وكشفهم على حقيقتهم الواقعة . . ولا نغفل الملابسات التى كانت قائمة فى المجتمع المسلم يومذاك - والتى أشرنا إليها من قبل - سواء منها مايختص بالتكوين العضوى لهذا المجتمع يومها ، وما يختص بظروف الغزوة ذاتها فى الحر والعسرة ! وما يختص كذلك بالتهيب من لقاء الروم بسبب ما كان لهم فى نفوس العرب - قبل الإسلام - من هيبة وسمعة ومخافة ! .. ولكن الأعمق من هذا كله هو مايحيك فى النفس المسلمة ، عند الأمر بقتال أهل الكتاب على هذا النحو الشامل .. وهم أهل كتاب !!!

وأعداء هذا الدين ، الراصدون لحركات البعث الإسلامى الجديدة فى هذا الجيل يرصدونها عن خبرة واسعة بطبيعة النفس البشرية ، وبتاريخ الحركة الإسلامية ، على السواء . . وهم

Marfat.com

من أجل ذلك حريصون ـ كل الحرص ـ على رفع « لافتة إسلامية » على الأوضاع والحركات والاتجاهات والقيم والتقاليد والأفكار التى يعدونها ويقيمونها ويطلقونها لسحق حركات البعث الإسلامى الجديدة فى أرجاء الأرض جميعا . ذلك لتكون هذه اللافتة الخادعة مانعة من الانطلاق الحقيقى لمواجهة « الجاهلية » الحقيقية القابعة وراء تلك اللافتة الكاذبة !

لقد أخطأوا ـ مضطرين ـ مرة أو مرات فى إعلان حقيقة بعض الأوضاع والحركات ؛ وفى الكشف عن الوجه الكالح للجاهلية المنقضة على الإسلام فيها . . وأقرب مثال لذلك حركة « أتاتورك » اللاإسلامية الكافرة فى تركيا . . وكان وجه الاضطرار فيها هو حاجتهم الملحة إلى إلغاء آخر مظهر للتجمع الإسلامى تحت راية العقيدة . ذلك المظهر الذى كان يتمثل فى قيام « الخلافة » . . وهو ـ وإن كان مجرد مظهر ـ كان آخر عروة تنقض قبل نقض عروة الصلاة ! كما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ينقض هذا الدين عروة عروة ، فأولها الحكم ، وآخرها الصلاة » . .

ولكن أولئك الأعداء الواعين ـ من أهل الكتاب والملحدين الذين لا يجتمعون إلا حين تكون المعركة مع هذا الدين ! ـ لم يكادوا يتجاوزون منطقة الاضطرار فى الكشف عن الوجهة اللا إسلامية الكافرة فى حركة « أتاتورك » حتى عادوا يحرصون بشدة على ستر الأوضاع التالية المماثلة لحركة « أتاتورك » فى وجهتها الدينية ، بستار الإسلام ؛ ويحرصون على رفع تلك اللافتة الخادعة على تلك الأوضاع ـ وهى أشد خطرا على الإسلام من حركة أتاتورك السافرة ـ ويفتنون افتنانا فى ستر حقيقة هذه الأوضاع التى يقيمونها ويكفلونها اقتصاديا وسياسيا وفكريا ؛ ويهيئون لها أسباب الحماية بأقلام مخابراتهم وبأدوات إعلامهم العالمية ؛ وبكل مايملكونه من قوة وحيلة وخبرة ؛ ويتعاون أهل الكتاب والملحدون على تقديم المعونات المتنوعة لها ؛ لتؤدى لهم هذه المهمة التى لم تنته منها الحروب الصليبية قديما ولا حديثا ؛ يوم كانت هذه الحروب الصليبية معركة سافرة بين الإسلام وأعدائه المكشوفين الظاهرين !

والسذج ممن يدعون أنفسهم « مسلمين » يخدعون فى هذه اللافتة . . ومن هؤلاء السذج كثير من الدعاة إلى الإسلام فى الأرض ! فيتحرجون من إنزالها عن « الجاهلية » القائمة

Marfat.com

تحتها ، ويتحرجون من وصف هذه الأوضاع بصفتها الحقيقية التي تحجبها هـذه اللافتة الخادعة . . صفة الشرك والـكفر الصريحة . . ويتحرجون من وصف الناس الراضين بهـذه الأوضاع بصفتهم الحقيقية كذلك ! وكل هذا يحول دون الانطلاق الحقيقي الـكامل لمواجهة هذه الجاهلية مواجهة صريحة ؛ لا تحرج فيها ولا تأثم من وصفها بصفتها الحقيقية الواقعة !

بذلك تقوم تلك اللافتة بعملية تخدير خطرة لحركات البعث الإسلامي ؛ كما تقوم حاجزا دون الوعي الحقيقي ، ودون الانطلاق الحقيقي لمواجهة جاهلية القرن العشرين التي تتصدى لسحق الجذور الباقية لهذا الدين[1] .

هؤلاء السذج ـ من الدعاة إلى الإسلام ـ أخطر في نظري على حركات البعث الإسلامي من أعداء هذا الدين الواعين ، الذين يرفعون لافتـة الإسلام على الأوضـاع والحركات والاتجاهات والأفـكار والقيم والتقاليد التي يقيمونها ويكفلونها لتسحق لهم هذا الدين !

إن هذا الدين يغلب دائما عندما يصل الوعي بحقيقته وحقيقة الجاهلية إلى درجة معينة في نفوس العصبة المؤمنة ـ في أي زمان وفي أي مكان ـ والخطر الحقيقي على هذا الدين ليس كامنا في أن يكون له أعـداء أقوياء واعون مدربون ؛ بقدر ما يكمن في أن يكون له أصدقاء سذج مخدوعون ، يتحرجون في غير تحرج ؛ ويقبلون أن يتترس أعداؤهم بلافتة خادعة من الإسلام؛ بينما هم يرمون الإسلام من وراء هـذه اللافتة الخادعة !

إن الواجب الأول للدعاة إلى هـذا الدين في الأرض ، أن ينزلوا تلك اللافتات الخادعة المرفوعة على الأوضاع الجاهلية ، والتي تحمي هـذه الأوضاع المقامة لسحق جذور هذا الدين في الأرض جميعا ! وإن نقطة البدء في أية حركة إسلامية هي تعرية الجاهلية من ردائها الزائف ؛ وإظهارها على حقيقتها . . شركا وكفرا . . ووصف الناس بالوصف الذي يمثل واقعهم ؛ كما تواجههم الحركة الإسلامية بالطلاقة الكاملة . بل كما ينتبه هؤلاء النـاس أنفسهم إلى حقيقة ما انتهى إليه حالهم ـ وهي الحقيقة التي انتهى إليها حال أهل الكتاب كما يقررها الحكيم الخبير ـ

(١) راجع كتاب : « جاهلية القرن العشرين » لمحمد قطب .

Marfat.com

عسى أن يوقظهم هذا التنبيه إلى تغيير ما بأنفسهم ، ليغير الله ما بهم من الشقوة والنكد والعذاب الأليم الذى هم فيه مبلسون !

وكل تحرج فى غير موضعه ؛ وكل انخداع بالأشكال والظواهر واللافتات ؛ هو تعويق لنقطة الانطلاق الأولى لأية حركة إسلامية فى الأرض جميعا ؛ وهو تمكين لأعداء هذا الدين من مكرهم الذى أرادوه بالحرص على إقامة تلك اللافتات بعد ما انكشفت حركة « أتاتورك » فى التاريخ الحديث ؛ وباتت عاجزة عن المضى خطوة واحدة بعد إلغاء آخر مظهر من مظاهر التجمع الإسلامى على أساس العقيدة . نظرا لانكشاف وجهتها هذا الانكشاف الصريح . . مما دعا كاتبا صليبيا شديد المكر عميق الخبث مثل « ولفرد كانتول سميث » فى كتابه : « الإسلام فى التاريخ الحديث » إلى محاولة تغطية حركة أتاتورك مرة أخرى ، ونفى الإلحاد عنها ، واعتبارها أعظم وأصح حركة بعث « إسلامى » (كذا) فى التاريخ الحديث !!!

« إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ، مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ، وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ، وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ، يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ، فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ . زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ » .

هذا المقطع فى السياق استطراد فى إزالة المعوقات التى كانت قائمة فى طريق النفرة إلى جهاد الروم وحلفائهم من نصارى العرب فى شمال الجزيرة . . ذلك أن الاستنفار لهذه الغزوة – تبوك – كان فى رجب من الأشهر الحرم . ولكن كانت هناك ملابسة واقعة . وهى أن رجب فى هذا العام لم يكن فى موعده الحقيق ! وذلك بسبب « النسىء » الذى ورد ذكره فى الآية الثانية –

Marfat.com

كما سنبين ـ فقد ورد أن ذا الحجة في هذا العام لم يكن في موعده كذلك ، إنما كان في ذي القعدة ! فكأن رجب كان في جمادى الآخرة .. وسر هـذا الاضطراب كله هو اضطراب الجاهلية في تقاليدها ؛ وعدم التزامها بالحرمات إلا شكلا ؛ والتأويلات والفتاوى التي تصدر عن البشر ، مادام أن أمر التحليل والتحريم يوكل في الجاهلية إلى البشر !

وبيان هذه القضية : أن الله حرم الأشهر الحرم الأربعة وهي الثلاثة المتوالية : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، والشهر الرابع المفرد : رجب .. والواضح أن هذا التحريم كان مع فرض الحج في أشهره المعلومات منذ إبراهيم وإسماعيل .. وعلى كثرة ما حرف العرب في دين إبراهيم ، وعلى شدة ما انحرفوا عنه في جاهليتهم قبل الإسلام ؛ فإنهم بقوا يعظمون الأشهر الحرم هذه ؛ لارتباطها بموسم الحج ؛ الذي كانت تقوم عليه حياة الحجازيين ، وبخاصة سكان مكة . كما يكون هناك السلام الشامل في الجزيرة الذي يسمح بالموسم ، والانتقال إليه ، والتجارة فيه !

ثم كانت ـ بعد ذلك ـ تعرض حاجات لبعض القبائل العربية تتعارض مع تحريم هذه الأشهر . . وهنا تلعب الأهواء ؛ ويقوم من يفتي باستحلال أحد الأشهر الحرم عن طريق تأخيره في عام وتقديمه في عام آخر ، فتكون عدة الأشهر المحرمة أربعة ، ولكن أعيان هذه الأشهر تتبدل « ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله » .. فلما كان هذا العام التاسع كان رجب الحقيقي غير رجب ، وكان ذو الحجة الحقيقي غير ذي الحجة ! كان رجب هو جمادى الآخرة ، وكان ذو الحجة هو ذا القعدة ! وكان النفير في جمادى الآخرة فعلا وواقعا ، ولكنه كان في رجب اسما بسبب هذا النسيء ! فجاءت هذه النصوص تبطل النسيء ؛ وتبين مخالفته ابتداء لدين الله ، الذي يجعل التحليل والتحريم (والتشريع كله) حقا خالصا لله ؛ ويجعل مزاولته من البشر ـ بغير ما أذن الله ـ كفرا . . بل زيادة في الكفر . . ومن ثم تزيل العقبة التي تحيك في بعض النفوس من استحلال رجب . وفي الوقت ذاته تقرر أصلا من أصول العقيدة الأساسية ؛ وهو قصر حق التشريع في الحل والحرمة على الله وحده . وتربط هذه الحقيقة بالحق الأصيل في بناء الكون كله ، يوم خلق الله السماوات والأرض . فتشريع الله للناس إنما هو فرع عن تشريعه للكون كله بما فيه هؤلاء الناس . والحيدة عنه مخالفة لأصل تكوين هذا الكون وبنائه ؛ فهو زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا ..(١)

(١) يراجع فصل : « شريعة كونية » في كتاب : « معالم في الطريق » .

Marfat.com

وحقيقة أخرى تقررها هذه النصوص ، تتعلق بما سبق تقريره فى المقطع السابق مباشرة ، من اعتبار أهل الكتاب مشركين ، وضمهم فى العداوة والجهاد إلى المشركين . والأمر بقتالهم كافة . . المشركين وأهل الكتاب . . كما أنهم يقاتلون المسلمين كافة . . الأمر الذى يقرره الواقع التاريخى كله ؛ كما تقرره من قبل كلمات الله - سبحانه - وهى تعبر عن وحدة الهدف تماما بين المشركين وأهل الكتاب تجاه الإسلام والمسلمين ، وعن وحدة الصف التى تجمعهم كذلك عند ما تكون المعركة مع الإسلام والمسلمين ، مهما يكن بينهم هم من عداوات قبل ذلك وثارات واختلافات فى تفصيلات العقيدة كذلك ، لا تقدم شيئا ولا تؤخر فى تجمعهم جميعا فى وجه الانطلاق الإسلامى ؛ وفى عملهم متجمعين لسحق الوجود الإسلامى .

وهذه الحقيقة الأخيرة الخاصة بأن أهل الكتاب مشركون كالمشركين ، وأن المشركين هؤلاء وهؤلاء يقاتلون المسلمين كافة فوجب على المسلمين أن يقاتلوهم كافة . . بالإضافة إلى الحقيقة الأولى : وهى أن النسىء زيادة فى الكفر ، لأنه مزاولة للتشريع بغير ما أنزل الله ، فهو كفر يضاف إلى الكفر الاعتقادى ويزيد فيه . . هاتان الحقيقتان هما المناسبة التى تربط هاتين الآيتين بما قبلهما وما بعدها فى السياق ؛ الذى يعالج المعوقات دون النفير العام ، والانطلاق الإسلامى تجاه المشركين وأهل الكتاب . .

* * *

« إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم . ذلك الدين القيم » . .

إن هذا النص القرآنى يرد معيار الزمن ، وتحديد دورانه إلى طبيعة الكون التى فطره الله عليها . وإلى أصل الخلقة . خلقة السماوات والأرض . ويشير إلى أن هناك دورة زمنية ثابتة ، مقسمة إلى اثنى عشر شهرا . يستدل على ثباتها بثبات عدة الأشهر ؛ فلا تزيد فى دورة وتنقص فى دورة . وأن ذلك فى كتاب الله - أى فى ناموسه الذى أقام عليه نظام هذا الكون . فهى ثابتة على نظامها ، لا تتخلف ولا تتعرض للنقص والزيادة . لأنها تتم وفق قانون ثابت ، هو ذلك الناموس الكونى الذى أراده الله يوم خلق السماوات والأرض :

Marfat.com

هذه الإشارة إلى ثبات الناموس يقدم بها السياق لتحريم الأشهر الحرم وتحديدها ، ليقول: إن هذا التحديد والتحريم جزء من نواميس الله ثابت كثباتها ، لا يجوز تحريفه بالهوى ، ولا يجوز تحريكه تقديما وتأخيرا ، لأنه يشبه دورة الزمن التى تتم بتقدير ثابت ، وفق ناموس لا يتخلف :

« ذلك الدين القيم » ..

فهذا الدين مطابق للناموس الأصيل ، الذى تقوم به السماوات والأرض ، منذ أن خلق الله السماوات والأرض .

وهكذا يتضمن ذلك النص القصير سلسلة طويلة من المدلولات العجيبة .. يتبع بعضها بعضا ، ويمهد بعضها لبعض ، ويقوى بعضها بعضا . ويشتمل على حقائق كونية يحاول العلم الحديث جاهدا أن يصل إليها بطريقته ومحاولاته وتجاربه . ويربط بين نواميس الفطرة فى خلق الكون وأصول هذا الدين وفرائضه ، ليقر فى الضمائر والأفكار عمق جذوره ، وثبات أسسه ، وقدم أصوله . كل أولئك فى إحدى وعشرين كلمة تبدو فى ظاهرها عادية بسيطة قريبة مألوفة .

« ذلك الدين القيم . فلا تظلموا فيهن أنفسكم » ..

لا تظلموا أنفسكم فى هذه الأشهر الحرم التى يتصل تحريمها بناموس كونى تقوم عليه السماوات والأرض . ذلك الناموس هو أن الله هو المشرع للناس كما أنه هو المشرع للكون .. لا تظلموا أنفسكم بإحلال حرمتها التى أرادها الله لتكون فترة أمان وواحة سلام ؛ فتخالفوا عن إرادة الله . وفى هذه المخالفة ظلم للأنفس بتعريضها لعذاب الله فى الآخرة ، وتعريضها للخوف والقلق فى الأرض ، حين تستحيل كلها جحيما حربية ، لا هدنة فيها ولا سلام .

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » ..

ذلك فى غير الأشهر الحرم ، مالم يبدأ المشركون بالقتال فيتعين رد الاعتداء فى تلك الأشهر ، لأن الكف عن القتال من جانب واحد يضعف القوة الخيرة ، المنوط بها حفظ الحرمات ، ووقف القوة الشريرة المعتدية ؛ ويشيع الفساد فى الأرض ؛ والفوضى فى النواميس . فرد الاعتداء فى هذه الحالة وسيلة لحفظ الأشهر الحرم ، فلا يعتدى عليها ولا تهان .

Marfat.com

« وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » ..

قاتلوهم جميعا بلا استثناء أحد منهم ولا جماعة ، فهم يقاتلونكم جميعا لا يستثنون منكم أحدا ، ولا يبقون منكم على جماعة . والمعركة فى حقيقتها إنما هى معركة بين الشرك والتوحيد. وبين الكفر والإيمان وبين الهدى والضلال . معركة بين معسكرين متميزين لا يمكن أن يقوم بينهما سلام دائم ، ولا أن يتم بينهما اتفاق كامل . لأن الخلاف بينهما ليس عرضيا ولا جزئيا . ليس خلافا على مصالح يمكن التوفيق بينها ، ولا على حدود يمكن أن يعاد تخطيطها . وإن الأمة المسلمة لتخدع عن حقيقة المعركة بينها وبين المشركين ـ وثنيين وأهل كتاب ـ إذا هى فهمت أو أفهمت أنها معركة اقتصادية أو معركة قومية ، أو معركة وطنية ، أو معركة استراتيجية . . كلا . إنها قبل كل شيء معركة العقيدة . والمنهج الذى ينبثق من هذه العقيدة.. أى الدين . . (١) وهذه لا تجدى فيها أنصاف الحلول . ولا تعالجها الاتفاقات والمناورات . ولا علاج لها إلا بالجهاد والكفاح . الجهاد الشامل والكفاح الكامل . سنة الله التى لا تتخلف ، وناموسه الذى تقوم عليه السماوات والأرض ، وتقوم عليه العقائد والأديان ، وتقوم عليه الضمائر والقلوب . فى كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض .

« واعلموا أن الله مع المتقين » . .

فالنصر للمتقين الذين يتقون أن ينتهكوا حرمات الله ، وأن يحلوا ما حرم الله ، وأن يحرفوا نواميس الله . فلا يقعد المسلمون عن جهاد المشركين كافة ، ولا يتخوفوا من الجهاد الشامل . فهو جهاد فى سبيل الله يقفون فيه عند حدوده وآدابه ؛ ويتوجهون به إلى الله يراقبونه فى السر والعلانية . فلهم النصر ، لأن الله معهم ، ومن كان الله معه فهو المنصور بلا جدال .

« إنما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله . زين لهم سوء أعمالهم . والله لا يهدى القوم الكافرين » . .

قال مجاهد ـ رضى الله عنه ـ : كان رجل من بنى كنانة يأتى كل عام إلى الموسم على حمار

(١) يراجع فصل : « لا إله إلا الله منهج حياة » فى كتاب « معالم فى الطريق » .

Marfat.com

له فيقول : أيها الناس . إنى لا أعاب ولا أخاب ، ولا مرد لما أقول . إنا قد حرمنا المحرم وأخرنا صفر . ثم يجئ العام المقبل بعده فيقول مثل مقالته ، ويقول : إنا قد حرمنا صفر وأخرنا المحرم فهو قوله : « ليواطئوا عدة ماحرم الله » قال : يعنى الأربعة . فيحلوا ماحرم الله تأخير هذا الشهر الحرام .

وقال عبدالرحمن ابن زيد ابن أسلم : هذا رجل من بنى كنانة يقال له القلمس ، وكان فى الجاهلية وكانوا فى الجاهلية لايغير بعضهم على بعض فى الشهر الحرام ، يلقى الرجل قاتل أبيه ولا يمد إليه يده ؛ فلما كان هو قال : اخرجوا بنا . قالوا له : هذا المحرم . قال : ننسئه العام . هما العام صفران . فإذا كان العام القابل قضينا .. جعلناهما محرمين . . قال ففعل ذلك . فلما كان عام قابل قال لاتغزوا فى صفر . حرموه مع المحرم . هما محرمان . .

فهذان قولان فى الآية ، وصورتان من صور النسئ . فى الصورة الأولى يحرم صفر بدل المحرم فالشهور المحرمة أربعة فى العدد ، ولكنها ليست هى التى نص عليها الله ، بسبب إحلال شهر المحرم . وفى الصورة الثانية يحرم فى عام ثلاثة أشهر وفى عام آخر خمسة أشهر فالمجموع ثمانية فى عامين بمتوسط أربعة فى العام ولكن حرمة المحرم ضاعت فى أحدهما ، وحل صفر ضاع فى ثانيهما !

وهذه كتلك فى إحلال ماحرم الله ؛ والمخالفة عن شرع الله . .

« زيادة فى الكفر » . .

ذلك أنه ــ كما أسلفنا ــ كفر مزاولة التشريع إلى جانب كفر الاعتقاد .

« يضل به الذين كفروا » . .

ويخدعون بما فيه من تلاعب وتحريف وتأويل . .

« زين لهم سوء أعمالهم » . .

فإذا هم يرون السوء حسنا ، ويرون قبح الانحراف جمالا ، ولا يدركون ماهم فيه من ضلال ولجاج فى الكفر بهذه الأعمال .

« والله لا يهدى القوم الكافرين » . .

Marfat.com

الذين ستروا قلوبهم عن الهدى وستروا دلائل الهدى عن قلوبهم . فاستحقوا بذلك أن يتركهم الله لما هم فيه من ظلام وضلال .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ : ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ؟ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ * إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ، وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ، وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ * إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ، ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ : لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ؛ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ، وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ، وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ، وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ » . .

هذا المقطع من سياق السورة يرجح أنه نزل بعد الأمر بالنفير العام لغزوة تبوك . ذلك حين بلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن الروم قد جمعوا له على أطراف الجزيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه رزق سنة ، وانضمت إليهم لخم وجذام وعاملة وغسان من قبائل العرب . وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء من أعمال الشام . فاستنفر الناس إلى قتال الروم . وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ قلما يخرج إلى غزوة إلا ورّى بغيرها مكيدة فى الحرب ، إلا ما كان من هذه الغزوة . فقد صرح بها لبعد الشقة وشدة الزمان . إذ كان ذلك فى شدة الحر ، حين طابت الظلال ، وأينعت الثمار ، وحبب إلى الناس المقام . . عندئذ بدأت تظهر فى المجتمع المسلم تلك الأعراض التى تحدثنا عنها فى تقديم السورة . كما وجد المنافقون فرصتهم للتخذيل . فقالوا :

Marfat.com

لاتنفروا فى الحر . وخوفوا الناس بعد الشقة ، وحذروهم بأس الروم . . وكان لهذه العوامل المختلفة أثرها فى تثاقل بعض الناس عن النفرة . . وهذا ماتعالجه هذه الفقرة . .

* * *

« ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض . أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل . إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضروه شيئا ، والله على كل شىء قدير . إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه : لاتحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم . انفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . .

ذلك بدء العتاب للمتخلفين والتهديد بعاقبة التثاقل عن الجهاد فى سبيل الله ، والتذكير لهم بما كان من نصر الله لرسوله ، قبل أن يكون معه منهم أحد ، وبقدرته على إعادة هذا النصر بدونهم ، فلا ينالهم عندئذ إلا إثم التخلف والتقصير .

« ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ؟ » . .

إنها ثقلة الأرض ، ومطامع الأرض ، وتصورات الأرض . . ثقلة الخوف على الحياة ، والخوف على المال ، والخوف على اللذائذ والمصالح والمتاع . . ثقلة الدعة والراحة والاستقرار . . ثقلة الذات الفانية والأجل المحدود والهدف القريب . . . ثقلة اللحم والدم والتراب . . والتعبير يلقى كل هذه الظلال بجرس ألفاظه : « اثاقلتم » (١) . وهى بجرسها تمثل الجسم المسترخى الثقيل ، يرفعه الرافعون فى جهد فيسقط منهم فى ثقل ! ويلقيها بمعنى ألفاظه . « اثاقلتم إلى الأرض » . . وما لها من جاذبية تشد إلى أسفل وتقاوم رفرفة الأرواح وانطلاق الأشواق .

إن النفرة للجهاد فى سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم ؛ وتحقيق للمعنى العلوى فى الإنسان ، وتغليب لعنصر الشوق المجنح فى كيانه على عنصر القيد والضرورة ؛ وتطلع إلى الخلود الممتد ، وخلاص من الفناء المحدود :

(١) هذه قراءة حفص وهى أبلغ تصويرا من القراءات التى ورد فيها : « تثاقلتم » . .

Marfat.com

« أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل » .

وما يحجم ذو عقيدة فى الله عن النفرة للجهاد فى سبيله ، إلا وفى هذه العقيدة دخل ، وفى إيمان صاحبها بها وهن . لذلك يقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من شعب النفاق » . فالنفاق - وهو دخل فى العقيدة يعوقها عن الصحة والكمال - هو الذى يقعد بمن يزعم أنه على عقيدة عن الجهاد فى سبيل الله خشية الموت أو الفقر ، والآجال بيد الله ، والرزق من عند الله . وما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل .

ومن ثم يتوجه الخطاب إليهم بالتهديد :

« إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ، ولا تضروه شيئا ، والله على كل شىء قدير » . .

والخطاب لقوم معينين فى موقف معين . ولكنه عام فى مدلوله لكل ذوى عقيدة فى الله . والعذاب الذى يتهددهم ليس عذاب الآخرة وحده ، فهو كذلك عذاب الدنيا . عذاب الذلة التى تصيب القاعدين عن الجهاد والكفاح ، والغلبة عليهم للأعداء ، والحرمان من الخيرات واستغلالها للمعادين ؛ وهم مع ذلك كله يخسرون من النفوس والأموال أضعاف ما يخسرون فى الكفاح والجهاد ؛ ويقدمون على مذبح الذل أضعاف ماتتطلبه منهم الكرامة لو قدموا لها الفداء . وما من أمة تركت الجهاد إلا ضرب الله عليها الذل ، فدفعت مرغمة صاغرة لأعدائها أضعاف ما كان يتطلبه منها كفاح الأعداء . .

« ويستبدل قوما غيركم » . .

يقومون على العقيدة ، ويؤدون ثمن العزة ، ويستعلون على أعداء الله :

« ولا تضروه شيئا » . .

ولا يقام لكم وزن ، ولا تقدمون أو تؤخرون فى الحساب !

« والله على كل شىء قدير » . .

لا يعجزه أن يذهب بكم ، ويستبدل قوما غيركم ، ويغفلكم من التقدير والحساب !

إن الاستعلاء على ثقلة الأرض وعلى ضعف النفس ، إثبات للوجود الإنسانى الكريم . فهو

Marfat.com

حياة بالمعنى العلوى للحياة : وإن التثاقل إلى الأرض والاستسلام للخوف إعدام للوجود الإنسانى الكريم . فهو فناء فى ميزان الله وفى حساب الروح المميزة للإنسان .

ويضرب الله لهم المثل من الواقع التاريخى الذى يعلمونه ، على نصرة الله لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء ، والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء :

« إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ، ثانى اثنين إذ هما فى الغار . إذ يقول لصاحبه : لاتحزن إن الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » ..

ذلك حين ضاقت قريش بمحمد ذرعا ، كما تضيق القوة الغاشمة دائما بكلمة الحق ، لاتملك لها دفعا ، ولاتطيق عليها صبرا ، فائتمرت به ، وقررت أن تتخلص منه ؛ فأطلعه الله على ماائتمرت ، وأوحى إليه بالخروج ، فخرج وحيدا إلا من صاحبه الصدّيق ، لاجيش ولا عدة ، وأعداؤه كثر ، وقوتهم إلى قوته ظاهرة . والسياق يرسم مشهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – وصاحبه :

« إذ هما فى الغار » .

والقوم على إثرهما يتعقبون ، والصديق – رضى الله عنه – يجزع – لاعلى نفسه ولكن على صاحبه – أن يطلعوا عليهما فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب ، يقول له : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه . والرسول – صلى الله عليه وسلم – وقد أنزل الله سكينته على قلبه ، يهدئ من روعه ويطمئن من قلبه فيقول له : « ياأبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما ؟ » .

ثم ماذا كانت العاقبة ، والقوة المادية كلها فى جانب ، والرسول – صلى الله عليه وسلم – مع صاحبه منها مجرد ؟ كان النصر المؤزر من عند الله بجنود لم يرها الناس . وكانت الهزيمة للذين كفروا والذل والصغار :

« وجعل كلمة الذين كفروا السفلى » .

وظلت كلمة الله فى مكانها العالى منتصرة قوية نافذة :

« وكلمة الله هى العليا » ..

Marfat.com

وقد قرئ « وكلمةَ الله » بالنصب . ولكن القراءة بالرفع أقوى فى المعنى . لأنها تعطى معنى التقرير . فكلمة الله هى العليا طبيعة وأصلا ، بدون تصيير متعلق بحادثة معينة . والله « عزيز » لا يذل أولياؤه « حكيم » يقدر النصر فى حينه لمن يستحقه .

ذلك مثل على نصرة الله لرسوله ولكلمته ؛ والله قادر على أن يعيده على أيدى قوم آخرين غير الذين يتثاقلون ويتباطأون . وهو مثل من الواقع إن كانوا فى حاجة بعد قول الله إلى دليل !

وفى ظلال هذا المثل الواقع المؤثر يدعوهم إلى النفرة العامة ، لا يعوقهم معوق . ولا يقعد بهم طارئ ، إن كانوا يريدون لأنفسهم الخير فى هذه الأرض وفى الدار الآخرة :

« انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » . .

انفروا فى كل حال ، وجاهدوا بالنفوس والأموال ، ولا تلمسوا الحجج والمعاذير ، ولا تخضعوا للعوائق والتعلات .

« ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

وأدرك المؤمنون المخلصون هذا الخير ، فنفروا والعوائق فى طريقهم ، والأعذار حاضرة لو أرادوا التمسك بالأعذار . ففتح الله عليهم القلوب والأرضين ، وأعز بهم كلمة الله ، وأعزهم بكلمة الله ، وحقق على أيديهم مايعد خارقة فى تاريخ الفتوح .

قرأ أبو طلحة ـ رضى الله عنه ـ سورة براءة فأتى على هذه الآية فقال : أرى ربنا استنفرنا شيوخا وشبانا ، جهزونى يابنى . فقال بنوه : يرحمك الله قد غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك . فأبى فركب البحر فمات ، فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام ، فلم يتغير ، فدفنوه بها .

وروى ابن جرير بإسناده ـ عن أبى راشد الحرانى قال : « وافيت المقداد ابن الأسود فارس رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ جالساً على تابوت من توابيت الصيارفة ، وقد

Marfat.com

فضل عنها من عظمه يريد الغزو ؛ فقلت له قد أعذر الله إليك . فقال : أتت علينا سورة البعوث(١) .

« انفروا خفافا وثقالا » .

وروى كذلك بإسناده ـ عن حيان ابن زيد الشرعبي قال : نفرنا مع صفوان ابن عمرو ، وكان واليا على حمص قبل الأفسوس إلى الجراجمة فرأيت شيخا كبيرا هما ، قد سقط حاجباه على عينيه من أهل دمشق على راحلته فيمن أغار ، فأقبلت إليه فقلت : ياعم لقد أعذر الله إليك . قال : فرفع حاجبيه فقال ياابن أخي استنفرنا الله ، خفافا وثقالا . ألا إنه من يحبه الله يبتليه ، ثم يعيده فيبقيه ، وإنما يبتلي الله من عباده من شكر وصبر وذكر ، ولم يعبد إلا الله عزوجل .

وبمثل هذا الجد في أخذ كلمات الله انطلق الإسلام في الأرض ، يخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، وتمت تلك الخارقة في تلك الفتوح التحريرية الفريدة .

« لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ ، وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ، يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * عَفَا اللَّهُ عَنكَ . لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ * لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ * إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ * وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ؛ وَلَـٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ : اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ * لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ، وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ،

(١) وردت صفات كثيرة لسورة براءة فسميت « الفاضحة » لما فضحته من سرائر المنافقين . ومنها « المنفرة » و « المعبرة » و « المبعثرة » و « المثيرة » و « البعوث » بفتح الباء لتنفيرها وتعبيرها عما في القلوب وبعثرته وبعثها للمجاهدين . وكذلك الدمدمة والمخزية والمنكلة والمشردة ..

Marfat.com

وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ * لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ ، وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ ، حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ ، وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ ، وَهُمْ كَٰرِهُونَ .

« وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ : ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ . أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ * إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ، وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ * قُل : لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ، وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ * قُلْ : هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ؟ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ، فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ .

« قُلْ : أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ، إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ * وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ ، وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ ، وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ * فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ * وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ، وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ .

« وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ ، فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ ، وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ، وَقَالُواْ : حَسْبُنَا ٱللَّهُ ، سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ ، إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ * إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ ، وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا ، وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَفِى ٱلرِّقَابِ ، وَٱلْغَٰرِمِينَ ، وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

« وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ ، وَيَقُولُونَ : هُوَ أُذُنٌ . قُلْ : أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ،

Marfat.com

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ ؛ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ، ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ * يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ . قُلِ : اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ : إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ . قُلْ : أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ؟ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ .

« الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ، إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ، هِيَ حَسْبُهُمْ ، وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ، وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ؛ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ ، فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ ، وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ، أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ، وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ، وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ

Marfat.com

جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ، خَٰلِدِينَ فِيهَا ، وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ ؛ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ ، وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ ، وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ؛ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ؛ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ، وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ » .

« وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ ، وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ ، وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ ، وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ؟

« ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ، سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ، وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ .

« فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ، وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَقَالُوا۟ : لَا تَنفِرُوا۟ فِي ٱلْحَرِّ . قُلْ : نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ * فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل : لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِيَ أَبَدًا ، وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِيَ عَدُوًّا ، إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ

Marfat.com

ٱلْخَٰلِفِينَ * وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ، وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ * وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا ، وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ .

« وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ ، وَقَالُوا۟ : ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ * رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ، وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ، ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ .

« وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ، وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ، سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ .

« لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ، مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ، وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ : لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ » . .

من هنا يبدأ الحديث عن الطوائف التى ظهرت عليها أعراض الضعف فى الصف . وبخاصة جماعة المنافقين ، الذين اندسوا فى صفوف المسلمين باسم الإسلام ، بعد أن غلب وظهر ، فرأى هؤلاء أن حب السلامة وحب الكسب يقتضيان أن يحنوا رؤوسهم للإسلام ، وأن يكيدوا له داخل الصفوف بعد أن عز عليهم أن يكيدوا له خارج الصفوف .

وسنرى فى هذا المقطع كل الظواهر التى تحدثنا عنها فى تقديم السورة كما يصورها السياق القرآنى . ونحسب أنها ستكون مفهومة واضحة فى ضوء ذلك التقديم الذى أسلفنا :

Marfat.com

« لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ؛ وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم إنهم لكاذبون . عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ؟ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ؛ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم ، فثبطهم ، وقيل : اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » . .

لو كان الأمر أمر عرض قريب من أعراض هذه الأرض ، وأمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك ! ولكنها الشقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة . ولكنه الجهد الخطر الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب المنخوبة . ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة .

وإنه لنموذج مكرور في البشرية ذلك الذي ترسمه تلك الكلمات الخالدة :

« لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة » . .

فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة . كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص . كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان وفي كل مكان ، فما هي قلة عارضة ، إنما هي النموذج المكرور . وإنهم ليعيشون على حاشية الحياة ، وإن خيل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب ، واجتنبوا أداء الثمن الغالي ، فالثمن القليل لا يشتري سوى التافه الرخيص !

« وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم » . .

فهو الكذب المصاحب للضعف أبداً . وما يكذب إلا الضعفاء . أجل مايكذب إلا ضعيف ولو بدا في صورة الأقوياء الجبارين في بعض الأحايين . فالقوي يواجه والضعيف يداور . وما تتخلف هذه القاعدة في موقف من المواقف ولا في يوم من الأيام . .

Marfat.com

« يهلكون أنفسهم » ..

بهذا الحلف وبهذا الكذب ، الذى يخيل إليهم أنه سبيل النجاة عند الناس ، والله يعلم الحق ، ويكشفه للناس ، فيهلك الكاذب فى الدنيا بكذبه ، ويهلك فى الآخرة يوم لايجدى النكران .

« والله يعلم إنهم لكاذبون » ..

« عفا الله عنك . لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » ...

إنه لطف الله برسوله ، فهو يعجل له بالعفو قبل العتاب . فلقد تدارى المتخلفون خلف إذن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم بالقعود حين قدموا له المعاذير . وقبل أن ينكشف صدقهم من كذبهم فى هذه المعاذير . وكانوا سيتخلفون عن الركب حتى ولو لم يأذن لهم . فعندئذ تنكشف حقيقتهم ، ويسقط عنهم ثوب النفاق ، ويظهرون للناس على طبيعتهم ، ولايتوارون خلف إذن الرسول .

وإذ لم يكن ذلك فإن القرآن يتولى كشفهم ، ويقرر القواعد التى يمتاز بها المؤمنون والمنافقون .

« لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لايؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم ، فهم فى ريبهم يترددون » . .

وهذه هى القاعدة التى لاتخطىء . فالذين يؤمنون بالله ، ويعتقدون بيوم الجزاء ، لاينتظرون أن يؤذن لهم فى أداء فريضة الجهاد ؛ ولا يتلكأون فى تلبية داعى النفرة فى سبيل الله بالأموال والأرواح ؛ بل يسارعون إليها خفافا وثقالا كما أمرهم الله ، طاعة لأمره ، ويقينا بلقائه ، وثقة بجزائه ، وابتغاء لرضاه . وإنهم ليتطوعون تطوعا فلا يحتاجون إلى من يستحثهم ، فضلا عن الإذن لهم . إنما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكأون ويتلمسون المعاذير ، لعل عائقا من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التى يتظاهرون بها ، وهم يرتابون فيها ويترددون .

Marfat.com

إن الطريق إلى الله واضحة مستقيمة ، فما يتردد ويتلكأ إلا الذي لايعرف الطريق ، أو الذي يعرفها ويتنكبها اتقاء لمتاعب الطريق !

ولقد كان أولئك المتخلفون ذوى قدرة على الخروج ، لديهم وسائله ، وعندهم عدته :

« ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة » ..

وقد كان فيهم عبد الله بن أبى ابن أبى سلول ، وكان فيهم الجد ابن قيس ، وكانوا أشرافا فى قومهم أثرياء .

« ولكن كره الله انبعاثهم » ..

لمايعلمه من طبيعتهم ونفاقهم ، ونواياهم المنطوية على السوء للمسلمين كما سيجىء .

« فثبطهم » ..

ولم يبعث فيهم الهمة للخروج .

« وقيل : اقعدوا مع القاعدين » ..

وتخلفوا مع العجائز والنساء والأطفال الذين لايستطيعون الغزو ، ولا ينبعثون للجهاد . فهذا مكانكم اللائق بالهمم الساقطة والقلوب المرتابة والنفوس الخاوية من اليقين .

وكان ذلك خيرا للدعوة وخيرا للمسلمين :

« لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين » ..

والقلوب الحائرة تبث الخور والضعف فى الصفوف ، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش ؛ ولو خرج أولئك المنافقون مازادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطرابا وفوضى . ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل . وفى المسلمين من يسمع لهم فى ذلك الحين. ولكن الله الذى يرعى دعوته ويكلأ رجالها المخلصين ، كفى المؤمنين الفتنة ، فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين :

« والله عليم بالظالمين » ..

والظالمون هنا معناهم « المشركون » فقد ضمهم كذلك إلى زمرة المشركين !

Marfat.com

وإن ماضيهم ليشهد بدخل نفوسهم ، وسوء طويتهم ، فلقد وقفوا فى وجه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبذلوا مافى طوقهم ، حتى غلبوا على أمرهم فاستسلموا وفى القلب مافيه :

« لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون » .

وكان ذلك عند مقدم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة ، قبل أن يظهره الله على أعدائه . ثم جاء الحق وانتصرت كلمة الله فحنوا لها رؤوسهم وهم كارهون ، وظلوا يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين .

* * *

ثم يأخذ السياق فى عرض نماذج منهم ومن معاذيرهم المفتراة ؛ ثم يكشف عما تنطوى عليه صدورهم من التربص بالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين :

« ومنهم من يقول : ائذن لى ولا تفتنى .ألا فى الفتنة سقطوا، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين. إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل ، ويتولوا وهم فرحون . قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون . قل : هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ؟ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا . فتربصوا إنا معكم متربصون » .

روى محمد ابن إسحاق عن الزهرى ويزيد ابن رومان وعبد الله ابن أبى بكر وعاصم ابن قتادة قالوا : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم ، وهو فى جهازه (أى لغزوة تبوك) للجد ابن قيس أخى بنى سلمة : « هل لك ياجد فى جلاد بنى الأصفر ؟ » (يعنى الروم) فقال : يارسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى مارجل أشد عجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : قد أذنت لك » ففى الجد ابن قيس نزلت هذه الآية .

بمثل هذه المعاذير كان المنافقون يعتذرون . والرد عليهم :

« ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين » . .

Marfat.com

والتعبير يرسم مشهداً كأن الفتنة فيه هاوية يسقط فيها المفتونون ؛ وكأن جهنم من ورائهم تحيط بهم ، وتأخذ عليهم النافذ والمتجهات فلا يفلتون . كناية عن مقارفتهم للخطيئة كاملة وعن انتظار العقاب عليها حتماً ، جزاء الكذب والتخلف والهبوط إلى هذا المستوى المنحط من المعاذير . وتقريراً لكفرهم وإن كانوا يتظاهرون بالإسلام وهم فيه منافقون .

إنهم لا يريدون بالرسول خيراً ولا بالمسلمين ؛ وإنهم ليسوؤهم أن يجد الرسول والمسلمون خيراً :

« إن تصبك حسنة تسؤهم » . .

وإنهم ليفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب وما ينزل بهم من مشقة :

« وإن تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل » . .

واحتطنا ألا نصاب مع المسلمين بشر ، وتخلفنا عن الكفاح والغزو !

« ويتولوا وهم فرحون » . .

بالنجاة وبما أصاب المسلمين من بلاء .

ذلك أنهم يأخذون بظواهر الأمور ، ويحسبون البلاء شراً في كل حال ، ويظنون أنهم يحققون لأنفسهم الخير بالتخلف والقعود . وقد خلت قلوبهم من التسليم لله ، والرضى بقدره ، واعتقاد الخير فيه . والمسلم الصادق يبذل جهده ويقدم لا يخشى ، اعتقاداً بأن مايصيبه من خير أو شر معقود بإرادة الله ، وأن الله ناصر له ومعين :

« قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . .

والله قد كتب للمؤمنين النصر ، ووعدهم به في النهاية ، فمهما يصبهم من شدة ، ومهما يلاقوا من ابتلاء ، فهو إعداد للنصر الموعود ، ليناله المؤمنون عن بينة ، وبعد تمحيص ، وبوسائله التي اقتضتها سنة الله ، نصراً عزيزاً لا رخيصاً ، وعزة تحميها نفوس عزيزة مستعدة لكل ابتلاء ، صابرة على كل تضحية . والله هو الناصر وهو المعين :

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » . .

والاعتقاد بقدر الله ، والتوكل الكامل على الله ، لا ينفيان اتخاذ العدة بما في الطوق .

Marfat.com

فذلك أمر الله الصريح : « وأعـدوا لهم ما استطعتم من قوة . . . » وما يتـكل على الله حق الاتـكال من لا ينفذ أمر الله ، ومن لا يأخذ بالأسباب ، ومن لا يدرك سنة الله الجارية التى لا تحابى أحدا ، ولا تراعى خاطر إنسان !

على أن المؤمن أمره كله خير . سواء نال النصر أو نال الشهادة . والـكافر أمره كله شر سواء أصابه عذاب الله المباشر أو على أيدى المؤمنين :

« قل : هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا . فتربصوا إنا معكم متربصون » . .

فماذا يتربص المنافقون بالمؤمنين ؟ إنها الحسنى على كل حال . النصر الذى تعلو به كلمة الله ، فهو جزاؤهم فى هذه الأرض . أو الشهادة فى سبيل الحق عليا الدرجات عند الله . وماذا يتربص المؤمنون بالمنافقين ؟ إنه عـذاب الله يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المـكذبين ؛ أو يبطش المؤمنين بهم كما وقع من قبـل للمشركين . . « فتربصوا إنا معـكم متربصون » والعاقبة معروفة . . والعاقبة للمؤمنين .

* * *

ولقد كان بعض هؤلاء المتذرين المتخلفين المتربصين ، قد عرض ماله ، وهو يعتـذر عن الجهاد ، ذلك ليمسك العصا من الوسط على طريقة المنافقين فى كل زمان ومكان . فرد الله عليهم مناورتهم ، وكلف رسوله أن يعلن أن إنفاقهم غير مقبول عند الله ، لأنهم إنما ينفقونه عن رياء وخوف ، لا عن إيمان وثقة ، وسواء بذلوه عن رضا منهم بوصفه ذريعة يخدعون بها المسلمين ، أو عن كره خوفا من انـكشاف أمرهم ، فهو فى الحالتين مردود ، لا ثواب له ولا يحسب لهم عند الله :

« قل : أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منـكم ، إنـكم كنتم قوما فاسقين . وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ، ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون » .

Marfat.com

إنها صورة المنافقين فى كل آن . خوف ومداراة ، وقلب منحرف وضمير مدخول . ومظاهر خالية من الروح ، وتظاهر بغير مايكنه الضمير .

والتعبير القرآنى الدقيق :

« ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى » . .

فهم يأتونها مظهرا بلا حقيقة ، ولا يقيمونها إقامة واستقامة . يأتونها كسالى لأن الباعث عليها لا ينبثق من أعماق الضمير ، إنمـا يدفعون إليها دفعا ، فيحسون أنهم عليها مسخرون ! وكذلك ينفقون ماينفقون كارهين مكرهين .

وما كان الله ليقبل هـذه الحركات الظاهرة التى لا تحدو إليها عقيدة ، ولا يصاحبها شعور دافع . فالباعث هو عمدة العمل والنية هى مقياسه الصحيح .

ولقد كان هؤلاء المنفقون وهم كارهون ذوى مال وذوى أولاد ، وذوى جاه فى قومهم وشرف . ولـكن هذا كله ليس بشىء عند الله . وكذلك يجب ألا يكون شيئا عنـد الرسول والمؤمنين . فمـا هى بنعمة يسبغها الله عليهم ليهنأوا بها ، إنمـا هى الفتنة يسوقها الله إليهم ويعذبهم بها :

« فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ، إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحيـاة الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون » . .

إن الأموال والأولاد قد تـكون نعمة يسبغها الله على عبد من عباده ، حـين يوفقه إلى الشكر على النعمة ، والإصلاح بها فى الأرض ، والتوجه بها إلى الله ، فإذا هو مطمئن الضمير ، ساكن النفس ، واثق من المصير . كلما أنفق احتسب وشعر أنه قدم لنفسه ذخرا ، وكلما أصيب فى ماله أو بنيه احتسب ، فإذا السكينة النفسية تغمره . والأمل فى الله يسرى عنه . . وقد تكون نقمة يصيب الله بها عبدا من عباده ، لأنه يعلم من أمره الفساد والدخل ، فإذا القلق على الأموال والأولاد يحول حياته جحيما ، وإذا الحرص عليها يؤرقه ويتلف أعصابه ، وإذا هو ينفق المال حين ينفقه فيما يتلفه ويعود عليه بالأذى ، وإذا هو يشقى بأبنائه إذا مرضوا ويشقى بهم إذا صحوا . وكم من الناس يعذبون بأبنائهم لسبب من الأسباب !

Marfat.com

وهؤلاء الذين كانوا على عهد الرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ وأمثالهم فى كل زمان ، يملـكون الأموال ويرزقون الأولاد ، يعجب الناس ظاهرها ، وهى لهم عـذاب على نحو من الأنحاء . عذاب فى الحياة الدنيا ، وهم ـ بما علم الله من دخيلتهم ـ صائرون إلى الهاوية . هاوية الموت على الـكفر والعياذ بالله من هذا المصير .

والتعبير « وتزهق أنفسهم » يلقى ظل الفرار لهذه النفوس أو الهلاك . ظلا مزعجا لاهدوء فيه ولااطمئنان ، فيتسق هذا الظل مع ظل العذاب فى الحياة الدنيا بالأموال والأولاد . فهو القلق والـكرب فى الدنيا والآخرة . ومايحـد أحـد على هـذه المظاهر التى تحمل فى طياتها البلاء !

* * *

ولقد كان أولئك المنافقون يدسون أنفسهم فى الصف ، لاعن إيمان واعتقاد ، ولـكن عن خوف وتقية ، وعن طمع ورهب . ثم يحلفون أنهم من المسلمين ، أسلموا اقتناعا ، وآمنوا اعتقادا . . فهـذه السورة تفضحهم وتـكشفهم على حقيقتهم ، فهى الفاضحة التى تـكشف رداء المداورة وتمزق ثوب النفاق :

« ويحلفون بالله إنهم لمنكم وماهم منكم ولـكنهم قوم يفرقون . لويجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون » . .

إنهم جبناء . والتعبير يرسم لهذا الجبن مشهدا ويجسمه فى حركة . حركة النفس والقلب ، يبرزها فى حركة جسد وعيان :

« لويجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون » . .

فهم متطلعون أبدا إلى مخبـأ يحتمون به ، ويأمنون فيـه . حصنا أو مغارة أو نفقا . إنهم مذعورون مطاردون . يطاردهم الفزع الداخلى والجبن الروحى . ومن هنا :

« يحلفون بالله إنهم لمنكم » . .

بـكل أدوات التوكيد ، ليداروا مافى نفوسهم ، وليتقوا انكشاف طويتهم ، وليـأمنوا على ذواتهم . . وإنها لصورة زرية للجبن والخوف والملق والرياء . لايرسمها إلا هذا الأسلوب

Marfat.com

القرآنى العجيب . الذى يبرز حركات النفس شاخصة للحس على طريقة التصوير الفنى الموحى العميق .

* * *

ثم يستمر سياق السورة فى الحديث عن المنافقين ، وماند منهم من أقوال وأعمال ، تكشف عن نواياهم التى يحاولون سترها ، فلا يستطيعون . فمنهم من يلمز النبى – صلى الله عليه وسلم – فى توزيع الصدقات ، ويتهم عدالته فى التوزيع ، وهو المعصوم ذو الخلق العظيم ، ومنهم من يقول : هو أذن يستمع لكل قائل ، ويصدق كل مايقال ، وهو النبى الفطن البصير ، المفكر المدبر الحكيم . ومنهم من يتخفى بالقولة الفاجرة الكافرة ، حتى إذا انكشف أمره استعان بالكذب والحلف ليبرئ نفسه من تبعة ماقال . ومنهم من يخشى أن ينزل الله على رسوله سورة تفضح نفاقهم وتكشفهم للمسلمين .

ويعقب على استعراض هذه الصنوف من المنافقين ، ببيان طبيعة النفاق والمنافقين ، ويربط بينهم وبين الكفار الذين خلوا من قبل ، فأهلكهم الله بعد ما استمتعوا بنصيبهم إلى أجل معلوم . ذلك ليكشف عن الفوارق بين طبيعتهم هذه وطبيعة المؤمنين الصادقين ، الذين يخلصون العقيدة ولا ينافقون .

* * *

« ومنهم من يلمزك فى الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون . ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا : حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا إلى الله راغبون . إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله والله عليم حكيم » ..

من المنافقين من يغمزك بالقول ، ويعيب عدالتك فى توزيع الصدقات ، ويدعى أنك تحابى فى قسمتها . وهم لا يقولون ذلك غضبا للعدل ، ولا حماسة للحق ، ولا غيرة على الدين ، إنما يقولونه لحساب ذواتهم وأطماعهم ، وحماسة لمنفعتهم وأنانيتهم :

Marfat.com

« فإن أعطوا منها رضوا » ولم يبالوا الحق والعدل والدين !

« وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » !

وقد وردت روايات متعددة عن سبب نزول الآية ، تقص حوادث معينة عن أشخاص بأعيانهم لمزوا الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى عدالة التوزيع .

روى البخارى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى – رضى الله عنه – قال : بينما النبى – صلى الله عليه وسلم – يقسم قسما إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى ، فقال اعدل يارسول الله . فقال : « ويلك ! ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ » فقال عمر ابن الخطاب – رضى الله عنه – ائذن لى فأضرب عنقه . فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم فى الرمية ... » قال أبو سعيد ، فنزلت فيهم : « ومنهم من يلمزك فى الصدقات » .

وروى ابن مردويه عن ابن مسعود – رضى الله عنه – قال : « لما قسم النبى – صلى الله عليه وسلم – غنائم حنين سمعت رجلا يقول : إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فأتيت النبى – صلى الله عليه وسلم – فذكرت له ذلك فقال : « رحمة الله على موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » ونزل « ومنهم من يلمزك فى الصدقات » .

وروى سنيد وابن جرير عن داود ابن أبى عاصم قال : أتى النبى – صلى الله عليه وسلم – بصدقة فقسمها هاهنا وهاهنا حتى ذهبت ، ورآه رجل من الأنصار فقال : ماهذا بالعدل . فنزلت هذه الآية .

وقال قتادة فى قوله : « ومنهم من يلمزك فى الصدقات » يقول : ومنهم من يطعن عليك فى الصدقات . وذكر لنا أن رجلا من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبى – صلى الله عليه وسلم – وهو يقسم ذهبا وفضة ، فقال : يامحمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ماعدلت ، فقال نبى الله – صلى الله عليه وسلم – « ويلك فمن ذا الذى يعدل عليك بعدى ؟ » ..

وعلى أية حال فالنص القرآنى يقرر أن القولة قولة فريق من المنافقين . يقولونها لا غيرة على الدين ، ولكن غضبا على حظ أنفسهم ، وغيظا أن لم يكن لهم نصيب .. وهى آية نفاقهم

Marfat.com

الصريحة ، فما يشك فى خلق الرسول - صلى الله عليه وسلم - مؤمن بهذا الدين ، وهو المعروف حتى قبل الرسالة بأنه الصادق الأمين . والعدل فرع من أمانات الله التى ناطها بالمؤمنين فضلا على نبى المؤمنين .. وواضح أن هذه النصوص تحكى وقائع وظواهر وقعت من قبل ، ولكنها تتحدث عنها فى ثنايا الغزوة لتصوير أحوال المنافقين الدائمة المتصلة قبل الغزوة وفى ثناياها .

وبهذه المناسبة يرسم السياق الطريق اللائق بالمؤمنين الصادقى الإيمان :

«ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا : حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله. إنا إلى الله راغبون » ..

فهذا هو أدب النفس وأدب اللسان ، وأدب الإيمان : الرضا بقسمة الله ورسوله ، رضا التسليم والاقتناع لا رضا القهر والغلب . والاكتفاء بالله ، والله كاف عبده . والرجاء فى فضل الله ورسوله . والرغبة فى الله خالصة من كل كسب مادى ، ومن كل طمع دنيوى .. ذلك أدب الإيمان الصحيح الذى ينضح به قلب المؤمن . وإن كانت لا تعرفه قلوب المنافقين ، الذين لم تخالط بشاشة الإيمان أرواحهم ، ولم يشرق فى قلوبهم نور اليقين .

وبعد بيان هذا الأدب اللائق فى حق الله وحق رسوله ، تطوعا ورضا وإسلاما ، يقرر أن الأمر - مع ذلك - ليس أمر الرسول ؛ إنما هو أمر الله وفريضته وقسمته ، وما الرسول فيها إلا منفذ للفريضة المقسومة من رب العالمين . فهذه الصدقات - أى الزكاة - تؤخذ من الأغنياء فريضة من الله ، وترد على الفقراء فريضة من الله . وهى محصورة فى طوائف من الناس يعينهم القرآن ، وليست متروكة لاختيار أحد ، حتى ولا اختيار الرسول :

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل . فريضة من الله والله عليم حكيم » ..

وبذلك تأخذ الزكاة مكانها فى شريعة الله ، ومكانها فى النظام الإسلامى ، لا تطوعا ولا تفضلا ممن فرضت عليهم . فهى فريضة محتمة . ولا منحة ولا جزافا من القاسم للوزع . فهى فريضة معلومة . إنها إحدى فرائض الإسلام تجمعها الدولة المسلمة بنظام معين لتؤدى بها خدمة اجتماعية محددة . وهى ليست إحسانا من المعطى وليست شحاذة من الآخذ .. كلا فما قام النظام الاجتماعى فى الإسلام على التسول ، ولن يقوم !

Marfat.com

إن قوام الحياة فى النظام الإسلامى هو العمل ـ بكل صنوفه وألوانه ـ وعلى الدولة المسلمة أن توفر العمل لكل قادر عليه ، وأن تمكنه منه بالإعداد له ، وبتوفير وسائله ، وبضمان الجزاء الأوفى عليه ، وليس للقادرين على العمل من حق فى الزكاة ، فالزكاة ضريبة تكافل اجتماعى بين القادرين والعاجزين ، تنظمها الدولة وتتولاها فى الجمع والتوزيع ؛ متى قام المجتمع على أساس الإسلام الصحيح ، منفذا شريعة الله ، لا يبتغى له شرعا ولا منهجا سواه .

عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى (١) » .

وعن عبد الله ابن عدى ابن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسألانه من الصدقة ، فقلب فيهما البصر ، فرآهما جلدين ، فقال : « إن شئتما أعطيتكما . ولا حظ فيها لغنى ولا لقوى مكتسب (٢) » .

إن الزكاة فرع من فروع نظام التكافل الاجتماعى فى الإسلام . وهذا النظام أشمل وأوسع كثيرا من الزكاة ؛ لأنه يتمثل فى عدة خطوط تشمل فروع الحياة كلها ، ونواحى الارتباطات البشرية بأكملها ، والزكاة خط أساسى من هذه الخطوط (٣) :

والزكاة تجمع بنسبة العشر ونصف العشر وربع العشر من أصل المال حسب أنواع الأموال . وهى تجمع من كل من يملك حوالى عشرين جنيها فائضة عن حاجته يحول عليها الحول . وبذلك يشترك فى حصيلتها معظم أفراد الأمة . ثم تنفق فى المصارف التى بينتها الآية هنا ، وأول المستحق لها هم الفقراء والمساكين . والفقراء هم الذين يجدون دون الكفاية ، والمساكين مثلهم ولكنهم هم الذين يتجملون فلا يبدون حاجتهم ولا يسألون .

وإن كثيرا ممن يؤدون الزكاة فى عام ، قد يكونون فى العام التالى مستحقين للزكاة . بنقص ما فى أيديهم عن الوفاء بحاجاتهم . فهى من هذه الناحية تأمين اجتماعى . وبعضهم يكون لم يؤد

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى . (٢) رواه أحمد وأبو داود والنسائى .

(٣) يراجع فصل « التكافل الاجتماعى فى كتاب : « العدالة الاجتماعية » . وفى كتاب : « دراسات إسلامية » كما يراجع تفسير الجزء الثالث من هذه الظلال : أواخر سورة البقرة .

Marfat.com

شيئا فى حصيلة الزكاة ولكنه يستحقها . فهى من هذه الناحية ضمان اجتماعى . . وهى قبل هذا وذاك فريضة من الله ، تزكو النفس بأدائها وهى إنما تعبد بها الله ، وتخلص من الشح وتستعلى عليه فى هذا الأداء .

« إنما الصدقات للفقراء والمساكين » . . وقد سبق بيانهما .

« والعاملين عليها » . . أى الذين يقومون على تحصيلها .

« والمؤلفة قلوبهم » . . وهم طوائف ، منهم الذين دخلوا حديثا فى الإسلام ويراد تثبيتهم عليه . ومنهم الذين يرجى أن تتألف قلوبهم فيسلموا . ومنهم الذين أسلموا وثبتوا ويرجى تأليف قلوب أمثالهم فى قومهم ليثوبوا إلى الإسلام حين يرون إخوانهم يرزقون ويزادون . . وهناك خلاف فقهى حول سقوط سهم هؤلاء المؤلفة قلوبهم بعد غلبة الإسلام . . ولكن للنهج الحركى لهذا الدين سيظل يواجه فى مراحله المتعددة كثيرا من الحالات ، تحتاج إلى إعطاء جماعة من الناس على هذا الوجه ؛ إما إعانة لهم على الثبات على الإسلام إن كانوا يحاربون فى أرزاقهم لإسلامهم ، وإما تقريبا لهم من الإسلام كبعض الشخصيات غير المسلمة التى يرجى أن تنفع الإسلام بالدعوة له والذب عنه هنا وهناك . ندرك هذه الحقيقة ، فنرى مظهرا لكمال حكمة الله فى تدبيره لأمر المسلمين على اختلاف الظروف والأحوال .

« وفى الرقاب » .. ذلك حين كان الرق نظاما عالميا، تجرى المعاملة فيه على المثل فى استرقاق الأسرى بين المسلمين وأعدائهم . ولم يكن للإسلام بد من المعاملة بالمثل حتى يتعارف العالم على نظام آخر غير الاسترقاق . . وهذا السهم كان يستخدم فى إعانة من يكاتب سيده على الحرية فى نظير مبلغ يؤديه له ،ليحصل على حريته بمساعدة قسطه من الزكاة .أو بشراء رقيق وإعتاقهم بمعرفة الدولة من هذا المال .

« والغارمين » . . وهم المدينون فى غير معصية . يعطون من الزكاة ليوفوا ديونهم ، بدلا من إعلان إفلاسهم كما تصنع الحضارة المادية بالمدينين من التجار مهما تكن الأسباب ! فالإسلام نظام تكافلى ، لا يسقط فيه الشريف ، ولا يضيع فيه الأمين ، ولا يأكل الناس بعضهم بعضا فى صورة قوانين نظامية ، كما يقع فى شرائع الأرض أو شرائع الغاب !

Marfat.com

« وفى سبيل الله » . . وذلك باب واسع يشمل كل مصلحة للجماعة ، تحقق كلمة الله .

« وابن السبيل » . . وهو المسافر المنقطع عن ماله ، ولو كان غنيا فى بلده .

هـذه هى الزكاة التى يتقول عليها المتقولون فى هذا الزمان ، ويلمزونها بأنها نظام تسول وإحسان [١] .. هذه هى فريضة اجتماعية ، تؤدى فى صورة عبادة إسلامية . ذلك ليطهر الله بها القلوب من الشح ؛ وليجعلها وشيجة تراحم وتضامن بين أفراد الأمة المسلمة ، تندّى جو الحياة الإنسانية ، وتمسح على جراح البشرية ؛ وتحقق فى الوقت ذاته التأمين الاجتماعى والضمان الاجتماعى فى أوسع الحدود . وتبقى لها صفة العبادة التى تربط بين القلب البشرى وخالقه ، كما تربط بينه وبين الناس :

« فريضة من الله » الذى يعلم ما يصلح لهذه البشرية ، ويدبر أمرها بالحكمة :

« والله عليم حكيم » .

* * *

وبعد بيان قواعد الصدقات ، التى يرجع إليها التوزيع والتقسيم . ذلك البيان الذى يكشف عن جهل الذين يلمزون الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوق سوء أدبهم حين يلمزون الرسول الأمين . بعد هذا يمضى السياق يعرض صنوف المنافقين ، وما يقولون وما يفعلون :

« ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون : هو أذن . قل : أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا منكم . والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم . يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين . ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها . ذلك الخزى العظيم . يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم . قل : استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون . ولئن سألتهم ليقولن : إنما كنا نخوض ونلعب . قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ؛ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين » .

إنه سوء الأدب فى حق الرسول ، يبدو فى صورة أخرى غير صورة اللمز فى الصدقات .

---

(١) يراجع كتاب : « السلام العالمى والإسلام » فى موضوع الزكاة .

Marfat.com

إنهم يجدون من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أدبا رفيعا فى الاستماع إلى الناس بإقبال وسماحة ؛ ويعاملهم بظاهرهم حسب أصول شريعته ؛ ويهش لهم ويفسح لهم من صدره . فيسمون هذا الأدب المظيم بغير اسمه ، ويصفونه بغير حقيقته ، ويقولون عن النبي ـ صلى الله عليـه وسلم ـ « هو أذن » أى سماع لكل قول ، يجوز عليه الكذب والخداع والبراعة ، ولا يفطن إلى غش القول وزوره . من حلف له صدقه ، ومن دس عليـه قولا قبله . يقولون هـذا بعضهم لبعض تطمينا لأنفسهم أن يكشف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حقيقة أمرهم ، أو يفطن إلى نفاقهم . أو يعولونه طمنا على النبي فى تصديقه للمؤمنين الخلص الذين ينقلون له ما يطلعون عليـه من شؤون المنافقين وأعمالهم وأقوالهم عن الرسول وعن المسلمين . وقد وردت الروايات بهـذا وذلك فى سبب نزول الآية . وكلاهما يدخل فى عمومها . وكلاهما يقع من المنافقين .

ويأخذ القرآن الكريم كلامهم ليجعل منه ردا عليهم :

« ويقولون : هو أذن » . .

نعم . . ولكن :

« قل : أذن خير لكم » . .

أذن خير يستمع إلى الوحى ثم يبلغه لكم وفيه خيركم وصلاحكم . وأذن خير يستمع إليكم فى أدب ولا يجبهكم بنفاقكم ، ولا يرميكم بخداعكم ، ولا يأخذكم بريائكم .

« يؤمن بالله » . .

فيصدق كل ما يخبره به عنكم وعن سواكم .

« ويؤمن للمؤمنين » . .

فيطمئن إليهم ويثق بهم ، لأنه يعلم منهم صدق الإيمان الذى يعصمهم من الكذب والالتواء والرياء .

« ورحمة للذين آمنوا منكم » . .

يأخذ بيدهم إلى الخير .

« والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم » . .

Marfat.com

من الله غيرة على الرسول أن يؤذى وهو رسول الله .

« يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين » ..

يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، على طريقة المنافقين فى كل زمان ، الذين يقولون مايقولون ويفعلون ما يفعلون من وراء الظهور ؛ ثم يجبنون عن المواجهة ، ويضعفون عن المصارحة ، فيتضاءلون ويتخاذلون للناس ليرضوهم .

« والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين » ..

فماذا يكون الناس ؟ وماذا تبلغ قوتهم ؟ ولكن الذى لايؤمن بالله عادة ولا يعنو له ، يعنو لإنسان مثله ويخشاه ؛ ولقد كان خيرا أن يعنو لله الذى يتساوى أمامه الجميع ، ولايذل من يخضع له ، إنما يذل من يخضع لعباده ، ولايصغر من يخشاه ، إنما يصغر من يعرضون عنه فيخشون من دونه من عباد الله .

« ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها ، ذلك الخزى العظيم » ..

سؤال للتأنيب والتوبيخ ، فإنهم ليدعون الإيمان ، ومن يؤمن يعلم أن حرب الله ورسوله كبرى الكبائر ، وأن جهنم فى انتظار من يرتكبها من العباد، وأن الخزى هو الجزاء المقابل للتمرد . فإذا كانوا قد آمنوا كما يدعون ، فكيف لايعلمون ؟

إنهم يخشون عباد الله فيحلفون لهم ليرضوهم ، ولينفوا ما بلغهم عنهم . فكيف لايخشون خالق العباد ، وهم يؤذون رسوله ، ويحاربون دينه . فكأنما يحاربون الله ، تعالى الله أن يقصده أحد بحرب ! إنما هو تفظيع مايرتكبون من إثم ، وتجسيم مايقارفون من خطيئة ، وتخويف من يؤذون رسول الله ، ويكيدون لدينه فى الخفاء .

وإنهم لأجبن من أن يواجهوا الرسول والذين معه ، وإنهم ليخشون أن يكشف الله سترهم ، وأن يطلع الرسول - صلى الله عليه وسلم - على نواياهم :

« يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم . قل استهزئوا إن الله مخرج ماتحذرون . ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب . قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ؛ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين » ..

Marfat.com

إن النص عام فى حذر المنافقين أن ينزل الله قرآنا يكشف خبيئتهم ، ويتحدث عما فى قلوبهم، فينكشف للناس ما يخبئونه . وقد وردت عدة روايات عن حوادث معينة فى سبب نزول هذه الآيات .

قال أبو معشر المدينى عن محمد ابن كعب القرظى وغيره قالوا : قال رجل من المنافقين : ماأرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا وأكذبنا ألسنة ، وأجبننا عند اللقاء (يقصدون قراء القرآن) فرفع ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال: يارسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال : « أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ » إلى قوله : « كانوا مجرمين » وإن رجليه لتسفعان الحجارة ،ومايلتفت إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -وهو متعلق بسيف رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم .

وقال محمد ابن إسحاق : وقدكان جماعة من المنافقين منهم وديعة ابن ثابت أخو بنى أمية ابن زيد ابن عمرو ابن عوف ، ورجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له مخشى ابن حمير يسيرون مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو منطلق إلى تبوك ؛ فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال .. إرجافا وترهيبا للمؤمنين . فقال مخشى ابن حمير : والله لوددت أن أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وأننا ننجو أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه . وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنى لعمار ابن ياسر « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا ، فاسألهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا » فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعتذرون إليه ، فقال وديعة ابن ثابت ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - واقف على راحلته ، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يارسول الله إنما كنا نخوض ونلعب . فقال مخشى ابن حمير : يارسول الله قعد بى اسمى واسم أبى . فكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشى ابن حمير ، فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله أن يقتل شهيدا لايعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : « بينا رسول الله - صلى الله

Marfat.com

عليه وسلم – فى غزوته إلى تبوك ،وبين يديه أناس من المنافقين . فقالوا : أيرجو هذا الرجل أن يفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيهات هيهات . فأطلع الله نبيه – صلى الله عليه وسلم – على ذلك . فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – « احبسوا على هؤلاء الركب » فأتاهم فقال : قلتم كذا . قلتم كذا . قالوا : يانبي الله إنما كنا نخوض ونلعب. فأنزل الله فيهم ماتسمعون .

إنما كنا نخوض ونلعب .. كأن هذه المسائل الكبرى التي يتصدون لها ، وهي ذات صلة وثيقة بأصل العقيدة . . كأن هذه المسائل مما يخاض فيه ويلعب . « قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ » .

لذلك ، لعظم الجريمة ، يجبههم بأنهم قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إيمانهم الذى أظهروه ، وينذرهم بالعذاب ، الذى إن تخلف عن بعضهم لمسارعته إلى التوبة وإلى الإيمان الصحيح ، فإنه لن يصرف عن بعضهم الذى ظل على نفاقه واستهزائه بآيات الله ورسوله ، وبعقيدته ودينه :

« بأنهم كانوا مجرمين » .

* * *

وعندما يصل السياق إلى هذا الحد فى استعراض تلك النماذج من أقوال المنافقين وأعمالهم وتصوراتهم ، يعمد إلى تقرير حقيقة المنافقين بصفة عامة ، وعرض الصفات الرئيسية التى تميزهم عن المؤمنين الصادقين ، وتحديد العذاب الذى ينتظرهم أجمعين :

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم . نسوا الله فنسيهم . إن المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ؛ هى حسبهم ، ولعنهم الله ، ولهم عذاب مقيم » .

المنافقون والمنافقات من طينة واحدة ، وطبيعة واحدة . المنافقون فى كل زمان وفى كل مكان . تختلف أفعالهم وأقوالهم ، ولكنها ترجع إلى طبع واحد ، وتنبع من معين واحد . سوء الطوية ولؤم السريرة ، والغمز والدس ، والضعف عن المواجهة ، والجبن عن المصارحة . تلك سماتهم الأصيلة . أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء

Marfat.com

الناس . وهم حين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف يستخفون بهما ، ويفعلون ذلك دسا وهمسا ، وغمزا ولمزا ، لأنهم لايجرؤون على الجهر إلا حين يأمنون . إنهم « نسوا الله » فلا يحسبون إلا حساب الناس وحساب المصلحة ، ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس يذلون لهم ويداورونهم « فنسيهم » الله فلا وزن لهم ولااعتبار . وإنهم لكذلك فى الدنيا بين الناس ، وإنهم لكذلك فى الآخرة عند الله . وما يحسب الناس حسابا إلا للرجال الأقوياء الصرحاء ، الذين يجهرون بآرائهم ، ويقفون خلف عقائدهم ، ويواجهون الدنيا بأفكارهم ، ويحاربون أو يسالمون فى وضح النهار . أولئك ينسون الناس ليذكروا إله الناس ، فلا يخشون فى الحق لومة لائم ، وأولئك يذكرهم الله فيذكرهم الناس ويحسبون حسابهم .

« إن المنافقين هم الفاسقون » . .

فهم خارجون عن الإيمان ، منحرفون عن الطريق ، وقد وعدهم الله مصيرا كمصير الكفار :

« وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ؛ هى حسبهم » .

وفيها كفايتهم وهى كفاء إجرامهم .

« ولعنهم الله » . .

فهم مطرودون من رحمته . .

« ولهم عذاب مقيم » . .

* * *

هذه الطبيعة الفاسقة المنحرفة الضالة ، ليست جديدة ، ففى تاريخ البشرية لها نظائر وأمثال. ولقد حوى تاريخ البشرية من قبل هؤلاء نماذج كثيرة من هذا الطراز . ولقد لاقى السابقون مصائر تليق بفسوقهم عن الفطرة المستقيمة والطريق القويمة ، بعد ما استمتعوا بنصيبهم المقدر لهم فى هذه الأرض . وكانوا أشد قوة وأكثر أموالا وأولادا فلم يغن عنهم من ذلك كله شىء .

والقرآن يذكر القوم بما كان من أسلافهم ، ويبصرهم بأنهم يسلكون طريقهم ، ويحذرهم أن يلاقوا مصيرهم . لعلهم يهتدون :

Marfat.com

« كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا ، فاستمتعوا بخلاقهم . فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، وخضتم كالذي خاضوا . أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون » .

إنها الفتنة بالقوة ، والفتنة بالأموال والأولاد . فأما الذين اتصلت قلوبهم بالقوة الكبرى فهم لايفتنون بالقوة العارضة التي تخوّل لهم في الأرض ، لأنهم يخشون من هو أقوى ، فينفقون قوتهم في طاعته وإعلاء كلمته . وهم لايفتنون بالأموال والأولاد ، لأنهم يذكرون من أنعم عليهم بالأموال والأولاد ، فيحرصون على شكر نعمته ، وتوجيه أموالهم وأولادهم إلى طاعته .. وأما الذين انحرفت قلوبهم عن مصدر القوة والنعمة فهم يبطرون ويفجرون في الأرض ، ويتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام :

« أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة » . .

وبطلت بطلانا أساسيا ، لأنها كالنبتة بلا جذور ، لا تستقر ولا تنمو ولا تزدهر .

« وأولئك هم الخاسرون » . .

الذين خسروا كل شيء على وجه الإجمال بلا تحديد ولا تفصيل .

ويلتفت السياق من خطابهم إلى خطاب عام ، كأنما يعجب من هؤلاء الذين يسيرون في طريق الهالكين ولا يعتبرون :

« ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ؟ أتتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » . .

هؤلاء الذين يستمتعون غير شاعرين ، ويسيرون في طريق الهلكى ولا يتعظون .. هؤلاء « ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم » ممن ساروا في نفس الطريق ؟ « قوم نوح » وقد غمرهم الطوفان وطواهم اليم في تيار الفناء المرهوب « وعاد » وقد أهلكوا بريح صرصر عاتية « وثمود » وقد أخذتهم الصيحة « وقوم إبراهيم » وقد أهلك طاغيتهم المتجبر وأنجى إبراهيم « وأصحاب مدين » وقد أصابتهم الرجفة وخنقتهم الظلة « والمؤتفكات » قرى قوم لوط وقد قطع الله دابرهم إلا الأقلين .. ألم يأتهم نبأ هؤلاء الذين « أتتهم رسلهم بالبينات » فكذبوا بها ، فأخذهم الله بذنوبهم :

Marfat.com

« فما كان الله ليظلمهم ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون »؟

إن النفس المنحرفة تبطرها القوة فلا تذكر ، وتعميها النعمة فلا تنظر . وما تنفع عظات الماضى ولا عبره إلا من تتفتح بصائرهم لإدراك سنة الله التى لا تتخلف، ولا تتوقف ،ولا تحابى أحدا من الناس . وإن كثيرا ممن يبتليهم الله بالقوة وبالنعمة لتغشى أبصارهم وبصائرهم غشاوة ، فلا يبصرون مصارع الأقوياء قبلهم ، ولا يستشعرون مصير البغاة الطغاة من الغابرين . عندئذ تحق عليهم كلمة الله ، وعندئذ تجرى فيهم سنة الله ، وعندئذ يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . وهم فى نعمائهم يتقلبون ، وبقوتهم يتخايلون . والله من ورائهم محيط .

إنها الغفلة والعمى والجهالة نراها تصاحب القوة والنعمة والرخاء ، نراها فى كل زمان وفى كل مكان . إلا من رحم الله من عباده المخلصين .

* * *

وفى مقابل المنافقين والـكفار ، يقف المؤمنون الصادقون . طبيعة غير الطبيعة ، وسلوكا غير السلوك ، ومصيرا غير المصير :

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنـكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله . أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم . وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر . ذلك هو الفوز العظيم » . .

إذا كان المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض . إذا كانوا جبلة واحدة وطبيعة واحدة . . فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . إن المنافقين والمنافقات مع وحدة طبيعتهم لا يبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض . فالولاية تحتاج إلى شجاعة وإلى نجدة وإلى تعاون وإلى تكاليف. وطبيعة النفاق تأبى هذا كله ولو كان بين المنافقين أنفسهم . إن المنافقين أفراد ضعاف مهازيل ، وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة ، على ما يبدو بينهم من تشابه فى الطبيعة والخلق والسلوك . والتعبير القرآنى الدقيق لا يغفل هذا المعنى فى وصف هؤلاء وهؤلاء . .

« المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض » . .

Marfat.com

« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » .

إن طبيعة المؤمن هى طبيعة الأمة المؤمنة . طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل، وطبيعة التضامن، ولكنه التضامن فى تحقيق الخير ودفع الشر :

« يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » . . وتحقيق الخير ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون . ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفا واحدا . لا تدخل بينها عوامل الفرقة . وحيثما وجدت الفرقة فى الجماعة المؤمنة فثمة ولابد عنصر غريب عن طبيعتها ، وعن عقيدتها ، هو الذى يدخل بالفرقة . ثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى ويدفعها . السمة التى يقررها العليم الخبير !

« بعضهم أولياء بعض » . . يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإعلاء كلمة الله ، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة فى الأرض .

« ويقيمون الصلاة » . .

الصلة التى تربطهم بالله .

« ويؤتون الزكاة » . .

الفريضة التى تربط بين الجماعة المسلمة ، وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن .

« ويطيعون الله ورسوله » . .

فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله ، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله . ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله ، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله .. وبذلك يوحدون نهجهم ويوحدون هدفهم ويوحدون طريقهم ، فلا تتفرق بهم السبل عن الطريق الواحد الواصل المستقيم .

« أولئك سيرحمهم الله » . .

والرحمة لا تكون فى الآخرة وحدها ، إنما تكون فى هذه الأرض أولا . ورحمة الله تشمل الفرد الذى ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؛

Marfat.com

وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح . رحمة الله فى اطمئنان القلب ، وفى الاتصال بالله ، وفى الرعاية والحماية من الفتن والأحداث . ورحمة الله فى صلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة واطمئنانه لرضاء الله .

إن هـذه الصفات الأربع فى المؤمنين : الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة، لتقابل من صفات المنافقين : الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف ونسيان الله وقبض الأيدى .. وإن رحمة الله للمؤمنين لتقابل لعنته للمنافقين والكفار .. وإن تلك الصفات لهى التى وعـد الله المؤمنين عليها بالنصر والتمكين فى الأرض ليحققوهـا فى وصايتهم الرشيدة على البشرية :

« إن الله عزيز حكيم » ..

قادر على إعزاز الفئة المؤمنة ليكون بعضها أولياء بعض فى النهوض بهذه التكاليف ، حكيم فى تقدير النصر والعزة لها ، لتصلح فى الأرض ، وتحرس كلمة الله بين العباد .

وإذا كان عذاب جهنم ينتظر المنافقين والكافرين ، وكانت لعنته لهم بالمرصاد ، وكان نسيانه لهم يدمغهم بالضآلة والحرمان . فإن نعيم الجنة ينتظر المؤمنين :

« جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن » ..

للإقامة المطمئنة . ولهم فوقها ماهو أكبر وأعظم :

« ورضوان من الله أكبر » ..

وإن الجنة بكل مافيها من نعيم لتتضاءل وتتوارى فى هالات ذلك الرضوان الكريم .

« ورضوان من الله أكبر » ..

إن لحظة اتصال بالله . لحظة شهود جلاله . لحظة انطلاق من حبسة هذه الأمشاج ، ومن ثقلة هذه الأرض وهمومها القريبة . لحظة تنبثق فيها فى أعماق القلب البشرى شعاعة من ذلك النور الذى لاتدركه الأبصار . لحظة إشراق تنير فيها حنايا الروح بقبس من روح الله .. إن لحظة واحدة من هذه اللحظات التى تتفق للندرة القليلة من البشر فى ومضة صفاء ، لتتضاءل

Marfat.com

إلى جوارها كل متاع، وكل رجاء. فكيف برضوان من الله يغمر هذه الأرواح، وتستشعره بدون انقطاع؟

« ذلك هو الفوز العظيم » ..

* * *

وبعد بيان صفة المؤمنين الصادقين وصفة المنافقين الذين يدّعون الإيمان .. يأمر الله نبيه أن يجاهد الكفار والمنافقين. ويقرر القرآن الكريم أن هؤلاء المنافقين قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم، وهموا بأمر خيبهم الله فيه، وهو من وحى الكفر الذى صاروا إليه. ويعجب من نقمتهم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وما كان لهم من بعثته إلا الخير والغنى. ويرغبهم فى التوبة ويخوفهم التمادى فى الكفر والنفاق:

« يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم، ومأواهم جهنم وبئس المصير. يحلفون بالله ماقالوا، ولقد قالوا كلمة الكفر، وكفروا بعد إسلامهم، وهموا بما لم ينالوا. وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله. فإن يتوبوا يك خيرا لهم، وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة، ومالهم فى الأرض من ولى ولا نصير » ..

لقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - لاين المنافقين كثيرا، وأغضى عنهم كثيرا، وصفح عنهم كثيرا .. فهاهو ذا يبلغ الحلم غايته، وتبلغ السماحة أجلها، ويأمره ربه أن يبدأ معهم خطة جديدة، ويلحقهم بالكافرين فى النص، ويكلفه جهاد هؤلاء وهؤلاء جهادا عنيفا غليظا لا رحمة فيه ولا هوادة.

إن للين مواضعه وللشدة مواضعها. فإذا انتهى أمد اللين فلتكن الشدة؛ وإذا انقضى عهد المصابرة فليكن الحسم القاطع .. وللحركة مقتضياتها، وللمنهج مراحله. واللين فى بعض الأحيان قد يؤذى، والمطاولة قد تضر.

وقد اختلف فى الجهاد والغلظة على المنافقين. أتكون بالسيف كما روى عن على - كرم الله وجهه - واختاره ابن جرير - رحمه الله - أم تكون فى المعاملة والمواجهة وكشف خبيئاتهم للأنظار كما روى عن ابن عباس - رضى الله عنه - والذى وقع - كما سيجىء - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يقتل المنافقين.

Marfat.com

« يحلفون بالله ماقالوا . ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا » . .

والنص فى عمومه يستعرض حالة المنافقين فى كثير من مواقفهم ، ويشير إلى ما أرادوه مرارا من الشر للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمسلمين.. وهناك روايات تحدد حادثة خاصة لسبب نزول الآية:

قال قتادة : نزلت فى عبد الله بن أبى . وذلك أنه اقتتل رجلان جهنى وأنصارى ، فعلا الجهنى على الأنصارى ، فقال عبد الله للأنصارى : ألا تنصرون أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ماقاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية .

وروى الإمام أبو جعفر ابن جرير بإسناده عن ابن عباس قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالسا تحت ظل شجرة ، فقال : « إنه سيأتيكم إنسان ، فينظر إليكم بعين الشيطان ، فإذا جاء فلا تكلموه » . فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ » فانطلق الرجل فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ماقالوا ، حتى تجاوز عنهم ، فأنزل الله عز وجل : « يحلفون بالله ماقالوا ... الآية » .

وروى عن عروة ابن الزبير وغيره مامؤداه: أنها نزلت فى الجلاس ابن سويد ابن الصامت . كان له ربيب من امرأته اسمه عمير بن سعد ، فقال الجلاس : إن كان ماجاء به محمد حقا فنحن أشر من حمرنا هذه التى نحن عليها . فقال عمير : والله ياجلاس إنك لأحب الناس إلى ، وأحسنهم عندى بلاء ، وأعزهم على أن يصله شىء يكرهه ؛ ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنى ، ولئن كتمتها لتهلكنى ، ولإحداها أهون علىّ من الأخرى . فأخبر بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنكرها وحلف بالله ماقالها ، فأنزل الله الآيات . فقال الرجل قد قلته ، وقد عرض الله على التوبة ، فأنا أتوب ، فقبل منه ذلك ..

ولكن هذه الروايات لاتنسجم مع عبارة : « وهموا بما لم ينالوا » وهذه تتضافر الروايات

Marfat.com

على أن المعنيّ بها ما أراده جماعة من المنافقين فى أثناء العودة من الغزوة ، من قتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غيلة وهو عائد من تبوك . فنختار إحداها :

قال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ حدثنا يزيد أخبرنا الوليد ابن عبد الله ابن جميع عن أبى الطفيل قال : لما أقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غزوة تبوك أمر مناديا فنادى : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذ العقبة (١) ، فلا يأخذها أحد . فبينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل ، فغشوا عمارا وهو يسوق برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأقبل عمار ـ رضى الله عنه ـ يضرب وجوه الرواحل ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحذيفة « قد . قد . » حتى هبط رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ورجع عمار . فقال ياعمار : « هل عرفت القوم ؟ » فقال : لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون . قال : « هل تدرى ما أرادوا ؟ » قال : الله ورسوله أعلم . قال : « أرادوا أن ينفروا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ راحلته فيطرحوه » قال : فسأل عمار رجلا من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : نشدتك بالله ، كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال : أربعة عشر رجلا . فقال : إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر . قال : فعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم ثلاثة قالوا : والله ماسمعنا منادى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما علمنا ما أراد القوم . فقال عمار : أشهد أن الاثنى عشر الباقين حرب لله ولرسوله فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

هذه الحادثة تكشف عن دخيلة القوم . وسواء كانت هى أو شىء مثلها هو الذى تعنيه الآية ، فإنه ليبدو عجيبا أن تنطوى صدور القوم على مثل هذه الخيانة . والنص يعجب هنا منهم :

« وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » . .

فما من سيئة قدمها الإسلام لهم ينقمون عليه هذه النقمة من أجلها . . اللهم إلا أن يكون الغنى الذى غمرهم بعد الإسلام ، والرخاء الذى أصابهم بسببه هو ما ينقمون !

(١) مرتفع فى الطريق ضيق .

Marfat.com

ثم يعقب على هذا التعجيب من أمرهم ، بعد كشف خبيئاتهم بالحكم الفاصل :

« فإن يتوبوا يك خيرا لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة ، وما لهم فى الأرض من ولى ولا نصير » . .

بعد هـذا كله يظل باب التوبة مفتوحا على مصراعيه . فمن شاء لنفسه الخير فليدلف إلى الباب المفتوح . ومن أراد أن يمضى فى طريقه الأعوج ، فالعاقبـة كذلك معروفة : العذاب الأليم فى الدنيا والآخرة . وانعدام الناصر والمعين فى هـذه الأرض . . ولمن شاء أن يختار ، وهو وحده الملوم :

« فإن يتوبوا يك خيرا لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة ، وما لهم فى الأرض من ولى نصير » . .

* * *

ثم يمضى السياق فى عرض نمـاذج من المنافقين وأحوالهم وأقوالهم من قبـل الغزوة وفى ثناياها .

« ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنـكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ماوعدوه وبما كانوا يكذبون » .

من المنافقين من عاهد الله لئن أنعم الله عليه ورزقه ، ليبذلن الصدقة ، وليصلحن العمل . ولـكن هذا العهد إنما كان فى وقت فقره وعسرته . فى وقت الرجاء والطمع . فلما أن استجاب الله له ورزقه من فضله نسى عهده ، وتنكر لوعده ، وأدركه الشح والبخل فقبض يده ، وتولى معرضا عن الوفاء بما عاهد . فـكان هذا النكث بالعهد مع الـكذب على الله فيه سببا فى التمكين للنفاق فى قلبه ، والموت مع هذا النفاق ، ولقاء الله به .

والنفس البشرية ضعيفة شحيحة ، إلا من عصم الله ؛ ولا تطهر من هذا الشح إلا أن تعمر بالإيمان ، وترتفع على ضرورات الأرض ، وتنطلق من قيود الحرص على النفع القريب ، لأنها تؤمل فى خلف أعظم ، وتؤمل فى رضوان من الله أكبر . والقلب المؤمن يطمئن بالإيمان ، فلا يخشى

Marfat.com

الفقر بسبب الإنفاق ، لأنه يثق بأن ماعنـد الناس ينفد وما عند الله باق . وهـذا الاطمئنان يدفع به إلى إنفاق المال فى سبيل الله تطوعا ورضى وتطهرا، وهو آمن مغبته . حتى لو فقد المال وافتقر منه ، فإن له عوضا أعظم عند الله .

فأما حين يقفر القلب من الإيمان الصحيح ، فالشح الفطرى يهيج فى نفسه كلما دعى إلى نفقة أو صدقة ، والخوف من الفقر يتراءى له فيقعد به عن البذل . ثم يبقى سجين شحه وخوفه بلا أمن ولا قرار .

والذى يعاهد الله ثم يخلف العهد ، والذى يكذب على الله فلا يفى بما وعد ، لايسلم قلبه من النفاق : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » (١)

فلا جرم يعقب إخلاف العهد والـكذب على الله نفاقا دائما فى قلوب تلك الطائفة التى تشير إليها الآية :

« فأعقبهم نفـاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بمـا أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يـكذبون » . .

« ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب » ؟

ألم يعلموا ــ وهم يدعون الإيمان ــ أن الله مطلع على السرائر ، عالم بمـا يدور بينهم من أحاديث ، يحسبونها سرا بينهم لأنهم يتناجون بها فى خفية عن الناس ؟ وأن الله يعلم الغيب الخافى المستور ، فيعلم حقيقة النوايا فى الصدور ؟ ولقد كان من مقتضى علمهم بهذا ، ألا يستخفوا عن الله بنية ، وألا تحدثهم نفوسهم بإخلاف ماعاهدوا الله عليه ، والـكذب عليه فى إعطاء العهود .

وقد وردت روايات عن سبب نزول الآيات الثلاثة ، نذكر منها رواية عن ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث معان ــ بإسناده ــ عن أبى أمامة الباهلى عن ثعلبة ابن حاطب الأنصارى أنه قال لرسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ادع الله أن يرزقنى مالا . قال : فقال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه » قال : ثم قال مرة أخرى . فقال : « أما ترضى أن تكون مثل نبى الله فوالذى نفسى بيده لو شئت أن تسير

(١) ورد فى الصحيحين .

Marfat.com

الجبال معى ذهبا وفضة لسارت » قال : والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقنى مالا لأعطين كل ذى حق حقه . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « اللهم ارزق ثعلبة مالا » قال : فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود ، فضاقت المدينة ، فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها ، حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ماسواهما ، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهى تنمى كما ينمى الدود حتى ترك الجمعة ، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « مافعل ثعلبة ؟ » فقالوا يارسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة ، فأخبروه بأمره ، فقال : « ياويح ثعلبة ! ياويح ثعلبة ! ياويح ثعلبة ! » وأنزل الله جل ثناؤه : « خذ من أموالهم صدقة » . . الآية . . ونزلت فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلين على الصدقة من المسلمين . رجلا من جهينة ورجلا من سليم ، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين ؛ وقال لهما : « مرا بثعلبة وبفلان ـ رجل من بنى سليم ـ فخذا صدقاتهما . فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ماهذه إلا جزية . ماهذه إلا أخت الجزية . ماأدرى ماهذا؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلىّ . وسمع بهما السلمى ، فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها، فلما رأوها قالوا : مايجب عليك هذا ، وما نريد أن نأخذ هذا منك . فقال : بل فخذوها فإن نفسى بذلك طيبة وإنما هى له ، فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات . ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أرونى كتابكما فقرأه فقال : ما هذه إلا جزية ، ماهذه إلا أخت الجزية . انطلقا حتى أرى رأيى . فانطلقا حتى أتيا النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رآهما قال : « ياويح ثعلبة » قبل أن يكلمهما ، ودعا للسلمى بالبركة ، فأخبراه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السلمى . فأنزل الله عز وجل « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن . . . » الآية . وعند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجل من أقارب ثعلبة فسمع بذلك ، فخرج حتى أتاه ، فقال : ويحك ياثعلبة ! أنزل الله فيك كذا وكذا ؛ فخرج ثعلبة حتى أتى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسأله أن يقبل منه صدقته ، فقال : « إن الله منعنى أن أقبل منك صدقتك » فجعل يحثو على رأسه التراب ، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعنى » فلما أبى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقبض صدقته رجع إلى منزله ؛ فقبض

Marfat.com

رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ ولم يقبل منـه شيئا . ثم أتى أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ حين استخلف ، فقال : قدعلمت منزلتي من رسول الله وموضعي من الأنصار فاقبل صدقتي؛ فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبى أن يقبلها ؛ فقبض أبو بكر ولم يقبلها . فلما ولي عمر ـ رضي الله عنه ـ أتاه فقال : ياأمير المؤمنين اقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أبو بكر ، وأنا أقبلها منك ؟ فقبض ولم يقبلها . فلما ولي عثمان ـ رضي الله عنه ـ أتاه فقال : اقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أبو بكر ولا عمر ، وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه . فهلك ثعلبة في خلافة عثمان . .

وسواء كانت هذه الواقعة مصاحبة لنزول الآيات أو كان غيرها ، فإن النص عام ، وهو يصور حالة عامة ، ويرسم نموذجا مكررا للنفوس التي لم تستيقن ، ولم يبلغ الإيمان فيها أن يتمكن . وإذا كانت الرواية صحيحة في ربط الحادثة بنزول الآيات ، فإن علم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن نقض العهد والكذب على الله قد أورث المخلفين نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه ، يكون هو الذي منعه من قبول صدقة ثعلبة وتوبته التي ظهر بها ، ولم يعامله بالظاهر حسب الشريعة . إنما عامله بعلمه بحاله الذي لاشك فيه ، لأنه إخبار من العليم الخبير . وكان تصرفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تصرفا تأديبيا برد صدقته . مع عدم اعتباره مرتدا فيؤخذ بعقوبة الردة ولا مسلما فتقبل منه زكاته . ولا يعني هذا إسقاط الزكاة عن المنافقين شريعة . إن الشريعة تأخذ الناس بظاهرهم . فيما ليس فيه علم يقيني ، كالذي كان في هذا الحادث الخاص ، فلا يقاس عليه .

غير أن رواية الحادث تكشف لنا كيف كان المسلمون الأوائل ينظرون إلى الزكاة المفروضة . إنهم كانوا يحتسبونها نعمة عليهم ، من يحرم أداءها أو يحرم قبولها منه ، فهو الخاسر الذي يستحق الترحم مما أصابه من رفض زكاته ! مدركين لحقيقة المعنى الكامن في قوله تعالى :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » . .

Marfat.com

فكانت لهم غنما ينالونه لا غرما يحملونه . وهذا هو الفارق بين فريضة تؤدى ابتغاء رضوان الله وضريبة تدفع لأن القانون يحتمها ويعاقب عليها الناس !

* * *

والآن يعرض السياق لونا آخر من تصورات المنافقين للزكاة يخالفون به ذلك التصور الحق عند المؤمنين الصادقين ؛ ويكشف عن لون من طبيعة الغمز فيهم واللمز ، النابعين من طبعهم المنحرف المدخول :

« الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم ، فيسخرون منهم . سخر الله منهم ولهم عذاب أليم » ..

والقصة المروية عن سبب نزول هذه الآية ، تصور نظرة المنافقين المنحرفة لطبيعة الإنفاق فى سبيل الله وبواعثه فى النفوس .

أخرج ابن جرير من طريق يحي ابن أبى كثير ، ومن طريق سعيد عن قتادة وابن أبى حاتم من طريق الحكم ابن أبان عن عكرمة ـ بألفاظ مختلفة ـ قال : حث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الصدقة (يعنى فى غزوة تبوك) فجاء عبد الرحمن ابن عوف بأربعة آلاف فقال : يارسول الله مالى ثمانية آلاف ، جئتك بنصفها وأمسكت نصفها . فقال : « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » . وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال : يارسول الله أصبت صاعين من تمر صاع أقرضه لربى وصاع لعيالى . قال: فلمزه المنافقون ، وقالوا : ماالذى أعطى ابن عوف إلا رياء . وقالوا : ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟

وفى روايات أخرى أنهم قالوا عن أبى عقيل ، وهو الذى بات يعمل ليحصل على صاعين أجرا له ، جاء بأحدهما لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه إنما أراد أن يذكر بنفسه !

وهكذا تقولوا على المؤمنين الذين انبعثوا إلى الصدقة عن طواعية نفس ، ورضا قلب ، واطمئنان ضمير ، ورغبة فى المساهمة فى الجهاد كل على قدر طاقته ، وكل على غاية جهده . ذلك أنهم لايدركون بواعث هذا التطوع فى النفوس المؤمنة . لايدركون حساسية الضمير التى لا تهدأ إلا بالبذل عن طيب خاطر . لايدركون المشاعر الرفرافة التى تنبعث انبعاثا ذاتيا ، لتلبى دواعى الإيمان والتضحية والمشاركة . من أجل هذا يقولون عن المكثر : إنه يبذل رياء ، وعن

Marfat.com

القل ! إنه يذكر بنفسه . يجرحون صاحب الكثير لأنه يبذل كثيرا ، ويحتقرون صاحب القليل لأنه يبذل القليل . فلا يسلم من تجريحهم وعيبهم أحد من الخيرين . ذلك وهم قاعدون متخلفون منقبضو الأيدى شحيحو الأنفس، لاينفقون إلا رياء ، ولا يدركون من بواعث النفوس إلا مثل هذا الباعث الصغير الحقير .

ومن ثم يجيبهم الرد الحاسم الجازم :

« سخر الله منهم ولهم عذاب أليم » ..

ويالهولها سخرية . ويالهولها عاقبة . فمن شرذمة صغيرة هزيلة من البشر الضعاف الفانين وسخرية الخالق الجبار تنصب عليهم وعذابه يترقبهم ؟ ! ألا إنه للهول المفزع الرهيب !

« استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم . ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لايهدى القوم الفاسقين » ..

هؤلاء المنافقون الذين يلمزون المتطوعين بالصدقات على هذا النحو ، قد تقرر مصيرهم . فما عاد يتبدل :

« فلن يغفر الله لهم » ..

لن يجديهم استغفار . فإنه وعدم الاستغفار لهم سواء .

ويبدو أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — كان يستغفر للمخطئين عسى أن يتوب الله عليهم فأما هؤلاء فقد أخبر بأن مصيرهم قد تقرر ، فلا رجعة فيه :

« ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله » .. « والله لايهدى القوم الفاسقين » ..

أولئك الذين انحرفوا عن الطريق فلم تعد ترجى لهم أوبة . وفسدت قلوبهم فلم يعد يرجى لها صلاح ..

« إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » ..

والسبعون تذكر عادة للتكثير ، لاعلى أنها رقم محدد . والمعنى العام أن لا رجاء لهم فى مغفرة ، لأنه لا سبيل لهم إلى توبة . والقلب البشرى حين يصل إلى حد معين من الفساد لايصلح ، والضلال حين ينتهى إلى أمد معين لايرجى بعده اهتداء . والله أعلم بالقلوب .

* * *

Marfat.com

وينتقل السياق - مرة أخرى - إلى الحديث عن المتخلفين عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى غزوة تبوك :

« فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، وقالوا : لاتنفروا فى الحر . قل : نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون . فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل : لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا . إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين . ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون . ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون » . . .

هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض . ثقلة الحرص على الراحة ، والشح بالنفقة . وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة ، وخواء القلب من الإيمان . . هؤلاء المخلفون - والتعبير يلقى ظل الإهمال كما لو كانوا متاعا يخلف أو همَلا يترك - فرحوا بالسلامة والراحة « خلاف رسول الله » وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد، وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال! « وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله » . . « وقالوا : لاتنفروا فى الحر » وهى قولة المسترخى الناعم الذى لايصلح لشىء مما يصلح له الرجال .

إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة ، وطراوة الإرادة ؛ وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب ، وينفرون من الجهد ، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم ، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز . وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات . ولكن هذه الصفوف تظل فى طريقها المملوء بالعقبات والأشواك ، لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة فى الإنسان ، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التى لا تليق بالرجال .

والنص يرد عليهم بالتهكم المنطوى على الحقيقة :

« وقالوا : لاتنفروا فى الحر . قل : نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون » .

Marfat.com

فإن كانوا يشفقون من حر الأرض ، ويؤثرون الراحة المسترخية فى الظلال . فكيف بهم فى حر جهنم وهى أشد حرا ، وأطول أمدا ؟ وإنها لسخرية مريرة ، ولكنها كذلك حقيقة . فإما كفاح فى سبيل الله فترة محدودة فى حر الأرض ، وإما انطراح فى جهنم لا يعلم مداه إلا الله :

« فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون » . .

وإنه لضحك فى هذه الأرض وأيامها المعدودة ، وإنه لبكاء فى أيام الآخرة الطويلة . وإن يوما عند ربك كألف سنة مما يعدون .

« جزاء بما كانوا يكسبون » . .

فهو الجزاء من جنس العمل ، وهو الجزاء العادل الدقيق .

هؤلاء الذين آثروا الراحة على الجهد — فى ساعة العسرة — وتخلفوا عن الركب فى أول مرة . هؤلاء لا يصلحون لكفاح ، ولا يُرجون لجهاد ، ولا يجوز أن يؤخذوا بالسماحة والتغاضى ، ولا أن يتاح لهم شرف الجهاد الذى تخلوا عنه راضين :

« فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل : لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ، فاقعدوا مع الخالفين » . .

إن الدعوات فى حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد فى الكفاح الطويل الشاق . والصف الذى يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد لأنهم يخذلونه فى ساعة الشدة فيشيعون فيه الخذلان والضعف والاضطراب . فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيدا عن الصف وقاية له من التخلخل والهزيمة . والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف فى ساعة الشدة ، ثم يعودون إليه فى ساعة الرخاء ، جناية على الصف كله ، وعلى الدعوة التى يكافح فى سبيلها كفاحه المرير . .

« فقل : لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا »

لماذا ؟ .

« إنكم رضيتم بالقعود أول مرة » . .

Marfat.com

ففقدتم حقكم فى شرف الخروج ، وشرف الانتظام فى الكتيبة ، والجهاد عبء لا ينهض به إلا من هم له أهل . فلا سماحة فى هذا ولا مجاملة :

« فاقعدوا مع الخالفين » ..

المتجانسين معكم فى التخلف والقعود .

هذا هو الطريق الذى رسمه الله تعالى لنبيه الكريم ، وإنه لطريق هذه الدعوة ورجالها أبدا . فليعرف أصحابها فى كل زمان وفى كل مكان ذلك الطريق ..

وكما أمر الله رسوله - صلى الله عليه وسلم - بألا يسمح للمتخلفين فى ساعة العسرة أن يعودوا فينتظموا فى الصفوف ، كذلك أمره ألا يخلع عليهم أى ظلال من ظلال التكريم :

« ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره . إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » .

ولقد ذكر المفسرون حوادث خاصة عنتها هذه الآية . ولكن دلالة الآية أعم من الحوادث الخاصة . فهى تقرر أصلا من أصول التقدير فى نظام الجماعة المكافحة فى سبيل العقيدة ، هو عدم التسامح فى منح مظاهر التكريم لمن يؤثرون الراحة المسترخية على الكفاح الشاق ؛ وعدم المجاملة فى تقدير منازل الأفراد فى الصف . ومقياس هذا التقدير هو الصبر والثبات والقوة والإصرار والعزيمة التى لا تسترخى ولا تلين .

والنص يعلل هذا النهى فى موضعه هنا « إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون » وهو تعليل خاص بعدم الصلاة أو قيام الرسول - صلى الله عليه وسلم - على قبر منافق .. ولكن القاعدة - كما ذكرنا - أوسع من المناسبة الخاصة . فالصلاة والقيام تكريم . والجماعة المسلمة يجب الا تبذل هذا التكريم لمن يتخلف عن الصف فى ساعة الجهاد ، لتبقى له قيمته ، ولتظل قيم الرجال منوطة بما يبذلون فى سبيل الله ، وبما يصبرون على البذل ، ويثبتون على الجهد ، ويخلصون أنفسهم وأموالهم لله لا يتخلفون بهما فى ساعة الشدة ، ثم يعودون فى الصف مكرمين !

لا التكريم الظاهر ينالونه فى أعين الجماعة ، ولا التكريم الباطن ينالونه فى عالم الضمير :

Marfat.com

« ولا تعجبك أموالهم وأولادهم . إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون » . .

والمعنى العام للآية قد سبق فى السياق . أما مناسبة ورودها فتختلف . فالمقصود هنا ألا يقام وزن لأموالهم وأولادهم ، لأن الإعجاب بها نوع من التكريم الشعورى لهم . وهم لا يستحقونه لا فى الظاهر ولا فى الشعور . إنما هو الاحتقار والإهمال لهم ولما يملكون .

* * *

« وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم ، وقالوا : ذرنا نكن مع القاعدين : رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون . لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وأولئك لهم الخيرات ، وأولئك هم المفلحون ، أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ذلك الفوز العظيم » . .

إنهما طبيعتان .. طبيعة النفاق والضعف والاستخذاء . وطبيعة الإيمان والقوة والبلاء . وإنهما خطتان . . خطة الالتواء والتخلف والرضى بالدون . وخطة الاستقامة والبذل والكرامة .

فإذا أنزلت سورة تأمر بالجهاد جاء أولو الطول ، الذين يملكون وسائل الجهاد والبذل جاءوا لاليتقدموا الصفوف كما تقتضيهم المقدرة التى وهبها الله لهم ، وشكر النعمة التى أعطاها الله إياهم ، ولكن ليتخاذلوا ويعتذروا ويطلبوا أن يقعدوا مع النساء لا يذودون عن حرمة ولا يدفعون عن سكن . دون أن يستشعروا ما فى هذه القعدة الذليلة من صغار وهوان ، مادام فيها السلامة ، وطلاب السلامة لا يحسون العار ، فالسلامة هدف الراضين بالدون :

« رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » . .

« وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون » . .

ولو كانوا يفقهون لأدركوا ما فى الجهاد من قوة وكرامة وبقاء كريم ، وما فى التخلف من ضعف ومهانة وفناء ذميم .

« إن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة . وإن ضريبة الذل لأفدح فى كثير من الأحايين . وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق ، فتختار الذل

Marfat.com

والمهانة هربا من هذه التكاليف الثقال ، فتعيش عيشة تافهة رخيصة ، مفزعة قلقة ، تخاف من ظلها ، وتفرق من صداها ، يحسبون كل صيحة عليهم ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة . . هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة . إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة . يؤدونها من نفوسهم ، ويؤدونها من أقدارهم ، ويؤدونها من سمعتهم ، ويؤدونها من اطمئنانهم ، وكثيرا مايؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لايشعرون[1] » ومن هؤلاء . . أولئك الذين « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون » .

« لكن الرسول والذين آمنوا معه » . . وهم طراز آخر غير ذلك الطراز . . « جاهدوا بأموالهم وأنفسهم » . . فنهضوا بتكاليف العقيدة ، وأدوا واجب الإيمان ؛ وعملوا للعزة التي لاتنال بالقعود « وأولئك لهم الخيرات » . . خيرات الدنيا والآخرة ، في الدنيا لهم العزة ولهم الكرامة ولهم المغنم ولهم الكلمة العالية . وفي الآخرة لهم الجزاء الأوفى ، ولهم رضوان الله الكريم « وأولئك هم المفلحون » . . الفلاح في الدنيا بالعيش الكريم القويم والفلاح في الآخرة بالأجر العظيم : « أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها » . . « ذلك الفوز العظيم » . .

« وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ، سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم » . .

فاما الأولون فهم ذوو الأعذار الحقيقية فلهم عذرهم إن استأذنوا في التخلف ، وأما الآخرون فقعدوا بلا عذر . قعدوا كاذبين على الله والرسول . وهؤلاء ينتظر الذين كفروا منهم عذاب أليم . أما الذين يتوبون ولا يكفرون فسكوت عنهم لعل لهم مصيرا غير هذا المصير .

* * *

وأخيرا يحدد التبعة . فليس الخروج ضربة لازب على من يطيقون ومن لايطيقون . فالإسلام دين اليسر ولايكلف الله نفسا إلا وسعها . والذين عجزوا عن النفرة لاتثريب عليهم ولا مؤاخذة لهم ، لأنهم معذورون :

---

(١) من فصل ضريبة الذل في كتاب « دراسات إسلامية » .

Marfat.com

« ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لايجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله . ماعلى المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ماأتوك لتحملهم قلت لاأجد ماأحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون » .

ليس على الضعفاء العاجزين عن القتال لعلة فى تكوينهم ، أو لشيخوخة تقعدهم ؛ ولا على المرضى الذين لايستطيعون الحركة والجهد ؛ ولا على المعدمين الذين لايجدون مايتزودون به . . ليس على هؤلاء حرج إذا تخلفوا عن المعركة فى الميدان ، وقلوبهم مخلصة لله ورسوله ، لايغشون ولا يخدعون ، ويقومون بعد ذلك بما يستطيعونه ـ دون القتال ـ من حراسة أوصيانة أو قيام على النساء والذرية فى دار الإسلام ، أو أعمال أخرى تعود بالنفع على المسلمين . ليس عليهم جناح ، وهم يحسنون بقدر مايستطيعون ، فلا جناح على المحسنين . إنما الجناح على المسيئين .

ولا جناح كذلك على القادرين على الحرب ، ولكنهم لايجدون الرواحل التى تحملهم إلى أرض المعركة . فإذا حرموا المشاركة فيها لهذا السبب ، ألمت نفوسهم حتى لتفيض أعينهم دموعا ، لأنهم لايجدون ماينفقون .

وإنها لصورة مؤثرة للرغبة الصحيحة فى الجهاد ، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه . وإنها لصورة واقعة حفظتها الروايات عن جماعة من المسلمين فى عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تختلف الروايات فى تعيين أسمائهم ، ولكنها تتفق على الواقعة الصحيحة .

روى العوفى عن ابن عباس : « وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله ابن مغفل ابن مقوى المازنى ، فقالوا : يارسول الله احملنا ، فقال لهم : « والله لاأجد ماأحملكم عليه » فتولوا وهم يبكون ، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملا : فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم فى كتابه .

وقال مجاهد : نزلت فى بنى مقرن من مزينة .

وقال محمد ابن كعب كانوا سبعة نفر من بنى عمر ابن عوف : سالم ابن عوف ، ومن بنى واقف :

Marfat.com

حرمى ابن عمر ، ومن بنى مازن ابن النجار : عبد الرحمن ابن كعب ويكنى أبا ليلى ، ومن بنى المعلى : فضل الله ، ومن بنى سلمة : عمرو بن عتمة وعبد الله ابن عمرو المزنى .

وقال ابن إسحاق فى سياق غزوة تبوك : ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهم البا كون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بنى عمرو ابن عوف : سالم ابن عمير ، وعلبة ابن زيد أخو بنى حارثة ، وأبو ليلى عبد الرحمن ابن كعب أخو بنى مازن وعمرو ابن الحمام ابن الجموح أخو بنى سلمة ، وعبد الله ابن المغفل المزنى ، وبعض الناس يقول : بل هو عبد الله ابن عمرو المزنى وحرمى ابن عبد الله أخو بنى واقف وعياض ابن سارية الفزارى ، فاستحملوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكانوا أهل حاجة : فقال : « لا أجد ما أحملكم عليه» تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون . .

بمثل هذه الروح انتصر الإسلام ، وبمثل هذه الروح عزت كلمته . فلننظر أين نحن من هؤلاء . ولننظر أين روحنا من تلك العصبة . ثم لنطلب النصر والعزة إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر . وإلا فلنسدد ولنقارب والله المستعان .

انتهى الجزء العاشر
ويليه الجزء الحادى عشر مبدوءا بقوله تعالى :
« إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء »

Marfat.com

في ظلال القرآن

بقلم

سيد قطب

الجزء الحادي عشر

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

من بقية سورة التوبة وسورة يونس

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

يتألف هذا الجزء من بقية سورة التوبة - التي سبق الشطر الأكبر منها في الجزء العاشر - ومن سورة يونس . . وسنمضي أولا مع بقية سورة التوبة : أما سورة يونس فسنعرّف بها في موضعها من هذا الجزء إن شاء الله .

* * *

لقد جاء في الجزء العاشر عن سورة التوبة هذه الفقرات التي تكشف عن طبيعتها؛ وعن الملابسات والظروف التي أحاطت بنزولها ؛ وعن أهميتها في بيان العلاقات النهائية بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات الأخرى ؛ وفي بيان طبيعة المنهج الحركي للإسلام أيضا :

« هذه السورة مدنية ، من أواخر ما نزل من القرآن - إن لم تكن هي آخر ما نزل من القرآن - ومن ثم قد تضمنت أحكاما نهائية في العلاقات بين الأمة المسلمة وسائر الأمم في الأرض؛ كما تضمنت تصنيف المجتمع المسلم ذاته ، وتحديد قيمه ومقاماته ، وأوضاع كل طائفة فيه ، وكل طبقة من طبقاته ؛ ووصف واقع هذا المجتمع بجملته ، وواقع كل طائفة منه وكل طبقة وصفا دقيقا مصورا مبينا .

« والسورة - بهذا الاعتبار - ذات أهمية خاصة في بيان طبيعة المنهج الحركي للإسلام ومراحله وخطواته - حين تراجع الأحكام النهائية التي تضمنتها مع الأحكام المرحلية التي جاءت في السور قبلها - وهذه المراجعة تكشف عن مدى مرونة ذلك المنهج ، وعن مدى حسمه كذلك . وبدون هذه المراجعة تختلط هذه الصور والأحكام والقواعد ؛ كما يقع كلما انتزعت الآيات التي تتضمن أحكاما مرحلية فجعلت نهائية ؛ ثم أريد للآيات التي تتضمن الأحكام النهائية أن تفسر وتؤول لتطابق تلك الأحكام المرحلية ؛ وبخاصة في موضوع الجهاد الإسلامي ، وعلاقات المجتمع المسلم بالمجتمعات الأخرى . . . » .

* * *

Marfat.com

كذلك ذكرنا فى تقديم السورة أنها ذات مقاطع - مع وحدة موضوعها وجوها وملابساتها - يتولى كل مقطع بيان الأحكام النهائية فى موضوعه . . وقد تناول المقطع الأول منها بيان أحكام العلاقات النهائية بين المسلمين والمشركين فى الجزيرة العربية . كما تناول المقطع الثانى بيان أحكام العلاقات النهائية بين المسلمين وأهل الكتاب عامة . ثم تولى المقطع الثالث النعى على المتثاقلين الذين دعوا إلى التجهز لغزوة تبوك - أى غزو أهل الكتاب المتجمعين على أطراف الجزيرة للانقضاض على الإسلام والمجتمع الإسلامى - كما تولى المقطع الرابع فضح المنافقين وأفاعيلهم فى المجتمع المسلم ، ووصف أحوالهم النفسية والعملية ، ومواقفهم فى غزوة تبوك وقبلها وفى أثنائها وما تلاها ، وكشف حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم فى التخلف عن الجهاد ، وبث الضعف والفتنة والفرقة فى الصف المسلم ، وإيذاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والخلص من المؤمنين . يصاحب هذا الكشف تحذير الخلص من المؤمنين من كيد المنافقين ، وتحديد العلاقات بين هؤلاء وهؤلاء ، والمفاصلة بين الفريقين ، وتمييز كل منهما بصفاته وأعماله . . .

* * *

وهذه المقاطع الأربعة قد سبقت بجملتها فى الجزء العاشر . . إلا بقية فى الحديث عن المتخلفين ، وعن حدود التبعة فى التخلف عن الجهاد . .

ولقد كانت آخر آية فى الجزء التاسع هى قوله تعالى :

« ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون ، حرج إذا نصحوا لله ورسوله . ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت : لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون » . .

أما التكملة التى يبدأ بها هذا الجزء فهى قوله تعالى :

« إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وطبع الله على قلوبهم ، فهم لا يعلمون . يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم . قل لا تعتذروا ، لن نؤمن لكم ، قد نبأنا الله من أخباركم ، وسيرى الله عملكم ورسوله ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ؛ فأعرضوا عنهم

Marfat.com

إنهم رجس ، ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم ، فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » . .

وقد كان هذا من إنباء الله ـ سبحانه لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عما سيكون من حال المنافقين المتخلفين وأعذارهم إذا رجع من الغزوة سالماهو ومن معه من المسلمين الخلص ؛ وتوجيه له ولهم إلى ما يجب أن يجيبوهم به ، وما يجب أن يعاملوهم به كذلك .

***

بعد ذلك يجيء المقطع الخامس فى السورة وهو يتولى تصنيف المجتمع المسلم بجملته فى هذه الفترة ـ من الفتح إلى تبوك ـ ومنه نعلم ـ كما قلنا فى تقديم السورة ـ أنه كان إلى جوار السابقين المخلصين من المهاجرين والأنصار ـ وهم الذين كانوا يؤلفون قاعدة المجتمع المسلم الصلبة القوية ـ جماعات أخرى . . الأعراب ، وفيهم المخلصون والمنافقون . والمنافقون من أهل المدينة ، وآخرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ولم يتم انطباعهم بالطابع الإسلامى ، ولم يصهروا فى بوتقة الإسلام تماما . وطائفة مجهولة الحال لا تعرف حقيقة مصيرها ، متروك أمرها لله وفق ما يعلمه من حقيقة حالها ومآلها . ومتآمرون يتسترون باسم الإسلام ، ويدبرون المكائد ، ويتصلون بأعداء الإسلام فى الخارج . . والنصوص القرآنية تتحدث عن هذه الجماعات كلها فى اختصار مفيد ؛ وتقرر كيف تعامل فى المجتمع المسلم ؛ وتوجه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والخلص من المسلمين إلى طريقة التعامل مع كل منهم فى مثل هذه النصوص :

« الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله . والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ، ويتربص بكم الدوائر . عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم . ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول . ألا إنها قربة لهم ، سيدخلهم الله فى رحمته ، إن الله غفور رحيم » .

« والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم » . .

Marfat.com

« وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق ، لاتعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم » . .

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم . . . » .

« وآخرون مُرْجَوْن لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ، والله عليم حكيم » . .

« والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل ؛ وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لاتقم فيه أبدا ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين » . .

وسنحاول أن نتبين من هم المقصودون بكل فئة من هذه الفئات ، فى ثنايا استعراض النصوص فيما بعد تفصيلا .

* * *

فأما المقطع السادس والأخير فى السورة ، فيتضمن تقريرا لطبيعة البيعة الإسلامية مع الله سبحانه على الجهاد فى سبيله ؛ وطبيعة هذا الجهاد وحدوده وكيفيته ؛ وواجب أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب فيه . . كذلك يتضمن ضرورة المفاصلة الكاملة بين المسلمين ومن عداهم على أساس العقيدة وحدها ؛ وإقامة العلاقات بينهم وبين من عداهم على هذه الوشيجة دون سواها ، بما فى ذلك أهلهم وقرابتهم وعشيرتهم . . ثم يتضمن بيانا لمصائر الذين تخلفوا عن الغزوة غير منافقين ولا متآمرين ؛ مع ذكر بعض أحوال المنافقين ومواقفهم المميزة لهم تجاه الأوامر القرآنية . . وذلك فى مثل هذه النصوص :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده ، من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

Marfat.com

« ماكان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى ـ من بعدماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وماكان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم » .

« لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ـ من بعدماكاد يزيغ قلوب فريق منهم ـ ثم تاب عليهم ، إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم » .

« ماكان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولايرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنه لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ، ولاينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لايضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ماكانوا يعملون . وماكان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

« ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين » .

« وإذا ماأنزلت سورة فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيمانا ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون » .

« وإذا ماأنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا ، صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون » ..

وفى النهاية تختم السورة بصفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبتوجيه من ربه إلى التوكل عليه وحده ، والاكتفاء بكفالته سبحانه :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف

Marfat.com

رحيم . فإن تولوا فقل : حسبي الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » ..

وسنحاول بعد هذا الاستعراض السريع أن نواجه النصوص القرآنية الباقية في السورة بالتفصيل .. والله المعين ..

« إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ، رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ ، وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ . قُل : لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ، قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ، وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ، ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ، فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ، فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ ، وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ، فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ، فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ » .

ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون ، ولا يجد لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ما يحملهم عليه إلى أرض المعركة .. من جناح ولا حرج إذا هم تخلفوا عن المعركة .. إنما الجناح والحرج على الذين يستأذنون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في القعود وهم أغنياء قادرون ، لا يقعدهم عذر حقيقي عن الخروج .. إنما الجناح والحرج على هؤلاء القادرين الذين يرضون أن يقعدوا قعدة الخوالف في الدور ...

هؤلاء هم المؤاخذون بتخلفهم عن الخروج ، والاستئذان في القعود ، ذلك أنهم ناكلون متثاقلون ، لا يؤدون حق الله عليهم وقد أغناهم وأقدرهم ؛ ولا يؤدون حق الإسلام وقد حماهم وأعزهم ؛ ولا يؤدون حق المجتمع الذي يعيشون فيه وقد أكرمهم وكفلهم .. ومن ثم يختار الله - سبحانه - لهم هذا الوصف :

Marfat.com

« رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » ..

فهو سقوط الهمة ، وضعف العزيمة ، والرضا بأن يكونوا مع النساء والأطفال والعجزة الذين يخلفون فى الدور لعجزهم عن تكاليف الجهاد .. وهم معذورون .. فأما أولئك فما هم بمعذورين !

« وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون » ..

فقد أغلق الله فيهم منافذ الشعور والعلم ، وعطل فيهم أجهزة الاستقبال والإدراك ، بما ارتضوه هم لأنفسهم من الخمول والبلادة والوخم ، والاحتجاب عن مزاولة النشاط الحركى الحى المتفتح للنطلق الوثاب ! ومايؤثر الإنسان السلامة الذليلة والراحة البليدة إلا وقد فرغت نفسه من دوافع التطلع والتذوق والتجربة والمعرفة ، فوق مافرغت من دوافع الوجود والشهود والتأثر والتأثير فى واقع الحياة . وإن بلادة الراحة لتغلق المنافذ والمشاعر ، وتطبع على القلوب والعقول . والحركة دليل الحياة ، ومحرك فى الوقت ذاته للحياة. ومواجهة الخطر تستثير كوامن النفس وطاقات العقل ، وتشد العضل ، وتكشف عن الاستعدادات المخبوءة التى تنتفض عند الحاجة ، وتدرب الطاقات البشرية على العمل وتشحذها للتلبية والاستجابة .. وكل أولئك ألوان من العلم والمعرفة والتفتح يحرمها طلاب الراحة البليدة والسلامة الذليلة .

ويمضى السياق يصف حال هؤلاء الأغنياء القادرين الذين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ..

إن وراء حب الدعة وإيثار السلامة ،سقوط الهمة ، وذلة النفس، وانحناء الهامة ، والتهرب من المواجهة والمصارحة :

« يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم » ..

وهذا من إنباء الله لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين الخلص بما سيكون من أمر هؤلاء المتخلفين من المنافقين بعد الرجوع من الغزوة . مما يدل على أن هذه الآيات نزلت فى أثناء العودة وقبل الوصول إلى المدينة .

يعتذرون إليكم عن تخلفهم وقعودهم ، ذلك أنهم يخجلون من الظهور بفعلتهم هذه عارية ،

Marfat.com

ومن الكشف عن أسبابها الحقيقية ؛ وهى ضعف الإيمان ، وإيثار السلامة ، والإشفاق من الجهاد !

« قل : لاتعتذروا . لن نؤمن لكم . قد نبأنا الله من أخباركم » !

قل : وفروا عليكم معاذيركم . فلن نطمئن إليكم ، ولن نصدقكم ، ولن نأخذ بظاهر إسلامكم كما كنا نفعل . ذلك أن الله قد كشف لنا حقيقتكم ، وما تنطوى عليه صدوركم ؛ وقص علينا دوافع أعمالكم ؛ وحدثنا عن حالكم ، فلم تعد مستورة لا نرى إلا ظاهرها كما كنا من قبل معكم .

والتعبير عن عدم التصديق والثقة والائتمان والاطمئنان بقوله تعالى : « لن نؤمن لكم » ذو دلالة خاصة . فالإيمان تصديق وثقة وائتمان واطمئنان . تصديق بالقول وائتمان بالعقل واطمئنان بالقلب ، وثقة من المؤمن بربه ، وثقة متبادلة بينه وبين المؤمنين معه . وللتعبير القرآنى دائما دلالته وإيحاؤه .

قل : لاتعتذروا . . فلا جدوى للقول ولا معول على الكلام . ولكن اعملوا فإن صدق عملكم ماتقولون فذاك ، وإلا فلا ثقة بالقول ولا ائتمان ولا اطمئنان :

« وسيرى الله عملكم ورسوله » . .

والله لايخفى عليه الأعمال ولا النوايا المخبوءة وراءها ؛ ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — سيزن قولكم بعملكم . وعلى أساسه سيكون التعامل معكم فى المجتمع المسلم .

ولن ينتهى الأمر — على كل حال — بما يجرى فى هذه الأرض فى فترة الحياة الدنيا . فوراء ذلك حساب وجزاء ، يقومان على علم الله المطلق بالظواهر والسرائر :

« ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » . .

والغيب ماغاب عن الناس علمه ، والشهادة مايشهدونه ويعرفونه . والله سبحانه عالم الغيب والشهادة بهذا المعنى . ومعنى أشمل وأكبر . فهو سبحانه يعلم ما فى هذا العالم المشهود ويعلم ما وراءه من العوالم المغيبة . . وفى قوله تعالى لأولئك المخاطبين : « فينبئكم بما كنتم تعملون » . . إيماءة مقصودة . فهم يعلمون ما كانوا يعملون . ولكن الله — سبحانه — أعلم

Marfat.com

منهم بها حتى لينبئهم هو بها ! وكم من دافع خفى للعمل يخفى حتى على صاحبه وهو يفعله ، والله أعلم به منه ! وكم من نتيجة لهذا العمل لايدرى صاحبه وقوعها ، والله يعلمها دون صاحبها ! .. والمقصود ـ بطبيعة الحال ـ هو نتيجة الإنباء . وهى الحساب والجزاء الحق على الأعمال . ولكن هذه النتيجة لاينص عليها ، إنما ينص على الإنباء ذاته لمناسبة هذه الإعاءة فى هذا السياق .

« سيحلفون بالله لكم ـ إذا انقلبتم إليهم ـ لتعرضوا عنهم . فأعرضوا عنهم ، إنهم رجس ، ومأواهم جهنم ، جزاء بما كانوا يكسبون » . .

وهذا إنباء آخر من الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه وسلم ، عما سيكون من أمر القوم عندمايعود إليهم هو والمؤمنون الخلص معه سالمين آمنين . وكان المنافقون قد ظنوا أنهم لايعودون من لقاء الروم !

فقد علم الله وأخبر نبيه أنهم سيؤكدون معاذيرهم بالحلف بالله ؛ لعل المسلمين يعرضون عن فعلتهم وتخلفهم عفوا وصفحا ؛ ولا يحاسبونهم عليها ويجازونهم بها .

ثم يوجهه ربه إلى الإعراض عنهم فعلا ، لكن لابمعنى العفو والصفح ؛ إنما بمعنى الإهمال والاجتناب . معللا ذلك بأنهم دنس يتجنب ويتوقى :

« فأعرض عنهم ، إنهم رجس » . .

وهو التجسيم الحسى للدنس المعنوى . فهم ليسوا رجسا ـ أى دنسا ـ بأجسادهم وذواتهم ؛ إنما هم رجس بأرواحهم وأعمالهم . ولكنها الصورة المجسمة أشد بشاعة وأبين قذارة ، وأدعى إلى التقزز والاشمئزاز ، وإلى الاحتقار كذلك والازدراء !

والقاعدون فى الجماعة المكافحة ـ وهم قادرون على الحركة ـ الذين يقعد بهم إيثار السلامة عن الجهاد . . رجس ودنس . مافى ذلك شك ولا ريب . . رجس خبيث يلوث الأرواح ، ودنس قذر يؤذى المشاعر ؛ كالجثة المنتنة فى وسط الأحياء تؤذى وتعدى !

« ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون » . .

وهم يحسبون أنهم يكسبون بالتخلف ؛ ويربحون بالقعود ؛ ويجنون السلامة والراحة ؛

Marfat.com

ويحتفظون بالعافية والمال . . ولكن الحقيقة أنهم دنس فى الدنيا ، وأنهم يضيعون نصيبهم فى الآخرة . فهى الخسارة المطبقة بكل ألوانها وأشكالها . . ومن أصدق من الله حديثا ؟ . .

ثم يمضى السياق ينبىء عما سيقع من هؤلاء القاعدين بعد عودة المجاهدين :

« يحلفون لكم لترضوا عنهم . فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » . .

إنهم يطلبون ابتداء من المسلمين أن يعرضوا عن فعلتهم صفحا وعفوا . ثم يتدرجون من هذا إلى طلب رضى المسلمين عنهم ليضمنوا السلامة فى المجتمع المسلم بهذا الرضى ! ويضمنوا أن يظل المسلمون يعاملونهم بظاهر إسلامهم كما كانوا يعاملونهم ؛ ولا يجاهدونهم ويغلظون عليهم كما أمرهم الله فى هذه السورة أن يفعلوا ؛ محددا بذلك العلاقات النهائية بين المسلمين والمنافقين فيهم .

ولكن الله سبحانه يقرر أنهم فسقوا عن دين الله بهذا القعود الناشىء عن النفاق ؛ وأن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين . حتى ولو استطاعوا أن يحلفوا ويعتذروا حتى يرضى عنهم المسلمون ! . . وحكم الله فيهم هو الحكم . ورضا الناس ـ ولو كانوا هم المسلمين ـ فى هذه الحالة لايغير من غضب الله عليهم ، ولا يجديهم فتيلا . إنما السبيل إلى إرضاء الله هو الرجوع عن هذا الفسق ، والعودة إلى دين الله القويم !

وهكذا كشف الله هؤلاء القاعدين ـ من غير عذر ـ فى الجماعة المسلمة ؛ وقرر العلاقات النهائية بين المسلمين والمنافقين . كما قررها من قبل بين المسلمين والمشركين ، وبين المسلمين وأهل الكتاب . وكانت هذه السورة هى الحكم النهائى الأخير .

« ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ، وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ، وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ، عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ، وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ، وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ، أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ، سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » .

Marfat.com

« وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .

« وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ، لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ، سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ، ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ .

« وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ، خَلَطُوا عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا ، عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ، وَيَأْخُذُ الصَّدَقَٰتِ ، وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ؟ * وَقُلِ : اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

« وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ، إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

« وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ، وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ، وَلَيَحْلِفُنَّ : إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ؟ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ، إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

Marfat.com

هذا الدرس بجملته تصنيف للمجتمع الإسلامى فى ذلك الحين ـ إبان غزوة تبوك ـ يصور طوائفه وطبقاته الإيمانية الداخلة فى تركيبه العضوى العام ، مع تميز كل منها بصفاته وأعماله .

ولقد فصلنا القول فى الجزء العاشر عند تقديم السورة عن الأسباب التاريخيــة التى أنشأت هذه المستويات الإيمانية المتعددة فى الجماعة المسلمة فى المدينة . فنجتزىء هنا من ذلك التفصيل بالفقرات الأخيرة منه ، لاستحضار الملابسات التى كانت تحيط بوجود هذه المستويات المتعددة فى المجتمع الواحد :

... « لقد كانت وقفة قريش العنيدة الطويلة حاجزا قويا دون انسياح الإسلام فى الجزيرة العربية . فقد كانت قريش هى صاحبة الـكلمة العليا فى الشؤون الدينية فى الجزيرة ـ فوق ما كان لها من نفوذ اقتصادى وسياسى وأدبى كذلك ـ فـكانت وقفتها فى وجه الدين الجديد ، بهذه الصورة العنيدة ، مدعاة لصرف العرب فى أنحاء الجزيرة عن الدخول فيه ، أو على الأقل مدعاة للتردد والانتظار حتى تنجلى المعركة بين قريش وهذا النبى من أبنائها ! ... فلما دانت قريش بالفتح ، ودانت بعدها هوازن وثقيف فى الطائف ؛ وكانت قبائل اليهود الثلاث القوية فى الـمدينة قد خضدت شوكتها نهائيا ، فأجليت بنو قينقاع وبنو النضير إلى الشام ، وأبيدت بنو قريظة ، واستسلمت خيبر الاستسلام الأخـير . . . كان ذلك إيذانا بدخول الناس فى دين الله أفواجا ، وانسياح الإسلام فى أرجاء الجزيرة كلها فى خلال عام واحد .

« غير أن هذا الاتساع الأفقى فى رقعة الإسلام قد أعاد معه جميع الأعراض والظواهر التى ظهرت فى المجتمع بعد انتصار بدر ـ ولـكن على نطاق أوسع ـ بعد ما كاد المجتمع يبرأ منها بتأثير التربية الطويلة المدى ، المستمرة التأثير ، فى خلال السنوات السبع بعد بدر الـكبرى ولولا أن المجتمع المدنى بجملته كان قد تحول إلى أن يكون هو القاعدة الصلبة الخالصة لهذه العقيدة ، والأساس الركين لهذا المجتمع ؛ لـكان هناك خطر كبير من هذا الاتساع الأفقى السريع فى رقعة الإسلام فى الجزيرة .. ولـكن الله الذى كان يدبر لهذا الأمر ويرعاه ، كان قد أعد العصبة المؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لتـكون هى القاعدة الأمينة لهذا الدين بعد التوسع النسبى الذى جاء به انتصار بدر ! كما أنه ـ سبحانه ـ كان قد أعد المجتمع المدنى

Marfat.com

بجملته ليكون هو القاعدة الأمينة بعد التوسع الشديد السريع الذى جاء به فتح مكة .. والله أعلم حيث يجعل رسالته . .

« وأول ما ظهر من ذلك كان يوم حنين الذى جاء عنه فى هـذه السورة : « التوبة » :

« لقـد نصركم الله فى مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتـكم كثرتـكم فلم تغن عنـكم شيئا ، وضاقت عليـكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مـدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الـكافرين » ..

« وكان من الأسباب الظاهرة لهذه الهزيمة فى أول الأمر أن ألفين من « الطلقاء » الذين أسلموا يوم الفتح ، قـد خرجوا مع الآلاف العشرة من جند المدينـة الذين فتحوا مكة . فـكان وجود هذين الألفين ـ مع عشرة آلاف ـ سببا فى اختلال التوازن فى الصف ـ بالإضافة إلى عامل المفاجأة من هوازن ـ ذلك أن الجيش لم يـكن كله من القاعدة الصلبة الخالصة التى تمت تربيتها وتناسقها فى الزمن الطويل مابين بدر والفتح .

« كذلك كان ماظهر فى أثناء غزوة تبوك من الأعراض والظواهر المؤذية ثمرة طبيعية لهذا الاتساع الأفقى السريع ؛ ودخول تلك الأفواج الجـديدة ، بمستوياتها الإيمانيـة والتنظيمية المخلخلة . . هـذه الظواهر والأعراض التى تحـدثت عنهـا سورة التوبة ، والتى اقتضت تلك الحملات الطويلة المفصلة المنوعـة الأساليب ، التى أشرنا إليها فى المقتطفات الممثلة لـكل مقاطع السورة[1] » ..

وفى ضوء هذا البيان المجمل نملك المضى مع نصوص هذا الدرس تفصيلا :

* * *

« الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرما ويتربص بـكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم . ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ماينفق قربات عنـد الله وصلوات الرسول . ألا إنها قربة لهم ، سيدخلهم الله فى رحمته ، إن الله غفور رحيم » ..

(١) يراجع بتوسع الجزء العاشر . ص ٩١ ـ ص ١٠٣ وكذلك : ص ١٢٨ ـ ص ١٣١ .

Marfat.com

بدأ بتصنيف الأعراب ـ وهم البدو ـ وقد كانت قبائل منهم حول المدينة ، وكانت لهم أدوار في الهجوم على دار الإسلام في المدينة ـ قبل إسلامهم ـ فلما أسلموا كانوا بوجه عام داخلين في الفئتين اللتين ورد وصفهما في هذه الآيات .

وقد بدأ الحديث عنهما بتقرير قاعدة كلية عن طبيعة الأعراب :

« الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم » ..

والتعبير بهذا العموم يعطي وصفا ثابتا متعلقا بالبدو وبالبداوة . فالشأن في البدو أن يكونوا أشد كفرا ونفاقا ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

والجدارة بعدم العلم بما أنزل الله على رسوله ناشئة من ظروف حياتهم ، وما تنشئه في طباعهم من جفوة ، ومن بعد عن المعرفة وعن الوقوف عند الحدود ، ومن مادية حسية تجعل القيم المادية هي السائدة . وإن كان الإيمان يعدل من هذه الطباع ، ويرفع من تلك القيم ، ويصلهم بالأفق الوضيء المرتفع على الحسية .

وقد وردت روايات كثيرة عن جفوة الأعراب .. ومما أورده ابن كثير في التفسير :

« قال الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد ابن صوحان ، وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم « نهاوند » ، فقال الأعرابي : والله إن حديثك ليعجبني ، وإن يدك لتريبني ! فقال زيد : وما يريبك من يدي ؟ إنها الشمال ! فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال ! فقال زيد ابن صوحان : صدق الله ورسوله : « الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » .

« وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن ابن مهدي ، حدثنا سفيان ، عن أبي موسى ، عن وهب ابن منبه ، عن ابن عباس ، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » ..

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولا ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى(١) كما قال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى » .

(١) القرية هي الحاضرة أو المدينة .

Marfat.com

« ولما أهدى ذلك الأعرابى تلك الهدية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرد عليه أضعافها حتى رضى ـ ، قال : « لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قرشى أو ثقفى أو أنصارى أو دوسى » لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن : مكة والطائف والمدينة واليمن ، فهم ألطف أخلاقا من الأعراب لما فى طباع الأعراب من الجفاء .

« قال حديث مسلم : حدثنا أبو بكر ابن أبى شيبة وأبو كريب قالا : حدثنا أبو أسامة وابن نمير ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ قالوا : نعم ! قالوا : لكنا والله ما نقبل ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « وما أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة ؟ » . .

وكثير من الروايات يكشف عن طابع الجفوة والفظاظة فى نفوس الأعراب . حتى بعد الإسلام . فلا جرم يكون الشأن فيهم أن يكونوا أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، لطول ماطبعتهم البداوة بالجفوة والغلظة عند مايقهرون غيرهم ؛ أو بالنفاق والالتواء عند مايقهرهم غيرهم ؛ وبالاعتداء وعدم الوقوف عند الحدود بسبب مقتضيات حياتهم فى البادية .

« والله عليم حكيم » . .

عليم بأحوال عباده وصفاتهم وطباعهم . حكيم فى توزيع المواهب والخصائص والاستعدادات ، وتنويع الأجناس والشعوب والبيئات .

وبعد الوصف الرئيسى العام للأعراب يجىء التصنيف حسبما أحدث الإيمان فى النفوس من تعديلات ؛ وما أنشأه كذلك من فروق بين القلوب التى خالطتها بشاشته والقلوب التى بقيت على مافيها من كفر ونفاق ؛ مما يمثل الواقع فى المجتمع المسلم حينذاك :

« ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرما ، ويتربص بكم الدوائر . عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم » .

وربما عجل بذكر المنافقين من الأعراب قبل المؤمنين منهم ، إلحاقا لهم بمنافقى المدينة الذين كان يتحدث عنهم فى المقطع السالف كله ؛ وليتصل جو الحديث عن المنافقين من هؤلاء ومن هؤلاء .

Marfat.com

« ومن الأعراب من يتخذ ماينفق مغرما » . .

فهو مضطر لأن ينفق من ماله فى الزكاة ، وفى غزوات المسلمين ؛ تظاهرا بالإسلام، ليستمتع بمزايا الحياة فى المجتمع المسلم ؛ ومداراة للمسلمين وهم أصحاب السلطان اليوم فى الجزيرة ! وهو يعد ماينفقه غرامة وخسارة يؤديها كارها ، لامساعدة للغزاة المجاهدين ، ولا حبا فى انتصار الإسلام والمسلمين .

« ويتربص بكم الدوائر » . .

وينتظر متى تدور الدائرة على المسلمين ، ويتمنى ألا يعودوا من غزاة سالمين !

وهنا يعاجلهم السياق بدعاء من الله ـ سبحانه ـ عليهم ؛ ودعاء الله معناه وقوع مدلول الدعاء عليهم :

« عليهم دائرة السوء » . .

كأن للسوء دائرة تطبق عليهم فلا تفلتهم ؛ وتدور عليهم فلا تدعهم . وذلك من باب تجسيم المعنوى وتخييله ، الذى يعمق وقع المعنى ويحييه (١) .

« والله سميع عليم » .

والسمع والعلم يتناسبان هنا مع جو التربص بالسوء من أعداء الجماعة المسلمة ، والنفاق الذى تحتويه جوانحهم ، وتخفيه ظواهرهم . . والله سميع لما يقولون عليم بما يظهرون وما يكتمون .

وهناك الفريق الآخر ممن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان :

« ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ماينفق قربات عند الله وصلوات الرسول . ألا إنها قربة لهم . سيدخلهم الله فى رحمته . إن الله غفور رحيم » .

فهو الإيمان بالله واليوم الآخر باعث الإنفاق عند هذا الفريق ، لا الخوف من الناس ، ولا الملق للغالبين ، ولا حساب الربح والخسارة فى دنيا الناس !

---

(١) يراجع فصل . « التخييل الحسى والتجسيم » فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » .

Marfat.com

وهـذا الفريق المؤمن بالله واليوم الآخر يبتغى بمـا ينفق أن يـكون قربى من الله ؛ ويتطلب صلوات الرسول . . أى دعواته . . الدالة على رضاه صلى الله عليـه وسلم ، المقبولة عند الله، وهو يدعو بها للمؤمنين بالله واليوم الآخر ، للمنفقين ابتغاء القربى من الله ورضاه .

لذلك يبادر السياق فيقرر لهم أنها قربى مقبولة عند الله :

« ألا إنها قربة لهم » . .

ويبشرهم بحسن العاقبة وعدا من الله حقا :

« سيدخلهم الله فى رحمته » . .

ويجسم الرحمـة كأنها دار يدخلونها فتحتويهم ؛ وذلك فى مقابل تجسيم « دائرة السوء » على الفريق الآخر ، الذى يتخذ ماينفق مغرما ، ويتربص بالمؤمنين الدوائر .

« إن الله غفور رحيم » .

يقبل التوبة ، ويتقبل النفقة ، ويغفر ما كان من ذنب ، ويرحم من يبتغون الرحمة . .

* * *

وبعـد تصنيف الأعراب على وجه الإجمـال يستطرد السياق فى تصنيف المجتمع كله . . حاضره وباديه . . إلى أربع طبقات إيمانية : السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسـان . والمنافقين الذين مردوا على النفاق من أهـل المدينة ومن الأعراب . والذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا . والذين أرجىء الحكم فى أمرهم حتى يقضى الله فيهم بقضائه :

« والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهـار ، خالدين فيها أبداً ، ذلك الفـوز العظيم . .

« وممن حولـكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة ، مردوا على النفاق ، لاتعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم .

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم . خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا . عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن

Marfat.com

لهم ، والله سميع عليم . ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات، وأن الله هو التواب الرحيم ؟ وقل : اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون .

« وآخرون مُرجَوْن لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ، والله عليم حكيم » ..

والظاهر أن هذا التصنيف قد نزلت به هذه الآيات بعد العودة من تبوك ؛ وبعد اعتذار من اعتذر من المنافقين المتخلفين ؛ ومن المؤمنين المتخلفين كذلك . سواء منهم من اعتذر صادقا ومن ربط نفسه بسارية المسجد حتى يحله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن لم يعتذر بشيء راجيا أن يقبل الله توبته بصدقه ، وهم الثلاثة الذين خلفوا فلم يحكم فى شأنهم بشيء حتى تاب الله عليهم وقبل توبتهم ـ كما سيجيء ـ وكان مجموع هؤلاء يمثل صنوف الناس من حول الدعوة فى الجزيرة بعد غزوة تبوك . وكان الله ـ سبحانه ـ يكشف أرض الحركة كلها وما عليها ومن عليها لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه من المؤمنين الخلص ، هذا الكشف النهائى الكامل قرب نهاية المطاف فى الجولة الأولى لهذا الدين ، فى موطنه الأول ، قبل أن ينطلق إلى الأرض كلها بإعلانه العام بالعبودية لله وحده والدينونة له وحده ، وتحرير « الإنسان » فى « الأرض » من العبودية للعباد فى شتى الصور والأشكال .

ولا بد للحركة الإسلامية حين تنطلق أن تتكشف لها أرض المعركة ، وما عليها ومن عليها ، فهذا التكشف ضرورى لكل خطوة ؛ حتى يعرف أصحاب الحركة مواضع أقدامهم فى كل خطوة فى الطريق .

* * *

« والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم » ..

وهذه الطبقة من المسلمين ـ بمجموعاتها الثلاث : « السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . والذين اتبعوهم بإحسان » ـ كانت تؤلف القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم فى الجزيرة

Marfat.com

بعد الفتح - كما أسلفنا فى الجزء العاشر فى تقديم السورة - (١) وكانت هى التى تمسك هذا المجتمع كله فى كل شدة ، وفى كل رخاء كذلك : فابتلاء الرخاء كثيرا مايكون أصعب وأخطر من ابتلاء الشدة !

والسابقون من المهاجرين نميل نحن إلى اعتبار أنهم هم الذين هاجروا قبل بدر ، وكذلك السابقون من الأنصار . أما الذين اتبعوهم بإحسان - الذين يعنيهم هذا النص وهو يتحدث عما كان واقعا إبان غزوة تبوك - فهم الذين اتبعوا طريقهم وآمنوا إيمانهم وأبلوا بلاءهم بعد ذلك ، وارتفعوا إلى مستواهم الإيمانى - وإن بقيت للسابقين سابقتهم بسبقهم فى فترة الشدة قبل بدر ، وهى أشد الفترات طبعا .

وقد وردت أقوال متعددة فى اعتبار من هم السابقون من المهاجرين والأنصار . فقيل : هم الذين هاجروا ونصروا قبل بدر وقيل : هم الذين صلوا للقبلتين . وقيل : هم أهل بدر . وقيل هم الذين هاجروا ونصروا قبل الحديبية . وقيل : هم أهل بيعة الرضوان ... ونحن نرى من تتبعنا لمراحل بناء المجتمع المسلم وتكون طبقاته الإيمانية ، أن الاعتبار الذى اعتبرناه أرجح .. والله أعلم ..

ولعله يحسن أن نعيد هنا فقرات مما سبق أن فصلناه فى الجزء العاشر عن مراحل بناء المجتمع المسلم وتكون طبقاته الإيمانية ، يكون حاضرا بين يدى قارئ هذا الجزء ، خيرا من إحالته إلى الجزء السابق ؛ لتكون هذه الحقيقة قريبة منه يتتبع على ضوئها ذلك التصنيف النهائى للمجتمع فى الآيات التى نواجهها هنا :

« لقد ولدت الحركة الإسلامية فى مكة على محك الشدة ، فلم تكد الجاهلية - ممثلة فى قريش - تحس بالخطر الحقيقى الذى يتهددها من دعوة : « أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله » وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضى لايستمد من سلطان الله ؛ ومن تمرد نهائى على كل طاغوت فى الأرض والفرار منه إلى الله . ثم بالخطر الجدى من التجمع الحركى العضوى الجديد الذى أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذا التجمع الذى يدين منذ اليوم الأول بالطاعة لله ولرسول الله ؛ ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة فى قريش والأوضاع السائدة فى هذه الجاهلية .

(١) ص ٩١ - ص ١٠٣ من الطبعة الثانية المنقحة .

Marfat.com

« لم تكد الجاهلية ـ ممثلة فى قريش أول الأمر ـ تحس بهذا الخطر وذاك حتى شنتها حربا شعواء على الدعوة الجديدة . . وعلى التجمع الجديد ، وعلى القيادة الجديدة ؛ وحتى أرصدت لها كل مافى جعبتها من أذى ومن كيد ومن فتنة ومن حيلة . .

« لقد انتفض التجمع الجاهلى ليدفع عن نفسه الخطر الذى يتهدد وجوده بكل مايدفع به الكائن العضوى خطر الموت عن نفسه . وهذا هو الشأن الطبيعى الذى لامفر منه كما قامت دعوة إلى ربوبية الله للعالمين ، فى مجتمع جاهلى يقوم على أساس من ربوبية العباد للعباد ؛ وكلما تمثلت الدعوة الجديدة فى تجمع حركى جديد ، يتبع فى تحركه قيادة جديدة ، ويواجه التجمع الجاهلى القديم مواجهة النقيض للنقيض . .

« وعندئذ تعرض كل فرد فى التجمع الإسلامى الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها ، إلى حد إهدار الدم فى كثير من الأحيان . . ويومئذ لم يكن يتقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والانضمام إلى التجمع الإسلامى الوليد ، والدينونة لقيادته الجديدة ، إلا كل من نذر نفسه لله ؛ وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب ، والموت فى أبشع الصور فى بعض الأحيان .

« بذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عودا فى المجتمع العربى ؛ فأما العناصر التى لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى ؛ وكان هذا النوع قليلا ؛ فقد كان الأمر كله معروفا مكشوفا من قبل ؛ فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام ، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب ، إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين .

« وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة ، ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مكة ؛ ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك فى المدينة مع السابقين من الأنصار ، الذين وإن كانوا لم يصطلوها فى أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون ، إلا أن بيعتهم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (بيعة العقبة) قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين . . قال ابن كثير فى التفسير : « وقال محمد ابن كعب القرظى وغيره : قال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (يعنى ليلة

Marfat.com

العقبة) : اشترط لربك ولنفسك ماشئت . فقال : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ؛ وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » . قالوا : فمالنا إذا نحن فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » . قالوا : ربح البيع ، ولانقيل ولانستقيل » .

« ولقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول الله هذه البيعة ؛ ولا يرتقبون من ورائها شيئا إلا الجنة ؛ ويوثقون هذا البيع ، فيعلنون أنهم لايقبلون أن يرجعوا فيه ولا أن يرجع فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ! يعلمون أنهم لايبايعون على أمرهين ؛ بل كانوا مستيقنين أن قريشا وراءهم ، وأن العرب كلها سترميهم ؛ وأنهم لن يعيشوا فى سلام مع الجاهلية الضاربة الأطناب من حولهم فى الجزيرة ، وبين ظهرانيهم فى المدينة » ..

... « فقد كان الأنصار إذن يعلمون - عن يقين واضح - تكاليف هذه البيعة ؛ وكانوا يعلمون أنهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئا فى هذه الحياة الدنيا - حتى ولا النصر والغلبة - وأنهم لم يوعدوا عليها إلا الجنة .. ثم كان هذا مدى وعيهم بها ومدى حرصهم عليها .. فلا جرم أن يكونوا - مع السابقين من المهاجرين الذين بنوا هذا البناء وأعدوا هذا الإعداد - هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة ..

« ولكن مجتمع المدينة لم يظل بهذا الخلوص والنقاء .. لقد ظهر الإسلام وفشا فى المدينة واضطر أفراد كثيرون - ومعظمهم من ذوى المكانة فى قومهم - أن يجاروا قومهم احتفاظا بمكانتهم فيهم .. حتى إذا كانت وقعة بدر قال كبير هؤلاء : عبد الله ابن أبى ابن سلول : هذا أمر قد توجه ! وأظهر الإسلام نفاقا . ولابد أن كثيرين قد جرفتهم الموجة فدخلوا فى الإسلام تقليدا - ولو لم يكونوا منافقين - ولكنهم لم يكونوا بعد قد فقهوا فى الإسلام ولا انطبعوا بطابعه .. مما أنشأ تخلخلا فى بناء المجتمع المدنى ، ناشئا عن اختلاف مستوياته الإيمانية .

« وهنا أخذ المنهج القرآنى التربوى الفريد، بقيادة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعمل عمله فى هذه العناصر الجديدة ؛ ويعمل كذلك على إعادة التناسق والتوافق بين المستويات العقيدية والخلقية والسلوكية للعناصر المختلفة الداخلة فى جسم المجتمع الوليد .

« وحين نراجع السور المدنية - بترتيب النزول التقريبى - فإننا نطلع على الجهد الكبير الذى بذل فى عملية الصهر الجديدة المستمرة للعناصر المتنوعة فى المجتمع المسلم ؛ وبخاصة أن هذه

Marfat.com

العناصر ظلت تتوارد على هذا المجتمع - على الرغم من وقفة قريش العنيدة وتأليبها لكل قبائل الجزيرة ؛ ومن وقفة اليهود البشعة وتأليبهم كذلك للعناصر المعادية للدين الجديد والتجمع الجديد - وظلت الحاجة مستمرة لعمليات الصهر والتنسيق بصورة دائمة لاتفتر ولا تغفل لحظة .

« ومع هذا الجهد كله كانت ما تزال تظهر بين الحين والحين - وبخاصة فى فترات الشدة - أعراض من الضعف والنفاق والتردد ، والشح بالنفس والمال ، والتهيب من مواجهة المخاطر .. وبصفة خاصة أعراض من عدم الوضوح العقيدى الذى يحسم فى العلاقة بين المسلم وقرابته من أهل الجاهلية . . والنصوص القرآنية فى السور المتوالية تكشف لنا عن طبيعة هذه الأعراض التى كان المنهج القرآنى يتعرض لها بالعلاج بشتى أساليبه الربانية الفريدة .

. . . « إلا أن قوام المجتمع المسلم فى المدينة كان يظل سليما فى جملته بسبب اعتماده أساسا على تلك القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والأنصار ؛ وما تحدثه من تماسك وصلابة فى قوامه فى وجه جميع الأعراض والظواهر والخلخلة أحيانا ، والتعرض للمخاطر التى تكشف عن هذه العناصر التى لم يتم بعد صهرها ونضجها وتماسكها وتناسقها .

« وشيئاً فشيئاً كانت هذه العناصر تنصهر وتتطهر وتتناسق مع القاعدة ، ويقل عدد الناشزين من ضعاف القلوب ومن المنافقين ، ومن المترددين كذلك والمتهيبين ومن لم يتم فى نفوسهم الوضوح العقيدى الذى يقيمون على أساسه كل علاقاتهم مع الآخرين . حتى إذا كان قبيل فتح مكة كان المجتمع الإسلامى أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة ، وأقرب ما يكون بجملته إلى النموذج الذى يهدف إليه المنهج التربوى الربانى الفريد . .

« نعم إنه كانت فى هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوتة أنشأتها الحركة العقيدية ذاتها؛ فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها فى الحركة وسبقها وثباتها .. تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . وتميز أهل بدر . وتميز أصحاب بيعة الرضوان فى الحديبية . ثم تميز بصفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا . وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، والأوضاع العملية فى المجتمع المسلم ، تؤكد هذه الأقدار التى أنشأتها الحركة بالعقيدة ، وتنص عليها ... »

Marfat.com

... « ولكن تميز هذه الطبقات بأقدارها الإيمانية التى أنشأتها الحركة الإسلامية ، لم يكن ما نعاً أن تتقارب المستويات الإيمانية وتتناسق فى مجتمع المدينة قبيل الفتح ؛ وأن يتوارى الكثير من أعراض الخلخلة فى الصف ، والكثير من ظواهر الضعف والتردد ، والشح بالنفس والمال ، وعدم الوضوح العقيدى ، والنفاق ... من ذلك المجتمع . بحيث يمكن اعتبار المجتمع المدنى بجملته هو القاعدة الإسلامية .»

« إلا أن فتح مكة فى العام الثامن الهجرى ، وما أعقبه من استسلام هوازن وثقيف فى الطائف - وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش فى الجزيرة - قد عاد فصب فى المجتمع المسلم أفواجا جديدة كثيرة دخلت فى الدين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الإيمانية وفيهم كارهون للإسلام منافقون ؛ وفيهم المتساقون إلى الإسلام الظاهر القاهر ؛ وفيهم المؤلفة قلوبهم دون انطباع بحقائق الإسلام الجوهرية ولا امتزاج بروحه الحقيقية ... »

ومن هذه المقتطفات يتضح لنا مركز السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بعد ذلك « بإحسان » يصل بهم إلى مستواهم الإيمانى وبلائهم الحركى . وندرك حقيقة دورهم الباقى فى بناء الإسلام وترجمته إلى واقع عملى يبقى مؤثراً فى التاريخ البشرى كله ، كما نستشرف حقيقة قول الله سبحانه فيهم :

« رضى الله عنهم ورضوا عنه » ..

ورضى الله عنهم هو الرضى الذى تتبعه المثوبة ، وهو فى ذاته أعلى وأكرم مثوبة ؛ ورضاهم عن الله هو الاطمئنان إليه سبحانه ، والثقة بقدره ، وحسن الظن بقضائه ، والشكر على نعمائه ، والصبر على ابتلائه .. ولكن التعبير بالرضى هنا وهناك يشيع جو الرضى الشامل الغامر ، المتبادل الوافر ، الوارد الصادر ، بين الله سبحانه وهذه الصفوة المختارة من عباده ؛ ويرفع من شأن هذه الصفوة - من البشر - حتى ليبادلون ربهم الرضى ؛ وهو ربهم الأعلى ، وهم عبيده المخلوقون . . وهو حال وشأن وجو لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه ؛ ولكن يُتنسم ويُستشرف ويستجلى من خلال النص القرآنى بالروح المتطلع والقلب المتفتح والحس الموصول ! ذلك حالهم الدائم مع ربهم : « رضى الله عنهم ورضوا عنه » . وهناك تنتظرهم علامة هذا الرضى :

Marfat.com

« وأعد لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا » .. « ذلك الفوز العظيم».
وأى فوز بعد هذا وذلك عظيم ؟؟؟

* * *

ذلك مستوى . . وفى مقابله مستوى :

« وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة ، مردوا على النفاق ، لا تعلمهم نحن نعلمهم، سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم » ..

ولقد سبق الحديث والكشف عن المنافقين عامة ـ سواء من منافقى المدينة أو منافقى الأعراب ـ ولكن الحديث هنا عن صنف خاص من المنافقين . صنف حذق النفاق ومرن عليه ، ولجّ فيه ومرد ، حتى ليخفى أمره على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع كل فراسته وتجربته ! فكيف يكون ؟

والله سبحانه يقرر أن هذه الفئة من الناس موجودة فى أهل المدينة وفى الأعراب المحيطين بالمدينة . ويطمئن رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين معه . من كيد هذه الفئة الخفية الماكرة الماهرة ؛ كما ينذر هؤلاء الماكرين المهرة فى النفاق بأنه سبحانه لن يدعهم، فسيعذبهم عذابا مضاعفا فى الدنيا والآخرة.:

« لا تعلمهم نحن نعلمهم . سنعذبهم مرتين . ثم يردون إلى عذاب عظيم » ..

والعذاب مرتين فى الدنيا ، الأقرب فى تأويله أنه عذاب القلق النازل بهم من توقع انكشاف أمرهم فى المجتمع المسلم ؛ وعذاب الموت والملائكة تسألهم أرواحهم وتضرب وجوههم وأدبارهم . أو هو عذاب الحسرات التى تصيبهم بانتصار المسلمين وغلبتهم ؛ وعذاب الخوف من انكشاف نفاقهم وتعرضهم للجهاد الغليظ . . والله أعلم بما يريد . .

* * *

وبين المستويين المتقابلين ، مستويان بين بين .. أولهما :

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم . ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ

Marfat.com

الصدقات ؟ وأن الله هو التواب الرحيم ؟ وقل : اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . . .

وأمر الله لرسوله بإجراء معين مع هذه الطائفة دليل على أنها كانت معينة بأشخاصها لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو ظاهر .

وقد روى أن الآيات نزلت فى جماعة خاصة معينة فعلا ، ممن تخلفوا عن رسول الله فى غزوة تبوك ، ثم أحسوا وطأة الذنب ، فاعترفوا بذنوبهم ، ورجوا التوبة . فكان منهم التخلف وهو العمل السيء . وكان منهم الندم والتوبة وهو العمل الصالح .

قال أبو جعفر ابن جرير الطبرى : حُدثت عن الحسين ابن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ قال : أخبرنا عبيد ابن سلمان قال : سمعت الضحاك يقول فى قوله : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا » . نزلت فى أبى لبابة وأصحابه ، تخلفوا عن نبى الله - صلى الله عليه وسلم - فى غزوة تبوك . فلما قفل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوته ، وكان قريبا من المدينة ، ندموا على تخلفهم عن رسول الله ، وقالوا : نكون فى الظلال والأطعمة والنساء ، ونبى الله فى الجهاد واللأواء ! والله لنوثقن أنفسنا بالسوارى ، ثم لا نطلقها حتى يكون نبى الله - صلى الله عليه وسلم - يطلقنا ويعذرنا ! وأوثقوا أنفسهم ، وبقى ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم بالسوارى . فقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوته ، فمر فى المسجد ، وكان طريقه ، فأبصرهم ! فسأل عنهم ، فقيل له : أبو لبابة وأصحابه ، تخلفوا عنك ، يانبى الله ، فصنعوا بأنفسهم ما ترى ، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذى تطلقهم ! فقال نبى الله - صلى الله عليه وسلم - لا أطلقهم حتى أومر بإطلاقهم ، ولا أعذرهم حتى يعذرهم الله ، قد رغبوا بأنفسهم عن غزوة المسلمين ! فأنزل الله : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » إلى « عسى الله أن يتوب عليهم » و « عسى » من الله واجب . . فأطلقهم نبى الله وعذرهم .

ووردت روايات متعددة أخرى منها : أنها فى أبى لبابة وحده لما وقع فى غزوة بنى قريظة من تنبيههم لما يراد بهم ، وأنه الذبح ، بالإشارة إلى عنقه ! ولكن هذا مستبعد فأين هذه الآيات مما وقع فى بنى قريظة ؟ ! كذلك ورد أنها فى الأعراب . . وقد عقب ابن جرير على هذه الروايات كلها بقوله :

Marfat.com

« وأولى هذه الأقوال بالصواب فى ذلك ، قول من قال : نزلت هـذه الآية فى المعترفين بخطأ فعلهم فى تخلفهم عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتركهم الجهاد معه ، والخروج لغزو الروم ، حين شخص إلى تبوك ، وأن الذين نزل ذلك فيهم جماعة ، أحدهم أبو لبابة .

« وإنما قلنا : ذلك أولى بالصواب فى ذلك ، لأن الله جل ثناؤه قال : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » .. فأخبر عن اعتراف جماعة بذنوبهم ، ولم يكن المعترف بذنبه ، الموثق نفسه بالسارية فى حصار قريظة ، غير أبى لبابة وحده . فإذا كان ذلك كذلك ، وكان الله تبارك وتعالى قد وصف فى قوله : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » بالاعتراف بذنوبهم جماعة ، علم أن الجماعة الذين وصفهم بذلك ليست بالواحد ، فقد تبين بذلك أن هذه الصفة إذ لم تكن إلا لجماعة ، وكان لا جماعة فعلت ذلك - فيما نقله أهل السير والأخبار وأجمع عليه أهل التأويل - إلا جماعة من المتخلفين عن غزوة تبوك ، صح ماقلنا فى ذلك ، وقلنا : « كان منهم أبو لبابة » لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك » . .

ولما ذكر الله - سبحانه - صفة هـذه الجماعة من الناس المتخلفين المتذرين التائبين عقب عليها بقوله :

« عسى الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم » . .

وكما قال ابن جرير : « وعسى من الله واجب » . . فهو رجاء من يملك إجابة الرجاء سبحانه ! والاعتراف بالذنب على هذا النحو ، والشعور بوطأته ، دليل حياة القلب وحساسيته ، ومن ثم فالتوبة مرجوة القبول ، والمغفرة مرتقبة من الغفور الرحيم . . وقد قبل الله توبتهم وغفر لهم . .

ثم قال الله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم » . .

ولقد كانت تلك الحساسية التى بعثت الندم والتوبة فى تلك القلوب ، جديرة بالطمأنينة ، حقيقـة بالعطف الذى يسكب فيها الأمـل ، ويفتح لها أبواب الرجاء . . وإن كان رسول الله

Marfat.com

ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقود حركة ، ويربي أمة ، وينشىء نظاما ، قد رأى الأخذ بالحزم في أمرهم حتى يأتيه أمر من ربه في شأنهم ..

قال ابن جرير : حدثني محمد ابن سعد قال : حدثني أبي قال ، حدثني عمي قال ، حدثني أبي عن أبيه ، عن ابن عباس قال : لما أطلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا لبابة وصاحبيه(١)، انطلق أبو لبابة وصاحباه بأموالهم ، فأتوا بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : خذ من أموالنا فتصدق بها عنا وصل علينا .. يقولون: استغفر لنا .. وطهرنا . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا آخذ منها شيئا حتى أومر . فأنزل الله : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم » . يقول : استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا أصابوا . فلما نزلت الآية أخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جزءا من أموالهم ، فتصدق به عنهم » .

وهكذا منّ الله عليهم لما علمه سبحانه من حسن سريرتهم ، وصدق توبتهم ، فأمر رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأخذ بعض أموالهم يتصدق بها عنهم ، وأن يصلي عليهم ـ أي يدعو لهم ، فالأصل في الصلاة الدعاء ـ ذلك أن أخذ الصدقة منهم يرد إليهم شعورهم بعضويتهم الكاملة في الجماعة المسلمة ، فهم يشاركون في واجباتها ، وينهضون بأعبائها ، وهم لم ينبذوا منها ولم ينبتوا عنها ؛ وفي تطوعهم بهذه الصدقات تطهير لهم وتزكية ، وفي دعاء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم طمأنينة وسكن .

« والله سميع عليم » ..

يسمع الدعاء ، ويعلم ما في القلوب . ويقضي بما يسمعه ويعلمه قضاء السميع العليم . وهو وحده الذي يقضي في شأن العباد ، فيقبل منهم توبتهم ويأخذ منهم صدقاتهم ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينفذ ما يأمره به ربه ، ولا ينشىء شيئا من هذا من عنده .. وتقريرا لهذه الحقيقة يقول تعالى في الآية التالية :

« ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ، وأن الله هو التواب الرحيم ؟ » ..

---

(١) في رواية أنهم ثلاثة ، وفي رواية أنهم سبعة ، وفي رواية أنهم عشرة ،وأن ثلاثا منهم لم يربطوا أنفسهم.

Marfat.com

وهو استفهام تقريري يفيد : فليعلموا أن الله هو يقبل التوبة ؛ والله هو يأخذ الصدقة ، والله هو يتوب ويرحم عباده .. وليس شيء من هـذا لأحد غيره سبحانه .. « وأن نبي الله حين أبى أن يطلق من ربط نفسه بالسواري من المتخلفين عن الغزو معه ؛ وحين ترك قبول صدقتهم بعد أن أطلق الله عنهم حين أذن له في ذلك ، إنما فعل ذلك من أجل أن ذلك لم يكن إليه - صلى الله عليه وسلم - وأن ذلك إلى الله تعالى ذكره دون محمد . وأن محمدا إنما يفعل ما يفعل من ترك وإطلاق وأخذ صدقة وغير ذلك من أفعاله بأمر الله » .. كما يقول ابن جرير ..

وفي النهاية يتوجه الحديث إلى المتخلفين التائبين :

« وقل : اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » ..

ذلك أن المنهج الإسلامي منهج عقيدة وعمل يصدق العقيدة . فمحك الصدق في توبتهم إذن هو العمل الظاهر ، يراه الله ورسوله والمؤمنون . فأما في الآخرة فردهم إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم فعل الجوارح وكوامن الصدور .

إن الندم والتوبة ليسا نهاية المطاف . ولكنه العمل الذي يعقب الندم والتوبة : فيصدق أو يكذب تلك المشاعر النفسية ويعمقها أو يكتسحها بعد أن تكون !

إن الإسلام منهج حياة واقعية ، لا تكفي فيـه المشاعر والنوايا ، ما لم تتحول إلى حركة واقعية . وللنية الطيبة مكانها ؛ ولكنها هي بذاتها ليست مناط الحكم والجزاء . إنما هي تحسب مع العمل ، فتحدد قيمة العمل . وهذا معنى الحديث : « إنما الأعمال بالنيات » .. الأعمال .. لا مجرد النيات !

* * *

والفريق الأخير هو الذي لم يبت في أمره ، وقد وكل أمره إلى ربه :

« وآخرون مرجون لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ، والله عليم حكيم » ..

وهؤلاء هم القسم الأخير من المتخلفين عن غزوة تبوك - غير المنافقين والمعتذرين والمخطئين التائبين - وهذا القسم لم يكن حتى نزول هذه الآية قد بت في أمره بشيء .

Marfat.com

وكان أمرهم موكولا إلى الله ، لم يعلموه ولم يعلمه الناس بعـد .. وقـد روى أن هـذه الآية نزلت فى الثلاثة الذين خلفوا ـ أى أجل إعلان توبتهم والقضاء فى أمرهم ـ وهم مرارة ابن الربيع ، وكعب ابن مالك ، وهلال ابن أمية ، الذين قعدوا عن غزوة تبوك كسلا وميلا إلى الدعة واسترواحاً للظلال فى حر الهاجرة ! ثم كان لهم شأن مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيأتى تفصيله فى موضعه من السورة فى الدرس التالى .

روى ابن جرير بإسناده ـ عن ابن عباس ـ قال : لما نزلت هذه الآية .. يعنى قوله : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » .. أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أموالهم . يعنى أموال أبى لبابة وصاحبيه . . فتصدق بها عنهم ، وبقى الثلاثة الذين خالفوا أبا لبابة ، ولم يوثقوا ولم يذكروا بشىء ، ولم ينزل عذرهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وهم الذين قال الله : « وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم » .. فجعل الناس يقولون . هلكوا ! إذ لم ينزل لهم عـذر . وجعل آخرون يقولون : عسى الله أن يغفر لهم ! فصاروا مرجئين لأمر الله ، حتى نزلت : « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة » . . الذين خرجوا معه إلى الشام . . « من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم » . . ثم قال : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا » ـ يعنى المرجئين لأمر الله ـ نزلت عليهم التوبة فعموا بها ، فقال : « حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم » .. إلى قوله : « إن الله هو التواب الرحيم » .. (وكذلك روى ـ بإسناده ـ عن عكرمة وعن مجاهد ، وعن الضحاك وعن قتادة . وعن ابن إسحاق) . فهذه الرواية أرجح والله أعلم . .

ولما كان أمرهم مرجأ ، فإننا نحب أن نرجئ الحديث فيـه حتى يجىء فى موضعه . إن شاء الله تعالى .

* * *

« والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا ، وتفريقا بين المؤمنين ، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل . وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا ،

Marfat.com

لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ؟ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ؟ والله لا يهدى القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ، إلا أن تقطع قلوبهم ، والله عليم حكيم » .

وقصة مسجد الضرار قصة بارزة فى غزوة تبوك ، لذلك أفرد المنافقون الذين قاموا بها من بين سائر المنافقين ، وخصص لهم حديث مستقل بعد انتهاء الاستعراض العام لطوائف الناس فى المجتمع المسلم حينذاك .

قال ابن كثير فى التفسير : سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب . وكان قد تنصر فى الجاهلية . وقرأ علم أهل الكتاب ؛ وكان فيه عبادة فى الجاهلية ، وله شرف فى الخزرج كبير . فلما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهاجرا إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للاسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها ، وخرج فارا إلى كفار مكة من مشركى قريش يمالئهم على حرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أُحد فكان من أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين . وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين ، فوقع فى إحداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأصيب ذلك اليوم ، فجرح وجهه ، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى ، وشج رأسه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق يا عدو الله ! ونالوا منه وسبوه ، فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومى بعدى شر !

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يموت بعيدا طريدا ، فنالته هذه الدعوة .. وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ، ورأى أمر رسول الله ـ صلى الله عليه

Marfat.com

وسلم ـ فى ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوعده ومناه وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويغلبه ، ويرده عما هو فيه ؛ وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصدا له إذا قدم عليهم بعد ذلك ؛ فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى تبوك ؛ وجاءوا فسألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتى إليهم فيصلى فى مسجدهم ، فيحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ؛ وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة فى الليلة الشاتية ! فعصمه الله من الصلاة فيه ، فقال : « إنا على سفر ، ولكن إذا رجعنا ـ إن شاء الله ـ » فلما قفل ـ عليه السلام ـ راجعا إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل جبريل بخبر مسجد الضرار ، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين فى مسجدهم ـ مسجد قباء ـ الذى أسس من أول يوم على التقوى . فبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة . . (وكذلك روى ـ بإسناده ـ عن ابن عباس وعن سعيد ابن جبير ومجاهد وعروة ابن الزبير وقتادة) .

فهذا هو مسجد الضرار الذى أمر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا يقوم فيه ، وأن يقوم فى المسجد الأول ـ مسجد قباء ـ الذى أقيم على التقوى من أول يوم ، والذين يضم رجالا يحبون أن يتطهروا . « والله يحب المطهرين » . .

هذا المسجد ـ مسجد الضرار ـ الذى اتخذ على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكيدة للإسلام والمسلمين ، لا يراد به إلا الإضرار بالمسلمين ، وإلا الكفر بالله ، وإلا ستر المتآمرين على الجماعة المسلمة ، الكائدين لها فى الظلام ، وإلا التعاون مع أعداء هذا الدين على الكيد له تحت ستار الدين . .

هذا المسجد مايزال يتخذ فى صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التى يتخذها أعداء هذا الدين . تتخذ فى صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام ، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه ! وتتخذ فى صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتتترس وراءها وهى ترمى هذا

Marfat.com

الدين ! وتتخذ فى صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق ، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير لاخوف عليه ولا قلق ! ... وتتخذ فى صور شتى كثيرة ...

ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه يتحتم كشفها وإنزال اللافتات الخادعة عنها ؛ وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها . ولنا أسوة فى كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك البيان القوى الصريح :

« والذين اتخذوا مسجدا ضرارا ، وكفرا ، وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل. وليحلفن : إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لاتقم فيه أبدا . لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ؟ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ؟ والله لايهدى القوم الظالمين . لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ، إلا أن تقطع قلوبهم ، والله عليم حكيم » . .

والتعبير القرآنى الفريد يرسم هنا صورة حافلة بالحركة ، تنبىء عن مصير كل مسجد ضرار يقام إلى جوار مسجد التقوى ، ويراد به ماأريد بمسجد الضرار ؛ وتكشف عن نهاية كل محاولة خادعة تخفى وراءها نية خبيثة ؛ وتطمئن العاملين المتطهرين من كل كيد يراد بهم ، مهما لبس أصحابه مسوح المصلحين :

« أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ؟ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم ؟ والله لايهدى القوم الظالمين » . .

فلنقف نتطلع لحظة إلى بناء التقوى الراسى الراسخ المطمئن . . ثم لنتطلع بعد إلى الجانب الآخر ! لنشهد الحركة السريعة العنيفة فى بناء الضرار . . إنه قائم على شفا جرف هار . . قائم على حافة جرف منهار . . قائم على تربة مخلخلة مستعدة للانهيار . . إننا نبصره اللحظة يتأرجح ويتزحلق وينزلق ! . . إنه ينهار ! إنه ينزلق ! إنه يهوى ! إن الهوة تلتهمه ! يالله ول! إنها نار جهنم . . « والله لايهدى القوم الظالمين » . . الكافرين المشركين . . الذين بنوا هذه البنية ليكيدوا بها هذا الدين !

Marfat.com

إنه مشهد عجيب ، حافل بالحركة المثيرة ترسمه وتحركه بضع كلمات ! . . ذلك ليطمئن دعاة الحق على مصير دعوتهم ، فى مواجهة دعوات الكيد والكفر والنفاق ! وليطمئن البناة على أساس من التقوى كلما واجهوا البناة على الكيد والضرار !

ومشهد آخر يرسمه التعبير القرآنى الفريد لآثار مسجد الضرار فى نفوس بُناته الأشرار ؛ وبناة كل مساجد الضرار :

« لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ، إلا أن تقطع قلوبهم ، والله عليم حكيم » . .

لقد انهار الجرف المنهار . انهار ببناء الضرار الذى أقيم عليه . انهار به فى نار جهنم وبئس القرار ! ولكن ركام البناء بقى فى قلوب بناته . بقى فيها « ريبة » وشكا وقلقا وحيرة . وسيبقى كذلك لايدع تلك القلوب تطمئن أو تثبت أو تستقر . إلا أن تتقطع وتسقط هى الأخرى من الصدور !

وإن صورة البناء المنهار لهى صورة الريبة والقلق وعدم الاستقرار . . تلك صورة مادية وهذه صورة شعورية .. وهما تتقابلان فى اللوحة الفنية العجيبة التى يرسمها التعبير القرآنى الفريد. وتتقابلان فى الواقع البشرى المتكرر فى كل زمان . فما يزال صاحب الكيد الخادع مزعزع العقيدة ، حائر الوجدان ، لايطمئن ولا يستقر ، وهو من انكشاف ستره فى قلق دائم ، وريبة لاطمأنينة معها ولا استقرار .

وهذا هو الإعجاز الذى يرسم الواقع النفسى بريشة الجمال الفنى ، فى مثل هذا التناسق ، بمثل هذا اليسر فى التعبير والتصوير على السواء . .

وتبقى وراء ذلك كله حكمة للمنهج القرآنى فى كشف مسجد الضرار وأهله ؛ وفى تصنيف المجتمع إلى تلك المستويات الإيمانية الواضحة ؛ وفى كشف الطريق للحركة الإسلامية ، ورسم طبيعة المجال الذى تتحرك فيه من كل جوانبه . .

لقد كان القرآن الكريم يعمل فى قيادة المجتمع المسلم ، وفى توجيهه ، وفى توعيته ، وفى إعداده لمهمته الضخمة . . ولن يفهم هذا القرآن إلا وهو يدرس فى مجاله الحركى الهائل ؛ ولن يفهمه إلا أناس يتحركون به مثل هذه الحركة الضخمة فى مثل هذا المجال .

Marfat.com

« إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ، يُقَـٰتِلُونَ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ، وَمَنْ
أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ؛ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ، وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ *
ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ، ٱلْـَٔامِرُونَ
بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ، وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ، وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

« مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ، وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ،
مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا
عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ . فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ
حَلِيمٌ * وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ، إِنَّ ٱللَّهَ
بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ، وَمَا لَكُم مِّن
دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ .

« لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ
مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ *
وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَضَاقَتْ
عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ، وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ، إِنَّ
ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ * مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ
وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ ، وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن
نَّفْسِهِۦ ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ، وَلَا يَطَـُٔونَ
مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ ، وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ،

Marfat.com

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ، لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ * وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ، فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ، وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ .

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ، وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ .

« وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ : أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ؟ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ، وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ * أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ، ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ؟ * وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ : هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ؟ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ، صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ .

« لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ * فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ : حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ » .

هذا المقطع الأخير من السورة ـ أو الدرس الأخير فيها ـ بقية فى الأحكام النهائية فى طبيعة العلاقات بين المجتمع المسلم وغيره ؛ تبدأ من تحديد العلاقة بين المسلم وربه ، وتحديد طبيعة « الإسلام » الذى أعلنه ؛ ومن بيان تكاليف هذا الدين ، ومنهج الحركة به فى مجالاته الكثيرة .

Marfat.com

◆ إن الدخول في الإسلام صفقة بين متبايعين .. الله ـ سبحانه ـ فيها هو المشترى والمؤمن فيها هو البائع . فهى بيعة مع الله لايبقى بعدها للمؤمن شىء فى نفسه ولا فى ماله يحتجزه دون الله ـ سبحانه ـ ودون الجهاد فى سبيله لتكون كلمة الله هى العليا ، وليكون الدين كله لله . فقد باع المؤمن لله فى تلك الصفقة نفسه وماله مقابل ثمن محدد معلوم ، هو الجنة : وهو ثمن لاتعدله السلعة ، ولكنه فضل الله ومنه :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

◆ والذين باعوا هذه البيعة ، وعقدوا هذه الصفقة هم صفوة مختارة ، ذات صفات مميزة .. منها مايختص بذوات أنفسهم فى تعاملها المباشر مع الله فى الشعور والشعائر ؛ ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة فى أعناقهم من العمل خارج ذواتهم لتحقيق دين الله فى الأرض من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقيام على حدود الله فى أنفسهم وفى سواهم :

« التائبون ، العابدون ، الحامدون ، السائحون ، الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله . وبشر المؤمنين » .

◆ والآيات التالية فى السياق تقطع مابين المؤمنين الذين باعوا هذه البيعة وعقدوا هذه الصفقة ، وبين كل من لم يدخلوا معهم فيها ـ ولو كانوا أولى قربى ـ فقد اختلفت الوجهتان ، واختلف المصيران ، فالذين عقدوا هذه الصفقة هم أصحاب الجنة ، والذين لم يعقدوها هم أصحاب الجحيم. ولا لقاء فى دنيا ولا فى آخرة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم . وقربى الدم والنسب إذن لاتنشىء رابطة ، ولاتصلح وشيجة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم :

« ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ـ ولو كانوا أولى قربى ـ من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . إن إبراهيم لأواه حليم » ..

◆ وولاء المؤمن يجب أن يتمحض لله الذى عقد معه تلك الصفقة ؛ وعلى أساس هذا

Marfat.com

الولاء الموحد تقوم كل رابطة وكل وشيجة ـ وهذا بيان من الله للمؤمنين يحسم كل شبهة ويعصم من كل ضلالة ـ وحسب المؤمنين ولاية الله لهم ونصرته، فهم بها فى غنى عن كل ماعداه ، وهو مالك الملك ولا قدرة لأحد سواه :

« وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون ، إن الله بكل شيء عليم ، إن الله له ملك السماوات والأرض ، يحيي ويميت ، ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير » .

◆ ولما كانت هذه طبيعة تلك البيعة ؛ فقد كان التردد والتخلف عن الغزوة فى سبيل الله أمرا عظيما ، تجاوز الله عنه لمن علم من نواياهم الصدق والعزم بعد التردد والتخلف ؛ فتاب عليهم رحمة منه وفضلا :

« لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ، من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ؛ ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ؛ ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم » ..

◆ ومن ثم بيان محدد لتكاليف البيعة فى أعناق أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ؛ أولئك القريبون من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذين يؤلفون القاعـدة الإسلامية ، ومركز الانطلاق الإسلامى ؛ واستنكار لما وقع منهم من تخلف ؛ مع بيان ثمن الصفقة فى كل خطوة وكل حركة فى تكاليف البيعة :

« ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه . ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ، ولاينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لايضيع أجر المحسنين. ولا ينفقون نفقـة صغيرة ولا كبيرة ، ولايقطعون واديا إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » ..

◆ ومع هذا التحضيض العميق على النفرة للجهاد بيان لحدود التكاليف بالنفير العام .وقد اتسعت الرقعة وكثر العدد ، وأصبح فى الإمكان أن ينفر البعض ليقاتل ويتفقه فى الدين ؛ ويبقى

Marfat.com

البعض للقيام بحاجيات المجتمع كله من توفير للأزواد ومن عمارة للأرض، ثم تتلاقى الجهود فى نهاية المطاف :

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة . فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، لعلهم يحذرون ! » .

◆ وفى الآية التالية تحديد لطريق الحركة الجهادية ـ بعد ما أصبحت الجزيرة العربية بجملتها قاعدة للإسلام ونقطة لانطلاقه ـ وأصبح الخط يتجه إلى قتال المشركين كافة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .. وقتال أهل الكتاب كافة كذلك حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون :

« يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين » ..

◆ وعقب هذا البيان المفصل لبيان طبيعة البيعة ومقتضياتها وتكاليفها وخطها الحركى .. يعرض السياق مشهدا من صفحتين تصوران موقف المنافقين وموقف المؤمنين من هذا القرآن وهو يتنزل بموحيات الإيمان القلبية ، وبالتكاليف والواجبات العملية . ويندد بالمنافقين الذين لاتهديهم التوجيهات والآيات ، ولا تعظهم النذر والابتلاءات :

« وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيمانا ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون . وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون . أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون ولاهم يذكرون ؟ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا . صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون » ..

◆ ويختم الدرس وتختم معه السورة بآيتين تصوران طبيعة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وحرصه على المؤمنين ورأفته بهم ورحمته . مع توجيهه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الاعتماد على الله وحده ، والاستغناء عن المعرضين الذين لايهتدون :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين

Marfat.com

رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » .

ولعله من خلال هذا العرض الإجمالى لمحتويات هذا المقطع الأخير فى السورة يتجلى مدى التركيز على الجهاد ؛ وعلى المفاصلة الكاملة على أساس العقيدة ؛ وعلى الانطلاق بهذا الدين فى الأرض ـ وفقا للبيعة على النفس والمال بالجنة للقتل والقتال ـ لتقرير حدود الله والمحافظة عليها ؛ أى لتقرير حاكمية الله للعباد ، ومطاردة كل حاكمية مغتصبة معتدية !

ولعله من خلال هذا العرض الإجمالى لهذه الحقيقة كذلك يتجلى مدى التهافت والهزيمة التى تسيطر على شراح آيات الله وشريعة الله فى هذا الزمان ؛ وهم يحاولون جاهدين أن يحصروا الجهاد الإسلامى فى حدود الدفاع الإقليمى عن « أرض الإسلام » ! بينما كلمات الله ـ سبحانه ـ تعلن فى غير مواربة عن الزحف المستمر على من يلون « أرض الإسلام » هذه من الكفار؛ دون ذكر لأنهم معتدون ! فالاعتداء الأساسى متمثل فى اعتدائهم على ألوهية الله ـ سبحانه ـ بتعبيد أنفسهم وتعبيد العباد لغير الله . وهذا الاعتداء هو الذى يقتضى جهادهم مااستطاع المسلمون الجهاد !

وحسبنا هذه الإشارة فى هذا التقديم المجمل للدرس الأخير ، لنواجه نصوصه بالتفصيل .

* * *

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم . التائبون العابدون الحامدون السائحون ، الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين » ..

هذا النص الذى تلوته من قبل وسمعته مالاأستطيع عده من المرات ، فى أثناء حفظى للقرآن ، وفى أثناء تلاوته ، وفى أثناء دراسته بعد ذلك فى أكثر من ربع قرن من الزمان .. هذا النص ـ حين واجهته فى « الظلال » أحسست أنى أدرك منه مالم أدركه من قبل فى المرات التى لاأملك عدها على مدى ذلك الزمان !

Marfat.com

إنه نص رهيب ! إنه يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله ؛ وعن حقيقة البيعة التي أعطوها - بإسلامهم - طوال الحياة . فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف (المؤمن) وتتمثل فيه حقيقة الإيمان . وإلا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق !

حقيقة هذه البيعة - أو هذه المبايعة كما سماها الله كرما منه وفضلا وسماحة - أن الله - سبحانه - قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم ؛ فلم يعد لهم منها شيء . لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لاينفقونها في سبيله . لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا . . كلا . . إنها صفقة مشتراة ، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء ، وفق مايفرض ووفق ما يحدد ، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم ، لايتلفت ولا يتخير ، ولا يناقش ولا يجادل ، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام . . والثمن : هو الجنة . . والطريق : هو الجهاد والقتل والقتال . . والنهاية : هي النصر أو الاستشهاد :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون » . .

من بايع على هذا . من أمضى عقد الصفقة . من ارتضى الثمن ووفى . فهو المؤمن . فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا . . ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمنا ، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال ، وهو مالك الأنفس والأموال . ولكنه كرم هذا الإنسان فجعله مريدا ؛ وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها - حتى مع الله - وكرمه فقيده بعقوده وعهوده ؛ وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة ؛ ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة : . . شر البهيمة . . « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لايؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لايتقون » . . كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء .

وإنها لبيعة رهيبة - بلا شك - ولكنها في عنق كل مؤمن - قادر عليها - لاتسقط عنه إلا بسقوط إيمانه . ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات :

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون » . .

Marfat.com

عونك اللهم ! فإن العقد رهيب . . وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم « مسلمين » فى مشارق الأرض ومغاربها ، قاعدون ، لا يجاهدون لتقرير ألوهيــة الله فى الأرض ، وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها فى حياة العباد . ولا يقتلون . ولا يقتلون . ولا يجاهدون جهادا مادون القتل والقتال !

ولقد كانت هذه الـكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين ـ على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتتحول من فورها فى القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم ؛ ولم تـكن مجرد معان يتملونهـا بأذهانهم ، أو يحسونها مجردة فى مشاعرهم . كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها . لتحويلها إلى حركة منظورة ، لا إلى صورة متأملة . . هكذا أدركها عبـد الله ابن رواحة ـ ـ رضى الله عنه ـ فى بيعة العقبة الثانية . قال محمد ابن كعب القرظى وغيره : قال عبد الله ابن رواحة رضى الله عنه ، لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (يعنى ليلة العقبة) ـ : اشترط لربك ولنفسك ماشئت . فقال : « أشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ؛ وأشترط لنفسى أن تمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأموالـكم » . قال : فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك ؟ قال : « الجنة » . قالوا : ربح البيع ، ولا نقيل ولا نستقيل . (١) .

هكذا . . « ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل » . . لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين ؛ انتهى أمرها ، وأمضى عقدها ، ولم يعد إلى مرد من سبيل : « لا نقيل ولا نستقيل » فالصفقة ماضية لارجعة فيها ولا خيار ؛ والجنـة : ثمن مقبوض لاموعود ! أليس الوعد من الله ؟ أليس الله هو المشترى ؟ أليس هو الذى وعد الثمن . وعدا قديما فى كل كتبه :

« وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن » . .

« ومن أوفى بعهده من الله ؟ » .

أجل ! ومن أوفى بعهده من الله ؟

---

(١) فى الرواية : « فنزلت : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » . . ونحن نستبعد أن تـكون الآية نزلت يومذاك . فيومذاك لم يكن قد فرض قتال . وهذه آية مدنية قطعا . ولـكنها تتفق مع مضمون تلك البيعة العام .

Marfat.com

إن الجهاد فى سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن . . كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله . . إنها السنة الجارية التى لاتستقيم هـذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » . . « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا » . .

إن الحق لابد أن ينطلق فى طريقه . ولا بد أن يقف له الباطل فى الطريق ! . . بل لابد أن يأخذ عليه الطريق . . إن دين الله لابد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية لله وحده . ولا بد أن يقف له الطاغوت فى الطريق . . بل لابد أن يقطع عليه الطريق . . ولا بد لدين الله أن ينطلق فى « الأرض » كلها لتحرير « الإنسان » كله . ولا بد للحق أن يمضى فى طريقه ولا ينثنى عنه ليدع للباطل طريقا ! . . وما دام فى « الأرض » كفر . وما دام فى « الأرض » باطل . وما دامت فى « الأرض » عبودية لغير الله تذل كرامة « الإنسان » فالجهاد فى سبيل الله ماض ، والبيعة فى عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء . وإلا فليس بالإيمان : و « من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من النفاق » . . . (رواه الإمام أحمد ، وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائى) .

« فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم لله ، وأخـذ الجنة عوضا وثمنا ، كما وعد الله . . وما الذى فات ؟ ما الذى فات المؤمن الذى يسلم لله نفسه وماله ويستعيض الجنة ؟ والله مافاته شىء . فالنفس إلى موت ، والمال إلى فوت . سواء أنفقهما صاحبهما فى سبيل الله أم فى سبيل سواه ! والجنة كسب . كسب بلا مقابل فى حقيقة الأمر ولا بضاعة ! فالمقابل زائل فى هـذا الطريق أو ذاك !

ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش لله . ينتصر - إذا انتصر - لإعلاء كلمته ، وتقرير دينه ، وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه . ويستشهد - إذا استشهد - فى سبيله ، ليؤدى لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة . ويستشعر فى كل حركة وفى كل خطوة - أنه أقوى من قيود الأرض وأنه أرفع من ثقلة الأرض ، والإيمان ينتصر فيه على الألم ، والعقيدة تنتصر فيه على الحياة .

Marfat.com

إن هذا وحده كسب . كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التى لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة ؛ وانتصار الإيمان فيه على الألم ، وانتصار العقيدة فيه على الحياة . . فإذا أضيفت إلى ذلك كله . . الجنة . . فهو بيع يدعو إلى الاستبشار ؛ وهو فوز لاريب فيه ولا جدال :

« فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

ثم نقف وقفة قصيرة أمام قوله تعالى فى هذه الآية :

« وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن » . .

فوعدالله للمجاهدين فى سبيله فى القرآن معروف مشهور مؤكد مكرور .. وهو لايدع مجالا للشك فى إصالة عنصر الجهاد فى سبيل الله فى طبيعة هذا المنهج الربانى ؛ باعتباره الوسيلة المكافئة للواقع البشرى - لا فى زمان بعينه ولا فى مكان بعينه - مادام أن الجاهلية لا تتمثل فى نظرية تقابل بنظرية ولكنها تتمثل فى تجمع عضوى حركى، يحمى نفسه بالقوة المادية ؛ ويقاوم دين الله وكل تجمع إسلامى على أساسه بالقوة المادية كذلك ؛ ويحول دون الناس والاستماع لإعلان الإسلام العام بألوهية الله وحده للعباد ، وتحرير « الإنسان » فى « الأرض » من العبودية للعباد . كما يحول دونهم ودون الانضمام العضوى إلى التجمع الإسلامى المتحرر من عبادة الطاغوت بعبوديته لله وحده دون العباد . . ومن ثم يتحتم على الإسلام فى انطلاقه فى « الأرض » لتحقيق إعلانه العام بتحرير « الإنسان » أن يصطدم بالقوة المادية التى تحمى التجمعات الجاهلية ؛ والتى تحاول بدورها - فى حتمية لافكاك منها - أن تسحق حركة البعث الإسلامى وتخفت إعلانه التحريرى ، لاستبقاء العباد فى رق العبودية للعباد !

فأما وعد الله للمجاهدين فى التوراة والإنجيل . فهو الذى يحتاج إلى شىء من البيان . .

إن التوراة والإنجيل اللذين فى أيدى اليهود والنصارى اليوم لايمكن القول بأنهما هما اللذان أنزلهما الله على نبيه موسى وعلى نبيه عيسى عليهما السلام ! وحتى اليهود والنصارى أنفسهم لايجادلون فى أن النسخة الأصلية لهذين الكتابين لاوجود لها ؛ وأن مابين أيديهم قد كتب بعد فترة طويلة ضاعت فيها معظم أصول الكتابين ؛ ولم يبق إلا ماوعته ذاكرة بعد ذاكرة ..وهو قليل .. أضيف إليه الكثير !

Marfat.com

ومع ذلك فما تزال فى كتب العهد القديم إشارات إلى الجهاد ، والتحريض لليهود على قتال أعدائهم الوثنيين ، لنصر إلههم وديانته وعبادته ! وإن كانت التحريفات قد شوهت تصورهم لله ـ سبحانه ـ وتصورهم للجهاد فى سبيله .

فأما فى الأناجيل التى بين أيدى النصارى اليوم فلا ذكر ولا إشارة إلى جهاد .. ولكننا فى حاجة شديدة إلى تعديل المفهومات السائدة عن طبيعة النصرانية ؛ فهذه المفهومات إنما جاءت من هذه الأناجيل التى لا أصل لها ـ بشهادة الباحثين النصارى أنفسهم ! ـ وقبل ذلك بشهادة الله سبحانه كما وردت فى كتابه المحفوظ الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والله سبحانه يقول فى كتابه المحفوظ : إن وعده بالجنة لمن يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ؛ ثابت فى التوراة والإنجيل والقرآن . . فهذا إذن هو القول الفصل الذى ليس بعده لقائل مقال !

إن الجهاد فى سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن . كل مؤمن على الإطلاق . منذ كانت الرسل ، ومنذ كان دين الله ..

ولكن الجهاد فى سبيل الله ليس مجرد اندفاعة إلى القتال ؛ إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل فى مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال . والمؤمنون الذين عقد الله معهم البيعة ، والذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تتمثل فيهم صفات إيمانية أصيلة :

« التائبون . العابدون . الحامدون . السائحون . الراكعون الساجدون . الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر . والحافظون لحدود الله » ..

« التائبون » .. مما أسلفوا ، العائدون إلى الله مستغفرين . والتوبة شعور بالندم على ما مضى ، وتوجه إلى الله فيما بقى ، وكف عن الذنب ، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك . فهى طهارة وزكاة وتوجه وصلاح .

« العابدون » .. المتوجهون إلى الله وحده بالعبادة وبالعبودية ، إقرارا بالربوبية .. صفة هذه ثابتة فى نفوسهم تترجمها الشعائر ، كما يترجمها التوجه إلى الله وحده بكل عمل وبكل قول وبكل

Marfat.com

طاعة وبكل اتباع . فهي إقرار بالألوهية والربوبية لله في صورة عملية واقعية .

« الحامدون » .. الذين تنطوي قلوبهم على الاعتراف للمنعم بالنعمة ؛ وتلهج ألسنتهم بحمد الله في السراء والضراء . في السراء للشكر على ظاهر النعمة ، وفي الضراء للشعور بما في الابتلاء من الرحمة . وليس الحمد هو الحمد في السراء وحدها ، ولكنه الحمد في الضراء حين يدرك القلب المؤمن أن الله الرحيم العادل ما كان ليبتلي المؤمن إلا لخير يعلمه ، مهما خفي على العباد إدراكه .

« السائحون » .. وتختلف الروايات فيهم . فمنها مايقول : إنهم المهاجرون . ومنها مايقول : إنهم المجاهدون . ومنها مايقول : إنهم المتنقلون في طلب العلم . ومنهم من يقول : إنهم الصائمون.. ونحن نميل إلى اعتبارهم المتفكرين في خلق الله وسننه ، ممن قيل في أمثالهم في موضع آخر : « إن في خلق السماوات والأرض . واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ! ... » .. فهذه الصفة أليق هنا بالجو بعد التوبة والعبادة والحمد . فمع التوبة والعبادة والحمد يكون التدبر في ملكوت الله على هذا النحو الذي ينتهي بالإنابة إلى الله ، وإدراك حكمته في خلقه ، وإدراك الحق الذي يقوم عليه الخلق . لا للاكتفاء بهذا الإدراك وإنفاق العمر في مجرد التأمل والاعتبار . ولكن لبناء الحياة وعمرانها بعد ذلك على أساس هذا الإدراك ..

« الراكعون الساجدون » .. الذين يقيمون الصلاة ويقومون بالصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاتهم ؛ وكأن الركوع والسجود طابع مميز بين الناس لهم .

« الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر » . . وحين يقوم المجتمع المسلم الذي تحكمه شريعة الله ، فيدين لله وحده ولا يدين لسواه ، يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في داخل هذا المجتمع ؛ ويتناول مايقع فيه من أخطاء وانحرافات عن منهج الله وشرعه .. ولكن حين لايكون في الأرض مجتمع مسلم ؛ وذلك حين لايكون في الأرض مجتمع الحاكمية فيه لله وحده ، وشريعة الله وحدها هي الحاكمة فيه ، فإن الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولا إلى الأمر بالمعروف الأكبر ، وهو تقرير ألوهية الله وحده سبحانه وتحقيق قيام المجتمع المسلم .

Marfat.com

والنهى عن المنكر يجب أن يتجه أولا إلى النهى عن المنكر الأكبر . وهو حكم الطاغوت وتعبيد الناس لغير الله عن طريق حكمهم بغير شريعة الله .. والذين آمنوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هاجروا وجاهدوا ابتداء لإقامة الدولة المسلمة الحاكمة بشريعة الله ، وإقامة المجتمع المسلم المحكوم بهذه الشريعة. فلما تم لهم ذلك كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فى الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصى . ولم ينفقوا قط جهدهم ، قبل قيام الدولة المسلمة والمجتمع المسلم فى شىء من هذه التفريعات التى لا تنشأ إلا بعد قيام الأصل الأصيل ! ومفهوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لابد أن يدرك وفق مقتضى الواقع . فلا يبدأ بالمعروف الفرعى والمنكر الفرعى قبل الانتهاء من المعروف الأكبر والمنكر الأكبر ، كما وقع أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم !

« والحافظون لحدود الله » . . وهو القيام على حدود الله لتنفيذها فى النفس وفى الناس . ومقاومة من يضيعها أو يعتدى عليها . . ولكن هذه كالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا يقام عليها إلا فى مجتمع مسلم . ولا مجتمع مسلم إلا المجتمع الذى تحكمه شريعة الله وحدها فى أمره كله ؛ وإلا الذى يفرد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والحاكمية والتشريع ؛ ويرفض حكم الطاغوت المتمثل فى كل شرع لم يأذن به الله . . والجهد كله يجب أن ينفق ابتداء لإقامة هذا المجتمع . ومتى قام كان هناك مكان للحافظين لحدود الله فيه . . كما وقع كذلك أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم !

هذه هى الجماعة المؤمنة التى عقد الله معها بيعته . وهذه هى صفاتها ومميزاتها : توبة ترد العبد إلى الله ، وتكفه عن الذنب ، وتدفعه إلى العمل الصالح . وعبادة تصله بالله وتجعل الله معبوده وغايته ووجهته . وحمد لله على السراء والضراء نتيجة الاستسلام الكامل لله والثقة المطلقة برحمته وعدله . وسياحة فى ملكوت الله مع آيات الله الناطقة فى الكون الدالة على الحكمة والحق فى تصميم الخلق . وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة . وحفظ لحدود الله يرد عنها العادين والمضيعين ، ويصونها من التهجم والانتهاك . .

Marfat.com

هذه هى الجماعة المؤمنة التى بايعها الله على الجنة ، واشترى منها الأنفس والأموال ، لتمضى مع سنة الله الجارية منذ كان دين الله ورسله ورسالاته . قتال فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ؛ وقتل لأعداء الله الذين يحادّون الله ؛ أو استشهاد فى المعركة التى لاتفتر بين الحق والباطل ، وبين الإسلام والجاهلية ، وبين الشريعة والطاغوت ، وبين الهدى والضلال .

وليست الحياة لهوا ولعبا . وليستْ الحياة أكلا كما تأكل الأنعام ومتاعا . وليست الحياة سلامة ذليلة ، وراحة بليدة ورضى بالسلم الرخيصة . . إنما الحياة هى هذه : كفاح فى سبيل الحق ، وجهاد فى سبيل الخير ، وانتصار لإعلاء كلمة الله ، أو استشهاد كذلك فى سبيل الله . . ثم الجنة والرضوان . .

هذه هى الحياة التى يدعى إليها المؤمنون بالله : « ياأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » . .

. . وصدق الله . وصدق رسول الله . .

* * *

والمؤمنون الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، أمة وحدهم ، العقيدة فى الله بينهم هى وشيجة الارتباط والتجمع الوحيدة . وهذه السورة التى تقرر العلاقات الأخيرة بين الجماعة المسلمة ومن عداها ، تحسم فى شأن العلاقات التى لاتقوم على هذه الوشيجة . وبخاصة بعد ذلك التخلخل الذى أنشاه التوسع الأفقى الشديد فى المجتمع المسلم عقب فتح مكة ، ودخول أفواج كثيرة فى الإسلام لم يتم انطباعها بطابعه ؛ وما تزال علاقات القربى عميقة الجذور فى حياتها . والآيات التالية تقطع مابين المؤمنين الذين باعوا تلك البيعة وبين من لم يدخلوا معهم فيها ـ ولو كانوا أولى قربى ـ بعدما اختلفت الوجهتان واختلفت العاقبتان فى الدنيا والآخرة :

« ما كان للنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ـ ولو كانوا أولى قربى ـ من بعد ماتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم . وما كان الله ليضل قوما بعد إذ

Marfat.com

هداهم حتى يبين لهم مايتقون ، إن الله بكل شيء عليم . إن الله له ملك السماوات والأرض ، يحي ويميت ، ومالكم من دون الله من ولى ولا نصير » .

والظاهر أن بعض المسلمين كانوا يستغفرون لآبائهم المشركين ويطلبون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يستغفر لهم ؛ فنزلت الآيات تقرر أن فى هذا الاستغفار بقية من تعلق بقرابات الدم ، فى غير صلة بالله ، لذلك ما كان للنبي والذين آمنوا أن يفعلوه . . ما كان لهم قطعا وليس من شأنهم أصلا . . أما كيف يتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، فالأرجح أن يكون ذلك بموتهم على الشرك ، وانقطاع الرجاء من أن تكون لهم هداية إلى الإيمان .

إن العقيدة هى العروة الكبرى التى تلتقى فيها سائر الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية . فإذا انبتت وشيجة العقيدة انبتت الأواصر الأخرى من جذورها ، فلا لقاء بعد ذلك فى نسب، ولا لقاء بعد ذلك فى صهر . ولا لقاء بعد ذلك فى قوم . ولا لقاء بعد ذلك فى أرض . . إما إيمان بالله فالوشيجة الكبرى موصولة ، والوشائج الأخرى كلها تنبع منها وتلتقى بها . أو لا إيمان فلا صلة إذن يمكن أن تقوم بين إنسان وإنسان (١) :

« وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم » .

فلا أسوة بإبراهيم فى استغفاره لأبيه . فإنما كان استغفار إبراهيم لأبيه بسبب وعده له أن يستغفر له الله لعله يهديه ، ذلك إذ قال له : « سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » . . فلما أن مات أبوه على الشرك ، وتبين إبراهيم أن أباه عدو لله لارجاء فى هداه ، « تبرأ منه » وقطع صلته به .

« إن إبراهيم لأواه حليم » . .

كثير التضرع لله ، حليم على من آذاه . ولقد آذاه أبوه فكان حليما ؛ وتبين أنه عدو لله فتبرأ منه وعاد لله ضارعا .

---

(١) يراجع فصل : « جنسية المسلم عقيدته » فى كتاب : « معالم فى الطريق » .

Marfat.com

وقد ورد أنه لما نزلت الآيتان خشى الذين كانوا يستغفرون لآبائهم المشركين أن يكونوا قد ضلوا لمخالفتهم عن أمر الله فى هـذا فنزلت الآية التالية تطمئنهم من هـذا الجانب ، وتقرر القاعدة الإسلامية : أنه لاعقوبة بغير نص ؛ ولا جريمة بغير بيان سابق على الفعل :

« وما كان الله ليضل قوما بعـد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون . إن الله بـكل شىء عليم » . .

إن الله لايحاسب الناس إلا على مابين لهم أن يتقوه ويحذروه ولا يأتوه . وليس من شأنه أن يذهب بهدى قوم بعـد إذ هداهم ويكلهم إلى الضلال لمجرد الفعل ، مالم يـكن هذا الفعل مما نهاهم عنه قبلا . . ذلك أن الإنسان قاصر والله هو العليم بكل شىء . ومنه البيان والتعليم .

ولقد جعل الله هذا الدين يسرا لاعسرا ، فبين مانهى عنه بيانا واضحا ، كما بين ماأمر به بيانا واضحا . وسكت عن أشياء لم يبين فيها بيانا ـ لاعن نسيان ولـكن عن حكمة وتيسير ـ ونهى عن السؤال عما سكت عنه ، لئلا ينتهى السؤال إلى التشديد . ومن ثم فليس لأحد أن يحرم شيئا من المسكوت عنه ، ولا أن ينهى عما لم يبينه الله . تحقيقا لرحمة الله بالعباد . .

وفى نهاية هذه الآيات ، وفى جو الدعوة إلى التجرد من صلات الدم والنسب ، بعد التجرد من الأنفس والأموال يقرر أن الولى الناصر هو الله وحـده . وأنه مالك السماوات والأرض ومالك الموت والحياة .

« إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت ، ومالـكم من دون الله من ولى ولا نصير » .

فالأموال والأنفس ، والسماوات والأرض ، والحياة والموت ، والولاية والنصرة . . كلها بيد الله دون سواه . وفى الصلة بالله وحده كفاية وغناء .

وهذه التوكيدات المتوالية ، وهذا الحسم القاطع فى علاقات القرابة تدل على ما كان يعتور بعض النفوس من اضطراب وأرجحة بين الروابط السائدة فى البيئة ، ورابطة العقيدة الجديدة . مما اقتضى هذا الحسم الأخير ، فى السورة التى تتولى الحسم فى كل علاقات المجتمع المسلم بما حوله . . حتى الاستغفار للموتى على الشرك قد لقى هذا التشديد فى شأنه . . ذلك لتخلص القلوب من كل وشيجة إلا تلك الوشيجة .

Marfat.com

إن التجمع على آصرة العقيدة وحدها هو قاعدة الحركة الإسلامية . فهو أصل من أصول الاعتقاد والتصور ؛ كما أنه أصل من أصول الحركة والانطلاق . . وهذا ماقررته السورة الحاسمة وكررته أيضا . .

* * *

ولما كانت تلك طبيعة البيعة ، كان التخلف عن الجهاد للقادرين ـ أيا كانت الأسباب ـ أمرا مستنكرا عظيما ؛ وكان مابدا فى الغزوة من التردد والتخلف ظاهرة لابد من تتبعها والتركيز عليها .. وفى الآيات التالية يبين مدى فضل الله ورحمته بالمؤمنين إذ يتجاوز عما بدا من التردد والتخلف من المؤمنين المخلصين ، ويتوب عليهم فيما وقع منهم من أخطاء صغرت أم كبرت .. كذلك يبين عن مصير الثلاثة الذين خلفوا بغير حكم فى أمرهم ـ وهم المرجون لأمر الله الذين سبق ذكرهم ـ حتى نزل هذا الحكم بعد فترة من الزمان :

« لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة ، من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ؛ ثم تاب عليهم ليتوبوا . إن الله هو التواب الرحيم » .

وتوبة الله على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تفهم بالرجوع إلى ما كان فى أحداث الغزوة بجملتها؛ والظاهر أنها متعلقة بماسبق أن قال الله عنه لنبيه : « عفا الله عنك . لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين » .. ذلك حين استأذنه جماعة من أولى الطول بأعذار متنحلة فأذن لهم . وقد عفا الله عنه فى اجتهاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع تنبيه إلى أن الأولى كان هو التريث حتى يتبين الصادقين فى أعذارهم من الكاذبين المتمحلين !

وتوبته على المهاجرين والأنصار يشير النص الذى بين أيدينا إلى ملابساتها فى قوله تعالى : « الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم » .. وقد كان بعضهم تثاقل فى الخروج ثم لحق بالركب كما سنفصل ـ وهم من خلص المؤمنين ـ وبعضهم استمع المنافقين المرجفين بهول لقاء الروم ! ثم ثبت الله قلبه ومضى بعد تردد .

Marfat.com

ونحن أن نستعرض بعض ظروف الغزوة وملابساتها لنعيش فى جوها الذى يقرر الله ـ سبحانه ـ أنه كان « ساعة العسرة » . ولندرك طبيعة الانفعالات والحركات التى صاحبتها (ونحن نلخص فى هذا من السيرة لابن هشام ، ومن إمتاع الأسماع للمقريزى ، ومن البداية والنهاية لابن كثير ، ومن تفسير ابن كثير) :

لما نزل قوله تعالى : « قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولايحرمون ماحرم الله ورسوله ، ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ... » أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم (ويلاحظ أن الاشتباك بالروم كان قد سبق نزول هذه الآيات فى غزوة مؤتة فهذا الأمر الأخير إنما جاء تقريرا للخطة الدائمة المستقرة فى آخر مانزل من القرآن) وذلك فى زمن عسرة من الناس ، وشدة من الحر ، وجدب من البلاء ، وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال والزمان الذى هم عليه . وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصمد له (أى يقصد إليه) إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس ، لبعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذى يصمد له ، ليتاهب الناس لذلك أهبته . فأمر الناس بالجهاز ، وأخبرهم أنه يريد الروم .

واستأذن بعض المنافقين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التخلف مخافة الفتنة ببنات الروم ! فأذن ! وفى هذا نزل عتاب الله لنبيه فى الإذن مصدرا بالعفو عنه فى اجتهاده : « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ؟ » ..

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : لاتنفروا فى الحر ـ زهادة فى الجهاد ، وشكا فى الحق ، وإرجافا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم : « وقالوا : لاتنفروا فى الحر ، قل : نار جهنم أشد حرا لوكانوا يفقهون ،فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون » .

وبلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ناسا من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى،

Marfat.com

يثبطون الناس عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى غزوة تبوك ؛ فبعث إليهم النبي – صلى الله عليه وسلم – طلحة ابن عبيد الله فى نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، ففعله طلحة ، فاقتحم الضحاك ابن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله ، واقتحم أصحابه فأفلتوا . ثم تاب الضحاك .

ثم إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جد فى سفره وأمر الناس بالجهاز والإسراع . وحض أهل الغنى على النفقة وحمل المجاهدين الذين لايجدون ماير كبون ؛ فحمل رجال من أهل الغنى محتسبين عند الله . وكان فى مقدمة المنفقين المحتسبين ، عثمان ابن عفان – رضى الله عنه – فأنفق نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها . . قال ابن هشام : فحدثنى من أثق به أن عثمان أنفق فى جيش العسرة فى غزوة تبوك ألف دينار ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض » . وقال عبد الله ابن أحمد فى مسند أبيه – بإسناده – عن عبد الرحمن ابن حباب السلمى ، قال : خطب النبي – صلى الله عليه وسلم – فحث على جيش العسرة ، فقال عثمان ابن عفان على مئة بعير بأحلاسها وأقتابها . قال : ثم نزل مرقاة من المنبر ، ثم حث ، فقال عثمان : على مئة أخرى بأحلاسها وأقتابها . قال : فرأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول بيده هكذا يحركها (وأخرج عبدالصمد يده كالمتعجب): « ماعلى عثمان ماعمل بعدهذا » . . (وهكذا رواه الترمذى عن محمد ابن يسار عن أبى داود الطيالسى ، عن سكن ابن المغيرة أبى محمد مولى لآل عثمان به . وقال: غريب من هذا الوجه) . ورواه البيهقى من طريق عمرو ابن مرزوق عن سكن ابن المغيرة به ، وقال : ثلاث مرات وأنه التزم بثلاثمئة بعير بأحلاسها وأقتابها . .

وأخرج ابن جرير من طريق يحي ابن أبى كثير ، ومن طريق سعيد عن قتادة وابن أبى حاتم من طريق الحكم ابن أبان عن عكرمة – بألفاظ مختلفة – قال : حث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على الصدقة (يعنى فى غزوة تبوك) فجاء عبد الرحمن ابن عوف بأربعة آلاف (أى درهم) ، فقال يارسول الله ، مالى ثمانية آلاف ، جئتك بنصفها وأمسكت نصفها . فقال : « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » . وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال : يارسول الله أصبت صاعين

Marfat.com

من تمر ، صاع أقرضته لربى وصاع لعيالى . قال : فلمزه المنافقون ، وقالوا : ماالذى أعطى ابن عوف إلا رياء . وقالوا ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟!

وفى روايات أخرى أنهم قالوا عن أبى عقيل (وهو الذى بات يعمل عند يهودى ليحصل على صاعين أجرا له جاء بأحدهما لرسول الله — صلى الله عليه وسلم —) إنه إنما أراد أن يذكر بنفسه !

ثم إن رجالا من المسلمين أتوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهم البكاءون . وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم(١). فاستحملوا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — .(أى طلبوا منه أن يحملهم على ركائب إلى أرض المعركة ، وكانوا أهل حاجة . فقال : « لا أجد ما أحملكم عليه » . فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون .

قال ابن إسحاق : فبلغنى أن ابن يامين ابن عمير ابن كعب النضرى لقى أباليلى عبد الرحمن ابن كعب وعبد الله ابن مغفل (من السبعة البكائين) وهما يبكيان فقال : مايبكيكما ؟ قالا : جئنا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليحملنا ، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ماتتقوى به على الخروج معه . فأعطاهما ناضحا له (أى جملا يستقى عليه الماء) فارتحلاه . وزودهما شيئا من تمر ، فخرجا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

زاد يونس ابن بكير عن ابن إسحاق : وأما علبة ابن زيد (أحد البكائين) فخرج من الليل فصلى من ليلته ماشاء الله ، ثم بكى وقال : اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندى ماأتقوى به ، ولم تجعل فى يد رسولك مايحملنى عليه ، وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها فى مال أو جسد أو عرض .. ثم أصبح مع الناس . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أين المتصدق هذه الليلة ؟ » فلم يقم أحد ! ثم قال : « أين المتصدق ؟ فليقم » فقام إليه فأخبره . فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : « أبشر ، فوالذى نفسى بيده ، لقد كتبت لك فى الزكاة المتقبلة » ..

ثم خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بمن معه وقد قارب عددهم ثلاثين ألفا من أهل

---

(١) سبق ذكرهم فى نهاية الجزء العاشر فيرجع إلى تفصيل الخبر هناك .

Marfat.com

المدينة ومن قبائل الأعراب من حولها . وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية من غيرشك ولا ارتياب، منهم : كعب ابن مالك ، ومرارة ابن الربيع ، وهلال ابن أمية (وهم الثلاثة الذين سيرد تفصيل قصتهم) وأبو خيثمة وعمير ابن وهب الجمحى .. وضرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عسكره على « ثنية الوداع » وضرب عبد الله ابن أبى ـ رأس النفاق ـ عسكره على حدة ، أسفل منه ، قال ابن إسحاق : (وكانوا فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين) .. ولكن الروايات الأخرى تقول : إن الذين تخلفوا فعلا دون المئة .. فلما سار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تخلف عنه عبد الله ابن أبى فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب .

ثم مضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سائرا ، فجعل يتخلف عنه الرجل ، فيقولون: يارسول الله ، تخلف فلان ، فيقول: « دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه » حتى قيل : يارسول الله ، قد تخلف أبو ذر ، وأبطأ به بعيره ، فقال : « دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه » . وتلوم أبو ذر على بعيره (أى انتظر عليه) ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماشيا . ونزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى بعض منازله ، فنظر ناظر من المسلمين فقال : يارسول الله ، إن هذا لرجل يمشى على الطريق وحده . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « كن أبا ذر » فلما تأمله القوم قالوا: يارسول الله ، هو والله أبو ذر . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « رحم الله أبا ذر، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده » .

ثم إن أبا خيثمة رجع ـ بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم أياما ـ إلى أهله فى يوم حار ، فوجد امرأتين له فى عريشين لهما فى حائطه (أى فى حديقته) قد رشت كل واحدة منهما عريشها ، وبردت له فيه ماء . وهيأت له فيه طعاما . فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه وماصنعتا له ، فقال : رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الضح (أى الشمس) والريح والحر ، وأبو خيثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء فى ماله مقيم ؟! ماهذا بالنصف ! ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهيئا لى

Marfat.com

زادا . ففعلتا . ثم قدم ناضحه فارتحله ، ثم خرج فى طلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى أدركه حين نزل تبوك ..وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير ابن وهب الجمحى فى الطلب يطلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فترافقا ، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير ابن وهب : إن لى ذنبا فلا عليك أن تخلف عنى حتى آتى رسول الله- صلى الله عليه وسلم - ففعل. حتى إذا دنا من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو نازل بتبوك قال الناس : هذا راكب على الطريق مقبل . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « كن أبا خيثمة » . فقالوا : يارسول الله ، هو والله أبو خيثمة فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم- فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أولى لك ياأبا خيثمة !(١) » . ثم أخبر رسول الله -صلى الله عليه وسلم - الخبر . فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خيرا ، ودعا له بخير .

قال ابن إسحاق: وقد كان رهط من المنافقين منهم وديعة ابن ثابت أخو بنى عمرو ابن عوف، ومنهم رجل من أشجع حليف لبنى سلمة يقال له : « مُخشن ابن حُمير » (قال ابن هشام : ويقال: مخشى) يشيرون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بنى الأصفر (يعنون الروم) كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ والله لكأنا بكم غدا مقرنين فى الحبال .. إرجافا وترهيبا للمؤمنين .. فقال مخشن ابن حمير : والله لوددت أنى أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مئة جلدة ، وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيما بلغنى - لعمار ابن ياسر : « أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا فإن أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا » . فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعتذرون إليه ، فقال وديعة ابن ثابت ، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - واقف على ناقته ،فجعل يقول وهو آخذ بحقبها (وهو الحبل يشد على بطن البعير) يارسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب . فأنزل الله عز وجل : « ولئن سألتهم ليقولن : إنما كنا نخوض ونلعب . قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ » وقال مخشن ابن حمير : يارسول الله ، قعد أبى اسمى واسم أبى اوكان الذى عفى عنه فى هذه الآية مخشن

(١) وهى كلمة تقال للوعيد ..

Marfat.com

ابن حمير . فتسمى عبد الرحمن . وسأل الله تعالى أن يقتله شهيدا لايعلم بمكانه فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر ..

قال ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة ابن الزبير قال : لما قفل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم من تبوك ـ بعدما أقام بها بضع عشرة ليلة لم يلق فيها حربا ـ همّ جماعة من المنافقين بالفتك به ، وأن يطرحوه من رأس عقبة فى الطريق ، فأخبر بخبرهم ، فأمر الناس بالمسير من الوادى ، وصعد هو العقبة ، وسلكها معه أولئك النفر وقد تلثموا ، وأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمار ابن ياسر وحذيفه ابن اليمان أن يمشيا معه . عمار آخذ بزمام الناقة ، وحذيفة يسوقها ؛ فبينما هم يسيرون إذ سمعوا بالقوم قد غشوهم ، فغضب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبصر حذيفة غضبه ،فرجع إليهم ومعه محجن ، فاستقبل وجوه رواحلهم بمحجنه، فلما رأوا حذيفة ظنوا أن قد ظهر على ماأضمروه من الأمر العظيم ؛ فأسرعوا حتى خالطوا الناس ؛ وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمرهما فأسرعا حتى قطعوا العقبة ، ووقفوا ينتظرون الناس . ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحذيفة : « هل عرفت هؤلاء القوم ؟ » قال : ماعرفت إلا رواحلهم فى ظلمة الليل حين غشيتهم . ثم قال : « علمتما ما كان من شأن هؤلاء الركب ؟ » قالا : لا . فأخبرهما بما كانوا تمالأوا عليه ، وسماهم لهما ، واستكتمهما ذلك ، فقالا : يارسول الله ، أفلا تأمر بقتلهم ؟ فقال : « أكره أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه » ..

قال ابن كثير فى البداية والنهاية :

وقد ذكر ابن إسحاق هذه القصة إلا أنه ذكر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما أعلم بأسمائهم حذيفة ابن اليمان وحده . وهذا هو الأشبه ، والله أعلم(١) ..

فأما العسرة التى لقيها المسلمون فىالغزوة فقد وردت بعض الروايات بشواهد منها .. قال ابن كثير فى التفسير :

قال مجاهد وغير واحد نزلت هذه الآية : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار

---

(١) لم أجد هذا فيما رواه ابن هشام عن ابن إسحاق فى السيرة .

Marfat.com

الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعدما كاديزيغ قلوب فريق منهم ،ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم » .. فى غزوة تبوك . وذلك أنهم خرجوا إليها فى شدة من الأمر ، فى سنة مجدبة ، وحر شديد ، وعسر من الزاد والماء .. قال قتادة : خرجوا إلى الشام على تبوك فى لهبان الحر ، على مايعلم الله من الجهد ، فأصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم .

وروى ابن جرير ـ بإسناده ـ إلى عبد الله ابن عباس : أنه قيل لعمر ابن الخطاب فى شأن العسرة ، فقال عمر ابن الخطاب : خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى تبوك،فنزلنا منزلا فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ،ويجعل مابقى على كبده .

وقال ابن جرير فى قوله :« لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة » ـ أى من النفقة والظهر والزاد والماء ـ « من بعدما كاد يزيغ قلوب فريق منهم » ـ أى عن الحق ، ويشك فى دين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويرتاب للذى نالهم من المشقة والشدة فى سفرهم وغزوهم ـ « ثم تاب عليهم » يقول : ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه « إنه بهم رؤوف رحيم » ..

ولعل هذا الاستعراض أن يصور لنا اليوم كيف كانت « العسرة » كما ينقل لنـا لمحة من الجو الذى عاشه المجتمع المسلم فى تلك الفترة ؛ يتجلى فيها تفاوت المقامات الإيمانيـة ، من اليقين الجاد عند طائفة . إلى الزلزلة والأرجحة تحت مطارق العسرة عند طائفة . إلى القعود والتخلف ـ بغير ريبة ـ عند طائفة . إلى النفاق الناعم عند طائفة . إلى النفاق الفاجر عنـد طائفة . إلى النفاق المتآمر عند طائفة . . . مما يشى أولا بالحالة العامة للتركيب العضوى للمجتمع فى هـذه الفترة ؛ ويشى ثانيـا بمشقة الغزوة ـ فى مواجهة الروم ومع العسرة ـ هـذه المشقة الممحصة الممتحنة الكاشفة ؛ والتى لعل الله سبحانه قد قدرها من أجل التمحيص والكشف والتمييز .

* * *

Marfat.com

هذه هى العسرة التى تخلف فيها المتخلفون وكثرتهم من المنافقين الذين سلف بيان أمرهم ومن المؤمنين الذين لم يقعدوا شكا ولا نفاقا ، إنما قعدوا كسلا واسترواحا للظلال فى المدينة . وهؤلاء جماعتان ؛ جماعة قضى فى أمرهم من قبل ، وهم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا ، واعترفوا بذنوبهم ، وجماعة أخرى : « مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم » وهم هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا ، أى تركوا بلا حكم . وأرجئوا حتى يحكم الله فيهم . وهنا تفصيل أمرهم بعد الإرجاء فى الحكم والإرجاء فى السياق . .

وقبل أن نقول نحن عن هؤلاء شيئا فى تفسير النص المصور لحالهم ؛ وقبل أن نعرض الصورة الفنية المعجزة التى رسمها التعبير لهم ولحالهم ، ندع أحدهم يتحدث عما كان . . هو كعب ابن مالك ــ رضى الله عنه ــ : أخرج أحمد والبخارى ومسلم من طريق الزهرى قال أخبرنى عبد الرحمن ابن عبد الله ابن كعب ابن مالك أن عبد الله ابن كعب ابن مالك ــ وكان قائد كعب من بنيه حين عمى ــ قال : سمعت كعب ابن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى غزوة تبوك ، قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى غزوة غزاها قط إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى تخلفت فى غزوة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد .

ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها وأشهر ، وكان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة ، والله ماجمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حر شديد ، واستقبل سفرا بعيدا ومفاوز ، واستقبل عدوا كثيرا ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم بوجههم الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير لا يجمعهم كتاب حافظ ــ يريد الديوان ــ .

Marfat.com

قال كعب رضى الله عنه : فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه مالم ينزل فيه وحى من الله عز وجل . وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصغو ، فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولا أقضى شيئا ، فأقول لنفسى : أنا قادر على ذلك إن أردت . فلم يزل ذلك يتهادى بى حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم أقض فى جهازى شيئا ، فلم يزل يتهادى بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليت أنى فعلت ؛ ثم لم يقدر لى ذلك ، فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزننى أنى لا أرى لى أسوة إلا رجلا مغموصا عليه فى النفاق ،أو رجلا ممن عذر الله . ولم يذكرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : « مافعل كعب ابن مالك » ؟ فقال رجل من بنى سلمة : يارسول الله حبسه برداه والنظر فى عطفيه . فقال له معاذ ابن جبل : بئسما قلت ، والله يارسول الله ماعلمنا عنه إلا خيرا . فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال كعب ابن مالك : فلما بلغنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجه قافلا من تبوك حضرنى بثى ، فطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بماذا أخرج من سخطه غدا ؟ وأستعين على ذلك بكل ذى رأى من أهلى . فلما قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادما زاح عنى الباطل حتى عرفت أنى لم أنج منه بشىء أبدا ، فأجمعت صدقه ، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له . وكانوا بضعا وثمانين رجلا ؛ فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ؛ حتى جئت ؛ فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لى : « تعال » فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : « ماخلفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك ؟ » فقلت يارسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلا ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عنى به ليوشكن الله أن

Marfat.com

يسخطك على ، ولئن حدثتك بحديث صدق تجد على فيه ، وإنى لأرجو فيه عقبى من الله . والله ما كان لى عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ! فقال صلى الله عليه وسلم : « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك » فقمت . وبادرنى رجال من بنى سلمة واتبعونى فقالوا لى : والله ماعلمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ،لقد عجزت أن لاتكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون ، فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فوالله مازالوا يؤنبوننى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان قالا ماقلت ، وقيل لهما مثل ماقيل لك . فقلت : من هما ؟ قالوا مرارة بن الربيع وهلال بن أمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرا ، لى فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لى .

قال : ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس ـ أو قال تغيروا لنا ـ حتى تنكرت لى فى نفسى الأرض ، فما هى بالأرض التى كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما . وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة وأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، فإذا التفت نحوه أعرض عنى ، حتى إذا طال ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة ـ وهو ابن عمى وأحب الناس إلى ـ فسلمت عليه . فوالله ما رد على السلام . فقلت له : ياأبا قتادة أنشدك الله تعالى . هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ قال فسكت ، قال فعدت فنشدته فسكت ؛ فعدت فنشدته . قال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار .

وبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب ابن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلى ، حتى جاء فدفع إلى كتابا من ملك غسان ، وكنت كاتبا ، فقرأته فإذا فيه :

Marfat.com

أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضا من البلاء . فتيممت بها التنور فسجرتها . . حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذ برسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينى فقال : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : بل اعتزلها ولا تقربنها . وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك . فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر . فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ، إن هلالا شيخ ضائع ، وليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال « لا ، ولكن لايقربنك » فقالت : إنه والله مابه من حركة إلى شيء ، ووالله مازال يبكى من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا . فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك ! فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه . فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أدرى ما يقول إذا استاذنته فيها وأنا رجل شاب .

قال : فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا . قال : ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله منا قد ضاقت على نفسى وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر . فخررت ساجدا ؛ وعرفت أن قد جاء الفرج ؛ فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر . فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إلى رجل فرساً وسعى ساع من أسلم قِبلى ، وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاء الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ماأملك غيرهما يومئذ ؛ فاستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أؤم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتلقانى الناس فوجا بعد فوج يهنئونى بالتوبة ويقولون : ليهنك توبة الله عليك . حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس فى المسجد وحوله الناس ، فقام إلى طلحة بن عبيد يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ماقام إلىّ رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب رضى الله عنه لاينساها لطلحة .

Marfat.com

قال كعب رضي الله عنه : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » قلت : أمن عندك يارسول الله أم من عند الله ؟ قال : « لا بل من عند الله » وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت : يارسول الله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » فقلت : إني أمسك سهمي الذي بخيبر . وقلت يارسول الله إنما أنجاني الله بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقا مابقيت . فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحسن مما أبلاني الله تعالى ، والله ماتعمدت كلمة منذ قلت ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى يومي هذا كذبا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي . وأنزل الله : « لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ـ إلى قوله ـ وكونوا مع الصادقين » .

قال كعب : فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يومئذ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه . فإن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، فقال « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ـ إلى قوله ـ الفاسقين » .

هذه هي قصة الثلاثة الذين خلفوا ـ كما رواها أحدهم كعب بن مالك ـ وفي كل فقرة منها عبرة ، وفيها كلها صورة بارزة الخطوط عن القاعدة الصلبة للمجتمع الإسلامي ، ومتانة بنائها ، وصفاء عناصرها ، ونصاعة تصورها لمعنى الجماعة ، ولتكاليف الدعوة ، ولقيمة الأوامر ، ولضرورة الطاعة .

فهذا كعب ابن مالك ـ وزميلاه ـ يتخلفون عن ركب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ساعة العسرة . يدركهم الضعف البشري الذي يحبب إليهم الظل والراحة ، فيؤثرونها على الحر والشدة والسفر الطويل والكد الناصب . ولكن كعبا مايلبث بعد خروج رسول الله ـ

Marfat.com

صلى الله عليـه وسلم ـ أن يحس ما فعـل ، يشعره به كل ماحوله : « فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحزننى أنى لا أرى لى أسوة إلا رجـلا مغموصا عليه فى النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله » ـ يعنى بمن عذر الله الضعفاء والمرضى والذين لايجدون ماينفقون .

فالعسرة لم تقعد بالمسلمين عن تلبية دعوة رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ إلى الغزوة البعيدة الشقة . لم يقعد إلا المطعون فيهم المظنون بهم النفاق ، وإلا العاجزون الذين عذرهم الله . أما القاعدة الصلبة للجماعة المسلمة فـكانت أقوى روحا من العسرة ، وأصلب عودا من الشدة .. هذه واحدة .

والثانية هى التقوى . التقوى التى تلجىء المخطىء إلى الصدق والإقرار . والأمر بعد ذلك لله : « فقلت : يارسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر . لقـد أعطيت جدلا . ولـكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عنى به ليوشكن الله أن يسخطك على . ولئن حدثتك بحديث صدق تجد على فيـه إنى لأرجو فيـه عقبى من الله . والله ما كان لى عـذر . والله ما كنت أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك » . .

فالله حاضر فى ضمير المؤمن المخطىء . ومع حرصه البالغ على رضى رسول الله ـ صـلى الله عليه وسلم ـ وهذا الرضى يومئذ يعـز ويذل ويرفع ويخفض ويترك المسلم مرموقا بالأنظار أو مهملا لاينظر إليه إنسان ـ مع هـذا فإن مراقبة الله أقوى وتقوى الله أعمق ؛ والرجاء فى الله أوثق .

« ونهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس عن كلامنا . أيها الثلاثة . من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس ـ أو قال : تغيروا لنا ـ حتى تنـكرت لى فى نفسى الأرض فمـا هى بالأرض التى كنت أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليـلة . فأما صاحباى فاستـكانا وقعدا فى بيوتهما ؛ وأما أنا فـكنت أشد القوم وأجلدهم . فـكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمنى أحد . وآتى رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلم عليـه فى

Marfat.com

مجلسه بعد الصلاة ، وأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريبا منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلى ، فإذا التفت نحوه أعرض عنى . حتى إذا طال على ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة ــ وهو ابن عمى وأحب الناس إلى ــ فسلمت عليه فوالله مارد على السلام . فقلت له : ياأبا قتادة أنشدك الله تعالى . هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدت فنشدته فسكت ، فعدت فنشدته . قال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار » . .

هكذا كان الضبط ، وهكذا كانت الطاعة فى الجماعة المسلمة ــ على الرغم من كل ماوقع من خلخلة بعد الفتح ومن بلبلة فى ساعة العسرة ــ . . نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة . فلا مخلوق يفتح فمه بكلمة ، ولا مخلوق يلقى كعبا بأنس ، ولا مخلوق يأخذ منه أو يعطى . حتى ابن عمه وأحب الناس إليه ، وقد تسور عليه داره ، لا يرد عليه السلام ، ولا يجيبه عن سؤال . فإذا أجاب بعد الإلحاح لم يطمئن لهفته ولم يسكن قلقه ، إنما قال : « الله ورسوله أعلم » .

وكعب فى لهفته ــ وقد تنكرت له الأرض فلم تعد الأرض التى كان يعرف ــ يتلمس حركة من بين شفتى الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ويخالسه النظر لعله يعلم أن رسول الله قد ألقى إليه بنظرة يحيا على الأمل فيها ، ويطمئن إلى أنه لم يقطع من تلك الشجرة ، ولم يكتب له الذبول والجفاف !

وبينما هو طريد شريد ، لا يلقى إليه مخلوق من قومه بكلمة ــ ولو على سبيل الصدقة ــ يجيئه من قبل ملك غسان كتاب يمنيه بالعزة والكرامة والمجد والجاه . . ولكنه بحركة واحدة يعرض عن هذا كله . وما يزيد على أن يلقى بالكتاب إلى النار ، ويعد هذا بقية من البلاء ، ويصبر على الابتلاء .

وتمتد القاطعة فتعزل عنه زوجه . لتدعه فريدا طريدا من الأنس كله ، معلقا بين الأرض والسماء . فيخجل أن يراجع رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى امرأته ، لأنه لايدرى كيف يكون الجواب .

Marfat.com

هـذه صفحة . والصفحة الأخرى هى صفحة البشرى . بشرى القبول . بشرى العودة إلى الصف . بشرى التوبة من الذنب . بشرى البعث والعودة إلى الحياة . . « فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله منا . قد ضاقت على نفسى ، وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صارخا أوفىَ على جبل سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر . فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء الفرج . فآذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا وذهب قِبَلَ صاحبَيّ مبشرون ، وركض إلى رجل فرسا ، وسعى ساع من أسلم قِبلى وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاء الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبى فكسوتهما إياه ببشارته . والله ما أملك غيرهما يومئذ ، فاستعرت ثوبين فلبستهما ، فانطلقت أؤم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتلقانى الناس فوجا بعد فوج يهنئوننى بالتوبة ، ويقولون : لِيهنك توبة الله عليك . حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس فى المسجد وحوله الناس ، فقام إلى طلحة بن عبيد يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ماقام إلى رجل من المهاجرين غيره . قال : فكان كعب لاينساها لطلحة » . .

هكذا كانت الأحداث تقدر وتقوّم فى هذه الجماعة . وهكذا كانت توبة مقبولة تستقبل وتعظم ؛ كانت بشرى يركض بها الفارس إلى صاحبها ، ويهتف بها راكب الجبل ليكون أسرع بشارة . وكانت التهنئة بها والاحتفاء بصاحبها جميلا لاينساه الطريد الذى رد إلى الجماعة واتصلت بها وشائجه ، فهو فى يوم كما قال عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك » قالها ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يبرق وجهه من السرور ، كما قال كعب ، فهذا القلب الكبير الكريم الرحيم قد فاض به السرور أن تقبل الله توبة ثلاثة من أصحابه وردهم مكرمين إلى جماعته .

تلك هى قصة الثلاثة الذين خلفوا ثم تاب الله عليهم ، وهـذه هى بعض لمحات من دلالتها الواضحة على حياة الجماعة الإسلامية ، وعلى القيم التى كانت تعيش بها .

والقصة كما رواها أحد أصحابها ، تقرب إلى نفوسنا معنى الآية :

Marfat.com

« حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه ، . » . .

« ضاقت عليهم الأرض بما رحبت » . .

فما الأرض ؟ إن هى إلا بأهلها . إن هى إلا بالقيم السائدة فيها . إن هى إلا بالوشائج والملاقات بين أصحابها . فالتعبير صادق فى مدلوله الواقعى فوق صدقه فى جماله الفنى ، الذى يرسم هذه الأرض تضيق بالثلاثة المخلفين ، وتتقاصر أطرافها، وتنكمش رقعتها ، فهم منها فى حرج وضيق .

« وضاقت عليهم أنفسهم » . .

فكأنما هى وعاء لهم تضيق بهم ولا تسعهم ، وتضغطهم فيتكرب أنفاسهم .

« وظنوا أن لاملجأ من الله إلا إليه » . .

وليس هناك ملجأ من الله لأحد ، وهو آخذ بأقطار الأرض والسماوات . ولكن ذكر هذه الحقيقة هنا فى هذا الجو المكروب يخلع على المشهد ظلا من الكربة واليأس والضيق ، لا مخرج منه إلا بالالتجاء إلى الله مفرج الكروب . .

ثم يجىء الفرج . . « ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » .

تاب عليهم من هذا الذنب الخاص ، ليتوبوا توبة عامة عن كل مامضى ، ولينيبوا إلى الله إنابة كاملة فى كل ماسيأتى . ومصداق هذا فى قول كعب : قلت : يارسول الله ، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله . قال : « أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك » قال فقلت : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر . وقلت : يارسول الله إنما نجانى الله بالصدق وإن من توبتى ألا أحدث إلا صدقا مابقيت . قال : فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق فى الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحسن مما أبلانى الله تعالى . والله ماتعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى يومى هذا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله عز وجل فيما بقى . .

Marfat.com

ولا نملك أن نمضى أكثر من هـذا ـ فى ظلال القرآن ـ مع هـذه القصة الموحية ومع التعبير القرآنى الفريد فيها . فحسبنا هنا ماوفق الله إليه فيها [1] .

***

وفى ظل قصة التوبة على الذين ترددوا والذين تخلفوا ؛ وفى ظل عنصر الصدق البادى فى قصة الثلاثة الذين خلفوا ؛ يجىء الهتاف للذين آمنوا جميعا أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين فى إيمانهم من أهل السابقة ؛ ويجىء التنديد بتخلف أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ، مع الوعد بالجزاء السخى للمجاهدين :

« ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين . ما كان لأهل المدينـة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنه لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا ، إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لايضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا ، إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » . .

إن أهل المدينة هم الذين تبنوا هذه الدعوة وهذه الحركة ، فهم أهلها الأقربون . وهم بها ولها . وهم الذين آووا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبايعوه ؛ وهم الذين باتوا يمثلون القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مجتمع الجزيرة كله . وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة وقد أسلمت ؛ وباتت تؤلف الحزام الخارجى للقاعدة .. فهؤلاء وهؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ، وليس لهم أن يؤثروا أنفسهم على نفسه .. وحين يخرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحر أو البرد . فى الشدة أو الرخاء . فى اليسر أو العسر . ليواجه تكاليف هذه الدعوة وأعباءها ، فإنه لايحق لأهل المدينة ، أصحاب الدعوة ، ومن حولهم من الأعراب ، وهم قريبون من شخص رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا عذر لهم فى ألا يكونوا قد علموا ، أن يشفقوا على أنفسهم مما يحتمله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(١) نرجو توفيق الله « فى ظلال السيرة » للوقوف طويلا أمام هذه المواقف الموحية فى السيرة .

Marfat.com

من أجل هذه الاعتبارات يهتف بهم أن يتقوا الله وأن يكونوا مع الصادقين ، الذين لم يتخلفوا ، ولم تحدثهم نفوسهم بتخلف ، ولم يتزلزل إيمانهم فى العسرة ولم يتزعزع .. وهم الصفوة المختارة من السابقين والذين اتبعوهم بإحسان :

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » .

ثم يمضى السياق بعد هذا الهتاف مستنكرا مبدأ التخلف عن رسول الله :

« ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » .

وفى التعبير تأنيب خفى . فما يؤنب أحد يصاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأوجع من أن يقال عنه : إنه يرغب بنفسه عن نفس رسول الله ، وهو معه ، وهو صاحبه !

وإنها لإشارة تلحق أصحاب هذه الدعوة فى كل جيل . فما كان لمؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله فى سبيل هذه الدعوة ؛ وهو يزعم أنه صاحب دعوة ؛ وأنه يتأسى فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم !

إنه الواجب الذى يوجبه الحياء من رسول الله – فضلا على الأمر الصادر من الله – ومع هذا فالجزاء عليه ما أسخاه !

« ذلك بأنه لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا ، إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا ، إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » ..

إنه على الظمأ جزاء ، وعلى النصب جزاء ، وعلى الجوع جزاء . وعلى كل موطىء قدم يغيظ الكفار جزاء . وعلى كل نيل من العدو جزاء . يكتب به للمجاهد عمل صالح ، ويحسب به من المحسنين الذين لا يضيع لهم الله أجرا .

وإنه على النفقة الصغيرة والكبيرة أجر . وعلى الخطوات لقطع الوادى أجر .. أجر كأحسن ما يعمل المجاهد فى الحياة .

Marfat.com

ألا والله ، إن الله ليجزل لنا العطاء . وإنها والله للسماحة فى الأجر والسخاء . وإنه لما نخجل أن يكون ذلك كله على أقل مما احتمله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الشدة واللأواء. فى سبيل هذه الدعوة التى نحن فيها خلفاء ، وعليها بعده أمناء !

* * *

ويبدو أن تنزل القرآن فى هذه السورة بالنكير على المتخلفين ؛ والتنديد بالتخلف وبخاصة من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ؛ قد جعل الناس يتزاحمون فى المدينة ليكونوا رهن إشارة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وبخاصة من القبائل المحيطة بالمدينة . مما اقتضى بيان حدود النفير العام – فى الوقت المناسب للبيان من الناحية الواقعية – فقد اتسعت رقعة الأرض الإسلامية حتى كادت الجزيرة كلها تدين للإسلام ، وكثر عدد الرجال المستعدين للجهاد ، وقد بلغ من عددهم – بعد تخلف المتخلفين فى تبوك – نحوا من ثلاثين ألفا ، الأمر الذى لم يتهيأ من قبل فى غزوة من غزوات المسلمين . وقد آن أن تتوزع الجهود فى الجهاد وفى عمارة الأرض وفى التجارة وفى غيرها من شؤون الحياة التى تقوم بها أمة ناشئة ؛ وهى تختلف عن مطالب القبيلة الساذجة ، وعن حاجات المجتمع القبلى الأولية .. ونزلت الآية التالية تبين هذه الحدود فى جلاء :

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . .

ولقد وردت روايات متعددة فى تفسير هذه الآية ، وتحديد الفرقة التى تتفقه فى الدين وتنذر قومها إذا رجعت إليهم .. والذى يستقيم عندنا فى تفسير الآية : أن المؤمنين لا ينفرون كافة . ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة – على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون – لتتفقه هذه الطائفة فى الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة ؛ وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم ، بما رأته وما فقهته من هذا الدين فى أثناء الجهاد والحركة . .

والوجه فى هذا الذى ذهبنا إليه – وله أصل من تأويل ابن عباس – رضى الله عنهما – ومن تفسير الحسن البصرى ، واختيار ابن جرير ، وقول لابن كثير – أن هذا الدين منهج حركى ، لا يفقهه إلا من يتحرك به ؛ فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه ؛ بما

Marfat.com

يتكشف لهم من أسراره ومعانيه ؛ وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية فى أثناء الحركة به . أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا ، لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا ؛ ولا فقهوا فقههم ؛ ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والخروج بصفة عامة أدنى إلى الفهم والتفقه .

ولعل هذا عكس ما يتبادر إلى الذهن ، من أن المتخلفين عن الغزو والجهاد والحركة ، هم الذين يتفرغون للتفقه فى الدين ! ولكن هذا وهم ، لا يتفق مع طبيعة هذا الدين .. إن الحركة هى قوام هذا الدين ؛ ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به، ويجاهدون لتقريره فى واقع الناس ، وتغليبه على الجاهلية ، بالحركة العملية .

والتجارب تجزم بأن الذين لا يندمجون فى الحركة بهذا الدين لا يفقهونه ؛ مهما تفرغوا لدراسته فى الكتب - دراسة باردة ! - وأن اللمحات الكاشفة فى هذا الدين إنما تتجلى للمتحركين به حركة جهادية لتقريره فى حياة الناس ؛ ولا تتجلى للمستغرقين فى الكتب العاكفين على الأوراق !

إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا فى أرض الحركة . ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة . والذين يعكفون على الكتب والأوراق فى هذا الزمان لكى يستنبطوا منها أحكاما فقهية « يجددون » بها الفقه الإسلامى أو « يطورونه » - كما يقول المستشرقون من الصليبيين ! - وهم بعيدون عن الحركة التى تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد ، وردهم إلى العبودية لله وحده ، بتحكيم شريعة الله وحدها وطرد شرائع الطواغيت .. هؤلاء لا يفقهون طبيعة هذا الدين ؛ ومن ثم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدين !

إن الفقه الإسلامى وليد الحركة الإسلامية .. فقد وجد الدين أولا ثم وجد الفقه . وليس العكس هو الصحيح .. وجدت الدينونة لله وحده، ووجد المجتمع الذى قرر أن تكون الدينونة فيه لله وحده . والذى نبذ شرائع الجاهلية وعاداتها وتقاليدها ؛ والذى رفض أن تكون شرائع البشر هى التى تحكم أى جانب من جوانب الحياة فيه .. ثم أخذ هذا المجتمع يزاول

Marfat.com

الحياة فعلا وفق المبادئ الكلية فى الشريعة - إلى جانب الأحكام الفرعية التى وردت فى أصل الشريعة - وفى أثناء مزاولته للحياة الفعلية فى ظل الدينونة لله وحده، واستيحاء شريعته وحدها، تحقيقا لهذه الدينونة، جدت له أقضية فرعية بتجدد الحالات الواقعية فى حياته..

وهنا فقط بدأ استنباط الأحكام الفقهية، وبدأ نمو الفقه الإسلامى.. الحركة بهذا الدين هى التى أنشأت ذلك الفقه، والحركة بهذا الدين هى التى حققت نموه. ولم يكن قط فقها مستنبطا من الأوراق الباردة، بعيدا عن حرارة الحياة الواقعة!.. من أجل ذلك كان الفقهاء متفقهين فى الدين، يجىء فقههم للدين من تحركهم به، ومن تحركه مع الحياة الواقعة لمجتمع مسلم حى، يعيش بهذا الدين، ويجاهد فى سبيله، ويتعامل بهذا الفقه الناشىء بسبب حركة الحياة الواقعة.

فأما اليوم.. « فماذا » ..؟ أين هو المجتمع المسلم الذى قرر أن تكون دينونته لله وحده؛ والذى رفض بالفعل الدينونة لأحد من العبيد؛ والذى قرر أن تكون شريعة الله شريعته؛ والذى رفض بالفعل شرعية أى تشريع لا يجىء من هذا المصدر الشرعى الوحيد؟

لا أحد يملك أن يزعم أن هذا المجتمع المسلم قائم موجود! ومن ثم لا يتجه مسلم يعرف الإسلام ويفقه منهجه وتاريخه، إلى محاولة تنمية الفقه الإسلامى أو « تجديده » أو « تطويره! » فى ظل مجتمعات لا تعترف ابتداء بأن هذا الفقه هو شريعتها الوحيدة التى بها تعيش. ولكن المسلم الجاد يتجه ابتداء لتحقيق الدينونة لله وحده؛ وتقرير مبدأ أن لا حاكمية إلا لله، وأن لا تشريع ولا تقنين إلا مستمدا من شريعته وحدها تحقيقا لتلك الدينونة..

إنه هزل فارغ لا يليق بجدية هذا الدين أن يشغل ناس أنفسهم بتنمية الفقه الإسلامى أو « تجديده » أو « تطويره » فى مجتمع لا يتعامل بهذا الفقه ولا يقيم عليه حياته. كما أنه جهل فاضح بطبيعة هذا الدين أن يفهم أحد أنه يستطيع التفقه فى هذا الدين وهو قاعد، يتعامل مع الكتب والأوراق الباردة، ويستنبط الفقه من قوالب الفقه الجامدة!.. إن الفقه لا يستنبط من الشريعة إلا فى مجرى الحياة الدافق؛ وإلا مع الحركة بهذا الدين فى عالم الواقع.

إن الدينونة لله وحده أنشأت المجتمع المسلم؛ والمجتمع المسلم أنشأ « الفقه الإسلامى » .. ولا بد من هذا الترتيب.. لا بد أن يوجد مجتمع مسلم ناشىء من الدينونة لله وحده، مصمم على

Marfat.com

تنفيذ شريعته وحدها . ثم بعد ذلك - لاقبله - ينشأ فقه إسلامى منفصل على قد المجتمع الذى ينشأ ، وليس « جاهزا » معدا من قبل ! ذلك أن كل حكم فقهى هو - بطبيعته - تطبيق للشريعة الكلية على حالة واقعة ، ذات حجم معين ، وشكل معين ، وملابسات معينة . وهذه الحالات تنشئها حركة الحياة ، داخل الإطار الإسلامى لا بعيدا عنه ، وتحدد حجمها وشكلها وملابساتها؛ ومن ثم « يفصل » لها حكم مباشر على « قدها » .. فأما تلك الأحكام « الجاهزة » فى بطون الكتب ؛ فقد « فصلت » من قبل لحالات معينة فى أثناء جريان الحياة الإسلامية على أساس تحكيم شريعة الله فعلا . ولم تكن وقتها « جاهزة » باردة ! . كانت وقتها حية مليئة بالحيوية ؛ وعلينا اليوم أن « نفصل » مثلها للحالات الجديدة . . ولكن قبل ذلك يجب أن يوجد المجتمع الذى يقرر ألا يدين لغير الله فى شرائعه ؛ وألا يفصل حكما شرعيا إلا من شريعة الله دون سواها .

وفى هذا يكون الجهد الجاد المثمر ، اللائق بجدية هذا الدين . وفى هذا يكون الجهاد الذى يفتح البصائر ؛ ويمكن من التفقه فى الدين حقا .. وغير هذا لا يكون إلا هزلا ترفضه طبيعة هذا الدين؛ وإلا هروبا من واجب الجهاد الحقيق تحت التستر بستار « تجديد الفقه الإسلامى » أو « تطويره » !.. هروب خير منه الاعتراف بالضعف والتقصير ؛ وطلب المغفرة من الله على التخلف والقعود مع المتخلفين القاعدين !

* * *

بعد ذلك ترد آية تضع خطة الحركة الجهادية ومداها كذلك . وهما الخطة والمدى اللذان سار عليهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخلفاؤه من بعده بصفة عامة ، فلم تشذ عنها إلا حالات كانت لها مقتضيات واقعة :

« ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين » ..

فأما خطة الحركة الجهادية التى تشير إليها الآية فى قوله تعالى :

« ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » ..

Marfat.com

لقد سارت عليها الفتوح الإسلامية ، تواجه من يلون « دار الإسلام » ويجاورونها ، مرحلة فمرحلة . فلما أسلمت الجزيرة العربية – أو كادت ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف قوة يخشى منها على دار الإسلام بعد فتح مكة – كانت غزوة تبوك على أطراف بلاد الروم . ثم كان انسياح الجيوش الإسلامية فى بلاد الروم وفى بلاد فارس ، فلم يتركوا وراءهم جيوبا ؛ ووحدت الرقعة الإسلامية ، ووصلت حدودها ، فإذا هى كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء ، متماسكة الأطراف ؛.. ثم لم يأتها الوهن فيما بعد إلا من تمزقها ، وإقامة الحدود المصطنعة فيما بينها على أساس ملك البيوت ، أو على أساس القوميات ! وهى خطة عمل أعداء هذا الدين على التمكين لها جهد طاقتهم وما يزالون يعملون . وستظل هذه الشعوب التى جعل منها الإسلام « أمة واحدة » فى « دار الإسلام » المتصلة الحدود – وراء فواصل الأجناس واللغات والأنساب والألوان – ستظل ضعيفة مهيضة إلا أن تثوب إلى دينها ، وإلى رايته الواحدة ؛ وإلا أن تتبع خطى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتدرك أسرار القيادة الربانية التى كفلت لها النصر والعز والتمكين .

ونقف مرة أخرى أمام قوله تعالى :

« ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين » ..

فنجد أمرا بقتال الذين يلون المسلمين من الكفار . لا يذكر فيه أن يكونوا معتدين على المسلمين ولا على ديارهم .. وندرك أن هذا هو الأمر الأخير ، الذى يجعل « الانطلاق » بهذا الدين هو الأصل الذى ينبثق منه مبدأ الجهاد ، وليس هو مجرد « الدفاع » كما كانت الأحكام المرحلية أول العهد بإقامة الدولة المسلمة فى المدينة .

ويريد بعض الذين يتحدثون اليوم عن العلاقات الدولية فى الإسلام ، وعن أحكام الجهاد فى الإسلام ، وبعض الذين يتعرضون لتفسير آيات الجهاد فى القرآن .. أن يتلمسوا لهذا النص النهائى الأخير قيدا من النصوص المرحلية السابقة ؛ فيقيدوه بوقوع الاعتداء أو خوف الاعتداء ! والنص القرآنى بذاته مطلق ، وهو النص الأخير ! وقد عودنا البيان القرآنى عند إيراد الأحكام ، أن يكون دقيقا فى كل موضع ؛ وألا يحيل فى موضع على موضع ؛ بل يتخير اللفظ المحدد ؛ ويسجل

Marfat.com

التحفظات والاستثناءات والقيود والتخصيصات فى ذات النص . إن كان هناك تحفظ أواستثناء أو تقييد أو تخصيص .

ولقد سبق لنا فى تقديم السورة فى الجزء العاشر ، وفى تقديم آيات القتال مع المشركين والقتال مع أهل الكتاب ، أن فصلنا القول فى دلالة النصوص والأحكام المرحلية والنصوص والأحكام النهائية على طبيعة المنهج الحركى للإسلام فحسبنا ما ذكرناه هناك[1]

إلا أن الذين يكتبون اليوم عن العلاقات الدولية فى الإسلام ، وعن أحكام الجهاد فى الإسلام ، والذين يتصدون لتفسير الآيات المتضمنة لهذه الأحكام، يتعاظمهم ويهولهم أن تكون هذه هى أحكام الإسلام ! وأن يكون الله - سبحانه - قد أمر الذين آمنو أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار ، وأن يظلوا يقاتلون من يلونهم من الكفار ، كلما وجد هناك من يلونهم من الكفار ! .. يتعاظمهم ويهولهم أن يكون الأمر الإلهى هكذا ، فيروحون يتلمسون القيود للنصوص المطلقة ؛ ويجدون هذه القيود فى النصوص المرحلية السابقة !

إننا نعرف لماذا يهولهم هذا الأمر ويتعاظمهم على هذا النحو ..

إنهم ينسون أن الجهاد فى الإسلام جهاد فى « سبيل الله » .. جهاد لتقرير ألوهية الله فى الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان الله .. جهاد لتحرير « الإنسان » من العبودية لغير الله ، ومن فتنته بالقوة عن الدينونة لله وحده والانطلاق من العبودية للعباد .. « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » .. وأنه ليس جهادا لتغليب مذهب بشرى على مذهب بشرى مثله . إنما هو جهاد لتغليب منهج الله على مناهج العبيد ! وليس جهادا لتغليب سلطان قوم على سلطان قوم، إنما هو جهاد لتغليب سلطان الله على سلطان العبيد ! وليس جهادا لإقامة مملكة لعبد ، إنما هو جهاد لإقامة مملكة الله فى الأرض .. ومن ثم ينبغى له أن ينطلق فى «الأرض» كلها ، لتحرير « الإنسان » كله . بلا تفرقة بين ما هو داخل فى حدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها .. فكلها « أرض » يسكنها « الإنسان » وكلها فيها طواغيت تعبد العباد للعباد !

---

(١) ص٨١ - ص ١١٢ و ص١١٥ - ص١٣٥ و ص ١٤٩ - ص ١٥٢ و ١٦٩ - ص ١٨٥ من الجزء العاشر .

Marfat.com

وحين ينسون هذه الحقيقة يهولهم طبعا أن ينطلق منهج ليكتسح كل المناهج، وأن تنطلق أمة لتخضع سائر الأمم .. إنها فى هذا الوضع لا تستساغ ! وهى فعلا لا تستساغ ! .. لولا أن الأمر ليس كذلك . وليس له شبيه فيما بين أنظمة البشر اليوم من إمكان التعايش ! إنها كلها اليوم أنظمة بشرية . فليس لواحد منها أن يقول : إنه هو وحده صاحب الحق فى البقاء ! وليس الحال كذلك فى نظام إلهى يواجه أنظمة بشرية ؛ ليبطل هذه الأنظمة كلها ويدمرها كى يطلق البشر جميعا من ذلة العبودية للعباد ؛ ويرفع البشر جميعا إلى كرامة العبودية لله وحده بلا شريك !

ثم إنه يهولهم الأمر ويتعاظمهم لأنهم يواجهون هجوما صليبيا منظما ماكرا خبيثا يقول لهم : إن العقيدة الإسلامية قد انتشرت بالسيف، وأن الجهاد كان لإكراه الآخرين على العقيدة الإسلامية ؛ وانتهاك حرمة حرية الاعتقاد !

والمسألة على هذا الوضع لا تكون مستساغة .. لولا أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق .. إن الإسلام يقوم على قاعدة : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » . . ولكن لماذا ينطلق إذن بالسيف مجاهدا ؟ ولماذا اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة « يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون » ؟ .. إنه لأمر آخر غير الإكراه على العقيدة كان هذا الجهاد . . بل لأمر مناقض تماما للإكراه على العقيدة . . إنه لضمان حرية الاعتقاد كان هذا الجهاد ! . . لأن الإسلام كإعلان عام لتحرير « الإنسان » فى « الأرض » من العبودية للعباد ؛ يواجه دائما طواغيت فى الأرض يخضعون العباد للعباد . ويواجه دائما أنظمة تقوم على أساس دينونة العبيد للعبيد ؛ تحرس هذه الأنظمة قوة الدولة أو قوة تنظيمية فى صورة من الصور ؛ وتحول دون الناس فى داخلها ودون سماع الدعوة الإسلامية ؛ كما تحول دونهم ودون اعتناق العقيدة إذا ارتضتها نفوسهم ، أو تفتنهم عنها بشتى الوسائل . . وفى هذا يتمثل انتهاك حرية الاعتقاد بأقبح أشكاله . . ومن هنا ينطلق الإسلام بالسيف ليحطم هذه الأنظمة ، ويدمر هذه القوى التى تحميها . . ثم ماذا ؟ . . ثم يترك الناس ـ بعد ذلك ـ أحرارا حقا فى فى اختيار العقيدة التى يريدونها . إن شاءوا دخلوا فى الإسلام ، فكان لهم ما للمسلمين من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات ، وكانوا إخوانا فى الدين للسابقين فى الإسلام ! وإن

Marfat.com

شاءوا بقوا على عقائدهم وأدوا الجزية ، إعلانا عن استسلامهم لانطلاق الدعوة الإسلامية بينهم بلا مقاومة ؛ ومشاركة منهم فى نفقات الدولة المسلمة التى تحميهم من اعتداء الذين لم يستسلموا بعد ، وتكفل العاجز منهم والضعيف والمريض كالمسلمين سواء بسواء .

إن الإسلام لم يكره فردا على تغيير عقيدته ؛ كما انطلقت الصليبية على مدار التاريخ تذبح وتقتل وتبيد شعوبا بأسرها ـ كشعب الأندلس قديما وشعب زنجبار حديثا ـ لتكرههم على التنصر . وأحيانا لاتقبل منهم حتى التنصر ، فتبيدهم لمجرد أنهم مسلمون . . وأحيانا لمجرد أنهم يدينون بمذهب نصرانى مخالف لمذهب الكنيسة الرسمية . . وقد ذهب مثلا اثنا عشر ألفا من نصارى مصر ضحايا بصور بشعة إذ أحرقوا أحياء على نار المشاعل ، لمجرد مخالفتهم لجزئية اعتقادية عن كنيسة روما تتعلق بانبثاق الروح القدس من الآب فقط ، أو من الآب والابن معا ! أو يتعلق بما إذا كان للمسيح طبيعة واحدة لاهوتية ، أو طبيعة لاهوتية ناسوتية . . . إلى آخر هذه الجزئيات الاعتقادية الجانبية !

وأخيرا فإن صورة الانطلاق فى الأرض لمواجهة من يلون المسلمين من الكفار تهول المهزومين روحيا فى هذا الزمان وتتعاظمهم ؛ لأنهم يبصرون بالواقع من حولهم وبتكاليف هذا الانطلاق فيهولهم الأمر .. وهو يهول فعلا ! .. فهل هؤلاء الذين يحملون أسماء المسلمين ، وهم شعوب مغلوبة على أمرها ؛ أو قليلة الحيلة عموما ! هل هؤلاء هم الذين سينطلقون فى الأرض يواجهون أمم الأرض جميعا بالقتال ، حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ؟! إنه لأمر لايتصور عقلا .. ولا يمكن أن يكون هذا هو أمر الله فعلا !

ولكن فات هؤلاء جميعا أن يروا متى كان هذا الأمر ؟ وفى أى ظرف ؟ لقد كان بعد أن قامت للإسلام دولة تحكم بحكم الله ؛ دانت لها الجزيرة العربية ودخلت فى هذا الدين ، ونظمت على أساسه . وقبل ذلك كله كانت هناك العصبة المسلمة التى باعت أنفسها لله بيعة صدق ، فنصرها الله يوما بعد يوم ، وغزوة بعد غزوة ، ومرحلة بعد مرحلة .. وأن الزمان قد استدار اليوم كهيئته يوم بعث الله محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليدعو الناس ـ فى جاهليتهم ـ إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . فجاهد والقلة التى معه حتى قامت الدولة المسلمة فى المدينة . وأن

Marfat.com

الأمر بالقتال مر بمراحل وأحكام مترقية حتى انتهى إلى تلك الصورة الأخيرة .. وأن بين الناس اليوم وهذه الصورة أن يبدأوا من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول .. ثم يصلوا - يوم أن يصلوا - إلى هذه الصورة الأخيرة بإذن الله .. ويومئذ لن يكونوا هم هذا الغثاء الذى تتقاسمه المذاهب والمناهج والأهواء ؛ والذى تتقاسمه الرايات القومية والجنسية والعنصرية . ولكنهم سيكونون العصبة المسلمة الواحدة التى ترفع راية : لا إله إلا الله . ولا ترفع معها راية أخرى ولا شعارا ، ولا تتخذ لها مذهبا ولا منهجا من صنع العبيد فى الأرض ؛ إنما تنطلق باسم الله وعلى بركة الله ..

إن الناس لا يستطيعون أن يفقهوا أحكام هذا الدين ، وهم فى مثل ما هم فيه من الهزال ! إنه لن يفقه أحكام هذا الدين إلا الذين يجاهدون فى حركة تستهدف تقرير ألوهية الله وحده فى الأرض ومكافحة ألوهية الطواغيت !

إن فقه هذا الدين لا يجوز أن يؤخذ عن القاعدين ، الذين يتعاملون مع الكتب والأوراق الباردة ! إن فقه هذا الدين فقه حياة وحركة وانطلاق . وحفظ ما فى متون الكتب ، والتعامل مع النصوص فى غير حركة ، لا يؤهل لفقه هذا الدين ، ولم يكن مؤهلا له فى يوم من الأيام !

وأخيرا فإن الظروف التى نزل فيها قول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين » ..

تشير إلى أن أول المقصودين به كانوا هم الروم .. وهم أهل كتاب .. ولكن لقد سبق فى السورة تقرير كفرهم الاعتقادى والعملى ، بما فى عقيدتهم من انحراف ، وبما فى واقعهم من تحكيم شرائع العبيد ..

وهذه لفتة لا بد من الوقوف عندها لفقه منهج هذا الدين فى الحركة تجاه أهل الكتاب ، المنحرفين عن كتابهم ، المحتكمين إلى شرائع من صنع رجال فيهم ! .. وهى قاعدة تشمل كل

Marfat.com

أهل كتاب يتحاكمون - راضين - إلى شرائع من صنع الرجال وفيهم شريعة الله وكتابه، في أى زمان وفي أى مكان !

ثم لقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار وليجدوا فيهم غلظة، وعقب على هذا الأمر بقوله :

« إن الله يحب المتقين » ..

ولهذا التعقيب دلالته .. فالتقوى هنا .. التقوى التي يحب الله أهلها .. هي التقوى التي تنطلق في الأرض تقاتل من يلون المسلمين من الكفار ؛ وتقاتلهم في « غلظة » أي بلا هوادة ولا تميع ولا تراجع .. حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

ولكنه ينبغي أن نعرف وأن يعرف الناس جميعا أنها الغلظة على الذين من شأنهم أن يحاربوا وحدهم - وفي حدود الآداب العامة لهذا الدين - وليست هي الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب !

إنه قتال يسبقه إعلان، وتخيير بين: قبول الإسلام، أو أداء الجزية، أو القتال .. ويسبقه نبذ العهد إن كان هناك عهد - في حالة الخوف من الخيانة - (والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية ؛ ولا عهد في غير هذه الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتمين في حالتهم هذه هو الحكم المرحلي الذي كان في حالة تشبه الحالة التي هم فيها) .

وهذه آداب المعركة كلها، من وصية رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

◆ « عن بريدة - رضي الله عنه - قال : كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: اغزوا باسم الله، في سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا. فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ادعهم إلى الإسلام. فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم،

Marfat.com

فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله تعالى الذى يجرى على المؤمنين ،ولا يكون لهم من الغنيمة والفيء شيء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . وإن هم أبوا فسلهم الجزية . فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فإن أبوا فاستعن بالله تعالى عليهم وقاتلهم ... » ... (أخرجه مسلم وأبو دواد والترمذى)

● وعن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قال : وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فنهى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ عن قتل النساء والصبيان» ... (أخرجه الشيخان) .

وأرسل النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ معاذ ابن جبل ــ رضى الله عنه ــ إلى أهل اليمن معلما فكانت وصيته له :

« إنك تأتى قوما أهل كتاب ، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأنى رسول الله . فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم بأن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة . فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم بأن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ، فترد على فقرائهم . فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم . واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » .

وأخرج أبو داود ــ بإسناده ــ عن رجل من جهينة . أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « لعلكم تقاتلون قوما فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وذراريهم ، فيصالحونكم على صلح ، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك ، فإنه لا يصلح لكم » .

وعن العرباض ابن سارية قال : « نزلنا مع رسول الله قلعة خيبر ، ومعه من معه من المسلمين . وكان صاحب خيبر رجلا ماردا متكبرا . فأقبل إلى النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ فقال : يا محمد ! لكم أن تذبحوا حمرنا ، وتأكلوا ثمرنا ، وتضربوا نساءنا ؟ فغضب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقال : يا ابن عوف اركب فرسك ، ثم ناد : إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن وأن اجتمعوا للصلاة . فاجتمعوا ، ثم صلى بهم ، ثم قام فقال : أيحسب أحدكم متكئا على أريكته

Marfat.com

قد يظن أن الله تعالى لم يحـرم شيئا إلا ما فى القرآن ! ألا وإنى قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء ، إنها لمثل القرآن أو أكثر . وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ، ولا ضرب نسائهم ، ولا أكل ثمارهم ، إذا أعطوا الذى عليهم » .

ورفع إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد إحدى المواقع أن صبية قتلوا بين الصفوف ، فحزن حزنا شديدا ، فقال بعضهم : مايحزنك يارسول الله وهم صبية للمشركين ؟ فغضب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ وقال ـ مامعناه ـ إن هؤلاء خير منكم ، إنهم على الفطرة ، أو لستم أبناء المشركين . فإياكم وقتل الأولاد . إياكم وقتل الأولاد .

وهذه التعليمات النبوية هى التى سار عليها الخلفاء بعده :

روى مالك عن أبى بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : « ستجدون قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فدعوهم وماحبسوا أنفسهم له ، ولا تقتلن امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هرماً .

وقال زيد ابن وهب :أتانا كتاب عمر ـ رضى الله عنه ـ وفيه : « لاتغلوا، ولاتغدروا ، ولا تقتلوا وليدا ، واتقوا الله فى الفلاحين » .

ومن وصاياه ! « ولا تقتلوا هرماولا امرأة ولا وليدا ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان، وعند شن الغارات » .

وهكذا تتواتر الأخبار بالخط العام الواضح لمستوى المنهج الإسلامى فى قتاله لأعدائه ، وفى آدابه الرفيعة ، وفى الرعاية لكرامة الإنسان . وفى قصر القتال على القوى المادية التى تحول بين الناس وبين أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . وفى اليسر الذى يعامل به حق أعداءه. أما الغلظة فهى الخشونة فى القتال والشدة ؛ وليست هى الوحشية مع الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة ، غير المحاربين أصلا ؛ وليست تمثيلا بالجثث والأشلاء على طريقة المتبربرين الذين يسمون أنفسهم متحضرين فى هذا الزمان . وقد تضمن الإسلام ما فيه الكفاية من الأوامر لحماية غير المحاربين ، ولاحترام بشرية المحاربين . إنما المقصود هو الخشونة التى لاتميع المعركة ؛ وهذا الأمر ضرورى لقوم أمروا بالرحمة والرأفة فى توكيد وتكرار فوجب استثناء حالة الحرب ، بقدر ماتقتضى حالة الحرب ، دون رغبة فى التعذيب والتمثيل والتنكيل .

* * *

Marfat.com

وقبيل ختام السورة التى تكلمت طويلا عن المنافقين ، تجىء آيات تصور طريقة المنافقين فى تلقى آيات الله وفى استقبال تكاليف هذه العقيدة التى يتظاهرون بها كاذبين ؛ وإلى جانبها صورة الذين آمنوا وتلقيهم لهذا القرآن الكريم :

« وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيمانا ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ؛ وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون . أولا يرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ؟ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا . صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون » . .

والسؤال فى الآية الأولى :

« أيكم زادته هذه إيمانا ؟ » . .

سؤال مريب ، لايقوله إلا الذى لم يستشعر وقع السورة المنزلة فى قلبه . وإلا لتحدث عن آثارها فى نفسه ، بدل التساؤل عن غيره . وهو فى الوقت ذاته يحمل رائحة التهوين من شان السورة النازلة والتشكيك فى أثرها فى القلوب !

لذلك يجىء الجواب الحاسم ممن لاراد لما يقول :

« فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون ، وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون » .

فأما الذين آمنوا فقدأضيفت إلى دلائل الإيمان عندهم دلالة فزادتهم إيمانا؛ وقد خفقت قلوبهم بذكر ربهم خفقة فزادتهم إيمانا ؛ وقد استشعروا عناية ربهم بهم فى إنزال آياته عليهم فزادتهم إيمانا . . وأما الذين فى قلوبهم مرض ، الذين فى قلوبهم رجس من النفاق ، فزادتهم رجسا إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون .. وهو نبأ من الله صادق ، وقضاء منه سبحانه محقق .

وقبل أن يعرض السياق الصورة الثانية لاستجابتهم يسأل مستنكرا حال هؤلاء المنافقين الذين لايعظهم الابتلاء ، ولا يردهم الامتحان :

« أولايرون أنهم يفتنون فى كل عام مرة أو مرتين ثم لايتوبون ولا هم يذكرون ؟ » .

Marfat.com

والفتنة كانت تكون بكشف سترهم ، أو بنصر المسلمين بدونهم ، أو بغيرها من الصور ، وكانت دائمة الوقوع كثيرة التكرار فى عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومازال المنافقون يفتنون ولا يتوبون !

فأما الصورة الحية أو المشهد المتحرك فترسمه الآية الأخيرة ، فى شريط متحرك دقيق :

« وإذا ماأنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا . صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لايفقهون ! » .

وإننا ـ حين نتلو الآية ـ لنستحضر مشهد هؤلاء المنافقين وقد نزلت سورة . فإذا بعضهم ينظر إلى بعض ويغمز غمزة المريب :

« هل يراكم من أحد ؟ » . .

ثم تلوح لهم غرة من المؤمنين وانشغال فإذا هم يتسللون على أطراف الأصابع فى حذر :

« ثم انصرفوا » . .

تلاحقهم من العين التى لاتغفل ولا تنشغل دعوة قاصمة تناسب فعلتهم المريبة :

« صرف الله قلوبهم ! » . .

صرفها عن الهدى فإنهم يستحقون أن يظلوا فى ضلالهم يعمهون :

« بأنهم قوم لايفقهون » . .

عطلوا قلوبهم عن وظيفتها فهم يستحقون !

إنه مشهد كامل حافل بالحركة ترسمه بضع كلمات ، فإذا هو شاخص للعيون كأنها تراه !

* * *

وتختم السورة بآيتين ورد أنهما مكيتان ، وورد أنهما مدنيتان . ونحن نأخذ بهذا الأخير ، ونلمح مناسبتهما فى مواضع متفرقة فى هذا الدرس وفى جو السورة على العموم . آيتين تتحدث إحداها عن الصلة بين الرسول وقومه ، وعن حرصه عليهم ورحمته بهم . ومناسبتها حاضرة فى التكاليف التى كلفتها الأمة المؤمنة فى مناصرة الرسول ودعوته وقتال أعدائه واحتمال

Marfat.com

العسرة والضيق . والآية الثانية توجيه لهـذا الرسول أن يعتمد على ربه وحـده حين يتولى عنه من يتولى ، فهو وليه وناصره وكافيه :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ماعنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تولوا فقـل حسبى الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » . .

ولم يقل : جاءكم رسول منكم . ولكن قال : « من أنفسكم » وهى أشد حساسية وأعمق صلة ، وأدل على نوع الوشيجة التى تربطهم به . فهو بضعة من أنفسهم ، تتصل بهم صلة النفس بالنفس ، وهى أعمق وأحس .

« عزيز عليه ماعنتم » . .

يشق عليه عنتكم ومشقتكم .

« حريص عليكم » . .

لايلقى بكم فى المهالك ، ولا يدفع بكم إلى المهاوى ؛ فإذا هو كلفكم الجهاد ، وركوب الصعاب ، فما ذلك من هوان بكم عليه ، ولا بقسوة فى قلبه وغلظة ، إنما هى الرحمة فى صورة من صورها . الرحمة بكم من الذل والهوان ، والرحمة بكم من الذنب والخطيئة ، والحرص عليكم أن يكون لكم شرف حمل الدعوة ، وحظ رضوان الله ، والجنة التى وعد المتقون .

ثم ينتقل الخطاب إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرفه طريقه حين يتولى عنه من يتولى ، ويصله بالقوة التى تحميه وتكفيه :

« فإن تولوا فقل : حسبى الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم » .

فإليه تنتهى القوة والملك والعظمة والجاه ، وهو حسب من لاذ به وحسب من والاه .

إنه ختام سورة القتال والجهاد : الارتكان إلى الله وحده ، والاعتماد على الله وحده ، واستمداد القوة من الله وحده . .

« وهو رب العرش العظيم » . .

* * *

Marfat.com

وبعد فإن هذه السورة المحكمة تحتوى بيان الأحكام النهائية فى العلاقات الدائمة بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات حوله ـ كما بينا فى خلال عرضها وتقديمها ـ ومن ثم ينبغى أن يرجع إلى نصوصها الأخيرة بوصفها الكلمة الأخيرة فى تلك العلاقات ؛ وأن يرجع إلى أحكامها بوصفها الأحكام النهائية المطلقة ، حسبما تدل عليها نصوص السورة . كما ينبغى ألا تقيد هذه النصوص والأحكام النهائية بنصوص وأحكام وردت من قبل ـ وهى التى سميناها أحكاما مرحلية ـ مستندين فى هذه التسمية : أولا وبالذات إلى ترتيب نزول الآيات . ومستندين أخيرا إلى سير الأحداث فى الحركة الإسلامية ، وإدراك طبيعة المنهج الإسلامى فى هذه الحركة . . هذه الطبيعة التى بيناها فى التقديم للسورة وفى ثناياها كذلك . .

وهذا هو المنهج الذى لايدركه إلا الذين يتحركون بهذا الدين حركة جهادية لتقرير وجوده فى واقع الحياة ؛ برد الناس إلى ربوبية الله وحده ، وإخراجهم من عبادة العباد !

إن هنالك مسافة شاسعة بين فقه الحركة ، وفقه الأوراق ! إن فقه الأوراق يغفل الحركة ومقتضياتها من حسابه ، لأنه لايزاولها ولا يتذوقها ! أما فقه الحركة فيرى هذا الدين وهو يواجه الجاهلية ، خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ، وموقفا موقفا . ويراه وهو يشرع أحكامه فى مواجهة الواقع المتحرك ، بحيث تجىء مكافئة لهذا الواقع وحاكمة عليه ؛ ومتجددة بتجدده كذلك !

وأخيرا فإن تلك الأحكام النهائية الواردة فى السورة الأخيرة ؛ إنما جاءت وواقع المجتمع المسلم ، وواقع الجاهلية من حوله كذلك ، كلاهما يحتم اتخاذ تلك الإجراءات وتنفيذ تلك الأحكام . . فأما حين كان واقع المجتمع المسلم وواقع الجاهلية من حوله يقتضى أحكاما أخرى . . مرحلية . . فقد جاءت فى السور السابقة نصوص وأحكام مرحلية . .

وحين يوجد المجتمع المسلم مرة أخرى ويتحرك ؛ فإنه يكون فى حل من تطبيق الأحكام المرحلية فى حينها . ولكن عليه أن يعلم أنها أحكام مرحلية ، وأن عليه أن يجاهد ليصل فى النهاية إلى تطبيق الأحكام النهائية التى تحكم العلاقات النهائية بينه وبين سائر المجتمعات . .

والله الموفق ، والله المعين . .

Marfat.com

سورة يونس مكية
وآياتها ١٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

نعود مرة أخرى إلى الحياة مع القرآن المكى ، بجوه الخاص ، وظلاله وإيقاعاته وإيحاءاته. بعدما عشنا فترة فى هذه الظلال مع سورتى الأنفال والتوبة من القرآن المدنى .

والقرآن المكى ،ولو أنه قرآن من القرآن ، يشترك مع سائره فى خصائصه القرآنية العامة؛ وفى تفرده من كل قول آخر لايحمل الطابع الربانى الفريد العجيب ، فى الموضوع وفى الأداء سواء[1].. إلا أن له مع ذلك جوه الخاص ، ومذاقه المعين ، الذى يعينه موضوعه الأساسى (وهو فى اختصار: حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية ، وحقيقةالعلاقات بينها ؛ وتعريف الناس بربهم الحق الذى ينبغى أن يدينوا له ويعبدوه ، ويتبعوا أمره وشرعه ؛ وتنحية كل مادخل على العقيدة الفطرية الصحيحةمن غبش ودخل وانحراف والتواء ؛ ورد الناس إلى إلههم الحق الذى يستحق الدينونة لربوبيته) .. كمايعينه أسلوب العرض لهذا الموضوع. وهو أسلوب موح ، عميق الإيقاع ، بالغ التأثير ؛ حيث تشترك فى أداءهذا الغرض كل خصائص التعبير، من البناء اللفظى، إلى المؤثرات الموضوعية على النحو الذى فصلناه من قبل ، فى سورة الأنعام[2]، والذى سنلم بهاهنا إن شاء الله .

---

(١) تراجع مقدمة الطبعة الثانية المنقحةلهذا التفسيرفى الجزء الأول بعنوان : « فى ظلال القرآن » كماتراجع مقدمة سورة آل عمران فى الجزء الثالث .

(٢) يراجع تقديم سورة الأنعام فى الجزء السابع من هذه الطبعة . وتقديم سورة الأعراف فى الثامن .

Marfat.com

ولقد كان آخر عهدنا ـ فى هذه الظلال ـ بالقرآن المكى سورة الأنعام وسورة الأعراف متواليتين فى ترتيب المصحف ـ وإن لم تكونا متواليتين فى ترتيب النزول ـ ثم جاءت الأنفال والتوبة بجوهما وطبيعتهما وموضوعاتهما المدنية الخاصة ـ فالآن إذ نعود إلى القرآن المكى نجد سورتى يونس وهود متواليتين فى ترتيب المصحف وفى ترتيب النزول أيضا .. والعجيب أن هناك شبها كبيرا بين هاتين السورتين وتلكما فى الموضوع، وفى طريقة عرض هذا الموضوع كذلك ! فسورة الأنعام تتناول حقيقة العقيدة ذاتها ، وتواجه الجاهلية بها ، وتفند هذه الجاهلية عقيدة وشعورا، وعبادة وعملا . بينما سورة الأعراف تتناول حركة هذه العقيدة فى الأرض وقصتها فى مواجهة الجاهلية على مدار التاريخ . وكذلك نحن هنا مع سورتى يونس وهود .. فى شبه كبير فى الموضوع وفى طريقة العرض أيضا .. إلا أن سورة الأنعام تنفرد عن سورة يونس ، بارتفاع وضخامة فى الإيقاع ، وسرعة وقوة فى النبض ، ولألاء شديد فى التصوير والحركة .. بينما تمضى سورة يونس، فى إيقاع رخى ، ونبض هادئ ، وسلاسة وديعة ! .. فأما هود فهى شديدة الشبه بالأعراف موضوعا وعرضا وإيقاعا ونبضا .. ثم تبقى لكل سورة شخصيتها الخاصة ، وملامحها المميزة ، بعد كل هذا التشابه والاختلاف !

* * *

والموضوع الرئيسى فى سورة يونس هو ذات الموضوع العام للقرآن المكى الذى سبق بيانه فى الفقرة السابقة .. والسورة تتناول محتوياته وفق طريقتها الخاصة ، التى تحدد شخصيتها وملامحها.. ونحن لا نملك ـ فى هذا التقديم ـ إلا تلخيص هذه المحتويات واحدا واحدا فى إجمال ، حتى يجىء بيانها المفصل فى أثناء استعراض النصوص القرآنية ..

• إنها تواجه ابتداء موقف المشركين فى مكة من حقيقة الوحى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن هذا القرآن ذاته بالتبعية ؛ فتقرر لهم أن الوحى لا عجب فيه ، وأن هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله : « الر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين » .. « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ، قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائت بقرآن

Marfat.com

غير هذا أو بدله . قل : مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا مايوحى إلى ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل : لوشاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله ، أفلا تعقلون ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؟ إنه لايفلح المجرمون » .. « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذى بين يديه ،وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه ؟ قل : فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » ..

◆ وتواجه طلبهم خارقة مادية ــ غير القرآن ــ واستعجالهم بالوعيد الذى يسمعونه . فتقرر لهم أن آية هذا الدين هى هذا القرآن ؛ وهو يحمل برهانه فى تفرده المعجز الذى تحداهم به . وأن الآيات فى يد الله ومشيئته ؛ وأن موعدهم بالجزاء يتعلق بأجل يقدره الله ، والنبى لايملك شيئا فهو عبد من عباد الله . ــ وفى هذا جانب من التعريف لهم بربهم الحق وحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ــ : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات . وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزى القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم ، لننظر كيف تعملون » . . « ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون . ويقولون : متى هذا الوعد ، إن كنتم صادقين ؟ قل : لاأملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ماشاء الله ، لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قل : أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ؟ ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون ؟! » .. « ويقولون : لولا أنزل عليه آية من ربه ! فقل : إنما الغيب لله ، فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » .

◆ وتواجه اضطراب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ــ الأمر الذى يحدثهم رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ فيه ، فيكذبون بالوحى أو يتشككون فيه ؛ ويطلبون قرآنا غيره ، أو يطلبون خارقة مادية تثبت لهم صحته ــ بينما هم سادرون فى عبادة مالا يضرهم ولا ينفعهم من الشركاء ، على اعتقاد أنهم شفعاؤهم عند الله ؛ كما يزعمون لله الولد سبحانه بلا علم ولا بينة . . فتقرر لهم صفات الإله الحق وآثار قدرته فى الوجود من حولهم ،

Marfat.com

وفى وجودهم هم أنفسهم ، وفيما يتقلب بهم من ظواهر الكون ، وما يتقلب بهم هم من أحوال وهتاف فطرتهم وأنفسهم بربها الحق عند مواجهة الخطر الذى لا دافع له إلا الله . . وهذه هى القضية الكبرى التى تستغرق قطاعات شتى من السورة ؛ والتى تتفرع عنها سائر محتوياتها الأخرى: « إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش يدبر الأمر ، مامن شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه ، أفلا تذكرون ؟ إليه مرجعكم جميعا ، وعد الله حقا ، إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عددا السنين والحساب ، ماخلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون » . . « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل : أتنبئون الله بما لا يعلم فى السماوات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون » . . « هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ، ياأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون » . . قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر؟ فسيقولون : الله . فقل : أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ! فأنى تصرفون ؟ » . . « قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل : الله يبدأ الخلق ثم يعيده ، فأنى تؤفكون ؟ قل : هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ؟ قل : الله يهدى للحق . أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لايهدى إلا أن يهدى ؟ فما لكم كيف تحكمون؟ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا ، إن الظن لايغنى من الحق شيئا ، إن الله عليم بما يفعلون » . . « ألا إن لله من فى السماوات ومن فى الأرض ، وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون . هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ، إن فى

Marfat.com

ذلك لآيات لقوم يسمعون » . . « قالوا : اتخذ الله ولدا ــ سبحانه ــ هو الغنى له مافى السماوات وما فى الأرض ، إن عندكم من سلطان بهـذا ؟ أتقولون على الله مالا تعلمون ؟ قل : إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » . . « ألا إن لله مافى السماوات والأرض . ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لايعلمون . هو يحيي ويميت وإليه ترجعون » .

◆ « وتصور لهم حضور الله ــ سبحانه ــ وشهوده لكل مايهم به البشر ، وكل ما يزاولون من نية وعمل ؛ مما يملأ الحس البشرى بالرهبة والروعة ، كما يملؤه بالحذر واليقظة . . وذلك فى مثل قوله تعالى فى هذه السورة : « وما تكون فى شأن وما تتلوا منه من قرآن . ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه . وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، إلا فى كتاب مبين » .

◆ كذلك تملأ نفوسهم بالتوجس والتوقع لبأس الله فى كل لحظة ، ليخرجوا من الغفلة التى ينشئها الرخاء والنعمة ؛ ولا ينخدعوا بازدهار الحياة حولهم فيأمنوا بأس الله الذى يأتى بغتة : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ، مما يأكل الناس والانعام . حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها ، أتاها أمرنا ليلا أو نهارا ، فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس . كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » . . « قل : أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ! ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ أثم إذا ماوقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون ؟ ! » .

◆ وتواجه اطمئنانهم للحياة الدنيا ورضاهم بها عن الآخرة ، وتكذيبهم بلقاء الله ، بتحذيرهم من هذه الطمأنينة الخادعة ، ومن الخسارة فى الصفقة الدون التى يرضونها ، وتعريفهم بأن هذه الحياة الدنيا إنما هى للابتلاء ، وفى الآخرة الجزاء . . ثم تواجههم بعرض مشاهد متنوعة من مشاهد القيامة ؛ وخاصة مايتصل منها بتخلى الشركاء عن عبادهم ، وتبرئهم منهم إلى الله ، وتعذر الفداء من العذاب مهما كبر الفداء : « إن الذين لايرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون .

Marfat.com

إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ، تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعواهم فيها : سبحانك اللهم . وتحيتهم فيها سلام . وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » . . « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزى القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » . . « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، مالهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعا . من الليل مظلما ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . . « ويوم نحشرهم جميعا ، ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤهم ! فزيلنا بينهم ، وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم ، إن كنا عن عبادتكم لغافلين . هنالك تبلو كل نفس ماأسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق ، وضل عنهم ما كانوا يفترون » . . ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم . قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين » . . « ولو أن لكل نفس ظلمت مافى الأرض لافتدت به ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وقضى بينهم بالقسط ، وهم لا يظلمون » . .

◆ ثم تواجه مايترتب على اضطراب تصورهم للألوهية ؛ وما يترتب على تكذيبهم بالبعث والآخرة ، وما يترتب على تكذيبهم بالوحى والنذارة ، من انطلاقهم فى واقع الحياة العملية يزاولون خصائص الربوبية فى التشريع لحياتهم ، والتحليل والتحريم فى أرزاقهم ومعاملاتهم وفق ماتصوره لهم وثنيتهم واعتقادهم بالشركاء الذين يجعلون لهم نصيبا مما رزقهم الله يأخذه السدنة والكهنة ليحلوا لهم مايشاءون ويحرموا عليهم مايشاءون . . وهى القضية الكبرى التى تلى قضية الاعتقاد وتنبثق منها : « قل : أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ؟ قل : آلله أذن لكم ؟ أم على الله تفترون ؟ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ؟ إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لايشكرون » .

* * *

Marfat.com

والسورة تحتشد - فى إبلاغ تلك الحقائق التى تحتويها وتثبيتها وتعميقها واستجاشة القلوب والعقول لها - بشتى المؤثرات الموحية ، التى يحفل بها الأداء القرآنى الفريد فى الموضوع وفى التعبير عنه سواء . وهى مؤثرات - على عمقها وحيويتها وحركتها - تناسب شخصية السورة وطبيعتهاالتى تحدثنافى الفقرة الأولى عنها .. وهذه نماذج منها ، نلم بهاهنا إجمالا ، حتى نستعرضها فى السياق تفصيلا :

• تحتشد السورة بمشاهد هذاالكون وظواهره ،الموحية للفطرةالبشرية بحقيقةالألوهية ، الدالة على التدبير الحكيم ، والقصد المرسوم فى بناء هذا الكون وتصريفه ، وفى الموافقات المبثوثة فيه لنشأة الحياة والأحياء ، ولحياة الكائن الإنسانى وتلبية حاجاته فى حياته .. وقضية الألوهية يعرضها القرآن فى هذه الصورة الحية الواقعية الموحية ؛ ولايعرضها فى أسلوب الجدل الفلسفى والمنطق الذهنى ، والله خالق هذا الكون وخالق هذا الإنسان يعلم - سبحانه - أن بين فطرة هذا الإنسان ومشاهد هذا الكون وأسراره لغة مفهومة ! وتجاوبا أعمق من منطق الذهن البارد الجاف ؛ وأن هذه الفطرة يكفى أن توجه إلى مشاهد هذا الكون وأسراره؛ وأن تستجاش لتستيقظ فيها أجهزةالاستقبال والتلقى ؛ وأنها عندئذ تهتز وتتفتح وتتلقى وتستجيب .. ومن ثم يكثر خطاب الفطرة البشرية - فى القرآن - بهذه اللغة المفهومة .. وهذه نماذج من هذا الخطاب العميق الموحى :

« إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، مامن شفيع إلامن بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه . أفلا تذكرون ؟ » ..

« هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ماخلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن فى اختلاف الليل والنهار وماخلق الله فى السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون » ..

« قل: من يرزقكم من السماء والأرض ؛ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله، فقل : أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فأنى تصرفونى ؟ » ..

Marfat.com

« هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » . .

« قل : انظروا ماذا فى السماوات والأرض ، وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون » . .

◆ وتحتشد بمشاهد الأحداث والتجارب التى يشهدونها بأعينهم ويعيشونها بأنفسهم ؛ ولكنهم يمرون بها غافلين عن دلالتها على التدبير والتقدير ، والتصريف والتسيير . . ويعرض السياق القرآنى لهم مشاهد من واقعهم هم فى استقبال تلك الأحداث والتجارب ؛ كما ترفع المرآة للغافل عن نفسه فيرى فيها كيف هو على حقيقته ! وهذه نماذج من ذلك المنهج القرآنى الفريد :

« وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما . فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ! كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ! » . .

« وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر فى آياتنا ! قل : الله أسرع مكرا ، إن رسلنا يكتبون ماتمكرون . هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك ، وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق . ياأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون » . .

◆ وتحتشد بمصارع الغابرين من المكذبين . آنا فى صورة الخبر ، وآنا فى صورة قصص بعض الرسل . وتلتقى كلها عند عرض مشاهد التدمير على المكذبين ؛ وتهديدهم بمثل هذا المصير الذى لقيه من قبلهم . فلا تغرنهم الحياة الدنيا ، فإن هى إلا فترة قصيرة للابتلاء . أوساعة من نهار يتعارف فيها الناس ، ثم يعودون إلى دار الإقامة فى العذاب أو فى النعيم !

« ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا(١) وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا .

---

(١) « ظلموا » أى أشركوا كما أشركتم . والشرك أقبح الظلم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تصديقا لقوله تعالى : « إن الشرك لظلم عظيم » .

Marfat.com

كذلك نجزى القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » ..

« واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه : ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لايكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلى ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين . فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين » ..

. . .

« ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا : إن هذا لسحر مبين . قال موسى : أتقولون للحق لما جاءكم . أسحر هذا ؟ ولايفلح الساحرون » ... إلى قوله تعالى فى نهاية القصة : « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده ـ بغيا وعدوا ـ حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لاإله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن ؟ وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟! فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » ..

« فهل ينتظرون إلامثل أيام الذين خلوا من قبلهم ؟ قل : فانتظروا إنى معكم من المنتظرين . ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقا علينا ننج المؤمنين » ..

◆ وتحتشد بمشاهد القيامة ، تعرض عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين ، عرضا حيا متحركا مؤثرا عميق الإيقاع فى القلوب . فتعرض مع مشاهد المصارع فى الحياة الدنيا والتدمير على المجرمين ونجاة المؤمنين ، صفحتى الحياة فى الدارين ، وبدء المطاف ونهايته حيث لامهرب ولافوت :

« للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ـ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ، وترهقهم ذلة ، ما لهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » ..

Marfat.com

« ويوم نحشرهم جميعا ، ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم ! فزيلنا بينهم ، وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين . هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ، وردوا إلى الله مولاهم الحق ، وضل عنهم ما كانوا يفترون » ..

« ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لا فتدت به ! وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » ..

ومن المؤثرات التي تحتشد بها السورة تحدى المشركين المكذبين بالوحى ، أن يأتوا بآية من مثل هذا القرآن .. ثم توجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعد دعوتهم وتحديهم ، إلى تركهم ومصيرهم - وهو مصير المكذبين الظالمين من قبلهم - والمضى فى طريقه المستقيم لا يحفلهم ولا يأبه لشأنهم .. والتحدى ثم المفاصلة والاستعلاء على هذا النحو ما يوقع فى قلوبهم أن هذا النبي واثق من الحق الذى معه ، واثق من ربه الذى يتولاه . وهذا بدوره يهز القلوب ويزلزل العناد :

« وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ؛ ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه ؟ قل : فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله . كذلك كذب الذين من قبلهم . فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » ..

« قل : يأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله . ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفا ، ولا تكونن من المشركين . ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك . فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم .. يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم . فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل . واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله ، وهو خير الحاكمين » ..

Marfat.com

وبهذه الفاصلة تختم السورة ويختم هذا الحشد من المؤثرات التى سقنا نماذج منها لا تستقصى مافى السورة من هذا النهج القرآنى الفريد فى مخاطبة القلوب والعقول .

* * *

هذه السورة نزلت بعد سورة الإسراء . وقد حمى الجدل من المشركين حول صدق الوحى، وحول هذا القرآن ، وما يواجههم به من تسفيه لعقائدهم ، ومن تنديد بجاهليتهم ، ومن كشف لما فى كيانها من تناقض واضح . تناقض بين ما يعتقدونه من أن الله - سبحانه - هو الخالق الرازق، المحيي المميت، المدبر المتصرف فى كل شىء ، القادر على كل شىء - وهى الجذور الباقية من حنيفية ابراهيم واسماعيل - عليهما السلام - وبين مايدعونه لله سبحانه من الولد ، حيث كانوا يدعون أن الملائكة بنات الله ، ويتخذونهم شفعاء عند الله ، ويعبدون تماثيلهم من الأصنام على هذا الاعتبار! ثم ما ينشأ عن هذا الاضطراب العقيدى من آثار فى حياتهم ؛ وفى أوله ما كان يزاو له الكهان والرؤساء فيهم من تحريم وتحليل فى الثمار والأنعام ؛ وجعل نصيب منها لله ونصيب لآلهتهم المدعاة !

وعندئذ كانوا يواجهون حملة القرآن على عقائدهم المهلهلة وجاهليتهم المتناقضة بأن يكذبوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى نبوته والوحى إليه من ربه ؛ ويزعمون أنه ساحر ! وأن يطلبوا منه أن يأتيهم بخارقة تدل على أن الله أوحى إليه ؛ ويفتنون فى طلب هذه الخوارق على ما ورد من ذلك فى سورة الإسراء مما حكاه القرآن الكريم عنهم . فى مثل قوله تعالى : « ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل ، فأبى أكثر الناس الا كفورا . وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى فى السماء ، ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ! قل : سبحان ربى ! هل كنت إلا بشرا رسولا ؟ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشرا رسولا ؟ » . وكما قال تعالى فى هذه السورة : « ويقولون: لولا أنزل عليه آية من ربه !! قل : إنما الغيب لله ، فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » ..

Marfat.com

كذلك كانوا يطلبون من رسول الله - صلى الله عليه وسلم . أن يأتيهم بقرآن غير هذا ، لا يتعرض لآلهتهم وعقائدهم وجاهليتهم؛ كي يستجيبوا له ويؤمنو به ! كما قال الله عنهم فى هذه السورة : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائت بقرآن غير هذا أو بدله » . . وكان الرد على مثل هذا التعسف الساذج : « قل : ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل : لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؟ إنه لا يفلح المجرمون » .

نزلت السورة فى هذا الجو . وظاهر من سياقها أنها لحمة واحدة ، تواجه واقعا متصلا ؛ حتى ليصعب تقسيمها إلى قطاعات متميزة . وهذا ما ينفى الرواية التى أخذ بها المشرفون على المصحف الأميرى من كون الآيات ٤٠ ، ٩٤ ، ٩٥ و ٩٦ مدنية . . فهذه الآيات متشابكة مع السياق ، وبعضها لا يتسق السياق بدونه أصلا !

والترابط فى سياق السورة يوحد بين مطلعها وختامها . فيجىء فى المطلع قوله تعالى : « الر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق ، عند ربهم ، قال الكافرون ! إن هذا لساحر مبين » . . ويجىء فى الختام : « واتبع مايوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » . . فالحديث عن قضية الوحى هو المطلع وهو الختام . كما أنه هو الموضوع المتصل الملتحم بين المطلع والختام .

كذلك يبدو الترابط بين المؤثرات المختلفة فى السورة . نذكر مثالا لذلك الرد على استعجالهم بالوعيد ، وتهديدهم بأنه يقع بغتة ، حيث لاينفعهم وقتها إيمان ولا توبة . . ثم يجىء القصص بعد ذلك فى السورة ، مصورا ذلك المشهد بعينه فى مصارع الغابرين .

فى الرد عليهم يقول : « ويقولون : متى هـذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل : لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا ، إلا ماشاء الله ، لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قل : أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ، ماذا يستعجل منه المجرمون ؟

Marfat.com

أثم إذا ماوقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون ؟ ! ثم قيل للذين ظلموا : ذوقوا عذاب الخلد ، هل تجزون إلا بما كنتم به تكسبون » . .

وفى نهاية قصة موسى فى السورة يجىء هذا المشهد ، وكأنه الصورة الواقعية لذلك الوعيد : « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » . .

ثم تتساوق فى ثنايا السورة بين ذلك الرد وهذه القصة مشاهد المباغتة بأخذ الله المكذبين؛ من حيث لايتوقعون ولا يدرون ؛ فترسم جوا واحدا متناسقا يبدو فيه الترابط بين المشاهد والموضوعات والأداء سواء .

كذلك يجىء فى حكاية قول المشركين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أول السورة : « قال الكافرون إن هذا لساحر مبين » .. ثم يجىء فى حكاية فرعون وملئه عن موسى ــ عليه السلام ــ : « فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا : إن هذا لسحر مبين » . .

وقد سميت السورة سورة يونس . بينما قصة يونس فيها لاتتجاوز إشارة سريعة على هذا النحو : « فلو لا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ! إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ومتعناهم إلى حين » . . ولكن قصه يونس ــ مع هذا ــ هى المثل الوحيد البارز للقوم الذين يتداركون أنفسهم قبل مباغتة العذاب لهم ؛ فيثوبون إلى ربهم وفى الوقت سعة ؛ وهم وحدهم فى تاريخ الدعوات الذين آمنوا جملة بعد تكذيب ، فكشف عنهم العذاب الذى أوعدهم به رسولهم قبل وقوعه بهم ، كما هى سنة الله فى المكذبين المصرّين .

وهكذا نجد الترابط بكل ألوانه فى سياق السورة من مطلعها إلى ختامها ، مما يجعلها وحدة متكاملة متشابكة كما أسلفنا .

* * *

وواضح من المقتطفات التى سبقت من نصوص السورة ــ فى هذا التقديم ــ أن القضية الأساسية التى يتكىء عليها السياق كله هى قضية الألوهية والعبودية ؟ وتجلية حقيقتهما ، وبيان

Marfat.com

مقتضيات هذه الحقيقة فى حياة الناس . أما سائر القضايا الأخرى التى تعرضت لها السورة كقضية الوحى ، وقضية الآخرة ، وقضية الرسالات السابقة . . . فقد جاءت فى صدد إيضاح تلك الحقيقة الكبرى وتعميقها وتوسيع مدلولها ؛ وبيان مقتضياتها فى حياة البشر واعتقادهم وعباداتهم وعملهم .

والواقع أن تلك القضية الكبرى هى قضية القرآن كله، وقضية القرآن المكى بصفة خاصة . فتعريف الألوهية الحقة ؛ وبيان خصائصها من الربوبية والقوامة والحاكمية ؛ وتعريف العبودية وحدودها التى لا تتعداها ؛ والوصول من هذا كله إلى تعبيد الناس لإلههم الحق ؛ واعترافهم بالربوبية والقوامة والحاكمية له وحده . . هذا هو الموضوع الرئيسى للقرآن كله . . وما وراءه إن هو إلا بيان لمقتضيات هذه الحقيقة الكبيرة فى حياة البشر بكل جوانبها .

وهذه الحقيقة الكبيرة تستحق ـ عند التأمل العميق ـ كل هذا البيان الذى هو موضوع هذا القرآن .. تستحق أن يرسل الله من أجلها رسله جميعا ، وأن ينزل بها كتبه جميعا : « وما أرسلنا من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » . .

إن حياة البشر فى الأرض لاتستقيم إلا إذا استقامت هذه الحقيقة فى اعتقادهم وتصورهم ، واستقامت كذلك فى حياتهم وواقعهم .

لاتستقيم أولا إزاء هـذا الكون الذى يعيشون فيه ، ويتعاملون مع أشيائه وأحيائه . . وهم حين يضطرب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية يروحون يؤلهون الأشياء والأحياء ـ بل يؤلهون الأشباح والأوهام ! ـ ويُعبدون أنفسهم لها فى صور مضحكة ، ولكنها بائسة ! ، ويقدمون لها ـ بوحى من الكهان والمنتفعين بأوهام العوام فى كل زمان وفى كل مكان ـ خلاصة كدهم من الرزق الذى أعطاهم الله . بل إنهم ليقدمون لها فلذات أكبادهم كما يقدمون لها أرواحهم فى بعض الأحيان . . وهى أشياء وأحياء لاحول لها ولا قوة ، ولا تملك لهم ضرا ولا نفعا . . وتضطرب حياتهم كلها ، وهم يعيشون بين الهلع والجزع من هـذه الأشياء والأحياء ؛ وبين التقرب والزلفى لمخلوقات مثلهم ، عبوديتها لله كعبوديتهم . . وذلك كما قال الله تعالى عنهم : « وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . فقالوا : هذا لله ـ بزعمهم ـ وهذا لشركائنا ! فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ! ساء

Marfat.com

ما يحكمون! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم - ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون - وقالوا : هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء - بزعمهم - وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ! - سيجزيهم بما كانوا يفترون - وقالوا : ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ! سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم - قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين (١) » .

فهذه نماذج من تكاليف العبودية لغير الله فى الأموال والأولاد ؛ التى تقدم المخلوقات من خلق الله . أشياء أو أحياء ما أنزل الله بها من سلطان !

كذلك لا تستقيم حياة البشر إزاء بعضهم البعض بدون استقامة حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية فى اعتقادهم وتصورهم ، وفى حياتهم وواقعهم . . إن إنسانية الإنسان وكرامته وحريته الحقيقية الكاملة لا يمكن أن تتحقق فى ظل اعتقاد أو نظام لا يفرد الله سبحانه بالربوبية والقوامة والحاكمية ؛ ولا يجعل له وحده حق الهيمنة على حياة الناس فى الدنيا والآخرة ، فى السر والعلانية ؛ ولا يعترف له وحده بحق التشريع والأمر والحاكمية فى كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية . .

والواقع البشرى على مدار التاريخ يثبت هذه الحقيقة ويصدقها . فما من مرة انحرف الناس عن الدينونة لله وحده - اعتقادا ونظاما - ودانوا لغير الله من العباد - سواء كانت هذه الدينونة ، بالاعتقاد والشعائر أم كانت باتباع الأحكام والشرائع - إلا كانت العاقبة هى فقدانهم لإنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم !

والتفسير الإسلامى للتاريخ ؛ يرد ذل المحكومين للطواغيت ، وسيطرة الطواغيت عليهم ، إلى عامل أساسى هو فسوق المحكومين عن دين الله ، الذى يفرد الله سبحانه بالألوهية ، ومن ثم يفرده بالربوبية والسلطان والقوامة والحاكمية . فيقول الله سبحانه عن فرعون وقومه : « ونادى فرعون فى قومه : أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى ؟ أفلا تبصرون ؟ أم أنا خير

(١) يراجع تفسير هذه الآيات من سورة الأنعام ص ٥٧ - ص ٨٠ من الجزء الثامن من الطبعة الثانية المنقحة .

Marfat.com

من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ؟! فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب ، أو جاء معه الملائكة مقترنين ! فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين » .. فيرد استخفاف فرعون لهم إلى أنهم فاسقون . فما يستخف الحاكم الطاغى قومه وهم مؤمنون بالله موحدون ؛ لا يدينون لسواه بربوبية تزاول القوامة والحاكمية !

ولقد حدث أن الذين فسقوا عن الدينونة لله وحده ، فأتاحوا لنفر منهم أن يحكموهم بغير شريعته ، قد وقعوا فى النهاية فى شقوة العبودية لغيره . العبودية ، التى تأكل إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم، مهما اختلفت أشكال الأنظمة التى تحكمهم ؛ والتى ظنوا فى بعضها أنها تكفل لهم الإنسانية والحرية والكرامة !

لقد هربت أوربا من الله — فى أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية الباغية باسم الدين الزائف! (١) — وثارت على الله — سبحانه — فى أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التى أهدرت كل القيم الإنسانية فى عنفوان سطوتها الغاشمة ! ثم ظن الناس هناك أنهم يجدون إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم — ومصالحهم كذلك — فى ظل الأنظمة الفردية (الديمقراطية) وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التى تكفلها لهم الدساتير الوضعية ، والأوضاع النيابية البرلمانية ، والحريات الصحفية ، والضمانات القضائية والتشريعية ، وحكم الأغلبية المنتخبة ... إلى آخر هذه الهالات التى أحيطت بها تلك الأنظمة .. ثم ماذا كانت العاقبة ؟ كانت العاقبة هى طغيان « الرأسمالية » ذلك الطغيان الذى أحال كل تلك الضمانات وكل تلك التشكيلات ، إلى مجرد لافتات ، أو إلى مجرد خيالات ! ووقعت الأكثرية الساحقة فى عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التى تملك رأس المال ، فتملك معه الأغلبية البرلمانية ! والدساتير الوضعية ! والحريات الصحفية ! وسائر الضمانات التى ظنها الناس هناك كفيلة بضمان إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم ، فى معزل عن الله سبحانه !!!

ثم هرب فريق من الناس هناك من الأنظمة الفردية التى يطغى فيها « رأس المال » و « الطبقة ! » إلى الأنظمة الجماعية ! فماذا فعلوا ؟ لقد استبدلوا بالدينونة لطبقة « الرأسماليين » الدينونة لطبقة « الصعاليك » ! أو استبدلوا بالدينونة لأصحاب رؤوس الأموال والشركات

---

(١) يراجع فصل : « الفصام النكد » فى كتاب : « المستقبل لهذا الدين » .

Marfat.com

الدينونة للدولة التى تملك المال إلى جانب السلطان ! فتصبح أخطر من طبقة الرأسماليين !

وفى كل حالة وفى كل وضع وفى كل نظام دان البشر فيه للبشر ، دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبة الفادحة . دفعوها للأرباب المتنوعة فى كل حالة !

إنه لابد من عبودية ! فإن لاتكن لله وحده ، تكن لغير الله .. والعبودية لله وحده تطلق الناس أحرارا كراما شرفاء أعلياء .. والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم .. ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية فى النهاية !

من أجل ذلك كله تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلك العناية فى رسالات الله ــ سبحانه ــ وفى كتبه .. وهذه السورة نموذج من تلك العناية .. فهى قضية لاتتعلق بعبدة الأصنام والأوثان فى الجاهليات الساذجة البعيدة . ولكنها تتعلق بالإنسان كله فى كل زمان وفى كل مكان ؛ وتتعلق بالجاهليات كلها .. جاهليات ماقبل التاريخ . وجاهليات التاريخ . وجاهلية القرن العشرين . وكل جاهلية تقوم على أساس من عبادة العباد للعباد (١) !

ومن أجل ذلك كان جوهر الرسالات والكتب هو تقرير ألوهية الله ــ سبحانه ــ وربوبيته وحده للعباد : « وماأرسلنا من رسول إلا نوحى إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون » .

وكان ختام هذه السورة التى نواجهها :

« قل : ياأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ؛ ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم ، وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفا ، ولاتكونن من المشركين . ولا تدع من دون الله ، مالاينفعك ولايضرك ، فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلاهو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم . قل : ياأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها . وماأنا عليكم بوكيل . واتبع مايوحى إليك ، واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » ..

وحسبنا هذا فى التعريف بالسورة ؛ لنأخذ فى استعراض نصوصها بالتفصيل :

---

(١) يراجع كتاب : « الإسلام والجاهلية » للمسلم العظيم السيد أبو الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية بباكستان . وكتاب : « جاهلية القرن العشرين » لمحمد قطب .

Marfat.com

سورة يونس مكية
وآياتها ١٠٩

بسم الله الرحمن الرحيم

« الر تلك ءايت الكتب الحكيم * أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين ءامنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ؟ قال الكفرون : إن هذا لسحر مبين .

« إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ؛ ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، ما من شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه ، أفلا تذكرون ؟ * إليه مرجعكم جميعا ، وعد الله حقا ، إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ليجزى الذين ءامنوا وعملوا الصلحت بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم ، وعذاب أليم بما كانوا يكفرون * هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ، ما خلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الأيت لقوم يعلمون * إن فى اختلف اليل والنهار ، وما خلق الله فى السموات والأرض لأيت لقوم يتقون .

« إن الذين لا يرجون لقاءنا ، ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن ءايتنا غفلون * أولئك مأوىهم النار بما كانوا يكسبون * إن الذين

Marfat.com

ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ، تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ * دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا : سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ، وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ : أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

« وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ، فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ؛ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ، كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ * وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ ، وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ، وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

« وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا : ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ . قُلْ : مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ، إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ . قُل: لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ، أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ؟ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ .

« وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ، وَيَقُولُونَ : هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ . قُلْ : أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ؟ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ * وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ * وَيَقُولُونَ لَوْلَآ

Marfat.com

أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِ ؟ فَقُلْ : إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ .

« وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ، قُلِ : ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ، إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ * هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ، حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ، وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ، وَفَرِحُوا۟ بِهَا ، جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ، وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ ، وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ، دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ، يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ، مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ، فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

« إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ ، فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ، حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ ، وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ، فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ . كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ ، وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ » .

السورة كلها ـ كما أسلفنا فى تقديمها ـ لحمة واحدة ، يصعب تقسيمها إلى مقاطع ؛ شأنها فى هذه الخاصية شأن سورة الأنعام التى سبق الحديث عنها فى الجزء السابع ـ مع تميز كل سورة بشخصيتها وطابعها الخاص ـ فهى تتدفق فى هيئة موجات متوالية ؛ تنصب بمؤثراتها الموحية على القلب البشرى ، وتخاطبه بإيقاعات منوعة .. من التعجيب من أمر المشركين فى استقبالهم للوحى والقرآن . إلى عرض المشاهد الكونية التى تتجلى فيها ألوهية الله سبحانه . إلى عرض مشاهد

Marfat.com

القيامة . إلى عرض أحوال البشر فى مواجهة الأحداث التى تمر بهم . إلى عرض مصارع الغابرين ... إلى آخر ما سبقت الإشارة إليه من الموضوعات والمؤثرات التى تحتويها السورة .

وإذا جاز تقسيم السورة إلى مقاطع مميزة . فإن أكثر من نصفها الأول يعد مقطعا واحدا يتدفق بهذه الموجات المتتابعة . ثم تجىء قصة نوح - ومن بعده فى اختصار - وقصة موسى والإشارة إلى قصة يونس ؛ فتؤلف مقطعا آخر . ثم تجىء الإيقاعات الأخيرة فى السورة فتؤلف المقطع الأخير .

ونظرا لطبيعة السورة هذه فسنحاول عرضها موجة موجة - أو مجموعة من الموجات المتناسقة - كما هى طبيعتها المتميزة ..

* * *

أما هذا الدرس الأول منها فيبدأ بحروف ثلاثة . « ألف . لام . را » كما بدأت سورة البقرة وسورة آل عمران وسورة الأعراف بحروف ذكرنا الرأى الذى اخترناه فى تفسيرها هناك . يبدأ بهذه الأحرف مبتدأ خبره : « تلك آيات الكتاب الحكيم » .

ثم يأخذ السياق فى عرض عدة أمور تبدو فيها الحكمة التى أشير إليها فى وصف الكتاب . من الوحى إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - لينذر الناس ويبشر المؤمنين ، والرد على المعترضين أن يوحى الله إلى بشر . . إلى خلق السماوات والأرض وتدبير الأمر فيهما . . إلى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وتقدير منازل القمر ليعلموا عدد السنين والحساب . . إلى اختلاف الليل والنهار وما فيه من حكمة وتدبير . .

ويتطرق من عرض هذه الآيات الكونية إلى الغافلين عنها ، الذين لا يرتقبون لقاء الله مدبر كل شىء ، وما ينتظر هؤلاء الغافلين من سوء المصير ؛ وما ينتظر المؤمنين فى الجانب الآخر من نعيم مقيم . ويسجل حكمة تأجيل المصير إلى يومه الموعود ، وعدم تعجيل الشر للناس كما يستعجلون هم الخير فى هذه الدنيا ولو عجل لهم بالشر كما يستعجلون بالخير لانتهى الأجل وأخذوا بذنوبهم دون إمهال .

ومن ثم وصف لطبيعة البشر فى تقيمهم للشر والخير . وضراعتهم إلى الله عند مس الأذى ، ونسيانهم له عند كشف الضر . ولجاجهم فيما كانوا من قبل فيه ، دون اعتبار بالقرون الخالية التى سارت فى الطريق ذاته ، ولقيت مصارعها فى ذلك الطريق !

Marfat.com

ومع أن مصارع الغابرين كانت واضحة للعرب الذين يدعوهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - فإن المكذبين كانوا يطلبون إلى الرسول أن يأتى لهم بقرآن غير هذا القرآن أو يبدل بعضه . غير متدبرين ولا مدركين أن القرآن من عند الله ، وأن له حكمة ثابتة فهو لا يقبل التبديل . وهم يعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم دون استناد إلى شيء ، ويتركون عبادة الله وحده وهى تستند إلى وحى من الله . ثم يطلبون خارقة من الخوارق غير ناظرين إلى آية الله الواضحة فى القرآن ، غافلين عن آياته المعجزة فى تضاعيف الكون .

ثم عودة إلى طبيعة البشر فى تلقى الرحمة والضر . وعرض نموذج حى من هذه الطبيعة ، فى مشهد من المشاهد النابضة المتحركة المؤثرة . فى ركوب البحر عندما تسير الفلك فى أول الأمر رخاء ، ثم تعصف بها الريح ويأتيها الموج من كل مكان .

ومشهد آخر يمثل غرور هذه الحياة الدنيا ، وبريقها ولألاءها الذى ينطفىء فى لحظة ، وأهلها مأخوذون بزخرفها غافلون عن المصير الخاطف المرهوب .. ذلك والله يدعو إلى دار السلام . دار الأمن والاطمئنان . الدار التى لا خوف من أخذها على حين غرة . . « كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .. ويدركون حكمة الله فى الخلق والتدبير .

***

« الر تلك آيات الكتاب الحكيم » . .

من هذه الحروف وأمثالها ، تتألف آيات الكتاب الحكيم ، الذى ينكرون أن يكون الله قد أوحى به إلى الرسول . وهذه الحروف فى متناول أيديهم ، ثم لا يبلغون أن يؤلفوا منها آية واحدة من مثل آيات الكتاب - كما يتحداهم فى هذه السورة - ولا يقودهم هذا إلى التدبر ، وإدراك أن الوحى هو مفرق الطريق بينهم وبين الرسول ، وأنه لولا هذا الوحى لوقف وقفتهم عاجزا عن تأليف آية واحدة ، من هذه الحروف المبذولة للجميع .

« تلك آيات الكتاب الحكيم » . .

الحكيم الذى يخاطب البشر بما يناسب طبائع البشر ، ويعرض فى هذه السورة جوانب منها صادقة باقية ، نجد مصداقها فى كل جيل .

والحكيم الذى ينبه الغافلين إلى تدبر آيات الله فى صفحة الكون وتضاعيفه . فى السماء

Marfat.com

والأرض . وفى الشمس والقمر . وفى الليل والنهار .. وفى مصارع القرون الأولى . وفى قصص الرسل فيهم .. وفى دلائل القدرة الكامنة والظاهرة فى هذا الوجود . .

* * *

« أ كان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ، وبشر الذين آمنو أن لهم قدم صدق عند ربهم ؟ قال الكافرون . إن هذا لساحر مبين » :

سؤال استنكارى . يستنكر هذا العجب الذى تلقى به الناس حقيقة الوحى منذ كانت الرسل .

لقد كان السؤال الدائم الذى قوبل به كل رسول : أبعث الله بشرا رسولا ؟ ومبعث هذا السؤال هوعدم إدراك قيمة « الإنسان » . عدم إدراك الناس أنفسهم لقيمة « الإنسان » الذى يتمثل فيهم . فهم يستكثرون على بشر أن يكون رسول الله ، وأن يتصل الله به ـ عن طريق الوحى ـ فيكلفه هداية الناس . إنهم ينتظرون أن يرسل الله ملكا أو خلقا آخر أعلى رتبة من الإنسان عند الله . غير ناظرين إلى تكريم الله لهذا المخلوق ؛ ومن تكريمه أن يكون أهلا لحمل رسالته ؛ وأن يختار من بين أفراده من يتصل بالله هذا الاتصال الخاص .

هذه كانت شبهة الكفار المكذبين على عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وشبهة أمثالهم فى القرون الأولى . فأما فى هذا العصر الحديث فيقيم بعض الناس من أنفسهم لأنفسهم شبهة أخرى لاتقل تهافتا عن تلك !

إنهم يسألون : كيف يتم الاتصال بين بشر ذى طبيعة مادية وبين الله المخالف لطبيعة كل شىء مما خلق . والذى ليس كمثله شىء ؟

وهو سؤال لايحق لأحد أن يسأله إلا أن يكون قد أحاط علما بحقيقة الله سبحانه وطبيعة ذاته الإلهية ، كما أحاط علما بكل خصائص الإنسان التى أودعها الله إياه . وهو مالا يدعيه أحد يحترم عقله ، ويعرف حدود هذا العقل . بل يعرف أن خصائص الإنسان القابلة للكشف مايزال يكشف منها جديد بعد جديد ، ولم يقف العلم بعد حتى يقال : إنه أدرك كل الخصائص الإنسانية القابلة للإدراك . فضلا على أنه ستبقى وراء إدراك العلم والعقل دائما آفاق من المجهول بعد آفاق !

Marfat.com

فنى الإنسان إذن طاقات مجهولة لايعلمها إلا الله . والله أعلم حيث يجعل رسالته فى الإنسان ذى الطاقة التى تحمل هذه الرسالة . وقد تكون هذه الطاقة مجهولة للناس ، ومجهولة لصاحبها نفسه قبل الرسالة . ولكن الله الذى نفخ فى هذا الإنسان من روحه عليم بما تنطوى عليه كل خلية ، وكل بنية ، وكل مخلوق ؛ وقادر على أن يطوع لإنسان هذا الاتصال الخاص بكيفية لا يدركها إلا من ذاقها وأوتيها .

ولقد جهد ناس من المفسرين المحدثين فى إثبات الوحى عن طريق العلم للتقريب . ونحن لا نقر هذا المنهج من أساسه . فللعلم ميدان . هو الميدان الذى يملك أدواته . وللعلم آفاق هى الآفاق التى يملك أدوات كشفها ومراقبتها . والعلم لم يدع أنه يعرف شيئا حقيقيا عن الروح . فهى ليست داخلة فى نطاق عمله ، لأنها ليست شيئا قابلا للاختبار المادى الذى يملك العلم وسائله . لذلك تجنب العلم الملتزم للأصول العلمية أن يدخل فى ميدان الروح . أما ما يسمى «بالعلوم الروحانية» فهى محاولات وراءها الريب والشكوك فى حقيقتها وفى أهدافها كذلك(١)! ولا سبيل إلى معرفة شيء يقينى فى هذا الميدان إلا ما جاءنا من مصدر يقينى كالقرآن والحديث وفى الحدود التى جاء فيها بلا زيادة ولا تصرف ولا قياس . إذ أن الزيادة والتصرف والقياس عمليات عقلية . والعقل هنا فى غير ميدانه ، وليس معه أدواته . لأنه لم يزود بأدوات العمل فى هذا الميدان .

« أ كان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ؟ » . .

فهذه خلاصة الوحى : إنذار الناس بعاقبة المخالفة ، وتبشير المؤمنين بعقبى الطاعة . وهذا يتضمن بيان التكاليف الواجبة الاتباع وبيان النواهى الواجبة الاجتناب . فهذا هو الإنذار والتبشير ومقتضياتهما على وجه الإجمال .

والإنذار للناس جميعا . فكل الناس فى حاجة إلى التبليغ والبيان والتحذير : والبشرى للذين آمنوا وحدهم . وهو يبشرهم هنا بالطمأنينة والثبات والاستقرار .. تلك المعانى التى توحى بها كلمة (صدق) مضافة إلى القدم . فى جو الإنذار والتخويف . . « قدم صدق » . . قدم ثابتة راسخة موقنة لا تتزعزع ولا تضطرب ولا تتزلزل ولا تتردد ، فى جو الإنذار وفى ظلال

(١) راجع الكراسة التى كتبها الدكتور محمد محمد حسين بعنوان: «الروحية الحديثة : حقيقتها وأهدافها» .

Marfat.com

الخوف ، وفى ساعات الحرج . . « قدم صدق عند ربهم » . . فى الحضرة التى تطمئن فيها النفوس المؤمنة . حينما تتزلزل القلوب والأقدام .

وحكمة الله واضحة فى الإيحاء إلى رجل منهم . رجل يعرفهم ويعرفونه ، يطمئنون إليه ويأخذون منه ويعطونه ، بلا تكلف ولا جفوة ولا تحرج . أما حكمته فى إرسال الرسل فهى أوضح ، والإنسان مهيأ بطبعه للخير والشر ، وعقله هو أداته للتمييز . ولكن هذا العقل فى حاجة إلى ميزان مضبوط يعود إليه دائما كلما غم عليه الأمر ، وأحاطت به الشبهات ، وجذبته التيارات والشهوات ، وأثرت فيه المؤثرات العارضة التى تصيب البدن والأعصاب والمزاج ، فتتغير وتتبدل تقديرات العقل أحيانا من النقيض إلى النقيض . هو فى حاجة إلى ميزان مضبوط لا يتأثر بهذه المؤثرات ليعود إليه ، وينزل على إرشاده ، ويرجع إلى الصواب على هداه . وهذا الميزان الثابت العادل هو هدى الله وشريعة الله .

وهذا يقتضى أن تكون لدين الله حقيقة ثابتة يرجع إليها العقل البشرى بمفهوماته كلها ؛ فيعرضها على هذا الميزان الثابت ، وهناك يعرف صحيحها من خاطئها . . والقول بأن دين الله هو دائما « مفهوم البشر لدين الله » وأنه من ثم « متطور فى أصوله » يعرض هذه القاعدة الأساسية فى دين الله ــ وهى ثبات حقيقته وميزانه ــ لخطر التميع والتأرجح والدوران المستمر مع المفهومات البشرية . بحيث لا يبقى هنالك ميزان ثابت تعرض عليه المفهومات البشرية . .

والمسافة قصيرة بين هذا القول ، والقول بأن الدين من صنع البشر . . فالنتيجة النهائية واحدة ، والمزلق خطر وخطير للغاية ، والمنهج بجملته يستوجب الحذر الشديد . .منه ومن نتائجه القريبة والبعيدة . .

ومع وضوح قضية الوحى على هذا النحو ، فإن الكافرين يستقبلونها كما لو كانت أمرا عجيبا :

« قال الكافرون : إن هذا لساحر مبين » . .

ساحر لأن ما ينطق به معجز . وأولى لهم ــ لو كانوا يتدبرون ــ أن يقولوا : نبى يوحى

Marfat.com

إليه لأن ما ينطق به معجز . فالسحر لا يتضمن من الحقائق الكونية الكبرى ومن منهج الحياة والحركة ،ومن التوجيه والتشريع مايقوم به مجتمع راق ، وما يرتكز عليه نظام متفرد ..

ولقد كان يختلط عندهم الوحى بالسحر ، لاختلاط الدين بالسحر فى الوثنيات كلها ؛ ولم يكن قد وضح لهم ما يتضح للمسلم حين يدرك حقيقة دين الله ، فينجو من هـذه الوثنيات وأوهامها وأساطيرها .

* * *

« إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يدبر الأمر ، مامن شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون ؟ إليه مرجعكم جميعا ، وعد الله حقا، إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ماخلق الله ذلك إلا بالحق ، يفصل الآيات لقوم يعلمون ، إن فى اختلاف الليل والنهار وما خلق الله فى السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون » .

وهذه هى القضية الأساسية الكبرى فى العقيدة . قضية الربوبية .. فقضية الألوهية لم تكن محل إنكار جدى من المشركين . فهم كانوا يعتقدون بوجود الله – لأن الفطرة البشرية لاتستطيع التخلى عن الاعتقاد بوجود إله لهـذا الكون إلا فى حالات نادرة منحرفة شديدة الانحراف – ولكنهم كانوا يشركون مع الله أربابا يتوجهون إليهم بالعبادة . إما ليقربوهم إلى الله زلفى ويكونوا لهم شفعاء عنده كما كانوا يزاولون خصائص الربوبية فيشرعون لأنفسهم مالم يأذن به الله .

والقرآن الكريم لايدخل فى جدل ذهنى جاف بصدد قضية الألوهية والربوبية – كالذى جد فيما بعد بتأثير المنطق اليونانى والفلسفة الإغريقية – إنما يلمس المنطق الفطرى الواضح البسيط المباشر :

إن الله هو الذى خلق السماوات والأرض وما فيهن . وجعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل . وقدر اختلاف الليل والنهار .. هذه الظواهر البارزة التى تلمس الحس، وتوقظ

Marfat.com

القلب لو تفتح وتدبرها تدبر الواعى المدرك . . إن الله الذى خلق هـذا ودبره هو الذى يليق أن يكون ربا يدين له البشر بالعبودية ولا يشركون به شيئا من خلقه . . أليست قضية منطقية حية واقعية ، لا تحتاج إلى كد ذهن ، ولا إلى بحث وراء الأقيسة الجدلية التى يعلكها الذهن باردة جافة ، ولا تدفىء القلب مرة ولا تستجيش الوجدان ؟!

إن هذا الكون الهائل . سماواته وأرضه . شمسه وقمره . ليله ونهاره . وما فى السماوات والأرض من خلق ، ومن أمم ومن سنن ، ومن نبات ومن طير ومن حيوان ، كلها تجرى على تلك السنن . .

إن هذا الليل الطامى السادل الشامل ، الساكن إلا من دبيب الرؤى والأشباح . وهـذا الفجر المتفتح فى سدف الليل كابتسامة الوليد الراضى . وهذه الحركة يتنفس بها الصبح فيدب النشاط فى الحياة والأحياء . وهذه الظلال السارية يحسبها الرائى ساكنة وهى تدب فى لطف . وهذا الطير الرائح الغادى القافز الواثب الذى لا يستقر على حال . وهـذا النبت النامى المتطلع أبدا إلى النمو والحياة . وهذه الخلائق الذاهبة الآيبة فى تدافع وانطلاق . وهذه الأرحام التى تدفع والقبور التى تبلع ، والحياة ماضية فى طريقها كما شاء الله . . .

إن هـذا الحشد من الصور والظلال ، والأنماط والأشكال ، والحركات والأحوال ، والرواح والذهاب ، والبلى والتجدد ، والذبول والنماء ، والميلاد والممات ، والحركة الدائبة فى هذا الكون الهائل التى لا تنى ولا تتوقف لحظة من ليل أو نهار . .

إن هذا كله ليستجيش كل خالجة فى كيان الإنسان للتأمل والتدبر والتأثر ، حين يستيقظ القلب ، ويتفتح لمشاهدة الآيات المبثوثة فى ظواهر الكون وحناياه . . والقرآن الكريم يعمد مباشرة إلى إيقاظ القلب والعقل لتدبر هذا الحشد من الصور والآيات .

« إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام » . .

إن ربكم الذى يستحق الربوبية والعبادة هو هذا الخالق ، الذى خلق السماوات والأرض . خلقها فى تقدير وحكمة وتدبير :

« فى ستة أيام » . .

حسب ما اقتضت حكمته أن يتم تركيبها وتنسيقها وتهيئتها لما أراده الله .

Marfat.com

ولا ندخل فى تحديد هذه الأيام الستة . فهى لم تذكر هنا لنتجه إلى تحديد مداها ونوعها . إنما ذكرت لبيان حكمة التقدير والتدبير فى الخلق حسب مقتضيات الغاية من هذا الخلق ، وتهيئته لبلوغ هذه الغاية . .

وعلى أية حال فالأيام الستة غيب من غيب الله ، الذى لامصدر لإدراكه إلا هذا المصدر . فعلينا أن نقف عنده ولا نتعداه . والمقصود بذكرها هو الإشارة إلى حكمة التقدير والتدبير والنظام ، الذى يسير به الكون من بدئه إلى منتهاه .

« ثم استوى على العرش » . .

والاستواء على العرش . كناية عن مقام السيطرة العلوية الثابتة الراسخة ، باللغة التى يفهمها البشر ويتمثلون بها المعانى ، على طريقة القرآن فى التصوير (كما فصلنا هذا فى فصل التخييل الحسى والتجسيم من كتاب التصوير الفنى فى القرآن) .

و « ثم » هنا ليست للتراخى الزمانى ، إنما هى للبعد المعنوى . فالزمان فى هذا المقام لاظل له . وليست هناك حالة ولا هيئة لم تكن لله ـ سبحانه ـ ثم كانت . فهو ـ سبحانه ـ منزه عن الحدوث وما يتعلق به من الزمان والمكان . لذلك نجزم بأن « ثم » هنا للبعد المعنوى ، ونحن آمنون من أننا لم نتجاوز المنطقة المأمونة التى يحق فيها للعقل البشرى أن يحكم ويجزم . لأننا نستند إلى قاعدة كلية فى تنزيه الله سبحانه عن تعاقب الهيئات والحالات ، وعن مقتضيات الزمان والمكان .

« يدبر الأمر » . .

ويقدر أوائله وأواخره ، وينسق أحواله ومقتضياته ، ويرتب مقدماته ونتائجه ، ويختار الناموس الذى يحكم خطواته وأطواره ومصائره .

« مامن شفيع إلا من بعد إذنه » . .

فالأمر كله له ، والحكم كله إليه . وما من شفعاء يقربون إلى الله زلفى . وما من شفيع من خلقه إلا حيث يأذن له بالشفاعة ، وفقا لتدبيره وتقديره ، واستحقاق الشفاعة بالإيمان والعمل الصالح ، لابمجرد التوسل بالشفعاء . . وهذا يواجه ما كانوا يعتقدونه من أن للملائكة التى يعبدون تماثيلها شفاعة لاترد عند الله !

Marfat.com

ذلكم الله الخالق المدبر الحاكم الذى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه .. « ذلكم الله ربكم » .. الخليق بالربوبية « فاعبدوه » فهو الذى يستحق الدينونة له دون سواه .. « أفلا تذكرون » ؟ .. فالأمر من الثبوت والوضوح بحيث لا يحتاج إلا لمجرد التذكر لهذه الحقيقة المعروفة ..

ونقف لحظة أمام قوله تعالى بعد عرض دلائل الألوهية فى السماوات والأرض :

« ذلكم الله ربكم فاعبدوه » ..

وقد قلنا : إن قضية الألوهية لم تكن محل إنكار جدى من المشركين ، فقد كانوا يعترفون بأن الله ــ سبحانه ــ هو الخالق الرازق المحيي المميت المدبر المتصرف القادر على كل شيء .. ولكن هذا الاعتراف لم تكن تتبعه مقتضياته . فلقد كان من مقتضى هذا الاعتراف بألوهية الله على هذا المستوى أن تكون الربوبية له وحده فى حياتهم .. والربوبية تتمثل فى الدينونة له وحده ؛ فلا يتقدمون بالشعائر التعبدية إلا له ؛ ولا يحكمون فى أمرهم كله غيره .. وهذا معنى قوله تعالى :

« ذلكم الله ربكم فاعبدوه » ..

فالعبادة هى العبودية ، وهى الدينونة ، وهى الاتباع والطاعة ، مع إفراد الله سبحانه بهذه الخصائص كلها ، لأنها من مقتضيات الاعتراف بالألوهية .

وفى الجاهليات كلها ينحسر مجال الألوهية . ويظن الناس أن الاعتراف بالألوهية فى ذاته هو الإيمان ؛ وأنه متى اعترف الناس بأن الله إلههم فقد بلغوا الغاية ؛ دون أن يرتبوا على الألوهية مقتضاها وهو الربوبية .. أى الدينونة لله وحده ليكون هو ربهم الذى لا رب غيره ، وحاكمهم الذى لا سلطان لأحد إلا بسلطانه ..

كذلك ينحسر معنى « العبادة » فى الجاهلية ، حتى يقتصر على مجرد تقديم الشعائر . ويحسب الناس أنهم متى قدموا الشعائر لله وحده ، فقد عبدوا الله وحده .. بينما كلمة العبادة ابتداء مشتقة من عبد . و « عبد » تفيد ابتداء « دان وخضع » . وما الشعائر إلا مظهر واحد من مظاهر الدينونة والخضوع لا يستغرق كل حقيقة الدينونة ولا كل مظاهرها .

Marfat.com

والجاهلية ليست فترة من الزمان ، ولا مرحلة من المراحل . إنما هى انحسار معنى الألوهية على هذا النحو ، ومعنى العبادة . هذا الانحسار الذى يؤدى بالناس إلى الشرك وهم يحسبون أنهم فى دين الله ! كما هو الحال اليوم فى كل بلاد الأرض ، بما فيها البلاد التى يتسمى أهلها بأسماء المسلمين ، ويؤدون الشعائر لله ، بينما أربابهم غير الله ، لأن ربهم هو الذى يحكمهم بسلطانه وشريعته ، وهو الذى يدينون له ويخضعون لأمره ونهيه ، ويتبعون ما يشرعه لهم ، وبذلك يعبدونه كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « . . . فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم » . فى حديث عدى ابن حاتم الذى أخرجه الترمذى .

ولتوكيد معنى العبادة المقصود جاء فى السورة ذاتها قوله تعالى : « قل : أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا . قل : آلله أذن لكم أم على الله تفترون ؟ » . .

وما نحن فيه اليوم لا يفترق فى شىء عما كان عليه أهل الجاهلية هؤلاء الذين يناديهم الله بقوله :

« ذلكم الله ربكم فاعبدوه . أفلا تذكرون ! » .

اعبدوه ولا تشركوا به شيئا . فإن مرجعكم إليه ، وحسابكم عنده ، وهو يجزى المؤمنين والكافرين :

« إليه مرجعكم جميعا وعد الله حقا » . .

إليه وحده لا للشركاء والشفعاء .

وقد وعد فلا خلف ولا تخلف ، فالبعث هو تتمة الخلق :

« إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ، والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » . .

فالعدل فى الجزاء غاية من غايات الخلق والإعادة :

« ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط ... »

والنعيم بلا منغصات وبدون عقابيل تعقب اللذة غاية من غايات الخلق والإعادة . إنها قمة الكمال البشرى الذى يمكن أن تصل إليه البشرية . والبشرية لا تصل إلى شىء من هذا

Marfat.com

فى هذه الأرض وفى هذه الحياة الدنيا المشوبة بالقلق والكدر ، والتى لاتخلو فيها لذة من غصة ، أو من عقابيل تعقبها - إلا لذائذ الروح الخالصة وهذه قلما تخلص لبشر - ولو لم يكن فى هذه الحياة الدنيا إلا الشعور بنهاية نعيمها لكان هذا وحده ناقصا منها وحائلا دون كمالها . فالبشرية لاتصل فى هـذه الأرض إلى أعلى الدرجات المقدرة لها ، وهى التخلص من النقص والضعف ومعقباتها ، والاستمتاع بلا كدر ولا خوف من الفوت ولاقلق من الانتهاء . وهذا كله تبلغه فى الجنة كما وصف القرآن نعيمها الكامل الشامل . فلا جرم يكون من غاية الخلق والإعادة إبلاغ المهتدين من البشرية ، الذين اتبعوا سنة الحياة الصحيحة وناموس الحياة القويم ، إلى أعلى مراتب البشرية .

فأما الذين كفروا فقد خالفوا عن الناموس ، فلم يسيروا فى طريق الكمال البشرى ، بل جانبوه . وهـذا يقتضى - حسب السنة التى لاتتخلف - ألا يصلوا إلى مرتبة الكمال ، لأنهم جانبوا قانون الكمال ؛ وأن يلقوا عاقبة انحرافهم كما يلقى المريض عاقبة انحرافه عن قوانين الصحة الجسدية . هذا يلقاه مرضا وضعفا ، وأولئك يلقونه ترديا وانتكاسا ، وغصصا بلا لذائذ - فى مقابل اللذائذ بلا غصص(١) .

« والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون » ..

وبعد هذه اللفتة من آيات الله فى خلق السماوات والأرض إلى عبادة الله وحده ، الذى إليه المرجع وعنده الجزاء .. يعود السياق إلى الآيات الكونية التالية فى وجودها وضخامتها للسماوات والأرض :

« الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا ، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ماخلق الله ذلك إلا بالحق . يفصل الآيات لقوم يعلمون » ..

فهذان مشهدان بارزان من مشاهـد الكون ، ننساهما لطول الألفـة ، وتفقد وقعهما فى القلب بطول التكرار . وإلا فـكيف وهلة الإنسان وهو يشاهد أول مرة أول شروق شمس وأول غروب ، وأول مطلع قمر وأول مغيب ؟

(١) هذه اللفتة فى تفسير المنار للسيد رشيد رضا رحمه الله ..

Marfat.com

هذان مشهدان مألوفان مكروران يردنا القرآن إليهما ، ليثير فى مشاعرنا وهلة الجدة ، وليحي فى قلوبنا إحساس التطلع الحى ، والتأمل الذى لم يبلده التكرار ، والتيقظ لما فى خلقهما وطبيعة تكوينهما من التدبير المحكم :

« الذى جعل الشمس ضياء » ..

فيها اشتعال .

« والقمر نورا » ..

فيه إنارة .

« وقدره منازل » ...

ينزل فى كل ليلة منزلا يكون فيه على هيئة خاصة ، كما هو مشهود فى القمر ، بدون حاجة إلى علوم فلكية لا يدركها إلا المتخصصون .

« لتعلموا عدد السنين والحساب » ..

وما تزال المواقيت والمواعيد تضبط بالشمس والقمر لكافة الناس .

هل هذا كله عبث ؟ هل هذا كله باطل ؟ هل هذا كله مصادفة ؟

كلا ما يكون كل هذا النظام ، وكل هذا التناسق ، وكل هذه الدقة التى لا تتخلف معها حركة . ما يكون هذا كله عبثا ولا باطلا ولا مصادفة عابرة :

« ما خلق الله ذلك إلا بالحق » ..

الحق قوامه . والحق أداته . والحق غايته . والحق ثابت راجح راسخ . وهذه الدلائل التى تشهد به واضحة قائمة دائمة :

« يفصل الآيات لقوم يعلمون » ..

فالمشاهد التى تعرض هنا فى حاجة إلى العلم لإدراك التدبير الكامن وراء المشاهد والمناظر .

ومن خلق السماوات والأرض ، ومن جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل تنشأ ظاهرة الليل والنهار ، وهى ظاهرة موحية لمن يفتح قلبه لإيحاء المشاهد والظواهر فى هذا الكون العجيب :

Marfat.com

« إن فى اختلاف الليل والنهار ، وما خلق الله فى السماوات والأرض . . لآيات لقوم يتقون » . .

واختلاف الليل والنهار تعاقبهما . ويشمل كذلك اختلافهما طولا وقصرا . وكلتاهما ظاهرتان مشهودتان تذهب ألفة المشاهدة بجدة وقعهما فى الحس . إلا فى اللحظات التى تستيقظ فيها النفس ، وينتفض فيها الوجدان للمطالع والمغارب ، فيقف فى الشروق وفى الغروب وقفة الإنسان الجديد فى هذا الكون ، يتطلع إلى كل ظاهرة جديدة فيه بعين مفتوحة وحس مستجيب . وهى هى اللحظات التى يحياها الإنسان حياة كاملة حقيقية ، وينفض فيها التبيس الذى خلفته الألفة فى أجهزة الاستقبال والاستجابة . .

« وما خلق الله فى السماوات والأرض » . .

ولو وقف الإنسان لحظة واحدة يرقب « ما خلق الله فى السماوات والأرض » ويستعرض هذا الحشد الذى لا يحصى من الأنواع والأجناس ، والهيئات والأحوال ، والأوضاع والأشكال . لو وقف لحظة واحدة لامتلأ وطابه وفاض بما يغنيه حياته كلها ، ويشغله بالتدبر والتفكر والتأثر ماعاش . . ودع خلق السماوات والأرض وإنشاءهما وتكوينهما على هذا النحو العجيب ، فذلك ما يوجه إليه القلب بالإشارة السريعة ، ثم يتركه ليتملاه . . إن فى ذلك كله :

« لآيات لقوم يتقون » . .

تستشعر قلوبهم هذا الوجدان الخاص . وجدان التقوى . الذى يدع هذه القلوب مستجاشة حساسة ، سريعة التأثر والاستجابة لمجالى القدرة ومظاهر الإبداع ومعجزات الخلق المعروضة للأنظار والأسماع .

* * *

هذا هو منهج القرآن فى مخاطبة الفطرة البشرية بآيات الله الكونية ، المبثوثة حول الإنسان فى هذا الكون ؛ والتى يعلم الله سبحانه أن بينها وبين فطرة الكائن البشرى لغة مفهومة ، وإيحاءات مسموعة !

Marfat.com

ولم يلجأ المنهج القرآنى إلى الأسلوب الجدلى الذى جد فيما بعد عند المتكلمين والفلاسفة ؛ لأن الله يعلم أن هذا الأسلوب لايصل إلى القلوب ولا يتجاوز منطقة الذهن الباردةالتى لاتدفع إلى حركة ؛ ولا تؤدى إلى بناء حياة ؛ وقصارى ماتنتهى إليه حركة فى الذهن البارد تتلاشى فى الهواء !

ولكن الأدلة التى يقدمها المنهج القرآنى - بأسلوبه هذا - هى أقوى الأدلة المقنعة للقلب والعقل جميعا - وهذه ميزتها - فإن وجود هذا الكون ذاته أولا . ثم حركته المنتظمةالمتسقة المضبوطة ؛ وما يقع فيه من تحولات وتغيرات تضبطها قوانين واضحة الأثر - حتى قبل أن يعرفها البشر - ثانيا . . إن هذا كله لايمكن تفسيره بغير تصور قوة مدبرة . .

والذين يمارون فى هذه الحقيقة لايقدمون فى مكانها دليلا معقولا . ولا يزيدون على أن يقولوا : إن الكون وجد هكذا بقوانينه ؛ وأن وجوده لايحتاج إلى تعليل ؛ ووجوده يتضمن قوانينه ! فإن كان هذا كلاما مفهوما - أو معقولا - فذاك !

ولقد كان هذا الكلام يقال للهروب من الله فى أوربا ؛ لأن الهروب من الكنيسةاقتضام هنالك الهروب من الله ! ثم أصبح يقال هنا وهناك ، لأنه الوسيلة إلى التخلص من مقتضى الاعتراف بألوهية الله . ذلك أن مشركى الجاهليات القديمة كان معظمهم يعترف بوجود الله . ثم يمارى فى ربوبيته ، على نحو ما رأينا فى الجاهلية العربية التى واجهها هذا القرآن أول مرة . فلقد كان البرهان القرآنى يحاصرهم بمنطقهم هم وعقيدتهم فى وجود الله سبحانه وصفاته . ويطالبهم بمقتضى هذا المنطق ذاته أن يجعلوا الله وحده ربهم ؛ فيدينوا له وحده بالاتباع والطاعة فى الشعائر والشرائع . . فأما جاهلية القرن العشرين فتريد أن تخلص من ثقل هذا المنطق بالهروب من الألوهية ذاتها ابتداء !

ومن العجيب أنه فى البلاد التى تسمى « إسلامية » يروج بكل وسيلة ظاهرة أو خفية لهذا الهروب الفاضح باسم « العلم » و « العلمية » ! فيقال : إن « الغيبية » لامكان لها فى الأنظمة « العلمية » . . ومن الغيب كل مايتعلق بالألوهية . . ! ومن هذا المنفذ الخلفى يحاول الآبقون من الله الهروب . لايخشون الله إنما يخشون الناس ، فيحتالون عليهم هذا الاحتيال !

Marfat.com

وما تزال دلالة وجود الكون ذاته ، ثم حركته المنتظمة المتسقة المضبوطة . تحاصر الهاربين من الله هنا وهناك . والفطرة البشرية بجملتها ـ قلبا وعقلا وحسا ووجدانا ـ تواجه هذه الدلالة ، وتستجيب لها . وما يزال المنهج القرآنى هذا يخاطب الفطرة بجملتها . يخاطبها من أقصر طريق ، ومن أوسع طريق وأعمق طريق ! ! !

* * *

والذين يرون كل هذا ، ثم لايتوقعون لقاء الله ؛ ولا يدركون أن من مقتضيات هذا النظام المحكم أن تكون هناك آخرة ، وأن الدنيا ليست النهاية ، لأن البشرية لم تبلغ فيها كمالها المنشود ؛ والذين يمرون بهذه الآيات كلها غافلين ، لاتحرك فيهم قلبا يتدبر ، ولا عقلا يتفكر .. هؤلاء لن يسلكوا طريق الكمال البشرى ، ولن يصلوا إلى الجنة التى وعد المتقون . إنما الجنة للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، حيث يفرغون من نصب الدنيا وصغارها إلى تسبيح الله وحمده فى رضاء مقيم :

« إن الذين لايرجون لقاءنا ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ، والذين هم عن آياتنا غافلون ، أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون . الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ، تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم . وتحيتهم فيها سلام . وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » . .

إن الذين لايتدبرون النظام الكونى الموحى بأن لهذا الكون خالقا مدبرا ، لايدركون أن الآخرة ضرورة من ضرورات هذا النظام ، يتم فيها تحقيق القسط والعدل ، كما يتم فيها إبلاغ البشرية إلى آفاقها العليا . ومن ثم فهم لا يتوقعون لقاء الله ، ونتيجة لهذا القصور يقفون عند الحياة الدنيا ، بما فيها من نقص وهبوط ، ويرضونها ويستغرقون فيها، فلا ينكرون فيها نقصا ، ولايدركون أنها لاتصلح أن تكون نهاية للبشر ؛ وهم يغادرونها لم يستوفوا كل جزائهم على ماعملوا من خير أو اجترحوا من شر ، ولم يبلغوا الكمال الذى تهيئهم له بشريتهم . والوقوف عند حدود الدنيا وارتضاؤها يظل يهبط بأصحابه ثم يهبط ، لأنهم لايرفعون رؤوسهم إلى قمة ، ولا يتطلعون بأبصارهم إلى أفق . إنما يخفضون رؤوسهم وأبصارهم دائما

Marfat.com

إلى هذه الأرض وما عليها ! غافلين عن آيات الله الكونية التي توقظ القلب ، وترفع الحس ، وتحفز إلى التطلع والكمال ..

« أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون » ..

وبئس المأوى وبئس المصير !

وفي الصفة الأخرى الذين آمنوا وعملوا الصالحات .الذين آمنوا فأدركوا أن هناك ماهو أعلى من هذه الحياة الدنيا ،وعملوا الصالحات بمقتضى هذا الإيمان ، تحقيقا لأمر الله بعمل الصالحات، وانتظارا للآخرة الطيبة.. وطريقها هو الصالحات .. هؤلاء .

« يهديهم ربهم بإيمانهم » ..

يهديهم إلى الصالحات بسبب هذا الإيمان الذي يصل مابينهم وبين الله ، ويفتح بصائرهم على استقامة الطريق ، ويهديهم إلى الخير بوحي من حساسية الضمير وتقواه . . هؤلاء يدخلون الجنة .

« تجري من تحتهم الأنهار » ..

وما يزال الماء ولن يزال يوحي بالخصب والري والنماء والحياة . .

فما همومهم في هذه الجنة وماهي شواغلهم ، وماهي دعواهم التي يحبون تحقيقها ؟ إن همومهم ليست مالا ولا جاها ، وإن شواغلهم ليست دفع أذى ولا تحصيل مصلحة . لقد كفوا شر ذلك كله . ولقد اكتفوا فما لهم من حاجة من تلك الحاجات ، ولقد استغنوا بما وهبهم الله ، ولقد ارتفعوا عن مثل هذه الشواغل والهموم . إن أقصى مايشغلهم حتى ليوصف بأنه « دعواهم » هو تسبيح الله أولا وحمده أخيرا ، يتخلل هذا وذاك تحيات بينهم وبين أنفسهم وبينهم وبين ملائكة الرحمن :

« دعواهم فيها : سبحانك اللهم . وتحيتهم فيها سلام . وآخر دعواهم : أن الحمد لله رب العالمين » . . .

إنه الانطلاق من هموم الحياة الدنيا وشواغلها ؛ والارتفاع عن ضروراتها وحاجاتها ، والرفرفة في آفاق الرضى والتسبيح والحمد والسلام . تلك الآفاق اللائقة بكمال الإنسان .

* * *

بعد ذلك يواجه السياق القرآني تحديهم لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – وطلبهم تعجيل

Marfat.com

العذاب الذى يتوعدهم به ؛ ببيان أن تأجيله إلى أجل مسمى هو حكمة من الله ورحمة ويرسم لهم مشهدهم - حين يصيبهم الضر فعلا ، فتتعرى فطرتهم من الركام وتتجه إلى خالقها . فإذا ارتفع الضر عاد المسرفون إلى ما كانوا فيه من غفلة . ويذكرهم مصارع الغابرين الذين استخلفوا هم من بعدهم ؛ ويلوح لهم بمثل هذا المصير ؛ ويبين لهم أن الحياة الدنيا إنما هى الابتلاء وبعدها الجزاء . .

« ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى إليهم أجلهم ، فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون . وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون . ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزى القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم ، لننظر كيف تعملون » .

ولقد كان المشركون العرب يتحدون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعجل لهم العذاب . ومما حكاه الله تعالى عنهم فى هذه السورة : « ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » . وورد فى غيرها : « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات » كما حكى القرآن الكريم قولهم : « وإذ قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » . .

وكل هذا يصور حالة العناد التى كانو يواجهون بها هدى الله . . وقد شاءت حكمته أن يؤجلهم ، فلا يوقع بهم عذاب الاستئصال والهلاك كما أوقعه بالمكذبين قبلهم . لقد علم الله أن كثرتهم ستدخل فى هذا الدين ، فيقوم عليها ، وينطلق فى الأرض بها . وكان ذلك بعد فتح مكة ، مما كانوا يجهلونه وهم يتحدون فى جهالة ! غير عالمين بما يريده الله بهم من الخير الحقيقى . لا الخير الذى يستعجلونه استعجالهم بالشر !

والله سبحانه يقول لهم فى الآية الأولى : إنه لو عجل لهم بالشر الذى يتحدون باستعجاله ، استعجالهم بالخير الذى يطلبونه . . لو استجاب الله لهم فى استعجالهم كله لقضى عليهم ، وعجل بأجلهم ! ولكنه يستبقيهم لما أجلهم له . . ثم يحذرهم من هذا الإمهال أن يغفلوا عما وراءه . فالذين لا يرجون لقاءه سيظلون فى عمايتهم يتخبطون ، حتى يأتيهم الأجل المرسوم .

وبمناسبة الحديث عن استعجال الشر يعرض صورة بشرية للإنسان عندما يمسه الضر ،

Marfat.com

تكشف عن التناقض فى طبيعة هذا الإنسان الذى يستعجل الشر وهو يشفق من مس الضر . فإذا كشف عنه عاد إلى ما كان فيه :

« وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما ؛ فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » . .

إنها صورة مبدعة لنموذج بشرى مكرور . . وإن الإنسان ليظل مدفوعا مع تيار الحياة ، يخطىء ويذنب ويطغى ويسرف ، والصحة موفورة ، والظروف مواتية . وليس – إلا من عصم الله ورحم – من يتذكر فى إبان قوته وقدرته أن هناك ضعفا وأن هناك عجزا . وساعات الرخاء تنسى ، والإحساس بالغنى يُطغى . . ثم يمسه الضر فإذا هو جزوع هلوع ، وإذا هو كثير الدعاء، عريض الرجاء ، ضيق بالشدة مستعجل للرخاء . فإذا استجيب الدعاء وكشف الضر انطلق لا يعقب ولا يفكر ولا يتدبر . انطلق إلى ما كان فيه من قبل من اندفاع واستهتار .

والسياق ينسق خطوات التعبير وإيقاعه مع الحالة النفسية التى يصورها ، والنموذج البشرى الذى يعرضه . فيصور منظر الضر فى بطء وتلبث وتطويل :

« دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما » . .

يعرض كل حالة وكل وضع وكل منظر ، ليصور وقفة هذا الإنسان وقد توقف التيار الدافع فى جسمه أو فى ماله أو فى قوته كما يتوقف التيار أمام السد ، فيقف أو يرتد . حتى إذا رفع الحاجز « مر » كلمة واحدة تصور الاندفاع والمروق والانطلاق . « مر » لا يتوقف ليشكر ، ولا يلتفت ليتدبر ، ولا يتأمل ليعتبر :

« مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه » . .

واندفع مع تيار الحياة دون كابح ولا زاجر ولا مبالاة !

وبمثل هذه الطبيعة . طبيعة التذكر فقط عند الضر ، حتى إذا ارتفع انطلق ومر . بمثل هذه الطبيعة استمر المسرفون فى إسرافهم ، لا يحسون ما فيه من تجاوز للحدود :

« كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » . .

فماذا كانت نهاية الإسراف فى القرون الأولى ؟

Marfat.com

« ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم رسلهم بالبينات . وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزى القوم المجرمين » ..

لقد انتهى بهم الإسراف وتجاوز الحد والظلم ـ وهو الشرك ـ إلى الهلاك . وهذه مصارعهم كانوا يرون بقيتها فى الجزيرة العربية فى مساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط ..

وتلك القرون . جاءتهم رسلهم بالبينات كما جاءكم رسولكم :

« وما كانوا ليؤمنوا » ..

لأنهم لم يسلكوا طريق الإيمان ، وسلكوا طريق الطغيان فأبعدوا فيها ، فلم يعودوا مهيئين للإيمان . فلقوا جزاء المجرمين ..

« كذلك نجزى القوم المجرمين » .

وإذ يعرض عليهم نهاية المجرمين ، الذين جاءتهم رسلهم بالبينات فلم يؤمنوا ، فحق عليهم العذاب ، يذكرهم أنهم مستخلفون فى مكان هؤلاء الغابرين ، وأنهم مبتلون بهذا الاستخلاف ممتحنون فيما استخلفوا فيه :

« ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » ..

وهى لمسة قوية للقلب البشرى ؛ إذ يدرك أنه مستخلف فى ملك أديل من مالكيه الأوائل ، وأجلى عنه أهله الذين سبق لهم أن مكنوا فيه ، وأنه هو بدوره زائل عن هذا الملك ، وإنما هى أيام يقضيها فيه ، ممتحنا بما يكون منه ، مبتلى بهذا الملك ، محاسبا على ما يكسب ، بعد بقاء فيه قليل !

إن هذا التصور الذى ينشئه الإسلام فى القلب البشرى .. فوق أنه يريه الحقيقة فلا تخدعه عنها الخدع .. يظل يثير فيه يقظة وحساسية وتقوى ، هى صمام الأمن له ، وصمام الأمن للمجتمع الذى يعيش فيه .

إن شعور الإنسان بأنه مبتلى وممتحن بأيامه التى يقضيها على الأرض ، وبكل شىء يملكه ، وبكل متاع يتاح له ، يمنحه مناعة ضد الاغترار والانخداع والغفلة ؛ ويعطيه وقاية من الاستغراق فى متاع الحياة الدنيا ، ومن التكالب على هذا المتاع الذى هو مسؤول عنه وممتحن فيه .

Marfat.com

وإن شعوره بالرقابة التى تحيط به ، والتى يصورها قول الله سبحانه :

« ... كيف تعملون » ..

ليجعله شديد التوقى ، شديد الحذر ، شديد الرغبة فى الإحسان ، وفى النجاة أيضا من هذا الامتحان !

وهـذا مفرق الطريق بين التصور الذى ينشئه الإسـلام فى القلب البشرى بمثل هـذه السمات القوية ؛ والتصورات التى تخرج الرقابة الإلهية والحساب الأخروى من حسابها ! . . فإنه لايمكن أن يلتقيا اثنان أحـدهما يعيش بالتصور الإسلامى والآخر يعيش بتلك التصورات القـاصرة . . لايمكن أن يلتقى فى تصور للحياة ، ولا فى خلق ، ولا فى حركة ؛ كما لايمكن أن يلتقى نظـامان إنسانيان يقوم كل منهما على قاعـدة من هـاتين القاعـدتين اللتين لاتلتقيان !

والحياة فى الإسلام حياة متـكاملة القواعد والأركان . ويكفى أن نذكر فقط مثل هـذه الحقيقة الأساسية فى التصور الإسلامى ؛ وما ينشأ عنها من آثار فى حركة الفرد والجماعة . وهى من ثم لايمـكن خلطها بحياة تقوم على غـير هـذه الحقيقة ، ولا بمنتجات هـذه الحياة أيضا !

والذين يتصورون أنه من الممكن تطعيم الحيـاة الإسلاميـة ، والنظام الإسـلامى ، بمنتجات حياة أخرى ونظام آخر ، لايدركون طبيعة الفوارق الجذرية العميقة بين الأسس التى تقوم عليهـا الحياة فى الإسـلام والتى تقوم عليها الحيـاة فى كل نظـام بشرى من صنع الإنسان !

* * *

وهنـا يتحول السياق من خطابهم إلى عرض نماذج من أعمالهم بعد استخلافهم .

لقد استخلفوا بعد القوم المجرمين . فماذا فعلوا ؟

« وإذا تتلى عليهم آياتنا قال الذين لايرجون لقاءنا : ائت بقرآن غير هذا أو بدله . قل :

Marfat.com

مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ، إن أتبع إلا مايوحى إلى ، إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم . قل : لوشاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمرا من قبله . أفلا تعقلون ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؟ إنه لايفلح المجرمون ..

« ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولاينفعهم ؛ ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل : أتنبئون الله بما لايعلم فى السماوات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون . وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون . ويقولون : لولا أنزل عليه آية من ربه ، فقل : إنما الغيب لله ، فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » .

هكذا كان عملهم بعد الاستخلاف ، وهكذا كان سلوكهم مع الرسول !!!

« وإذا تتلى عليهم آياتنا قال الذين لايرجون لقاءنا : ائت بقرآن غير هذا أو بدله » ..

وهو طلب عجيب لايصدر عن جد ، إنما يصدر عن عبث وهزل ؛ وعن جهل كذلك بوظيفة هذا القرآن وجدية تنزيله . وهو طلب لايطلبه إلا الذين لايظنون أنهم سيلقون الله!

إن هذا القرآن دستور حياة شامل ، منسق بحيث يفى بمطالب هذه البشرية فى حياتها الفردية والجماعية ، ويهديها إلى طريق الكمال فى حياة الأرض بقدر ماتطيق ، ثم إلى الحياة الأخرى فى نهاية المطاف . ومن يدرك القرآن على حقيقته لايخطر له أن يطلب سواه ، أو يطلب تبديل بعض أجزائه .

وأغلب الظن أن أولئك الذين لايتوقعون لقاء الله ، كانوا يحسبون المسألة مسألة مهارة ، ويأخذونها مأخذ المباريات فى أسواق العرب فى الجاهلية . فما على محمد أن يقبل التحدى ويؤلف قرآنا آخر ، أو يؤلف جزءا مكان جزء !؟

« قل : مايكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى . إن أتبع إلا مايوحى إلى . إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم » ..

إنها ليست لعبة لاعب ولا مهارة شاعر . إنما هو الدستور الشامل الصادر من مدبر الكون كله ، وخالق الإنسان وهو أعلم بما يصلحه . فما يكون للرسول أن يبدله من تلقاء

Marfat.com

نفسه . وإن هو إلا مبلغ متبع للوحى الذى يأتيه . وكل تبديل فيه معصية وراءها عذاب يوم عظيم .

« قل : لوشاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به . فقد لبثت فيكم عمرا من قبله . أفلا تعقلون ؟ » .

إنه وحى من الله ، وتبليغه لكم أمر من الله كذلك . ولو شاء الله ألا أتلوه عليكم ماتلوته، ولو شاء الله ألا يعلمكم به ماأعلمكم . فالأمر كله لله فى نزول هذا القرآن وفى تبليغه للناس . قل لهم هذا . وقل لهم : إنك لبثت فيهم عمرا كاملا من قبل الرسالة . أربعين سنة . فلم تحدثهم بشىء من هذا القرآن . لأنك لم تكن تملكه . لم يكن قد أوحى إليك . ولو كان فى استطاعتك عمل مثله أو أجزاء منه فما الذى أقعدك عمرا كاملا ؟

ألا إنه الوحى الذى لاتملك من أمره شيئا إلا البلاغ ..

وقل لهم: ما كان لى أن أفترى على الله الكذب، وأن أقول : إنه أوحى إلى إلا بالحق . فليس هنالك ماهو أشد ظلما ممن يفترى على الله أو من يكذب بآيات الله :

« فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؟ » ..

وأنا أنهاكم عن ثانية الجريمتين ، وهى التكذيب بآيات الله ، فلا أرتكب أولاهما ولا أكذب على الله :

« إنه لايفلح المجرمون » ..

ويستمر السياق يعرض مافعلوه وماقالوه بعد استخلافهم فى الأرض . غير هذا الهزل فى طلب قرآن جديد . .

« ويعبدون من دون الله مالايضرهم ولا ينفعهم ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، قل : أتنبئون الله بما لايعلم فى السماوات ولا فى الأرض ؟ سبحانه وتعالى عما يشركون » .

والنفس حين تنحرف لاتقف عند حد من السخف . وهذه الأرباب المتعددة التى يعبدونها لا تملك لهم ضررا ولا نفعا ، ولكنهم يظنونها تشفع لهم عند الله :

« ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله » ..

Marfat.com

« قل أتنبئون الله بما لايعلم فى السماوات ولا فى الأرض ؟ » ..

فالله سبحانه لايعلم أن هناك من يشفع عنده مما تزعمون ! فهل تعلمون أنتم مالا يعلمه الله وتنبئونه بما لا يعلم له وجودا فى السماوات ولا فى الأرض ؟!

إنه أسلوب ساخر يليق بهذا السخف الذى يلجون فيه . يعقبه التنزيه لله عما لا يليق بجلاله مما يدعون :

« سبحانه وتعالى عما يشركون » .

وقبل أن يمضى فى عرض ماقالوه وما فعلوه ، يعقب على هذا الشرك ، بأنه عارض . والفطرة فى أصلها كانت على التوحيد ، ثم جد الخلاف بعد حين :

« وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا » ..

وقد اقتضت مشيئة الله أن يمهلهم جميعا إلى أجل يستوفونه ، وسبقت كلمته بذلك فنفذت لحكمة يريدها :

« ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون » .

وبعد هذا التعقيب يمضى فى الاستعراض لما يقول المستخلفون :

« ويقولون : لولا أنزل عليه آية من ربه ! فقل : إنما الغيب لله ، فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » ..

فكل الآيات التى يحتويها هذا الكتاب العظيم المعجز لاتكفيهم . وكل آيات الله المبثوثة فى تضاعيف الكون لاتكفيهم . وهم يقترحون خارقة كخوارق الرسل فى الأمم قبلهم . غير مدركين طبيعة الرسالة المحمدية . وطبيعة معجزتها . فهى ليست معجزة وقتية تنتهى بمشاهدة جيل ، إنما هى المعجزة الدائمة التى تخاطب القلب والعقل فى جيل بعد جيل .

ويوجه الله رسوله أن يحيلهم على الله الذى يعلم مافى غيبه ، ويقدر إن كان سيبرز لهم خارقة أو لايبرز :

« فقل : إنما الغيب لله . فانتظروا إنى معكم من المنتظرين » ..

وهو جواب فى طيه الإمهال وفى طيه التهديد .. وفى طيه بعد ذلك بيان حدود العبودية فى جانب

Marfat.com

الألوهية . فإن محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو أعظم الأنبياء المرسلين ، لا يملك من أمر الغيب شيئا ، فالغيب كله لله . ولا يملك من أمر الناس شيئا ، فأمرهم موكول إلى الله .. وهكذا يتحدد مقام العبودية في جانب مقام الألوهيـة ، ويخط خط بارز فاصـل بين الحقيقتين لا شبهة بعده ولا ريبـة ..

* * *

وحين ينتهى السياق من عرض مايقول المستخلفون وما يفعلون ، يعود إلى الحديث عن بعض طبائع البشر ، حين يذوقون الرحمة بعد الضر . كما تحدث من قبل عنهم حين يصيبهم الضر ثم ينجون منه . ويضرب لهم مثلا مما يقع فى الحياة يصدق ذلك ، فيقدمه فى صورة مشهد قوى من مشاهد القرآن التصويرية :

« وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ، إذا لهم مكر فى آياتنا . قل : الله أسرع مكرا ، إن رسلنا يكتبون ماتمكرون . هو الذى يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك ، وجرين بهم بريح طيبـة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين : لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق . ياأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ، ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون » ..

عجيب هذا المخلوق الإنسانى لا يذكر الله إلا فى ساعة العسرة ، ولا يثوب إلى فطرته وينزع عنهـا ماغشاها من شوائب وانحرافات إلا فى ساعة الكربة . فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان . . ذلك إلا من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة فى كل آن ، مجلوة دائمـا بجلاء الإيمان . .

« وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ، إذا لهم مكر فى آياتنا » ..

كذلك صنع قوم فرعون مع موسى . فكلما أخذوا بعذاب استغاثوا به ووعدوا بالعدول عما هم فيه . فإذا ذاقوا الرحمة مكروا فى آيات الله وأولوها على غير وجهها ، وقالوا : إنما رفع عنا الرجز بسبب كذا وكذا .. وكذلك صنعت قريش وقد أجدبت وخافت الهلاك ، فجاءت محمدا

Marfat.com

تناشده الرحم أن يدعو الله فدعاه فاستجاب له بالسقيا . ثم مكرت قريش بآية الله وظلت فماهى فيه ! وهى ظاهرة مطردة فى الإنسان مالم يعصمه الإيمان .

« قل : الله أسرع مكرا . إن رسلنا يكتبون ماتمكرون » ..

فالله أقدر على التدبير وإبطال مايمكرون . ومكرهم مكشوف لديه ومعروف ، والمكر المكشوف إبطاله مضمون :

« إن رسلنا يكتبون ماتمكرون » ..

فلا شىء منه يخفى ، ولاشىء منه ينسى . أما من هم هؤلاء الرسل وكيف يكتبون ، فذلك غيب من الغيب الذى لانعرف عنه شيئا إلا من مثل هذا النص ، فعلينا أن ندركه دون ماتأويل ولا إضافة لدلالة اللفظ الصريح .

ثم ذلك المشهد الحى ، الذى يعرض كأنه يقع ، وتشهده العيون ، وتتابعه المشاعر ، وتخفق معه القلوب . يبدأ بتقرير القدرة المسيطرة المهيمنة على الحركة والسكون :

« هو الذى يسيركم فى البر والبحر » ..

ذلك أن السورة كلها معرض لتقرير هذه القدرة التى تسيطر على أقدار الكون كله بلا شريك .

ثم ها نحن أولاء أمام المشهد القريب :

« حتى إذا كنتم فى الفلك » ..

وها هى ذى الفلك تتحرك رخاء ..

« وجرين بهم بريح طيبة » ..

وهذه مشاعر أهل الفلك ندركها :

« وفرحوا بها » ..

وفى هذا الرخاء الآمن ، وفى هذا السرور الشامل ، تقع المفاجأة ، فتأخذ الغارين الآمنين الفرحين :

« جاءتها ريح عاصف » ..

Marfat.com

بالهول !

« وجاءهم الموج من كل مكان » ..

وتناوحت الفلك واضطربت بمن فيها ، ولاطمها الموج وشالها وحطها ، ودار بها كالريشة الضائعة فى الخضم .. وهؤلاء أهلها فى فزع يظنون أن لامناص :

« وظنوا أنهم أحيط بهم » ..

فلا مجال للنجاة ..

عندئذ فقط ، وفى وسط هـذا الهول المتلاطم ، تتعرى فطرتهم مما ألم بها من أوشاب ، وتنفض قلوبهم ماران عليها من تصورات ، وتنبض الفطرة الاصيلة السليمة بالتوحيد وإخلاص الدينونة لله دون سواه :

« دعوا الله مخلصين له الدين: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » !

وتهدأ العاصفة ويطمئن الموج ، وتهدأ الأنفاس اللاهثة ، وتسكن القلوب الطائرة ، وتصل الفلك آمنة إلى الشاطىء ، ويوقن الناس بالحياة ، وأرجلهم مستقرة على اليابسة . فماذا ؟

« فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق ! » ..

هكذا بغتة ومفاجأة !

إنه مشهد كامل ، لم تفتنا منه حركة ولا خالجة . . مشهد حادث . ولكنه مشهد نفس ، ومشهد طبيعة ومشهد نموذج بشرى لطائفة كبيرة من الناس فى كل جيل . ومن ثم يجىء التعقيب تحذيرا للناس أجمعين :

« ياأيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم » ..

سواء كان بغيا على النفس خاصة ، بإيرادها موارد التهلكة ، والزج بها فى ركب الندامة الخاسر بالمعصية ؛ أو كان بغيا على الناس فالناس نفس واحدة . على أن البغاة ومن يرضون منهم البغى يلقون فى أنفسهم العاقبة .

والبغى لايتمثل فى أبشع ولا أشنع من البغى على ألوهية الله سبحانه ، واغتصاب الربوبية والقوامة والحاكمية ومزاولتها فى عباده .

Marfat.com

والناس حين يبغون هذا البغي يذوقون عاقبته في حياتهم الدنيا ، قبل أن يذوقوا جزاءه في الدار الآخرة . يذوقون هذه العاقبة فسادا في الحياة كلها لا يبقى أحد لا يشقى به ، ولا تبقى إنسانية ولا كرامة ولا حرية ولا فضيلة لا تضارّ به .

إن الناس إما أن يخلصوا دينونتهم لله . وإما أن يتعبدهم الطغاة . والكفاح لتقرير ألوهية الله وحدها في الأرض ، وربوبية الله وحدها في حياة البشر ، هو كفاح للإنسانية وللحرية وللكرامة وللفضيلة ، ولكل معنى كريم يرتفع به الإنسان على ذل القيد ، ودنس المستنقع ، وامتهان الكرامة ، وفساد المجتمع ، ودناءة الحياة !

« يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم .. متاع الحياة الدنيا » ..

لا تزيدون عليه !

ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون » ..

فهو حساب الآخرة وجزاؤها كذلك ، بعد شقوة الدنيا وعذابها ابتداء ..

* * *

وما قيمة « متاع الحياة الدنيا » هذا وما حقيقته ؟ يصور السياق هذه الحقيقة في مشهد من مشاهد القرآن التصويرية الحافلة بالحركة والحياة ، وهى مع ذلك من المشاهدات التي تقع في كل يوم ، ويمر عليها الأحياء دون انتباه :

« إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام . حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت ، وظن أهلها أنهم قادرون عليها . . أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس . كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » . .

ذلك مثل الحياة الدنيا التي لا يملك الناس إلا متاعها ، حين يرضون بها ، ويقفون عندها ، ولا يتطلعون منها إلى ما هو أكرم وأبقى . .

هذا هو الماء ينزل من السماء ، وهذا هو النبات يمتصه ويختلط به فيمرع ويزدهر . وها هي ذى الأرض كأنها عروس مجلوة تتزين لعرس وتتبرج . وأهلها مزهوون بها ، يظنون أنها بجهدهم ازدهرت ، وبإرادتهم تزينت ، وأنهم أصحاب الأمر فيها ، لا يغيرها عليهم مغير ، ولا ينازعهم فيها منازع .

Marfat.com

وفى وسط هذا الخصب الممرع ، وفى نشوة هذا الفرح الملعلع ، وفى غمرة هذا الاطمئنان الواثق . .

« أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس » . .

فى ومضة ، وفى جملة ، وفى خطفة . . وذلك مقصود فى التعبير بعد الإطالة فى عرض مشهد الخصب والزينة والاطمئنان .

وهذه هى الدنيا التى يستغرق فيها بعض الناس ، ويضيعون الآخرة كلها لينالوا منها بعض المتاع .

هذه هى . لا أمن فيها ولا اطمئنان ، ولا ثبات فيها ولا استقرار ، ولا يملك الناس من أمرها شيئا إلا بمقدار .

هذه هى . .

« والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » . .

فيالبعد الشقة بين دار يمكن أن تطمس فى لحظة ، وقد أخذت زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها فإذا هى حصيد كأن لم تغن بالأمس . . ودار السلام التى يدعو إليها الله ، ويهدى من يشاء إلى الصراط المؤدى لها . حينما تنفتح بصيرته ، ويتطلع إلى دار السلام .

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ، وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ، وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ، كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ، أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ، ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا : مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ، فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ، وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم : مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ * هُنَالِكَ تَبْلُو

Marfat.com

كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ، وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَٰهُمُ ٱلْحَقِّ ، وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ .

« قُلْ : مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ؟ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ؟ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ؟ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ؟ فَسَيَقُولُونَ : ٱللَّهُ . فَقُلْ : أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ * فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ؟ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ؟ * كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * قُلْ : هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ؟ قُلِ : ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ، فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ؟ * قُلْ : هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ؟ قُلِ : ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ، أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ؟ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟ * وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ .

« وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ ، وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ ، لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ؟ قُلْ : فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ ، وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ، كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ ، وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ * وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل : لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ ، وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ * وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لَا يَعْقِلُونَ ؟ * وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ، أَفَأَنتَ

Marfat.com

تَهْدِي ٱلْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لَا يُبْصِرُونَ ؟ * إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

« وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ، قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ .

« وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ، ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ، فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * وَيَقُولُونَ : مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ؟ قُل : لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ـ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ـ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ * قُلْ : أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَـٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَـٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ؟ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ؟ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ؟ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ : ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ؟

« وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ : أَحَقٌّ هُوَ ؟ قُلْ : إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ، وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ، وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ ، وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ، وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ، وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .

« يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ، وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ * قُلْ : بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ .

Marfat.com

« قُلْ : أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا ، قُلْ : ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ * وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ؟ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ .

« وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ، وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ ، وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ، وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ * أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ * لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِ ، لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ * وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ، إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ، هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ، وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ، إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ * هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ .

« قَالُوا۟ : ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ، سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ، لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ، إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ ، أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ؟ * قُلْ : إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ، ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ » .

Marfat.com

هذا الدرس كله لمسات وجدانية متتابعة ، تنتهى كلها إلى هدف واحد : مواجهة الفطرة البشرية بدلائل توحيد الله وصدق الرسول ، واليقين باليوم الآخر . والعدل فيه .

لمسات وجدانية تأخذ النفس من أقطارها ، وتأخذ بها إلى أقطار الكون ، فى جولة واسعة شاملة . جولة من الأرض إلى السماء . ومن آفاق الكون إلى آفاق النفس . ومن ماضى القرون إلى الحاضر القريب . ومن الدنيا إلى الآخرة . . فى سياق . .

وفى الدرس الماضى لمسات من هذه ، وجولات من هذه . . ولكنها فى هذا الدرس أظهر .. فمن معرض الحشر ، إلى مشاهد الكون ، إلى ذات النفس ، إلى التحدى بالقرآن ، إلى التذكير بمصائر المكذبين من الماضين . ومن ثم لمحة عابرة من الحشر فى مشهد جديد ، إلى تخويف من المفاجأة بالعذاب فى صورة موحية للحس بالتوجس ، إلى تصوير علم الله الشامل الذى لا يند عنه شيء ، إلى بعض آيات الله فى الكون ، إلى الإنذار بما ينتظر المفترين على الله يوم الحساب . .

إنها حملة من اللمسات العميقة الصادقة ، لا تملك فطرة سليمة التلقى ، صحيحة الاستجابة ، ألا تستجيب لها ، وألا تتداوب الحواجز والموانع فيها دون هذا الفيض من المؤثرات المستمدة من الحقائق الواقعة ، ومن فطرة الكون وفطرة النفس وطبائع الوجود . .

لقد كان الكفار صادقين فى إحساسهم بخطر القرآن على صفوفهم وهم يتناهون عن الاستماع إليه خيفة أن يجرفهم تأثيره ويزلزل قلوبهم ! وهم يريدون أن يظلوا على الشرك صامدين !

* * *

« للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ، ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ، مالهم من الله من عاصم ، كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » . .

كانت آخر آية فى الدرس السابق : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى

Marfat.com

صراط مستقيم » . . فهنا يبين عن قواعد الجزاء للمهتدين ولغير المهتدين . ويكشف عن رحمة الله وفضله ، وعن قسطه وعدله فى جزاء هؤلاء وهؤلاء .

فأما الذين أحسنوا . أحسنوا الاعتقاد ، وأحسنوا العمل ، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم ، وإدراك القانون الكونى المؤدى إلى دار السلام . . فأما هؤلاء فلهم الحسنى جزاء ما أحسنوا ، وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة :

للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » . .

وهم ناجون من كربات يوم الحشر ، ومن أهوال الموقف قبل أن يفصل فى أمر الخلق :

ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ».

والقتر: الغبار والسواد وكدرة اللون من الحزن أو الضيق . والذلة الانكسار والمهانة أو الإهانة . فلا يغشى وجوههم قتر ولا تكسو ملامحهم الذلة .. والتعبير يوحى بأن فى الموقف من الزحام والهول والكرب والخوف والمهانة ما يخلع آثاره على الوجوه ، فالنجاة من هذا كله غنيمة ، وفضل من الله يضاف إلى الجزاء المزيد فيه . .

« أولئك » . . أصحاب هذه المنزلة العالية البعيدة الآفاق « أصحاب الجنة » وملاكها ورفاقها « هم فيها خالدون » .

« والذين كسبوا السيئات » . .

فكانت هى الربح الذى خرجوا به من صفقة الحياة ! هؤلاء ينالهم عدل الله ،فلا يضاعف لهم الجزاء ، ولا يزاد عليهم السوء . ولكن :

« جزاء سيئة بمثلها » . . « وترهقهم ذلة » ..

تغشاهم وتركبهم وتكربهم .

« مالهم من الله من عاصم » . .

يعصمهم ويمنعهم من المصير المحتوم ، نفاذا لسنة الله الكونية فيمن يحيد عن الطريق ، ويخالف الناموس . .

ثم يرسم السياق صورة حسية للظلام النفسى والكدرة التى تغشى وجه المكروب المأخوذ المرعوب :

Marfat.com

« كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما » ..

كأنما أخذ من الليل المظلم فقطع رقعا غشيت بها هذه الوجوه ! وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل المظلم ورهبة من رهبته ، تبدو فيه هذه الوجوه ملفعة بأغشية من هذا الليل البهيم ..

« أولئك » .. المبعدون في هذا الظلام والقتام « أصحاب النار ».. ملاكها ورفاقها « هم فيها خالدون » .

ولكن أين الشركاء والشفعاء ؟ وكيف لم يعصموهم من دون الله ؟ هذه هي قصتهم في يوم الحشر العصيب :

« ويوم نحشرهم جميعا ، ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم أنتم وشركاؤكم . فزيلنا بينهم . وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين . . هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت، وردوا إلى الله مولاهم الحق . وضل عنهم ما كانوا يفترون » ..

هذه هي قصة الشفعاء والشركاء في مشهد من مشاهد القيامه ، مشهد حي أبلغ من الإخبار المجرد بأن الشركاء والشفعاء لن يعصموا عبادهم من الله ، ولن يملكوا لهم خلاصا ولا نجاة .

هؤلاء هم محشورون جميعا . الكفار والشركاء .. وهم كانوا يزعمونهم شركاء لله ، ولكن القرآن يسميهم « شركاءهم » تهكما من جهة ، وإشارة إلى أنهم من صنعهم هم ولم يكونوا يوما شركاء لله .

هؤلاء هم جميعا كفارا وشركاء . يصدر إليهم الأمر :

« مكانكم أنتم وشركاؤكم » . .

قفوا حيث أنتم . ولابد أن يكونوا قد تسمروا في أماكنهم! فالأمر يومئذ للنفاذ . ثم فرق بينهم وبين شركائهم وحجز بينهما في الموقف :

« فزيلنا بينهم » ..

وعندئذ لايتكلم الذين كفروا ولكن يتكلم الشركاء يتكلمون ليبرئوا أنفسهم من الجريمة . جريمة أن عبدهم هؤلاء الكفار مع الله ، أو من دون الله ، وإعلان أنهم لم يعلموا بعبادتهم إياهم

Marfat.com

ولم يشعروا ، فهم إذن لم يشتركوا فى الجناية ، ويشهدون الله وحده على مايقولون :

« وقال شركاؤهم : ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين » ..

هؤلاء هم الشركاء الذين كانوا يعبدون . هؤلاء هم ضعاف يطلبون البراءة من إثم أتباعهم . ويجعلون الله وحده شهيدا ، ويطلبون النجاة من إثم لم يشاركوا فيه !

عندئذ ، وفى هـذا الموقف المكشوف ، تختبر كل نفس ماأسلفت من عمـل ، وتدرك عاقبته إدراك الخبرة والتجربة :

« هنالك تبلو كل نفس ماأسلفت » ..

وهنالك يتكشف الموقف عن رب واحد حق يرجع إليه الجميع ، وماعداه باطل .

« وردوا إلى الله مولاهم الحق » ..

وهنالك لايجد المشركون شيئا من دعاويهم ومزاعمهم وآلهتهم ، فكله شرد عنهم ولم يعد له وجود :

« وضل عنهم ما كانوا يفترون » ..

وهكذا يتجلى المشهد الحى ، فى ساحة الحشر، بكل حقائقه ، وبكل وقائعه ، وبكل مؤثراته واستجاباته . تعرضه تلك الكلمات القلائل ، فتبلغ من النفس مالا يبلغه الإخبـار المجرد ، ولا براهين الجدل الطويل !

* * *

ومن جولة الحشر الذى تسقط فيه الدعاوى والأباطيـل ، ويتجلى فيـه أن المولى هو الله المهيمن على الموقف ومافيه . إلى جولة فى واقعهم الذى يعيشون فيه ، وإلى أنفسهم التى يعلمونها ، وإلى المشاهـد التى يرونها فى الحيـاة . بل إلى اعترافهم هم أنفسهم بأنهـا من أمر الله ومن خلق الله :

« قـل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصـار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون : الله . فقـل :

Marfat.com

أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق ، فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فأنى تصرفون ؟ » . .

ولقد مر أن مشركي العرب لم يكونوا ينكرون وجود الله ، ولا أنه الخالق ، والرازق ، والمدبر . إنما كانوا يتخذون الشركاء للزلفى ، أو يعتقدون أن لهم قدرة إلى جانب قدرة الله . فهو هنا يأخذهم بما يعتقدونه هم أنفسهم ، ليصحح لهم - عن طريق إيقاظ وعيهم وتدبرهم ومنطقهم الفطرى ـ ذلك الخلط والضلال .

« قل : من يرزقكم من السماء والأرض ؟ » . .

من المطر الذى يحيي الأرض وينبت الزرع ، ومن طعام الأرض نباتها وطيرها وأسما كها وحيوانها ، ثم سائر ما كانوا يحصلون عليه من الأرض لهم ولأنعامهم . وذلك بطبيعة الحال ما كانوا يدركونه حينذاك من رزق السماء والأرض . وهو أوسع من ذلك بكثير . وما يزال بشر يكشفون كلما اهتدوا إلى نواميس الكون عن رزق بعد رزق فى السماء والأرض ، يستخدمونه أحيانا فى الخير ويستخدمونه أحيانا فى الشر حسبما تسلم عقائدهم أو تعتل . وكله من رزق الله المسخر للإنسان . فمن سطح الأرض أرزاق ومن جوفها أرزاق . ومن سطح الماء أرزاق ومن أعماقه أرزاق . ومن أشعة الشمس أرزاق ومن ضوء القمر أرزاق . حتى عفن الأرض كشف فيه عن دواء وترياق !

« أم من يملك السمع والأبصار ؟ » . .

يهبها القدرة على أداء وظائفها أو يحرمها ، ويصححها أو يمرضها ، ويصرفها إلى العمل أو يلهيها ، ويسمعها ويريها ماتحب أو ماتكره . . ذلك ما كانوا يدركونه يومئذ من ملك السمع والأبصار . وهو حسبهم لإدراك مدلول هذا السؤال وتوجيهه . وما يزال البشر يكشفون من طبيعة السمع والبصر ، ومن دقائق صنع الله فى هذين الجهازين مايزيد السؤال شمولا وسعة . وإن تركيب العين وأعصابها وكيفية إدراكها للمرئيات ، أو تركيب الأذن وأجزائها وطريقة إدراكها للذبذبات ، لعالم وحده يدير الرؤوس ، عندما يقاس هذا الجهاز أو ذاك إلى أدق الأجهزة التى يعدها الناس من معجزات العلم فى العصر الحديث ! وإن كان الناس يهولهم ويروعهم ويبهرهم جهاز يصنعه الإنسان ، لايقاس فى شىء إلى صنع الله . بينما هم يمرون غافلين بالبدائع الإلهية فى الكون وفى أنفسهم كأنهم لايبصرون ولا يدركون !

Marfat.com

« ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ؟ » . .

وكانوا يعدون الساكن هو الميت والنامى أو المتحرك هو الحى . فكان مدلول السؤال عندهم مشهودا فى خروج النبتة من الحبة ، والحبة من النبتة ، وخروج الفرخ من البيضة ، والبيضة من الفرخ . . إلى آخر هذه المشاهدات . وهو عندهم عجيب . وهو فى ذاته عجيب حتى بعد أن عرف أن الحبة والبيضة وأمثالها ليست فى الموتى بل فى الأحياء ، بما فيها من حياة كامنة واستعداد . فإن كمون الحياة بكل استعداداتها ووراثاتها وسماتها وشياتها لأعجب العجب الذى تصنعه قدرة الله . .

وإن وقفة أمام الحبة والنواة ، تخرج منهما النبتة والنخلة ، أو أمام البيضة والبويضة يخرج منها الفرخ والإنسان ، لكافية لاستغراق حياة فى التأمل والارتعاش !

وإلا فأين كانت تكمن السنبلة فى الحبة ؟ وأين كان يكمن العود ؟ وأين كانت تلك الجذور والساق والأوراق . . . ؟

وأين فى النواة كان يكمن اللب واللحاء ، والساق السامقة والعراجين والألياف ؟ وأين يكمن كان الطعم والنكهة واللون والرائحة ، والبلح والتمر ، والرطب والبسر . . . ؟

وأين فى البيضة كان الفرخ ؟ وأين يكمن كان العظم واللحم ، والزغب والريش ، واللون والشيات ، والرفرفة والصوات . . . ؟

وأين فى البويضة كان الكائن البشرى العجيب ؟ أين كانت تكمن ملامحه وسماته المنقولة عن وراثات موغلة فى الماضى متشعبة المنابع والنواحى ؟ أين كانت نبرات الصوت ، ونظرات العين ، ولفتات الجيد ، واستعدادات الأعصاب ، ووراثات الجنس والعائلة والوالدين ؟ وأين أين كانت تكمن الصفات والسمات والشيات ؟

وهل يكفى أن نقول : إن هذا العالم المترامى الأطراف كان كامنا فى النبتة والنواة وفى البيضة والبويضة ، لينقضى العجب العاجب الذى لا تفسير له ولا تأويل إلا قدرة الله وتدبير الله ؟

وما يزال البشر يكشفون من أسرار الموت وأسرار الحياة ، وإخراج الحى من الميت وإخراج الميت من الحى ، وتحول العناصر فى مراحل إلى موت أو حياة ، ما يزيد مساحة السؤال

Marfat.com

وعمقه وشموله كل يوم وكل لحظة . وإن تحول الطعام الذى يموت بالطهى والنار إلى دم حى فى الجسم الحى ، وتحول هـذا الدم إلى فضلات ميتة بالاحتراق ، لأعجوبة يتسع العجب منها كلما زاد العلم بها . وهى بعـد كائنة فى كل لحظة آناء الليل وأطراف النهار . وإن الحياة لأعجوبة غامضة مثيرة تواجه الكينونة البشرية كلها بعلامات استفهام لا جواب عليها كلها إلا أن يكون هناك إله ، يهب الحياة !

« ومن يدبر الأمر ؟ » . .

فى هذا الذى ذكر كله وفى سواه من شؤون الكون وشؤون البشر ؟ من يدبر الناموس الكونى الذى ينظم حركة هذه الأفلاك على هـذا النحو الدقيق ؟ ومن يدبر حركة هـذه الحيـاة فتمضى فى طريقها المرسوم بهـذا النظام اللطيف العميق ؟ ومن يدبر السنن الاجتماعية التى تصرف حياة البشر ، والتى لا تخطىء مرة ولا تحيد ؟ ومن ومن ؟ . .

« فسيقولون الله » . .

فهم لم يكونوا ينكرون وجود الله ، أو ينكرون يده فى هذه الشؤون الكبار . ولكن انحراف الفطرة كان يقودهم مع هذا الاعتراف إلى الشرك بالله ، فيتوجهون بالشعائر إلى سواه ، كما يتبعون شرائع لم يأذن بها الله .

« فقل : أفلا تتقون ؟ » . .

أفلا تخشون الله الذى يرزقكم من السماء والأرض ، والذى يملك السمع والأبصار ، والذى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، والذى يدبر الأمر كله فى هذا وفى سواه ؟ إن الذى يملك هذا كله لهو الله، وهو الرب الحق دون سواه :

« فذلكم الله ربكم الحق » . .

والحق واحد لا يتعدد ، ومن تجاوزه فقد وقع على الباطل ، وقد ضل التقدير :

« فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فأنى تصرفون » . .

وكيف توجهون بعيدا عن الحق وهو واضح بين تراه العيون ؟

بمثل هذا الانصراف عن الحق الواضح الذى يعترف المشركون بمقدماته وينكرون نتائجه

Marfat.com

اللازمة ، ولا يقومون بمقتضياته الواجبة ، قدر الله فى سننه ونواميسه أن الذين يفسقون وينحرفون عن منطق الفطرة السليم وسنة الخلق الماضية لايؤمنون :

« وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون » . .

لا لأنه يمنعهم من الإيمان . فهذه دلائله قائمة فى الكون ، وهذه مقدماته قائمة فى اعتقادهم . ولكن لأنهم هم يحيدون عن الطريق الموصل إلى الإيمان ، ويجحدون المقدمات التى فى أيديهم . ويصرفون أنفسهم عن الدلائل المشهودة لهم ، ويعطلون منطق الفطرة القويم فيهم .

ثم عودة إلى مظاهر قدرة الله ، وهل للشركاء فيها من نصيب :

« قل : هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل : الله يبدأ الخلق ثم يعيده . فأنى تؤفكون ؟ قل : هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ؟ قل : الله يهدى للحق . أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أم من لايهدّى إلا أن يهدى ؟ فما لكم ؟ كيف تحكمون ؟ » . .

وهذه الأمور المسؤول عنها – من إعادة الخلق وهدايتهم إلى الحق – ليست من بداءه مشاهداتهم ولا من مسلمات اعتقاداتهم كالأولى . ولكنه يوجه إليهم فيها السؤال ارتكانا على مسلماتهم الأولى ، فهى من مقتضياتها بشىء من التفكر والتدبر . ثم لايطلب إليهم الجواب . إنما يقرره لهم اعتمادا على وضوح النتائج بعد تسليمهم بالمقدمات .

« قل : هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ » . .

وهم مسلمون بأن الله هو الذى يبدأ الخلق غير مسلمين بإعادته ، ولا بالبعث والنشور والحساب والجزاء . . ولكن حكمة الخالق المدبر لا تكمل بمجرد بدء الخلق ؛ ثم انتهاء حياة المخلوقين فى هذه الأرض ، ولم يبلغوا الكمال المقدر لهم ، ولم يلقوا جزاء إحسانهم وإساءتهم ، وسيرهم على النهج أو انحرافهم عنه . إنها رحلة ناقصة لاتليق بخالق مدبر حكيم . وإن الحياة الآخرة لضرورة من ضرورات الاعتقاد فى حكمة الخالق وتدبيره وعدله ورحمته . ولابد من تقرير هذه الحقيقة لهم وهم الذين يعتقدون بأن الله هو الخالق ، وهم الذين يسلمون كذلك بأنه يخرج الحى من الميت . والحياة الأخرى قريبة الشبه بإخراج الحى من الميت الذى يسلمون به :

« قل : الله يبدأ الخلق ثم يعيده » . .

Marfat.com

وإنه لعجيب أن يصرفوا عن إدراك هذه الحقيقة ولديهم مقدماتها :

« فأنى تؤفكون » ..

فتوجهون بعيدا عن الحق إلى الإفك وتضلون ؟

« قل : هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ؟ » ..

فينزل كتابا ، ويرسل رسولا ، ويضع نظاما ، ويشرع شريعة ، وينذر ويوجه إلى الخير ؟ ويكشف عن آيات الله فى الكون والنفس ؟ ويوقظ القلوب الغافلة ، ويحرك المدارك المعطلة . كما هو معهود لكم من الله ومن رسوله الذى جاءكم بهذا كله وعرضه عليكم لتهتدوا إلى الحق ؟ وهذه قضية ليست من سابق مسلماتهم ، ولكن وقائعها حاضرة بين أيديهم . فليقررها لهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وليأخذهم بها :

« قل : الله يهدى للحق » ..

ومن هذه تنشأ قضية جديدة ، جوابها مقرر :

« أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع ؟ أم من لا يهدى إلا أن يهدى ؟ » ..

والجواب مقرر . فالذى يهدى الناس إلى الحق أولى بالاتباع ، ممن لا يهتدى هو بنفسه إلا أن يهديه غيره .. وهذا ينطبق سواء كان المعبودون حجارة أو أشجارا أو كواكب . أوكانوا من البشر ـ بما فى ذلك عيسى عليه السلام ، فهو ببشريته محتاج إلى هداية الله له ، وإن كان هو قد بعث هاديا للناس ـ ومن عدا عيسى عليه السلام أولى بانطباق هذه الحقيقة عليه :

« فما لكم ؟ كيف تحكمون ؟ » ..

ما الذى وقع لكم وما الذى أصابكم ؟ وكيف تقدرون الأمور ، فتحيدون عن الحق الواضح المبين ؟

فإذا فرغ من سؤالهم وإجابتهم ، وتقرير الإجابة المفروضة التى تحتمها البديهة وتحتمها المقدمات المسلمة .. عقب على هذا بتقرير واقعهم فى النظر والاستدلال والحكم والاعتقاد . فهم لا يستندون إلى يقين فيما يعتقدون أو يعبدون أو يحكمون ، ولا إلى حقائق مدروسة يطمئن إليها العقل والفطرة ، إنما يتعلقون بأوهام وظنون ، يعيشون عليها ويعيشون بها ؛ وهى لا تغنى من الحق شيئا .

Marfat.com

« وما يتبع أكثرهم إلا ظنـا . إن الظن لا يغنى من الحق شيئـا . إن الله عليم بمـا يفعلون . »

فهم يظنون أن لله شركاء . ولا يحققون هـذا الظن ولا يمتحنونه عملا ولا عقلا . وهم يظنون أن آباءهم ما كانوا ليعبدوا هذه الأصنام لو لم يكن فيها مايستحق العبادة : ولا يمتحنون هم هذه الخرافة ، ولا يطلقون عقولهم من إسار التقليد الظنى . وهم يظنون أن الله لا يوحى إلى رجل منهم ، ولا يحققون لماذا يمتنع هذا على الله . وهم يظنون أن القرآن من عمل محمد ولا يحققون إن كان محمد ـ وهو بشر ـ قادرا على تأليف هذا القرآن ، بينما هم لا يقدرون وهم بشر مثله . . وهكذا يعيشون فى مجموعة من الظنون لا تحقق لهم من الحق شيئا . والله وحده هو الذى يعلم علم اليقين أفعالهم وأعمالهم . .

« إن الله عليم بما يفعلون » .

* * *

وتفريعا على هذا التعقيب ، يأخذ بهم السياق فى جولة جديدة حول القرآن تبدأ بنفى التصور لإمكان أن يكون القرآن مفترى من دون الله ، وتحديهم أن يأتوا بسورة مثله . وتثنى بوصمهم بالتسرع فى الحكم على مالم يعلموه يقينا أو يحققوه . وتثلث بإثبات حـالتهم فى مواجهـة هـذا القرآن ، وتثبيت الرسول ـ صلى الله عليـه وسلم ـ على خطتـه أيا كانت استجـابتهم أو عـدم استجابتهم له ، وتنتهى بالتيئيس من الفريق الضال والإيماء إلى مصيرهم الذى لايظلمهم الله فيه ؛ وإنما يستحقونه بما هم فيه من ضلال :

« وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ؛ولـكن تصديق الذى بين يديه، وتفصيل الـكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون : افتراه ؟ قل :فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله . كذلك كذب الذين من قبلهم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، وربك أعلم بالمفسدين . وإن كذبوك فقل : لى عملى ولـكم عملـكم ، أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون . ومنهم من يستمع إليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ؟ ومنهم من ينظر إليك ، أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ؟ إن الله لا يظلم

Marfat.com

الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . .

« وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » . .

فهو بخصائصه ، الموضوعية والتعبيرية . بهذا الكمال فى تناسقه ؛ وبهذا الكمال فى العقيدة التى جاء بها ، وفى النظام الإنسانى الذى يتضمن قواعده ؛ وبهذا الكمال فى تصور حقيقة الألوهية، وفى تصور طبيعة البشر ، وطبيعة الحياة ، وطبيعة الكون . . لا يمكن أن يكون مفترى من دون الله ، لأن قدرة واحدة هى التى تملك الإتيان به هى قدرة الله . القدرة التى تحيط بالأوائل والأواخر ، وبالظواهر والسرائر ، وتضع المنهج المبرأ من القصور والنقص ومن آثار الجهل والعجز . .

« وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله » . .

ما كان من شأنه أصلا أن يفترى . فليس الافتراء هو المنفى ، ولكن جواز وجوده هو المنفى . وهو أبلغ فى النفى وأبعد .

« ولكن تصديق الذى بين يديه » . .

من الكتب التى سبق بها الرسل . تصديقها فى أصل العقيدة ، وفى الدعوة إلى الخير .

« وتفصيل الكتاب » . . الواحد الذى جاء به الرسل جميعا من عند الله ، تتفق أصوله وتختلف تفصيلاته . وهذا القرآن يفصل كتاب الله ويبين وسائل الخير الذى جاء به ، ووسائل تحقيقه وصيانته . فالعقيدة فى الله واحدة ، والدعوة إلى الخير واحدة . ولكن صورة هذا الخير فيها تفصيل ، والتشريع الذى يحققه فيه تفصيل ، يناسب نمو البشرية وقتها ، وتطورات البشرية بعدها ، بعد أن بلغت سن الرشد فخوطبت بالقرآن خطاب الراشدين ، ولم تخاطب بالخوارق المادية التى لا سبيل فيها للعقل والتفكير .

« لا ريب فيه ، من رب العالمين » . .

تقرير وتوكيد لنفى جواز افترائه عن طريق إثبات مصدره : « من رب العالمين » .

« أم يقولون افتراه ؟ » . .

بعد هذا النفى والتقرير ، فهو إذن من صنع محمد . ومحمد بشر ينطق باللغة التى ينطقون بها ، ولا يملك من حروفها إلا ما يملكون . (ألف . لام . ميم) . . (ألف . لام . را) . . (ألف . لام . ميم .

Marfat.com

حاد) ... الخ . فدونهم إذن ـ ومعهم من يستطيعون جمعهم ـ فليفتروا ، كما افترى (بزعمهم) محمد . فليفتروا سورة واحدة لا قرآنا كاملا :

« قل : فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » .

وقد ثبت هذا التحدى ؛ وثبت العجز عنه . وما يزال ثابتا ولن يزال . والذين يدركون بلاغة هذه اللغة ، ويتذوقون الجمال الفنى والتناسق فيها، يدركون أن هـذا النسق من القول لا يستطيعه إنسان . وكذلك الذين يدرسون النظم الاجتماعية ، والأصول التشريعية ، ويدرسون النظام الذى جاء به هذا القرآن ،يدركون أن النظرة فيه إلى تنظيم الجماعة الإنسانيةومقتضيات حياتها من جميع جوانبها ، والفرص المدخرة فيه لمواجهة الأطوار والتقلبات فى يسر ومرونة.. كل أولئك أكبر من أن يحيط به عقل بشرى واحد ، أو مجموعة العقول فى جيل واحد أوفى جميع الأجيال . ومثلهم الذين يدرسون النفس الإنسانية ووسائل الأصول إلى التأثير فيها وتوجيهها ثم يدرسون وسائل القرآن وأساليبه . .

فليس هو إعجاز اللفظ والتعبير وأسلوب الأداء وحده ،ولـكنه الإعجاز المطلق الذى يلمسه الخبراء فى هذا وفى النظم والتشريعات والنفسيات وما إليها . .

والذين زاولوا فن التعبير ، والذين لهم بصر بالأداء الفنى ، يدركون أكثر من غيرهم مدى ماق الأداء القرآنى من إعجاز فى هذا الجانب . والذين زاولوا التفـكير الاجتماعى والقانونى والنفسى ، والإنسانى بصفة عامة ، يدركون أكثر من غيرهم مدى الإعجاز الموضوعى فى هذا الـكتاب أيضا .

ومع تقدير العجز سلفاعن بيان حقيقة هذاالإعجاز ومداه ؛ والعجز عن تصويره بالأسلوب البشرى . ومع تقدير أن الحديث المفصل عن هذا الإعجاز ـ فى حـدود الطاقة البشرية ـ هو موضوع كتاب مستقل . فسأحاول هنا أن ألم إلمامة خاطفة بشىء من هذا . .

إن الأداء القرآنى يمتاز ويتميز من الأداء البشرى . . إن له سلطانا عجيبا على القلوب ليس للأداء البشرى ؛ حتى ليبلغ أحيانا أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لايعرفون من العربيـة حرفا . . وهناك حوادث عجيبة لا يمـكن تفسيرها بغير هذا الذى نقول ـ وإن لم تـكن هى

Marfat.com

القاعدة ـ ولكن وقوعها يحتاج إلى تفسير وتعليل . . ولن أذكر نماذج مما وقع لغيرى ؛ ولكنى أذكر حادثا وقع لى وكان عليه معى شهود ستة ، وذلك منذ حوالى خمسة عشر عاما .. كنا ستة نفر من المنتسبين إلى الإسلام على ظهر سفينة مصرية تمخر بنا عباب المحيط الأطلسى إلى نيويورك ؛ من بين عشرين ومائة راكب وراكبة أجانب ليس فيهم مسلم . . وخطر لنا أن نقيم صلاة الجمعة فى المحيط على ظهر السفينة ! والله يعلم ـ أنه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة ذاتها أكثر مما كان بنا حماسة دينية إزاء مبشر كان يزاول عمله على ظهر السفينة ؛ وحاول أن يزاول تبشيره معنا ! . . وقد يسر لنا قائد السفينة ـ وكان إنجليزيا ـ أن نقيم صلاتنا ؛ وسمح لبحارة السفينة وطهاتها وخدمها ـ وكلهم نوبيون مسلمون ـ أن يصلى منهم معنا من لا يكون فى « الخدمة » وقت الصلاة ! وقد فرحوا بهذا فرحا شديدا ، إذ كانت المرة الأولى التى تقام فيها صلاة الجمعة على ظهر السفينة . . وقمت بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة ؛ والركاب الأجانب ـ معظمهم ـ متحلقون يرقبون صلاتنا ! . . وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح « القدّاس » ! ! ! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا ! ولكن سيدة من هذا الحشد ـ عرفنا فيما بعد أنها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم « تيتو » وشيوعيته ! ـ كانت شديدة التأثر والانفعال ، تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها . جاءت تشد على أيدينا بحرارة ؛ وتقول : ـ فى إنجليزية ضعيفة ـ إنها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح ! . . وليس هذا موضع الشاهد فى القصة .. ولكن ذلك كان فى قولها : أى لغة هـذه التى كان يتحدث بها « قسيسكم » ! فالمسكينة لا تتصور أن يقيم « الصلاة » إلا قسيس ـ أو رجل دين ـ كما هو الحال عندها فى مسيحية الكنيسة ! وقد صححنا لها هـذا الفهم ! . . وأجبناها . . فقالت : إن اللغة التى يتحدث بها ذات إيقاع موسيقى عجيب ، وإن كنت لم أفهم منها حرفا . . ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهى تقول : ولكن هذا ليس الموضوع الذى أريد أن أسأل عنه . . إن الموضوع الذى لفت حسى ، هو أن « الإمام » كانت ترد فى أثناء كلامه ـ بهذه اللغة الموسيقية ـ فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه ! نوع أكثر موسيقية وأعمق إيقاعا . . هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث فى رعشة وقشعريرة ! إنها شىء آخر ! كما لو كان ـ الإمام ـ مملوءا من الروح القدس ! ـ حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها ! ـ

Marfat.com

وتفكرنا قليلا . ثم أدركنا أنها تعنى الآيات القرآنية التى وردت فى أثناء خطبة الجمعة وفى أثناء الصلاة ! وكانت - مع ذلك - مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة ، من سيدة لا تفهم مما نقول شيئا !

وليست هذه قاعدة كما قلت . ولكن وقوع هذه الحادثة - ووقوع أمثالها مما ذكره لى غير واحد - ذو دلالة على أن فى هذا القرآن سرا آخر تلتقطه بعض القلوب لمجرد تلاوته . وقد يكون إيمان هذه السيدة بدينها ، وفرارها من الجحيم الشيوعى فى بلادها ، قد أرهف حسها بكلمات الله على هذا النحو العجيب . . ولكن ما بالنا نعجب وعشرات الألوف ممن يستمعون إلى القرآن من عوامنا لا يطرق عقولهم منه شىء ، ولكن يطرق قلوبهم إيقاعه - وسره هذا - وهم لا يفترقون كثيرا من ناحية فهم لغة القرآن عن هذه السيدة اليوغسلافية ! ! !

ولقد أردت أن أقدم للحديث عن القرآن بسلطانه هذا الخفى العجيب . قبل أن أتحدث عن الجوانب المدركة التى يعرفها أكثر من غيرهم من يزاولون فن التعبير . ومن يزاد لون التفكير والشعور !

◆ إن الأداء القرآنى يمتاز بالتعبير عن قضايا ومدلولات ضخمة فى حيز يستحيل على البشر أن يعبروا فيه عن مثل هذه الأغراض ، وذلك بأوسع مدلول ، وأدق تعبير ، وأجمله وأحياه أيضاً ! مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو ، ومع جمال التعبير دقة الدلالة فى آن واحد ، بحيث لا يغنى لفظ عن لفظ فى موضعه ، وبحيث لا يجور الجمال على الدقة ولا الدقة على الجمال . ويبلغ من ذلك كله مستوى لا يدرك إعجازه أحد ، كما يدرك ذلك من يزاولون فن التعبير فعلا ؛ لأن هؤلاء هم الذين يدركون حدود الطاقة البشرية فى هذا المجال . ومن ثم يتبينون بوضوح أن هذا المستوى فوق الطاقة البشرية قطعا (١) .

◆ وينشأ عن هذه الظاهرة ظاهرة أخرى فى الأداء القرآنى .. هى أن النص الواحد يحوى مدلولات متنوعة متناسقة فى النص ؛ وكل مدلول منها يستوفى حظه من البيان والوضوح دون اضطراب فى الأداء أو اختلاط بين المدلولات ؛ وكل قضية وكل حقيقة تنال الحيز الذى

---

(١) عقدت لهذا الموضوع فصولا كاملة فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » . .

Marfat.com

يناسبها . بحيث يستشهد بالنص الواحد فى مجالات شتى ؛ ويبدو فى كل مرة أصيلا فى الوضع الذى استشهد به فيه ؛ وكأنما هو مصوغ ابتداء لهذا المجال ولهذا الوضع ! وهى ظاهرة قرآنية بارزة لا تحتاج منا إلى أكثر من الإشارة إليها (ولو راجع القارىء المقتطفات الواردة فى التعريف بهذه السورة لوجد أن النص الواحد يرد للدلالة على أغراض شتى ، وهو فى كل مرة أصيل فى موضعه تماما . وليس هذا إلا مثالا) .

◆ وللأداء القرآنى طابع بارز كذلك فى القدرة على استحضار المشاهد ،والتعبير للواجه كما لو كان المشهد حاضرا ، بطريقة ليست معهودة على الإطلاق فى كلام البشر ؛ ولا يملك الأداء البشرى تقليدها . لأنه يبدو فى هذه الحالة مضطربا غير مستقيم مع أسلوب الكتابة ! وإلا فكيف يمكن الأداء البشرى أن يعبر على طريقة الأداء القرآنى مثلا فى مثل هذه المواضع :

« وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده ــ بغيا وعدوا ــ حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . . (وإلى هنا هى قصة تحكى) . . ثم يعقبها مباشرة خطاب موجه فى مشهد حاضر . . « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟ ! فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » . . ثم يعود الأداء للتعقيب على المشهد الحاضر : « وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » . .

« قل : أى شىء أكبر شهادة . قل الله ، شهيد بينى وبينكم ، وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » . . وإلى هنا أمر يوجه ورسول يتلقى . . ثم فجأة نجد الرسول يسأل القوم : أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ » . . وإذا به يعود للتلقى فى شأن هذا الذى سأل عنه قومه ــ وأجابوه ! ــ : « قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد ، وإننى برىء مما تشركون » . .

وكذلك هذه الالتفاتات المتكررة فى مثل هذه الآيات : « ويوم يحشرهم جميعا . . يامعشر الجن قد استكثرتم من الإنس . . وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا استمتع بعضنا ببعض، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا . قال : النار مثواكم خالدين فيها إلا ماشاء الله ، إن ربك حكيم

Marfat.com

عليم .. وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون .. يامعشر الجن والإنس ، ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ .. قالوا : شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . . ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون » .

وأمثالها كثير فى القرآن كله . وهو أسلوب متميز تماما من الأسلوب البشرى . وإلا فمن شاء أن يمارى ، فليحاول أن يعبر على هذا النحو ، ثم ليأت بكلام مفهوم مستقيم ؛ فضلا على أن يكون له هذا الجمال الرائع ، وهذا الإيقاع المؤثر ، وهـذا التناسق الـكامل !

هذه بعض جوانب الإعجاز فى الأداء نلم بها سراعا . ويبقى الإعجاز الموضوعى ؛ والطابع الربانى المتميز من الطابع البشرى فيه .

إن هذا القرآن يخاطب الـكينونة البشرية بجملتها ؛ فلا يخاطب ذهنها المجرد مرة . وقلبها الشاعر مرة . وحسها المتوفز مرة . ولـكنها يخاطبها جملة ، ويخاطبها من أقصر طريق ؛ ويطرق كل أجهزة الاستقبال والتلقى فيها مرة واحدة كلما خاطبها . . وينشئ فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها ، لا تملك وسيلة أخرى من الوسائل التى زاولها البشر فى تاريخهم كله أن تنشئها بهذا العمق ، وبهـذا الشمول ، وبهذه الدقة وهـذا الوضوح ، وبهذه الطريقة وهذا الأسلوب أيضا !

وأنا أستعير هنا فقرات مقتبسة من القسم الثانى من كتاب : « خصائص التصور ومقوماته » تعين على توضيح هذه الحقيقة ؛ وهى تتحدث عن « المنهج القرآنى فى عرض مقومات التصور الإسلامى » فى صورتها الجميلة الـكاملة الشاملة المتناسقة المتوازنة ، وأبرز خصائص هـذا المنهج فى العرض :

« أنه يمتاز عن كل المناهج :

« أولا : بـكونه يعرض الحقيقة ـ كما هى فى عالم الواقع ـ فى الأسلوب الذى يـكشف كل زواياها ، وكل جوانبها ، وكل ارتباطاتها ، وكل مقتضياتها . . وهو ـ مع هـذا الشمول ـ لا يعقد هـذه الحقيقة ، ولا يلفها بالضباب ! بل يخاطب بها الـكينونة البشرية فى كل

Marfat.com

مستوياتها (١) . . ولم يشأ الله - سبحانه - رحمة منه بالعباد أن يجعل مخاطبتهم بمقومات هذا التصور أو إدراكهم لها ، متوقفا على سابق علم لهم . . إطلاقا . . لأن العقيدة هي حاجة حياتهم الأولى ؛ والتصور الذي تنشئه في عقولهم وقلوبهم هو الذي يحدد لهم طريقة تعاملهم مع الوجود كله ؛ ويحدد لهم كذلك طريقة اتجاههم لتعلم أي علم ، ولطلب أية معرفة .. لهذا السبب لم يجعل الله إدراك هذه العقيدة متوقفا على علم سابق . ولسبب آخر هو أن الله يريد أن يكون هذا التصور الذي تنشئه حقائق العقيدة هو قاعدة علم البشر ومعرفتهم - بما أنه هو قاعدة تصورهم وتفسيرهم للكون من حولهم ، ولما يجري فيه ولما يجري فيهم - كي يقوم علمهم وتقوم معرفتهم على أساس من الحق المستيقن الذي ليس هنالك غيره حق مستيقن . ذلك أن كل مايتلقاه الإنسان وكل مايصل إليه - عن غير هذا المصدر - هو معرفة - « ظنية » ونتائج « محتملة » لا « قطعية » حتى ذلك « العلم التجريبي » . فطريق العلم التجريبي هو القياس - لا الاستقراء والاستقصاء - فما يتسنى للبشر الاستقصاء والاستقراء في أية تجربة . هذا على فرض صحة جميع الملاحظات والاستنتاجات والأحكام البشرية على الظواهر ! إنما قصارى « العلم » أن يقوم بعدد من التجارب ، ثم يقيس على نتائجها . والعلم نفسه يسلم بأن النتائج الناشئة عن هذا القياس ظنية محتملة لا يقينية قطعية (وذلك بالإضافة إلى أن كل تجربة على حدة ، تقوم على ترجيح أحد « الاحتمالات » لا على القطع الحتمي) . . فلم يبق من علم مستيقن يمكن أن يحصل عليه البشر إلا العلم الذي يأتيهم من عند العليم الخبير ، والذي يقصه عليهم من يقص الحق وهو خير الفاصلين (٢) .

« وثانيا : بكونه مبرأ من الانقطاع والتمزق الملحوظين في الدراسات « العلمية » والتأملات « الفلسفية » والومضات « الفنية » جميعا . فهو لا يفرد كل جانب من جوانب (الكل) الجميل المتناسق بحديث مستقل . كما تصنع أساليب الأداء البشرية . وإنما هو يعرض هذه الجوانب في سياق موصول ؛ يرتبط فيه عالم الشهادة بعالم الغيب . وتتصل فيه حقائق الكون والحياة

(١) ولا علك الأداء البشري هذا ، فكل كاتب يخاطب مستوى معينا ، ولا يكاد غيره يفهم عنه !

(٢) من أجل ذلك تتلقى الكينونة البشرية هذا الحق، وتحس له سلطانا ليس لغيره من كل ما تتلقاه من أي مصدر آخر . . وهذا أحد أسرار القرآن المعجزة من الناحية الموضوعية .

Marfat.com

والإنسان بحقيقة الألوهية . وتتصل فيه الدنيا بالآخرة . وحياة الناس فى الأرض بحياة الملأ الأعلى . . فى أسلوب تتعذر مجاراته أو تقليده ؛ لأن الأسلوب البشرى عندما يحاول تقليده فى هذه الخاصية تبدو فيه الحقائق مختلطة مضطربة غامضة ، غير واضحة ولا محددة ولا منسقة ، كما تبدو فى المنهج القرآنى !

« وهذا الاتصال والارتباط فى عرض جملة الحقائق فى السياق القرآنى الواحد ؛ قد يختلف فيه التركيز على أى منها بين موضع وموضع . ولكن هذا الترابط يبدو دائما . فعندما يكون التركيز فى موضع من السياق القرآنى مثلا على تعريف الناس بربهم الحق ، تتجلى هذه الحقيقة الكبيرة فى آثار القدرة الإلهية الفاعلة فى الكون والحياة والإنسان . فى عالم الغيب وعالم الشهادة سواء . . وعندما يكون التركيز فى موضع آخر على التعريف بحقيقة الكون ، تتجلى العلاقة بين « حقيقة الألوهية » و « حقيقة الكون » ، ويتطرق السياق كثيرا إلى حقيقة الحياة والأحياء ، وإلى سنن الله فى الكون والحياة . . وعندما يكون التركيز على « حقيقة الإنسان » يتجلى ارتباطها بحقيقة الألوهية وبالكون والأحياء ، وبعالم الغيب وعالم الشهادة على السواء . . وعندما يكون التركيز على الدار الآخرة تذكر الحياة الدنيا وترتبطان بالله وبسائر الحقائق الأخرى .. وكذلك عندما يكون التركيز على قضايا الحياة الدنيا . . . إلى آخر هذا النسق من العرض ، الواضح الملامح فى القرآن .

« ثالثا : بكونه – مع تماسك جوانب « الحقيقة » وتناسقها – يحافظ تماما على إعطاء كل جانب من جوانبها – فى الكل المتناسق – مساحته التى تساوى وزنه الحقيقى فى ميزان الله – وهو الميزان – ومن ثم تبدو « حقيقة الألوهية » وخصائصها، وقضية « الألوهية والعبودية » بارزة مسيطرة محيطة شاملة ؛ حتى ليبدو أن التعريف بتلك الحقيقة وتجلية هذه القضية هو موضوع القرآن الأساسى(١) . . وتشغل حقيقة عالم الغيب – بما فيه القدر والدار الآخرة – مساحة بارزة . ثم تنال حقيقة الإنسان ، وحقيقة الكون ، وحقيقة الحياة ، أنصبة متناسقة تناسق هذه الحقائق فى عالم الواقع . . وهكذا لا تدغم حقيقة من الحقائق ، ولا تهمل ، ولا

(١) وقد بينا من قبل فى تفسير السورة سر هذه العناية الإلهية بتحقيق هذه الحقيقة وتجلية هذه القضية . راجع من ص ١٠١ إلى ص ١٠٥ من هذا الجزء .

Marfat.com

تضيع معالمها فى المشهد الكلى الذى تعرض فيه هذه الحقائق .. وكما أن هذه الحقائق لا يطغى بعضها على بعض فى التصور الإسلامى ذاته - كما بينا فى فصل « التوازن » فى القسم الأول(١) - حيث لا ينتهى الإعجاب بالكون المادى ودقة نواميسه وتناسق أجزائه وقوانينه إلى تألهه - كمؤلهة العوالم المادية والأكوان الطبيعية قديما وحديثا ! - ولا ينتهى الإعجاب بعظمة الحياة واهتدائها إلى وظائفها وتناسقها مع نفسها ومع المحيط الكونى إلى تأليهها - كأصحاب المذهب الحيوى ! - ولا ينتهى الإعجاب بالإنسان ، وتفرده فى خصائصه والاستعدادات الكامنة فى كيانه المنطلقة فى تعامله مع الكون ، إلى تأليه الإنسان - أو العقل - فى صورة من الصور - كالمثاليين فى عمومهم ! - ولا ينتهى الإجلال الحقيقة الإلهية فى ذاتها إلى إنكار وجود العوالم المادية أو احتقارها أو احتقار الكائن الإنسانى - كالمذاهب الهندوكية والبوذية والنصرانية المحرفة - . . كما أن هذا التوازن هو طابع التصور الإسلامى ذاته ، فكذلك هو طابع منهج العرض القرآنى لمقومات هذا التصور والحقائق التى يقوم عليها بحيث تبدو كلها واضحة فى المشهد الفريد الذى يرسمه للكل فى السياق القرآنى الواحد ! وهى خاصية قرآنية لا يملكها الأداء الإنسانى !

« رابعا : بتلك الحيوية الدافقة المؤثرة الموحية - مع الدقة والتقرير والتحديد الحاسم . وهى تمنح هذه الحقائق حيوية وإيقاعا وروعة وجمالا ، لا يتسامى إليها المنهج البشرى فى العرض ولا الأسلوب البشرى فى التعبير . ثم هى فى الوقت ذاته تعرض فى دقة عجيبة ، وتحديد حاسم ؛ ومع ذلك لا تجور الدقة على الحيوية والجمال ، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة !

« ولا يمكن أن نصف نحن فى أسلوبنا البشرى ،ملامح المنهج القرآنى ، فنبلغ من ذلك ما يبلغه تذوق هذا المنهج . كما أنه لا يمكن أن نبلغ بهذا البحث كله عن « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » شيئا مما يبلغه القرآن فى هذا الشأن . . وما نحاول تقديم هذا البحث للناس إلا لأن الناس قد بعدوا عن القرآن ببعدهم عن الحياة فى مثل الجو الذى تنزل فيه القرآن؛ ولم يعودوا يزاولون تلك الملابسات ، ولا يعانون تلك الاهتمامات التى كان يزاولها ويعانيها من كان يتنزل عليهم القرآن ، بينما هم ينشئون المجتمع المسلم فى وجه كل الملابسات القائمة حينذاك ..

(١) يراجع القسم الأول من كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » ص ١٣٤ - ص ١٧٠ .

Marfat.com

ومن ثم لم يعد الناس قادرين على تذوق المنهج القرآنى ذاته ، والاستمتاع بخصائصه ومذاقاته» . . . انتهت المقتطفات . . .

والقرآن يقدم حقائق العقيدة ـ أحيانا ـ فى مجالات لا يخطر للفكر البشرى عادة أن يلم بها ، لأنها ليست من طبيعة ما يفكر فيه عادة أو يلتفت إليه على هذا النحو .

من هذا القبيل ما جاء فى سورة الأنعام فى تصوير حقيقة العلم الإلهى ومجالاته . .

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » . .

فهذه المطارح المترامية ، الخفية والظاهرة ، ليست مما يتوجه الفكر البشرى إلى ارتيادها على هذا النحو ؛ وهو فى معرض تصوير شمول العلم ؛ مهما أراد تصوير هذا الشمول . ولو أن فكرا بشريا هو الذى يريد تصوير شمول العلم لاتجه اتجاهات أخرى تناسب اهتمامات الإنسان وطبيعة تصوراته . . وذلك كما قلنا فى تفسير هذه الآية من قبل فى الجزء السابع :

« ننظر إلى هذه الآية القصيرة من أى جانب فنرى هذا الإعجاز الناطق بمصدر هذا القرآن .

ننظر إليها من ناحية موضوعها ، فنجزم للوهلة الأولى بأن هذا كلام لا يقوله بشر . فليس عليه طابع البشر . . إن الفكر البشرى ـ حين يتحدث عن مثل هذا الموضوع ـ موضوع شمول العلم وإحاطته ـ لا يرتاد وهذه الآفاق.. إن مطارح الفكر البشرى وانطلاقاته فى هذا المجال لها طابع آخر ولها حدود . إنه ينتزع تصوراته التى يعبر عنها من اهتماماته . . فما اهتمام الفكر البشرى بتقصى وإحصاء الورق الساقط من الشجر ، فى كل أنحاء الأرض ؟ إن المسألة لا تخطر على بال الفكر البشرى ابتداء . لا يخطر على باله أن يتتبع ويحصى ذلك الورق الساقط فى أنحاء الأرض . ومن ثم لا يخطر له أن يتجه هذا الاتجاه ، ولا أن يعبر هذا التعبير عن العلم الشامل ! إنما الورق الساقط شأن يحصيه الخالق ويعبر عنه الخالق !

« وما اهتمام الفكر البشرى بهذا الإطلاق : « ولا رطب ولا يابس » . إن أقصى ما يتجه إليه تفكير البشر هو الانتفاع بالرطب واليابس مما بين أيديهم . فأما التحدث عنه كدليل

Marfat.com

لعلم الشامل فهذا ليس معهودا فى اتجاه البشر وتعبيراتهم كذلك ! إنما كل رطب وكل يابس شأن يحصيه الخالق ، ويعبر عنه الخالق !

«ولا يفكر البشر أن تكون كل ورقة ساقطة ؛ وكل حبة مخبوءة ، وكل رطب وكل يابس فى كتاب مبين ، وفى سجل محفوظ فما شأنهم بهذا ؟ وما فائدته لهم ؟ وما احتفالهم بتسجيله ؟ إنما الذى يحصيه ويسجله هو صاحب الملك ، الذى لايند عنه شيء فى ملكه . . الصغير كالكبير ، والحقير كالجليل ، والمخبوء كالظاهر ، والمجهول كالمعلوم ، والبعيد كالقريب . .

« إن هذا المشهد الشامل الواسع العميق الرائع .. مشهد الورق الساقط من شجر الأرض جميعا ، والحب المخبوء فى أطواء الأرض جميعا ، والرطب واليابس فى أرجاء الأرض جميعا . . إن هذا المشهد كما أنه لا يتجه إليه الفكر البشرى والاهتمام البشرى ؛ وكذلك لا تلحظه العين البشرية ؛ ولا تلم به النظرة البشرية . . إن هذا المشهد إنما يتكشف هكذا بجملته لعلم الله وحده ، المشرف على كل شيء ، المحيط بكل شيء ، الحافظ لكل شيء ، الذى تتعلق مشيئته وقدره بكل شيء .. الصغير كالكبير ، والحقير كالجليل ، والمخبوء كالظاهر ، والمجهول كالمعلوم ، والبعيد كالقريب . .

« والذين يزاولون الشعور ويزاولون التعبير من بنى البشر يدركون جيدا حدود التصور البشرى وحدود التعبير البشرى أيضا . ويعلمون — من تجربتهم البشرية — أن مثل هذا المشهد ، لا يخطر على القلب البشرى ؛ كما أن مثل هذا التعبير لا يتأتى له أيضا . . والذين يمارون فى هذا عليهم أن يراجعوا قول البشر كله ، ليروا إن كانوا قد اتجهوا مثل هذا الاتجاه أصلا !

« وهذه الآية وأمثالها فى القرآن الكريم تكفى وحدها لمعرفة مصدر هذا الكتاب الكريم . .

«كذلك ننظر إليها من ناحية الإبداع الفنى فى التعبير ذاته ، فنرى آفاقا من الجمال والتناسق لا تعرفها أعمال البشر ، على هذا المستوى السامق : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو » .. آماد وآفاق وأغوار فى « المجهول » المطلق . فى الزمان والمكان ، وفى الماضى والحاضر والمستقبل وفى أحداث الحياة وتصورات الوجدان .

Marfat.com

« ويعلم ما فى البر والبحر » . . آماد وآفاق وأغوار فى « المنظور » على استواء وسعة وشمول . . تناسب فى عالم الشهود المشهود تلك الآماد والآفاق والأغوار فى عالم الغيب المحجوب .

« وما تسقط من ورقة إلا يعلمها » . . حركة الموت والفناء ؛ وحركة السقوط والانحدار من علو إلى سفل ، ومن حياة إلى اندثار .

« ولا حبة فى ظلمات الأرض » . . حركة البزوغ والنماء ، المنبثقة من الغور إلى السطح ، ومن كمون وسكون إلى اندفاع وانطلاق .

« ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » . التعميم الشامل ، الذى يشمل الحياة والموت ، والازدهار والذبول ، فى كل حى على الإطلاق . .

فمن ذا الذى يبدع ذلك الاتجاه والانطلاق ؟ من ذا الذى يبدع هذا التناسق والجمال ؟ . . من ذا الذى يبدع هذا كله وذلك كله ، فى مثل هذا النص القصير .. من ؟ إلا الله ؟ !

كذلك هذا النص الآخر عن شمول علم الله :

« يعلم مايلج فى الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها ، وهو الرحيم الغفور » . .

ويقف الإنسان أمام هـــذه الصفحة المعروضة فى كلمات قليلة ؛ فإذا هو أمام حشد هائل عجيب من الأشياء ، والحركات ، والأحجام ، والأشكال ، والصور ، والمعانى ، والهيئات ، لا يصمد لها الخيال !

ولو أن أهل الأرض جميعا وقفوا حياتهم كلها يتتبعون ويحصون ما يقع فى لحظة واحدة . مما تشير إليه الآية لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه عن يقين !

فكم من شىء فى هذه اللحظة الواحدة يلج فى الأرض ؟ وكم من شىء فى هذه اللحظة يخرج منها ؟ وكم من شىء فى هذه اللحظة ينزل من السماء ؟ وكم من شىء فى هذه اللحظة يعرج فيها ؟

كم من شىء يلج فى الأرض ؟ كم من حبة تختبىء أو تخبأ فى جنبات هـــذه الأرض ؟ كم من دودة ومن حشرة ومن هامة ومن زاحفة تلج فى الأرض فى أقطارها المترامية ؟ كم من قطرة ماء ومن ذرة غاز ، ومن إشعاع كهرباء تندس فى الأرض فى أرجائها الفسيحة ؟ وكم وكم مما يلج فى الأرض ، وعين الله عليه ساهرة لا تنام ؟ !

Marfat.com

وكم يخرج منها ؟ كم من نبتة تنبثق ؟ وكم من نبع يفور ؟ وكم من بركان يتفجر ؟ وكم من غاز يتصاعد ؟ وكم من مستور يتكشف ؟ وكم من حشرة تخرج من بيتها المستور ؟ وكم وكم مما يرى ومما لا يرى ، ومما يعلم البشر ومما يجهلونه وهو كثير ؟!

وكم مما ينزل من السماء ؟ كم من نقطة مطر ؟ وكم من شهاب ثاقب ؟ وكم من شعاع محرق ؟ وكم من شعاع منير ؟ وكم من قضاء نافذ ومن قدر مقدور ؟ وكم من رحمة تشمل الوجود وتخص بعض العبيد ؟ وكم من رزق يبسطه الله لمن يشاء من عباده ويقدر ؟ .. وكم وكم مما لا يحصيه إلا الله ؟

وكم مما يعرج فيها ؟ كم من نفس صاعد من نبات أو حيوان أو إنسان أو خلق آخر مما لا يعرفه الإنسان ؟ وكم من دعوة إلى الله معلنة أو مستسرة لم يسمعها إلا الله في علاه ؟

وكم من روح من أرواح الخلائق التي نعلمها أو نجهلها متوفاة ؟ وكم من ملك يعرج بأمر من روح الله ؟ وكم من روح يرف في هذا الملكوت لا يعلمه إلا الله ؟

ثم كم من قطرة بخار صاعدة من بحر ، ومن ذرة غاز صاعدة من جسم ؟ وكم وكم مما لا يعلمه سواه ؟ !

كم في لحظة واحدة ؟ وأين يذهب علم البشر وإحصاؤهم لما في اللحظة الواحدة ولو قضوا الأعمار الطوال في العد والإحصاء ؟ وعلم الله الكامل الهائل اللطيف العميق يحيط بهذا كله في كل مكان وفي كل زمان . . وكل قلب وما فيه من نوايا وخواطر وماله من حركات وسكنات تحت عين الله ، وهو مع هذا يستر ويغفر . . « وهو الرحيم الغفور » . .

وإن آية واحدة من القرآن كهذه الآية لما يوحى بأن هذا القرآن ليس من قول البشر . فمثل هذا الخاطر الكوني لا يخطر بطبيعته على قلب بشر . ومثل هذا التصور الكوني لا دافع إليه من طبيعة تصور البشر ، ومثل هذه الإحاطة باللمسة الواحدة تتجلى فيها صنعة الله بارىء هذا الوجود التي لا تشبهها صنعة العبيد !

كذلك يبدو الطابع الإلهي في هذا القرآن في طريقة استدلاله بأشياء وأحداث مثيرة صغيرة في ظاهرها ؛ وهي ذات حقيقة ضخمة تناسب الموضوع الضخم الذي يستدل بها عليه . . كما يبدو في قوله تعالى :

Marfat.com

« نحن خلقناكم فلولا تصدقون ! أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى ، فلولا تذكرون !

« أفرأيتم الماء الذى تشربون ؟ أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ لو نشاء جعلناه أجاجا ، فلولا تشكرون !

« أفرأيتم النار التى تورون ؟ أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ؟ نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين .

« فسبح باسم ربك العظيم » .

إن هذا القرآن يجعل من مألوفات البشر وحوادثهم المكرورة ، قضايا كونية كبرى يكشف فيها عن النواميس الإلهية فى الوجود ، وينشئ بها عقيدة ضخمة شاملة وتصورا كاملا لهذا الوجود ، كما يجعل منها منهجا للنظر والتفكير ، وحياة للأرواح والقلوب ، ويقظة فى المشاعر والحواس . يقظة لظواهر هذا الوجود التى تطالع الناس صباح مساء وهم غافلون عنها ، ويقظة لأنفسهم وما يجرى من العجائب والخوارق فيها !

إنه لا يكل الناس إلى الحوادث الفذة الخارقة والمعجزات الخاصة المعدودة . كذلك لا يكلفهم أن يبحثوا عن الخوارق والمعجزات والآيات والدلائل بعيدا عن أنفسهم ، ولا عن مألوف حياتهم ، ولا عن الظواهر الكونية القريبة منهم المعروفة لهم .. إنه لا يعد بهم فى فلسفات معقدة ، أو مشكلات عقلية عويصة ، أو تجارب علمية لا يملكها كل أحد . . لكى ينشئ فى نفوسهم عقيدة ، وتصورا للكون والحياة قائما على هذه العقيدة .

إن أنفسهم من صنع الله ؛ وظواهر الكون حولهم من إبداع قدرته . والمعجزة كامنة فى كل ماتبدعه يده . وهذا القرآن قرآنه . ومن ثم يأخذهم إلى هذه المعجزات الكامنة فيهم، والمبثوثة فى الكون من حولهم . يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لهم ، التى يرونها ولا يحسون حقيقة الإعجاز فيها . لأنهم لطول ألفتهم بها غفلوا عن مواضع الإعجاز فيها . يأخذهم إليها ليفتح عيونهم عليها ، فتطالع على السر الهائل المكنون فيها . سر القدرة المبدعة، وسر الوحدانية المفردة ، وسر الناموس الأزلى الذى يعمل فى كيانهم هم أنفسهم كما يعمل فى الكون من حولهم ؛ والذى يحمل دلائل

Marfat.com

الإيمان ؛ وبراهين العقيدة فيبثها فى كيانهم ، أو يوقظها فى فطرتهم بتعبير أدق .

وعلى هذا المنهج يسير ، وهو يعرض عليهم آيات القدرة المبدعة فى خلقهم هم أنفسهم . وفى زرعهم الذى تزاوله أيديهم . وفى الماء الذى يشربون . وفى النار التى يوقدون – وهى أبسط ما يقع تحت أبصارهم من مألوفات حياتهم – كذلك يصور لهم لحظة النهاية. نهاية الحياة على هذه الأرض وبدء الحياة فى العالم الآخر . اللحظة التى يواجهها كل أحد ، والتى تنتهى عندها كل حيلة ، والتى تقف الأحياء وجها لوجه أمام القدرة المطلقة المتصرفة وقفة فاصلة ، لا محاولة فيها ولا مجال ! حيث تسقط جميع الأقنعة وتبطل جميع التعلات .

إن طريقة القرآن فى مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره . . إنه المصدر الذى صدر منه الكون . فطريقة بنائه هى طريقة بناء الكون . فمن أبسط المواد الكونية تنشأ أعقد الأشكال ، وأضخم الخلائق . . الذرة يظن أنها مادة بناء الكون ؛ والخلية يظن أنها مادة بناء الحياة .. والذرة على صغرها معجزة فى ذاتها ؛ والخلية على ضآلتها آية فى ذاتها .. وهنا فى القرآن يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة لبناء أضخم عقيدة دينية وأوسع تصور كونى .. المشاهدات التى تدخل فى تجارب كل انسان : النسل . والزرع . والماء . والنار . والموت .. أى إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات فى تجاربه ؟ أى ساكن كهف لم يشهد نشأة حياة جنينية ، ونشأة حياة نباتية. ومسقط ماء. وموقد نار. ولحظة وفاة؟ .. من هذه المشاهدات التى رآها كل إنسان ينشىء القرآن العقيدة ، لأنه يخاطب كل إنسان فى كل بيئة .. وهذه المشاهدات البسيطة الساذجة بذاتها هى أضخم الحقائق الكونية ، وأعظم الأسرار الربانية ؛ فهى فى بساطتها تخاطب فطرة كل إنسان ؛ وهى فى حقيقتها موضوع دراسة أعلم العلماء إلى آخر الزمان .

ولسنا نملك المضى أبعد من هذا فى بيان طبيعة « هذا القرآن » الدالة على مصدره . ففى هذا القدر كفاية لنعود إلى سياق السورة ..

وصدق الله العظيم :

« وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله .. . »

Marfat.com

« أم يقولون افتراه ؟ قل : فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين .

ويضرب السياق عن المضى فى الجدل بعد هذا التحدى ، ليقرر أنهم لايتبعون إلا الظن ، فهم يحكمون على مالم يعلموه . والحكم يجب أن يسبقه العلم ، وألا يعتمد على مجرد الهوى أو مجرد الظن . والذى حكموا عليه هنا هو الوحى بالقرآن وصدق مافيه من الوعد والوعيد . لقد كذبوا بهذا وليس لديهم من علم يقوم عليه التكذيب ، ولما يأتهم تأويله الواقعى بوقوعه :

« بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله » . .

شأنهم فى هذا شأن المكذبين من قبلهم ، الظالمين المشركين بربهم . فليتأمل المتأمل كيف كان مصير الأولين ليعرف حقيقة مصير الآخرين :

« كذلك كذب الذين من قبلهم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين » . .

وإذا كان أكثرهم لايتبعون إلا الظن ، ويكذبون بما لم يحصل لهم عنه علم ، فإن هناك منهم من يؤمن بهذا الكتاب ، فليسوا جميعهم من المكذبين :

« ومنهم من يؤمن به ومنهم من لايؤمن به . وربك أعلم بالمفسدين » . .

والمفسدون هم الذين لايؤمنون . وما يقع الفساد فى الأرض كما يقع بضلال الناس عن الإيمان بربهم والعبودية لله وحده . وما نجم الفساد فى الأرض إلا من الدينونة لغير الله ، وما يتبع هذا من شر فى حياة الناس فى كل اتجاه . شر اتباع الهوى فى النفس والغير ؛ وشر قيام أرباب أرضية تفسد كل شىء لتستبقى ربوبيتها المزيفة . . تفسد أخلاق الناس وأرواحهم وأفكارهم وتصوراتهم . . ثم تفسد مصالحهم وأموالهم . فى سبيل بقائها المصطنع الزائف . وتاريخ الجاهلية فى القديم والحديث فائض بهذا الفساد الذى ينشئه المفسدون الذين لا يؤمنون .

ويعقب على تقرير مواقفهم من هذا الكتاب بتوجيه الخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - بألا يتأثر بتكذيب المكذبين ، وأن ينفض يديه منهم ، ويعلنهم ببراءته من عملهم ، ويفاصلهم على ما معه من الحق فى وضوح وفى حسم وفى يقين :

Marfat.com

« وإن كذبوك فقل : لى عملى ولكم عملكم . أنتم بريئون مما أعمل ، وأنا برىء مما تعملون » .

وهى لمسة لوجدانهم ، باعتزالهم وأعمالهم ، وتركهم لمصيرهم منفردين ، بعد بيان ذلك المصير المخيف . وذلك كما تترك طفلك المعاند الذى يأبى أن يسير معك ، فى وسط الطريق وحده يواجه مصيره فريدا لا يجد منك سندا . وكثيرا ما يفلح هذا الأسلوب من التهديد !

ويمضى السياق يستعرض حال بعضهم من الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهم يستمعون إليه بآذانهم وقلوبهم مغلقة . وينظرون إليه بعيونهم وبصيرتهم مطموسة ، فلا يثوبون من السمع والنظر بشىء ، ولا يهتدون إلى الطريق :

« ومنهم من يستمعون إليك . أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ؟ ومنهم من ينظر إليك . أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون؟ » .

إن هؤلاء الخلائق الذين يستمعون ولا يعقلون ما سمعوا ، وينظرون ولا يميزون ما نظروا.. إن هؤلاء الكثير ، فى كل زمان وفى كل مكان . والرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يملك لهم شيئا . لأن حواسهم وجوارحهم مطموسة الاتصال بعقولهم وقلوبهم ، فكأنها معطلة لا تؤدى حقيقة وظيفتها . والرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يسمع الصم ، ولا يبصر العمى . فذلك من شأن الله وحده عز وجل . والله سن سنة وترك الخلق لمقتضى السنة . وأعطاهم الأسماع والأبصار والعقول ليهتدوا بها ؛ فإذا هم عطلوها حقت عليهم سنته التى لا تتخلف ولا تحابى ، ولقوا جزاءهم عدلا ، ولم يظلمهم الله شيئا :

« إن الله لا يظلم الناس شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » . .

وفى هذه الآيات الأخيرة تسرية عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مما يجده فى نفسه من ضيق بهذا التكذيب لما معه من الحق ، وبهذا العناد الصفيق بعد تكرار البيان والإعلام . وذلك بما يقرره له ربه من أن إباءهم الهدى لم يكن عن تقصير منه فى الجهد . ولا قصور فيما معه من الحق . ولكن هؤلاء كالصم العمى . وما يفتح الآذان والعيون إلا الله . فهو شأن خارج عن طبيعة الدعوة والداعية داخل فى اختصاص الله .

Marfat.com

وفيها كذلك تحديد حاسم لطبيعة العبودية ومجالها ـ حتى ولو تمثلت فى شخص رسول الله . فهو عبد من عباد الله لا قدرة له خارج مجال العبودية . والأمر كله لله .

***

بعد ذلك يلمس وجدانهم لمسة خاطفة بمشهد من مشاهد القيامة ، تبدو فيه الحياة الدنيا التى تزحم حسهم ، وتشغل نفوسهم ، وتأ كل اهتماماتهم . . رحلة سريعة ، قضاها الناس هناك ، ثم عادوا إلى مقرهم الدائم ودارهم الأصيلة .

« ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم . قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ، وما كانوا مهتدين » . .

وفى هذه الجولة الخاطفة ننظر فإذا المحشورون مأخوذون بالمفاجأة ، شاعرون أن رحلتهم الدنيوية كانت قصيرة قصيرة ، حتى لكأنها ساعة من نهار قضوها فى التعارف ، ثم أسدل الستار .

أو هذا مجرد تشبيه لهذه الحياة الدنيا ، والناس الذين دخلوا ثم خرجوا ، كأن لم يفعلوا شيئاً سوى اللقاء والتعارف ؟

إنه لتشبيه ، ولكنه حق اليقين . وإلا فهل ينتهى البشر فى هذه الأرض من عملية التعارف؟ إنهم يجيئون ويذهبون وما يكاد أحدهم ينتهى من التعرف إلى الآخرين ، وما تكاد الجماعة فيهم تنتهى من التعرف إلى الجماعات الأخرى . ثم يذهبون .

وإلا فهل هؤلاء الأفراد الذين يتنازعون ويتعاركون ويقع من سوء التفاهم بينهم وبين بعضهم فى كل ساعة ما يقع . . . هل هؤلاء تم تعارفهم كما ينبغى أن يكون ؟

وهذه الشعوب المتناحرة ، والدول المتخاصمة ـ لا تتخاصم على حق عام ، ولا على منهج سليم ، إنما تتعارك على الحطام والأعراض ـ هذه . هل عرف بعضها بعضا ؟ وهى ماتكاد تفرغ من خصام حتى تدخل فى خصام .

إنه تشبيه لتمثيل قصر الحياة الدنيا . ولكنه يصور حقيقة أعمق فيما يكون بين الناس فى هذه الحياة . . ثم يرحلون !

Marfat.com

وفى ظل هذا المشهد تبدو الخسارة الفادحة لمن جعلوا همهم كله هو هذه الرحلة الخاطفة . وكذبوا بلقاء الله ، وشغلوا عنه واستغرقوا فى تلك الرحلة – بل تلك الومضة – فلم يستعدوا لهذا اللقاء بشيء يلقون به ربهم ؛ ولم يستعدوا كذلك بشيء للإقامة الطويلة فى الدار الباقية :

« قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ، وما كانوا مهتدين » . .

* * *

ومن هذا المشهد الخاطف ليوم الحشر ، وما سبقه من أيام الحياة فى الأرض إلى حديث مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى شأن وعيد الله للمكذبين ؛ ذلك الوعيد الغامض ، لايدرون إن كان سيعاجلهم غدا ، أم إنهم سينظرون إلى يوم الدين ، ليبقى مصلتا فوق رؤوسهم لعلهم يتقون ويهتدون . . وشيئا فشيئا تنتهى الجولة التى بدأت بالحديث عن الوعيد إلى نهايتها يوم لاينفع الفداء ولو كان مافى الأرض كله ، ويوم يقضى الله بالقسط لا يظلم أحدا . . وذلك على طريقة القرآن فى وصل الدنيا بالآخرة ، فى كلمات ولحظات ، فى تصوير حى يلمس القلوب ، ويصور فى الوقت ذاته حقيقة الاتصال بين الدارين والحياتين كما هما فى الواقع ، وكما ينبغى أن يكونا فى التصور الإسلامى الصحيح :

« وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ، ثم الله شهيد على مايفعلون . ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل : لاأملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ماشاء الله ، لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قل أرأيتم : إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون . أثم إذا ماوقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون؟ ثم قيل للذين ظلموا : ذوقوا عذاب الخلد ، هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون . ويستنبئونك أحق هو ؟ قل : إى وربى إنه لحق ، وما أنتم بمعجزين . ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب ، وقضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون» .

تبدأ هذه الجولة بتقرير أن مرجع القوم إلى الله ، سواء وقع بعض الوعيد الذى كلف الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يبلغه لهم، فى حياته أو بعد وفاته . فالمرجع إلى الله فى الحالين.

Marfat.com

وهو شهيد على مايفعلون فى حضور الرسول بالحياة ، وفى غيبته بالوفاة . فلن يضيع شىء من أعمالهم ولن تعفيهم وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - مما يوعدون .

« وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا مرجعهم ، ثم الله شهيد على مايفعلون » ..

فالأمور مدبرة سائرة حسب التدبير ، لايخرم منها حرف ، ولا يتغير بالطوارئ والظروف . ولكن كل قوم يُنظرون حتى يجىء رسولهم ، فينذرهم ويبين لهم ، وبذلك يستوفون حقهم الذى فرضه الله على نفسه بألا يعذب قوما إلا بعد الرسالة ، وبعد الإعذار لهم بالتبيين . وعندئذ يقضى بينهم بالقسط حسب استجابتهم للرسول :

« ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون » ..

ونقف من هاتين الآيتين أمام حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية التى يرتكز عليها التصور الإسلامى كله . وعناية المنهج القرآنى بتوضيحها وتقريرها فى كل مناسبة ، وفى صور شتى متنوعة ..

إنه يقال للرسول - صلى الله عليه وسلم - إن أمر هذه العقيدة ، وأمر القوم الذين يخاطبون بها ، كله لله ، وأن ليس لك من الأمر شىء . دورك فيها هو البلاغ ، أما ماوراء ذلك فكله لله . وقد ينقضى أجلك كله ولا ترى نهاية القوم الذين يكذبونك ويعاندونك ويؤذونك، فليس حتما على الله أن يريك عاقبتهم ، ومايُنزله بهم من جزاء .. هذا له وحده سبحانه! أما أنت - وكل رسول - فعليك البلاغ .. ثم يمضى الرسول ويدع الأمر كله لله .. ذلك كى يعلم العبيد مجالهم، وكى لا يستعجل الدعاة قضاء الله مهما طال عليهم فى الدعوة ، ومهما تعرضوا فيها للعذاب!!!

« ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ » ..

وقد كانوا يسألون فى تحد واستعجال ، طالبين وقوع ما يوعدهم به النبى - صلى الله عليه وسلم - من قضاء الله فيهم، كما قضى الله بين الأمم التى جاءتها رسلها فكذبت ، فأخذالله المكذبين! والجواب :

« قل : لاأملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ماشاء الله ، لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولايستقدمون »...

Marfat.com

وإذا كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، فهو لا يملك لهم الضر والنفع بطبيعة الحال . (وقد قدم ذكر الضر هنا ، وإن كان مأمورا أن يتحدث عن نفسه ، لأنهم هم يستعجلون الضر ، فمن باب التناسق قدم ذكر الضر . أما فى موضع آخر فى سورة الأعراف فقدم النفع فى مثل هذا التعبير ، لأنه الأنسب أن يطلبه لنفسه وهو يقول : (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) ..

« قل : لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا .. إلا ماشاء الله .. » .

فالأمر إذن لله يحقق وعيده فى الوقت الذى يشاؤه . وسنة الله لاتتخلف ، وأجله الذى أجله لا يستعجل :

« لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » ..

والأجل قد ينتهى بالهلاك الحسى . هلاك الاستئصال كما وقع لبعض الأمم الخالية . وقد ينتهى بالهلاك المعنوى . هلاك الهزيمة والضياع . وهو مايقع للأمم ، إما فترة تعود بعدها للحياة ، وإما دائما فتضمحل وتنمحى شخصيتها وتنتهى إلى اندثارها كأمة ، وإن بقيت كأفراد .. وكل أولئك وفق سنة الله التى لاتتبدل ، لامصادفة ولا جزافا ولا ظلما ولا محاباة . فالأمم التى تأخذ بأسباب الحياة تحيا والأمم التى تنحرف عنها تضعف أو تضمحل أو تموت بحسب انحرافها . والأمة الإسلامية منصوص على أن حياتها فى اتباع رسولها ، والرسول يدعوها لما يحييها . لا بمجرد الاعتقاد ، ولكن بالعمل الذى تنص عليه العقيدة فى شتى مرافق الحياة . وبالحياة وفق المنهج الذى شرعه الله لها ، والشريعة التى أنزلها ، والقيم التى قررها . وإلا جاءها الأجل وفق سنة الله ..

ثم يبادرهم السياق بلمسة وجدانية تنقلهم من موقف السائل المستهزىء المتحدى ، إلى موقف المهدد الذى قد يفاجئه المحظور فى كل لحظة من الليل أو النهار :

« قل : أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ، ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ » ..

فهذا العذاب للغيب الذى لا يعلم موقعه وموعده ؛ والذى قد يحل بياتا وأنتم نيام، أو نهارا

Marfat.com

وأنتم أيقاظ ، لايجديكم رده الصحو .. ما الذى يستعجل منه المجرمون ؟ وهو عذاب لاخير لهم فى استعجاله على كل حال .

وبينما هم فى مفاجأة السؤال الذى ينقل مشاعرهم إلى تصور الخطر وتوقعه ، تفجؤهم الآية التالية بوقوعه فعلا . . وهو لم يقع بعد .. ولكن التصوير القرآنى يرسمه واقعا ، ويغمر به المشاعر ، ويلمس به الوجدان :

« أثم إذا ماوقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون ؟! » .

فكأنما قد وقع . وكأنما قد آمنوا به ، وكأنما يخاطبون بهذا التبكيت فى مشهد حاضر يشهدونه الآن !

وتتمة المشهد الحاضر :

« ثم قيل للذين ظلموا : ذوقوا عذاب الخلد . هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ؟ » ..

وهكذا نجدنا مع السياق فى ساحة الحساب والعذاب ، وقد كنا منذ لحظات وفقرات فى الدنيا نشهد خطاب الله لرسوله عن هذا المصير !!

وختام هذه الجولة ، هو استنباء القوم للرسول : إن كان هذا بالوعيد حقا . فهم مزلزلون من الداخل تجاهه يريدون أن يستوثقوا وليس بهم من يقين . والجواب بالإيجاب حاسم مؤكد بيمين :

« ويستنبئونك : أحق هو ؟ قل : إى وربى إنه لحق وما أنتم بمعجزين » ..

« إى وربى » ..

الذى أعرف قيمة ربوبيته فلا أقسم به حانثا ، ولاأقسم به إلا فى جد وفى يقين ..

« إنه لحق وما أنتم بمعجزين » . .

ماأنتم بمعجزين أن يأتى بكم ، وما أنتم بمعجزين أن يحاسبكم ، وأن يجازيكم .

وبينما نحن معهم على هذه الأرض فى استنباء وجواب . إذا نحن فجأة ـ مع السياق فى نقلة من نقلات الأسلوب القرآنى المصور ـ فى ساحة الحساب والجزاء ، مبدئيا على وجه الفرض والتقدير .

Marfat.com

« ولو أن لكل نفس ظلمت ما فى الأرض لافتدت به » . .

فلا يقبل منها حتى على فرض وجوده معها .

ولا تكتمل الآية حتى يكون الفرض قد وقع وقضى الأمر :

« وأسروا الندامة لما رأوا العذاب » . .

أخذتهم وهلة المفاجأة فسقط فى أيديهم ، والتعبير يرسم للخيال صورة الكمد يظلل الوجوه ، دون أن تنطق الشفاه !

« وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » . .

وانتهى المشهد الذى بدأ منذ نصف آية فرضا وانتهى واقعا ، على طريقة التصوير القرآنى المؤثر المثير .

* * *

والتعقيب المؤكد للحشر والحساب ، جولة أخرى مع القدرة فى بعض مجاليها فى السماء والأرض وفى الحياة والموت . جولة عابرة لتوكيد معنى القدرة الكفيلة بتحقق الوعد . ثم نداء عام للناس أجمعين للانتفاع بهذا القرآن الذى يحمل لهم الموعظة والهدى وشفاء الصدور .

« ألا إن لله ما فى السماوات والأرض . ألا إن وعد الله حق، ولكن أكثرهم لا يعلمون. هو يحيي ويميت ، وإليه ترجعون . يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . قل : بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » . .

« ألا ... » بهذا الإعلان المدوى . « ألا إن لله ما فى السماوات والأرض » . والذى يملك ما فى السماوات والأرض يملك أن يجعل وعده حقا فلا يعجزه عن تحقيقه معجز ، ولا يعوقه عن تصديقه معوق :

« ألا إن وعد الله حق » . . « ولكن أكثرهم لا يعلمون » . .

وهم لجهلهم يشكون أو يكذبون .

« هو يحيي ويميت » . .

Marfat.com

والذى يملك الحياة والموت ، يملك الرجعة والحساب ..

« وإليه ترجعون » .

إنه تعقيب سريع للتوكيد السريع بعد الاستعراض المثير .

ثم يعقبه النداء الجامع للبشرية جميعا :

« ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين » . .

جاءتكم فى ذلك الكتاب الذى ترتابون فيه . جاءتكم الموعظة « من ربكم » فليس هو كتابا مفترى ، وليس ما فيه من عند بشر . جاءتكم الموعظة لتحيى قلوبكم ، وتشفى صدوركم من الخرافة التى تملؤها ، والشك الذى يسيطر عليها ، والزيغ الذى يمرضها ، والقلق الذى يحيرها . جاءت لتفيض عليها البرء والعافية واليقين والاطمئنان والسلام مع الإيمان . وهى لمن يرزق الإيمان هدى إلى الطريق الواصل ، ورحمة من الضلال والعذاب :

« قل : بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا ، هو خير مما يجمعون » . .

فبهذا الفضل الذى آتاه الله عباده ، وبهذه الرحمة التى أفاضها عليهم من الإيمان . . فبذلك وحده فليفرحوا . فهذا هو الذى يستحق الفرح . لا المال ولا أعراض هذه الحياة . إن ذلك هو الفرح العلوى الذى يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية والأعراض الزائلة ، فيجعل هذه الأعراض خادمة للحياة لا مخدومة ؛ ويجعل الإنسان فوقها وهو يستمتع بها لا عبدا خاضعا لها . والإسلام لا يحقر أعراض الحياة الدنيا ليهجرها الناس ويزهدوا فيها . إنما هو يزنها بوزنها ليستمتع بها الناس وهم أحرار الإرادة طلقاء اليد ، مطمحهم أعلى من هذه الأعراض ، وآفاقهم أسمى من دنيا الأرض . الإيمان عندهم هو النعمة ، وتأدية مقتضيات الإيمان هى الهدف . والدنيا بعد ذلك مملوكة لهم لا سلطان لها عليهم .

عن عقبة ابن الوليد عن صفوان ابن عمرو : سمعت أيفع ابن عبد الله الكلاعى يقول : لما قدم خراج العراق إلى عمر — رضى الله عنه — خرج عمر ومولى له ، فجعل عمر يعد الإبل فإذا هى أكثر من ذلك ، فجعل يقول : الحمد لله تعالى . ويقول مولاه : هذا والله من فضل الله ورحمته ،

Marfat.com

فقال عمر : كذبت ليس هـذا هو الذى يقول الله تعالى « قل : بفضل الله وبرحمتـه فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

هكذا كان الرعيل الأولون ينظرون إلى قيم الحياة . كانوا يعدون الفضل الأول والرحمة الأولى هى ما جاءهم من الله من موعظة وهدى . فأما المال ، وأما الثراء ، وأما النصر ذاته فهو تابع . لذلك كان النصر يأتيهم ، وكان المال ينثال عليهم ، وكان الثراء يطلبهم . . إن طريق هذه الأمة واضح . إنه فى هذا الذى يسنه لها قرآنها ، وفى سيرة الصدر الأول الذين فهموه من رجالها . . هذا هو الطريق .

إن الأرزاق المادية ، والقيم المادية ، ليست هى التى تحدد مكان الناس فى هذه الأرض . . فى الحياة الدنيا فضلا عن مكانهم فى الحياة الأخرى . . إن الأرزاق المادية ، والتيسيرات المادية، والقيم المادية، يمكن أن تصبح من أسباب شقوة البشرية ـ لا فى الآخرة المؤجلة ولـكن فى هذه الحياة الواقعة ـ كما نشهد اليوم فى حضارة المادة الـكالحة !

إنه لا بد من قيم أخرى تحكم الحياة الإنسانية ؛ وهذه القيم الأخرى هى التى يمـكن أن تعطى للأرزاق المادية والتيسيرات المادية قيمتها فى حياة الناس ؛ وهى التى يمكن أن تجعل منها مادة سعادة وراحة لبنى الإنسان .

إن المنهج الذى يحكم حياة مجموعة من البشر هو الذى يحدد قيمة الأرزاق المادية فى حياتهم . هو الذى يجعلها عنصر سعادة أو عنصر شقاء . كما يجعلها سببا للرقى الإنسانى أو مزلقا للارتـكاس !

ومن هنا كان التركيز على قيمة هذا الدين فى حياة أهله :

« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . قل : بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » . .

ومن هنا كان الذين تلقوا هذا القرآن أول مرة يدركون هذه القيمة العليا ، فيقول عمر ـ رضى الله عنه ـ عن المال والأنعام : « ليس هذا هو الذى يقول الله تعالى : « قل : بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » . .

لقد كان عمر ـ رضى الله عنـه ـ يفقه دينه . كان يعرف أن فضل الله ورحمتـه يتمثلان بالدرجة الأولى فى هذا الذى أنزله الله لهم : موعظة من ربهم ، وشفاء لما فى الصدور ، وهدى

Marfat.com

ورحمة للمؤمنين . لا فيما يجمعون من المال والإبل والأرزاق !

لقد كانوا يدركون قيمة النقلة البعيدة التى نقلها لهم هـذا الدين ، من وهدة الجاهلية التى كانوا فيها . . وإنها لنقلة بعيدة بالقياس إلى الجاهلية فى كل زمان ومكان(١) . . بمـا فيه جاهلية القرن العشرين(٢) .

إن النقلة الأساسية التى تتمثل فى هـذا الدين هى إعتاق رقاب العباد من العبودية للعباد ؛ وتحريرهم من هـذه العبودية ، وتعبيدهم لله وحده ، وإقامة حياتهم كلها على أساس هـذا الانطلاق الذى يرفع تصوراتهم ، ويرفع قيمهم ، ويرفع أخلاقهم . ويرفع حياتهم كلها من العبودية إلى الحرية . .

ثم تجىء الأرزاق المادية والتيسيرات المادية ، والتمكين المادى ، تبعا لهذا التحرر وهذا الانطلاق كما حـدث فى تاريخ العصبة المسلمة ، وهى تكتسح الجاهليات حولها ، وتهيمن على مقاليد السلطان فى الأرض ، وتقود البشرية إلى الله ، لتستمتع معها بفضل الله . .

والذين يركزون على القيم المـادية ، وعلى الإنتاج المادى ، ويغفلون تلك القيمـة الـكبرى الأسـاسية ، هم أعـداء البشرية الذين لا يريدون لهـا أن ترتفع على مستوى الحيوان وعلى مطالب الحيوان . .

وهم لا يطلقونها دعوة بريئة ؛ ولـكنهم يهدفون من ورائها إلى القضاء على القيم الإيمانية وعلى العقيدة التى تعلق قلوب الناس بما هو أرفع من مطالب الحيوان ــ دون أن تغفل ضروراتهم الأساسية ــ وتجعل لهم مطالب أساسية أخرى إلى جوار الطعام والمسكن والجنس التى يعيش فى حدودها الحيوان !

وهذا الصياح المستمر بتضخيم القيم المادية ، والإنتاج المادى ، بحيث يطغى الانشغال به على حياة الناس وتفكيرهم وتصوراتهم كلها . وبحيث يتحول الناس إلى آلات تلهث وراء هذه القيمة .

---

(١) يراجع فصل « نقلة بعيدة » فى كتاب . « معالم فى الطريق » .

(٢) يراجع كتاب : « الإسلام والجاهلية » للسيد أبى الأعلى المودودى . وكتاب : « جاهلية القرن العشرين » لمحمد قطب .

Marfat.com

وتعبدها قيمة الحياة الكبرى ؛ وتنسى فى عاصفة الصياح المستمر .. الإنتاج .. الإنتاج .. كل القيم الروحية والأخلاقية ؛ وتدوس هذه القيم كلها فى سبيل الإنتاج المادى .. هذا الصياح ليس بريئا ؛ إنما هو خطة مدبرة لإقامة أصنام تعبد بدل أصنام الجاهلية الأولى ؛ وتكون لها السيادة العليا على القيم جميعا !

وعندما يصبح الإنتاج المادى صنما يكدح الناس حوله ويطوفون به فى قداسة الأصنام ؛ فإن كل القيم والاعتبارات الأخرى تداس فى سبيله وتنتهك .. الأخلاق . الأسرة . الأعراض . الحريات . الضمانات ... كلها ... كلها إذا تعارضت مع توفير الإنتاج يجب أن تداس ! فماذا تكون الأرباب والأصنام إن لم تكن هى هذه ؟ إنه ليس من الحتم أن يكون الصنم حجرا أو خشبا . فقد يكون قيمة واعتبارا ولافتة ولقبا !

إن القيمة العليا يجب أن تبقى لفضل الله ورحمته المتمثلين فى هداه الذى يشفى الصدور، ويحرر الرقاب ، ويعلى من القيم الإنسانيـة فى الإنسان . وفى ظل هـذه القيمة العليا يمكن الانتفاع برزق الله الذى أعطاه للناس فى الأرض ؛ وبالتصنيع الذى يوفر الإنتاج المادى ؛ وبالتيسيرات المادية التى تقلل من شدة الكدح ؛ وبسائر هـذه القيم التى تدق الجاهليـة حولها الطبول فى الأرض !

وبـدون وجود تلك القيمة العليـا وسيادتها تصبح الأرزاق والتيسيرات والإنتاج لعنة يشقى بها النـاس ؛ لأنها يومئـذ تستخدم فى إعـلاء القيم الحيوانية والآلية ، على حساب القيم الإنسانية العلوية .

وصدق الله العظيم :

« ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم ، وشفاء لما فى الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين . قل : بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » ..

* * *

وفى ظل هذا الحديث عن فضل الله ورحمته ، المتمثلين فيما جاء للناس من موعظة وهدى وشفاء لما فى الصدور ، يتعرض السياق للجاهلية ، وهى تزاول حياتهـا العملية ، لاوفق ماجاء

Marfat.com

من عند الله ؛ ولكن وفق أهواء البشر ، واعتدائهم على خصائص الله سبحانه ، ومزاولتهم أمر التحليل والتحريم فيما رزقهم الله :

« قل : أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ؟ قل : آلله أذن لكم ؟ أم على الله تفترون ؟ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ؟ إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لايشكرون » .

قل : ماذا ترون فى رزق الله الذى أنزله إليكم ؟ - وكل ماجاء من عند الله فى عليائه إلى البشر فهو منزل من ذلك المقام الأعلى - ماذا ترون فى هذا الرزق الذى أعطاه لكم ، لتتصرفوا فيه وفق إذنه وشرعه ، فإذا أنتم - من عند أنفسكم ودون إذن من الله لكم - تحرمون منه أنواعا وتحلون منه أنواعا . والتحريم والتحليل تشريع . والتشريع حاكمية . والحاكمية ربوبية . وأنتم تزاولونها من عند أنفسكم :

« قل : آلله أذن لكم ؟ أم على الله تفترون ؟ » . .

إنها القضية التى يتكرر ذكرها فى القرآن الكريم ؛ وتواجه بها الجاهلية بين الحين والحين . . ذلك أنها القضية الكبرى التالية لشهادة أن لا إله إلا الله . بل إنها هى هى فى حالة التطبيق الواقعى فى الحياة .

إن الاعتراف بأن الله هو الخالق الرازق يستتبعه حتما أن يكون الله هو الرب المعبود ؛ وأن يكون هو الذى يحكم فى أمر الناس كله . . ومنه أمر هذه الأرزاق التى أعطاها الله للبشر ، وهى تشمل كل ما يرزقهم من السماء والأرض . . والجاهليون العرب كانوا يعترفون بوجود الله - سبحانه - وبأنه الخالق الرازق - كما يعترف اليوم ناس يسمون أنفسهم « المسلمين ! » . ثم كانوا مع هذا الاعتراف يزاولون التحريم والتحليل لأنفسهم فيما رزقهم الله - كما يزاول ذلك اليوم ناس يسمون أنفسهم « المسلمين ! » - وهذا القرآن يواجههم بهذا التناقض بين مايعترفون به من وجود الله ومن أنه الخالق الرازق ؛ وما يزاولونه فى حياتهم من ربوبية لغير الله تتمثل فى التشريع الذى يزاوله نفر منهم اوهو تناقض صارخ يدمغهم بالشرك ؛ كما يدمغ كل من يزاول هذا التناقض اليوم وغدا وإلى آخر الزمان . مهما اختلفت الأسماء واللافتات . فالإسلام حقيقة واقعة لا مجرد عنوان !

Marfat.com

ولقد كان الجاهليون العرب يزعمون ـ كما يزعم اليوم ناس ممن يسمون أنفسهم « المسلمين » ـ أن هـذا الذي يزاولونه من التحريم والتحليل إنما أذن لهم به الله . أو كانوا يقولون عنه : شريعة الله !

وقد ورد في سورة الأنعام ادعاؤهم أن هذا الذي يحرمونه وهذا الذي يحلونه شرعه الله .. وذلك في قوله تعالى : « وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء ـ بزعمهم ـ وأنعام حرمت ظهورها ، وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه . سيجزيهم بما كانوا يفترون » .. فهم كانوا يقولون : إن الله يشاء هذا ، ولا يشاء هذا .. افتراء على الله . كما أن ناسا اليوم يدعون أنفسهم « مسلمين » يشرعون من عند أنفسهم ثم يقولون : شريعة الله !

والله يجبههم هنا بالافتراء ، ثم يسألهم ماذا تظنون بربكم يوم القيامة وأنتم تفترون عليه :

« وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ؟ » ..

وصيغة الغائب تشمل جنس الذين يفترون على الله الكذب وتنتظمهم جميعا .. فما ظنهم يا ترى ؟ ما الذي يتصورون أن يكون في شأنهم يوم القيامة ؟ ! وهو سؤال تذوب أمامه حتى الجبلات الصلدة الجاسية !

« إن الله لذو فضل على الناس ، ولكن أكثرهم لا يشكرون » ..

والله ذو فضل على الناس برزقه هذا المادي الذي أودعه هذا الكون من أجلهم ؛ وأودع فيهم القدرة على معرفة مصادره ، والنواميس التي تحكم هذه المصادر ، وأقدرهم كذلك على التنويع في أشكاله ، والتحليل والتركيب في مادته لتنويع هـذه الأشكال .. وكله في الكون وفيهم من رزق الله ..

والله ذو فضل على الناس بعد ذلك برزقه وفضله ورحمته التي أنزلها في منهجه هـدى للناس وشفاء لما في الصدور ؛ ليهدي الناس إلى منهج الحياة السليم القويم ؛ الذي يزاولون به خير ما في إنسانيتهم من قوى وطاقات ، ومشاعر واتجاهات ؛ والذي ينسقون به بين خير الدنيا وخير الآخرة ؛ كما ينسقون به بين فطرتهم وفطرة الكون الذي يعيشون فيه ويتعاملون معه (١) .

(١) يراجع فصل « شريعة كونية » في كتاب : « معالم في الطريق » كما يراجع فصل : « منهج متفرد » من كتاب : « هذا الدين » .

Marfat.com

ولـكن أكثر الناس لا يشكرون على هذا الرزق وذاك .. فإذا هم يحيدون عن منهج الله وشرعه ؛ وإذا هم يشركون به غيره .. ثم يشقون فى النهاية بهـذا كله .. يشقون لأنهم لا ينتفعون بهذا الذى هو شفاء لما فى الصدور !

وإنه لتعبير عجيب عن حقيقة عميقة .. إن هذا القرآن شفاء لما فى الصدور بكل معنى من معانى الشفاء .. إنه يدب فى القلوب فعـلا دبيب الشفاء فى الجسم المعلول ! يدب فيها بإيقاعه ذى السلطان الخفى العجيب . ويدب فيها بتوجيهاته التى توقظ أجهزة التلقى الفطرية ، فتهتز وتتفتح وتتلقى وتستجيب . ويدب فيها بتنظيماته وتشريعاته التى تضمن أقل احتكاك ممكن بين المجموعات البشرية فى الحيـاة اليومية . ويدب فيها بإيحاءاته المطمئنة التى تسكب الطمأنينة فى القلوب إلى الله ، وإلى العدل فى الجزاء ، وإلى غلبة الخير ، وإلى حسن المصير ..

وإنها لعبارة تثير حشدا وراء حشد من المعانى والدلائل ، تعجز عنها لغة البشر ويوحى بها هذا التعبير العجيب !

* * *

لايشكرون .. والله هو المطلع على السرائر ، المحيط بكل مضمر وظاهر ، الذى لايغيب عن علمه ولا يبعد عن متناوله مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .. هـذه هى اللمسة الجديدة للمشاعر والضمائر فى السياق ، ليخرج منها إلى طمأنة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه بأنهم فى رعايته وولايته ، لايضرهم المكذبون ، الذين يتخذون مع الله شركاء وهم واهمون :

« وما تـكون فى شأن ، وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل ، إلا كنا عليـكم شهودا إذ تفيضون فيه ؛ وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين . ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لـكلمات الله ، ذلك هو الفوز العظيم . ولايحزنك قولهم ، إن العزة لله جميعا ، هو السميع العليم ، ألا إن لله من فى السموات ومن فى الأرض ، ومايتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ، إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون . هو الذى جعل لـكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » .

Marfat.com

إن الشعور بالله على النحو الذى تصوره الآية الأولى من هذا السياق :

« وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه[1] ... » شعور مطمئن ومخيف معا ، مؤنس ومرهب معا . . وكيف بهذا المخلوق البشرى وهو مشغول بشأن من شؤونه يحس أن الله معه ، شاهد أمره وحاضر شأنه . الله بكل عظمته ، وبكل هيبته ، وبكل جبروته ، وبكل قوته . الله خالق هذا الكون وهو عليه هين . ومدبر هذا الكون ما جل منه وما هان . . الله مع هذا المخلوق البشرى . الذرة التائهة فى الفضاء لولا عناية الله تمسك بها وترعاها ! إنه شعور رهيب . ولكنه كذلك شعور مؤنس مطمئن . إن هذه الذرة التائهة ليست متروكة بلا رعاية ولا معونة ولا ولاية . .

إن الله معها :

« وما تكون فى شأن ، وماتتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه » . .

إنه ليس شمول العلم وحده ، ولكن شمول الرعاية ، ثم شمول الرقابة . .

« وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » . .

ويسبح الخيال مع الذرات السابحة فى الأرض أو فى السماء ـ ومعها علم الله ـ ومع ما هو أصغر من الذرة وأكبر محصورا فى علم الله . . ويرتعش الوجدان إشفاقا ورهبة ، ويخشع القلب إجلالا وتقوى ، حتى يطامن الإيمان من الروعة والرهبة ؛ ويهدهد القلب الواجف بأنس القرب من الله .

وفى ظل هذا الأنس ، وفى طمأنينة هذا القرب . . يأتى الإعلان الجاهر :

« ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . لا تبديل لكلمات الله . ذلك هو الفوز العظيم » . .

وكيف يخاف أولياء الله أو يحزنون والله معهم هكذا فى كل شأن وفى كل عمل وفى كل حركة أو سكون ؟ وهم أولياء الله ، المؤمنون به الأتقياء الراقبون له فى السر والعلن :

(١) تفيضون فيه مشغولين به مسرعين فيه .

Marfat.com

« الذين آمنوا وكانوا يتقون » . .

كيف يخافون وكيف يحزنون ، وهم على اتصال بالله لأنهم أولياؤه ؟ وعلام يحزنون وهم يخافون ، والبشرى لهم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ؟ إنه الوعد الحق الذى لايتبدل ــ لا تبديل لكلمات الله ــ :

« ذلك هو الفوز العظيم » . .

إن أولياء الله الذين يتحدث عنهم السياق هم المؤمنون حق الإيمان المتقون حق التقوى . والإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل . والعمل هو تنفيذ ما أمر الله به واجتناب مانهى الله عنه .. هكذا يجب أن نفهم معنى الولاية لله . لا كما يفهمه العوام ، من أنهم المهبولون المخبولون الذين يدعونهم بالأولياء !

وفى ظل هذه الرعاية والحماية لأولياء الله يخاطب النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو أولى الأولياء ، بما يطمئنه تجاه المكذبين والمفترين ، وكانوا فى ذلك الوقت هم أصحاب القوة والجاه :

« ولا يحزنك قولهم . إن العزة لله جميعا . هو السميع العليم » . .

ويفرد الله بالعزة هنا ، ولا يضيفها إلى الرسول والمؤمنين ــ كما فى الموضع الآخر ــ لأن السياق سياق حماية الله لأوليائه . فيفرده بالعزة جميعا ــ وهى أصلا لله وحده ، والرسول والمؤمنون يستمدونها منه ــ ليجردمنها الناس جميعا، ومشركو قريش العتاة داخلون فى الناس. أما الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ فهو فى الحماية الإلهية التى أضفاها على أوليائه . فلا يحزن لما يقولون . والله معه وهو السميع العليم . الذى يسمع قولهم ويعلم كيدهم ويحمى أولياءه مما يقال ومما يكاد . وفى ملك يده كل من فى السماوات وكل من فى الأرض من إنس وجن وملائكة ، ومن عصاة وتقاة ، فكل ذى قوة من خلقه داخل فى سلطانه وملكه :

« ألا إن لله من فى السماوات ومن فى الأرض » .

وهذه حكمة ذكر « من » هنا لا « ما » لأن المقصود إثبات أن الأقوياء كالضعفاء كلهم فى ملك يده سواء . فالسياق جار فيها مجراه .

« وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء » . .

Marfat.com

فهؤلاء الشركاء الموهومون ليسوا فى حقيقتهم شركاء لله فى شيء؛ وعبادهم ليسوا على يقين مما يزعمون لهم من شركة:

« إن يتبعون إلا الظن . وإن هم إلا يخرصون[1] » . .

ثم لفتة إلى بعض مجالى القدرة فى المشاهد الكونية التى يغفل عنها الناس بالتكرار:

« هو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا . إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » . .

والمالك للحركة وللسكون ، الذى يجعل الليل ليسكن فيه الناس ، ويجعل النهار مبصرا يقود الناس فيتحركون ! ويبصرهم فيبصرون . . ممسك بمقاليد الحركة والسكون ، قادر على الناس ، قادر على حماية أوليائه من الناس . ورسوله - صلى الله عليه وسلم - فى مقدمة أوليائه ومن معه من المؤمنين . . .

« إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » .

يسمعون فيتدبرون ما يسمعون .

والمنهج القرآنى يستخدم المشاهد الكونية كثيرا فى معرض الحديث عن قضية الألوهية والعبودية . ذلك أن هذا الكون بوجوده وبمشاهده شاهد ناطق للفطرة لا تملك لمنطقه ردا . كذلك يخاطب الناس بما فى علاقتهم بهذا الكون من تناسق . وهم يجدون هذا فى حياتهم فعلا .

فهذا الليل الذى يسكنون فيه ، وهذا النهار الذى يبصرون به ، هما ظاهرتان كونيتان شديدتا الاتصال بحياتهم . وتناسق هذه الظواهر الكونية مع حياة الناس يحسونه هم - ولو لم يتعمقوا فى البحث و « العلم » . ذلك أن فطرتهم الداخلية تفهم عن هذا الكون لغته الخفية !

وهكذا لم يكن البشر فى عماية عن لغة الكون حتى جاءتهم « العلوم الحديثة » ! لقد كانوا يفهمون هذه اللغة بكينونتهم كلها . ومن ثم خاطبهم بها العليم الخبير منذ تلك القرون . وهى لغة متجددة بتجدد المعرفة ، وكلما ارتقى الناس فى المعرفة كانوا أقدر على فهمها ، متى تفتحت قلوبهم بالإيمان ونظرت بنور الله فى هذه الآفاق !

---

(١) يخرصون : يحدسون ويخمنون ، ظنا بلا علم ولا يقين .

Marfat.com

* * *

والافتراء على الله بالشركاء يكون بنسبة ولد لله ـ سبحانه ـ وقد كان مشركو العرب يزعمون أن الملائكة بنات الله .

وختام هذا الدرس جولة مع هذا النوع من الشرك والافتراء تبدأ بالحجة فى الدنيا وتنتهى بالعذاب فى الآخرة على طريقة القرآن :

« قالوا : اتخذ الله ولدا ، سبحانه هو الغنى ، له مافى السماوات وما فى الأرض ، إن عندكم من سلطان بهذا ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ قل : إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » ..

وعقيدة أن لله ـ سبحانه ـ ولدا ، عقيدة ساذجة ، منشؤها قصور فى التصور ، يعجز عن إدراك الفارق الهائل بين الطبيعة الإلهية الأزلية الباقية ، والطبيعة البشرية المخلوقة الفانية ؛ والقصور كذلك عن إدراك حكمة السنة التى جرت بتوالد أبناء الفناء ، وهو الحكمة الطبيعية لما فيهم من نقص وقصور لا يكونان لله .

فالبشر يموتون ، والحياة باقية إلى أجل معلوم ، فإلى أن ينقضى هذا الأجل فحكمة الخالق تقتضى امتداد البشر ، والولد وسيلة لهذا الامتداد .

والبشر يهرمون ويشيخون فيضعفون . والولد تعويض عن القوة الشائخة بقوة فتية ، تؤدى دورها فى عمارة الأرض ـ كما شاء الله ـ وتعين الضعفاء والشيوخ على بقية الحياة .

والبشر يكافحون فيما يحيط بهم ، ويكافحون أعداءهم من الحيوان والناس . فهم فى حاجة إلى التساند ، والولد أقرب من يكون إلى العون فى هذه الأحوال .

والبشر يستكثرون من المال الذى يجلبونه لأنفسهم بالجهد الذى يبذلونه ، والولد يعين على الجهد الذى يجلب المال ...

وهكذا إلى سائر ما اقتضته حكمة الخالق لعمارة هذه الأرض ، حتى ينقضى الأجل ، ويقضى الله أمرا كان مفعولا .

وليس شىء من ذلك كله متعلقا بالذات الإلهية ، فلا الحاجة إلى الامتداد ، ولا الحاجة

Marfat.com

إلى العون عند الشيخوخة، ولا الحاجة إلى النصير ، ولا الحاجة إلى المال . ولا الحاجة إلى شيء مما يخطر أو لا يخطر على البال متعلقة بذات الله تعالى . .

ومن ثم تنتفى حكمة الولد ، لأن الطبيعة الإلهية لا يتعلق بها غرض خارج عن ذاتها ، يتحقق بالولد . وما قضت حكمة الله أن يتوالد البشر إلا لأن طبيعتهم قاصرة تحتاج إلى هذا النوع من التكملة . فهى تقتضى الولد اقتضاء . وليست المسألة جزافا .

ومن ثم كان الرد على فرية : « قالوا اتخذ الله ولدا » . . هو :

« سبحانه ! هو الغنى له ما فى السماوات وما فى الأرض » .

« سبحانه ! . . » تنزيها لذاته العلية عن مستوى هذا الظن أو الفهم أو التصور . « هو الغنى » . . بكل معانى الغنى ، عن الحاجات التى أسلفنا وعن سواها مما يخطر ومما لا يخطر على البال . مما يقتضى وجود الولد . والمقتضيات هى التى تسمح بوجود المقتضيات ، فلا يوجد شيء عبثا بلا حاجة ولا حكمة ولا غاية . « له ما فى السماوات وما فى الأرض » . فكل شيء ملكه ، ولا حاجة به ـ سبحانه ـ لأن يملك شيئا بمساعدة الولد . فالولد إذن عبث . تعالى الله سبحانه عن العبث !

ولا يدخل القرآن الكريم فى جدل نظرى حول الطبيعة الإلهية والطبيعة الناسوتية ، كما جد عند المتكلمين ، وفى الفلسفات الأخرى . لأنه يلمس الموضوعات فى واقعها القريب إلى الفطرة . ويتعامل مع الموضوع ذاته لا مع فروض جدلية قد تترك الموضوع الحاضر نهائيا وتصبح غرضا فى ذاتها !

فيكتفى هنا بهذه اللمسة التى تمس واقعهم ، وحاجتهم إلى الولد ، وتصورهم لهذه الحاجة ، وانتفاء وجودها بالقياس إلى الله الغنى الذى يملك ما فى السماوات وما فى الأرض ، ليبلغ من نفوسهم موضع الاقتناع أو موضع الإفحام ، بلا جدل نظرى يضعف أثر اللمسة النفسية التى تستجيب لها الفطرة فى يسر وهوادة .

ثم يجبههم بالواقع ، وهو أنهم لا يملكون برهانا على ما يدعون . ويسمى البرهان سلطانا ، لأن البرهان قوة ، وصاحب البرهان قوى ذو سلطان :

« إن عندكم من سلطان بهذا » .

Marfat.com

ماعندكم من حجة ولا برهان على ماتقولون .

« أتقولون على الله مالا تعلمون ؟ » ..

وقول الإنسان مالا يعلم منقصة لاتليق . فكيف إذا كان هـذا القول بلا علم على الله - سبحانه ! - إنه جريمة إذن أكبر من كل جريمة . فهو أولا ينافى مايستحقه الله من عباده من تنزيه وتعظيم ، لأنه وصف له بمقتضيات الحدوث والعجز والنقص والقصور . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ولأنه ضلال فى تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق ، ينشأ عنه ضلال فى تصور كل علاقات الحياة والناس والمعاملات . فكلها فرع من تصور هـذه العلاقة . وكل مابتدعه الكهنة لأنفسهم فى الوثنيات من سلطان؛ وكل ما ابتدعته الكنيسة لها من سلطان، إنما نشأ عن تصور العلاقة بين الله تعالى وبناته الملائكة ! أو بين الله تعالى وعيسى ابن مريم من صلة الأبوة والبنوة ، وحكاية الخطيئة ، ومنها نشأت مسألة الاعتراف ، ومسألة قيام كنيسة المسيح بتوصيل الناس بأبى المسيح (بزعمهم) .. إلى نهاية السلسلة التى متى بدأت الحلقة الأولى فيها بفساد تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق فسدت الحلقات التالية كلها فى كل ضروب الحياة .

فليست المسألة مجرد فساد فى التصور الاعتقادى ، ولكنه مسألة الحياة برمتها . وكل ماوقع بين الكنيسة وبين العلم والعقل من عداء ، انتهى إلى تخلص المجتمع من سلطان الكنيسة بتخلصه من سلطان الدين نفسه ! إنما نشأ من هذه الحلقة . حلقة فساد تصور العلاقة بين الله وخلقه . وجر فى ذيوله شرا كثيرا تعانى البشرية كلها ويلاته فى التيارات المادية وما وراءها من بلايا وأرزاء .

ومن ثم كان حرص العقيدة الإسلامية على تجلية هـذه العلاقة تجلية كاملة لا لبس فيها ولا إيهام .. الله خالق أزلى باق ، لا يحتاج إلى الولد . والعلاقة بينه وبين الناس جميعا هى علاقة الخالق بخلقه دون استثناء . والكون والحياة والأحياء سنن ماضية لاتتخلف ولا تحابى . فمن اتبع هذه السنن أفلح وفاز ، ومن حاد عنها ضل وخسر .. الناس فى هـذا كلهم سواء . وكلهم مرجعهم إلى الله . وليس هنالك من شفعاء ولا شركاء . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا . ولكل نفس ما عملت . ولا يظلم ربك أحدا .

Marfat.com

عقيدة بسيطة واضحة ، لاتدع مجالا لتأويل فاسد ، ولا تنحنى أو تنحرف بالقلب فى دروب ومنحنيات ، ولا فى سحب وضباب !

ومن ثم يقف الجميع سواء أمام الله وكلهم مخاطب بالشريعة ، وكلهم مكلف بها ، وكلهم حفيظ عليها . وبذلك تستقيم العلاقات بين الناس بعضهم وبعض ، نتيجة استقامة العلاقة بينهم وبين الله .

« قل : إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون » . .

لا يفلحون أى فلاح . لا يفلحون فى شعب ولا طريق . لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الأخرى . والفلاح الحقيقى هو الذى ينشأ من مسايرة سنن الله الصحيحة ، المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع ، وتنمية الحياة ، ودفعها إلى الإمام . وليس هو مجرد الإنتاج المادى مع تحطم القيم الإنسانية ، ومع انتكاس البشر إلى مدارج الحيوانية . فذلك فلاح ظاهرى موقوت ، منحرف عن خط الرقى الذى يصل بالبشرية إلى أقصى ما تطيقه طبيعتها من الا كتمال .

« متاع فى الدنيا . ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » . .

مجرد متاع واط . وهو متاع قصير الأمد . وهو متاع مقطوع لأنه لايتصل بالمتاع اللائق بالبشرية فى الدار الآخرة . إنما يعقبه « العذاب الشديد » ثمرة للانحراف عن سنن الله الكونية المؤدية إلى المتاع العالى اللائق ببنى الإنسان .

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ : يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ، ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ ، وَلَا تُنظِرُونِ * فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ *

Marfat.com

فَكَذَّبُوهُ ، فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ، وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ ، وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ، فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ .

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ ، فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ، فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ، كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ .

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا ، فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ * فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ : إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ * قَالَ مُوسَىٰٓ : أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا ؟ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ * قَالُوٓاْ : أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا ، وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ ؟ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ .

« وَقَالَ فِرْعَوْنُ : ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ * فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ * فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ : مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ، إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ * وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ ، وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ .

« فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ ، وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ : يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ * فَقَالُواْ : عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ * وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ * وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً ، وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ، وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

Marfat.com

« وَقَالَ مُوسَىٰ : رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ، رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ ، وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ، فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ * قَالَ : قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا ، وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ .

« وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ ، فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ، حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ : ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ ، وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ * ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ؟ * فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ .

« وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ، وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ؛ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

« فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ * وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ .

« إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ * فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ ، إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ، وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ * وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ، أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ

Marfat.com

يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ؟ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ .

« قُلِ : انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِي الْآيَٰتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ * فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ ؟ قُلْ : فَانتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ * ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ ، كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ » .

سبقت الإشارة فى هذه السورة إلى القرون الخالية ، وما كان من عاقبة تكذيبهم لرسلهم ، واستخلاف من بعدهم لاختبارهم : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات ، وما كانوا ليؤمنوا ، كذلك نجزى القوم المجرمين ، ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون » ..

كما سبقت الإشارة بأن لكل أمة رسولا فإذا جاءهم رسولهم قضى بينهم بالقسط : « ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون »

فالآن يأخذ السياق فى جولة تفصيلية لهاتين الإشارتين ، فيسوق طرفا من قصة نوح مع قومه ، وطرفا من قصة موسى مع فرعون وملئه ، تتحقق فيها عاقبة التكذيب ، والقضاء فى أمر الأمة بعد مجىء رسولها ، وإبلاغها رسالته ، وتحذيرها عاقبة المخالفة .

كذلك تجىء إشارة عابرة لقصة يونس الذى آمنت قريته بعد أن كاد يحل بها العذاب ، فرفع عنها ونجت منه بالإيمان . . وهى لمسة من ناحية أخرى تزين الإيمان للمكذبين ، لعلهم يتقون العذاب الذى ينذرون . ولا تكون عاقبتهم كعاقبة قوم نوح وقوم موسى المهلكين .

وقد انتهى الدرس الماضى بتكليف الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ أن يعلن عاقبة الذين يفترون على الله الكذب وينسبون إليه شركاء : « قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع فى الدنيا ، ثم إلينا مرجعهم ، ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون » .

Marfat.com

وذلك بعد تطمين الرسول : « ولا يحزنك قولهم . إن العزة لله جميعا » وبأن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون .

واستمر السياق بتكليف جديد : أن يقص عليهم - صلى الله عليه وسلم - نبأ نوح فيما يختص بتحديه لقومه ثم ما كان من نجاته ومن آمنوا معه واستخلافهم في الأرض ، وهلاك المكذبين وهم أقوى وأكثر عددا .

والمناسبة ظاهرة لإيراد هذا القصص بالنسبة لسياق السورة ، وبالنسبة لهذه المعانى القريبة قبلها . والقصص فى القرآن يجيء فى السياق ليؤدى وظيفة فيه ؛ ويتكرر فى المواضع المختلفة بأساليب تتفق مع مواضعه من السياق ، والحلقات التى تعرض منه فى موضع تفى بحاجة ذلك الموضع ، وقد يعرض غيرها من القصة الواحدة فى موضع آخر ، لأن هذا الموضع تناسبه حلقة أخرى من القصة . وسنرى فيما يعرض من قصص نوح وموسى ويونس هنا وفى طريقة العرض مناسبة ذلك لموقف المشركين فى مكة من النبى - صلى الله عليه وسلم - والقلة المؤمنة معه ، واعتزاز هذه القلة المؤمنة بإيمانها فى وجه الكثرة والقوة والسلطان . كما سنجد المناسبة بين القصص والتعقيبات التى تتخلله وتتلوه(١) .

* * *

« واتل عليهم نبأ نوح ، إذ قال لقومه : ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت ، فأجمعوا أمركم وشركاءكم ، ثم لايكن أمركم عليكم غمة ، ثم اقضوا إلى ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر ، إن أجرى إلا على الله ، وأمرت أن أكون من المسلمين . فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك ، وجعلناهم خلائف ، وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ، فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » ..

إن الحلقة التى تعرض هنا من قصة نوح ، هى الحلقة الأخيرة : حلقة التحدى الأخير ، بعد الإنذار الطويل والتذكير الطويل والتكذيب الطويل . ولا يذكر فى هذه الحلقة موضوع السفينة ولا من ركب فيها ولا الطوفان ، ولا التفصيلات فى تلك الحلقة ، لأن الهدف هو إبراز

(١) يراجع فصل : « القصة فى القرآن » فى كتاب « التصوير الفنى فى القرآن » لدراسة هذه القاعدة بالتفصيل .

Marfat.com

التحدى والاستعانة بالله وحده ، ونجاة الرسول ومن معه وهم قلة ، وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة . لذلك يختصر السياق هنا تفصيلات القصة إلى حلقة واحدة . ويختصر تفصيلات الحلقة الواحدة إلى نتائجها الأخيرة ، لأن هذا هو مقتضى السياق فى هذا الموضع .

« واتل عليهم نبأ نوح ، إذ قال لقومه : ياقوم إن كان كبر عليكم مقامى وتذكيرى بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم . ثم لا يكن أمركم عليكم غمة . ثم اقضوا إلى ولا تنظرون » . .

إن كان الأمر قد بلغ منكم مبلغ الضيق ، فلم تعودوا تتحملون بقائى فيكم ودعوتى لكم ؛ وتذكيرى لكم بآيات الله . فأنتم وما تريدون . وأنا ماض فى طريقى لاأعتمد إلا على الله :

« فعلى الله توكلت » . .

عليه وحده فهو حسبي دون النصراء والأولياء .

« فأجمعوا أمركم وشركاءكم » . .

وتدبروا مصادر أمركم وموارده ، وخذوا أهبتكم متضامنين :

« ولا يكن أمركم عليكم غمة » . .

بل ليكن للموقف واضحا فى نفوسكم ، وما تعتزمونه مقررا لا لبس فيه ولا غموض ، ولا تردد فيه ولا رجعة .

« ثم اقضوا إلى » . .

فنفذوا ما اعتزمتم بشأنى وما دبرتم ، بعد الروية ووزن الأمور كلها والتصميم الذى لاتردد فيه . .

« ولا تنظرون » . .

ولا تمهلونى للأهبة والاستعداد ، فكل استعدادى ، هواعتمادى على الله وحده دون سواه .

إنه التحدى الصريح المثير ، الذى لايقوله القائل إلا وهو مالىء يديه من قوته ، واثق كل الوثوق من عدته ، حتى ليغرى خصومه بنفسه ، ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه !

فماذا كان وراء نوح من القوة والعدة ؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعا ؟

Marfat.com

كان معه الإيمان . . القوة التي تتصاغر أمامها القوى ، وتتضاءل أمامها الكثرة ، ويعجز أمامها التدبير . وكان وراءه الله الذي لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان !

إنه الإيمان بالله وحده ذلك الذي يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه . فليس هذا التحدي غرورا ، وليس كذلك تهورا ، وليس انتحارا . إنما هو تحدي القوة الحقيقية الكبرى للقوى المهزيلة الفانية التي تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان .

وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة في رسل الله . . وإنه لينبغي لهم أن تمتلئ قلوبهم بالثقة حتى تفيض . وإن لهم أن يتوكلوا على الله وحده في وجه الطاغوت أيا كان !

ولن يضرهم الطاغوت إلا أذى - ابتلاء من الله لا عجزا منه سبحانه عن نصرة أوليائه ، ولا تركا لهم ليسلمهم إلى أعدائه . ولكنه الابتلاء الذي يمحص القلوب والصفوف . ثم تعود الكرة للمؤمنين . ويحق وعد الله لهم بالنصر والتمكين .

والله سبحانه يقص قصة عبده نوح وهو يتحدى قوى الطاغوت في زمانه هذا التحدي الواضح الصريح . فلنمض مع القصة لنرى نهايتها عن قريب !

« فإن توليتم فما سألتكم من أجر . إن أجري إلا على الله . وأمرت أن أكون من المسلمين » . .

فإن أعرضتم عني وابتعدتم ، فأنتم وشأنكم ، فما كنت أسألكم أجرا على الهداية ، فينقص أجري بتوليكم :

« إن أجري إلا على الله » . .

ولن يزحزحني هذا عن عقيدتي ، فقد أمرت أن أسلم نفسي كلها لله :

« وأمرت أن أكون من المسلمين » . .

وأنا عندما أمرت به . . من المسلمين . .

فماذا كان ؟

« فكذبوه . فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف . وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا » . .

Marfat.com

هكذا باختصار . نجاته هو ومن معه فى الفلك ـ وهم المؤمنون . واستخلافهم فى الأرض على قلتهم . وإغراق المكذبين على قوتهم وكثرتهم :

« فانظر كيف كان عاقبة المكذبين » . .

لينظر من ينظر « عاقبة المكذبين » وليتعظ من يتعظ بعاقبة المؤمنين الناجين .

ويسجل السياق بإعلان نجاة نوح ومن معه ، لأن نوحا والقلة المؤمنة كانوا يواجهون خطر التحدى للكثرة الكافرة . فلم تكن النتيجة مجرد هلاك هذه الكثرة ، بل كان قبلها نجاة القلة من جميع الأخطار ؛ واستخلافها فى الأرض ، تعيد تعميرها وتجديد الحياة فيها ، وتأدية الدور الرئيسى فترة من الزمان .

هذه سنة الله فى الأرض . وهذا وعده لأوليائه فيها .. فإذا طال الطريق على العصبة المؤمنة مرة ، فيجب أن تعلم أن هذا هو الطريق ، وأن تستيقن أن العاقبة والاستخلاف للمؤمنين ، وألا تستعجل وعد الله حتى يجيء وهى ماضية فى الطريق . . والله لا يخدع أولياءه ـ سبحانه ـ ولا يعجز عن نصرهم بقوته ، ولا يسلمهم كذلك لأعدائه .. ولكنه يعلمهم ويدربهم ويزودهم ـ فى الابتلاء ـ بزاد الطريق(١)..

* * *

وفى اختصار وإجمال يشير السياق إلى الرسل بعد نوح ، وما جاءوا به من البينات والخوارق وكيف تلقاها المكذبون الضالون :

« ثم بعثنا من بعده رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ، فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ، كذلك نطبع على قلوب المعتدين » ..

فهؤلاء الرسل جاءوا قومهم بالبينات . والنص يقول : إنهم ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل . . وهذا يحتمل أنهم بعد مجيء الآيات ظلوا يكذبون كما كانوا قبلها يكذبون . فلم تحولهم الآيات عند عنادهم . كما يحتمل أن المكذبين جماعة واحدة على اختلاف أجيالهم ، لأنهم ذوو طبيعة واحدة . فهؤلاء ما كان يمكن أن يؤمنوا بما كذب به أسلافهم ، أو بما كذبوا هم به فى أشخاص هؤلاء الأسلاف ! فهم منهم ، طبيعتهم واحدة ، وموقفهم تجاه البينات واحد .

(١) يراجع فصل : « هذا هو الطريق » فى كتاب : « معالم فى الطريق » .

Marfat.com

لايفتحون لها قلوبهم ، ولا يتدبرونهـا بعقولهم . وهم معتـدون متجاوزون حـد الاعتدال والاستقامـة على طريق الهدى ، ذلك أنهم يعطلون مداركهم التي أعطاهـا الله لهم ليتدبروا بها ويتبينوا . وبمثل هذا التعطيل ، تغلق قلوبهم وتوصد منافذها :

« كذلك نطبع على قلوب المعتدين » ..

حسب سنة الله القديمة فى أن القلب الذى يغلقه صاحبه ينطبع على هذا ويجمد ويتحجر ، فلا يعود صالحا للتلقى والاستقبال .. لاأن الله يغلق هذه القلوب ليمنعها ابتداء من الاهتداء . فإنما هى السنة تتحقق مقتضياتها فى جميع الأحوال .

* * *

فأما قصـة موسى فيبدؤها السياق هنا من مرحلة التـكذيب والتحدى ، وينهيها عند غرق فرعون وجنوده ، على نطاق أوسع مما فى قصة نوح ، ملما بالمواقف ذات الشبه بموقف المشركين فى مكة من الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وموقف القلة المؤمنة التى معه .

وهذه الحلقة المعروضة هنامن قصة موسى ، مقسمة إلى خمسة مواقف ، يليهاتعقيب يتضمن العبرة من عرضها فى هذه السورة على النحو الذى عرضت به . . وهذه المواقف الخمسة تتتابع فى السياق على هذا النحو :

« ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا ، فاستـكبروا وكانوا قوما مجرمين . فلمـا جاءهم الحق من عندنا قالوا : إن هـذا لسحر مبين . قال موسى : أتقولون للحق لما جاءكم ،أسحر هذا ؟ ولا يفلح الساحرون . قالوا: أجئتنا لتلفتنا عماوجدنا عليهآباءنا ، وتـكون لـكما الـكبرياء فى الأرض ؟ وما نحن لـكما بمؤمنين » ..

والآيات التى بعث بهـا موسى إلى فرعون وملئه هى الآيات التسع المذكورة فى سورة الأعراف . ولـكنها لاتذكر هنا ولا تفصل لأن السياق لايقتضيها ، والإجمال فى هـذا الوضع يغنى . والمهم هو تلقى فرعون وملئه لآيات الله :

« فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » .

« فلما جاءهم الحق من عندنا » ..

Marfat.com

بهـذا التحديد . . « من عندنا » . . ليصور شناعة الجريمة فيما قالوه عن هـذا الحق الصادر من عند الله :

« قالوا : إن هذا لسحر مبين » . .

بهـذا التوكيد المتبجح الذى لايستند مع هـذا إلى دليل . . « إن هذا لسحر مبين » . . كأنها جملة واحدة يتعارف عليها المكذبون فى جميع العصور ! فهكذا قال مشركو قريش ، كما حكى عنهم فى مطلع السورة ، على تباعد الزمان والمكان ، وعلى بعـد مابين معجزات موسى ومعجزة القرآن !

« قال موسى : أتقولون للحق لما جاءكم . أسحر هذا ؟ ولا يفلح الساحرون » . .

وقد حذف من استنكار موسى الأول مادل عليه الثانى . فكأنه قال لهم : أتقولون للحق لما جاءكم : هذا سحر ؟ أسحر هذا ؟ وفى السؤال الأول استنكار لوصف الحق بالسحر ، وفى السؤال الثانى تعجيب من أن يقول أحد عن هـذا إنه سحر . فالسحر لا يستهدف هداية الناس ، ولا يتضمن عقيدة ، وليس له فكرة معينة عن الألوهية وعلاقة الخلق بالخالق ؛ ولا يتضمن منهاجا تنظيميا للحياة . فما يختلط السحر بهذا ولا يلتبس . وما كان الساحرون ليؤدوا عملا يستهدف مثل هذه الأغراض ، ويحقق مثل هذا الاتجاه ؛ وما كانوا ليفلحوا وكل عملهم تخييل وتزييف .

وهنا يكشف الملأ عن حقيقة الدوافع التى تصدهم عن التسليم بآيات الله :

« قالوا : أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا ، وتكون لكما الكبرياء فى الأرض ؟ وما نحن لكما بمؤمنين » . .

وإذن فهو الخوف من تحطيم معتقداتهم الموروثة ، التى يقوم عليها نظامهم السياسى والاقتصادى . وهو الخوف على السلطان فى الأرض ، هـذا السلطان الذى يستمدونه من خرافات عقائدهم الموروثة . .

إنها العلة القديمة الجديدة ، التى تدفع بالطغاة إلى مقاومة الدعوات ، وانتحال شتى المعاذير ، ورمى الدعاة بأشنع التهم ، والفجور فى مقاومة الدعوات والدعاة . . إنما هى « الكبرياء فى

Marfat.com

الأرض » وما تقوم عليـه من معتقدات باطـلة يحرص المتجبرون على بقائها متحجرة فى قلوب الجماهير ، بكل مافيها من زيف ، وبكل مافيها من فساد ، وبكل مافيها من أوهام وخرافات . لأن تفتح القلوب للعقيدة الصحيحة ، واستنارة العقول بالنور الجديد، خطر على القيم الموروثة ، وخطر على مكانة الطغاة ورهبتهم فى قلوب الجماهير ، وخطر على القواعد التى تقوم عليها هـذه الرهبـة وتستند . إنها الخوف على السلطان القائم على الأوهام والأصنام ! وعلى تعبيد النـاس لأرباب من دون الله . . ودعوة الإسلام ــ على أيدى الرسل جميعا ــ إنما تستهدف تقرير ربوبية الله وحده للعالمين ؛ وتنحية الأرباب الزائفة التى تغتصب حقوق الألوهية وخصائصها ، وتزاولها فى حياة الناس . وما كانت هذه الأرباب المستخفة الجماهير لتدع كلمة الحق والهـدى تصل إلى هذه الجمـاهير . ما كانت لتدع الإعلان العام الذى يحمله الإسـلام بربوبية الله وحده للعالمين وتحرير رقاب البشر من العبودية للعباد . . ما كانت لتدع هذا الإعلان العام يصل إلى الجماهير ؟ وهى تعلم أنه إعلان بالثورة على ربوبيتهم ، والانقلاب على سلطانهم ، والانقضاض على ملـكهم ، والانطلاق إلى فضاء الحرية الـكريمة اللائقة بالإنسان !

إنها هى هى العـلة القديمة الجديدة كلما قام من يدعو إلى الله رب العالمين !

وما كان رجال من أذكياء قريش مثلا ليخطئوا إدراك ما فى رسالة محمد ــ صلى الله عليـه وسلم ــ من صدق وسمو ، وما فى عقيدة الشرك من تهافت وفساد . ولـكنهم كانوا يخشون على مكانتهم الموروثة ، القائمة على مافى تلك العقيدة من خرافات وتقاليد . كما خشى الملأ من قوم فرعون على سلطانهم فى الأرض ، فقالوا متبجحين :

« وما نحن لك بمؤمنين » !

* * *

وتعلق فرعون وملؤه بحكاية السحر ، وأرادوا ــ فى أغلب الظن ــ أن يغرقوا الجماهير بها ، بأن يعقدوا حلقة للسحرة يتحدون بهـا موسى وما معه من آيات تشبه السحر فى ظاهرها ، ليخرجوا منها فى النهاية بأن موسى ليس إلا ساحرا ماهرا . وبذلك ينتهى الخطر الذى يخشونه على معتقداتهم الموروثة ، وعلى سلطانهم فى الأرض ، وهو الأساس . . ونرجح أن هذه كانت

Marfat.com

الدوافع الحقيقية لمهرجان السحرة ، بعد ما أفصح القوم عن شعورهم بالخطر الحقيقى الذى يتوقعونه :

« وقال فرعون : ائتونى بكل ساحر عليم . فلما جاء السحرة قال لهم موسى : ألقوا ما أنتم ملقون . فلما ألقوا قال موسى : ماجئتم به السحر ، إن الله سيبطله ، إن الله لا يصلح عمل المفسدين ، ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون » . .

ونلاحظ هنا اختصارا فى موقف المباراة ، لأن نهايته هى المقصودة . وفى قولة موسى :

« ماجئتم به السحر » . .

رد على تهمة السحر التى وجهت إليه . فالسحر هو هذا الذى يصنعه هؤلاء ، لأنه ليس أكثر من تخييل وسحر للأنظار لاهدف له إلا العبث بالعقول ، لاتصحبه دعوة ، ولا تقوم عليه حركة . فهذا هو السحر لا آيات الله التى جاءهم بها حقا من عند الله . . وفى قوله :

« إن الله سيبطله » . .

تتجلى ثقة المؤمن الواثق بربه ، المطمئن إلى أن ربه لا يرضى أن ينجح السحر وهو عمل غير صالح :

« إن الله لا يصلح عمل المفسدين » . .

الذين يضلون الناس بالسحر ، أو الملأ الذين جاءوا بالسحرة بنية الفساد والإبقاء على الضلال :

« ويحق الله الحق بكلماته » . .

كلماته التكوينية « كن فيكون » . .

وهى تعبير عن توجه المشيئة . أو كلماته التى هى آياته وبيناته :

« ولو كره المجرمون » . .

فإن كراهتهم لا تعطل مشيئة الله ، ولا تقف دون آياته .

وقد كان . . وبطل السحر وعلا الحق . . ولكن السياق يختصر المشاهد هنا ؛ لأنها ليست مقصودة فى هذا المجال .

* * *

Marfat.com

ويسدل الستار هنا ليرفع على موسى ومن آمن معه وهم قليل من شباب القوم لا من شيوخهم ! . وهذا إحدى عبر القصة المقصودة .

« فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ، على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم . وإن فرعون لعال فى الأرض . وإنه لمن المسرفين . وقال موسى : ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . فقالوا: على الله توكلنا، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ، ونجنا برحمتك من القوم الكافرين . وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين » . .

ويفيد هذا النص أن الذين أظهروا إيمانهم وانضمامهم لموسى من بنى إسرائيل كانوا هم الفتيان الصغار ، لا مجموعة الشعب الإسرائيلى . وأن هؤلاء الفتيان كان يخشى من فتنتهم وردهم عن اتباع موسى ، خوفا من فرعون وتأثير كبار قومهم ذوى المصالح عند أصحاب السلطان ، والأذلاء الذين يلوذون بكل صاحب سلطة وبخاصة من إسرائيل . وقد كان فرعون ذا سلطة ضخمة وجبروت ، كما كان مسرفا فى الطغيان ، لا يقف عند حد ، ولا يتحرج من إجراء قاس .

وهنا لا بد من إيمان يرجح المخاوف ، ويطمئن القلوب ، ويثبتها على الحق الذى تنحاز إليه :

« وقال موسى : ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين » . .

فالتوكل على الله دلالة الإيمان ومقتضاه . وعنصر القوة الذى يضاف إلى رصيد القلة الضعيفة أمام الجبروت الطاغى فإذا هى أقوى وأثبت . وقد ذكر لهم موسى الإيمان والإسلام . وجعل التوكل على الله مقتضى هذا وذاك . . مقتضى الاعتقاد فى الله ، ومقتضى إسلام النفس له خالصة والعمل بما يريد . .

واستجاب المؤمنون لهتاف الإيمان على لسان نبيهم :

« فقالوا : على الله توكلنا » . .

ومن ثم توجهوا إلى الله بالدعاء :

Marfat.com

« ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين » . .

والدعاء بألا يجعلهم الله فتنة للقوم الظالمين مقصود به ألا يمكن القوم الظالمين منهم ، فيظن القوم أن تمكنهم من المؤمنين بالله دليل على أن عقيدتهم هم أصح ولذلك انتصروا وهزم المؤمنون! ويكون هذا استدراجا لهم من الله وفتنة ليلجوا فى ضلالهم . فالمؤمنون يدعون الله أن يعصمهم من تسلط الظالمين عليهم ولو لاستدراج الظالمين . والآية الثانية أصرح فى النتيجة المطلوبة :

« ونجنا برحمتك من القوم الكافرين » .

ودعاؤهم الله ألا يجعلهم فتنة للقوم الظالمين ، وأن ينجيهم برحمته من القوم الكافرين ، لا ينافى الاتكال على الله والتقوِّى به . بل هو أدل على التوجه بالاتكال والاعتماد إلى الله . والمؤمن لا يتمنى البلاء ، ولكن يثبت عند اللقاء .

وعقب هذا التميز ، وفى فترة الانتظار بعد الجولة الأولى ، وإيمان من آمن بموسى ، أوحى الله إليه وإلى هارون أن يتخذا لبنى إسرائيل بيوتا خاصة بهم ، وذلك لفرزهم وتنظيمهم استعدادا للرحيل من مصر فى الوقت المختار ؛ وكلفهم تطهير بيوتهم ، وتزكية نفوسهم ، والاستبشار بنصر الله :

« وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوآ لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ، وأقيموا الصلاة ، وبشر المؤمنين » . .

وتلك هى التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية . وهما معا ضروريتان للأفراد والجماعات ، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات . ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية ، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هى السلاح الأول فى المعركة ، وأن الأداة الحربية فى يد الجندى الخائر العقيدة لا تساوى شيئا كثيراً فى ساعة الشدة .

وهذه التجربة التى يعرضها الله على العصبة المؤمنة ليكون لها فيها أسوة ، ليست خاصة ببنى إسرائيل ، فهى تجربة إيمانية خالصة . وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين فى المجتمع الجاهلى ، وقدعمت الفتنة وتجبر الطاغوت ، وفسد الناس ، وأنتنت البيئة ـ وكذلك كان الحال على عهد فرعون فى هذه الفترة ـ وهنا يرشدهم الله إلى أمور :

• اعتزال الجاهلية بنتنها وفسادها وشرها ـ ما أمكن فى ذلك ـ وتجمع العصبة

Marfat.com

المؤمنة الخيرة النظيفة على نفسهـا ، لتطهرها وتزكيهـا ، وتدربهـا وتنظمها ، حتى يأتي وعـد الله لهـا .

◆ اعتزال معابد الجاهلية واتخاذ بيوت العصبة المسلمة مساجد . تحس فيها بالانعزال عن المجتمع الجاهلي ؛ وتزاول فيها عبادتها لربها على نهج صحيح ؛ وتزاول بالعبادة ذاتها نوعا من التنظيم في جو العبادة الطهور .

* * *

واتجه موسى ـ عليه السلام ـ إلى ربه ، وقد يئس من فرعون وملئه أن يكون فيهم خير ، وأن تكون قد بقيت فيهم بقية ، وأن يرجى لهم صلاح .. اتجه إليه يدعو على فرعون وملئه ، الذين يملكون المال والزينة ، تضعف إزاءهما قلوب الكثيرين ، فتنتهى إلى التهاوى أمام الجاه والمال ، وإلى الضلال .. اتجه موسى إلى ربه يدعوه أن يدمر هذه الأموال ، وأن يشد على قلوب أهلها فلا يؤمنوا إلا حيث لا ينفعهم إيمان . فاستجاب الله الدعاء :

« وقال موسى : ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا . ربنا ليضلوا عن سبيلك . ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم . قال : قد أجيبت دعوتكما ، فاستقيما ، ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » .

« ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينه وأموالا في الحياة الدنيا » . . ينشأ عنها إضـلال النـاس عن سبيلك ، إما بالإغراء الذى يحدثه مظهر النعمة فى نفوس الآخرين ، وإما بالقوة التى يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم . ووجود النعمة فى أيدى المفسدين لا شك يزعزع كثيرا من القلوب التى لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار ، وأنها كذلك ليست شيئا ذا قيمة إلى جانب فضل الله فى الدنيا والآخرة . وموسى يتحدث هنا عن الواقع المشهود فى عامة الناس . ويطلب لوقف هذا الإضلال ، ولتجريد القوة الباغية للضلة من وسائل البغى والإغراء ، أن يطمس الله على هذه الأموال بتدميرها والذهاب بها ، بحيث لا ينتفع بها أصحابها . أما دعاؤه بأن يشد الله على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم ، فهو دعاء من يئس من صلاح هذه القلوب ، ومن أن يكون لها توبة أو إنابة . دعاء بأن يزيدها الله قسوة واستغلاقا حتى

Marfat.com

يأتيهم العذاب ، وعندئذ لن يقبل منهم الإيمان؛ لأن الإيمان عند حلول العذاب لا يقبل، ولا يدل على توبه حقيقية باختيار الإنسان .

« قال : قد أجيبت دعوتكما » . .

كتبت لها الإجابة وقضى الأمر .

« فاستقيما » . .

فى طريقكما وعلى هداكما حتى يأتى الأجل :

« ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون » . .

فيخبطوا على غير علم ، ويترددوا فى الخطط والتدبيرات ، ويقلقوا على المصير ، ولا يعرفوا إن كانوا يسيرون فى الطريق الهادى أم هم ضلوا السبيل .

* * *

والمشهد التالى هو مشهد التنفيذ .

« وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا ، حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟! فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية ، وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » ..

إنه الموقف الحاسم والمشهد الأخير فى قصة التحدى والتكذيب . والسياق يعرضه مختصرا مجملا ، لأن الغرض من سياقة هذه الحلقة من القصة فى هذه السورة هو بيان هذه الخاتمة . بيان رعاية الله وحمايته لأوليائه ، وإنزال العذاب والهلاك بأعدائه ، الذين يغفلون عن آياته الكونية وآياته مع رسله حتى تأخذهم الآية التى لاينفع بعدها ندم ولا توبة . وهو مصداق ماسبق فى السورة من وعيد للمكذبين فى قوله تعالى : « ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لايظلمون . ويقولون : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل : لا أملك لنفسى ضرا ولا نفعا إلا ماشاء الله لكل أمة أجل ، إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قل : أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ، ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ أثم إذا ماوقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون ؟! » ..

Marfat.com

فهنا يأتى القصص ليصدق ذلك الوعيد :

« وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر » ..

بقيادتنا وهدايتنا ورعايتنا . ولهذا الإسناد فى هذا الموضع دلالته ..

« فأتبعهم فرعون وجنوده » ..

لا اهتداء وإيمانا ، ولا دفاعا مشروعا . ولكن :

« بغيا وعدوا » ..

وتجاوزا للحد وطغيانا ..

ومن مشهد البغى والعدو مباشرة إلى مشهد الغرق فى ومضة :

« حتى إذا أدركه الغرق » ..

وعاين الموت ، ولم يعد يملك نجاة ..

« قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » ..

لقد سقطت عن فرعون الباغى العادى المتجبر الطاغى ... كل أرديته التى تنفخ فيه فتظهره لقومه ولنفسه قوة هائلة مخيفة ، ولقد تضاءل وتصاغر واستخذى . فهو لا يكتفى بأن يعلن إيمانه أن لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل . فيزيد فى استسلام ..

« وأنا من المسلمين » ..

مسلمين !

« آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟ ! » ..

آلآن حيث لا اختيار ولا فرار ؟ آلآن وقد سبق العصيان والاستكبار ؟ آلآن ؟!

« فاليوم ننجيك ببدنك » ..

لا تأكله الأسماك ، ولا يذهب منكرا مع التيار لا يعرف للناس . ذلك ليدرك من وراءك من الجماهير كيف كان مصيرك :

« لتكون لمن خلفك آية » ..

يتعظون بها ويعتبرون ، ويرون عاقبة التصدى لقوة الله ووعيده بالتكذيب :

« وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون » ..

Marfat.com

لايوجهون إليها قلوبهم وعقولهم ، ولا يتدبرونها فى الآفاق وفى أنفسهم .

* * *

ويسدل الستار على المشهد النهائى فى المأساة . مأساة البغى والفساد والتحدى والعصيان . . ويعقب السياق بلمحة سريعة عن مآل بنى إسرائيل بعدها ، تستغرق ماحدث فى أجيال :

« ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ، ورزقناهم من الطيبات ، فما اختلفوا حتى جاءهم العلم . إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . .

والمبوأ : مكان الإقامة الأمين . وإضافته إلى الصدق تزيده أمانا وثباتا واستقرارا كثبات الصدق الذى لايضطرب ولا يتزعزع اضطراب الكذب وتزعزع الافتراء . ولقد طاب المقام فترة لبنى إسرائيل بعد تجارب طويلة ، لايذكرها السياق هنا لأنها ليست من مقاصده ، وتمتعوا بطيبات من الرزق حلال ، حتى فسقوا عن أمر الله فحرمت عليهم . والسياق لايذكر هنا إلا اختلافهم بعد وفاق . اختلافهم فى دينهم ودنياهم ، لاعلى جهل ولكن بعد أن جاءهم العلم ، وبسبب هذا العلم ، واستخدامه فى التأويلات الباطلة .

ولما كان المقام هنا مقام نصرة الإيمان وخذلان الطغيان ، فإن السياق لايطيل فى عرض ماوقع بعد ذلك من بنى إسرائيل ، ولا يفصل خلافهم بعد ماجاءهم العلم . ولكن يطوى هذه الصفحة ، ويكلها بما فيها لله فى يوم القيامة :

« إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . .

فيبقى للقصة جلالها ، ويظل للمشهد الأخير تأثيره . .

وهكذا ندرك لماذا يساق القصص القرآنى ، وكيف يساق فى كل موضع من مواضعه . فليس هو مجرد حكايات تروى ، ولكنه لمسات وإيحاءات مقدرة تقديرا .

* * *

بعد ذلك يجىء التعقيب على هذه الخاتمة لقصة موسى وقصة نوح من قبلها ، يبدأ خطابا إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تثبيتا بما حدث للرسل قبله ، وبيانا لعلة تكذيب قومه له ، أن ليس ماينقصهم هو الآيات والبينات ، إنما هى سنة الله فى المكذبين من قبلهم ، وسنة

Marfat.com

الله فى خلق الإنسان باستعداداته للخير والشر والهدى والضلال . . وفى الطريق يلم إلمامة سريعة بقصة يونس وإيمان قومه به بعد أن كاد العذاب ينزل بهم ، فرد عنهم . لعل فيها حافزا للمكذبين قبل فوات الأوان . . وينتهى بالخلاصة المستفادة من ذلك القصص كله . أن سنة الله التى مضت فى الأولين ماضية فى الآخرين : عذاب وهلاك للمكذبين . ونجاة وخلاص للرسل ومن معهم من المؤمنين . حقا كتبه الله على نفسه . وجعله سنة ماضية لاتتخلف ولا تحيد :

« فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين . ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين . إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم . فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ، إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ومتعناهم إلى حين . ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون . قل : انظروا ماذا فى السماوات والأرض ، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ، فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ؟ قل : فانتظروا إنى معكم من المنتظرين . ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا ، كذلك حقا علينا ننج المؤمنين » . .

لقد كان آخر الحديث عن بنى إسرائيل ، وهم من أهل الكتاب ، وهم يعرفون قصة نوح مع قومه وقصة موسى مع فرعون ، يقرأونها فى كتابهم . فهنا يتوجه الخطاب إلى الرسول — صلى الله عليه وسلم — إن كان فى شك مما أنزل إليه ، من هذا القصص أو غيره ، فليسأل الذين يقرأون الكتاب من قبله . فلديهم عنه علم ، مما يقرأون :

« فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين » .

ولكن الرسول — صلى الله عليه وسلم — لم يكن فى شك مما أنزل الله إليه . أو كما روى عنه — عليه الصلاة والسلام — « لا أشك ولا أسأل » . ففيم إذن هذا القول له أن يسأل إن كان

Marfat.com

فى شك . والتعقيب عليه : « لقد جاءك الحق من ربك » وفى هذا ما يكفيه اليقين ؟

ولـكن هذا التوجيه يشى بما كان وراءه من شـدة الموقف وتأزمـه فى مكة بعـد حادث الإسراء ،وقد ارتد بعض من أسلموا لعدم تصديقه . وبعد موت خديجة وأبى طالب ، واشتداد الأذى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه ؛ وبعد تجمد الدعوة تقريبا فى مكة بسبب موقف قريش العنيد . . وكل هذه ملابسات تلقى ظلالها على قلب رسول الله ـ صلى الله عليـه وسلم ـ فيسرى عنه ربه بهذا التوكيد ، بعد ذلك القصص الموحى . .

ثم إنه تعريض بالشاكين الممترين المـكذبين :

« ولا تـكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين » .

وهـذا التعريض يترك الفرصـة لمن يريد منهم أن يرجع ليرجع ؛ لأنه إذا كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مأذونا فى أن يسأل إن كان فى شك، ثم هو لا يسأل ولا يشك ، فهو إذن على يقين مما جاء به أنه الحق . وفى هـذا إيحاء للآخرين ألا يترددوا ، وألا يـكونوا « من الممترين » . .

ثم إنه المنهج الذى يضعه الله لهذه الأمة فيما لاتستوثق منه . . أن تسأل أهـل الذكر . . ولو كان من أخص خصائص العقيدة ؛ لأن المسلم مكلف أن يستيقن من عقيدته وشريعته ، وألا يعتمد على التقليد دون تثبت ويقين ؟

ثم أيـكون هنالك تعارض بين إباحة هذا السؤال عند الشك وبين قوله : « فلا تـكونن من الممترين » ؟ . . ليس هنالك تعارض ، لأن المنهى عنه هو الشك والبقاء على الشك ؛ بحيث يصبح صفة دائمة . . « من الممترين » . . ولا يتحرك صاحبها للوصول إلى يقين . وهى حالة رديئة لاتنتهى إلى معرفة ، ولا تحفز إلى استفادة ، ولا تئول إلى يقين .

وبعد فإذا كان ماجاء إلى الرسول هو الحق الذى لامرية فيه ، فـما تعليل إصرار قوم على التـكذيب ولجاجهم فيه ؟ تعليله أن كلمة الله وسنته قد اقتضت أن من لايأخذ بأسباب الهـدى لا يهتدى ، ومن لا يفتح بصيرته على النور لايراه ، ومن يعطل مداركه لا ينتفع بوظيفتها ،

Marfat.com

فتكون نهايته إلى الضلال ، مهما تكن الآيات والبينات ، لأنه لا يفيد شيئا من الآيات والبينات . وعندئذ تكون كلمة الله وسنته قد حقت عليهم وتحققت فيهم :

« إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » . .

فلا ينفعهم الإيمان حينئذ لأنه لم يجئ عن اختيار . ولم تعد هنالك فرصة لتحقيق مدلوله في الحياة . ومنذ هنيهة كان أمامنا مشهد يصدق هذا . مشهد فرعون حين أدركه الغرق يقول : « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » . . فيقال له : « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟ ! » .

وعند هذا الموقف الذى تظهر فيه حتمية سنن الله العامة ، وانتهاؤها إلى نهايتها المرسومة ، متى تعرض الإنسان لها باختياره ، تفتح نافذة مضيئة بآخر شعاع من أشعة الأمل فى النجاة . ذلك أن يعود المكذبون عن تكذيبهم قبيل وقوع العذاب :

« فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ! إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ، ومتعناهم إلى حين » . .

وهو تحضيض ينسحب على الماضى ، فيفيد أن مدلوله لم يقع . . . « فلولا كانت قرية آمنت » من هذه القرى التى مر ذكرها . ولكن القرى لم تؤمن . إنما آمنت منها قلة ، فكانت الصفة الغالبة هى صفة عدم الإيمان . . ذلك فيما عدا قرية واحدة ـ والقرية : القوم ، والتسمية هكذا إيذان بأن الرسالات كانت فى قرى الحضر ولم تكن فى محلات البدو ـ ولا يفصل السياق هنا قصة يونس وقومه ، إنما يشير إلى خاتمتها هذه الإشارة ؛ لأن الخاتمة وحدها هى المقصودة هنا . فلا نزيدها نحن تفصيلا . وحسبنا أن ندرك أن قوم يونس كان عذاب خزى يتهددهم ، فلما آمنوا فى اللحظة الأخيرة قبل وقوعه كشف عنهم العذاب ، وتركوا يتمتعون بالحياة إلى أجل . ولو لم يؤمنوا لحل العذاب بهم وفاقا لسنة الله المترتبة آثارها على تصرفات خلقه . . حسبنا هذا لندرك أمرين هامين :

أولهما : الإهابة بالمكذبين أن يتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة ، فلعلهم ناجون كما نجا قوم

Marfat.com

يونس من عذاب الخزى فى الحياة الدنيا . وهو الغرض المباشر من سياقة القصة هذا المساق . .

وثانيهما : أن سنة الله لم تتعطل ولم تقف بكشف هذا العذاب ، وترك قوم يونس يتمتعون فترة أخرى . بل مضت ونفذت . لأن مقتضى سنة الله كان أن يحل العذاب بهم لو أصروا على تكذيبهم حتى يجىء . فلما عدلوا قبل مجيئه جرت السنة بإنجائهم نتيجة لهذا العدول . فلا جبرية إذن فى تصرفات الناس ، ولكن الجبرية فى ترتيب آثارها عليها (١) .

ومن ثم ترد القاعدة الكلية فى الكفر والإيمان :

« ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ، ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » . .

ولو شاء ربك لخلق هذا الجنس البشرى خلقة أخرى ، فجعله لا يعرف إلا طريقا واحدا هو طريق الإيمان كالملائكة مثلا . أو لجعل له استعدادا واحدا يقود جميع أفراده إلى الإيمان .

ولو شاء كذلك لأجبر الناس جميعا وقهرهم عليه ، حتى لا تكون لهم إرادة فى اختياره .

ولكن حكمة الخالق التى قد ندرك بعض مراميها وقد لا ندرك ، دون أن ينفى عدم إدراكنا لها وجودها . هذه الحكمة اقتضت خلقة هذا الكائن البشرى باستعداد للخير وللشر وللهدى والضلال . ومنحته القدرة على اختيار هذا الطريق أو ذاك . وقدرت أنه إذا أحسن استخدام مواهبه اللدنية من حواس ومشاعر ومدارك ، ووجهها إلى إدراك دلائل الهدى فى الكون والنفس وما يجىء به الرسل من آيات وبينات ، فإنه يؤمن ويهتدى بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص . وعلى العكس حين يعطل مواهبه ويغلق مداركه ويسترها عن دلائل الإيمان يقسو قلبه ، ويستغلق عقله ، وينتهى بذلك إلى التكذيب أو الجحود ، فإلى ما قدره الله للمكذبين الجاحدين من جزاء . .

(١) وقد جرينا على هذه القاعدة فى تفسير آيات المشيئة ، فلم تلتو علينا حتى الآن . وعلى الله التوفيق .

Marfat.com

فالإيمان إذن متروك للاختيار . لا يكره الرسول عليـه أحدا . لأنه لا مجـال للإكراه فى مشاعر القلب وتوجهات الضمير :

« أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » . .

وهو سؤال للإنكار ، فإن هذا الإكراه لا يكون :

« وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله » :

وفق سنته الماضية التى بيناها . فلا تصل إلى الإيمان وقد سارت فى الطريق الآخر الذى لا يؤدى إليه . لا أنها تريد الإيمان وتسلك طريقه ثم تمنع عنه ، فهذا ليس المقصود بالنص . بل المقصود أنها لا تصل إلى الإيمان إلا إذا سارت وفق إذن الله وسنته فى الوصول إليه من طريقه المرسوم بالسنة العامة . وعندئذ يهديها الله ويقع لها الإيمان بإذنه . فلا شىء يتم وقوعه إلا بقدر خاص به . إنما الناس يسيرون فى الطريق . فيقدر الله لهم عاقبة الطريق ، ويوقعها بالفعل جزاء ما جاهدوا فى الله ليهتدوا . .

ويدل على هذا عقب الآية :

« ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون » . .

فالذين عطلوا عقولهم عن التدبر ، يجعل الرجس عليهم . والرجس أبشع الدنس الروحى ، فهؤلاء ينالهم ذلك الرجس بسبب تعطيلهم لمداركهم عن التعقل والتدبر ، وانتهاؤهم بهذا إلى التكذيب والكفران .

ويزيد الأمر إيضاحا بأن الآيات والنذر لا تغنى عن الذين لا يؤمنون ؛ لأنهم لا يتدبرونها وهى معروضة أمامهم فى السماوات والأرض :

« قل : انظروا ماذا فى السماوات والأرض . ومـا تغنى الآيات والنـذر عن قوم لا يؤمنون » . .

وسواء كان عقب الآية استفهاما أو تقريرا . فمؤداه واحد . فإن ما فى السماوات والأرض حافل بالآيات ؛ ولـكن الآيات والنذر لا تفيد الذين لا يؤمنون ، لأنهم من قبل لم يلقوا بالا إليها ، ولم يتدبروها . .

Marfat.com

وقبل أن نمضى إلى نهاية الشوط نقف لحظة أمام قوله تعالى :

« قل : انظروا ماذا فى السماوات والأرض . وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون » ..

إن المخاطبين بهذا القرآن أول مرة ، لم يكن لديهم من المعرفة العلمية بما فى السماوات والأرض إلا القليل . ولكن الحقيقة الواقعة التى أشرنا إليها مرارا ، هى أن بين الفطرة البشرية وبين هذا الكون الذى نعيش فيه لغة خفية غنية ! وأن هذه الفطرة تسمع لهذا الكون - حين تتفتح وتستيقظ - وتسمع منه الكثير !

والمنهج القرآنى فى تكوين التصور الإسلامى فى الإدراك البشرى يتكئ على ما فى السماوات والأرض ، ويستلهم هذا الكون ؛ ويوجه إليه النظر والسمع والقلب والعقل .. وذلك دون أن يخل بطبيعة التناسق والتوازن فيه ؛ ودون أن يجعل من هذا الكون إلها يؤثر فى الإنسان أثر الله ! كما يجدف بذلك الماديون المطموسون ، ويسمون ذلك التجديف مذهبا « علميا » يقيمون عليه نظاما اجتماعيا يسمونه : « الاشتراكية العلمية » والعلم الصحيح من ذلك التجديف كله برىء !

والنظر إلى ما فى السماوات والأرض يمد القلب والعقل بزاد من المشاعر والتأملات ؛ وزاد من الاستجابات والتأثرات ؛ وزاد من سعة الشعور بالوجود ؛ وزاد من التعاطف مع هذا الوجود .. وذلك كله فى الطريق إلى امتلاء الكينونة البشرية بالإيقاعات الكونية الموحية بوجود الله ، وبجلال الله ، وبتدبير الله ، وبسلطان الله ، وبحكمة الله ، وعلم الله ...

ويمضى الزمن ، وتنمو معارف الإنسان العلمية عن هذا الكون . فإن كان هذا الإنسان مهتديا بنور الله إلى جوار هذه المعارف العلمية ، زادته هذه المعارف من الزاد الذى تحصله الكينونة البشرية من التأمل فى هذا الكون ، والأنس به ، والتعرف عليه ، والتجاوب معه ، والاشتراك معه فى تسبيحه بحمد الله : « وإن من شىء إلا يسبح بحمده ، ولكن لاتفقهون تسبيحهم » .. ولايفقه تسبيح كل شىء بحمد الله إلا الموصول قلبه بالله . . وأما إن كانت هذه المعارف العلمية غير مصحوبة ببشاشة الإيمان ونوره ، فإنها تقود الأشقياء إلى مزيد من الشقوة ،

Marfat.com

حين تقودهم إلى مزيد من البعد عن الله ؛ والحرمان من بشاشة الإيمان ونوره ورفرفه ورِيّاه !

« وماتغنى الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون » !

وماذا تجدى الآيات والنذر إذا استغلقت القلوب ، وتجمدت العقول ، وتعطلت أجهزة الاستقبال والتلقى فى الفطرة ؛ واحتجب الكائن الإنسانى بجملته عن هذا الوجود ، فلم يسمع إيقاعات حمده وتسبيحه ؟!

« إن المنهج القرآنى فى التعريف بحقيقة الألوهية يجعل الكون والحياة معرضا رائعاتتجلى فيه هذه الحقيقة . . تتجلى فيه بآثارها الفاعلة ، وتملأ بوجودها وحضورها جوانب الكينونة الإنسانية المدركة . . إن هذا المنهج لايجعل « وجود الله » سبحانه قضية يجادل عنها . فالوجود الإلهى يفعم القلب البشرى – من خلال الرؤية القرآنية والشاهدة الواقعية على السواء – بحيث لا يبقى هنالك مجال للجدل حوله . إنما يتجه المنهج القرآنى مباشرة إلى الحديث عن آثار هذا الوجود فى الكون كله ؛ وإلى الحديث عن مقتضياته كذلك فى الضمير البشرى والحياة البشرية .

« والمنهج القرآنى فى اتباعه لهذه الخطة إنما يعتمد على حقيقة أساسية فى التكوين البشرى . فالله هو الذى خلق وهو أعلم بمن خلق : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه » . . والفطرة البشرية بها حاجة ذاتية إلى التدين ، وإلى الاعتقاد بإله . بل إنها حين تصح وتستقيم تجد فى أعماقها اتجاهاً إلى إله واحد ، وإحساسا قويا بوجود هذا الإله الواحد . ووظيفة العقيدة الصحيحة ليست هى إنشاء هذا الشعور بالحاجة إلى إله والتوجه إليه ، فهذا مركوز فى الفطرة . ولكن وظيفتها هى تصحيح تصور الإنسان لإلهه ، وتعريفه بالإله الحق الذى لا إله غيره . تعريفه بحقيقته وصفاته ، لاتعريفه بوجوده وإثباته . ثم تعريفه بمقتضيات الألوهية فى حياته – وهى الربوبية والقوامة والحاكمية – والشك فى حقيقة الوجود الإلهى أو إنكاره هو بذاته دليل قاطع على اختلال بين فى الكينونة البشرية ، وعلى تعطل أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية فيها . وهذا التعطل لايعالج – إذن – بالجدل . وليس هذا هو طريق العلاج !

Marfat.com

« إن هذا الكون ، كون مؤمن مسلم ، يعرف بارئه ويخضع له ، ويسبح بحمده كل شيء فيه وكل حي ـ عدا بعض الأناسي ! ـ و « الإنسان » يعيش في هذا الكون الذي تتجاوب جنباته بأصداء الإيمان والإسلام ، وأصداء التسبيح والسجود . وذرات كيانه ذاته وخلاياه تشارك في هذه الأصداء ؛ وتخضع في حركتها الطبيعية الفطرية للنواميس التي قدرها الله. فالكائن الذي لاتستشعر فطرته هذه الأصداء كلها ؛ ولا تحس إيقاع النواميس الإلهية فيما هي ذاتها ، ولا تلتقط أجهزته الفطرية تلك الموجات الكونية ، كائن معطلة فيه أجهزة الاستقبال والاستجابة الفطرية . ومن ثم لايكون هنالك سبيل إلى قلبه وعقله بالجدل ، إنما يكون السبيل إلى علاجه هو محاولة تنبيه أجهزة الاستقبال والاستجابة فيه ، واستجاشة كوامن الفطرة في كيانه، لعلها تتحرك ، وتأخذ في العمل من جديد(١) » .

ولفت الحس والقلب والعقل للنظر إلى ما في السماوات والأرض ، وسيلة من وسائل المنهج القرآني لاستحياء القلب الإنساني ؛ لعله ينبض ويتحرك ، ويتلقى ويستجيب .

ولكن أولئك المكذبين من الجاهليين العرب ـ وأمثالهم ـ لايتدبرون ولا يستجيبون .. فماذا ينتظرون ؟

إن سنة الله لا تتخلف ، وعاقبة المكذبين معروفة ، وليس لهم أن يتوقعوا من سنة الله أن تتخلف . وقد يُنظرهم الله فلا يأخذهم بعذاب الاستئصال ، ولكن الذين يصرون على التكذيب لابد لهم من النكال :

« فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ؟ » .. « قل : فانتظروا إني معكم من المنتظرين » . .

وهو التهديد الذي ينهي الجدل ، ولكنه يخلع القلوب .

ويختم هذا المقطع من السياق بالنتيجة الأخيرة لكل رسالة ولكل تكذيب ، وبالعبرة الأخيرة من ذلك القصص وذلك التعقيب :

---

(١) من كتاب : « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته : القسم الثاني » ..

Marfat.com

« ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا . كذلك حقا علينا ننج المؤمنين » . .

إنها الكلمة التى كتبها الله على نفسه : أن تبقى البذرة المؤمنة وتنبت وتنجو بعد كل إيذاء وكل خطر ، وبعد كل تكذيب وكل تعذيب . .

هكذا كان ـ والقصص المروى فى السورة شاهد ـ وهكذا يكون . . فليطمئن المؤمنون . . .

« قُلْ : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ، وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّـٰكُمْ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ، فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ * وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ، وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ، يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ، وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ .

« قُلْ : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ، فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ .

« وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ، وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ » .

هذه خاتمة السورة ، وخاتمة المطاف لتلك الجولات فى شتى الآفاق ، تلك الجولات التى نحس أننا عائدون منها بعد سياحات طويلة فى آفاق الكون ، وجوانب النفس ، وعوالم الفكر والشعور والتأملات . عائدون منها فى مثل الإجهاد من طول التطواف ، وضخامة الجنى ، وامتلاء الوطاب !

Marfat.com

هذه خاتمة السورة التى تضمنت تلك الجولات حول العقيدة فى مسائلها الرئيسية الكبيرة: توحيد الربوبية والقوامة والحاكمية، ونفى الشركاء والشفعاء، ورجعة الأمر كله إلى الله، وسننه المقدرة التى لا يملك أحد تحويلها ولا تبديلها. والوحى وصدقه، والحق الخالص الذى جاء به. والبعث واليوم الآخر والقسط فى الجزاء . . .

هــذه القواعد الرئيسية للعقيدة التى دار حولها سياق السورة كله، وسيقت القصص لإيضاحها، وضربت الأمثال لبيانها . .

هاهى ذى كلها تلخص فى هــذه الخاتمة، ويكلف الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يعلنها للناس إعلانا عاما، وأن يلقى إليهم بالكلمة الأخيرة الحاسمة: أنه ماض فى خطته، مستقيم على طريقته، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين.

* * *

« قل: ياأيها الناس إن كنتم فى شك من دينى فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم، وأمرت أن أكون من المؤمنين » .

قل: ياأيها الناس جميعا، وإن كان الذين يتلقون الخطاب إذ ذاك هم مشركى قريش، إن كنتم فى شك من أن دينى الذى أدعوكم إليه هو الحق، فإن هــذا لا يحولنى عن يقينى، ولا يجعلنى أعبد آلهتكم التى تعبدونها من دون الله . .

« ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم » . .

أعبد الله الذى يملك آجالكم وأعماركم. وإبراز هذه الصفة لله هنا له قيمته وله دلالته، فهو تذكير لهم بقهر الله فوقهم، وانتهاء آجالهم إليه، فهو أولى بالعبادة من تلك الآلهة التى لا تحيي ولا تميت . .

« وأمرت أن أكون من المؤمنين » . .

فأنا عند الأمر لا أتعداه.

« وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين » . .

وهنــا يتحول السياق من الحكاية إلى الأمر المباشر، كأن الرسول - صلى الله عليه وسلم -

Marfat.com

يتلقاه فى مشهد حاضر للجميع . وهـذا أقوى وأعمق تأثيرا . « أقم وجهك للدين حنيفاً » متوجهاً إليه خالصاً له ، موقوفاً عليه « ولا تكونن من المشركين » زيادة فى توكيد معنى الاستقامة للدين ، ولمعنى أن يكون من المؤمنين ، عن طريق النهى المباشر عن الشرك بعد الأمر المباشر بالإيمان .

« ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك . فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين » . .

لا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك من هؤلاء الشركاء والشفعاء ، الذين يدعوهم المشركون لجلب النفع ودفع الضر . فإن فعلت فإنك إذن من هؤلاء المشركين ! فميزان الله لا يحابى وعدله لا يلين . .

« وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو ، وإن يردك بخير فلا راد لفضله ، يصيب به من يشاء من عباده ، وهو الغفور الرحيم » . .

فالضر نتيجة لازمة لسنة الله الجارية حين يتعرض الإنسان لأسبابه ، والخير كذلك . فإن مسك الله بضر عن طريق جريان سنته فلن يكشفه عنك إنسان ، إنما يكشف باتباع سنته ، وترك الأسباب المؤدية إلى الضر إن كانت معلومة ، أو الالتجاء إلى الله ليهديك إلى تركها إن كانت مجهولة . وإن أراد بك الخير ثمرة لعملك وفق سنته فلن يرد هذا الفضل عنك أحد من خلقه . فهذا الفضل يصيب من عباده من يتصلون بأسبابه وفق مشيئته العامة وسنته الماضية . « وهو الغفور الرحيم » الذى يغفر ما مضى متى وقعت التوبة ، ويرحم عباده فيكفر عنهم سيئاتهم بتوبتهم وعملهم الصالح وعودتهم إلى الصراط المستقيم .

هذه خلاصة العقيدة كلها ، مما تضمنته السورة ، يكلف الرسول — صلى الله عليه وسلم — أن يعلنها للناس ، ويوجه إليه الخطاب بها كأنما على مشهد منهم . وهم هم المقصودون بها . إنما هو أسلوب من التوجيه الوحى المؤثر فى النفوس . ويقف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بها فى وجه القوة والكثرة ؛ ووجه الرواسب الجاهلية ، ووجه التاريخ الموغل بالمشركين فى الشرك . . يعلنها فى قوة وفى صراحة وهو فى عدد قليل من المؤمنين فى مكة ، والقوة الظاهرة كلها للمشركين . .

ولكنها الدعوة وتكاليفها ، والحق وما ينبغى له من قوة ومن يقين .

Marfat.com

ومن ثم يكون الإعلان الأخير للناس :

« قل : يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم ، فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، وما أنا عليكم بوكيل » .

فهو الإعلان الأخير ، والكلمة الفاصلة ، وللمفاصلة الكاملة ، ولكل أن يختار لنفسه . فهذا هو الحق قد جاءهم من ربهم .

« فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها » ..

وليس الرسول موكلا بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقا ، إنما هو مبلغ ، وهم موكولون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم وإلى تبعاتهم ، وإلى قدر الله بهم فى النهاية .

والختام خطاب إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – باتباع ما أمر به ، والصبر على ما يلقاه حتى يحكم الله بما قدره وقضاه :

« واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين » ..

وهو الختام المناسب الذى يلتقى مع مطلع السورة ، ويتناسق مع محتوياتها بجملتها على طريقة القرآن فى التصوير والتنسيق ..

انتهى الجزء الحادى عشر
ويليه الجزء الثانى عشر مبدوءا بسورة هود

Marfat.com

كتب للمؤلف

١ ــ فى ظلال القرآن	(فى ثلاثين جزءاً)	دار إحياء الكتب العربية
٢ ــ العدالة الاجتماعية فى الإسلام	(طبعة سادسة)	« « « «
٣ ــ خصائص التصور الإسلامى	(« أولى)	« « « «
٤ ــ الإسلام ومشكلات الحضارة	(« «)	« « « «
٥ ــ هــذا الدين	(طبعة ثالثة)	دار القلم «
٦ ــ المستقبل لهذا الدين	(« أولى)	مكتبه وهبة بعابدين
٧ ــ السلام العالمى والإسلام	(« ثالثة)	« « «
٨ ــ معالم فى الطريق	(« أولى)	« « «
٩ ــ التصوير الفنى فى القرآن	(« سادسة)	دار المعارف
١٠ ــ مشاهد القيامة فى القرآن	(« «)	« «
١١ ــ دراسات إسلامية	(« ثانية)	مكتبة الشباب المسلم
١٢ ــ معركة الإسلام والرأسمالية	(« ثانية)	دار الإخوان للطباعة والصحافة
١٣ ــ النقد الأدبى : أصوله ومناهجه	(« رابعة)	دار الفكر العربى
١٤ ــ أشواك	(قصة)	دار سعد مصر بالفجالة
١٥ ــ طفل من القرية	(صور ريفية)	نفد
١٦ ــ الأطياف الأربعة	(خواطر وصور)	نفد
١٧ ــ كتب وشخصيات	(نقد أدبى)	نفد
١٨ ــ الشاطئ المجهول	(شعر)	نفد
١٩ ــ المدينة المسحورة	(قصة)	نفد
٢٠ ــ نقد كتاب مستقبل الثقافة	(نقد)	نفد
٢١ ــ مهمة الشاعر فى الحياة	(نقد)	نفد
٢٢ ــ الجديد فى اللغة العربية	(مع لجنة)	دار المعارف
٢٣ ــ الجديد فى المحفوظات	(مع لجنة)	« «
٢٤ ــ روضة الطفل	(مع لجنة)	« «
٢٥ ــ القصص الدينى	(مع السحار)	مكتبة مصر بالفجالة

كتب تالية

١ ــ مقومات التصور الإسلامى
٢ ــ نحو مجتمع إسلامى
٣ ــ فى موكب الإيمان
٤ ــ فى ظلال السيرة

Marfat.com

في ظلال القرآن

بقلم

سيد قطب

الجزء الثاني عشر

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة هود وقسم من سورة يوسف

Marfat.com

سورة هود مكية
وآياتها ١٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

هـذه السورة مكية بجملتها . خلافا لما ورد فى المصحف الأميرى من أن الآيات (١٢ ، ١٧ ، ١١٤) فيها مدنية . ذلك أن مراجعة هـذه الآيات فى سياق السورة تلهم أنها تجىء فى موضعها من السياق ، بحيث لا يكاد يتصور خلو السياق منها بادىء ذى بدء . فضلا على أن موضوعاتها التى تقررها هى من صميم الموضوعات المكية المتعلقة بالعقيدة . وموقف مشركى قريش منها ، وآثار هذا الموقف فى نفس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقلة المسلمة معه ، والعلاج القرآنى الربانى لهذه الآثار . .

فالآية ١٢ مثلا هـذا نصها : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ! إنما أنت نذير ، والله على كل شىء وكيل » . . وواضح أن هذا التحدى وهذا العناد من قريش إلى الحد الذى يضيق به صدر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحيث يحتاج إلى التسرية عنه ، والتثبيت على ما يوحى إليه ؛ إنما كان فى مكة ؛ وبالذات فى الفترة التى تلت وفاة أبى طالب وخديجة ، وحادث الإسراء ، وجرأة المشركين على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتوقف حركة الدعوة تقريبا ؛ وهى من أقسى الفترات التى مرت بها الدعوة فى مكة . .

والآية ١٧ هذا نصها : « أفمن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة؟ أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلاتك فى مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » . . وواضح كذلك أنها

Marfat.com

من نوع القرآن المكي واتجاهه في مواجهة مشركي قريش بشهادة القرآن للنبي صلى الله عليه وسلم بأنه إنما يوحى إليه من ربه ؛ وبشهادة الكتب السابقة وبخاصة كتاب موسى ؛ وبتصديق بعض أهل الكتاب به - وهذا ما كان في مكة من أفراد من أهل الكتاب - واتخاذ هذا قاعدة للتنديد بموقف المشركين . وتهديد الأحزاب منهم بالنار . مع تثبيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على الحق الذى هو معه ، في وجه توقف الدعوة ، وعناد الأكثرية الغالبة في مكة وما حولها من القبائل . . وليس ذكر كتاب موسى بشبهة على مدنية الآية . فهي ليست خطابا لبني إسرائيل ولا تحديا لهم - كما هو العهد في القرآن المدني - ولكنها استشهاد بموقف تصديق من بعضهم ؛ وبتصديق كتاب موسى - عليه السلام - لما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - وهذا أشبه بالموقف في مكة في هذه الفترة الحرجة ، ومقتضياتها الواضحة .

والآية ١١٤ واردة في سياق تسرية عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما كان من الاختلاف على موسى من قبل . وتوجيهه للاستقامة كما أمر هو ومن تاب معه ، وعدم الركون إلى الذين ظلموا (أى أشركوا) والاستعانة بالصلاة وبالصبر على مواجهة تلك الفترة العصيبة . . وتتوارد الآيات هكذا : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ، وإنهم لفى شك منه مريب (١١٠) وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم، إنه بما يعملون خبير (١١١) فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير (١١٢) ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تنصرون (١١٣) وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين (١١٤) واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين (١١٥) » . . وواضح أن الآية قطعة من السياق المكي ، موضوعا وجوا وعبارة . .

* * *

لقد نزلت السورة بجملتها بعد يونس . ونزلت يونس بعد الإسراء . وهذا يحدد معالم الفترة التي نزلت فيها ؛ وهي من أحرج الفترات وأشقها كما قلنا في تاريخ الدعوة بمكة . فقد سبقها موت أبي طالب وخديجة ؛ وجرأة المشركين على ما لم يكونوا ليجرأوا عليه في حياة أبي طالب

Marfat.com

ـ وخاصة بعد حادث الإسراء وغرابته ،واستهزاء المشركين به، وارتداد بعض من كانوا أسلموا قبله ـ مع وحشة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خديجة ـ رضى الله عنها ـ فى الوقت الذى تجرأت فيه قريش عليه وعلى دعوته ؛ وبلغت الحرب المعلنة عليه وعلى دعوته أقسى وأقصى مداها ؛ وتجمدت حركة الدعوة حتى مايكاد يدخل فى الإسلام أحد من مكة وما حولها .. وذلك قبيل أن يفتح الله على رسوله وعلى القلة المسلمة معه ببيعة العقبة الأولى ثم الثانية . .

قال ابن إسحاق : ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد ، فتتابعت على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المصائب بهلك خديجة ـ وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو إليها ـ وبهلك عمه أبى طالب ـ وكان له عضدا وحرزا فى أمره ، ومنعة وناصرا على قومه ـ وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين . فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الأذى مالم تكن تطمع به فى حياة أبى طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه ترابا .

قال ابن إسحاق : فحدثنى هشام ابن عروة ، عن أبيه عروة ابن الزبير ، قال : لما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك التراب ، دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته ، فجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى . ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول لها : « لا تبكى يابنية ، فإن الله مانع أباك » قال : و يقول بين ذلك : « مانالت منى قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب » .

وقال المقريزى فى إمتاع الأسماع : فعظمت المصيبة على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بموتهما وسماه « عام الحزن » وقال : « مانالت قريش منى شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب » . لم يكن فى عشيرته وأعمامه حامياً له ولا ذاباً عنه غيره .

وفى هذه الفترة نزلت سورة هود ويونس قبلها ، وقبلهما سورة الإسراء وسورة الفرقان وكلها تحمل طابع هذه الفترة ؛ وتحدث عن مدى تحدى قريش وتعديها (١) .

---

(١) يراجع ماجاء عن هذه الفترة فى التعريف بسورة يونس ص ٩٩ ـ ص ١٠٠ من الجزء الحادى العاشر الطبعة المنقحة .

Marfat.com

وآثار هذه الفترة وجوها وظلالها واضحة فى جو السورة وظلالها وموضوعاتها ! وبخاصة ما يتعلق بتثبيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والذين معه على الحق ؛ والتسرية عنه مما يساور قلبه من الوحشة والضيق والغربة فى المجتمع الجاهلى .

وقد برز طابع هذه الفترة ومقتضياتها فى السورة فى سمات عدة نشير إلى بعض منها :

• فمن ذلك استعراض السورة لحركة العقيدة الإسلامية فى التاريخ البشرى كله ، من لدن نوح - عليه السلام - إلى عهد محمد - عليه الصلاة والسلام - وتقرير أنها قامت على حقائق أساسية واحدة : هى الدينونة لله وحده بلا شريك ، والعبودية له وحده بلا منازع ؛ والتلقى فى هذه الدينونة والعبودية عن رسل الله وحدهم على مدار التاريخ . مع الاعتقاد بأن الحياة الدنيا إنما هى دار ابتلاء لادار جزاء ؛ وأن الجزاء إنما يكون فى الآخرة ؛ وأن حرية الاختيار التى أعطاها الله للإنسان ليختار الهدى أو الضلال هى مناط هذا الابتلاء .

ولقد جاء محمد عليه الصلاة والسلام ومعه « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .. أما مضمون هذا الكتاب الأساسى فهو : « ألا تعبدوا إلا الله ، إننى لكم منه نذير وبشير . وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله ، وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم وهو على كل شىء قدير » ...

ولكن هذه لم تكن دعوة مبتدعة ولا قولا غير مسبوق .. لقد قالها من قبل نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وغيرهم : « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، إنى لكم نذير مبين . أن لاتعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » .. « وإلى عاد أخاهم هودا قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون . ياقوم لاأسألكم عليه أجرا إن أجرى إلا على الذى فطرنى ، أفلا تعقلون ؟ وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين » .. « وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب » .. « وإلى مدين أخاهم شعيبا قال . ياقوم اعبدوا الله

Marfat.com

مالكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ » . .

فكلهم إذن قال هذه الكلمة الواحدة ودعا بهذه الدعوة الثابتة . .

• ومن ذلك عرض مواقف الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وهم يتلقون الإعراض والتكذيب ، والسخرية والاستهزاء ، والتهديد والإيذاء ، بالصبر والثقة واليقين بما معهم من الحق ، وفى نصر الله الذى لاشك آت ؛ ثم تصديق العواقب فى الدنيا - وفى الآخرة كذلك - لظن الرسل الكرام بوليهم القادر العظيم ، بالتدمير على المكذبين ، وبالنجاة للمؤمنين :

فى قصة نوح نجد هذا المشهد : « فقال الملأ الذين كفروا من قومه : مانراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين . . قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم ، أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ وياقوم لا أسألكم عليه مالا ، إن أجرىَ إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قوما تجهلون . وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ؟ أفلا تذكرون ؟ ولا أقول لكم عندى خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول : إنى ملك ، ولا أقول للذين تزدرى أعينكم : لن يؤتيهم الله خيرا ، الله أعلم بما فى أنفسهم ، إنى إذن لمن الظالمين . قالوا : يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال : إنما يأتيكم به الله - إن شاء - وما أنتم بمعجزين »

ثم يجىء مشهد الطوفان وهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين .

وفى قصة هود نجد هذا المشهد : « قالوا : ياهود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول : إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . . قال : إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه ، فكيدونى جميعا ثم لا تنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ، مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم ؛ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربى قوما غيركم ، ولا تضرونه شيئا ، إن ربى

Marfat.com

على كل شيء حفيظ » . . ثم تجيء العاقبة : « ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ . وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا في هـذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ، ألا إن عادا كفروا ربهم ، ألا بعدا لعاد قوم هود ! » .

وفي قصة صالح نجد هذا المشهد : « قالوا : ياصالح قد كنت فينا مرجوًا قبل هذا ، أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا ؟ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب . قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تزيدونني غير تخسير » . . ثم تجيء العاقبة بعد عقر الناقة والتكذيب : « فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ . إن ربك هو القوي العزيز ، وأخذالذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا إن ثمود كفروا ربهم ، ألا بعدا لثمود ! » . .

وفي قصة شعيب نجد هذا المشهد : « قالوا : ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا مانشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد ! قال: ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقا حسنا ؟ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنـه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب . وياقوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح ، وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربي رحيم ودود . قالوا : ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز . قال : ياقوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخـذتموه وراءكم ظهريا ؟ إن ربي بما تعملون محيط . وياقوم اعملوا على مكانتكم إني عامل ، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب ، وارتقبوا إني معكم رقيب » . . ثم تجيء الخاتمة : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين . كأن لم يغنوا فيها ، ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود ! » . .

◆ ومن ذلك التعقيب على هذا القصص بتوجيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى دلالته ؛ والتسرية عنه بما أصاب إخوانه الكرام قبله ؛ وبما أولاهم الله من رعايته ونصره ؛

Marfat.com

وتوجيهه – صلى الله عليه وسلم – إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما فاصل الرسل الكرام أقوامهم على الحق الذى أرسلوا به . . وذلك إلى التنويه بدلالة هذا القصص ذاته على صدق دعواه فى الوحى والرسالة .

فبعد نهاية قصة نوح نجد هذا التعقيب : « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر ، إن العاقبة للمتقين » .

وفى نهاية القصص الوارد فى السورة نجد هذا التعقيب الطويل إلى ختام السورة : « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التى يدعون من دون الله من شىء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد » ... « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ؛ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم ، وإنهم لفى شك منه مريب . وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم ، إنه بما يعملون خبير . فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ، ولا تطغوا ، إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين » ... « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السماوات والأرض ، وإليـه يرجع الأمر كله ، فاعبده ، وتوكل عليـه ، وما ربك بغافل عما تعملون » . .

وهكذا يتجلى لنا الجانب الحركى فى التوجيه القرآنى ؛ وهكذا نرى القرآن يواجه واقع الدعوة والحركة فى كل مرحلة بالتوجيه المكافىء للموقف ؛ وهكذا نجد القصص فى القرآن يواجه مقتضيات الحركة وللمعركة مع الجاهلية فى مراحلها المختلفة مواجهة حية فاعلة ، شأنه شأن بقية السورة التى يجىء فيها ؛ ونجده فى الوقت ذاته متناسقا مع سياق السورة وجوها وموضوعها ،

Marfat.com

متوافقا مع أهـــدافها ، مصدقا فى عالم الواقع لما تقرره من توجيهات وأحكام وإيحاءات تقريرية .

* * *

ولقد جاء فى التعريف بسورة يونس من قبل فى الجزء الحادى عشر :

« ولقد كان آخر عهدنا ـ فى هذه الظلال ـ بالقرآن المكى سورة الأنعام وسورة الأعراف متواليتين فى ترتيب المصحف ـ وإن لم تكونا متواليتين فى ترتيب النزول ـ ثم جاءت الأنفال والتوبة بجوها وطبيعتها وموضوعاتها المدنية الخاصة ـ فالآن إذ نعود إلى القرآن المكى نجد سورتى يونس وهود متواليتين فى ترتيب المصحف وفى ترتيب النزول أيضا .. والعجيب أن هناك شبها كبيرا بين هاتين السورتين وهاتين ، فى الموضوع ، وفى طريقة عرض هذا الموضوع كذلك! وسورة الأنعام تتناول حقيقة العقيدة ذاتها وتواجه الجاهلية بها ؛ وتفند هذه الجاهلية ، عقيدة وشعورا ، وعبادة وعملا . بينما سورة الأعراف تتناول حركة هذه العقيدة فى الأرض ، وقصتها فى مواجهة الجاهلية على مدار التاريخ . وكذلك نحن هنا مع سورتى يونس وهود .. فى شبه كبير فى الموضوع وفى طريقة العرض أيضــا . . إلا أن سورة الأنعام تنفرد عن سورة يونس بارتفاع وضخامة فى الإيقاع ، وسرعــة وقوة فى النبض ، ولألاء شديد فى التصوير والحركة . بينما تمضى سورة يونس فى إيقاع رخى ، ونبض هادئ ، وسلاسة وديعة ! .. فأما هود فهى شديدة الشبه بالأعراف موضوعا وعرضا وإيقاعا ونبضــا . . ثم تبقى لــكل سورة شخصيتها الخاصة ، وملامحها المميزة ، بعــد كل هــذا التشابه والاختلاف » ..

فالآن نفصل هذه الإشارة المجملة :

إن سورة يونس تحتوى على جانب من القصص مجمل . إشارة إلى قصة نوح ، وإشارة إلى الرسل من بعده ، وشىء من التفصيل فى قصة موسى ، وإشارة مجملة إلى قصة يونس .. ولـكن القصص إنما يجىء فى الــورة شاهدا ومثالا لتصديق الحقائق الاعتقادية التى تستهدفها السورة .

أما سورة هود فالقصص فيها هو جسم الــورة . وهو وإن جاء شاهدا ومثالا لتصديق الحقائق الاعتقادية التى تستهدفها ؛ إلا أنه يبدو فيه أن استعراض حركة العقيدة الربانية فى التاريخ البشرى هو الهدف الواضح البارز .

Marfat.com

فذلك نجد تركيب السورة يحتوى على ثلاثة قطاعات متميزة :

القطاع الأول يتضمن حقائق العقيدة فى مقدمة السورة ويشغل حيزا محدودا .

والقطاع الثانى يتضمن حركة هذه الحقيقة فى التاريخ ويشغل معظم سياق السورة .

والقطاع الثالث يتضمن التعقيب على هذه الحركة فى حيز كذلك محدود ..

وواضح أن قطاعات السورة بجملتها تتعاون وتتناسق فى تقرير الحقائق الاعتقادية الأساسية التى يستهدفها سياق السورة كله ؛ وأن كل قطاع منها يقرر هذه الحقائق وفق طبيعته وطريقة تناوله لهذه الحقائق . وهى تختلف بين التقرير والقصص والتوجيه .

وهذه الحقائق الأساسية التى تستهدف السورة تقريرها هى :

• أن ماجاء به النبى - صلى الله عليه وسلم - وماجاء به الرسل من قبله حقيقة واحدة موحى بها من الله - سبحانه - وهى تقوم على الدينونة لله وحده بلا شريك . والتلقى فى هذه الدينونة عن رسل الله وحدهم كذلك . والمفاصلة بين الناس على أساس هذه الحقيقة :

ففى مقدمة السورة تجىء هذه الآيات عن حقيقة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله ، إننى لكم منه نذير وبشير » ..

« أم يقولون : افتراه ؟ قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟ » .

وفى قصص الرسل يرد عن حقيقة دعوتهم ؛ وعن المفاصلة بينهم وبين قومهم وأهلهم على أساس العقيدة :

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه ، إنى لكم منه نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » .

« قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم . أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ » . .

Marfat.com

« ونادى نوح ربه فقال : رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين .

قال : يانوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ماليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين » .

« وإلى عاد أخاهم هودا قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون » . .

« وإلى ثمود أخاهم صالحا ، قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب » . .

« قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير » . .

« وإلى مدين أخاهم شعيبا ، قال اعبدوا الله مالكم من إله غيره . . . » .

« قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا . . . » .

وفى التعقيب ترد هذه الآيات عن حقيقة الدعوة وعن المفاصلة بين الناس على أساسها :

« ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ، ثم لا تنصرون » . .

« ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون » . .

وهكذا تلتقى قطاعات السورة الثلاثة على تقرير هذه الحقيقة .

◆ ولكى يدين الناس لله وحده بالربوبية ، فإن السورة تتولى تعريفهم به سبحانه ، وتقرر كذلك أنهم فى قبضته فى هذه الدنيا ؛ وأنهم راجعون إليه يوم القيامة ليجزيهم الجزاء الأخير . .

وتتوافى مقاطع السورة الثلاثة فى تقرير هذه الحقيقة كذلك .

فى المقدمة يجىء :

« ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ، ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ،

Marfat.com

إنه عليم بذات الصدور. وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، كل فى كتاب مبين. وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام، وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا، ولئن قلت: إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا: إن هذا إلا سحر مبين. ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن: ما يحبسه؟ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون» ..

«من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا فيها، وباطل ما كانوا يعملون» ..

وفى قصص الرسل تجيء أمثال هذه التعريفات:

«إنى توكلت على الله ربى وربكم، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم. فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا، إن ربى على كل شيء حفيظ» ..

«وإلى ثمود أخاهم صالحا. قال: ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها، فاستغفروه ثم توبوا إليه، إن ربى قريب مجيب» ..

وفى التعقيب يجيء:

«وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة. إن أخذه أليم شديد» ..

«وإن كلاً لما ليوفينهم ربك أعمالهم، إنه بما يعملون خبير» .

«وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون. ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين» ..

وهكذا تتوافى قطاعات السورة الثلاثة كذلك على التعريف بحقيقة الألوهية وحقيقة الآخرة فى سياقها.

وهى لا تستهدف إثبات وجود الله ــ سبحانه ــ إنما تستهدف تقرير ربوبية الله وحده فى

Marfat.com

حياة البشر ، كما أنها مقررة فى نظام الكون .. فقضية الألوهية لم تكن محل خلاف ؛ إنما قضية الربوبية هى التى كانت تواجهها الرسالات ؛ وهى التى كانت تواجهها الرسالة الأخيرة . إنها قضية الدينونة لله وحده بلا شريك ؛ والخضوع لله وحده بلا منازع . ورد أمر الناس كلهم إلى سلطانه وقضائه وشريعته وأمره . كما هو واضح من هذه المقتطفات من قطاعات السورة جميعا .

* * *

وفى سبيل إنشاء تلك الحقائق الاعتقادية فى الضمائر ، وتثبيتها فى النفوس ، وتعميقها فى الكيان البشرى ، وبث الحياة النابضة الدافعة فيها بحيث تستحيل قوة إيجابية موحية ، مكيفة للمشاعر والتصورات والأعمال والحركات .. فى سبيل إنشاء تلك الحقائق على هذا النحو وفى هذا المستوى يحتوى سياق السورة على شتى المؤثرات الموحية والإيقاعات التى تلمس أوتار الكيان البشرى، كلها فى عمق واستجاشة ، وهو يعرض هذه الحقائق ويفصلها ..

◆ يحتوى الكثير من الترغيب والترهيب .. الترغيب فى خير الدنيا والآخرة لمن يستجيب لداعى الدينونة لله وحده بلا شريك ،وما تحمله للبشرية من خير وصلاح ونماء .. والترهيب بالحرمان من خير الدنيا أو الآخرة ؛ وبالعذاب فى الدنيا أو فى الآخرة لمن يعرضون عن هذا الداعى ، ويسلكون طريق الطواغيت حيث يسلمونهم فى الآخرة إلى جهنم ، التى يقودون لها أتباعهم فى الآخرة جزاء ما استسلم لقيادتهم هؤلاء الأتباع فى الدنيا ؛ ورضوا بالدينونة لهم دون الدينونة لله تعالى . وهذه نماذج من الترهيب والترغيب :

« ... ألا تعبدوا إلا الله ، إننى لكم منه نذير وبشير ،وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم ، وهو على كل شىء قدير » ..

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها ، وهم فيها لا يبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ما صنعوا فيها ، وباطل ما كانو يعملون » ..

« أفمن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ؟

Marfat.com

أولئك يؤمنون به ،ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلاتك فى مرية منه إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لايؤمنون . ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟ أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلا ؟ أفلا تذكرون ؟ » .

« وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين » ... « فإن تولوا فقد أبلغتكم ماأرسلت به ، ويستخلف ربى قوما غيركم ، ولا تضرونه شيئا ، إن ربى على كل شىء حفيظ » ..

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه ، فاتبعوا أمر فرعون ، وما أمر فرعون برشيد . يقدم قومه يوم القيامة ، فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود . وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود ! » ...

... إلخ ... إلخ ..

◆ ويحتوى السياق ذلك القصص الطويل الذى يصدق ذلك الترغيب والترهيب فى حركة العقيدة على مدار التاريخ ؛ من مصارع المكذبين ونجاة المؤمنين ـ على النحو الذى سبق فى بعض المقتطفات ـ ويبرز مشهد الطوفان بصفة خاصة ؛ ويبلغ نبض السورة أعلى مستواه فى ثنايا هذا المشهد الكونى الفريد :

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال : إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم . حتى إذا جاء أمرنا وفار

Marfat.com

التنور قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك - إلا من سبق عليه القول - ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل . وقال : اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها إن ربى لغفور رحيم . وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه - وكان فى معزل - يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ! قال : لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل : ياأرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى وغيض الماء ، وقضى الأمر واستوت على الجودى ، وقيل : بعداً للقوم الظالمين » ... الخ ...

الخ ... الخ ...

• ويحتوى بعض صور النفس البشرية فى مواجهة الأحداث الجارية بالنعماء والبأساء ؛ فيرفع المكذبين المستعجلين بالعذاب ، المتحدين للنذر فى استهتار .. يرفع لهم صور أنفسهم وهم فى مواجهة ما يستعجلون به حين يحل بهم ؛ وفى الـ ... رات التى تصيب أنفسهم على تقلب الأحداث بهم ؛ وفوت النعمة وإفلاتها من أيديهم ؛ وفى البطر والغرور والانخداع بكشف الضر وفيض النعمة من جديد :

« ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن : مايحبسه ؟ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم . وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون . ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ، ثم نزعناها منه ، إنه ليئوس كفور . ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عنى ، إنه لفرح فخور . إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات ، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » ...

• ويحتوى شيئا من مشاهد القيامة ؛ وصور المكذبين فيها ؛ ومواجهتهم لربهم الذى كذبوا بوحيه وتولوا عن رسله ؛ وما يجدونه يومئذ من خزى ؛ لا ينصرهم منه أرباب ولا شفعاء :

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟ أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ! ألا لعنة الله على الظالمين ! الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ،

Marfat.com

أولئك الذين خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون » .

« إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ، ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقى وسعيد . فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها مادامت السماوات والأرض - إلا ماشاء ربك - إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض - إلا ماشاء ربك - عطاء غير مجذوذ » .

● ومن المؤثرات التى ترتجف لها القلوب مايصوره السياق من حضور الله سبحانه واطلاعه على ما يخفى البشر من ذوات الصدور ؛ بينما هم غارون لا يستشعرون حضوره سبحانه . ولا علمه المحيط ؛ ولا يحسون قهره للخلائق وإحاطته بها جميعا ، وهم - الذين يكذبون - فى قبضته كسائر الخلائق ، من حيث لا يشعرون :

« إلى الله مرجعهم جميعا ، وهو على كل شىء قدير . ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ! ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور . وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها ، كل فى كتاب مبين » .

« إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم » .

● ومن المؤثرات الموحية فى سياق السورة كذلك ، استعراض موكب الإيمان . بقيادة الرسل الكرام ، على مدار الزمان . وكل منهم يواجه الجاهلية الضالة بكلمة الحق الواحدة الحاسمة الجازمة ، فى صراحة وفى صرامة ، وفى ثقة وطمأنينة ويقين . . وقد مر جانب من هذا الاستعراض فى المقتطفات السابقة ، والبقية ستأتى فى موضعها فى تفسير السورة . ومما لاشك فيه أن وحدة موقف الرسل الكرام ، ووحدة الحقيقة التى يواجهون بها الجاهلية على مدار الزمان ؛ ووحدة العبارات المحكية عنهم التى تتضمن هذه الحقيقة ... يحمل فى طياته ما يحمل من قوة وإيقاع وإيحاء . .

وحسبنا فى تقديم السورة هذه الإشارات المجملة حتى نلتقى بنصوص السورة مفصلة . . . . والله المستعان . .

Marfat.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

« الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ *
أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ
تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ، وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ؛
وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ * إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ
كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ .
« أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ، أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ
يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ، إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ
إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ، كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ .
« وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ، وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ،
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ؛ وَلَئِن قُلْتَ : إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ : إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .
« وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ : مَا يَحْبِسُهُۥٓ ؟ أَلَا يَوْمَ
يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ ، وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ .
« وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ * وَلَئِنْ
أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ : ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ *
إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ، أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ .
« فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ : لَوْلَآ

Marfat.com

أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ ، إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ، وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * أَمْ يَقُولُونَ : افْتَرَاهُ ؟ قُلْ : فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ، وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ، وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ، فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ؟

« مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا ، وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ * أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

« أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ، وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ، وَمِن قَبْلِهِ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ؟ أُولَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ ، إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ؟ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ، وَيَقُولُ الْأَشْهَٰدُ : هَٰٓؤُلَآءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ، أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّٰلِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ، وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ * أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ، يُضَٰعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ . مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ * أُولَٰٓئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ * لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ، أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ : هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ » (٢)

Marfat.com

هذا الدرس الأول من السورة يمثل المقدمة - التي يتوسط القصص بينها وبين التعقيب - وهي تتضمن عرض الحقائق الأساسية في العقيدة الإسلامية : توحيد الدينونة لله الواحد بلا منازع ، وعبادة الله وحده بلا شريك ؛ والاعتقاد في البعث والقيامة للحساب والجزاء على ما كان من الناس من عمل وكسب في دار العمل والابتلاء . . مع تعريف الناس بربهم الحق ؛ وصفاته المؤثرة في وجودهم وفي وجود الكون من حولهم ؛ وبيان حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، ومقتضاها في حياة البشرية . وتوكيد الدينونة لله في الآخرة كالدينونة له سبحانه في الحياة الدنيا .

كذلك تتضمن هذه المقدمة بيانا لطبيعة الرسالة وطبيعة الرسول ؛ كما تتضمن تسلية وترويحا للرسول - صلى الله عليه وسلم - في وجه العناد والتكذيب ، والتحدي والمكابرة ، التي كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يواجهها في تلك الفترة العصيبة في حياة الدعوة بمكة ، كما أسلفنا في التعريف بالسورة . مع تحدي المشركين بهذا القرآن الذي يكذبون به ، أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات - كما يزعمون أن هذا القرآن مفترى - و تثبيت الرسول - صلى الله عليه وسلم - والقلة المؤمنة معه بهذا التحدي من الله وبذلك العجز من المشركين !

ومع هذا التحدي تهديد قاصم للمكذبين بما ينتظرهم في الآخرة من العذاب الذي يستعجلون به ويكذبون . وهم الذين لا يطيقون أن تنزع منهم رحمة الله في الدنيا ، ولا يصبرون على ابتلائه فيها وهو أيسر من عذاب الآخرة !

ثم يجسم هذا التهديد في مشهد من مشاهد القيامة ؛ يتمثل فيه موقف المكذبين بهذا القرآن من أحزاب المشركين ؛ ويتبين فيه عجزهم وعجز أوليائهم عن إنقاذهم من العذاب الأليم ، المصحوب بالخزي والتشهير والتنديد والتأنيب . وفي الصفحة المقابلة من المشهد . . الذين آمنوا وعملوا الصالحات وما ينتظرهم من الثواب والنعيم والتكريم . . ومشهد مصور للفريقين - على طريقة القرآن الكريم في التعبير بالتصوير - : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلا ؟ أفلا تذكرون ؟ » . .

* * *

Marfat.com

« آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله ، إنى لكم منه نذير وبشير،وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله ، وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير . إلى الله مرجعكم جميعا . وهو على كل شيء قدير »

إنها جملة الحقائق الاعتقادية الأساسية :

- إثبات الوحى والرسالة
- العبودية لله وحده بلا شريك
- جزاء الله فى الدنيا والآخرة لمن يهتدون بهداه ويتبعون منهجه للحياة
- جزاء الله فى الآخرة للمكذبين ، وعودة الجميع إلى الله عصاة وطائعين
- قدرته المطلقة وسلطانه غير المحدود .

« ألف . لام . راء » : مبتدأ ، خبره : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » .. وهذا الكتاب المؤلف من مثل هذه الأحرف هو الذى يكذبون به . وهم عن شيء من مثله عاجزون !

« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » . .

أحكمت آياته ، فجاءت قوية البناء ، دقيقة الدلالة ، كل كلمة فيها وكل عبارة مقصودة ، وكل معنى فيها وكل توجيه مطلوب،وكل إيماءة وكل إشارة ذات هدف معلوم.متناسقة لا اختلاف بينها ولا تضارب ، ومنسقة ذات نظام واحد . ثم فصلت . فهى مقسمة وفق أغراضها ، مبوبة وفق موضوعاتها ، وكل منها له حيز بمقدار مايقتضيه .

أما من أحكمها ، ومن فصلها على هذا النحو الدقيق ؟ فهو الله سبحانه،وليس هو الرسول :

« من لدن حكيم خبير » . .

يحكم الكتاب عن حكمة ، ويفصله عن خبرة . . هكذا جاءت من لدنه ، على النحو الذى أنزل على الرسول ، لاتغيير فيها ولا تبديل .

وماذا تضمنت ؟

Marfat.com

إنه يذكر أمهات العقيدة وأصولها :

« أن لا تعبدوا إلا الله » . . فهو توحيد الدينونة والعبودية والاتباع والطاعة .

« إنني لكم منه نذير وبشير » . . فهي الرسالة ، وما تضمنته من نذارة وبشارة .

« وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه » . . فهي العودة إلى الله من الشرك والمعصية ، إلى التوحيد والدينونة .

« يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله » . . فهو الجزاء للتائبين المستغفرين .

« وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير » . . فهو الوعيد للمتولين .

« إلى الله مرجعكم » . . فهي الرجعة إلى الله في الدنيا والآخرة .

« وهو على كل شيء قدير » . . فهي القدرة المطلقة والسلطان الشامل .

هذا هو الكتاب . أو هو آيات الكتاب . فهذه هي القضايا الهامة التي جاء ليقررها ويقيم عليها بناءه كله بعد تقريرها .

وما كان لدين أن يقوم في الأرض ، وأن يقيم نظاما للبشر ، قبل أن يقرر هذه القواعد .

فتوحيد الدينونة لله وحده هو مفرق الطريق بين الفوضى والنظام في عالم العقيدة ؛ وبين تحرير البشرية من عقال الوهم والخرافة والسلطان الزائف ، أو استعبادها للأرباب المتفرقة ونزواتهم ، وللوسطاء عند الله من خلقه ! وللملوك والرؤساء والحكام الذين يغتصبون أخص خصائص الألوهية — وهي الربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية — فيعبدون الناس لربوبيتهم الزائفة المغتصبة .

وما من نظام اجتماعي أو سياسي أو اقتصادي أو أخلاقي أو دولي ، يمكن أن يقوم على أسس واضحة فاصلة ثابتة ، لا تخضع للهوى والتأويلات المغرضة ، إلا حين تستقر عقيدة التوحيد هكذا بسيطة دقيقة .

وما يمكن أن يتحرر البشر من الذل والخوف والقلق ؛ ويستمتعوا بالكرامة الحقيقية التي

Marfat.com

أكرمهم بها الله ، إلا حين يتفرد الله سبحانه بالربوبية والقوامة والسلطان والحاكمية ، ويتجرد منها العبيد فى كل صورة من الصور .

وما كان الخلاف على مدار التاريخ بين الجاهلية والإسلام ؛ ولا كانت المعركة بين الحق والطاغوت ، على ألوهية الله ـ سبحانه ـ للكون ؛ وتصريف أموره فى عالم الأسباب والنواميس الكونية . إنما كان الخلاف وكانت المعركة على من يكون هو رب الناس ، الذى يحكمهم بشرعه ، ويصرفهم بأمره ، ويدينهم بطاعته ؟

لقد كان الطواغيت المجرمون فى الأرض يغتصبون هذا الحق ويزاولونه فى حياة الناس ويذلونهم بهذا الاغتصاب لسلطان الله ، ويجعلونهم عبيداً لهم من دون الله . وكانت الرسالات والرسل والدعوات الإسلامية تجاهد دائماً لانتزاع هذا السلطان المغتصب من أيدى الطواغيت ورده إلى صاحبه الشرعى . . الله سبحانه . .

والله ـ سبحانه ـ غنى عن العالمين . لاينقص فى ملكه شيئاً عصيان العصاة وطغيان الطغاة ولا يزيد فى ملكه شيئاً طاعة الطائعين وعبادة العابدين . . ولكن البشر ـ هم أنفسهم ـ الذين يذلون ويصغرون ويسفلون حين يدينون لغير الله من عباده ؛ وهم الذين يعزون ويكرمون ويستعلون حين يدينون لله وحده ، ويتحررون من العبودية للعبيد . . ولما كان الله ـ سبحانه ـ يريد لعباده العزة والكرامة والاستعلاء فقد أرسل رسله ليردوا الناس إلى عبادة الله وحده وليخرجوهم من عبادة العبيد . . لخيرهم هم أنفسهم . . والله غنى عن العالمين .

إن الحياة البشرية لا تبلغ مستوى الكرامة الذى يريده الله للإنسان إلا بأن يعزم البشر أن يدينوا لله وحده ، وأن يخلعوا من رقابهم نير الدينونة لغير الله . ذلك النير المذل لكرامة الإنسان فى أية صورة قد كان !

والدينونة لله وحده تتمثل فى ربوبيته للناس وحده . والربوبية تعنى القوامة على البشر وتصريف حياتهم بشرع وأمر من عند الله ، لا من عند أحد سواه .

وهذا مايقرره مطلع هذه السورة الكريمة أنه موضوع كتاب الله وفحواه :

« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير: ألا تعبدوا إلا الله » . .

وهذا هو معنى العبادة كما يعرفه العرب فى لغتهم التى نزل بها كتاب الله الكريم .

Marfat.com

والإقرار بالرسالة أساس للتصديق بهذه القضايا التي جاءت الرسالة لتقريرها . وكل شك في أن هذا من عند الله ، كفيل بتحطيم احترامها الملزم في عالم الضمير . والذين يظنون أنها من عند محمد - مهما أقروا بعظمة محمد - لا يمكن أن تنال من نفوسهم الاحترام الملزم ، الذي يتحرجون معه أن يتفلتوا منها في الكبير أو الصغير .. إن الشعور بأن هذه العقيدة من عند الله هو الذي يطارد ضمائر العصاة حتى يثوبوا في النهاية إلى الله ، وهو الذي يمسك بضمائر الطائعين ، فلا تتلجلج ولا تتردد ولا تحيد .

كما أن الإقرار بالرسالة هو الذي يجعل هناك ضابطاً لما يريده الله من البشر . كي يتلقى البشر في كل ما يتعلق بالدينونة لله من مصدر واحد ، هو هذا المصدر . وكي لا يقوم كل يوم طاغوت مفتر يقول للناس قولا ، ويشرع للناس شرعا ، ثم يزعم أنه شرع الله وأمره ! بينما هو يفتريه من عند نفسه !

وفي كل جاهلية كان يقوم من يشرع الشرائع ، ومن يقرر القيم والتقاليد والعادات .. ثم يقول : هذا من عند الله !!!

وما يحسم هذه الفوضى وهذا الاحتيال على الناس باسم الله ، إلا أن يكون هناك مصدر واحد - هو الرسول - لقول الله .

والاستغفار من الشرك والمعصية هو دليل حساسية القلب وانتفاضه ، وشعوره بالإثم ورغبته في التوبة . والتوبة بعد ذلك هي الإقلاع الفعلي عن الذنب ، والأخذ في مقابله في أعمال الطاعة . ولا توبة بغير هذين الدليلين ، فهما الترجمة العملية للتوبة ، وبهما يتحقق وجودها الفعلي ، الذي ترجى معه المغفرة والقبول .. فإذا زعم زاعم أنه تاب من الشرك ودخل في الإسلام ، بينما هو لا يدين لله وحده ، ولا يتلقى منه وحده عن طريق نبيه ؛ فلا قيمة لهذا الزعم الذي يكذبه واقع الدينونة لغير الله . .

والبشرى للتائبين والوعيد للمتولين هما قوام الرسالة ، وقوام التبليغ . وهما عنصرا الترغيب والترهيب ، اللذان علم الله من طبيعة البشر أنهما الحافز القوي العميق !

والاعتقاد باليوم الآخر ضروري لاكتمال الشعور بأن وراء الحياة حكمة ، وأن الخير الذي

Marfat.com

تدعو إليه الرسالات هو غاية الحياة؛ ومن ثم لابد أن يلقى جزاءه: فإن لم يلقه فى هذه الحياة الدنيا فجزاؤه مضمون فى العالم الآخر، الذى تصل فيه الحياة البشرية إلى الكمال المقدر لها. أما الذين يزيغون عن نهج الله وحكمته فى الحياة فهؤلاء يرتكسون وينتكسون إلى درك العذاب. وفى هذا ضمان للفطرة السليمة ألا تنحرف. فإن غلبتها شهوة أو استبد بها ضعف عادت تائبة، ولم تلج فى العصيان. ومن ثم تصلح هذه الأرض لحياة البشر. وتمضى الحياة على سنتها فى طريق الخير. فالاعتقاد باليوم الآخر ليس طريقا للثواب فى الآخرة حسب – كما يعتقد بعض الناس – إنما هو الحافز على الخير فى الحياة الدنيا. والحافز على إصلاحها وإنمائها. على أن يراعى فى هذا النماء أنه ليس هدفا فى ذاته. إنما هو وسيلة لتحقيق حياة لائقة بالإنسان الذى نفخ الله فيه من روحه، وكرمه على كثير من خلقه، ورفعه عن درك الحيوان؛ لتكون أهداف حياته أعلى من ضرورات الحيوان؛ ولتكون دوافعه وغاياته أرفع من دوافع الحيوان وغاياته.

ومن ثم كان مضمون الرسالة أو مضمون آيات الكتاب المحكمة المفصلة، بعد توحيد الدينونة لله، وإثبات الرسالة من عنده.. الدعوة إلى الاستغفار من الشرك والتوبة. وهما بدء الطريق للعمل الصالح. والعمل الصالح ليس مجرد طيبة فى النفس وشعائر مفروضة تقام. إنما هو الإصلاح فى الأرض بكل معانى الإصلاح، من بناء وعمارة ونشاط ونماء وإنتاج والجزاء المشروط:

« يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى. ويؤت كل ذى فضل فضله »

والمتاع الحسن قد يكون بالنوع كما يكون بالكم فى هذه الحياة الدنيا. أما فى الآخرة فهو بالنوع والكم وبما لم يخطر على قلب بشر. فلننظر فى المتاع الحسن فى هذه الحياة.

إننا نشاهد كثيرا من الطيبين الصالحين، المستغفرين التائبين، العاملين فى الحياة.. مضيقا عليهم فى الرزق. فأين إذن هو المتاع الحسن؟

وهو سؤال نعتقد أنه يتحرك على ألسنة الكثيرين!

ولا بد لإدراك المعنى الكبير الذى يتضمنه النص القرآنى أن ننظر إلى الحياة من زاوية

Marfat.com

أوسع . وننظر إليها فى محيطها الشامل العام ، ولا نقتصر منها على مظهر عابر .

إنه ما من جماعة يسود فيها نظام صالح ، قائم على الإيمان بالله ، والدينونة له وحده ، وإفراده بالربوبية والقوامة ، وقائم على العمل الطيب المنتج فى الحياة .. إلا كان لها التقدم والرخاء والحياة الطيبة بصفة عامة كجماعة ؛ وإلا سادفيها العدل بين الجهد والجزاء والرضى والطمأنينة بالقياس إلى الأفراد بصفة خاصة . فإذا شاهدنا فى جماعة ما أن الطيبين العاملين المنتجين مضيق عليهم فى الرزق والمتاع الطيب ، فذلك شاهد على أن هذه الجماعة لا يسودها النظام المستمد من الإيمان بالله، القائم على العدل بين الجهد والجزاء .

على أن الأفراد الطيبين الصالحين المنتجين فى هـذه الجماعـة يمتعون متاعا حسنا ، حتى لو ضيق عليهم فى الرزق ، وحتى لو كانت الجماعـة تطاردهم وتؤذيهم ، كما كان المشركون يؤذون القـلة المؤمنـة ، وكما تؤذى الجاهليات القلة الداعيـة إلى الله . وليس هـذا خيالا وليس ادعاء . فطمأنينة القلب إلى العاقبـة ، والاتصال بالله ، والرجـاء فى نصره وفى إحسـانه وفضله .. عوض عن كثير ؛ ومتاع حسن للإنسان الذى يرتفع درجة عن الحس المادى الغليظ .

ولا نقول هـذا ندعو المظلومين الذين لا يجدون جزاء عـادلا على جهـدهم إلى الرضى بالأوضاع المنافية للعدالة . فالإسلام لا يرضى بهذا ، والإيمان لا يسكت على مثل تلك الأوضاع . والجماعة المؤمنة مطالبة بإزالتها وكذلك الأفراد ، ليتحقق المتاع الحسن للطيبين العاملين المنتجين . إنما نقوله لأنه حق يحس به المؤمنون المتصلون بالله ، المضيق عليهم فى الرزق ، وهم مع هـذا يعملون ويجاهـدون لتحقيق الأوضاع التى تكفل المتاع الحسن لعباد الله المستغفرين التائبين العاملين بهدى الله .

« ويؤت كل ذى فضل فضله » ..

خصصها بعض المفسرين بجزاء الآخرة . وأرى أنها عامة فى الدنيا والآخرة ، على النحو الذى فسرنا به المتاع الحسن فى الدنيا ؛ وهو متحقق فى جميع الأحوال . وذو الفضل يلقى جزاءه فى اللحظة التى يبذل فيها الفضل . يجده رضى نفسيا وارتياحا شعوريا ، واتصالا بالله وهو

Marfat.com

يبذل الفضل عملا أو مالا متجها به إلى الله . أما جزاء الله له بعد ذلك فهو فضل من الله وسماحة فوق الجزاء .

« وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير » ..

هو عذاب يوم القيامة . لاعذاب يوم بدر كما يقول بعض المفسرين . فاليوم الكبير حين يطلق هكذا ينصرف إلى اليوم الموعود . ويقوى هذا مابعده :

« إلى الله مرجعكم » .

وإن كان المرجع إلى الله فى الدنيا والآخرة وفى كل لحظة وفى كل حالة . ولكن جرى التعبير القرآنى على أن المرجع هو الرجعة بعد الحياة الدنيا ..

« وهو على كل شىء قدير » ..

وهذه كذلك تقوّى هذا المعنى، لأن التلويح بالقدرة على كل شىء ، مناسب للبعث الذى كانوا يستبعدونه ويستصعبونه !

* * *

وبعد إعلان خلاصة الكتاب الذى أحكمت آياته ثم فصلت مّن لدن حكيم خبير . . يمضى السياق يعرض كيف يتلقى فريق منهم تلك الآيات ، عندما يقدمها لهم النذير البشير ، ويصور الوضع الحسى الذى يتخذونه والحركة المادية المصاحبة له وهى إحناء رؤوسهم وثنى صدورهم للتخفى . ويكشف عن العبث فى تلك المحاولة وعلم الله يتابعهم فى أخفى أوضاعهم ؛ وكل دابة فى الأرض مثلهم يشملها العلم اللطيف الدقيق :

« ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه . ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم مايسرون وما يعلنون ، إنه عليم بذات الصدور . وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها . كل فى كتاب مبين » ..

والآيتان الكريمتان تستحضران مشهدا فريدا ترجف له القلوب حين تدبره وتصوره !

ويالها من رهبة غامرة ، وروعة باهرة ، حين يتصور القلب البشرى حضور الله ـ سبحانه ـ

Marfat.com

وإحاطة علمه وقهره ؛ بينما أولئك العبيد الضعاف يحاولون الاستخفاء منه وهم يواجهون آياته يتلوها رسوله :

« ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه . ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون . إنه عليم بذات الصدور » ..

ولعل نص الآية إنما يصور حالة واقعة كانت تصدر من المشركين ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسمعهم كلام الله ؛ فيثنون صدورهم ويطأطئون رؤوسهم استخفاء من الله الذي كانوا يحسون في أعماقهم أنه قائل هذا الكلام .. وذلك كما ظهر منهم في بعض الأحيان !

ولا يكمل السياق الآية حتى يبين عبث هذه الحركة ، والله ، الذي أنزل هذه الآيات ، معهم حين يستخفون وحين يبرزون . ويصور هذا المعنى - على الطريقة القرآنية - في صورة مرهوبة ، وهم في وضع خفي دقيق من أوضاعهم . حين يأوون إلى فراشهم ، ويخلون إلى أنفسهم ، والليل لهم ساتر ، وأغطيتهم لهم ساتر . ومع ذلك فالله معهم من وراء هذه الأستار حاضر ناظر قاهر . يعلم في هذه الخلوة ما يسرون وما يعلنون :

« ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون » ..

والله يعلم ما هو أخفى . وليست أغطيتهم بساتر دون علمه . ولكن الإنسان يحس عادة في مثل هذه الخلوة أنه وحيد لا يراه أحد . فالتعبير هكذا يلمس وجدانه ويوقظه ، ويهزه هزة عميقة إلى هذه الحقيقة التي قد يسهو عنها ، فيخيل إليه أن ليس هناك من عين تراه !

« إنه عليم بذات الصدور » ..

عليم بالأسرار المصاحبة للصدور ، التي لا تفارقها ، والتي تلازمها كما يلازم الصاحب صاحبه ، أو المالك ملكه .. فهي لشدة خفائها سميت ذات الصدور . ومع ذلك فالله بها عليم .. وإذن فما من شيء يخفى عليه ، وما من حركة لهم أو سكنة تذهب أو تضيع .

« وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها ؛ كل في كتاب مبين » ..

وهذه صورة أخرى من صور العلم الشامل المرهوب . . هذه الدواب - وكل ما تحرك على

Marfat.com

الأرض فهو دابة من إنسان وحيوان وزاحفة وهامة . مامن دابة من هذه الدواب التى تملأ وجه البسيطة ، وتكمن فى باطنها ، وتخفى فى دروبها ومساربها . مامن دابة من هذه الدواب التى لايحيط بها حصر ولايكاد يلم بها إحصاء .. إلا وعند الله علمها . وعليه رزقها ، وهو يعلم أين تستقر وأين تكمن . من أين تجىء وأين تذهب . . وكل منها . كل من أفرادها مقيد فى هذا العلم الدقيق .

إنها صورة مفصلة للعلم الإلهى فى حالة تعلقه بالمخلوقات ، يرتجف لها كيان الإنسان حين يحاول تصورها بخياله الإنسانى فلا يطيق .

ويزيد على مجرد العلم ، تقدير الرزق لكل فرد من أفراد هذا الحشد الذى يعجز عن تصوره الخيال . وهذه درجة أخرى ، الخيال البشرى عنها أعجز إلا بإلهام من الله . .

وقد أوجب الله ــ سبحانه ــ على نفسه مختارا أن يرزق هذا الحشد الهائل الذى يدب على هذه الأرض . فأودع هذه الأرض القدرة على تلبية حاجات هذه المخلوقات جميعا ، وأودع هذه المخلوقات القدرة على الحصول على رزقها من هذا المودع فى الأرض فى صورة من صوره . ساذجا خامة ، أو منتجا بالزرع ، أو مصنوعا ، أو مركبا . . إلى آخر الصور المتجددة لإنتاج الرزق وإعداده . حتى إن بعضها ليتناول رزقه دما حيا مهضوما مثلا كالبعوضة والبرغوث ! !

وهذه هى الصورة اللائقة بحكمة الله ورحمته فى خلق الكون على الصورة التى خلقه بها ؛ وخلق هذه المخلوقات بالاستعدادات والمقدرات التى أوتيتها . وبخاصة الإنسان . الذى استخلف فى الأرض ، وأوتى القدرة على التحليل والتركيب ، وعلى الإنتاج والإنماء ، وعلى تعديل وجه الأرض ، وعلى تطوير أوضاع الحياة ؛ بينما هو يسعى لتحصيل الرزق ، الذى لايخلقه هو خلقا ، وإنما ينشئه مما هو مذخور فى هذا الكون من قوى وطاقات أودعها الله ؛ بمساعدة النواميس الكونية الإلهية التى تجعل هذا الكون يعطى مدخراته وأقواته لكافة الأحياء !

وليس المقصود أن هناك رزقا فرديامقدرا لايأتى بالسعى ، ولا يتأخر بالقعود ، ولا يضيع بالسلبية والكسل ، كما يعتقد بعض الناس ! وإلا فأين الأسباب التى أمر الله بالأخذ بها ، وجعلها جزءا من نواميسه ؟ وأين حكمة الله فى إعطاء المخلوقات هذه القدرات والطاقات ؟

Marfat.com

وكيف تترقى الحياة فى مدارج الكمال المقدر لها فى علم الله ، وقد استخلف عليها الإنسان ليؤدى دوره فى هذا المجال ؟

إن لكل مخلوق رزقا . هذا حق . وهذا الرزق مذخور فى هذا الكون . مقدر من الله فى سننه التى ترتب النتائج على الجهد . فلا يقعدن أحد عن السعى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة . ولكن السماء والأرض تزخران بالأرزاق الكافية لجميع المخلوقات . حين تطلبها هذه المخلوقات حسب سنة الله التى لا تحابى أحدا ، ولا تتخلف أو تحيد .

إنما هو كسب طيب وكسب خبيث ، وكلاهما يحصل من عمل وجهد . إلا أنه يختلف فى النوع والوصف . وتختلف عاقبة المتاع بهذا وذاك .

ولا ننسى المقابلة بين ذكر الدواب ورزقها هنا ؛ وبين المتاع الحسن الذى ذكر فى التبليغ الأول . والسياق القرآنى المحكم المتناسق لا تفوته هذه اللفتات الأسلوبية والموضوعية ، التى تشارك فى رسم الجو فى السياق .

وهاتان الآيتان الكريمتان هما بدء تعريف الناس بربهم الحق الذى عليهم أن يدينوا له وحده . أى أن يعبدوه وحده . فهو العالم المحيط علمه بكل خلقه ، وهو الرازق الذى لا يترك أحدا من رزقه . وهذه المعرفة ضرورية لعقد الصلة بين البشر وخالقهم ؛ ولتعبيد البشر للخالق الرازق العليم المحيط .

* * *

ثم يمضى السياق فى تعريف البشر بربهم ، وإطلاعهم على آثار قدرته وحكمته . فى خلق السماوات والأرض بنظام خاص فى أطوار أو آماد محكمة ، لحكمة كذلك خاصة . يبرز منها السياق هنا ما يناسب البعث والحساب والعمل والجزاء :

« وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ، وكان عرشه على الماء ، ليبلوكم أيكم أحسن عملا . ولئن قلت : إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين » . .

Marfat.com

وخلق السماوات والأرض فى ستة أيام تحدثنا عنه فى سورة يونس [١] . وهو يساق هنا للربط بين النظام الذى يقوم عليه الكون والنظام الذى تقوم عليه حياة الناس .

« ليبلوكم أيكم أحسن عملا » .

والجديد هنا فى خلق السماوات والأرض هو الجملة المعترضة : « وكان عرشه على الماء » وما تفيده من أنه عند خلق السماوات والأرض أى إبرازهما إلى الوجود فى شكلهما الذى انتهيا إليه كان هناك الماء ؛ وكان عرش الله سبحانه على الماء . .

أما كيف كان هذا الماء ، وأين كان ، وفى أية حالة من حالاته كان . وأما كيف كان عرش الله على هذا الماء . . فزيادات لم يتعرض لها النص ، وليس لمفسر يدرك حدوده أن يزيد شيئا على مدلول النص ، فى هذا الغيب الذى ليس لنا من مصدر لعلمه إلا هذا النص وفى حدوده .

وليس لنا أن نتلمس للنصوص القرآنية مصداقا من النظريات التى تسمى « العلمية » ـ حتى ولو كان ظاهر النص يتفق مع النظرية وينطبق ـ فالنظريات « العلمية » قابلة دائما للانقلاب رأسا على عقب ، كلما اهتدى العلماء إلى فرض جديد ، وامتحنوه فوجدوه أقرب إلى تفسير الظواهر الكونية من الفرض القديم الذى قامت عليه النظرية الأولى . والنص القرآنى صادق بذاته ، اهتدى العلم إلى الحقيقة التى يقررها أم لم يهتد . وفرق بين الحقيقة العلمية والنظرية العلمية . فالحقيقة العلمية قابلة للتجربة ـ وإن كانت دائما احتمالية وليست قطعية ـ أما النظرية العلمية فهى قائمة على فرض يفسر ظاهرة كونية أو عدة ظواهر ، وهى قابلة للتغيير والتبديل والانقلاب . . ومن ثم لا يحمل القرآن عليها ولا تحمل هى على القرآن . فلها طريق غير طريق القرآن . ومجال غير مجال القرآن .

وتلمس موافقات من النظريات « العلمية » للنصوص القرآنية هو هزيمة لجدية الإيمان بهذا القرآن واليقين بصحة مافيه ، وأنه من لدن حكيم خبير . هزيمة ناشئة من الفتنة « بالعلم » . وإعطائه أكثر من مجاله الطبيعى الذى لا يصدق ولا يوثق به إلا فى دائرته . فليتنبه إلى دبيب الهزيمة فى نفسه من يحسب أنه بتطبيق القرآن على « العلم » يخدم القرآن ويخدم العقيدة ، ويثبت

(١) ص ١١٤ ـ ص ١١٦ من الجزء الحادى عشر . الطبعة الثانية المنقحة .

Marfat.com

الإيمان ! إن الإيمان الذى ينتظر كلمة العلم البشرى المتقلبة ليثبت لهو إيمان يحتاج إلى إعادة النظر فيه ! إن القرآن هو الأصل والنظريات العلمية توافقه أو تخالفه سواء . أما الحقائق العلمية التجريبية فمجالها غير مجال القرآن . وقد تركها القرآن للعقل البشرى يعمل فيها بكامل حريته ، ويصل إلى النتائج التى يصل إليها بتجاربه ، ووكل نفسه بتربية هذا العقل على الصحة والاستقامة والسلامة ، وتحريره من الوهم والأسطورة والخرافة . كما عمل على إقامة نظام للحياة يكفل لهذا العقل أن يستقيم ، وأن يتحرر ، وأن يعيش فى سلام ونشاط .. ثم تركه بعد ذلك يعمل فى دائرته الخاصة . ويصل إلى الحقائق الجزئية الواقعية بتجاربه . ولم يتعرض لذكر شىء من الحقائق العلمية إلا نادرا . مثل أن الماء أصل الحياة والعنصر المشترك فى جميع الأحياء . ومثل أن جميع الأحياء أزواج حتى النبات الذى يلقح من نفسه فهو يحتوى على خلايا التذكير والتأنيث . . . وأمثال هذه الحقائق . التى صرحت بها النصوص القرآنية (١) .

ونعود من هذا الاستطراد إلى النص القرآنى نتملاه فى مجاله الأصيل . مجال بناء العقيدة وتصريف الحياة :

« وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ـ وكان عرشه على الماء ـ ليبلوكم أيكم أحسن عملا » . .

خلق السماوات والأرض فى ستة أيام . . وهنا فقرات كثيرة محذوفة يشير إليها ما بعدها ويغنى عنها . . خلقها فى هذا الأمد ، لتكون صالحة ومجهزة لحياة هذا الجنس البشرى ، وخلقكم وسخر لكم الأرض وما يفيدكم من السماوات . . وهو سبحانه مسيطر على الكون كله . . « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » . والسياق يظهر كأن خلق السماوات والأرض فى ستة أيام ـ مع سيطرة الله سبحانه على مقاليده ـ كان من أجل ابتلاء الإنسان . ليعظم هذا الابتلاء ويشعر الناس بأهميتهم وبجدية ابتلائهم .

وكما جهز الخالق هذه الأرض وهذه السماوات بما يصلح لحياة هذا الجنس ، جهز هذا الجنس كذلك باستعدادات وطاقات ؛ وبنى فطرته على ذات القانون الذى يحكم الكون ؛ وترك

---

(١) يراجع بتوسع عن موضوع القرآن والعلم ما سبق فى هذه الظلال . . ص ٩٤ ـ ص ٩٩ من الجزء الثانى من الطبعة الثانية المنقحة و ص ٢٥٠ ـ ص ٢٦٢ من الجزء السابع من الطبعة نفسها .

Marfat.com

له جانبا اختياريا فى حياته ، يملك معه أن يتجه إلى الهدى فيعينه الله عليه ويهديه . أو أن يتجه إلى الضلال فيمد الله له فيه ، وترك الناس يعملون ، ليبلوهم أيهم أحسن عملا . يبلوهم لا ليعلم فهو يعلم . ولكن يبلوهم ليظهر المكنون من أفعالهم ، فيتلقوا جزاءهم عليها كما اقتضت إرادة الله وعدله .

ومن ثم يبدو التكذيب بالبعث والحساب والجزاء عجيبا غريبا فى هذا الجو . بعد مايذكر أن الابتلاء مرتبط بتكوين السماوات والأرض . أصيل فى نظام الكون وسنن الوجود ؛ ويبدو المكذبون به غير معقولين وغير مدركين للحقائق الكبيرة فى تكوين هذا الوجود ، وهم يعجبون لهذه الحقائق وبها يفاجأون :

« ولئن قلت : إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا : إن هذا إلا سحر مبين » . .

فما أعجبها قولة ، وما أغربها ، وما أكذبها فى ظل هذا البيان الذى تقدمها !

* * *

شأنهم فى التكذيب بالبعث ، وجهلهم بارتباطه بناموس الكون ، هو شأنهم فى مسألة العذاب الدنيوى ، فهم يستعجلونه ويتساءلون عن سبب تأخيره ، إذا ما اقتضت الحكمة الأزلية أن يتأخر عنهم فترة من الوقت :

« ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن : مايحبسه ؟ ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم ، وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

لقد كانت القرون الأولى تهلك بعذاب من عند الله يستأصلها ، بعد أن يأتيهم رسولهم بالخوارق التى يطلبونها ثم يمضون هم فى التكذيب . ذلك أنها كانت رسالات مؤقتة لأمة من الناس ، ولجيل واحد من هذه الأمة . والمعجزة كذلك لايشهدها إلا هذا الجيل ، ولا تبقى لتشاهدها أجيال أخرى لعلها تؤمن بها أكثر مما آمن الجيل الذى شهدها أول مرة .

فأما الرسالة المحمدية فقد كانت خاتمة الرسالات ، ولجميع الأقوام وجميع الأجيال ، وكانت المعجزة التى صاحبتها معجزة غير مادية ، فهى قابلة للبقاء ، قابلة لأن تتدبرها أجيال وأجيال ،

Marfat.com

وتؤمن بها أجيال وأجيال ، ومن ثم اقتضت الحكمة ألا تؤخذ هذه الأمة بعذاب الاستئصال . وأن يقع العذاب على أفراد منها فى وقت معلوم . . وكذلك كان الحال فى الأمم الكتابية قبلها من اليهود والنصارى ، فلم يعم فيهم عذاب الاستئصال .

ولكن المشركين فى جهلهم بنواميس الله الخاصة بخلق الإنسان على هذا النحو من القدرة على الاختيار والاتجاه ؛ وخلق السماوات والأرض على نحو يسمح له بالعمل والنشاط والبلاء ينكرون البعث . وفى جهلهم بسنن الله فى الرسالات والمعجزات والعذاب يتساءلون إذا ما أخر عنهم إلى أمة من السنوات أو الأيام - أى مجموعة منها - ما يحبسه ؟ ومايؤخره ؟ فلا يدركون حكمة الله ولا رحمته . وهو يوم يأتيهم لايصرف عنهم ، بل يحيط بهم ، جزاء لاستهزائهم الذى يدل عليه سؤالهم واستهتارهم :

« ألا يوم يأتيهم ليس مصروفا عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

إن عذاب الله لاتستعجله نفس مؤمنة ولا نفس جادة . وإذا ما أبطأ فهى حكمة ورحمة . ليؤمن من يتهيأ للإيمان .

وفى فترة التأجيل التى صرف الله العذاب فيها عن مشركى قريش ، كم آمن منهم من رجال حسن إسلامهم وأبلوا أحسن البلاء . وكم ولد لكفارهم من ذرية نشأت فيما بعد فى الإسلام . . وهذه وتلك بعض الحكم الظاهرة والله يعلم مابطن . ولكن البشر القاصرين العجولين لايعلمون . .

* * *

وبمناسبة استعجال العذاب يجول السياق جولة فى نفس هذا المخلوق الإنسانى العجيب ، الذى لايثبت ولا يستقيم إلا بالإيمان :

« ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن : ذهب السيئات عنى ، إنه لفرح فخور. إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات، أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » . .

إنها صورة صادقة لهذا الإنسان العجول القاصر ، الذى يعيش فى لحظته الحاضرة ، ويطغى عليه مايلابسه ؛ فلا يتذكر مامضى ولايفكر فيما يلى . فهو يؤوس من الخير ، كفور بالنعمة

Marfat.com

بمجرد أن تنزع منه . مع أنها كانت هبـة من الله له . وهو فرح بطر بمجرد أن يجاوز الشدة إلى الرخاء . لا يحتمل فى الشدة ويصبر ويؤمل فى رحمة الله ويرجو فرجه ؛ ولا يقتصد فى فرحه وفخره بالنعمة أو يحسب لزوالها حسابا . .

« إلا الذين صبروا » . .

صبروا على النعمة كما صبروا على الشدة ، فإن كثيرا من الناس يصبرون على الشدة تجلدا وإباء أن يظهر عليهم الضعف والخور ، ولكن القلة هى التى تصبر على النعمة فلا تغتر ولا تبطر . .

« وعملوا الصالحات » . .

فى الحالين . فى الشدة بالاحتمال والصبر ، وفى النعمة بالشكر والبر .

« أولئك لهم مغفرة وأجر كبير » . .

بما صبروا على الضراء وبما شكروا فى السراء .

إن الإيمان الجاد المتمثل فى العمل الصالح هو الذى يعصم النفس البشرية من اليأس الكافر فى الشدة ؛ كما يعصمها من البطر الفاجر فى الرخاء . وهو الذى يقيم القلب البشرى على سواء فى البأساء والنعماء ؛ ويربطه بالله فى حاليه ، فلا يتهاوى ويتهافت تحت مطارق البأساء . ولا ينتفج ويتعالى عندما تغمره النعماء . . وكلا حالى المؤمن خير . وليس ذلك إلا للمؤمن كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

* * *

أولئك الجاهلون بحكمة الخلق وبسنن الكون ـ وهم أفراد من هذا الإنسان القاصر الغافل اليؤوس الكفور الفرح الفخور ـ الذين لا يدركون حكمة إرسال الرسل من البشر فيطلبون أن يكون الرسول ملكا أو أن يصاحبه ملك ؛ ولا يقدرون قيمة الرسالة فيطلبون أن يكون للرسول كنز ! . . أولئك المكذبون المعاندون الذين يلجون فى التكذيب والعناد . ماتراك صانعا معهم أيها الرسول ؟

« فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك . إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل » . .

Marfat.com

ولعل هنا تحمل معنى الاستفهام . وهو ليس استفهاما خالصا ، إنما يتلبس به أن التوقع من النفس البشرية أن تضيق صدرا بهذا الجهل ، وبهذا التعنت ، وبهذه الاقتراحات السخيفة التي تكشف عن بعد كامل عن إدراك طبيعة الرسالة ووظيفتها . فهل سيضيق صدرك - يا محمد - وهل سيحملك هذا الضيق على أن تترك بعض ما أنزل إليك فلا تبلغه لهم ، كي لا يقابلوه بما اعتادوا أن يقابلوا به نظائره فيما أخبرتهم من قبل ؟

كلا . لن تترك بعض ما يوحى إليك ولن يضيق به صدرك من قولهم هذا :

« إنما أنت نذير » ..

فواجبك كله أن تنذرهم - وأبرز صفة النذير هنا لأن المقام يستوجبها مع أمثال هؤلاء - فأد واجبك :

« والله على كل شيء وكيل »..

فهو الموكل بهم ، يصرفهم كيف يشاء وفق سنته ، ويحاسبهم بعد ذلك على ما يكسبون . ولست أنت موكلا بكفرهم أو إيمانهم . إنما أنت نذير .

وهذه الآية تشي بجو تلك الفترة الحرجة في تاريخ الدعوة ؛ وما كان يعتور صدر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الضيق . كما تشي بثقل المواجهة للجاهلية المتمردة المعاندة ، في الوقت الذي هلك فيه المشير والنصير ؛ وغمرت الوحشة قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وغشي الكرب على قلوب المؤمنين القلائل في هذه الجاهلية المحيطة ..

ومن بين كلمات الآية نحس جوا مكروبا تتنزل فيه هذه الكلمات الربانية بالبشاشة ، وتسكب فيه الطمأنينة ، وتربط الأعصاب والقلوب !

* * *

وقولة أخرى يقولونها . وقد قالوها مرارا : إن هذا القرآن مفترى . فتحداهم إذن أن يفتروا عشر سور كسوره ، وليستعينوا بمن يشاءون في هذا الافتراء :

« أم يقولون افتراه ؟ قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » ..

Marfat.com

ولقد سبق أن تحداهم بسورة واحدة فى سورة يونس ، فلما التحدى بعد ذلك بعشر سور ؟

قال المفسرون القدامى : إن التحدى كان على الترتيب : بالقرآن كله ، ثم بعشر سور ، ثم بسورة واحدة . ولكن هذا الترتيب ليس عليه دليل . بل الظاهر أن سورة يونس سابقة والتحدى فيها بسورة واحدة ، وسورة هود لاحقة والتحدى فيها بعشر سور . وحقيقة إن ترتيب الآيات فى النزول ليس من الضرورى أن يتبع ترتيب السور . فقد كانت تنزل الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة فى النزول . إلا أن هذا يحتاج إلى مايثبته . وليس فى أسباب النزول مايثبت أن آية يونس كانت بعد آية هود . والترتيب التحكمى فى مثل هذا لايجوز .

ولقد حاول السيد رشيد رضا فى تفسير المنار أن يجد لهذا العدد « عشر سور » علة ، وأجهد نفسه طويلا — رحمة الله عليه — ليقول : إن المقصود بالتحدى هنا هو القصص القرآنى ، وأنه بالاستقراء يظهر أن السور التى كان قد نزل بها قصص مطول إلى وقت نزول سورة هود كانت عشرا . فتحداهم بعشر . لأن تحديهم بسورة واحدة فيه يعجزهم أكثر من تحديهم بعشر نظرا لتفرق القصص وتعدد أساليبه ، واحتياج التحدى إلى عشر سور كالتى ورد فيها يتمكن من المحاكاة إن كان ممكنا ... إلخ[1]

ونحسب — والله أعلم — أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد . وأن التحدى كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول ، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعية محددة . فيقول مرة : ائتوا بمثل هذا القرآن . أو ائتوا بسورة ، أو بعشر سور ... دون ترتيب زمنى . لأن الغرض كان هو التحدى فى ذاته بالنسبة لأى شىء من هذا القرآن . كله أو بعضه أو سورة منه على السواء . فالتحدى كان بنوع هذا القرآن لابمقداره . والعجز كان عن النوع لاعن المقدار . وعندئذ يستوى الكل والبعض والسورة . ولا يلزم ترتيب . إنما هو مقتضى الحالة التى يكون عليها المخاطبون ، ونوع مايقولون عن هذا القرآن فى هذه الحالة . فهو الذى

(١) من صفحة ٣٢ إلى صفحة ٤١ من تفسير المنار الجزء الثانى عشر .

Marfat.com

يحمل من المناسب أن يقال سورة أو عشر سور أو هذا القرآن . ونحن اليوم لا نملك تحديد الملابسات التي لم يذكرها لنا القرآن .

« وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين » ..

ادعوا شركاءكم وفصحاءكم وبلغاءكم وشعراءكم وجنكم وإنسكم . وأتوا بعشر سور فقط مفتراة ، إن كنتم صادقين في أن هذا القرآن مفترى من دون الله !

« فإن لم يستجيبوا لكم » ..

ولم يقدروا على افتراء عشر سور ، لأنهم عاجزون عن أن يقدموا لكم عونا في هذه المهمة المتعذرة ! وعجزتم أنتم بطبيعة الحال ، لأنكم لم تدعوهم لتستعينوا بهم إلا بعد عجزكم !

« فاعلموا أنما أنزل بعلم الله » ..

فهو وحده القادر على أن ينزله . وعلم الله وحده هو الكفيل بأن ينزله على هذا النحو الذي نزل به ، متضمنا ما تضمنه من دلائل العلم الشامل بسنن الكون وأحوال البشر ، وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم ، وما يصلح لهم في نفوسهم وفي معاشهم ...

« وأن لا إله إلا الله » ..

وهذا مستفاد كذلك من عجز آلهتكم عن تلبيتكم في تأليف عشر سور كالتي أنزلها الله . فلا بد أن يكون هناك إله واحد هو القادر وحده على تنزيل هذا القرآن .

ويعقب على هذا التقرير الذي لا مفر من الإقرار به بسؤال لا يحتمل إلا جوابا واحدا عند غير المكابرين المتعنتين . سؤال :

« فهل أنتم مسلمون ؟ » ..

بعد هذا التحدي والعجز ودلالاته التي لا سبيل إلى مواجهتها بغير التسليم ؟ .

ولكنهم ظلوا بعدها يكابرون ! ! !

لقد كان الحق واضحا ولكنهم كانوا يخافون على ما يتمتعون به في هذه الحياة الدنيا من منافع وسلطان ، وتعبيد الناس كي لا يستجيبون لداعي الحرية والكرامة والعدل والعزة .. داعي لا إله إلا الله . . لهذا يعقب السياق بما يناسب حالهم ويصور لهم عاقبة أمرهم يقول :

Marfat.com

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون . أولئك الذين ليس لهم فى الآخرة إلا النار ، وحبط ماصنعوا فيها ، وباطل ما كانوا يعملون » . .

إن للجهد فى هذه الأرض ثمرته . سواء تطلع صاحبه إلى أفق أعلى أو توجه به إلى منافعه القريبة وذاته المحدودة . فمن كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها ، فإنه يلقى نتيجة عمله فى هذه الدنيا ؛ ويتمتع بها كما يريد ـ فى أجل محدود ـ ولكن ليس له فى الآخرة إلا النار ، لأنه لم يقدم للآخرة شيئا ، ولم يحسب لها حسابا . فكل عمل الدنيا يلقاه فى الدنيا . ولكنه باطل فى الآخرة لايقام له فيها وزن وحابط (من حبطت الناقة إذا انتفخ بطنها من المرض) وهى صورة مناسبة للعمل المنتفخ المتورم فى الدنيا وهو مؤد إلى الهلاك !

ونحن نشهد فى هذه الأرض أفرادا اليوم وشعوبا وأمما تعمل لهذه الدنيا ، وتنال جزاءها فيها . ولدنياها زينة ، ولدنياها انتفاخ ! فلا يجوز أن نعجب ولا أن نسأل : لماذا ؟ لأن هذه هى سنة الله فى هذه الأرض : « من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لايبخسون » .

ولكن التسليم بهذه السنة ونتائجها لا يجوز أن ينسينا أن هؤلاء كان يمكن أن يعملوا نفس ماعملوه ـ ونفوسهم تتطلع للآخرة وتراقب الله فى الكسب والمتاع ـ فينالوا زينة الحياة الدنيا لايبخسون منها شيئا ، وينالوا كذلك متاع الحياة الأخرى .

إن العمل للحياة الأخرى لايقف فى سبيل العمل للحياة الدنيا . بل إنه هو هو مع الاتجاه إلى الله فيه . ومراقبة الله فى العمل لاتقلل من مقداره ولا تنقص من آثاره ؛ بل تزيد وتبارك الجهد والثمر ، وتجعل الكسب طيبا والمتاع به طيبا ، ثم تضيف إلى متاع الدنيا متاع الآخرة . إلا أن يكون الغرض من متاع الدنيا هو الشهوات الحرام . وهذه مردية لا فى الأخرى فحسب ، بل كذلك فى الدنيا ولو بعد حين . وهى ظاهرة فى حياة الأمم وفى حياة الأفراد . وعبر التاريخ شاهدة على مصير كل أمة اتبعت الشهوات على مدار القرون .

بعد ذلك يلتفت السياق إلى موقف المشركين من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما جاءه من الحق ؛ وإلى هذا القرآن الذى يشهد له بأنه على بينة من ربه ، وأنه مرسل من عنده ؛

Marfat.com

كما يشهد له كتاب موسى من قبله . يلتفت السياق إلى هذا الحشد من الأدلة المحيطة بالنبي - صلى الله عليه وسلم - وبدعوته ورسالته . ذلك ليثبت بهذه الالتفاتة قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والقلة المؤمنة معه . ثم ليوعد الذين يكفرون به من أحزاب المشركين بالنار ؛ وليعرض بهم في مشهد من مشاهد العذاب يوم القيامة يجلله الخزى والعار جزاء العتو والاستكبار ؛ وليقرر أن هؤلاء المتبجحين بالباطل ، المعاندين في الحق أعجز من أن يفلتوا من عذاب الله ؛ وأعجز من أن يجدوا لهم من دون الله أولياء . . « لاجرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون » . . ولتعقد بينهم وبين المؤمنين موازنة في صورة حسية مشهودة ؛ تصور الفارق البعيد بين الفريقين في طبيعتهما ، وفي موقفهما وحالهما في الدنيا وفي الآخرة سواء :

« أفمن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ؛ أولئك يؤمنون به . ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك . ولكن أكثر الناس لايؤمنون .

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟ أولئك يعرضون على ربهم ؛ ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ، ألا لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أولياء ، يضاعف لهم العذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع ، وما كانوا يبصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم ، وضل عنهم ما كانوا يفترون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

« مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع ، هل يستويان مثلا ؟ أفلا تذكرون ؟ » . .

إن طول هذه الجملة ، وتنوع الإشارات والإيحاءات فيها ، وتنوع اللفتات والإيقاعات أيضا . . إن هذا كله يشي بما كانت تواجهه القلة المؤمنة ، في تلك الفترة الحرجة من تاريخ

Marfat.com

الدعوة ؛ ويصور لنا حاجة الموقف إلى هذه المعركة التقريرية الإيحائية ؛ كما يصور لنا طبيعة هذا القرآن الحركية ؛ وهو يواجه ذلك الواقع ويجاهده جهادا كبيرا .

إن هذا القرآن لايتذوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة ؛ ويواجه مثل تلك المواقف التى تنزل فيها ليواجهها ويوجهها . والذين يلتمسون معانى القرآن ودلالاته وهم قاعدون ، يدرسونه دراسة بيانية أو فنية لايملكون أن يجدوا من حقيقته شيئا فى هذه القعدة الباردة الساكنة ؛ بعيدا عن المعركة وبعيدا عن الحركة .. إن حقيقة هذا القرآن لا تتكشف للقاعدين أبدا . وإن سره لا يتجلى لمن يؤثرون السلامة والراحة مع العبودية لغير الله ، والدينونة للطاغوت من دون الله !

« أفمن كان على بينة من ربه ، ويتلوه شاهد منه ، ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة ؟ أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلاتك فى مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لايؤمنون » . .

وردت روايات شتى فيما هو المقصود بقوله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه » . . وفى قوله تعالى : « ويتلوه شاهد منه » . وفى عائد هذه الضمائر فى : « ربه » وفى « يتلوه » وفى « منه » . . وأرجحها ــ كما يبدو لى ــ هو أن المقصود بقوله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه » هو رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وبالتبعية له كل من يؤمن بما جاء به ــ وأن المقصود بقوله تعالى : « ويتلوه شاهد منه » أى ويتبعه شاهد من ربه على نبوته ورسالته . وهو هذا القرآن الذى يشهد بذاته أنه وحى من الله لا يقدر عليه بشر . « ومن قبله » ــ أى من قبل هذا الشاهد وهو القرآن ؛ « كتاب موسى » يشهد كذلك بصدق النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ سواء بما تضمنه من البشارة به ؛ أو بموافقة أصله لما جاء به محمد من بعده .

والذى يرجح هذا عندى هو وحدة التعبير القرآنى فى السورة ــ فى تصور ما بين الرسل الكرام وربهم ، من بينة يجدونها فى أنفسهم ، يستيقنون معها أن الله هو الذى يوحى إليهم . ويجدون بها ربهم فى قلوبهم وجودا مستيقنا واضحا لايخالجهم معه شك ولا ريبة . فنوح ــ عليه السلام ــ يقول لقومه : « ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت

Marfat.com

عليكم . أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ » . . وصالح عليه السلام يقول الكلمة ذاتها : « قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؛ فما تزيدوننى غير تخسير » . . وشعيب عليه السلام يقولها كذلك : « قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، ورزقنى منه رزقا . . » فهو تعبير موحد عن حال واحدة للرسل الكرام مع ربهم ، تصور حقيقة مايجدونه فى أنفسهم من رؤية قلبية مستيقنة لحقيقة الألوهية فى نفوسهم ؛ ولصدق اتصال ربهم بهم عن طريق الوحى أيضا . . وهذا التوحيد فى التعبير عن الحال الواحدة مقصود قصدا فى سياق السورة ـ كما أسلفنا فى التعريف بها ـ لإثبات أن شأن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع ربه ومع الوحى الذى تنزل عليه شأن سائر الرسل الكرام قبله ؛ مما يبطل دعاوى المشركين المفتراة عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكذلك لتثبيته هو والقلة المؤمنة معه على الحق الذى معهم ؛ فهو الحق الواحد الذى جاء به الرسل جميعا ، والذى أسلم عليه المسلمون من أتباع الرسل جميعا .

ويكون المعنى الكلى للآية : أفهذا النبى الذى تتضافر الأدلة والشواهد على صدقه وصحة إيمانه ويقينه . . حيث يجد فى نفسه بينة واضحة مستيقنة من ربه . وحيث يتبعه ـ أو يتبع يقينه هذا ـ شاهد من ربه هو هذا القرآن الدال بخصائصه على مصدره الربانى . وحيث يقوم على تصديقه شاهد آخر قبله ، هو كتاب موسى الذى جاء إماما لقيادة بنى إسرائيل ورحمة من الله تنزلت عليهم . وهو يصدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بما تضمنه من التبشير به ، كما يصدقه بما فيه من مطابقة للأصول الاعتقادية التى يقوم عليها دين الله كله . .

يقول : أفمن كان هذا شأنه يكون موضعا للتكذيب والكفر والعناد كما تفعل الأحزاب التى تناوئه من شتى فئات المشركين ؟ إنه لأمر مستنكر إذن فى مواجهة هذه الشواهد المتضافرة من شتى الجهات . .

ثم يعرض مواقف الذين يؤمنون بهذا القرآن والذين يكفرون به من الأحزاب ، وما ينتظر هؤلاء من جزاء فى الآخرة . ويعرج على تثبيت الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ

Marfat.com

والذين يؤمنون بما معه من الحق ؛ فلا يقلقهم شأن المكذبين الكافرين ، وهم كثرة الناس في ذلك الحين :

« أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ، فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » . .

وقد وجد بعض المفسرين إشكالا في قوله تعالى : « أولئك يؤمنون به » إذا كان المقصود بقوله تعالى : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » هو شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كما أسلفنا . . فإن « أولئك » تعنى جماعة يؤمنون بهذا الوحى وبتلك البينة . . ولا إشكال هناك . فالضمير في قوله تعالى « أولئك يؤمنون به » يعود على « شاهد » وهو القرآن . وكذلك الضمير في قوله تعالى « ومن قبله » فإنه يعود على القرآن كما أسلفنا . . فلا إشكال في أن يقول : « أولئك يؤمنون به » - أى بهذا الشاهد أى بهذا القرآن - والرسول - صلى الله عليه وسلم - هو أول من آمن بما أنزل إليه ، ثم تبعه المؤمنون : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون . كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . . . » كما جاء في آية البقرة . . والآية هنا تشير إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتدمج معه المؤمنين الذين آمنوا بما آمن به هو وبلغهم إياه . . وهو أمر مألوف في التعبير القرآنى ، ولا إشكال فيه .

« ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده » . .

وهو موعد لا يخلف ، والله سبحانه هو الذى قدره ودبره !

« فلا تك في مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » . .

وماشك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما أوحى إليه ، ولا امترى - وهو على بينة من ربه - ولكن هذا التوجيه الربانى عقب حشد هذه الدلائل والشواهد يشى بما كان يخالج نفس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ضيق وتعب ووحشة من جراء تجمد الدعوة وكثرة المعاندين ، تحتاج كلها إلى التسرية عنه بهذا التوجيه والتثبيت . وكذلك ما كان يخالج قلوب القلة المسلمة من ضيق وقلق وكرب يحتاج إلى برد اليقين يتنزل عليهم من ربهم الرحيم .

وما أحوج طلائع البعث الإسلامى ؛ وهى تواجه مثل تلك الحال في كل مكان ؛ ويتآزر عليها

Marfat.com

الصد والإعراض ، والسخرية والاستهزاء ، والتعذيب والإيذاء ، والمطاردة بكل صورها المادية والمعنوية ؛ وتتضافر عليها كل قوى الجاهلية فى الأرض من محلية وعالمية ؛ وتسلط عليها أبشع ألوان الحرب وأنكدها ؛ ثم تدق الطبول وتنصب الرايات لمن يحاربونها هذه الحرب ومن يطاردونها هذه المطاردة ...

ماأحوج هذه الطلائع إلى تدبر هذه الآية بكل فقرة فيها ، وبكل إشارة ، وبكل لمحة فيها وكل إيماءة !

ماأحوجها إلى اليقين الذى يحمله التوكيد الربانى الحكيم :

« فلاتك فى مرية منه ، إنه الحق من ربك ، ولكن أكثر الناس لايؤمنون » ..

وماأحوجها إلى أن تجد فى نفوسها ظلالا لما كان يجده الرسل الكرام صلوات الله عليهم وسلامه من بينة من ربهم ، ومن رحمة لا يخطئونها ولايشكون فيها لحظة ؛ ومن التزام بالمضى فى الطريق مهما تكن عقبات الطريق :

« قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير » ..

إن هذه الطلائع تتصدى لمثل ما كان يتصدى لهذلك الرهط الكريم من الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم جميعا - وتجد من الجاهلية مثلما كانوا يجدون .. لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى البشرية كلها بهذا الدين ؛ فواجهته بجاهليتها التى صارت إليها بعد الإسلام الذى جاءها به من قبل إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ويوسف وموسى وهارون وداود وسليمان ويحيى وعيسى ، وسائر النبيين !

إنها الجاهلية التى تعترف بوجود الله - سبحانه - أو لاتعترف . ولكنها تقيم للناس أربابا فى الأرض يحكمونهم بغير ماأنزل الله ؛ ويشرعون لهم من القيم والتقاليد والأوضاع ما يجعل دينونتهم لهذه الأرباب لالله . . ثم هى الدعوة الإسلامية للناس كافة أن ينحوا هذه الأرباب الأرضية عن حياتهم وأوضاعهم ومجتمعاتهم وقيمهم وشرائعهم ، وأن يعودوا إلى الله وحده

Marfat.com

يتخذونه ربا لا أرباب معه ؛ ويدينون له وحده . فلا يتبعون إلا شرعه ونهجه . ولا يطيعون إلا أمره ونهيه . . ثم هى بعد هـذه وتلك المعركة القاسية بين الشرك والتوحيد ، وبين الجاهليـة والإسلام . وبين طلائع البعث الإسلامى وهذه الطواغيت فى أرجاء الأرض والأصنام !

ومن ثم لابد لهذه الطلائع من أن تجد نفسها وموقفها كله فى هـذا القرآن فى مثل هـذا الأوان .. وهذا بعض ماعنيته حين تقول : « إن هذا القرآن لايتذوقه إلا من يخوض مثل هذه المعركة ، ويواجـه مثل تلك المواقف التى تنزل فيها ليواجهها ويوجهها ، وإن الذين يتلمسـون معانى القرآن ودلالاته وهم قاعـدون يدرسونه دراسة بيانية أو فنية لايملكـون أن يجـدوا من حقيقته شيئا فى هـذه القعدة الباردة السـاكنة ، بعيـدا عن المعركة ، وبعيـدا عن الحركة ... » .

* * *

ثم يمضى السياق يواجه الذين يكفرون به ؛ ويزعمون أنه مفترى من دون الله ، ويكذبون على الله سبحانه وعلى رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وذلك فى مشهد من مشاهد القيامة يعرض فيه الذين يفترون على الله الـكذب . سواء بقولهم : إن الله لم ينزل هذا الـكتاب ، أو بادعائهم شركاء لله . أو بدعواهم فى الربوبية الأرضية وهى من خصائص الألوهيـة . . يجمل النص هنـا الإشـارة لتشمل كل مايوصف بأنه كذب على الله .

هؤلاء يعرضون فى مشهـد يوم القيـامة للتشهير بهم وفضيحتهم على رؤوس الأشهاد . وفى الجانب الآخر المؤمنون المطمئنون إلى ربهم وماينتظرهم من نعيم . ويضرب للفريقين مثلا : الأعمى والأصم والبصير والسميع :

« ومن أظـلم ممن افترى على الله كذبا ؟ أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم . ألا لعنـة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم بالآخرة هم كافرون . أولئك لم يكونوا معجزين فى الأرض ، وما كان لهم من دون الله من أوليـاء ، يضاعف لهم العـذاب ، ما كانوا يستطيعون السمع وما كانو

Marfat.com

يصرون . أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ، لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع . هل يستويان مثلا ؟ أفلا تذكرون ؟ » .

إن افتراء الكذب فى ذاته جريمة نكراء ، وظلم للحقيقة ولمن يفترى عليه الكذب . فما بال حين يكون هذا الافتراء على الله ؟

« أولئك يعرضون على ربهم ، ويقول الأشهاد : هؤلاء الذين كذبوا على ربهم » .

إنه التشهير والتشنيع . بالإشارة : « هؤلاء » .. « هؤلاء الذين كذبوا » .. وعلى من ؟ « على ربهم » لا على أحد آخر ! إن جو الفضيحة هو الذى يرتسم فى هذا المشهد ، تعقبها اللعنة المناسبة لشناعة الجريمة :

« ألا لعنة الله على الظالمين » . .

يقولها الأشهاد كذلك . والأشهاد هم الملائكة والرسل والمؤمنون ، أو هم الناس أجمعون . فهو الخزى والتشهير – إذن – فى ساحة العرض الحاشدة ! أو هو قرار الله سبحانه فى شأنهم . إلى جانب ذلك الخزى والتشهير على رؤوس الأشهاد :

« ألا لعنة الله على الظالمين » . .

والظالمون هم المشركون . وهم الذين يفترون الكذب على ربهم ليصدوا عن سبيل الله .

« ويبغونها عوجا » . .

فلا يريدون الاستقامة ولا الخطة المستقيمة ، إنما يريدونها عوجا والتواء وانحرافا . يريدون الطريق أو يريدون الحياة أو يريدون الأمور . . كلها بمعنى . . « وهم بالآخرة هم كافرون » ويكرر « هم » مرتين للتوكيد وتثبيت الجريمة وإبرازها فى مقام التشهير .

والذين يشركون بالله – سبحانه – وهم الظالمون – إنما يريدون الحياة كلها عوجا حين يعدلون عن استقامة الإسلام . وما تنتج الدينونة لغير الله – سبحانه – إلا العوج فى كل جانب من جوانب النفس ، وفى كل جانب من جوانب الحياة .

Marfat.com

إن عبودية الناس لغير الله سبحانه تنشىء فى نفوسهم الذلة وقد أراد الله أن يقيمها على الكرامة . وتنشىء فى الحياة الظلم والبغى وقد أراد الله أن يقيمها على القسط والعدل . وتحول جهود الناس إلى عبث فى تأليه الأرباب الأرضية والطبل حولها والزمر ، والنفخ فيها دائما لتكبر حتى تملأ مكان الرب الحقيق . ولما كانت هذه الأرباب فى ذاتها صغيرة هزيلة لا يمكن أن تملأ فراغ الرب الحقيق ، فإن عبادها المساكين يظلون فى نصب دائب ، وهم مقعد مقيم ينفخون فيها ليل نهار ، ويسلطون عليها الأضواء والأنظار ، ويضربون حولها بالدفوف والمزامير والترانيم والتسابيح ، حتى يستحيل الجهد البشرى كله من الإنتاج المثمر للحياة إلى هذا الكد البائس النكد وإلى هذا الهم المقعد المقيم . . فهل وراء ذلك عوج وهل وراء ذلك التواء ؟ !

« أولئك » . .

البعداء المبعدون الملعونون .

« لم يكونوا معجزين فى الأرض » . .

فلم يكن أمرهم معجزا لله ، ولو شاء لأخذهم بالعذاب فى الدنيا . .

« وما كان لهم من أولياء » . .

ينصرونهم أو يمنعونهم من الله . إنما تركهم لعذاب الآخرة ، ليستوفوا عذاب الدنيا وعذاب الآخرة :

« يضاعف لهم العذاب » . .

فقد عاشوا معطلى المدارك مغلق البصائر ؛ كأن لم يكن لهم سمع ولا بصر :

« ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون » . .

« أولئك الذين خسروا أنفسهم » . .

وهى أفدح الخسارة ، فالذى يخسر نفسه لا يفيد شيئا مما كسب غيرها . وأولئك خسروا أنفسهم فأضاعوها فى الدنيا ، لم يحسوا بكرامتهم الآدمية التى تتمثل فى الارتفاع عن العبودية لغير الله من العبيد . كما تتمثل فى الارتفاع عن الحياة الدنيا والتطلع — مع المتاع بها — إلى ما هو أرقى وأسمى . وذلك حين كفروا بالآخرة ، وحين كذبوا على ربهم غير متوقعين لقاءه . وخسروا

Marfat.com

أنفسهم فى الآخرة بهذا الخزى الذى ينالهم ، وبهذا العذاب الذى ينتظرهم . .

« وضل عنهم ما كانوا يفترون » . .

غاب عنهم فلم يهتد إليهم ولم يجتمع عليهم ما كانوا يفترونه من الكذب على الله . فقد تبدد وذهب وضاع .

« لاجرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون » . .

الذين لاتعدل خسارتهم خسارة . وقد أضاعوا أنفسهم دنيا وأخرى .

وفى الجانب الآخر أهل الإيمان والعمل الصالح ، المطمئنون إلى ربهم الواثقون به الساكنون إليه لايشكون ولا يقلقون :

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وأخبتوا إلى ربهم ، أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون » . .

والإخبات الطمأنينة والاستقرار والثقة والتسليم . . وهى تصور حال المؤمن مع ربه ، وركونه إليه واطمئنانه لكل ما يأتى به ، وهدوء نفسه وسكون قلبه ، وأمنه واستقراره ورضاه :

« مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع . هل يستويان مثلا ؟ » .

صورة حسية تتجسم فيها حالة الفريقين . والفريق الأول كالأعمى لا يرى وكالأصم لايسمع ـ والذى يعطل حواسه وجوارحه عن الغاية الكبرى منها ، وهى أن تكون أدوات موصلة للقلب والعقل ، ليدرك ويتدبر فكأنما هو محروم من تلك الجوارح والحواس ـ والفريق الثانى كالبصير يرى وكالسميع يسمع ، فيهديه بصره وسمعه .

« هل يستويان مثلا ؟ » . . .

سؤال بعد الصورة المجسمة لايحتاج إلى إجابة لأنها إجابة مقررة .

« أفلا تذكّرون » . .

فالقضية فى وضعها هذا لاتحتاج إلى أكثر من التذكر . فهى بديهية لاتقتضى التفكير . .

Marfat.com

وتلك وظيفة التصوير الذى يغلب فى الأسلوب القرآنى فى التعبير . . أن ينقل القضايا التى تحتاج لجدل فكرى إلى بديهيات مقررة لا تحتاج إلى أكثر من توجيه النظر والتذكير . .

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ، إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ : أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ : مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا ، وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ، وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ، بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ : يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي ، وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ، أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ؟ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ، إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا ، إِنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ ، وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ : عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَلَا أَقُولُ : إِنِّي مَلَكٌ ، وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا ، اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ ، إِنِّي إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا : يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ : إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ ، وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي - إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ - إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ، هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ : افْتَرَاهُ ؟ قُلْ : إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي ، وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ .

« وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ ، فَلَا تَبْتَئِسْ

Marfat.com

بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ، وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ .

« وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ ، وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ : إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ .

« حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا : احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، وَأَهْلَكَ - إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ - وَمَنْ آمَنَ ، وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ .

« وَقَالَ : ارْكَبُوا فِيهَا ، بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ، إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

« وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ . وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ - وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ - : يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ : سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ . قَالَ : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ . وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ .

« وَقِيلَ : يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ، وَغِيضَ الْمَاءُ ؛ وَقُضِيَ الْأَمْرُ ، وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ، وَقِيلَ : بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ : رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ، وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ، وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ : يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ : رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ : يَا نُوحُ

Marfat.com

اهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ، وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ .

« تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ، مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ، فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ » ﴿٤٩﴾

•
•
•

القصص فى هذه السورة هو قوامها ؛ ولكنه لم يجئ فيها مستقلا ، إنما جاء مصداقا للحقائق الكبرى التى جاءت السورة لتقريرها . والتى أجملها السياق فى مطلع السورة : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، ألا تعبدوا إلا الله إننى لكم منه نذير وبشير ، وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يمتعكم متاعا حسنا إلى أجل مسمى ، ويؤت كل ذى فضل فضله ، وإن تولوا فإنى أخاف عليكم عذاب يوم كبير ، إلى الله مرجعكم . وهو على كل شيء قدير » . .

وقد تضمن مطلع السورة جولات متعددة حول هذه الحقائق . جولات فى ملكوت السماوات والأرض . وفى جنبات النفس ، وفى ساحة الحشر . . ثم أخذ فى هذه الجولة الجديدة فى جنبات الأرض وأطواء التاريخ مع قصص الماضين . . يستعرض حركة العقيدة الإسلامية فى مواجهة الجاهلية على مدار القرون .

والقصص هنا مفصل بعض الشيء ــ وبخاصة قصة نوح والطوفان ــ وهو يتضمن الجدل حول حقائق العقيدة التى وردت فى مطلع السورة ، والتى يجيء كل رسول لتقريرها ، وكأنما المكذبون هم المكذبون ، وكأنما طبيعتهم واحدة ، وعقليتهم واحدة على مدار التاريخ .

ويتبع القصص فى هذه السورة خط سير التاريخ ، فيبدأ بنوح ، ثم هود ، ثم صالح ، ويلم بإبراهيم فى الطريق إلى لوط ، ثم شعيب ، ثم إشارة إلى موسى . . ويشير إلى الخط التاريخى ، لأنه يذكر التالين بمصير السالفين على التوالى بهذا الترتيب :

ونبدأ بقصة نوح مع قومه . أول هذا القصص فى السياق . وأوله فى التاريخ :

* * *

Marfat.com

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه . إنى لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » ..

إنها تكاد تكون الألفاظ ذاتها التى أرسل بها محمد - صلى الله عليه وسلم - ، والتى تضمنها الكتاب الذى أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . وهذه المقاربة فى ألفاظ التعبير عن المعنى الرئيسى الواحد مقصودة فى السياق لتقرير وحدة الرسالة ووحدة العقيدة ، حتى لتتوحد ألفاظ التعبير عن معانيها . وذلك مع تقدير أن المحكى هنا هو معنى ما قاله نوح - عليه السلام - لا ألفاظه . وهو الأرجح . فنحن لا ندرى بأية لغة كان نوح يعبر .

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه : إنى لكم نذير مبين » ..

ولم يقل قال : إنى . . . لأن التعبير القرآنى يحيي المشهد فكأنما هو واقعة حاضرة لا حكاية ماضية . وكأنما هو يقول لهم الآن ونحن نشهد ونسمع . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أنه يلخص وظيفة الرسالة كلها ويترجمها إلى حقيقة واحدة :

« إنى لكم نذير مبين » ..

وهو أقوى فى تحديد هدف الرسالة وإبرازه فى وجدان السامعين .

ومرة أخرى يبلور مضمون الرسالة فى حقيقة جديدة :

« ألا تعبدوا إلا الله » . .

فهذا هو قوام الرسالة ، وقوام الإنذار . ولماذا ؟

« إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » ..

فيتم الإبلاغ ويتم الإنذار ، فى هذه الكلمات القصار ..

واليوم ليس أليما . إنما هو مؤلم . والأليم - اسم مفعول أصله : مألوم ! - إنما هم المألومون فى ذلك اليوم . ولكن التعبير يختار هذه الصيغة هنا ، لتصوير اليوم ذاته بأنه محمل بالألم ، شاعر به ، فما بال من فيه ؟

« فقال الملأ الذين كفروا من قومه : ما نراك إلا بشرا مثلنا ، وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأى ، وما نرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين » . .

Marfat.com

ذلك رد العلية المتكبرين .. الملأ .. كبار القوم المتصدرين .. وهو يكاد يكون رد الملأ من قريش : مانراك إلا بشرا مثلنا ، ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ـ بادى الرأى ـ ومانرى لكم علينا من فضل ، بل نظنكم كاذبين .

الشبهات ذاتها ، والاتهامات ذاتها ، والكبرياء ذاتها ، والاستقبال الغبي الجاهل المتعالى !

إنها الشبهة التي وقرت في نفوس جهال البشر : أن الجنس البشرى أصغر من حمل رسالة الله ؛ فإن تكن رسالة فليحملها ملك أو مخلوق آخر . وهى شبهة جاهلة ، مصدرها عدم الثقة بهذا المخلوق الذى استخلفه الله فى أرضه، وهى وظيفة خطيرة ضخمة ، لابد أن يكون الخالق قد أودع فى هذا الإنسان مايكافئها من الاستعداد والطاقة ، وأودع فى جنسه القدرة على أن يكون من بينه أفراد مهيأون لحمل الرسالة ، باختيار الله لهم ، وهو أعلم بما أودع فى كيانهم الخاص من خصائص هذا الجنس فى عمومه .

وشبهة أخرى جاهلة كذلك .هى أنه إذا كان الله يختار رسولا ، فلم لايكون من بين هؤلاء للملأ الكبراء فى قومهم ، المتسلطين العالين ؟ وهو جهل بالقيم الحقيقية لهذا المخلوق الإنسانى . والتى من أجلها استحق الخلافة فى الأرض بعمومه ، واستحق حمل رسالة الله بخصوصيته فى المختارين من صفوفه . وهذه القيم لاعلاقة لها بمال أو جاه أو استطالة فى الأرض ، إنما هى فى صميم النفس ، واستعدادها للاتصال بالملأ الأعلى ، بما فيها من صفاء وتفتح وقدرة على التلقى ، واحتمال للأمانة وصبر على أدائها ومقدرة على إبلاغها... إلى آخر صفات النبوة الكريمة . .وهى صفات لاعلاقة لها بمال أو جاه أو استعلاء !

ولكن للملأ من قوم نوح ، كالملأ من قوم كل نبى تعميهم مكانتهم الدنيوية عن رؤية هذه الخصائص العلوية ، فلايدركون مبررا لاختصاص الرسل بالرسالة .وهى فى زعمهم لاتكون لبشر. فإن كانت فهى لأمثالهم من الوجهاء العالين فى الأرض !

« مانراك إلابشرا مثلنا » ..

هذه واحدة .. أما الأخرى فأدهى :

« وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ، بادى الرأى » !!

Marfat.com

وهم يسمون الفقراء من الناس « أراذل » .. كما ينظر الكبراء دائما إلى الآخرين الذين لم يؤتهم المال والسلطان ! وأولئك هم أتباع الرسل السابقون غالبا ؛ لأنهم بفطرتهم أقرب إلى الاستجابة للدعوة التي تحرر الناس من العبودية للكبراء ، وتصل القلوب بإله واحد قاهر عال على الأعلياء . ولأن فطرتهم لم يفسدها البطر والترف ، ولم تعوقها المصالح والمظاهر عن الاستجابة ؛ ولأنهم لا يخافون من العقيدة في الله أن تضيع عليهم مكانة مسروقة لغفلة الجماهير واستعبادها للخرافات الوثنية في شتى صورها . وأول صور الوثنية الدينونة والعبودية والطاعة والاتباع للأشخاص الزائلة بدلا من الاتجاه بهذا كله لله وحده دون شريك . فرسالات التوحيد هي حركات التحرير الحقيقية للبشر في كل طور وفي كل أرض . ومن ثم كان يقاومها الطغاة دائما ، ويصدون عنها الجماهير ؛ ويحاولون تشويهها واتهام الدعاة إليها بشر التهم للتشويش والتنفير .

« وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي » ..

أي دون ترو ولا تفكير .. وهذه تهمة كذلك توجه دائما من الملأ العالين لجموع المؤمنين .. أنها لا تتروى ولا تفكر في اتباع الدعوات . ومن ثم فهي متهمة في اتباعها واندفاعها ، ولا يليق بالكبراء أن ينهجوا نهجها ، ولا أن يسلكوا طريقها . فإذا كان الأراذل يؤمنون ، فما يليق إذن بالكبراء أن يؤمنوا إيمان الأراذل ؛ ولا أن يدعوا الأراذل يؤمنون !

« وما نرى لكم علينا من فضل » ..

يدمجون الداعي بمن تبعوه من الأراذل ! ما نرى لكم علينا من فضل يجعلكم أقرب إلى الهدى ، أو أعرف بالصواب . فلو كان ما معكم خيرا وصوابا لاهتدينا إليه ، ولم تسبقونا أنتم إليه ! وهم يقيسون الأمور ذلك القياس الخاطيء الذي تحدثنا عنه . قياس الفضل بالمال ، والفهم بالجاه ، والمعرفة بالسلطان .. فذو المال أفضل . وذو الجاه أفهم . وذو السلطان أعرف !!! هذه المفاهيم وتلك القيم التي تسود دائما حين تغيب عقيدة التوحيد عن المجتمع ، أو تضعف آثارها ، فترتد البشرية إلى عهود الجاهلية ، وإلى تقاليد الوثنية في صورة من صورها الكثيرة . وإن بدت في ثوب من الحضارة المادية قشيب(١) . وهي انتكاسة للبشرية من غير شك ،

---

(١) في أمريكا اليوم يقاس الرجل بدخله ، ويوزن برصيده في البنك ! ! ! وموجة الجاهلية الوثنية تطغى من أمريكا على العالم حتى في الشرق الذي يزعم أنه مسلم ! ! !

Marfat.com

لأنها تصغر من القيم التي بها صار الإنسان إنسانا ، واستحق الخلافة في الأرض ، وتلقي الرسالة من السماء ؛ وترجع به إلى قيم أقرب إلى الحيوانية العضلية الفيزيقية !

« بل نظنكم كاذبين » . . .

وهي التهمة الأخيرة يقذفون بها في وجه الرسول وأتباعه . ولكنهم على طريقة طبقتهم . . « الأرستقراطية » . . . ! يلقونها في أسلوب التحفظ اللائق « بالأرستقراط » ! « بل نظنكم ! » لأن اليقين الجازم في القول والاتجاه من طبيعة الجماهير المندفعة ـ بادئ الرأي ـ التي يترفع عنها السادة المفكرون المتحفظون !

إنه النموذج المتكرر من عهد نوح ، لهذه الطبقة المليئة الجيوب الفارغة القلوب ، المتعاظمة المدعية المنتفخة الأوداج والأخاخ ! ! !

ويتلقى نوح ـ عليه السلام ـ الاتهام والإعراض والاستكبار ، في سماحة النبي وفي استعلائه وفي ثقته بالحق الذي جاء به ، واطمئنانه إلى ربه الذي أرسله ؛ وفي وضوح طريقه أمامه واستقامة منهجه في شعوره . فلا يشتم كما شتموا ، ولا يتهم كما اتهموا ، ولا يدعي كما ادعوا ، ولا يحاول أن يخلع على نفسه مظهرا غير حقيقته ولا على رسالته شيئا غير طبيعتها . .

« قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم . أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم . ولكني أراكم قوما تجهلون . وياقوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون؟ ولا أقول لكم : عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول : إني ملك ، ولا أقول للذين تزدري أعينكم : لن يؤتيهم الله خيرا . الله أعلم بما في أنفسهم ، إني إذن لمن الظالمين » . .

« ياقوم » . . في سماحة ومودة بندائهم ونسبتهم إليه ، ونسبة نفسه إليهم . إنكم تعترضون فتقولون : « مانراك إلا بشرا مثلنا » . فما يكون رأيكم إن كنت على اتصال بربي ، بين في نفسي مستيقن في شعوري . وهي خاصية لم توهبوها . وإن كان الله آتاني رحمة من عنده باختياري للرسالة ، أو آتاني من الخصائص ما أستحق به حمل الرسالة ـ وهذه رحمة ولاشك عظيمة ـ

Marfat.com

مارأيكم إن كانت هذه وتلك خفيت عليكم خفاء عماية ، لأنكم غير متهيئين لإدراكها ، وغير مفتوحى البصائر لرؤيتها . « أنلزمكموها ؟[1] » إنه ماكان لى وماأنا بمستطيع أن ألزمكم الإذعان لها والإيمان بها « وأنتم لها كارهون » ؟!

وهكذا يتلطف نوح فى توجيه أنظارهم ولمس وجدانهم وإثارة حساسيتهم لإدراك القيم الخفية عليهم ، والخصائص التى يغفلون عنها فى أمر الرسالة والاختيار لها ؛ ويبصرهم بأن الأمر ليس موكولا إلى الظواهر السطحية التى يقيسون بها . وفى الوقت ذاته يقرر لهم المبدأ العظيم القويم . مبدأ الاختيار فى العقيدة ، والاقتناع بالنظر والتدبر ، لا بالقهر والسلطان والاستعلاء !

« وياقوم لاأسألكم عليه مالا ، إن أجرى إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقو ربهم ، ولكنى أراكم قوما تجهلون » .

ياقوم إن الذين تدعونهم أراذل قد دعوتهم فآمنوا ، وليس لى عند الناس إلا أن يؤمنوا . إنى لا أطلب مالا على الدعوة ، حتى أكون حفيا بالأثرياء غير حفى بالفقراء ؛ فالناس كلهم عندى سواء . . ومن يستغن عن مال الناس يتساو عنده الفقراء والأغنياء . .

« إن أجرى إلا على الله » . .

عليه وحده دون سواه .

« وما أنا بطارد الذين آمنوا » . .

ونفهم من هذا الرد أنهم طلبوا أو لوحوا له بطردهم من حوله ، حتى يفكروا هم فى الإيمان به ، لأنهم يستنكفون أن يلتقوا عنده بالأراذل ، أو أن يكونوا وإياهم على طريق واحد ! — لست بطاردهم ، فهذا لايكون منى . لقد آمنوا وأمرهم بعد ذلك إلى الله لا لى :

« إنهم ملاقو ربهم » . . « ولكنى أراكم قوما تجهلون » . .

تجهلون القيم الحقيقية التى يقدر بها الناس فى ميزان الله . وتجهلون أن مرد الناس كلهم إلى الله .

---

(١) جاء فى كتاب : « التصوير الفنى فى القرآن » فى فصل التناسق الفنى أن اللفظ فى القرآن قد يرسم بجرسه صورة كاملة . ومن أمثلته أنك « تتلو حكاية قول نوح : « أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم . أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ؟ » فتحس أن كلمة « أنلزمكموها » تصور جو الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر فى النطق وشد بعضها إلى بعض ، كما يدمج الكارهون مع مايكرهون ، ويشدون إليه وهم نافرون ! وهكذا يبدو لون من التناسق أعلى من البلاغة الظاهرية وأرفع من الفصاحة اللفظية . . .

Marfat.com

« وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم . أفلا تذكرون ؟ » . .

فهناك الله . رب الفقراء والأغنياء . رب الضعفاء والأقوياء . هناك الله يقوّم الناس بقيم أخرى . ويزنهم بميزان واحد . هو الإيمان . فهؤلاء المؤمنون فى حماية الله ورعايته .

« وياقوم من ينصرنى من الله إن طردتهم ؟ » . .

من يعصمنى من الله إن أنا أخللت بموازينه ، وبغيت على المؤمنين من عباده — وهم أكرم عليه — وأقررت القيم الأرضية الزائفة التى أرسلنى الله لأعدلها لا لأتبعها ؟

« أفلا تذكّرون ؟ » . .

وقد أنساكم ما أنتم فيه ميزان الفطرة السليمة القويمة ؟

ثم يقدم لهم شخصه ورسالته مجردين عن كل زخرف وكل طلاء وكل قيمة من تلك القيم العرضية الزائفة . يقدمها لهم فى معرض التذكير ، ليقرر لهم القيم الحقيقية ، ويزدرى أمامهم القيم الظاهرية ، بتخليه عنها ، وتجرده منها . فمن شاء الرسالة كما هى ، بقيمها ، بدون زخرف ، بدون ادعاء ، فليتقدم إليها مجردة خالصة لله :

« ولا أقول لكم عندى خزائن الله . . »

فأدعى الثراء أو القدرة على الإثراء . . .

« ولا أعلم الغيب » . .

فأدعى قدرة ليست للبشر أو صلة بالله غير صلة الرسالة . .

« ولا أقول : إنى ملك » . .

فأدعى صفة أعلى من صفة الإنسانية فى ظنكم لأرتفع فى أعينكم ، وأفضل نفسى بذاتى عليكم . .

« ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا » . .

إرضاء لكبريائكم ، أو مسايرة لتقديركم الأرضى وقيمكم العرضية .

« الله أعلم بما فى أنفسهم » . .

فليس لى إلا ظاهرهم ، وظاهرهم يدعو إلى التكريم ، وإلى الرجاء فى أن يؤتيهم الله خيرا . .

Marfat.com

« إني إذن لمن الظالمين » . .

إن ادعيت أية دعوى من هذه الدعاوى . الظالمين للحق وقد جئت أبلغه ؛ والظالمين لنفسي فأعرضها لغضب الله ؛ والظالمين للناس فأنزلهم غير ما أنزلهم الله .

وهكذا ينفي نوح — عليه السلام — عن نفسه وعن رسالته كل قيمة زائفة وكل هالة مصطنعة يتطلبها الملأ من قومه في الرسول والرسالة . ويتقدم إليهم بها مجردة إلا من حقيقتها العظيمة التي لاتحتاج إلى مزيد من تلك الأعراض السطحية . ويردهم في نصاعة الحق وقوته ، مع سماحة القول ووده إلى الحقيقة المجردة ليواجهوها ، ويتخذوا لأنفسهم خطة على هداها . بلا ملق ولا زيف ولا محاولة استرضاء على حساب الرسالة وحقيقتها البسيطة . فيعطي أصحاب الدعوة في أجيالها جميعا ، نموذجا للداعية ، ودرسا في مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد ، دون استرضاء لتصوراتهم ، ودون مجالأة لهم ، مع المودة التي لاتنحني معها الرؤوس !

وعند هذا الحد كان الملأ من قوم نوح قد يئسوا من مناهضة الحجة بالحجة ؛ فإذا هم — على عادة طبقتهم — قد أخذتهم العزة بالإثم ، واستكبروا أن تغلبهم الحجة ، وأن يذعنوا للبرهان العقلي والفطري . وإذا هم يتركون الجدل إلى التحدي :

« قالوا : يانوح قد جادلتنا ، فأكثرت جدالنا ، فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » . .

إنه العجز يلبس ثوب القدرة ، والضعف يرتدي رداء القوة ؛ والخوف من غلبة الحق يأخذ شكل الاستهانة والتحدي :

« فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » . .

وأنزل بنا العذاب الأليم الذي أنذرتنا به فلسنا نصدقك ، ولسنا نبالي وعيدك .

أما نوح فلا يخرجه هذا التكذيب والتحدي عن سمت النبي الكريم ، ولا يقعده عن بيان الحق لهم ، وإرشادهم إلى الحقيقة التي غفلوا عنها وجهلوها في طلبهم منه أن يأتيهم بما أوعدهم ، وردهم إلى هذه الحقيقة وهي أنه ليس سوى رسول ، وليس عليه إلا البلاغ ، أما العذاب فمن أمر الله ، وهو الذي يدبر الأمر كله ، ويقدر المصلحة في تعجيل العذاب أو تأجيله ، وسنته هي التي تنفذ . وما يملك هو أن يردها أو يحولها . . إنه رسول . وعليه أن

Marfat.com

يكشف عن الحق حتى اللحظة الأخيرة ، فلا يقعده عن إبلاغه وبيانه أن القوم يكذبونه ويتحدونه :

« قال : إنما يأتيكم به الله إن شاء ، وما أنتم بمعجزين . ولاينفعكم نصحى ـ إن أردت أن أنصح لكم ـ إن كان الله يريد أن يغويكم ، هو ربكم وإليه ترجعون » ..

فإذا كانت سنة الله تقتضى أن تهلكوا بغوايتكم ، فإن هذه السنة ستمضى فيكم ، مهما بذلت لكم من النصح . لالأن الله سيصدكم عن الانتفاع بهذا النصح ، ولكن لأن تصرفكم بأنفسكم يجعل سنة الله تقتضى أن تضلوا ، وماأنتم بمعجزين لله عن أن ينالكم مايقدر لكم . فأنتم دائما فى قبضته ، وهو المدبر والمقدر لأمركم كله ؛ ولا مفر لكم من لقائه وحسابه وجزائه :

« هو ربكم وإليه ترجعون » ..

* * *

وعند هذا المقطع من قصة نوح ، يلتفت السياق لفتة عجيبة ، إلى استقبال مشركى قريش لمثل هذه القصة ، التى تشبه أن تكون قصتهم مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودعواهم أن محمدا يفترى هذا القصص . فيرد هذا القول قبل أن يمضى فى استكمال قصة نوح :

« أم يقولون افتراه ؟ قل : إن افتريته فعلىّ إجرامى ، وأنا برىء مما تجرمون » ..

فالافتراء إجرام ، قل لهم : إن كنت فعلته فعلىّ تبعته ، وأنا أعرف أنه إجرام فمستبعد أن أرتكبه ، وأنا برىء مما تجرمون من تهمة الافتراء إلى جوار غيرها من الشرك و التكذيب .

وهذا الاعتراض لايخالف سياق القصة فى القرآن ، لأنها إنما جاءت لتأدية غرض من هذا فى السياق .

* * *

ثم يمضى السياق فى قصة نوح ؛ يعرض مشهدا ثانيا . مشهد نوح يتلقى وحى ربه وأمره :

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن . فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ، إنهم مغرقون » .

Marfat.com

فقد انتهى الإنذار ، وانتهت الدعوة ، وانتهى الجدل !

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن » ..

فالقلوب المستعدة للإيمان قد آمنت ، أما البقية فليس فيها استعداد ولا اتجاه . هكذا أوحى الله إلى نوح ، وهو أعلم بعباده ، وأعلم بالممكن والممتنع ، فلم يبق مجال للمضى فى دعوة لاتفيد . ولا عليك بما كانوا يفعلونه من كفر وتكذيب وتحد واستهزاء :

« فلا تبتئس بما كانوا يفعلون » ..

أى لاتحس بالبؤس والقلق ، ولا تحفل ولاتهتم بهذا الذى كان منهم ، لاعلى نفسك فما هم بضاريك بشىء ، ولا عليهم فإنهم لاخير فيهم .

دع أمرهم فقد انتهى ..

« واصنع الفلك بأعيننا ووحينا » ..

برعايتنا وتعليمنا .

« ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا ، إنهم مغرقون » ..

فقد تقرر مصيرهم وانتهى الأمر فيهم . فلا تخاطبنى فيهم .. لادعاء بهدايتهم ، ولا دعاء عليهم - وقد ورد فى موضع آخر أنه حين يئس منهم دعا عليهم . والمفهوم أن اليأس كان بعد هذا الوحى - فمتى انتهى القضاء امتنع الدعاء ..

* * *

والمشهد الثالث من مشاهد القصة : مشهد نوح يصنع الفلك ، وقد اعتزل القوم وترك دعوتهم وجدالهم :

« ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال : إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » ..

والتعبير بالمضارع . فعل الحاضر .. هو الذى يعطى المشهد حيويته وجدته . فنحن نراه ماثلا لخيالنا من وراء هذا التعبير . يصنع الفلك . ونرى الجماعات من قومه المتكبرين يمرون به فيسخرون . يسخرون من الرجل الذى كان يقول لهم : إنه رسول ويدعوهم ، ويجادلهم فيطيل

Marfat.com

جدالهم ؛ ثم إذا هو ينقلب نجارا يصنع مركبا . . إنهم يسخرون لأنهم لايرون إلا ظاهر الأمر، ولا يعلمون ماوراءه من وحى وأمر . شأنهم دائما فى إدراك الظواهر والعجز عن إدراك ماوراءها من حكمة وتقدير . فأما نوح فهو واثق عارف وهو يخبرهم فى اعتزاز وثقة وطمأنينة واستعلاء أنه يبادلهم سخرية بسخرية :

« قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » . .

نسخر منكم لأنكم لا تدركون ماوراء هذا العمل من تدبير الله ومايتنظركم من مصير :

« فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم » . .

أنحن أم أنتم . يوم ينكشف المستور ، عن المحذور !

* * *

ثم مشهد التعبئة عندما حلت اللحظة المرتقبة :

« حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين . وأهلك ـ إلا من سبق عليه القول ـ ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل . وقال : اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها ، إن ربى لغفور رحيم » . .

وتتفرق الأقوال حول فوران التنور ، ويذهب الخيال ببعضها بعيدا ، وتبدو رائحة الاسرائيليات فيها وفى قصة الطوفان كلها واضحة . أما نحن فلا نضرب فى متاهة بغير دليل ، فى هذا الغيب الذى لانعلم منه إلا مايقدمه لنا النص ، وفى حدود مدلوله بلا زيادة .

وأقصى ماعلمك أن نقوله : أن فوران التنور ـ والتنور الموقد ـ قد يكون بعين فارت فيه ، أو بفوارة بركانية . وأن هذا الفوران ربما كان علامة من الله لنوح ، أو كان مصاحبا مجرد مصاحبة لمجىء الأمر ، وبدءا لنفاذ هذا الأمر بفوران الأرض بالماء ، وسح الوابل من السماء .

لما حدث هذا « قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين ... » كأن نظام العملية كان يقتضى أن يؤمر نوح بمراحلها واحدة واحدة فى حينها . فقد أمر أولا بصنع الفلك فصنعه ، ولم يذكر لنا السياق الغرض من صنعه ، ولم يذكر أنه أطلع نوحا على هذا الغرض كذلك . « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ».. أمر بالمرحلة التالية . .

Marfat.com

« قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين ، وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن » . .

ومرة أخرى تتفرق الأقوال حول « من كل زوجين اثنين » وتشيع في الجو رائحة الاسرائيليات قوية . أما نحن فلا ندع الخيال يلعب بنا ويشتط حول النص : « احمل فيها من كل زوجين اثنين » . . مما يملك نوح أن يمسك وأن يستصحب من الأحياء . وما وراء ذلك خبط عشواء . .

« وأهلك - إلا من سبق عليه القول - » . .

أي من استحق عذاب الله حسب سنته .

« ومن آمن » . .

من غير أهلك

« وما آمن معه إلا قليل » . .

« وقال : اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها » . .

فنفذ الأمر وحشر من حشر وما حشر .

« وقال : اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها » . . وهذا تعبير عن تسليمها للمشيئة في جريانها ورسوها ، فهي في رعاية الله وحماه . . وماذا يملك البشر من أمر الفلك في اللجة الطاغية بله الطوفان ؟ !

* * *

ثم يأتي المشهد الهائل المرهوب : مشهد الطوفان :

« وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه - وكان في معزل - يابني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال : سآوي إلى جبل يعصمني من الماء . قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » . .

إن الهول هنا هولان . هول في الطبيعة الصامتة ، وهول في النفس البشرية يلتقيان :

Marfat.com

« وهى تجرى بهم فى موج كالجبال » . .

وفى هذه اللحظة الرهيبة الحاسمة يبصر نوح ، فإذا أحد أبنائه فى معزل عنهم وليس معهم ، وتستيقظ فى كيانه الأبوة الملهوفة ، ويروح يهتف بالولد الشارد :

« يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين » . .

ولكن البنوة العاقة لا تحفل بالأبوة الملهوفة ، والفتوة المغرورة لا تقدر مدى الهول الشامل:

« قال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء » . .

ثم هاهى ذى الأبوة المدركة لحقيقة الهول وحقيقة الأمر ترسل النداء الأخير :

« قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم » . .

لاجبال ولا مخابئ ولا حام ولا واق . إلا من رحم الله .

وفى لحظة تتغير صفحة المشهد . فهاهو ذا الموج الغامر يبتلع كل شىء :

« وحال بينهما الموج فكان من المغرقين » . .

وإننا بعد آلاف السنين ، لنمسك أنفاسنا ـ ونحن نتابع السياق ـ والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد . وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ، ونوح الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء . وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء ، والموجة الغامرة تحسم الموقف فى سرعة خاطفة راجفة وينتهى كل شىء ، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب !

وإن الهول هنا ليقاس بمداه فى النفس الحية ـ بين الوالد والمولود ـ كما يقاس بمداه فى الطبيعة ، والموج يطغى على الذرى بعد الوديان . وإنهما لمتكافئان ، فى الطبيعة الصامتة وفى نفس الإنسان . وتلك سمة بارزة فى تصوير القرآن .

* * *

وتهدأ العاصفة ، ويخيم السكون ، ويقضى الأمر ، ويتمشى الاستقرار كذلك فى الألفاظ وفى إيقاعها فى النفس والأذن :

« وقيل : ياأرض ابلعى ماءك ، ويا سماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودى ، وقيل بعداً للقوم الظالمين » . .

Marfat.com

ويوجه الخطاب إلى الأرض وإلى السماء بصيغة العاقل ، فتستجيب كلتاهما للأمر الفاصل. فتبلع الأرض ، وتكف السماء :

« وقيل : يا أرض ابلعى ماءك وياسماء أقلعى »

« وغيض الماء » . .

ابتلعته الأرض فى جوفها وغار من سطحها .

« وقضى الأمر » . .

ونفذ القضاء

« واستوت على الجودى » . .

ورست رسو استقرار على جبل الجودى . .

« وقيل بعدا للقوم الظالمين » . .

وهى جملة مختصرة حاسمة معبرة عن جوها أعمق تعبير . . « قيل » على صيغة المجهول فلا يذكر من قال ، من قبيل أنف موضوعهم ومواراته :

« وقيل بعدا للقوم الظالمين » . .

بعدا لهم من الحياة فقد ذهبوا ، وبعدا لهم من رحمة الله فقدلعنوا ، وبعدا لهم من الذاكرة فقد انتهوا . . وما عادوا يستحقون ذكرا ولا ذكرى !

* * *

والآن وقد هدأت العاصفة ، وسكن الهول ، واستوت على الجودى . الآن تستيقظ فى نفس نوح لهفة الوالد المفجوع :

« ونادى نوح ربه ، فقال : رب إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين » . .

رب إن ابنى من أهلى ، وقد وعدتنى بنجاة أهلى ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين . فلا تقضى إلا عن حكمة وتدبير . .

قالها يستنجز ربه وعده فى نجاة أهله ، ويستنجزه حكمته فى الوعد والقضاء . .

وجاءه الرد بالحقيقة التى غفل عنها . فالأهل ــ عند الله وفى دينه وميزانه ــ ليسوا قرابة الدم ، إنما هم قرابة العقيدة . وهذا الولد لم يكن مؤمنا ، فليس إذن من أهله وهو النبى المؤمن . . جاءه الرد هكذا فى قوة وتقرير وتوكيد ؛ وفيما يشبه التقريع والتأنيب والتهديد :

Marfat.com

« قال : يانوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ماليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين » . .

إنها الحقيقة الكبيرة فى هذا الدين . حقيقة العروة التى ترجع إليها الخيوط جميعا . عروة العقيدة التى تربط بين الفرد والفرد مالا يربطه النسب والقرابة :

« إنه ليس من أهلك . إنه عمل غير صالح » . .

فهو مُنبتٌ منك وأنت منبت منه ، ولو كان ابنك من صلبك ، فالعروة الأولى مقطوعة ، فلا رابطة بعد ذلك ولا وشيجة .

ولأن نوحا دعا دعاء من يستنجز وعدا لا يراه قد تحقق . . كان الرد عليه يحمل رائحة التأنيب والتهديد :

« فلا تسألن ماليس لك به علم . إنى أعظك أن تكون من الجاهلين » . .

إنى أعظك خشية أن تكون من الجاهلين بحقيقة الوشائج والروابط ، أو حقيقة وعد الله وتأويله ، فوعد الله قد أول وتحقق ، ونجا أهلك الذين هم أهلك على التحقيق .

ويرتجف نوح ارتجافة العبد المؤمن يخشى أن يكون قد زل فى حق ربه ، فيلجأ إليه . يعوذ به ، ويطلب غفرانه ورحمته :

« قال : رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم ، وإن لاتغفر لى وترحمنى أكن من الخاسرين » . .

وأدركت رحمة الله نوحا ، تطمئن قلبه ، وتبارکه هو والصالح من نسله ، فأما الآخرون فيمسهم عذاب أليم :

« قيل : يانوح اهبط بسلام منا ، وبركات عليك وعلى أمم ممن معك . وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » . .

وكانت خاتمة الطاف : النجاة والبشرى له ولمن يؤمن من ذريته ؛ والوعيد والتهديد لمن يريدون منهم متاع الحياة الدنيا ثم يمسهم العذاب الأليم . . ذات البشرى وذات الوعيد ، اللذان مرا فى مقدمة السورة . فجاء القصص ليترجمهما فى الواقع المشهود . .

* * *

Marfat.com

ومن ثم يجيء التعقيب :

« تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا، فاصبر إن العاقبة للمتقين » ..

فيحقق هذا التعقيب من أهداف القصص القرآنى فى هذه السورة :

• حقيقة الوحى التى ينكرها المشركون . فهذا القصص غيب من الغيب ، ما كان يعلمه النبى ، وما كان معلوما لقومه ، ولا متداولا فى محيطه . إنما هو الوحى من لدن حكيم خبير .

• وحقيقة وحدة العقيدة من لدن نوح أبى البشر الثانى . فهى هى . والتعبير عنها يكاد يكون هو التعبير .

• وحقيقة تكرار الاعتراضات والاتهامات من المكذبين على الرغم من الآيات والعبر والبينات التى لا تمنع جيلا أن يرددها وقد بدت باطلة فى جيل .

• وحقيقة تحقق البشرى والوعيد ، كما يبشر النبي وينذر ، وهذا شاهد من التاريخ .

• وحقيقة السنن الجارية التى لاتتخلف ولا تحابى ولا تحيد : « والعاقبة للمتقين » .. فهم الناجون وهم المستخلفون .

• وحقيقة الرابطة التى تربط بين فرد وفرد وبين جيل وجيل .. إنها العقيدة الواحدة التى تربط المؤمنين كلهم فى إله واحد ورب واحد يلتقون فى الدينونة له بلا منازع ولا شريك.

* * *

وبعد .. أ كان الطوفان عاما فى الأرض ؟ أم إنه كان فى تخوم الأرض التى بعث فيها نوح ؟ وأين كانت هذه الأرض ؟ وأين تخومها فى العالم القديم وفى العالم الحديث ؟ أسئلة لاجواب عليها إلا الظن الذى لا يغنى من الحق شيئا ؛ وإلا الإسرائيليات التى لاتستند إلى دليل صحيح .. وليس لها بعد ذلك قيمة فى تحقيق أهداف القصص القرآنى فى كثير ولا قليل .

ولكن هذا لايمنع من القول بأن ظاهر النصوص القرآنية يلهم أن قوم نوح كانوا هم مجموع البشرية فى ذلك الزمان . وأن الأرض التى يسكنونها كانت هى الأرض المعمورة فى ذلك الحين . وأن الطوفان قد عم هذه الرقعة ، وقضى على جميع الخلائق التى تقطنها ــ فيما عدا ركب السفينة الناجين .

Marfat.com

وهذا حسبنا فى إدراك طبيعة ذلك الحادث الكونى الذى جاءنا خبره من المصدر الوحيد الوثيق عن ذلك العهد السحيق ، الذى لايعرف « التاريخ » عنه شيئا . وإلا فيومها أين كان « التاريخ » ؟! إن التاريخ مولود حدث لم يسجل من أحداث البشرية إلا القليل ! وكل ماسجله قابل للخطأ والصواب ،والصدق والكذب ، والتجريح والتعديل ! ومالاينبغى قط أن يـنعق ذات يوم فى شأن جاءنا به الخبر الصادق. ومجرد استفتائه فى مثل هذا الشأن قلب للأوضاع، وانتكاسة لاتصيب عقلا قد استقرت فيه حقيقة هذا الدين !

ولقد حفلت أساطير شتى الشعوب وذكرياتها الغامضة بذكر طوفان أصاب أرضها فى تاريخ قديم مجهول ؛ بسبب معصية ذلك الجيل الذى شهد ذلك الحادث الكبير ..وأساطير بنى إسرائيل المدونة فيما يسمونه « العهد القديم » تحوى كذلك ذكرى طوفان نوح .. ولكن هذا كله شىء لاينبغى أن يذكر فى معرض الحديث القرآنى عن الطوفان ؛ ولاينبغى أن يخلط الخبر الصادق الوثيق بمثل هذه الروايات الغامضة وهذه الأساطير المجهولة المصدر والأسانيد . وإن كان لوجود هذه الأخبار الغامضة عن الطوفان عند شعوب شتى دلالته فى أن الطوفان قد كان فى أرض هذه الأقوام ؛ أو على الأقل قد رحلت ذكرياته مع ذرارى الناجين حين تفرقوا فى الأرض بعد ذلك وعمروا الأرض من جديد ..

وينبغى أن نذكر أن ما يسمى « بالكتاب المقدس » ـ سواء فى ذلك « العهد القديم» المحتوى على كتب اليهود أو « العهد الجديد » المحتوى على أناجيل النصارى ـ ليس هو الذى نزل من عند الله . فالتوراة التى أنزلها الله على موسى قد حرقت نسخها الأصلية على يد البابليين عند سبى اليهود. ولم تعد كتابتها إلا بعد قرون عديدة ـ قبيل ميلاد المسيح بنحو خمسة قرون ـ وقد كتبها عزرا ـ وقد يكون هو عزير ـ وجمع فيها بقايا من التوراة . أما سائرها فهو مجرد تأليف ! وكذلك الأناجيل فهى جميعا لاتحوى إلا ماحفظته ذاكرة تلامذة المسيح وتلامذتهم بعد نحو قرن من وفاة المسيح ـ عليه السلام ـ ثم خلطت به حكايات كثيرة وأساطير ! . . ومن ثم لايجوز أن يطلب عند تلك الكتب جميعها يقين فى أمر من الأمور !

Marfat.com

ونخلص من هـذه القضية العرضية إلى عبرة هـذا الحادث الـكونى العظيم .. وهى - فى الحقيقة - عبر شتى ، لاعبرة واحدة . وسنحاول أن نلم بشيء منها فى الصفحات التالية ، قبل أن ننتقل من قصة نوح إلى قصة هود :

* * *

إن قوم نوح - عليـه السلام - هؤلاء الذين شهدنا مدى جاهليتهم ، ومدى إصرارهم على باطلهم ، ومدى استنكارهم لدعوة الإسـلام الخالص التى حملها نوح - عليه السلام - إليهم ، وخلاصتها: التوحيد الخالص الذى يفرد الله - سبحانه - بالدينونة والعبودية ؛ ولا يجعل لأحد معه صفة الربوبية ..

إن قوم نوح هؤلاء . . هم ذرية آدم . . وآدم - كما نعلم من قصته فى سورة الأعراف من قبل - وفى سورة البقرة كذلك - قد هبط إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها - وهى المهمة التى خلقه الله لها وزوده بالـكفايات والاستعدادات اللازمة لها - بعد أن علمه ربه كيف يتوب من الزلة التى زلها ، وكيف تلقى من ربه كلمات فتاب عليـه بها . وكيف أخذ عليـه ربه العهد والميثاق - هو وزوجه وبنوه - أن « يتبع » مايأتيه من هدى الله ، ولايتبع الشيطان وهو عدوه وعدو بنيه إلى يوم الدين .

وإذن فقد هبط آدم إلى الأرض مسلما لله متبعا هداه .. وما من شك أنه علم بنيه الإسلام جيلا بعد جيل ؛ وأن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية فى الأرض ؛ حيث لم تـكن معها عقيدة أخرى ! فإذا نحن رأينا قوم نوح - وهم من ذرية آدم بعد أجيال لايعلم عددها إلا الله - قد صاروا إلى هذه الجاهلية - التى وصفتها القصة فى هذه السورة - فلنا أن نجزم أن هذه الجاهلية طارئة على البشرية بوثنيتها وأساطيرها وخرافاتها وأصنامها وتصوراتها وتقاليدها جميعا . وأنها انحرفت عن الإسلام إليها بفعل الشيطان المسلط على بنى آدم ؛ وبفعل الثغرات الطبيعية فى النفس البشرية . تلك الثغرات التى ينفذ منها عدو الله وعدو الناس ، كلما تراخوا عن الاستمساك بهدى الله ، واتباعه وحده ، وعدم اتباع غيره معه فى كبيرة ولاصغيرة .. ولقد خلق الله الإنسان ومنحه قدرا من الاختيـار - هو مناط الابتلاء - وبهـذا القدر يملك أن يستمسك بهدى الله

Marfat.com

وحده فلا يكون لعدوه من سلطان عليه ، كما يملك أن ينحرف – ولو قيد شعرة – عن هدى الله إلى تعاليم غيره ؛ فيجتاله الشيطان حتى يقذف به – بعد أشواط – إلى مثل تلك الجاهلية الكالحة التي انتهت إليها ذراري آدم – النبي المسلم – بعد تلك الأجيال التي لا يعلمها إلا الله.

وهذه الحقيقة .. حقيقة أن أول عقيدة عرفت في الأرض هي الإسلام القائم على توحيد الدينونة والربوبية والقوامة لله وحده .. تقودنا إلى رفض كل ما يخبط فيه من يسمونهم « علماء الأديان المقارنة » وغيرهم من التطوريين الذين يتحدثون عن التوحيد بوصفه طورا متأخرا من أطوار العقيدة . سبقته أطوار شتى من التعدد والتثنية للآلهة . ومن تأليه القوى الطبيعية وتأليه الأرواح ، وتأليه الشموس والكواكب .. إلى آخر ما تخبط فيه هذه « البحوث » التي تقوم ابتداء على منهج موجه بعوامل تاريخية ونفسية وسياسية معينة ؛ يهدف إلى تحطيم قاعدة الأديان السماوية والوحي الإلهي والرسالات من عند الله ، وإثبات أن الأديان من صنع البشر ؛ وأنها من ثم تطورت بتطور الفكر البشري على مدار الزمان !

ويتزلق بعض من يكتبون عن الإسلام مدافعين ؛ فيتابعون تلك النظريات التي يقررها الباحثون في تاريخ الأديان – وفق ذلك المنهج الموجه ! – من حيث لا يشعرون ! وبينما هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطمون أصل الاعتقاد الإسلامي الذي يقرره القرآن الكريم في وضوح حاسم . حين يقرر أن آدم – عليه السلام – هبط إلى الأرض بعقيدة الإسلام . وأن نوحا – عليه السلام – واجه ذراري آدم الذين اجتالهم الشيطان عن الإسلام إلى الجاهلية الوثنية بذلك الإسلام نفسه .. القائم على التوحيد المطلق . وأن الدورة تجددت بعد نوح فخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ، وأن الرسل جميعا أرسلوا بعد ذلك بالإسلام .. القائم على التوحيد المطلق .. وأنه لم يكن قط تطور في العقيدة السماوية في أصل الاعتقاد – إنما كان الترقي والتركيب والتوسع في الشرائع المصاحبة للعقيدة الواحدة – وأن ملاحظة ذلك التطور في العقائد الجاهلية لا يدل على أن الناس صاروا إلى التوحيد بناء على تطور في أصل العقيدة . إنما يدل على أن عقيدة التوحيد على يد كل رسول كانت تترك رواسب في الأجيال التالية – حتى بعد انحراف الأجيال عنها – ترقى عقائدهم الجاهلية ذاتها ؛ حتى تصير أقرب إلى أصل التوحيد الرباني . أما عقيدة

Marfat.com

التوحيد فى أصلها فهى أقدم فى تاريخ البشرية من العقائد الوثنية جميعا ! وقد وجدت هكذا كاملة منذ وجدت ، لأنها ليست نابعة من أفكار البشر ومعلوماتهم الترقية ؟ إنما هى آتية لهم من عند الله سبحانه . فهى حق منذ اللحظة الأولى ، وهى كاملة منذ اللحظة الأولى . .

هذا مايقرره القرآن الكريم ؛ ويقوم عليه التصور الإسلامى . فلا مجال - إذن - لباحث مسلم - وبخاصة إذا كان يدافع عن الإسلام ! - أن يعدل عن هذا الذى يقرره القرآن الكريم فى وضوح حاسم ، إلى شىء مما تخبط فيه نظريات علم الأديان المقارنة . تلك النظريات النابعة من منهج موجه كما أسلفنا !

ومع أننا هنا - فى ظلال القرآن - لا نناقش الأخطاء والمزالق فى الكتابات التى تكتب عن الإسلام - إذ أن مجال هذه المناقشة بحث آخر مستقل (١) » .. ولكننا نلم بنموذج واحد ، نعرضه فى مواجهة المنهج القرآنى والتقريرات القرآنية فى هذه القضية . .

كتب الأستاذ العقاد فى كتابه : « الله » فى فصل أصل العقيدة :

.. « ترقى الإنسان فى العقائد . كما ترقى فى العلوم والصناعات .

« فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته . فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الديانات والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة فى واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة فى الأخرى .

« وينبغى أن تكون محاولات الإنسان فى سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته فى سبيل العلوم والصناعات .

« لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطلبا وأطول طريقا من حقيقة هذه الأشياء المتفرقة التى يعالجها العلم تارة والصناعة تارة أخرى .

« وقد جهل الناس شأن الشمس الساطعة ، وهى أظهر ماتراه العيون وتحسه الأبدان ، ولبثوا إلى زمن قريب يقولون بدورانها حول الأرض ، ويفسرون حركاتها وعوارضها كما تفسر

---

(١) بحث : « تصويبات فى الفكر الدينى المعاصر » للمؤلف فى الطريق بعون الله .

Marfat.com

الألغاز والأحلام . ولم يخطر لأحد أن ينكر وجود الشمس لأن العقول كانت فى ظلام من أمرها فوق ظلام . ولعلها لا تزال .

« فالرجوع إلى أصول الأديان فى عصور الجاهلية الأولى لايدل على بطلان التدين ، ولا على أنها تبحث عن محال . وكل مايدل عليه أن الحقيقة الكبرى أكبر من أن تتجلى للناس كاملة شاملة فى عصر واحد ؛ وأن الناس يستعدون لعرفانها عصرا بعد عصر ، وطورا بعد طور ، وأسلوبا بعد أسلوب ، كما يستعدون لعرفان الحقائق الصغرى ، بل على نحو أصعب وأعجب من استعدادهم لعرفان هذه الحقائق التى يحيط بها العقل ويتداولها الحس والعيان .

« وقد أسفر علم المقابلة بين الأديان عن كثير من الضلالات والأساطير التى آمن بها الإنسان الأول ، ولا تزال لها بقية شائعة بين القبائل البدائية ، أو بين أمم الحضارة العريقة . ولم يكن من المنظور أن يسفر هذا العلم عن شىء غير ذلك ، ولا أن تكون الديانات الأولى على غير ما كانت عليه من الضلالة والجهالة . فهذه هى وحدها النتيجة المعقولة التى لا يترقب العقل نتيجة غيرها . وليس فى هذه النتيجة جديد يستغربه العلماء ، أو يبنون عليه جديدا فى الحكم على جوهر الدين . فإن العالم الذى يخطر له أن يبحث فى الأديان البدائية ليثبت أن الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية الكاملة منزهة عن شوائب السخف والغباء ، إنما يبحث عن محال . . . » .

كذلك كتب فى فصل : « أطوار العقيدة الإلهية » فى الكتاب نفسه :

« يعرف علماء المقابلة بين الأديان ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب :

وهى دور التعدد Polytheism

ودور التمييز والترجيح Henotheism

ودور الوحدانية Monotheism

« ففى دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أربابا تعد بالعشرات ، وقد تتجاوز العشرات إلى المئات . ويوشك فى هذا الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده ، أو تعويذة تنوب عن الرب فى الحضور ، وتقبل الصلوات والقرابين .

Marfat.com

« وفى الدور الثانى وهو دور التميز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها، ويأخذ رب منها فى البروز والرجحان على سائرها . إما لأنه رب القبيلة الكبرى التى تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة ، وتعتمد عليها فى شؤون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعا مطلبا أعظم والزم من سائر المطالب التى تحققها الأرباب المختلفة ، كأن يكون رب المطر والإقليم فى حاجة إليه ، أو رب الزوابع والرياح وهى موضع رجاء أو خشية يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية .

« وفى الدور الثالث تتوحد الأمة ، فتتجمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب فى كل إقليم من الأقاليم المتفرقة . ويحدث فى هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ، ويحدث أيضا أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها ، مع بقائه وبقاء عبادته كبقاء التابع المتبوع ، والحاشية لملك المطاع .

« ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدانية الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ، ويتمنز فيها على العقل قبول الخرافات التى كانت سائغة فى عقول الهمج وقبائل الجاهلية ، فتصف الله بما هو أقرب إلى الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة فى أطوارها السابقة ، وتقترن العبادة بالتفكير فى أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالية ، وكثيرا ما ينفرد الإله الأكبر فى هذه الأمم بالربوبية الحقة ، وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة الملائكة أو الأرباب المطرودين من الحظيرة السماوية . . . . » الخ .

وواضح سواء من رأى الكاتب نفسه أو مما نقله ملخصا من آراء علماء الدين المقارن أن البشر هم الذين ينشئون عقائدهم بأنفسهم ؛ ومن ثم تظهر فيها أطوارهم العقلية والعلمية والحضارية والسياسية . وأن التطور من التعدد إلى التثنية إلى التوحيد تطور زمنى مطرد على الإجمال . .

وهذا واضح من الجملة الأولى فى تقديم المؤلف لكتابه : « موضوع هذا الكتاب نشأة العقيدة الإلهية ، منذ أن اتخذ الإنسان ربا ، إلى أن عرف الله الأحد ، واهتدى إلى نزاهة التوحيد » . .

والذى لاشك فيه أن الله سبحانه يقرر فى كتابه الكريم ، تقريرا واضحا جازما ، شيئاً

Marfat.com

آخر غير مايقرره صاحب كتاب : « الله » متأثرا فيه بمنهج علماء الأديان المقارنة . . وأن الذى يقرره الله ـ سبحانه ـ أن آدم وهو أول البشر عرف حقيقة التوحيد كاملة ، وعرف نزاهة التوحيد غير مشوبة بشائبة من التعدد والتثنية ، وعرف الدينونة لله وحده باتباع مايتلقى منه وحده . وأنه عرف بنيه بهـذه العقيدة ، فـكانت هنالك أجيال فى أقدم تاريخ البشرية لاتعرف إلا الإسلام دينا ، وإلا التوحيد عقيدة . . وأنه لما طال الأمد على الأجيال المتتابعة من ذرية آدم انحرفت عن التوحيد . . ربما إلى التثنية وربما إلى التعدد . . ودانت لشتى الأرباب الزائفة . . . حتى جاءها نوح عليه السلام بالتوحيد من جديد . وأن الذين بقوا على الجاهليـة أغرقهم الطوفان جميعا ؛ ولم ينج إلا المسلمون الموحدون الذين يعرفون « نزاهة التوحيـد » وينـكرون التعدد والتثنية وسائر الأرباب والعبادات الجاهلية ! ولنا أن نجـزم أن أجيالا من ذرارى هؤلاء الناجين عاشت كذلك بالإسلام القائم على التوحيد المطلق . قبل أن يطول عليهم الأمد ، ويعودوا إلى الانحراف عن التوحيد من جديد . . وأنه هكذا كان شأن كل رسول : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » .

والذى لاشك فيه أن هذا شيء ، والذى يقرره علماء الأديان المقارنة ويتابعهم فيه مؤلف كتاب : « الله » شيء آخر . وبينهما تقابل تام فى منهج النظر وفى النتائج التى ينتهى إليها وآراء الباحثين فى تاريخ الأديان ليست سوى نظريات يعارض بعضها بعضا ، وهى ليست الـكلمة النهاية حتى فى مباحث البشر الفانين !

ومامن شك أنه حين يقرر الله ـ سبحانه ـ أمرا يبينه فى كتابه الـكريم هـذا البيان القاطع ، ويقرر غيره أمرا آخر مغايرا له تمام المغايرة ، فإن قول الله يـكون أولى بالاتباع . وبخاصة ممن يدافعون عن الإسـلام ؛ ويكتبون ما يكتبون بقصد دفع الشبهات عنه وعن أصل الدين جملة . . وأن هذا الدين لايخدم بنقض قاعدته الاعتقادية فى أن الدين جاء وحيا من عند الله ، ولم يبتدعه البشر من عند أنفسهم ؛ وأنه جاء بالتوحيد منذ أقدم العصور ولم يجىء بغير التوحيد فى أية فترة من فترات التاريخ ، ولا فى أية رسالة . كما أنه لا يخـدم بترك تقريراته إلى تقريرات علماء الأديان المقارنة وبخاصة حين يعلم أن هؤلاء إنما يعملون وفق منهج موجه لتدمير

Marfat.com

القاعد: الأساسية لدين الله كله ؛ وهى أنه وحى من الله ، وليس من وحى الفكر البشرى المترقى المتطور ! وليس وقفا على ترقى العقل البشرى فى العلم المادى والخبرة التجريبية !

ولعل هذه اللمحة المختصرة - التى لا أملك الاستطراد فيها فى كتاب الظلال (١) - تكشف لنا عن مدى الخطورة فى تلقى مفهوماتنا الإسلامية - فى أى جانب من جوانبها - عن مصدر غير إسلامى . كما تكشف لنا عن مدى تغلغل مناهج الفكر الغربية ومقرراتها فى أذهان الذين يعيشون على هذه المناهج والمقررات ويستقون منها . حتى وهم يتصدون لرد الافتراءات عن الإسلام من أعدائه . . « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » . .

* * *

و نقف وقفة أخرى مع قصة نوح .. نقف مع نوح وابنه الذى ليس من أهله ! إنها وقفة على معلم واضح بارز فى طبيعة هذه العقيدة وفى خطها الحركى أيضا . . وقفة على مفرق الطريق تكشف معالم الطريق ..

« وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ، ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ...

« حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا : احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك - إلا من سبق عليه القول - ومن آمن ، وما آمن معه إلا قليل ...

« وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل - : يابنى اركب معنا ، ولا تكن مع الكافرين . قال : سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، قال : لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ...

« ونادى نوح ربه ، فقال : رب إن ابنى من أهلى ، وإن وعدك الحق ، وأنت أحكم الحاكمين . قال : يانوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح ، فلا تسألن ماليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين . قال : رب إنى أعوذ بك أن أسألك ماليس لى به علم ، وإلا تغفرلى وترحمنى أكن من الخاسرين » ..

إن الوشيجة التى يتجمع عليها الناس فى هذا الدين وشيجة فريدة تتميز بها طبيعة هذا الدين ،

---

(١) سنعالج هذه المزالق فى الفكر الدينى الحديث فى كتاب : « تصويبات فى الفكر الدينى المعاصر » .

Marfat.com

وتتعلق بآفاق وآماد وأبعاد وأهداف يختص بها ذلك المنهج الرباني الكريم .

إن هذه الوشيجة ليست وشيجة الدم والنسب ؛ وليست وشيجة الأرض والوطن ، وليست وشيجة القوم والعشيرة ، وليست وشيجة اللون واللغة ، وليست وشيجة الجنس والعنصر ، وليست وشيجة الحرفة والطبقة .. إن هذه الوشائج جميعها قد توجد ثم تنقطع العلاقة بين الفرد والفرد؛ كما قال الله سبحانه وتعالى لعبده نوح - عليه السلام - وهو يقول : « رب إن ابني من أهلي » .. « يا نوح إنه ليس من أهلك » ثم بين له لماذا يكون ابنه .. ليس من أهله .. « إنه عمل غير صالح » .. إن وشيجة الإيمان قد انقطعت بينكما يا نوح : « فلا تسألن ما ليس لك به علم » فأنت تحسب أنه من أهلك ، ولكن هذا الحسبان خاطئ . أما المعلوم المستيقن فهو أنه ليس من أهلك ، ولو كان هو ابنك من صلبك !

وهذا هو المَعْلَم الواضح البارز على مفرق الطريق بين نظرة هذا الدين إلى الوشائج والروابط ، وبين نظرات الجاهلية المتفرقة .. إن الجاهليات تجعل الرابطة آنا هي الدم والنسب؛ وآنا هي الأرض والوطن، وآنا هي القوم والعشيرة ، وآنا هي اللون واللغة ، وآنا هي الجنس والعنصر ، وآنا هي الحرفة والطبقة ! تجعلها آنا هي المصالح المشتركة ، أو التاريخ المشترك . أو المصير المشترك ... وكلها تصورات جاهلية - على تفرقها أو تجمعها - تخالف مخالفة أصيلة عميقة عن أصل التصور الإسلامي !

والمنهج الرباني القويم - ممثلا في هذا القرآن الذي يهدي للتي هي أقوم وفي توجيهات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهي من هذا القرآن وعلى نسقه واتجاهه - قد أخذ الأمة المسلمة بالتربية على ذلك الأصل الكبير . والمَعْلَم الواضح البارز في مفرق الطريق ..

وهذا المثل الذي يضربه في هذه السورة من نوح وابنه فيما يكون بين الوالد والولد ، ضرب أمثاله لشتى الوشائج والروابط الجاهلية الأخرى ، ليقرر من وراء هذه الأمثال حقيقة الوشيجة الوحيدة التي يعتبرها ..

• ضرب لها المثل فيما يكون بين الولد والوالد وذلك فيما كان بين إبراهيم - عليه السلام - وأبيه وقومه كذلك :

Marfat.com

« واذكر فى الكتاب إبراهيم ، إنه كان صديقا نبيا . إذ قال لأبيه: ياأبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ ياأبت إنى قد جاءنى من العلم مالم يأتك ، فاتبعنى أهدك صراطا سويا . ياأبت لاتعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصيا . ياأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا .. قال : أراغب أنت عن آلهتى ياإبراهيم ؟ لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرنى مليا . قال : سلام عليك سأستغفر لك ربى ، إنه كان بى حفيا ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى ، عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا . فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا ، ووهبنا لهم من رحمتنا ، وجعلنا لهم لسان صدق عليا » ... (مريم : ٤١ - ٥٠) .

• وضرب لها المثل فيما كان بين إبراهيم وذريته كما علمه الله سبحانه ولقنه ، وهو يعطيه عهده وميثاقه . ويبشره ببقاء ذكره وامتداد الرسالة فى عقبه :

« وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ، فأتمهن ، قال : إنى جاعلك للناس إماما ، قال : ومن ذريتى ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين ...

« وإذ قال إبراهيم : رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات - من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال : ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » .. (البقرة : ١٢٤ - ١٢٦)

• وضرب لها المثل فيما يكون بين الزوج وزوجه ، وذلك فيما كان بين نوح وامرأته ، ولوط وامرأته . وفى الجانب الآخر ما كان بين امرأة فرعون وفرعون :

« ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ، كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئا ، وقيل : ادخلا النار مع الداخلين ...

« وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون ، إذ قالت : رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ، ونجنى من فرعون وعمله ، ونجنى من القوم الظالمين » ... (التحريم : ١٠ - ١١)

• وضرب لها المثل فيما يكون بين المؤمنين وأهلهم وقومهم ووطنهم وأرضهم وديارهم

Marfat.com

وأموالهم ، ومصالحهم وماضيهم ومصيرهم . وذلك فيما كان بين إبراهيم والمؤمنين به مع قومهم . وما كان من الفتية أصحاب الكهف مع أهلهم وقومهم ودورهم وأرضهم ...

« قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم : إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده ... » ... (الممتحنة : ٤) .

« أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا ؟ إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا : ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا ، فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا . ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا . نحن نقص عليك نبأهم بالحق ، إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا : ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذن شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة . لولا يأتون عليهم بسلطان بين ! فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟ ! وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون ـ إلا الله ـ فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ، ويهيئ لكم من أمركم مرفقا » ... (الكهف : ٩ ـ ١٦) .

وبهذه الأمثلة التى ضربها الله للأمة المسلمة من سيرة الرهط الكريم من الأنبياء والمؤمنين . الذين سبقوها فى موكب الإيمان الضارب فى شعاب الزمان ، وضحت معالم الطريق لهذه الأمة ؛ وقام هذا المَعْلَم البارز أمامها عن حقيقة الوشيجة التى يجب أن يقوم عليها المجتمع المسلم ، ولا يقوم على سواها . وطالبها ربها بالاستقامة على الطريق فى حسم ووضوح يتمثلان فى مواقف كثيرة ، وفى توجيهات من القرآن كثيرة . . هذه نماذج منها . .

- « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حاد الله ورسوله ـ ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ـ أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إن حزب الله هم المفلحون » . . . (المجادلة : ٢٢)

- « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا

Marfat.com

بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم ، إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي ، تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » . . . (الممتحنة : ١)

• « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم ، يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير . قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه . . . الخ » . . (الممتحنة : ٣ ـ ٤)

• « ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون » . . . (التوبة : ٢٣)

• « ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لايهدى القوم الظالمين » . . . (المائدة : ٥١)

وهكذا تقررت تلك القاعدة الأصيلة الحاسمة في علاقات المجتمع الإسلامي ؛ وفي طبيعة بنائه وتكوينه العضوى الذى يتميز به عن سائر المجتمعات الجاهلية قديما وحديثا إلى آخر الزمان . ولم يعد هناك مجال للجمع بين « الإسلام » وبين إقامة المجتمع على أية قاعدة أخرى غير القاعدة التى اختارها الله للأمـة المختارة . والذين يدعون صفة الإسـلام ، ثم يقيمون مجتمعاتهم على قاعـدة أو أكثر من تلك العـلاقات الجاهلية التى أحل الإسـلام محلها قاعدة العقيدة ، إما أنهم لايعرفون الإسلام ؛ وإما أنهم يرفضونه . والإسلام فى كلتا الحالتين لايعترف لهم بتلك الصفـة التى يدعونها لأنفسهم وهم لا يطبقونها ، بل يختارون غـيرها من مقومات الجاهلية فعلا !

وندع هذه القاعدة ـ وقد صارت واضحة تماما ـ لننظر فى جوانب من حكمة الله فى إقامة المجتمع الإسلامى على هذه القاعدة . .

• إن العقيدة تمثل أعلى خصائص « الإنسان » التى تفرقه من عالم البهيمة ؛ لأنها تتعلق بالعنصر الزائد فى تركيبه وكينونته عن تركيب البهيمة وكينونتها ـ وهو العنصر الروحى الذى به صار هـذا المخلوق إنسانا فى هـذه الصورة ـ وحتى أشـد الملحـدين إلحـادا وأكثر

Marfat.com

الماديين مادية ، قد انتهوا أخيرا إلى أن العقيدة خاصة من خواص الإنسان تفرقه فرقا أساسيا عن الحيوان (١) .

ومن ثم ينبغى أن تكون العقيدة ـ فى المجتمع الإنسانى الذى يبلغ دروة الحضارة الإنسانية ـ هى آصرة التجمع . لأنها العنصر الذى يتعلق بأخص خصائص الإنسان المميزة له عن البهائم . ولا تكون آصرة التجمع عنصرا يتعلق بشىء يشترك فيه الإنسان مع البهائم ! من مثل الأرض والمرعى والمصالح والحدود التى تمثل خواص الحظيرة ، وسياج الحظيرة ! ولا تكون كذلك هى الدم والنسب والعشيرة والقوم والجنس والعنصر واللون واللغة . . فكلها مما يشترك فيه الإنسان مع البهيمة . وليس هناك إلا شؤون العقل والقلب التى يختص بها الإنسان دون البهيمة !

• كذلك تتعلق العقيدة بعنصر آخر يتميز به الإنسان عن البهائم . . هو عنصر الاختيار والإرادة، فكل فرد على حدة يملك أن يختار عقيدته بمجرد أن يبلغ سن الرشد ؛ وبذلك يقرر نوع المجتمع الذى يريد أن يعيش فيه مختارا ؛ ونوع المنهج الاعتقادى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى والخلقى الذى يريد ـ بكامل حريته ـ أن يتمذهب به ويعيش . .

ولكن هذا الفرد لا يملك أن يقرر دمه ونسبه ولونه وقومه وجنسه . كما لا يملك أن يقرر الأرض التى يحب أن يولد فيها ، ولغة الأم التى يريد أن ينشأ عليها . . . إلى آخر تلك المقومات التى تقام عليها مجتمعات الجاهلية ! . . إن هذه الأمور كلها يقضى فيها قبل مجيئه إلى هذه الأرض ، ولا يؤخذ له فيها مشورة ولا رأى ؛ إنما هى تفرض عليه فرضا سواء أحب أم كره ! فإذا تعلق مصيره فى الدنيا والآخرة معاً ـ أو حتى فى الدنيا وحدها ـ بمثل هذه المقومات التى تفرض عليه فرضا لم يكن مختارا ولا مريدا ؛ وبذلك تسلب إنسانيته مقوما من أخص مقوماتها ؛ وتهدر قاعدة أساسية من قواعد تكريم الإنسان ؛ بل من قواعد تزكيه وتكوينه الإنسانى المميز له من سائر الخلائق !

ومن أجل المحافظة على خصائص الإنسان الذاتية ، والمحافظة على الكرامة التى وهبها الله

(١) من هؤلاء جوليان هاكسلى من علماء الداروينية الحديثة !

Marfat.com

له متمشية مع تلك الخصائص ؛ يجعل الإسلام العقيدة ـ التي يملك كل فرد اختيارها بشخصه منذ أن يبلغ سن الرشد ـ هي الآصرة التي يقوم عليها التجمع الإنساني في المجتمع الإسلامي ؛ والتي يتقرر على أساسها مصير كل فرد بإرادته الذاتية . وينفي أن تكون تلك العوامل الاضطرارية ، التي لا يد له فيها ، ولا يملك كذلك تغييرها باختياره ، هي آصرة التجمع التي تقرر مصيره طول حياته .

● ومن شأن قيام المجتمع على آصرة العقيدة ـ وعدم قيامه على العوامل الاضطرارية الأخرى ـ أن ينشئ مجتمعا إنسانيا عالميا مفتوحا ؛ يجيء إليه الأفراد من شتى الأجناس والألوان واللغات والأقوام والدماء والأنساب والديار والأوطان بكامل حريتهم واختيارهم الذاتي ؛ لا يصدهم عنه صاد ، ولا يقوم في وجوههم حاجز ، ولا تقف دونه حدود مصطنعة ، خارجة عن خصائص الإنسان العليا . وأن تصب في هذا المجتمع كل الطاقات والخواص البشرية ، وتجتمع في صعيد واحد ، لتنشئ « حضارة إنسانية » تنتفع بكل خصائص الأجناس البشرية ؛ ولا تغلق دون كفاية واحدة ، بسبب من اللون أو العنصر أو النسب والأرض . . .

« ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامي في هذه القضية ؛ ولإقامة التجمع الإسلامي على آصرة العقيدة وحدها ، دون أواصر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريبة ، والحدود الإقليمية السخيفة ! ولإبراز « خصائص الإنسان » في هذا التجمع وتنميتها وإعلائها ، دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان . . كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعا مفتوحا لجميع الأجناس والألوان واللغات ، بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة ! وأن صبت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها ، وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت ، وأنشأت مركبا عضويا فائقا في فترة تعد نسبيا قصيرة . وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة ، تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة ، على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان .

ولقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق : العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي

Marfat.com

والصينى والهندى والرومانى والإغريقى والأندونيسى والإفريقى . . إلى آخر الأقوام والأجناس . . . وتجمعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة فى بناء المجتمع الإسلامى والحضارة الإسلامية . ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما « عربية » إنما كانت دائما « إسلامية» ولم تكن يوما ما « قومية » إنما كانت دائما « عقيدية » .

« ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة ، وبآصرة الحب ، وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة . فبذلوا جميعا أقصى كفاياتهم ، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم ، وصبوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية والتاريخية فى بناء هذا المجتمع الواحد الذى ينتسبون إليه جميعا على قدم المساواة ، وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد ، وتبرز فيها إنسانيتهم وحدها بلا عائق . وهذا مالم يجتمع قط لأى تجمع آخر على مدار التاريخ !

« لقد كان أشهر تجمع بشرى فى التاريخ القديم هو تجمع الإمبراطورية الرومانية مثلا . فقد جمعت بالفعل أجناسا متعددة ، ولغات متعددة ، وألوانا متعددة ، وأمزجة متعددة . ولكن هذا كله لم يقم على « آصرة إنسانية » ولم يتمثل فى قيمة عليا كالعقيدة . . لقد كان هناك تجمع طبقى على أساس طبقة الأشراف وطبقة العبيد فى الإمبراطورية كلها من ناحية ؛ وتجمع عنصرى على أساس سيادة الجنس الرومانى ــ بصفة عامة ــ وعبودية سائر الأجناس الأخرى . ومن ثم لم يرتفع قط إلى أفق التجمع الإسلامى ؛ ولم يؤت الثمار التى آتاها التجمع الإسلامى .

« كذلك قامت فى التاريخ الحديث تجمعات أخرى . . تجمع الإمبراطورية البريطانية مثلا . . ولكنه كان كالتجمع الرومانى ، الذى هو وريثه ! تجمعا قوميا استغلاليا ، يقوم على أساس سيادة القومية الانجليزية ، واستغلال المستعمرات التى تضمها الإمبراطورية . . ومثله الإمبراطوريات الأوربية كلها . . الإمبراطورية الأسبانية والبرتغالية فى وقت ما ، والإمبراطورية الفرنسية . . كلها فى ذلك المستوى الهابط البشع المقيت ! وأرادت الشيوعية أن تقيم تجمعا من نوع آخر ، يتخطى حواجز الجنس والقوم والأرض واللغة واللون . ولكنها لم تقمه على قاعدة « إنسانية » عامة ، إنما أقامته على القاعدة « الطبقية » . فكان هذا التجمع هو الوجه

Marfat.com

الآخر للتجمع الروماني القديم .. هـذا تجمع على قاعدة طبقة « الأشراف » وذلك تجمع على قاعدة طبقة « الصعاليك » (البروليتريا) ؛ والعاطفة التي تسوده هي عاطفة الحقد الأسود على سائر الطبقات الأخرى ! وما كان لمثل هذا التجمع الصغير البغيض أن يثمر إلا أسوأ ما في الكائن الإنساني .. فهو ابتداء قائم على أساس إبراز الصفات الحيوانية وحدها وتنميتها وتمكينها ، باعتبار أن « المطالب الأساسية » للإنسان هي « الطعام والمسكن والجنس » ـ وهي مطالب الحيوان الأولية ـ وباعتبار أن تاريخ الإنسان هو تاريخ البحث عن الطعام ! ! !

« لقد تفرد الإسلام بمنهجه الرباني في إبراز أخص خصائص الإنسان وتنميتها وإعلائها في بناء المجتمع الإنساني .. وما يزال متفردا .. والذين يعدلون عنه إلى أي منهج آخر ، يقوم على أية قاعدة أخرى ، من القوم أو الجنس أو الأرض أو الطبقة ... إلى آخر هـذا النتن السخيف ، هم أعداء « الإنسان » حقا ! هم الذين لا يريدون لهذا الإنسان أن يتفرد في هذا الكون بخصائصه العليا كما فطره الله ؛ ولا يريدون لمجتمعه أن ينتفع بأقصى كفايات أجناسه وخصائصها وتجاربها في امتزاج وتناسق [1] .. »

◆ ويحسن أن نذكر أن أعداء هـذا الدين ، الذين يعرفون مواضع القوة في طبيعته وحركته ؛ وهم الذين يقول الله تعالى فيهم : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم » .. لم يفتهم أن يدركوا أن التجمع على أساس العقيدة سر من أسرار قوة هذا الدين ، وقوة المجتمع الإسلامي الذي يقوم على هذا الأساس .. ولما كانوا بصدد هـدم ذلك المجتمع أو إضعافه إلى الحد الذي يسهل عليهم السيطرة عليه ؛ وشفاء ما في صدورهم من هذا الدين وأهله؛ ولاستغلالهم كذلك واستغلال مقدراتهم وديارهم وأموالهم .. لما كانوا بصدد تلك المعركة مع هـذا المجتمع لم يفتهم أن يوهنوا من القاعدة التي يقوم عليها ؛ وأن يقيموا لأهله المجتمعين على إله واحد،أصناما تعبد من دون الله ، اسمها تارة « الوطن » واسمها تارة « القوم » واسمها تارة « الجنس » . وظهرت هذه الأصنام على مراحل التاريخ تارة باسم « الشعوبية » وتارة باسم

---

(١) مقتطفات من فصل : « نشأة المجتمع المسلم وخصائصه » من كتاب : « معالم في الطريق » ..

Marfat.com

« الجنسية الطورانية » وتارة باسم « القومية العربية » وتارة بأسماء شتى ، تحملها جبهات شتى ، تتصارع فيما بينها فى داخل المجتمع الإسلامى الواحد القائم على أساس العقيدة ، المنظم بأحكام الشريعة ... إلى أن وهنت القاعدة الأساسية تحت المطارق المتوالية ، وتحت الإيحاءات الخبيثة المسمومة ؛ وإلى أن أصبحت تلك « الأصنام » مقدسات يعتبر المنكر لها خارجا على دين قومه ! أو خائنا لمصالح بلده !!!

وأخبث للمنكرات التى عملت ومازالت تعمل فى تخريب القاعدة الصلبة التى كان يقوم عليها التجمع الإسلامى الفريد فى التاريخ . . كان هو المنكر اليهودى الخبيث ، الذى جرب سلاح « القومية » فى تحطيم التجمع المسيحى ، وتحويله إلى قوميات سياسية ذات كنائس قومية . . وبذلك حطموا الحصار المسيحى حول الجنس اليهودى ؛ ثم ثنوا بتحطيم الحصار الإسلامى حول ذلك الجنس الكنود !

وكذلك فعل الصليبيون مع المجتمع الإسلامى - بعد جهد قرون كثيرة فى إثارة النعرات الجنسية والقومية والوطنية بين الأجناس الملتحمة فى المجتمع الإسلامى .. ومن ثم استطاعوا أن يرضوا أحقادهم الصليبية القديمة على هذا الدين وأهله . كما استطاعوا أن يمزقوهم ويروضوهم على الاستعمار الأوربى الصليبى . ومازالون .. حتى يأذن الله بتحطيم تلك الأصنام الخبيثة الملعونة ؛ ليقوم التجمع الإسلامى من جديد ، على أساسه المتين الفريد . .

◆ وأخيرا فإن الناس ما كانوا ليخرجوا من الجاهلية الوثنية بكلياتهم حتى تكون العقيدة وحدها هى قاعدة تجمعهم . ذلك أن الدينونة لله وحده لا تتم تماما إلا بقيام هذه القاعدة فى تصورهم وفى تجمعهم

يجب أن تكون هناك قداسة واحدة لمقدس واحد ، وألا تتعدد « المقدسات » ! ويجب أن يكون هناك شعار واحد ، وألا تتعدد « الشعارات » ويجب أن تكون هناك قبلة واحدة يتجه إليها الناس بكلياتهم وألا تتعدد القبلات والتجهات . .

إن الوثنية ليست صورة واحدة هى وثنية الأصنام الحجرية والآلهة الأسطورية ! إن الوثنية يمكن أن تتمثل فى صور شتى ؛ كما أن الأصنام يمكن أن تتخذ صورا متعددة ؛ وآلهة الأساطير يمكن

Marfat.com

أن تتمثل مرة أخرى فى المقدسات والمعبودات من دون الله أيا كانت أسماؤها ، وأيا كانت مراسمها .

وما كان الإسلام ليخلص الناس من الأصنام الحجرية والأرباب الأسطورية ، ثم يرضى لهم بعد ذلك أصنام الجنسيات والقوميات والأوطان . . . وما إليها . . . يتقاتل الناس تحت راياتها وشعاراتها . وهو يدعوهم إلى الله وحده ، وإلى الدينونة له دون شئ من خلقه !

لذلك قسم الإسلام الناس إلى أمتين اثنتين على مدار التاريخ البشرى . . أمة المسلمين من أتباع الرسل - كل فى زمانه حتى يأتى الرسول الأخير إلى الناس كافة - وأمة غير المسلمين من عبدة الطواغيت والأصنام فى شتى الصور والأشكال على مدار القرون . .

وعندما أراد الله أن يعرف المسلمين بأمتهم التى تجمعهم على مدار القرون ، عرفها لهم فى صورة أتباع الرسل - كل فى زمانه - وقال لهم فى نهاية استعراض أجيال هذه الأمة : « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » . . ولم يقل للعرب : إن أمتكم هى الأمة العربية فى جاهليتها وإسلامها سواء ! ولا قال لليهود : إن أمتكم هى بنو إسرائيل أو العبرانيون فى جاهليتهم وإسلامهم سواء ! ولا قال لسلمان الفارسى : إن أمتك هى فارس ! ولا لصهيب الرومى : إن أمتك هى الرومان ! ولا لبلال الحبشى : إن أمتك هى الحبشة ! إنما قال للمسلمين من العرب والفرس والروم والحبش : إن أمتكم هى المسلمون الذين أسلموا حقا على أيام موسى وهارون ، وإبراهيم ، ولوط ، ونوح ، وداود وسليمان ، وأيوب ، وإسماعيل وإدريس وذى الكفل ، وذى النون ، وزكريا ويحيى ، ومريم . كما جاء فى سورة الأنبياء : (آيات : ٤٨ - ٩١) . .

هذه هى أمة « المسلمين » فى تعريف الله سبحانه . . فمن شاء له طريقا غير طريق الله فليسلكه . ولكن ليقل : إنه ليس من المسلمين ! أما نحن الذين أسلمنا لله ، فلا نعرف لنا أمة إلا الأمة التى عرفها لنا الله . والله يقص الحق وهو خير الفاصلين . .

وحسبنا هذا القدر مع إلهامات قصة نوح فى هذه القضية الأساسية فى هذا الدين .

* * *

Marfat.com

ثم نقف الوقفة الأخيرة مع قصة نوح لنرى قيمة الحفنة المسلمة فى ميزان الله سبحانه :

إن حفنة من المسلمين من أتباع نوح عليه السلام ، تذكر بعض الروايات أنهم اثنا عشر .هم كانوا حصيلة دعوة نوح فى ألف سنة إلا خمسين عاما كما يقرر المصدر الوحيد المستيقن الصحيح فى هذا الشأن ..

إن هذه الحفنة - وهى ثمرة ذلك العمر الطويل والجهد الطويل - قد استحقت أن يغير الله لها المألوف من ظواهر هذا الكون ؛ وأن يجرى لها ذلك الطوفان الذى يغمر كل شىء ، وكل حى فى المعمور وقتها من الأرض ! وأن يجعل هذه الحفنة وحدها هى وارثة الأرض بعد ذلك ، وبذرة العمران فيها والاستخلاف من جديد ..

.. وهذا أمر خطير .

إن طلائع البعث الإسلامى التى تواجه الجاهلية الشاملة فى الأرض كلها ؛ والتى تعانى الغربة فى هذه الجاهلية والوحشة ؛ كما تعانى الأذى والمطاردة والتعذيب والتنكيل .. إن هذه الطلائع ينبغى أن تقف طويلا أمام هذا الأمر الخطير ، وأمام دلالته التى تستحق التدبر والتفكير !

إن وجود البذرة المسلمة فى الأرض شىء عظيم فى ميزان الله تعالى .. شىء يستحق منه سبحانه أن يدمر الجاهلية وأرضها وعمرانها ومنشآتها وقواها ومدخراتها جميعا ؛ كما يستحق منه سبحانه أن يكلأ هذه البذرة ويرعاها حتى تسلم وتنجو وترث الأرض وتعمرها من جديد !

لقد كان نوح عليه السلام يصنع الفلك بأعين الله ووحيه ، كما قال تعالى : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون » ..

وعندما لجأ نوح إلى ربه والقوم يطاردونه ويزجرونه ويفترون عليه كما قال الله تعالى فى سورة القمر : « كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر . فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ».

Marfat.com

عندما لجأ نوح إلى ربه يعلن أنه « مغلوب » ويدعو ربه أن « ينتصر » هو وقد غُلب رسوله . . عندئذ أطلق الله القوى الكونية الهائلة لتكون فى خدمة عبده المغلوب :

« ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر » . .

وبينما كانت تلك القوى الهائلة تزاول عملها على هذا المستوى الكونى الرائع المرهوب . . كان الله سبحانه ـ بذاته العلية ـ مع عبده المغلوب :

« وحملناه على ذات ألواح ودسر . تجرى بأعيننا . . جزاء لمن كان كفر . . » .

هذه هى الصورة الهائلة التى يجب أن تقف طلائع البعث الإسلامى فى كل مكان وفى كل زمان أمامها حين تطاردها الجاهلية ؛ وحين « تغلبها » الجاهلية !

إنها تستحق أن يسخر الله لها القوى الكونية الهائلة . . وليس من الضرورى أن تكون هى الطوفان . فما الطوفان إلا صورة من صور تلك القوى ! « وما يعلم جنود ربك إلا هو » . .

وإنه ليس عليها إلا أن تثبت وتستمرفى طريقها ؛ وإلا أن تعرف مصدر قوتها وتلجأ إليه؛ وإلا أن تصبر حتى يأتى الله بأمره ، وإلا أن تثق أن وليها القدير لايعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء . وأنه لن يترك أولياءه إلى أعدائه ، إلا فترة الإعداد والابتلاء ؛ وأنها متى اجتازت هذه الفترة فإن الله سيصنع لها وسيصنع بها فى الأرض مايشاء .

. . وهذه هى عبرة الحادث الكونى العظيم . .

إنه لاينبغى لأحد يواجه الجاهلية بالإسلام أن يظن أن الله تاركه للجاهلية وهو يدعو إلى إفراد الله سبحانه بالربوبية . كما أنه لاينبغى له أن يقيس قوته الذاتية إلى قوى الجاهلية فيظن أن الله تاركه لهذه القوى وهو عبده الذى يستنصر به حين يغلب فيدعوه : « أنى مغلوب . فانتصر » .

إن القوى فى حقيقتها ليست متكافئة ولا متقاربة . . إن الجاهلية تملك قواها . . ولكن الداعى إلى الله يستند إلى قوة الله . والله يملك أن يسخر له بعض القوى الكونية ـ حينما يشاء وكيفما يشاء ـ وأيسر هذه القوى يدمر على الجاهلية من حيث لا تحتسب !

Marfat.com

وقد تطول فترة الابتلاء لأمر يريده الله . . ولقد لبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما ؛ قبل أن يأتى الأجل الذى قدره الله . ولم تكن حصيلة هذه الفترة الطويلة إلا اثنى عشر مسلما . . ولكن هذه الحفنة من البشر كانت فى ميزان الله تساوى تسخير تلك القوى الهائلة ، والتدمير على البشرية الضالة جميعا ، وتوريث الأرض لتلك الحفنة الطيبة تعمرها من جديد وتستخلف فيها . .

إن عصر الخوارق لم يمض ! فالخوارق تتم فى كل لحظة ـ وفق مشيئة الله الطليقة ـ ولكن الله يستبدل بأنماط من الخوارق أنماطا أخرى ، تلائم واقع كل فترة ومقتضياتها . وقد تدق بعض الخوارق على بعض العقول فلا تدركها ؛ ولكن الموصولين بالله يرون يد الله دائما ، ويلابسون آثارها المبدعة .

والذين يسلكون السبيل إلى الله ليس عليهم إلا أن يؤدوا واجبهم كاملا ، بكل ما فى طاقتهم من جهد ؛ ثم يدعوا الأمور لله فى طمأنينة وثقة . وعندما يغلبون عليهم أن يلجأوا إلى الناصر المعين وأن يجأروا إليه كما جأر عبده الصالح نوح : « فدعا ربه أنى مغلوب ، فانتصر » . . ثم ينتظروا فرج الله القريب . وانتظار الفرج من الله عبادة ؛ فهم على هذا الانتظار مأجورون .

ومرة أخرى نجد أن هـذا القرآن لا يكشف عن أسراره إلا للذين يخوضون به المعركة ويجاهدون به جهادا كبيرا . . إن هؤلاء وحدهم هم الذين يعيشون فى مثل الجو الذى تنزل فيه القرآن ؛ ومن ثم يتذوقونه ويدركونه ؛ لأنهم يجدون أنفسهم مخاطبين خطابا مباشرا به ، كما خوطبت به الجماعة المسلمة الأولى ، فتذوقته وأدركته وتحركت به . .

. . والحمد لله فى الأولى والآخرة . .

« وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ : يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ، مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ، إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَـٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ، ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ، يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ

Marfat.com

عليكم مدراراً ، ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين * قالوا : يا هود ما جئتنا ببينة ، وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين * إن نقول : إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . قال : إني أشهد الله ، واشهدوا أني بريء مما تشركون * من دونه ، فكيدوني جميعاً ثم لا تنظرون * إني توكلت على الله ربي وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم * فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربي قوماً غيركم ، ولا تضرونه شيئاً ، إن ربي على كل شيء حفيظ .

« ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ، ونجيناهم من عذاب غليظ .

« وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد * وأتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة . ألا إن عاداً كفروا ربهم . ألا بعداً لعاد قوم هود .

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً ، قال : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ، فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب * قالوا : يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا ، أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟ وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب * قال : يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، وآتاني منه رحمة ، فمن ينصرني من الله إن عصيته ؟ فما تزيدونني غير تخسير * ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ، فذروها تأكل في أرض الله ، ولا تمسوها بسوء ، فيأخذكم عذاب قريب * فعقروها ، فقال : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ذلك وعد غير مكذوب .

Marfat.com

« فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ، بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ، وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ * وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ ، فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ . أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ . أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ! » ⑱

مضى قوم نوح فى التاريخ ، الأكثرون المكذبون طوامم الطوفان وطوامم التاريخ ؛ واستبعدوا من الحياة ومن رحمة الله سواء ، والناجون استخلفوا فى الأرض تحقيقا لسنة الله ووعده : « والعاقبة للمتقين » .

ولقد كان وعد الله لنوح : « يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » . . فلما دارت عجلة الزمن ومضت خطوات التاريخ جاء وعد الله . وإذا عاد من نسل نوح الذين تفرقوا فى البلاد ـ ومن بعدهم ثمود ـ ممن حقت عليهم كلمة الله : « وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » .

* * *

لقد عادت الجاهلية مرة أخرى كما عادت من قبل بعد أجيال لا يعلمها إلا الله من المسلمين من ذرية آدم . . فلا بد أن أجيالا من ذرية آدم بعد استخلافه فى الأرض قد ولدت مسلمة وعاشت بالإسلام الذى كان عليه أبواهم ، حتى اجتالتهم الشياطين عن دينهم ، وانحرفت بهم إلى الجاهلية التى واجهها نوح ـ عليه السلام ـ ثم جاء نوح فنجا معه من نجا من المسلمين ، وأهلك الباقون ولم يعد على الأرض من الكافرين ديار ـ كما دعا نوح ربه . ولا بد أن أجيالا كثيرة من ذرية نوح عاشت بالإسلام بعده . . حتى اجتالتهم الشياطين مرة أخرى فانحرفوا كذلك إلى الجاهلية . وكانت عاد وكانت ثمود بعدها من أمم الجاهلية . .

فأما عاد فكانوا قبيلة تسكن الأحقاف (والحقف كثيب الرمل المائل) فى جنوب الجزيرة العربية ، وأما ثمود فكانت قبيلة تسكن مدائن الحِجْر فى شمال الجزيرة بين تبوك والمدينة

Marfat.com

وبلغت كل منهما فى زمانها أقصى القوة والمنعة والرزق والمتاع .. ولـكن هؤلاء وهؤلاء كانوا ممن حقت عليهم كلمة الله ، بما عتوا عن أمر الله ، واختاروا الوثنية على التوحيد ، والدينونة للعبيد على الدينونة لله، وكذبوا الرسل شر تـكذيب . وفى قصصهم هنا مصداق ما فى مطلع السورة من حقائق وقضايا كقصة نوح .

* * *

« وإلى عاد أخاهم هودا قال : ياقوم اعبدوا الله مالـكم من إله غيره . إن أنتم إلا مفترون . ياقوم لا أسألـكم عليه أجرا . إن أجرى إلا على الذى فطرنى . أفلا تعقلون ؟ وياقوم استغفروا ربـكم ثم توبوا إليـه ، يرسل السماء عليـكم مـدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتـكم ، ولا تتولوا مجرمين » . .

وكان هود من عاد . فهو أخوهم . واحد منهم ، تجمعه ـ كانت ـ آصرة القربى العامة بين أفراد القبيلة الواحـدة . وتبرز هذه الآصرة هنا فى السياق ، لأن من شأنها أن تقوم الثقة والتعاطف والتناصح بين الأخ وإخوته، ولبيدو موقف القوم من أخيهم ونبيهم شاذا ومستقبحا! ثم لتقوم المفاصلة فى النهاية بين القوم وأخيهم على أساس افتراق العقيدة . ويبرز بذلك معنى انقطاع الوشائج كلها حـين تنقطع وشيجة العقيدة . لتتفرد هذه الوشيجة وتبرز فى عـلاقات المجتمع الإسلامى . ثم لـكى تتبين طبيـعة هذا الدين وخطه الحركى . . فالدعوة به تبدأ والرسول وقومه من أمة واحدة تجمع بينه وبينها أواصر القربى والدم والنسب والعشيرة والأرض ... ثم تنتهى بالافتراق وتـكوين أمتين مختلفتين من القوم الواحد .. أمة مسلمة وأمة مشركة .. وبينها فرقة ومفاصلة .. وعلى أساس هذه المفاصلة يتم وعد الله بنصر المؤمنين وإهلاك المشركين . ولا يجىء وعد الله بهـذا ولا يتحقق إلا بعد أن تتم المفاصلة ، وتتم المفـارقة ، وتتميز الصفوف . وينخلع النبى والمؤمنون معـه من قومهم ، ومن سـابق روابطهم ووشائجهم معهم ، ويخلعوا ولاءهم لقومهم ولقيـادتهم السـابقـة ، ويعطوا ولاءهم كله لله ربهم ولقيـادتهم المسـلمة التى دعتهم إلى الله وإلى الدينونة له وحـده وخلع الدينونة للعباد . . وعندئذ فقط ـ لا قبله ـ يتنزل عليهم نصر الله . .

Marfat.com

« وإلى عاد أخاهم هودا » ..

أرسلناه إليهم كما أرسلنا نوحا إلى قومه فى القصة السابقة .

« قال : ياقوم » ..

بهذا التودد ، والتذكير بالأواصر التى تجمعهم ، لعل ذلك يستثير مشاعرهم ويحقق اطمئنانهم إليه فيما يقول . فالرائد لايكذب أهله ، والناصح لايغش قومه .

« قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » ..

القولة الواحدة التى جاء بها كل رسول وكانوا قد انحرفوا - كما أسلفنا - عن عبادة الله الواحد التى هبط بها المؤمنون مع نوح من السفينة . ولعل أول خطوة فى هذا الانحراف كانت هى تعظيم ذكرى الفئة المؤمنة القليلة التى حملت فى السفينة مع نوح ! ثم تطور هذا التعظيم جيلا بعد جيل فإذا أرواحهم المقدسة تتمثل فى أشجار وأحجار نافعة ؛ ثم تتطور هذه الأشياء فإذا هى معبودات ، وإذا وراءها كهنة وسدنة يعبدون الناس للعباد منهم باسم هذه المعبودات المدعاة - فى صورة من صور الجاهلية الكثيرة . ذلك أن الانحراف خطوة واحدة عن نهج التوحيد المطلق . الذى لايتجه بشعور التقديس لغير الله وحده ولايدين بالعبودية إلا لله وحده .. الانحراف خطوة واحدة لابد أن تتبعه مع الزمن خطوات وانحرافات لايعلم مداها إلا الله .

على أية حال لقد كان قوم هود مشركين لايدينون لله وحده بالعبودية ، فإذا هو يدعوهم تلك الدعوة التى جاء بها كل رسول :

« ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » .. « إن أنتم إلا مفترون » ..

مفترون فيما تعبدونه من دون الله ، وفيما تدعونه من شركاء لله .

ويبادر هود ليوضح لقومه أنها دعوة خالصة ونصيحة محضة ، فليس له من ورائها هدف . ومايطلب على النصح والهداية أجرا . إنما أجره على الله الذى خلقه فهو به كفيل :

« وياقوم لاأسألكم عليه أجرا . إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون ؟ »

مما يشعر أن قوله : « لاأسألكم عليه أجرا » كان بناء على اتهام له أو تصريح بأنه يبتغى

Marfat.com

أجرا أو كسب مال من وراء الدعوة التي يدعوها . وكان التعقيب: « أفلا تعقلون ؟ » للتعجيب من أمرهم وهم يتصورون أن رسولا من عند الله يطلب رزقا من البشر ، والله الذي أرسله هو الرزاق الذي تقوت هؤلاء الفقراء!

ثم يوجههم إلى الاستغفار والتوبة . ويكرر السياق التعبير ذاته الذي ورد في أول السورة على لسان خاتم الأنبياء ، ويعدهم هود ويحذرهم ماوعدهم محمد وحذرهم بعد ذلك بآلاف السنين :

« وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويزدكم قوة إلى قوتكم . ولا تتولوا مجرمين » ..

استغفروا ربكم مما أنتم فيه ، وتوبوا إليه فابدأوا طريقا جديدا يحقق النية ويترجمها إلى عمل يصدق النية . .

« يرسل السماء عليكم مدرارا » ..

وكانوا في حاجة إلى المطر يسقون به زروعهم ودوابهم في الصحراء ، ويحتفظون به بالخصب الناشىء من هطول الأمطار في تلك البقاع .

« ويزدكم قوة إلى قوتكم » ..

هذه القوة التي عرفتم بها ..

« ولا تتولوا مجرمين » ..

مرتكبين لجريمة التولي والتكذيب .

ونظر في هذا الوعد . وهو يتعلق بإدرار المطر ومضاعفة القوة . وهي أمور تجري فيها سنة الله وفق قوانين ثابتة في نظام هذا الوجود ، من صنع الله ومشيئته بطبيعة الحال . فما علاقة الاستغفار بها وماعلاقة التوبة ؟

فأما زيادة القوة فالأمر فيها قريب ميسور ، بل واقع مشهود ، فإن نظافة القلب والعمل الصالح في الأرض يزيدان التائبين العاملين قوة . يزيدانهم صحة في الجسم بالاعتدال والاقتصار على الطيبات من الرزق وراحة الضمير وهدوء الأعصاب والاطمئنان إلى الله والثقة برحمته

Marfat.com

فى كل آن ؛ ويزيدانهم صحة فى المجتمع بسيادة شريعة الله الصالحة التى تطلق الناس أحراراً كراماً لايدينون لغير الله على قدم المساواة بينهم أمام قهار واحد تعنو له الجباه .. كما تطلقان طاقات الناس ليعملوا وينتجوا ويؤدوا تكاليف الخلافة فى الأرض ؛ غير مشغولين ولا مسخرين بمراسم التأليه للأرباب الأرضية وإطلاق البخور حولها ودق الطبول ، والنفخ فيها ليل نهار لتملأ فراغ الإله الحق فى فطرة البشر !

والملحوظ دائماً أن الأرباب الأرضية تحتاج ويحتاج معها سدنتها وعبادها أن يخلعوا عليها بعض صفات الألوهية من القدرة والعلم والإحاطة والقهر والرحمة .. أحياناً .. كل ذلك ليدين لها الناس ! فالربوبية تحتاج إلى ألوهية معها تخضع بها العباد ! وهذا كله يحتاج إلى كد ناصب من السدنة والعباد وإلى جهد ينفقه من يدينون لله وحده فى عمارة الأرض والنهوض بتكاليف الخلافة فيها ، بدلا من أن ينفقه عباد الأرباب الأرضية فى الطبل والزمر والتراتيل والتسابيح لهذه الأرباب المفتراة !

ولقد تتوافر القوة لمن لايحكّمون شريعة الله فى قلوبهم ولا فى مجتمعهم ، ولكنها قوة إلى حين ، حتى تنتهى الأمور إلى نهايتها الطبيعية وفق سنة الله ، وتتحطم هذه القوة التى لم تستند إلى أساس ركين . إنما استندت إلى جانب واحد من السنن الكونية كالعمل والنظام ووفرة الإنتاج . وهذه وحدها لاتدوم . لأن فساد الحياة الشعورية والاجتماعية يقضى عليها بعد حين .

فأما إرسال المطر . مدرارا . فالظاهر للبشر أنه يجرى وفق سنن طبيعية ثابتة فى النظام الكونى . ولكن جريان السنن الطبيعية لايمنع أن يكون المطر محيا فى مكان وزمان ، ومدمرا فى مكان وزمان ؛ وأن يكون من قدر الله أن تكون الحياة مع المطر لقوم ، وأن يكون الدمار معه لقوم ، وأن ينفذ الله تبشيره بالخير ووعيده بالشر عن طريق توجيه العوامل الطبيعية ؛ فهو خالق هذه العوامل ، وجاعل الأسباب لتحقيق سننه على كل حال . ثم تبقى وراء ذلك مشيئة الله الطليقة التى تصرف الأسباب والظواهر بغير ما اعتاد الناس

Marfat.com

من ظواهر النواميس وذلك لتحقيق قدر الله كيفما شاء . حيث شاء . بالحق الذي يحكم كل شيء في السماوات والأرض [1] غير مقيد بما عهده الناس في الغالب .

تلك كانت دعوة هود ـ ويبدو أنها لم تكن مصحوبة بمعجزة خارقة . ربما لأن الطوفان كان قريبا منهم ، وكان في ذاكرة القوم وعلى ألسنتهم ، وقد ذكرهم به في سورة أخرى ـ فأما قومه فظنوا به الظنون . .

« قالوا . ياهود ماجئتنا ببينة ، وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين . إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء . . » .

إلى هذا الحد بلغ الانحراف في نفوسهم إلى حد أن يظنوا أن هودا يهذي ، لأن أحد آلهتهم المفتراة قد مسه بسوء ، فأصيب بالهذيان !

« ياهود ماجئتنا ببينة » . . .

والتوحيد لا يحتاج إلى بينة ، إنما يحتاج إلى التوجيه والتذكير ، وإلى استجاشة منطق الفطرة ، واستنباء الضمير .

« وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك » . .

أي لمجرد أنك تقول بلا بينة ولا دليل !

« وما نحن لك بمؤمنين » . .

أي مستجيبين لك ومصدقين . وما نعلل دعوتك إلا بأنك تهذي وقد أصابك أحد آلهتنا بسوء !

وهنا لم يبق لهود إلا التحدي . وإلا التوجه إلى الله وحده والاعتماد عليه . وإلا الوعيد والإنذار الأخير المكذبين . وإلا المفاصلة بينه وبين قومه ونفض يده من أمرهم إن أصروا على التكذيب :

« قال إني أشهد الله ، واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه ، فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون . إني توكلت على الله ربي وربكم ، مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربي على

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في التعقيب على القصة .

Marfat.com

صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم، ويستخلف ربي قوما غيركم . ولا تضرونه شيئا ، إن ربي على كل شيء حفيظ » . .

إنها انتفاضة التبرؤ من القوم ـ وقد كان منهم وكان أخاهم ـ وانتفاضة الخوف من البقاء فيهم وقد اتخذوا غير طريق الله طريقا . وانتفاضة المفاصلة بين حزبين لا يلتقيان على وشيجة وقد انبتت بينهما وشيجة العقيدة .

وهو يشهد الله ربه على براءته من قومه الضالين وانعزاله عنهم وانفصاله منهم . ويشهدهم هم أنفسهم على هذه البراءة منهم في وجوههم ؛ كي لا تبقى في أنفسهم شبهة من نفوره وخوفه أن يكون منهم !

وذلك كله مع عزة الإيمان واستعلائه . ومع ثقة الإيمان واطمئنانه !

وإن الإنسان ليدهش لرجل فرد يواجه قوما علاظا شدادا حمقى . يبلغ بهم الجهل أن يعتقدوا أن هذه المعبودات الزائفة تمس رجلا فيهذي ؛ ويروا في الدعوة إلى الله الواحد هذيانا من أثر المس ! يدهش لرجل يواجه هؤلاء القوم الواثقين بآلهتهم المفتراة هذه الثقة . فيسفه عقيدتهم ويقرعهم عليها ويؤنبهم ؛ ثم يهيج ضراوتهم بالتحدي . لا يطلب مهلة ليستعد استعدادهم ، ولا يدعهم يتريثون فيفثأ غضبهم . .

إن الإنسان ليدهش لرجل فرد يقتحم هذا الاقتحام على قوم غلاظ شداد . ولكن الدهشة تزول عندما يتدبر العوامل والأسباب . .

إنه الإيمان . والثقة . والاطمئنان . . الإيمان بالله ، والثقة بوعده ، والاطمئنان إلى نصره . الإيمان الذي يخالط القلب فإذا وعد الله بالنصر حقيقة ملموسة في هذا القلب لا يرتاب فيها لحظة . لأنها ملء يديه ، وملء قلبه الذي بين جنبيه . وليست وعدا للمستقبل في ضمير الغيب . إنما هي حاضر واقع تملأه العين والقلب .

« قال : إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه » . .

إني أشهد الله على براءتي مما تشركون من دونه . واشهدوا أنتم شهادة تبرئني وتكون حجة عليكم . أني عالنتكم بالبراءة مما تشركون من دون الله . ثم تجمعوا أنتم وهذه الآلهة التي تزعمون أن

Marfat.com

أحدها مسنى بسوء . تجمعوا أنتم وهى ـ جميعا ـ ثم كيدونى بلا ريث ولا تمهل ، فما أباليكم جميعا ، ولا أخشاكم شيئا :

« إنى توكلت على الله ربى وربكم » . .

ومهما أنكرتم وكذبتم . فهذه الحقيقة قائمة . حقيقة ربوبية الله لى ولكم . فالله الواحد هو ربى وربكم ، لأنه رب الجميع بلا تعدد ولا مشاركة . .

« مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » . .

وهى صورة محسوسة للقهر والقدرة تصور القدرة آخذة بناصية كل دابة على هذه الأرض ، بما فيها الدواب من الناس . والناصية أعلى الجبهة . فهو القهر والغلبة والهيمنة ، فى صورة حسية تناسب الموقف ، وتناسب غلظة القوم وشدتهم ، وتناسب صلابة أجسامهم وبنيتهم ، وتناسب غلظ حسهم ومشاعرهم . وإلى جانبها تقرر استقامة السنة الإلهية فى اتجاهها الذى لا يحيد :

« إن ربى على صراط مستقيم » .

فهى القوة والاستقامة والتصميم .

وفى هذه الكلمات القوية الحاسمة ندرك سر ذلك الاستعلاء وسر ذلك التحدى . . إنها ترسم صورة الحقيقة التى يجدها نبى الله هود ـ عليه السلام ـ فى نفسه من ربه . . إنه يجد هذه الحقيقة واضحة . إن ربه ورب الخلائق قوى قاهر : « مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها » . . وهؤلاء الغلاظ الأشداء من قومه إن هم إلا دواب من تلك الدواب التى يأخذ ربه بناصيتها ويقهرها بقوته قهرا . فما خوفه من هذه الدواب وما احتفاله بها ؟ وهى لا تسلط عليه ـ إن سلطت ـ إلا بإذن ربه ؟ وما بقاؤه فيها وقد اختلف طريقها عن طريقه ؟

إن هذه الحقيقة التى يجدها صاحب الدعوة فى نفسه ، لاتدع فى قلبه مجالا للشك فى عاقبة أمره . ولا مجالا للتردد عن المضى فى طريقه .

إنها حقيقة الألوهية كما تتجلى فى قلوب الصفوة المؤمنة أبدا .

وعند هذا الحد من التحدى بقوة الله ، وإبراز هذه القوة فى صورتها القاهرة الحاسمة ، يأخذ هود فى الإنذار والوعيد :

Marfat.com

« فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم » . .

فأديت واجبي لله ، ونفضت يدى من أمركم لتواجهوا قوة الله سبحانه :

« ويستخلف ربى قوما غيركم » . .

يليقون بتلقى دعوته ويستقيمون على هدايته بعد إهلاككم ببغيكم وظلمكم وانحرافكم .

« ولا تضرونه شيئا » . .

فما لكم به من قوة ، وذهابكم لا يترك فى كونه فراغا ولا نقصا . .

« إن ربى على كل شيء حفيظ » . .

يحفظ دينه وأولياءه وسننه من الأذى والضياع ، ويقوم عليكم فلا تفلتون ولا تعجزونه هربا !

وكانت هى الكلمة الفاصلة . وانتهى الجدل والكلام . ليحق الوعيد والإنذار :

« ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا . ونجيناهم من عذاب غليظ » .

لما جاء أمرنا بتحقيق الوعيد ، وإهلاك قوم هود ، نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة مباشرة منا ، خلصتهم من العذاب العام النازل بالقوم ، واستثنتهم من أن يصيبهم بسوء . وكانت نجاتهم من عذاب غليظ حل بالمكذبين . ووصف العذاب بأنه غليظ بهذا التصوير المجسم ، يتناسق مع الجو ، ومع القوم الغلاظ العتاة .

والآن وقد هلكت عاد . يشار إلى مصرعها إشارة البعد ، ويسجل عليها ما اقترفت من ذنب ، وتشيع باللعنة والطرد ، فى تقرير وتكرار وتوكيد :

« وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد . وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة . ألا إن عادا كفروا ربهم . ألا بعدا لعاد قوم هود » . .

« وتلك عاد » .. بهذا البعد . وقد كان ذكرهم منذ لحظة فى السياق ، وكان مصرعهم معروضا على الأنظار . . ولكنهم انتهوا وبعدوا عن الأنظار والأفكار .

« وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله » . .

Marfat.com

وهم عصوا رسولا واحدا . ولكن أليست هى رسالة واحدة جاء بها الرسل جميعا ؟ فمن لم يسلم لرسول بها فقد عصى الرسل جميعا . ولا ننسى أن هذا الجمع فى الآيات وفى الرسل مقصود من ناحية أسلوبية أخرى لتضخيم جريمتهم وإبراز شناعتها . فهم جحدوا آيات ، وهم عصوا رسلا . فما أضخم الذنب وما أشنع الجريمة !!

« واتبعوا أمر كل جبار عنيد » . .

أمر كل متسلط عليهم ، معاند لا يسلم بحق ، وهم مسؤولون أن يتحرروا من سلطان المتسلطين ، ويفكروا بأنفسهم لأنفسهم . ولا يكونوا ذيولا فيهدروا آدميتهم .

وهكذا يتبين أن القضية بين هود وعاد كانت قضية ربوبية الله وحده لهم والدينونة لله وحده من دون العباد . . كانت هى قضية الحاكمية والاتباع . . كانت هى قضية : من الرب الذى يدينون له ويتبعون أمره ؟ يتجلى هذا فى قول الله تعالى :

« وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد » . .

فهى المعصية لأمر الرسل والاتباع لأمر الجبارين ! والإسلام هو طاعة أمر الرسل ـ لأنه أمر الله ـ ومعصية أمر الجبارين . وهذا هو مفرق الطريق بين الجاهلية والإسلام وبين الكفر والإيمان . . فى كل رسالة وعلى يد كل رسول

وهكذا يتبين أن دعوة التوحيد تضم أول ما تضم على التحرر من الدينونة لغير الله ، والتمرد على سلطان الأرباب الطغاة ؛ وتعد إلغاء الشخصية والتنازل عن الحرية ، واتباع الجبارين المتكبرين جريمة شرك وكفر يستحق عليها الخاطئون الهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة . .

لقد خلق الله الناس ليكونوا أحرارا لا يدينون بالعبودية لأحد من خلقه ، ولا ينزلون عن حريتهم هذه لطاغية ولا رئيس ولا زعيم . وهذا مناط تكريمهم . فإن لم يصونوه فلا كرامة لهم عند الله ولا نجاة . وما يمكن لجماعة من البشر أن تدعى الكرامة ، وتدعى الإنسانية ، وهى تدين لغير الله من عباده . والذين يقبلون الدينونة لربوبية العبيد وحاكميتهم ليسوا بمعذورين أن يكونوا على أمرهم مغلوبين . فهم كثرة والمتجبرون قلة . ولو أرادوا التحرر لضحوا فى سبيله بعض ما يضحونه مرغمين للأرباب المتسلطين من ضرائب الذل فى النفس والعرض والمال !

Marfat.com

لقد هلكت عاد لأنهم اتبعوا أمر كل جبار عنيد . . هلكوا مشيعين باللعنة فى الدنيا وفى الآخرة :

« وأتبعوا فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة » . .

ثم لايتركهم قبل أن يسجل عليهم حالهم وسبب ما أصابهم فى إعلان عام وتنبيه عال :

« ألا إن عادا كفروا ربهم » . .

ثم يدعو عليهم بالطرد والبعد البعيد :

« ألا بعدا لعاد قوم هود » . .

بهذا التحديد والإيضاح والتوكيد . كأنما يحدد عنوانهم للعنة المرسلة عليهم حتى تقصدهم قصدا :

. . « ألا بعداً لعاد قوم هود » ! ! !

* * *

ونقف وقفات قصيرة أمام ماتلهمه قصة هود مع قومه فى سياق هذه السورة ، قبل أن ننتقل منها إلى قصة صالح . ذلك أن استعراض خط سير الدعوة الإسلامية على هذا النحو إنما يجىء فى القرآن الكريم لرسم معالم الطريق فى خط الحركة بهذه العقيدة على مدار القرون . . ليس فقط فى ماضيها التاريخى ، ولكن فى مستقبلها إلى آخر الزمان . وليس فقط للجماعة المسلمة الأولى التى تلقت هذا القرآن أول مرة . وتحركت به فى وجه الجاهلية يومذاك ؛ ولكن كذلك لكل جماعة مسلمة تواجه به الجاهلية إلى آخر الزمان . . وهذا ما يجعل هذا القرآن كتاب الدعوة الإسلامية الخالد ؛ ودليلها فى الحركة فى كل حين .

ولقد أشرنا إشارات سريعة إلى اللمسات القرآنية التى سنعيد الحديث عنها هنا كلها تقريبا . ولكنها مرت فى مجال تفسير النصوص القرآنية مرورا عابرا لمتابعة السياق . وهى تحتاج إلى وقفات أمامها أطول فى حدود الإجمال :

• نقف أمام الدعوة الواحدة الخالدة على لسان كل رسول وفى كل رسالة . . دعوة توحيد العبادة والعبودية لله ، المتمثلة فيما يحكيه القرآن الكريم عن كل رسول : « قال : ياقوم اعبدوا الله

Marfat.com

مالكم من إله غيره » .. ولقد كنا دائما نفسر « العبادة » لله وحده بأنها « الدينونة الشاملة » لله وحده . فى كل شأن من شؤون الدنيا والآخرة . ذلك أن هذا هو المدلول الذى تعطيه اللفظة فى أصلها اللغوى .. فإن « عبد » معناها : دان وخضع وذلل . وطريق معبد طريق مذلل ممهد . وعبّده جعله عبدا أى خاضعا مذللا .. ولم يكن العربى الذى خوطب بهذا القرآن أول مرة يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به فى مجرد أداء الشعائر التعبدية . بل إنه يوم خوطب به أول مرة فى مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية ! إنما كان يفهم منه عندما يخاطب به أن المطلوب منه هو الدينونة لله وحده فى أمره كله ؛ وخلع الدينونة لغير الله من عنقه فى كل أمره .. ولقد فسر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « العبادة » نصا بأنها هى « الاتباع » وليست هى الشعائر التعبدية . وهو يقول لعدى ابن حاتم عن اليهود والنصارى واتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا : « بلى . إنهم أحلوا لهم الحرام وحرموا عليهم الحلال . فاتبعوهم . فذلك عبادتهم إياهم » .. إنما أطلقت لفظة « العبادة » على « الشعائر التعبدية » باعتبارها صورة من صور الدينونة لله فى شأن من الشؤون .. صورة لا تستغرق مدلول « العبادة » بل إنها تجىء بالتبعية لا بالأصالة ! فلما بهت مدلول « الدين » ومدلول « العبادة » فى نفوس الناس صاروا يفهمون أن عبادة غير الله التى يخرج بها الناس من الإسلام إلى الجاهلية هى فقط تقديم الشعائر التعبدية لغير الله ، كتقديمها للأصنام والأوثان مثلا ! وأنه متى تجنب الإنسان هذه الصورة فقد بعد عن الشرك والجاهلية وأصبح « مسلما » لا يجوز تكفيره ! وتمتع بكل ما يتمتع به المسلم فى المجتمع المسلم من صيانة دمه وعرضه وماله ... إلى آخر حقوق المسلم على المسلم !

وهذا وهم باطل ، وانحسار وانكماش ، بل تبديل وتغيير فى مدلول لفظ « العبادة » التى يدخل بها المسلم فى الإسلام أو يخرج منه - وهذا المدلول هو الدينونة الكاملة لله فى كل شأن ورفض الدينونة لغير الله فى كل شأن وهو المدلول الذى تفيده اللفظة فى أصل اللغة ؛ والذى نص عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نصا وهو يفسر قول الله تعالى : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » .. وليس بعد تفسير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لمصطلح من المصطلحات قول لقائل(١).

---

(١) يراجع البحث القيم الذى كتبه المسلم العظيم الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية بباكستان بعنوان : « المصطلحات الأربعة فى القرآن » . . « الإله . الرب . الدين . العبادة » .

Marfat.com

هذه الحقيقة هى التى قررناها كثيرا فى هذه الظلال وفى غيرها فى كل ماوفقنا الله لـكتابته حول هذا الدين وطبيعته ومنهجه الحركى(١).. فالآن نجد فى قصة هود كما تعرضها هذه السوره لمحة تحدد موضوع القضية ومحور المعركة التى كانت بين هود وقومه ؛ وبين الإسلام الذى جاء به والجاهلية التى كانوا عليها ؛ وتحدد ماالذى كان يعنيه وهو يقول لهم : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » . .

إنه لم يكن يعنى : ياقوم لاتتقدموا بالشعائر التعبدية لغير الله ! كما يتصور الذين انحسر مدلول «العبادة» فى مفهوماتهم ، وانزوى داخل إطار الشعائر التعبدية ! إنما كان يعنى الدينونة لله وحده فى منهج الحياة كلها ؛ ونبذ الدينونة والطاعة لأحد من الطواغيت فى شؤون الحياة كلها . . والفعلة التى من أجلها استحق قوم هود الهلاك واللعنة فى الدنيا والآخرة لم تكن هى مجرد تقديم الشعائر التعبدية لغير الله . . فهذه صورة واحدة من صور الشرك الكثيرة التى جاء هود ليخرجهم منها إلى عبادة الله وحده ـ أى الدينونة له وحده ـ إنما كانت الفعلة النكراء التى استحقوا من أجلها ذلك الجزاء هى : جحودهم بآيات ربهم ، وعصيان رسله ، واتباع أمر الجبارين من عبيده : «وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم ، وعصوا رسله ، واتبعوا أمر كل جبار عنيد » كما يقول عنهم أصدق القائلين الله رب العالمين . .

وجحودهم بآيات ربهم إنما يتجلى فى عصيان الرسل ، واتباع الجبارين . . فهو أمر واحد لاأمور متعددة . . ومتى عصى قوم أوامر الله المتمثلة فى شرائعه المبلغة لهم من رسله بألا يدينوا لغير الله . ودانوا للطواغيت بدلا من الدينونة لله ؛ فقد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ؛ وخرجوا بذلك من الإسلام إلى الشرك ـ وقد تبين لنا من قبل أن الإسلام هو الأصل الذى بدأت به حياة البشر على الأرض ؛ فهو الذى نزل به آدم من الجنة واستخلف فى هذه الأرض ؛ وهو الذى نزل به نوح من السفينة واستخلف فى هذه الأرض . إنما كان الناس يخرجون من الإسلام إلى الجاهلية ، حتى تأتى إليهم الدعوة لتردهم من الجاهلية إلى الإسلام . . وهكذا إلى يومنا هذا . .

(١) كتاب : « معالم فى الطريق » وكتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » وكتاب : « هذا الدين » وكتاب : « المستقبل لهذا الدين » وكتاب : « الإسلام ومشكلات الحضارة » وكتاب : « العدالة الاجتماعية » وكتاب : « السلام العالمى والإسلام » .

Marfat.com

والواقع أنه لو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ماستحقت كل هـذا الموكب الـكريم من الرسل والرسـالات ؛ وماستحقت كل هـذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وماستحقت كل هـذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان ! إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد . وردهم إلى الدينونة لله وحـده في كل أمر وفي كل شأن ؛ وفي منهج حياتهم كله للدنيا والآخرة سواء .

إن توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد القوامة ، وتوحيد الحاكمية ، وتوحيد مصدر الشريعة ، وتوحيد منهج الحياة ، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة . . . إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل ، وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود ؛ وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان.. لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه ، فالله سبحانه غني عن العالمين . ولـكن لأن حياة البشر لاتصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة « بالإنسان » إلا بهـذا التوحيد الذي لا حـد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جانب من جوانبها . (وهذا مانرجو أن نزيده بيانا ـ إن شاء الله ـ في نهاية قصص الرسل في ختام السورة) . .

• ونقف أمام الحقيقة التي كشف عنها هود لقومه وهو يقول لهم : « وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ، ولا تتولوا مجرمين » . . وهي ذات الحقيقة التي ذكرت في مقدمة السورة بصدد دعوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقومه بمضمون الـكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . وذلك في قوله تعالى: « وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعا حسنا إلى أجـل مسمى ، ويؤت كل ذي فضل فضله ، وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير » . .

إنها حقيقة العلاقة بين القيم الإيمانية والقيم الواقعية في الحياة البشرية ، وحقيقة اتصال طبيعة الـكون ونواميسه الـكلية بالحق الذي يحتويه هذا الدين . . وهي حقيقة في حاجـة إلى جـلاء وتثبيت ؛ وبخاصـة في نفوس الذين يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا ؛ والذين لم تصقل

Marfat.com

أرواحهم وتشف حتى ترى هذه العلاقة أو على الأقل تستشعرها ..

إن الحق الذى نزل به هذا الدين غير منفصل عن الحق المتمثل فى ألوهية الله ـ سبحانه ـ والحق الذى خلقت به السماوات والأرض ، المتجلى فى طبيعة هذا الكون ونواميسه الأزلية .. والقرآن الكريم كثيرا ما يربط بين الحق المتمثل فى ألوهية الله ـ سبحانه ـ والحق الذى قامت به السماوات والأرض ؛ والحق المتمثل فى الدينونة لله وحده . والحق المتمثل فى دينونة الناس لله يوم الحساب بصفة خاصة ، والحق فى الجزاء على الخير والشر فى الدنيا والآخرة . . . وذلك فى مثل هذه النصوص :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا . إن كنا فاعلين .. بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون . وله من فى السماوات والأرض ، ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون . يسبحون الليل والنهار لا يفترون . أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشرون ؟ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون . لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل: هاتوا برهانكم . هذا ذكر من معى وذكر من قبلى . بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون . وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون » . . .

(الأنبياء ١٦ ـ ٢٥) .

« يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة ، لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى . ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم ـ من بعد علم ـ شيئا ، وترى الأرض هامدة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحيى الموتى ، وأنه على كل شىء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » ... (الحج : ٥ ـ ٧) .

« وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فتخبت له قلوبهم ، وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم . ولا يزال الذين كفروا فى مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب

Marfat.com

يوم عقيم . الملك يومئذ لله يحكم بينهم . فالذين آمنوا وعملوا الصالحات فى جنات النعيم . والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين . والذين هاجروا فى سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا ، وإن الله لهو خير الرازقين . ليدخلنهم مدخلا يرضونه ، وإن الله لعليم حليم . ذلك ومن عاقب بمثل ماعوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله ، إن الله لعفو غفور . ذلك بأن الله يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل ، وأن الله سميع بصير . ذلك بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل ، وأن الله هو العلى الكبير .

ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ؟ إن الله لطيف خبير . له مافى السماوات وما فى الأرض وإن الله لهو الغنى الحميد . ألم تر أن الله سخر لكم ما فى الأرض والفلك تجرى فى البحر بأمره ، ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، إن الله بالناس لرؤوف رحيم . وهو الذى أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ، إن الإنسان لكفور . لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ، فلا ينازعنك فى الأمر ، وادع إلى ربك ، إنك لعلى هدى مستقيم ... » .. (الحج : ٥٤ – ٦٧) .

وهكذا نجد فى هذه النصوص وأمثالها فى القرآن الكريم العلاقة الواضحة بين كون الله سبحانه هو الحق ، وبين خلقه لهذا الكون وتدبيره بنواميسه ومشيئته بالحق ، وبين الظواهر الكونية التى تتم بالحق . وبين تنزيل هذا الكتاب بالحق ، وبين الحكم بين الناس فى الدنيا والآخرة بالحق ... فكله حق واحد موصول ينشأ عنه جريان قدر الله بما يشاء ، وتسليط القوى الكونية بالخير والشر على من يشاء ؛ وفق مايكون من الناس من الخير والشر فى دار الابتلاء . ومن هنا كان ذلك الربط بين الاستغفار والتوبة ، وبين المتاع الحسن وإرسال السماء مدرارا ... فكل أولئك موصول بمصدر واحد هو الحق المتمثل فى ذات الله سبحانه وفى قضائه وقدره ، وفى تدبيره وتصريفه ، وفى حسابه وجزائه ، فى الخير وفى الشر سواء ..

ومن هذا الارتباط يتجلى أن القيم الإيمانية ليست منفصلة عن القيم العملية فى حياة الناس . فكلتاهما تؤثر فى هذه الحياة . سواء عن طريق قدر الله الغيبى المتعلق بعالم الأسباب من وراء علم البشر وسعيهم . أو عن طريق الآثار العملية المشهودة التى يمكن للبشر رؤيتها وضبطها كذلك . وهى الآثار التى ينشئها فى حياتهم الإيمان أو عدم الإيمان ، من النتائج المحسوسة المدركة .

Marfat.com

وقد أسلفنا الإشارة إلى بعض هذه الآثار العملية الواقعية حين قلنا مرة : إن سيادة المنهج الإلهى فى مجتمع معناه أن يجد كل عامل جزاءه العادل فى هذا المجتمع ، وأن يجد كل فرد الأمن والسكينة والاستقرار الاجتماعى – فضلا على الأمن والسكينة والاستقرار القلبى بالإيمان – ومن شأن هذا كله أن يمتع الناس متاعا حسنا فى هذه الدنيا قبل أن يلقوا جزاءهم الأخير فى الآخرة[1] . .

وحين قلنا مرة : إن الدينونة لله وحده فى مجتمع من شأنها أن تصون جهود الناس وطاقاتهم من أن تنفق فى الطبل والزمر والنفخ والتراتيل والتسابيح والترانيم والتهاويل التى تطلق حول الأرباب المزيفة ، لتخلع عليها شيئا من خصائص الألوهية حتى تخضع لها الرقاب ! ومن شأن هذا أن يوفر هذه الجهود والطاقات للبناء فى الأرض والعمارة والنهوض بتكاليف الخلافة فيكون الخير الوفير للناس . فضلا على الكرامة والحرية والمساواة التى يتمتع بها الناس فى ظل الدينونة لله وحده دون العباد (٢) . . وليست هذه إلا نماذج من ثمار الإيمان حين تتحقق حقيقته فى حياة الناس (٣) . . (وسيرد عنها بعض التفصيل فى نهاية استعراض قصص الرسل فى ختام السورة إن شاء الله) .

• ونقف أمام تلك المواجهة الأخيرة من هود لقومه ؛ وأمام تلك المفاصلة التى قذف بها فى وجوههم فى حسم كامل ، وفى تحد سافر ، وفى استعلاء بالحق الذى معه ، وثقة فى ربه الذى يجد حقيقته فى نفسه بينة :

« قال : إنى أشهد الله ، واشهدوا أنى برىء مما تشركون من دونه ، فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون . إنى توكلت على الله ربى وربكم ، مامن دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم . فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ، ويستخلف ربى قوما غيركم ولا تضرونه شيئا ، إن ربى على كل شىء حفيظ » . .

إن أصحاب الدعوة إلى الله فى كل مكان وفى كل زمان فى حاجة إلى أن يقفوا طويلا أمام

---

(١) ص ٢٧ – ص ٢٨ من هذا الجزء . (٢) ص ٩٥ من هذا الجزء .

(٣) يراجع كذلك ماجاء فى تقديم الطبعة الثانية المنقحة لهذه الظلال بعنوان : « فى ظلال القرآن » الجزء الأول ص ١٠ – ص ١٢ .

Marfat.com

هذا المشهد الباهر . . رجل واحد ، لم يؤمن معه إلا قليل ، يواجه أعتى أهـل الأرض وأغنى أهل الأرض وأكثر أهل الأرض حضارة مادية فى زمانهم ، كما جاء عنهم فى قول الله تعالى فيهم حكاية عما واجههم به أخوهم هود فى السورة الأخرى :

« كذبت عاد المرسلين . إذ قال لهم أخوهم هود : ألا تتقون ؟ إنى لكم رسول أمين ، فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا على رب العالمين . أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون . وإذا بطشتم بطشتم جبارين . فاتقوا الله وأطيعون . واتقوا الذى أمدكم بما تعلمون . أمدكم بأنعام وبنين . وجنات وعيون . إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم . قالوا : سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين . إن هذا إلا خلق الأولين . وما نحن بمعذبين » ! . . . (الشعراء : ١٢٣ - ١٣٨)

فهؤلاء العتاة الجبارون الذين يبطشون بلا رحمة ؛ والذين أبطرتهم النعمة ؛ والذين يقيمون المصانع يرجون من ورائها الامتداد والخلود ! . . هؤلاء هم الذين واجههم هود - عليه السلام - هذه المواجهة . فى شجاعة المؤمن واستعلائه وثقته واطمئنانه ؛ وفاصلهم هذه المفاصلة الحاسمة الكاملة - وهم قومه - وتحداهم أن يكيدوه بلا إمهال ، وأن يفعلوا ما فى وسعهم فلا يبالهم بحال !

لقد وقف هود - عليه السلام - هـذه الوقفة الباهرة ، بعـد مابذل لقومه من النصح ما يملك ؛ وبعـد أن تودد إليهم وهو يدعوهم غاية التودد . . ثم تبين له عنادهم وإصرارهم على محادة الله وعلى الاستهتار بالوعيد والجرأة على الله . .

لقد وقف هود - عليه السلام - هذه الوقفة الباهرة لأنه يجد حقيقة ربه فى نفسه ، فيوقن أن أولئك الجبارين العتاة المتمتعين المتبطرين إنما هم من الدواب ! وهو مستيقن أنه مامن دابة إلا وربه آخذ بناصيتها ؛ ففيم يحفل إذن هؤلاء الدواب ؟ ! وأن ربه هو الذى استخلفهم فى الأرض ، وأعطاهم ما أعطاهم من نعمة ومال وقوة وبنين وقـدرة على التصنيع والتعمير ! للابتلاء لا للمطلق العطاء . وأن ربه يملك أن يذهب بهم ويستخلف غيرهم إذا شاء ، ولا يضرونه

Marfat.com

شيئا ، ولا يردون له قضاء .. فيم إذن يهوله شيء مما هم فيه ، وربه هو الذى يعطى ويسلب حين يشاء كيف شاء ؟ ..

إن أصحاب الدعوة إلى الله لابد أن يجدوا حقيقة ربهم فى نفوسهم على هذا النحو حتى يملكوا أن يقفوا بإيمانهم فى استعلاء أمام قوى الجاهلية الطاغية من حولهم .. أمام القوة المادية . وقوة الصناعة . وقوة المال . وقوة العلم البشرى . وقوة الأنظمة والأجهزة والتجارب والخبرات ... وهم مستيقنون أن ربهم آخذ بناصية كل دابة ؛ وأن الناس - كل الناس - إن هم إلا دواب من الدواب !

وذات يوم لابد أن يقف أصحاب الدعوة من قومهم موقف المفاصلة الكاملة ؛ فإذا القوم الواحد أمتان مختلفتان .. أمة تدين لله وحده وترفض الدينونة لسواه . وأمة تتخذ من دون الله أربابا ، وتحاد الله !

ويوم تتم هذه المفاصلة يتحقق وعد الله بالنصر لأوليائه ، والتدمير على أعدائه - فى صورة من الصور التى قد تخطر وقد لا تخطر على البال - ففى تاريخ الدعوة إلى الله على مدار التاريخ لم يفصل الله بين أوليائه وأعدائه إلا بعد أن فاصل أولياؤه أعداءه على أساس العقيدة فاختاروا الله وحده .. وكانوا هم حزب الله الذين لايعتمدون على غيره والذين لا يجدون لهم ناصرا سواه .

* * *

وحسبنا هذه الوقفات مع إلهامات قصة هود وعاد . لنتابع بعدها سياق السورة مع قصة صالح وثمود .

« وإلى ثمود أخاهم صالحا . قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها . فاستغفروه ثم توبوا إليه ، إن ربى قريب مجيب » ..

إنها الكلمة التى لاتتغير :

« ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » ..

وإنه كذلك المنهج الذى لايتبدل :

« فاستغفروه ثم توبوا إليه » ...

ثم هو التعريف بحقيقة الألوهية كما يجدها فى نفسه الرسول :

Marfat.com

« إن ربى قريب مجيب » . .

وذكرهم صالح بنشأتهم من الأرض . نشأة جنسهم ، ونشأة أفرادهم من غـذاء الأرض أو من عناصرها التي تتألف منها عناصر تكوينهم الجسدى . ومع أنهم من هذه الأرض . من عناصرها . فقد استخلفهم الله فيها ليعمروها . استخلفهم بجنسهم واستخلفهم بأشخاصهم بعد الذاهبين من قبلهم .

ثم هم بعد ذلك يشركون معه آلهة أخرى . .

« فاستغفروه ثم توبوا إليه » . .

واطمئنوا إلى استجابته وقبوله :

« إن ربى قريب مجيب » . .

والإضافة فى « ربى » ولفظ « قريب » ولفظ « مجيب » واجتماعها وتجاورها . . ترسم صورة لحقيقة الألوهية كما تتجلى فى قلب من قلوب الصفوة المختارة ، وتخلع على الجو أنسا واتصالا ومودة ، تنتقل من قلب النبي الصالح إلى قلوب مستمعيه لو كانت لهم قلوب !

ولكن قلوب القوم كانت قد بلغت من الفساد والاستغلاق والانطماس درجة لا تستشعر معها جمال تلك الصورة ولا جلالها ، ولا تحس بشاشة هذا القول الرفيق ، ولا وضاءة هـذا الجو الطليق . . وإذا بهم يفاجأون ، حتى ليظنون بأخيهم صالح الظنون !

« قالوا : ياصالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا ! أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا ؟ وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب » . .

لقد كان لنا رجاء فيك . كنت مرجوا فينا لعلمك أو لعقلك أو لصدقك أو لحسن تدبيرك ، أو لهذا جميعه . ولكن هذا الرجاء قد خاب . . .

« أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا ؟ » . .

إنها القاصمة ! فكل شىء ياصالح إلا هذا ! وما كنا لنتوقع أن تقولها ! فيا لخيبة الرجاء فيك ! ثم إننا لفى شك مما تدعونا إليه . شك يجعلنا نرتاب فيك وفيما تقول :

« وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب » . .

Marfat.com

وهكذا يعجب القوم مما لا عجب فيه ؟ بل يستنكرون ماهو واجب وحق ، ويدهشون لأن يدعوهم أخوهم صالح إلى عبادة الله وحده . لماذا ؟ لا لحجة ولا لبرهان ولا لتفكير. ولكن لأن آباءهم يعبدون هذه الآلهة !

وهكذا يبلغ التحجر بالناس أن يعجبوا من الحق البين . وأن يعللوا العقائد بعمل الآباء !

وهكذا يتبين مرة وثانية وثالثة أن عقيدة التوحيد هى فى صميمها دعوة للتحرر الشامل الكامل الصحيح . ودعوة إلى إطلاق العقل البشرى من عقال التقليد ، ومن أوهاق الوهم والخرافة التى لا تستند إلى دليل .

وتذكرنا قولة ثمود لصالح :

« قد كنت فينا مرجوا قبل هذا » ..

تذكرنا بما كان لقريش من ثقة بصدق محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأمانته . فلما أن دعاهم إلى ربوبية الله وحده تنكروا له كما تنكر قوم صالح ، وقالوا : ساحر . وقالوا : مفتر . ونسوا شهادتهم له وثقتهم فيه !

إنها طبيعة واحدة ، ورواية واحدة تتكرر على مدى العصور والدهور ..

ويقول صالح كما قال جده نوح :

« قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير » ..

ياقوم : ماذا ترون إن كنت أجد فى نفسى حقيقة ربى واضحة بينة ، تجعلنى على يقين من أن هذا هو الطريق ؟ وآتانى منه رحمة فاختارنى لرسالته وأمدنى بالخصائص التى تؤهلنى لها . فمن ينصرنى من الله إن أنا عصيته فقصرت فى إبلاغكم دعوته ، احتفاظا برجائكم فىّ ؟ أفنافعى هذا الرجاء وناصرى من الله ؟ كلا :

« فمن ينصرنى من الله إن عصيته؟ فما تزيدوننى غير تخسير » ..

ماتزيدوننى إلا خسارة على خسارة .. غضب الله وحرمانى شرف الرسالة وخزى الدنيا وعذاب الآخرة . وهى خسارة بعد خسارة . ولا شئ إلا التخسير ! والتثقيل والتشديد !

Marfat.com

« وياقوم هـذه ناقة الله لـكم آية ، فذروهـا تأكل فى أرض الله ، ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب » .

ولايذكر السياق صفة لهذه الناقة التى أشار إليها صالح لتكون آية لهم وعلامة . ولـكن فى إضافتها لله : « هـذه ناقة الله » وفى تخصيصها لهم : « لـكم آية » مايشير إلى أنها كانت ذات صفة خاصة مميزة ، يعلمون بها أنها آية لهم من الله . ونكتفى بهذا دون الخوض فى ذلك الخضم من الأساطير والإسرائيليات التى تفرقت بها أقوال المفسرين حول ناقة صالح فيما مضى وفيما سيجىء !

« هذه ناقة الله لكم آية . فذروها تأكل فى أرض الله ولاتمسوها بسوء » ..

وإلا فيعاجلكم العذاب . يدل على هـذه العاجلة فاء الترتيب فى العبارة ولفظ قريب :

« فيأخذكم عـذاب قريب » ..

يأخذكم أخذا . وهى حركة أشد من المس أو الوقوع .

« فعقروها » .. « فقال : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام . ذلك وعد غير مكذوب » ..

ودل عقرهم للناقة ، أى ضربهم لها بالسيف فى قوائمها وقتلها على هذا النحو . دل على فساد قلوبهم واستهتارهم . والسياق هنا لايطيل بين إعطائهم الناقة وعقرهم إياها ، لأنها لم تحدث فى نفوسهم تجاه الدعوة تغييرا يذكر . ثم ليتابع السياق عجلة العذاب . فهو يعبر هنا بفاء التعقيب فى كل الخطوات :

« فعقروها . فقال : تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام » ..

فهى آخر مابقى لـكم من متاع هذه الدنيا ومن أيام هذه الحياة :

« ذلك وعد غير مكذوب » ..

فهو وعد صادق لن يحيد .

وبالفاء التعقيبية يعبر كذلك . فالعذاب لم يتأخر :

« فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ ، إن ربك هو القوى العزيز ، وأخذ الذين ظلموا الصيحة ، فأصبحوا فى ديارهم جاثمين » .

Marfat.com

فلما جاء موعد تحقيق الأمر – وهو الإنذار أو الإهلاك – نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا . . خاصة ومباشرة . . نجيناه من الموت ومن خزى ذلك اليوم ، فقد كانت ميتة ثمود ميتة مخزية ، وكان مشهدهم جاثمين فى دورهم بعد الصاعقة المدوية التى تركتهم موتى على هيئتهم مشهدا مخزيا .

« إن ربك هو القوى العزيز » . .

يأخذ العتاة أخذا ولا يعز عليه أمر ، ولا يهون من يتولاه ويرعاه .

ثم يعرض السياق مشهدهم ، معجبا منهم ، ومن سرعة زوالهم :

« كأن لم يغنوا فيها » . .

كأن لم يقيموا ويتمتعوا . . وإنه لمشهد مؤثر ، وإنها للمسة مثيرة ، والمشهد معروض وما بين الحياة والموت – بعد أن يكون – إلا لمحة كومضة العين ، وإذا الحياة كلها شريط سريع . كأن لم يغنوا فيها . . .

ثم الخاتمة المعهودة فى هذه السورة : تسجيل الذنب ، وتشييع اللعنة ، وانطواء الصفحة من الواقع ومن الذكرى :

« ألا إن ثمود كفروا ربهم . ألا بعدا لثمود ! » . .

* * *

ومرة أخرى نجـدنا أمام حلقة من حلقات الرسالة على مدار التاريخ . . الدعوة فيها هى الدعوة . وحقيقة الإسلام فيها هى حقيقته . . عبادة الله وحده بلا شريك ، والدينونة لله وحده بلا منازع . . ومرة أخرى نجد الجاهلية التى تعقب الإسلام ، ونجد الشرك الذى يعقب التوحيد – فثمود كعاد هم من ذرارى المسلمين الذين نجوا فى السفينة مع نوح – ولكنهم انحرفوا فصاروا إلى الجاهلية ، حتى جاءهم صالح ليردهم إلى الإسلام من جديد . .

ثم نجد أن القوم يواجهون الآية الخارقة التى طلبوها ، لا بالإيمان والتصديق ، ولكن بالجحود وعقر الناقة !

ولقد كان مشركو العرب يطلبون من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خارقة كالخوارق السابقة كى يؤمنوا . فهاهم أولاء قوم صالح قد جاءتهم الخارقة التى طلبوا . فما أغنت معهم شيئا !

Marfat.com

إن الإيمان لا يحتاج إلى الخوارق . إنه دعوة بسيطة تتدبرها القلوب والعقول . ولكن الجاهلية هى التى تطمس على القلوب والعقول !!!

ومرة أخرى نجد حقيقة الألوهية كما تتجلى فى قلب من قلوب الصفوة المختارة . قلوب الرسل الكرام . نجدها فى قولة صالح التى يحكيها عنه القرآن الكريم : « قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ، وآتانى منه رحمة ، فمن ينصرنى من الله إن عصيته ؟ فما تزيدوننى غير تخسير » .. وذلك بعد أن يصف لهم ربه كما يجده فى قلبه : « إن ربى قريب مجيب » ..

وما تتجلى حقيقة الألوهية قط فى كمالها وجلالها وروائها وجمالها كما تتجلى فى قلوب تلك الصفوة المختارة من عباده . فهذه القلوب هى المعرض الصافى الرائق الذى تتجلى فيه هذه الحقيقة على هذا النحو الفريد العجيب (١) !

ثم نقف من القصة أمام الجاهلية التى ترى فى الرشد ضلالا ؛ وفى الحق عجيبة لا تكاد تتصورها ! فصالح الذى كان مرجوا فى قومه ، لصلاحه ولرجاحة عقله وخلقه ، يقف منه قومه موقف اليائس منه ، المفجوع فيه ! لماذا ؟ لأنه دعاهم إلى الدينونة لله وحده . على غير ما ورثوا عن آبائهم من الدينونة لغيره !

إن القلب البشرى حين ينحرف شعرة واحدة عن العقيدة الصحيحة ، لا يقف عند حد فى ضلاله وشروده . حتى إن الحق البسيط الفطرى المنطقى ليبدو عنده عجيبة العجائب التى يعجز عن تصورها ؛ بينما هو يستسيغ الانحراف الذى لا يستند إلى منطق فطرى أو منطق عقلى فى الإطلاق !

إن صالحا يناديهم : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . . هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها . . » . . فهو يناديهم بما فى نشأتهم ووجودهم فى الأرض من دليل فطرى منطقى لا يملكون له ردا . . وهم ما كانوا يزعمون أنهم هم أنشأوا أنفسهم ، ولا أنهم هم كفلوا لأنفسهم البقاء ، ولا أعطوا أنفسهم هذه الأرزاق التى يستمتعون بها فى الأرض . .

وظاهر أنهم لم يكونوا يجحدون أن الله ـ سبحانه ـ هو الذى أنشأهم من الأرض ، وهو الذى أقدرهم على عمارتها . ولكنهم ما كانوا يتبعون هذا الاعتراف بألوهية الله ـ سبحانه ـ

(١) يراجع فصل « حقيقة الألوهية » فى كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » القسم الثانى

Marfat.com

وإنشائه لهم واستخلافهم فى الأرض ، بما ينبغى أن يتبعه من الدينونة لله وحده بلا شريك ، واتباع أمره وحده بلا منازع . . وهو مايدعوهم إليه صالح بقوله : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » . .

لقد كانت القضية هى ذاتها . . قضية الربوبية لاقضية الألوهية . قضية الدينونة والحاكمية . قضية الاتباع والطاعة . . إنها القضية الدائمة التى تدور عليها معركة الإسلام مع الجاهلية !

« وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ ، قَالُوا : سَلَامًا ، قَالَ : سَلَامٌ . فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ، قَالُوا : لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ، فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ : يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ؟ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا : أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ؟ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ، إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ .

« فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ، وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ، إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ .

« وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ ، وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ، وَقَالَ : هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ـ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ـ قَالَ : يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ ، وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي . أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ؟ * قَالُوا : لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ : لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ !

Marfat.com

« قَالُواْ : يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ ، لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ، فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ،وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ – إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ – إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ، أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ؟

« فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا ، وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ، وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ » ٨٣.

يلم السياق فى مروره التاريخى بالمستخلفين من عهد نوح ، وبالأمم التى بوركت والأمم التى كتب عليها العذاب . . يلم بطرف من قصة إبراهيم ، تتحقق فيه البركات ، فى الطريق إلى قصة قوم لوط الذين مسهم العذاب الأليم . وفى قصتى إبراهيم ولوط هنا يتحقق وعد الله بطرفيه لنوح : « قيل : يانوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك . وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم » . . وقد كانت البركات فى إبراهيم وعقبه من ولديه : إسحاق وأبنائه أنبياء بنى إسرائيل . وإسماعيل ومن نسله خاتم الأنبياء والمرسلين .

* * *

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى » . .

ولا يفصح السياق عن هذه البشرى إلا فى موعدها المناسب بحضور امرأة إبراهيم والرسل: الملائكة . وهم هنا مجهولون ، فلا ندخل – مع المفسرين – فى تعريفهم وتحديدهم بلا دليل .

« قالوا : سلاما . قال : سلام » . .

وكان إبراهيم قد هاجر من أرض الكلدانيين مسقط رأسه فى العراق ، وعبر الأردن ، وسكن فى أرض كنعان فى البادية – وعلى عادة البدو فى إكرام الأضياف راح إبراهيم يحضر لهم الطعام وقد ظنهم ضيوفا – :

« فما لبث أن جاء بعجل حنيذ » . .

Marfat.com

أى سمين مشوى على حجارة الرضف المحماة .

ولكن الملائكة لا يأكلون طعام أهل الأرض :

« فلما رأى أيديهم لا تصل إليه » . .

أى لا تمتد إليه

« نكرهم وأوجس منهم خيفة » . .

فالذى لا يأكل الطعام يريب ، ويشعر بأنه ينوى خيانة أو غدرا بحسب تقاليد أهل البدو . . وأهل الريف عندنا يتحرجون من خيانة الطعام ، أى من خيانة من أكلوا معه طعاما ! فإذا امتنعوا عن طعام أحد فمعنى هذا أنهم ينوون به شرا ، أو أنهم لا يثقون فى نياته لهم . . وعند هذا كشفوا له عن حقيقتهم :

« قالوا : إنا أرسلنا إلى قوم لوط » . .

وإبراهيم يدرك ما وراء إرسال الملائكة إلى قوم لوط ! ولكن حدث فى هذه اللحظة ما غير مجرى الحديث :

« وامرأته قائمة فضحكت » . .

وربما كان ضحكها ابتهاجا بهلاك القوم الملوثين :

« فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب » . .

وكانت عقيما لم تلد وقد أصبحت عجوزا . فمفاجأتها البشرى بإسحاق . وهى بشرى مضاعفة بأن سيكون لإسحاق عقب من بعده هو يعقوب . والمرأة — وبخاصة العقيم — يهز كيانها كله لمثل هذه البشرى ، والمفاجأة بها تهزها وتربكها :

« قالت : ياويلتا ! أألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا ؟ إن هذا لشىء عجيب » . .

وهو عجيب حقا . فالمرأة ينقطع طمثها عادة فى سن معينة فلا تحمل . ولكن لا شىء بالقياس إلى قدرة الله عجيب :

« قالوا : أتعجبين من أمر الله ؟ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت . إنه حميد مجيد » . .

ولا عجب من أمر الله . فالعادة حين تجرى بأمر لا يكون معنى هذا أنها سنة لا تتبدل .

Marfat.com

وعند مايشاء الله لحكمة يريدها - وهى هنا رحمته بأهل هذا البيت وبركاته الموعودة للمؤمنين فيه - يقع مايخالف العادة ، مع وقوعه وفق السنة الإلهية التى لانعلم حدودها ، ولا نحكم عليها بما تجرى به العادة فى أمد هو على كل حال محدود ، ونحن لا نستقرئ جميع الحوادث فى الوجود .

والذين يقيدون مشيئة الله بما يعرفونه هم من نواميسه لايعرفون حقيقة الألوهية كما يقررها الله سبحانه فى كتابه - وقوله الفصل وليس للعقل البشرى قول فى ذلك القول - وحتى الذين يقيدون مشيئة الله بما يقرر الله - سبحانه - أنه ناموسه ، لايدركون حقيقة الألوهية كذلك ؛ فمشيئة الله سبحانه طليقة وراء ماقرره الله سبحانه من نواميس . ولا تتقيد هذه المشيئة بالنواميس .

نعم إن الله سبحانه يجرى هذا الكون وفق النواميس التى قدرها له . . ولكن هذا شىء والقول بتقيد إرادته بهذه النواميس بعد وجودها شىء آخر ! إن الناموس يجرى وينفذ بقدر من الله فى كل مرة ينفذ فيها . فهو لايجرى ولا ينفذ آليا . فإذا قدر الله فى مرة أن يجرى الناموس بصورة أخرى غير التى جرى بها فى مرات سابقة كان ماقدره الله ولم يقف الناموس فى وجه هذا القدر الجديد . . ذلك أن الناموس الذى تندرج تحته كل النواميس هو طلاقة المشيئة بلا قيد على الإطلاق ، وتحقق الناموس فى كل مرة يتحقق فيها بقدر خاص طليق . .

وإلى هنا كان إبراهيم - عليه السلام - قد اطمأن إلى رسل ربه ، وسكن قلبه بالبشرى التى حملوها إليه . ولكن هذا لم ينسه لوطا وقومه - وهو ابن أخيه النازح معه من مسقط رأسه والساكن قريبا منه - وما ينتظرهم من وراء إرسال الملائكة من هلاك واستئصال . وطبيعة إبراهيم الرحيمة الودود لاتجعله يطيق هلاك القوم واستئصالهم جميعا :

« فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا فى قوم لوط . إن إبراهيم لحليم أواه منيب » . .

والحليم الذى يحتمل أسباب الغضب فيصبر ويتأنى ولا يثور . والأواه الذى يتضرع فى الدعاء من التقوى . والمنيب الذى يعود سريعا إلى ربه . . وهذه الصفات كلها قد دعت إبراهيم أن يجادل الملائكة فى مصير قوم لوط وإن كنا لا نعلم كيف كان هذا الجدال لأن النص القرآنى لم يفصله ، فجاءه الرد بأن أمر الله فيهم قد قضى وأنه لم يعد للجدال مجال :

Marfat.com

« يا إبراهيم أعرض عن هذا ، إنه قد جاء أمر ربك ، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » . .

* * *

ويسكت السياق . وقد سكت ـ ولا شك ـ إبراهيم . . ويسدل الستار على مشهد إبراهيم وزوجه ليرفع هناك على مشهد حافل بالحركة والانفعال مع لوط . وقوم لوط فى مدن الأردن : عمورية وسدوم .

« ولما جاءت رسلنا لوطا سىء بهم وضاق بهم ذرعا ، وقال : هذا يوم عصيب ! » . .

لقد كان يعرف قومه . ويعرف ما أصاب فطرتهم من انحراف وشذوذ عجيبين . إذ يتركون النساء إلى الرجال ، مخالفين الفطرة التى تهتدى إلى حكمة خلق الأحياء جميعا أزواجا ، كى تمتد الحياة بالنسل ما شاء لها الله . والتى تجد اللذة الحقيقية فى تلبية نداء الحكمة الأزلية ، لا عن تفكير وتدبير ، ولكن عن اهتداء واستقامة .

والبشرية تعرف حالات مرضية فردية شاذة ، ولكن ظاهرة قوم لوط عجيبة . وهى تشير إلى أن المرض النفسى يعدى كالمرض الجسدى . وأنه يمكن أن يروج مرض نفسى كهذا نتيجة لاختلال المقاييس فى بيئة من البيئات ، وانتشار المثل السىء ، عن طريق إيحاء البيئة المريضة . على الرغم من مصادمته للفطرة ، التى يحكمها الناموس الذى يحكم الحياة . الناموس الذى يقتضى أن تجد لذتها فيما يلبى حاجة الحياة لا فيما يصادمها ويعدمها . والشذوذ الجنسى يصادم الحياة ويعدمها ، لأنه يذهب ببذور الحياة فى تربة خبيثة لم تعد لاستقبالها وإحيائها . بدلا من الذهاب بها إلى التربة المستعدة لتلقيها وإنمائها . ومن أجل هذا تنفر الفطرة السليمة نفورا فطريا ـ لا أخلاقيا فحسب ـ من عمل قوم لوط . لأن هذه الفطرة محكومة بقانون الله فى الحياة ، الذى يجعل اللذة الطبيعية السليمة فيما يساعد على إنماء الحياة لا فيما يصدمها ويعطلها .

ولقد نجد أحيانا لذة فى الموت ـ فى سبيل غاية أسمى من الحياة الدنيا ـ ولكنها ليست لذة حسية إنما هى معنوية اعتبارية . على أن هذه ليست مصادمة للحياة ، إنما هى إنماء لها وارتفاع بها من طريق آخر . وليست فى شىء من ذلك العمل الشاذ الذى يعدم الحياة وخلاياها . .

Marfat.com

سيء لوط بأضيافه . وهو يعلم ما ينتظرهم من قومه ، ويدرك الفضيحة التى ستناله فى أضيافه :

« وقال : هذا يوم عصيب » !

وبدأ اليوم العصيب !

« وجاءه قومه يهرعون إليه » . .

أى يسرعون فى حالة تشبه الحمى .

« ومن قبل كانوا يعملون السيئات » .

وكان هذا ما ساء الرجل بضيوفه ، وما ضيق بهم ذرعه ، وما دعاه إلى توقع يوم عصيب !

ورأى لوط مايشبه الحمى فى أجساد قومه المندفعين إلى داره ، يهددونه فى ضيفه وكرامته . فحاول أن يوقظ فيهم الفطرة السليمة ، ويوجههم إلى الجنس الآخر الذى خلقه الله للرجال ، وعنده منا فى داره بناته ، فهن حاضرات ، حاضرات اللحظة إذا شاء الرجال المحمومون تم الزواج على الفور ، وسكنت الفورة المحمومة والشهوة المجنونة !

« قال : ياقوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم . فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى . أليس منكم رجل رشيد ؟ » .

« هؤلاء بناتى هن أطهر لكم » . . .

أطهر بكل معانى الطهر . النفسى والحسى . فهن يلبين الفطرة النظيفة ، ويثرن مشاعر كذلك نظيفة . نظافة فطرية ونظافة أخلاقية ودينية . ثم هن أطهر حسيا . حيث أعدت القدرة الخالقة للحياة الناشئة مكمنا كذلك طاهرا نظيفا .

« فاتقوا الله » . .

قالها يلمس نفوسهم من هذا الجانب بعد أن لمسها من ناحية الفطرة .

« ولا تخزون فى ضيفى » . .

قالها كذلك يلمس نخوتهم وتقاليد البدو . فى إكرام الضيف إطلاقا .

« أليس منكم رجل رشيد ؟ » . .

Marfat.com

فالقضية قضية رشد وسفه . إلى جوار أنها قضية فطرة ودين ومروءة .. ولكن هذا كله لم يلمس الفطرة المنحرفة المريضة ، ولا القلوب الميتة الآسنة ، ولا العقول المريضة المأفونة . وظلت الفورة المريضة الشاذة فى اندفاعها المحموم :

« قالوا : لقد علمت مالنا فى بناتك من حق . وإنك لتعلم مانريد ! » ..

لقد علمت لو أردنا بناتك لتزوجناهن . فهذا حقنا .. « وإنك لتعلم مانريد » .. وهى إشارة خبيثة إلى العمل الخبيث .

وأسقط فى يد لوط ، وأحس ضعفه وهو غريب بين القوم ، نازح إليهم من بعيد ، لا عشيرة له تحميه ، وليس له من قوة فى هذا اليوم العصيب ؛ وانفرجت شفتاه عن كلمة حزينة أليمة :

« قال : لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد ! » .

قالها وهو يوجه كلامه إلى هؤلاء الفتية – الذين جاء الملائكة فى صورتهم – وهم صباح الوجوه ؛ ولكنهم – فى نظره – ليسوا بأهل بأس ولا قوة . فالتفت إليهم يتمنى أن لو كانوا أهل قوة فيجد بهم قوة . أو لو كان له ركن شديد يحتمى به من ذلك التهديد !

وغاب عن لوط فى كربته وشدته أنه يأوى إلى ركن شديد . ركن الله الذى لا يتخلى عن أوليائه . كما قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يتلو هذه الآية : « رحمة الله على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد » !

وعندما ضاقت واستحكمت حلقاتها ، وبلغ الكرب أشده .. كشف الرسل للوط عن الركن الشديد الذى يأوى إليه :

« قالوا : يالوط ، إنا رسل ربك ، لن يصلوا إليك » ..

وأنباؤه نبأهم ، لينجو مع أهل بيته الطاهرين ، إلا امرأته فإنها كانت من القوم الفاسدين :

« فأسر بأهلك بقطع من الليل ، ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك . إنه مصيبها ما أصابهم ، إن موعدهم الصبح . أليس الصبح بقريب ؟ » ..

Marfat.com

والسرى : سير الليل ، والقطع من الليل : بعضه ، ولا يلتفت منكم أحد . أى لا يتخلف ولا يعوق . لأن الصبح موعدهم مع الهلاك . فكل من بقى فى المدينة فهو هالك مع الهالكين .

« أليس الصبح بقريب ؟ » ..

سؤال لإنعاش نفس لوط بعد ماذاق . لتقريب الموعد وتأكيده . فهو قريب . مع مطلع الصباح . ثم يفعل الله بالقوم ـ بقوته ـ مالم تكن قوة لوط التى تمناها فاعلة !

والمشهد الأخير . مشهد الدمار للروع ، اللائق بقوم لوط :

« فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وماهى من الظالمين ببعيد » .

فلما جاء موعد تنفيذ الأمر « جعلنا عاليها سافلها » . . وهى صورة التدمير الكامل الذى يقلب كل شىء ويغير المعالم ويمحوها . وهذا القلب وجعل عاليها سافلها أشبه شىء بتلك الفطرة المقلوبة الهابطة المرتكسة من قمة الإنسان إلى درك الحيوان . بل أحط من الحيوان ، فالحيوان واقف ملتزم عند حدود فطرة الحيوان . .

« وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » . .

حجارة ملوثة بالطين . وهى كذلك مناسبة وعلى قدر المقام :

« منضود » . . متراكم بعضه يلاحق بعضا .

هذه الحجارة . . « مسومة عند ربك » . . كما تسوم الماشية أى تربى وتطلق بكثرة . فكأنما هذه الحجارة مرباة ! ومطلقة لتنمو وتتكاثر ! لوقت الحاجة . . وهو تصوير عجيب يلقى ظله فى الحس ، ولا يفصح عنه التفسير ، كما يفصح عنه هذا الظل الذى يلقيه .

« وما هى من الظالمين ببعيد » . .

فهى قريبة وتحت الطلب ، وعند الحاجة تطلق فتصيب [1] !

---

(١) من معانى مسومة : معلمة ذات علامة خاصة . والتعبير التصويرى يجعل المعنى الذى اخترناه لها أقرب إلى التصوير .

Marfat.com

والصورة التي يرسمها السياق هنا لهذه النازلة التي أصابت قوم لوط هي أشبه شيء ببعض الظواهر البركانية التي تخسف فيها الأرض فتبتلع ما فوقها ويصاحب هذا حمم وحجارة ووحل.. وعند ربك للظالمين كثير !!!

ولا نقول هذا الكلام لنقول: إنه كان بركان من تلك البراكين، ثار في ذلك الوقت، فوقع ماوقع. إننا لاننفي هذا. فقد يكون هو الذي وقع فعلا. ولكننا لا نجزم به كذلك ولا نقيد قدر الله بظاهرة واحدة مألوفة..

وقوام القول في هذه القضية وأمثالها أنه جائز أن يكون في تقدير الله وقوع انفجار بركاني في موعده في هذا الموعد ليحقق قدر الله في قوم لوط كما قدر في علمه القديم. وهذا التوقيت والتوافق شأن من شؤون ألوهيته سبحانه وربوبيته للكون وتصريفه لكل مايجري فيه متناسقا مع قدره بكل شيء وبكل حي فيه..

وجائز كذلك أن تكون هذه الظاهرة وقعت بقدر خاص تعلقت به مشيئة الله سبحانه لإهلاك قوم لوط على هذه الصورة التي تم بها في ذلك الحين. وفهم علاقة مشيئة الله بالكون على النحو الذي بيناه قريبا في التعليق على حادثة امرأة إبراهيم، لايبقي مجالا لمشكلة تقوم في التصور الإنساني لمثل هذه الظواهر والأمور (١)..

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا، قَالَ: يَٰقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ، مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ: وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ، إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ، وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ، وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ - إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ - وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ.

« قَالُوا: يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا، أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰؤُا؟ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ!

(١) يراجع فصل: « التوازن » في كتاب: « خصائص التصور الإسلامي ومقوماته » القسم الأول.

Marfat.com

« قَالَ : يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى ، وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ؟ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ؛ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ، وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ، وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ * وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ .

« قَالُوا۟ : يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ؛ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ، وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ، وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ .

« قَالَ : يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ ؛ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ؟ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ، سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ، وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ، وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ .

« وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا ، وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ . أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ! » ٩٥

وهذا دور من أدوار الرسالة الواحدة بالعقيدة الخالدة ، ينهض به شعيب فى قومه أهل مدين . . ومع الدعوة إلى عقيدة التوحيد قضية أخرى ، هى قضية الأمانة والعدالة فى التعامل بين الناس ، وهى وثيقة الصلة بالعقيدة فى الله ، والدينونة له وحده ، واتباع شرعه وأمره . وإن كان أهل مدين قد تلقوها بدهشة بالغة ، ولم يدركوا العلاقة بين المعاملات المالية والصلاة المعبرة عن الدينونة لله !

Marfat.com

وتجرى القصة على نسق قصة هود مع عاد ، وقصة صالح مع ثمود ، وإن كانت أقرب فى نهايتها وأسلوب عرضها . والتعبير عن خاتمتها إلى قصة صالح ، حتى لتشترك معها فى نوع العذاب وفى العبارة عن هذا العذاب .

* * *

« وإلى مدين أخاهم شعيبا . قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . . . »

إنها الدينونة لله وحده قاعدة العقيدة الأولى وقاعدة الحياة الأولى . وقاعدة الشريعة الأولى . وقاعدة المعاملات الأولى . . القاعدة التى لا تقوم بغيرها عقيدة ولا عبادة ولا معاملة .

« ولا تنقصوا المكيال والميزان ، إنى أراكم بخير ، وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين . وما أنا عليكم بحفيظ »

والقضية هنا هى قضية الأمانة والعدالة ـ بعد قضية العقيدة والدينونة ـ أو هى قضية الشريعة والمعاملات التى تنبثق من قاعدة العقيدة والدينونة . . فقد كان أهل مدين ـ وبلادهم تقع فى الطريق من الحجاز إلى الشام ـ ينقصون المكيال والميزان . ويبخسون الناس أشياءهم ، أى ينقصونهم قيمة أشيائهم فى المعاملات . وهى رذيلة تمس نظافة القلب واليد ، كما تمس المروءة والشرف . كما كانوا بحكم موقع بلادهم يملكون أن يقطعوا الطريق على القوافل الذاهبة الآيبة بين شمال الجزيرة وجنوبها . ويتحكموا فى طرق القوافل ويفرضوا ما يشاءون من المعاملات الجائرة التى وصفها الله فى هذه السورة .

ومن ثم تبدو علاقة عقيدة التوحيد والدينونة لله وحده بالأمانة والنظافة وعدالة المعاملة وشرف الأخذ والعطاء ، ومكافحة السرقة الخفية سواء قام بها الأفراد أم قامت بها الدول . فهى بذلك ضمانة لحياة إنسانية أفضل ، وضمانة للعدل والسلام فى الأرض بين الناس . وهى الضمانة الوحيدة التى تستند إلى الخوف من الله وطلب رضاه ، فتستند إلى أصل ثابت ، لا يتأرجح مع المصالح والأهواء . .

إن المعاملات والأخلاق لا بد أن تستند إلى أصل ثابت لا يتعلق بعوامل متقلبة . . هذه هى

Marfat.com

نظرة الإسلام . وهى تختلف من الجذور مع سائر النظريات الاجتماعية والأخلاقية التى ترتكن إلى تفكيرات البشر وتصوراتهم وأوضاعهم ومصالحهم الظاهرة لهم !

وهى حين تستند إلى ذلك الأصل الثابت ينعدم تأثرها بالمصالح المادية القريبة ؛ كما ينعدم تأثرها بالبيئة والعوامل السائدة فيها .

فلا يكون المتحكم فى أخلاق الناس وقواعد تعاملهم من الناحية الأخلاقية هو كونهم يعيشون على الزراعة أو يعيشون على الرعى أو يعيشون على الصناعة . . إن هـذه العوامل المتغيرة تفقد تأثيرها فى التصور الأخلاقى وفى قواعد المعاملات الأخلاقية ، حين يصبح مصدر التشريع للحياة كلها هو شريعة الله ؛ وحين تصبح قاعدة الأخلاق هى إرضاء الله وانتظار ثوابه وتوقى عقابه ، وكل مايعرف به أصحاب المذاهب الوضعية من تبعية الأخـلاق للعلاقات الاقتصادية وللطور الاجتماعى للأمة يصبح لغوا فى ظل النظرة الأخلاقية الإسلامية(١) !

« ولا تنقصوا المكيال والميزان . إنى أراكم بخير » . .

فقد رزقكم الله رزقا حسنا ، فلستم فى حاجة إلى هـذه الدناءة لتزيدوا غنى ، ولن يفقركم أو يضركم أن لاتنقصوا المكيال والميزان . . بل إن هذا الخير ليهدده ما أنتم عليه من غش فى المعاملة ، أو غصب فى الأخذ والعطاء .

« وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط » . .

إما فى الآخرة عند الله . وإما فى هذه الأرض حين يؤتى هذا الغش والغصب ثمارها المرة فى حالة المجتمع وفى حركة التجارة . وحين يذوق الناس بعضهم بأس بعض ، فى كل حركة من الحركات اليومية وفى كل تعامل وفى كل احتكاك

ومرة أخرى يكرر شعيب نصحه فى صورة إيجابية بعد صورة النهى السلبية :

« وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط » . .

وإيفاء الكيل والميزان أقوى من عدم نقصهما ، لأنه أقرب إلى جانب الزيادة . وللعبارات ظل فى الحس . وظـل الإيفاء غـير ظل عـدم النقص ، فهو أكثر سماحة ووفاء .

---

(١) يراجع بتوسع كتاب : « نظرية الإسلام الخلقية » للسيد أبى الأعلى المودودى أمير الجماعة الإسلامية بباكستان . كما يراجع فصل : « نظام أخلاق » فى كتاب : « نحو مجتمع إسلامى » للمؤلف .

Marfat.com

« ولا تبخسوا الناس أشياءهم » ..

وهذه أعم من المكيلات والموزونات . فهو يشمل حسن تقويم أشياء الناس من كل نوع . تقويمها كيلا أو وزنا أو سعرا أو تقديرا . وتقويمها ماديا أو معنويا . وقد تدخل فى ذلك الأعمال والصفات . لأن كلة « شىء » تطلق أحيانا ويراد بها غير المحسوسات .

وبخس الناس أشياءهم — فوق أنه ظلم — يشيع فى نفوس الناس مشاعر سيئة من الألم أو الحقد . أو اليأس من العدل والخير وحسن التقدير .. وكلها مشاعر تفسد جو الحياة والتعامل والروابط الاجتماعية والنفوس والضمائر ، ولا تبقى على شىء صالح فى الحياة .

« ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » ..

والعثو هو الإفساد، فلا تفسدوا متعمدين الإفساد ، قاصدين إلى تحقيقه . ثم يوقظ وجدانهم إلى خير أبقى من ذلك الكسب الدنس الذى يحصلون عليه بنقص المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم فى التقدير :

« بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين » ..

فما عند الله أبقى وأفضل . . وقد دعاهم فى أول حديثه إلى عبادة الله وحده — أى الدينونة له بلا شريك — فهو يذكرهم بها هنا ، مع ذكر الخير الباقى لهم عند الله إن آمنوا كما دعاهم ، واتبعوا نصيحته فى المعاملات . وهى فرع عن ذلك الإيمان .

« بقية الله خير لكم .. إن كنتم مؤمنين » ..

ثم يخلى بينهم وبين الله الذى دعاهم إليه ، ويبين لهم أنه هو لا يملك لهم شيئا ، كما أنه ليس موكلا بحفظهم من الشر والعذاب . وليس موكلا كذلك بحفظهم من الضلال ولا مسؤولا عنهم إن هم ضلوا ، إنما عليه البلاغ وقد أداه :

« وما أنا عليكم بحفيظ » . .

ومثل هذا الأسلوب يشعر المخاطبين بخطورة الأمر ، ويثقل التبعة ، ويقفهم وجها لوجه أمام العاقبة بلا وسيط ولا حفيظ .

* * *

ولكن القوم كانوا قد عتوا ومردوا على الانحراف والفساد ، وسوء الاستغلال :

Marfat.com

« قالوا : ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا ، أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء ؟ إنك لأنت الحليم الرشيد ! » . .

وهو رد واضح التهكم، بيّن السخرية فى كل مقطع من مقاطعه . وإن كانت سخرية الجاهل المطموس ، والمعاند بلا معرفة ولافقه .

« أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء ؟ » .

فهم لايدركون - أولا يريدون أن يدركوا - أن الصلاة هى من مقتضيات العقيدة ، ومن صور العبودية والدينونة . وأن العقيدة لا تقوم بغير توحيد الله ، ونبذ مايعبدونه من دونه هم وآباؤهم . كما أنها لاتقوم إلا بتنفيذ شرائع الله فى التجارة وفى تداول الأموال وفى كل شأن من شئون الحياة والتعامل . فهى لحمة واحدة لايفترق فيها الاعتقاد عن الصلاة عن شرائع الحياة وعن أوضاع الحياة .

وقبل أن نمضى طويلا فى تسفيه هذا التصور السقيم لارتباط الشعائر بالعقيدة ، وارتباطهما معا بالمعاملات . . قبل أن نمضى طويلا فى تسفيه هذا التصور من أهل مدين قبل الوف السنين ، يحسن أن نذكر أن الناس اليوم لا يفترقون فى تصورهم ولا فى إنكارهم لمثل هذه الدعوة عن قوم شعيب . وأن الجاهلية التى نعيش فيها اليوم ليست أفضل ولا أذكى ولا أكثر إدراكا من الجاهلية الأولى ! وأن الشرك الذى كان يزاوله قوم شعيب هو ذاته الشرك الذى تزاوله اليوم البشرية بجملتها - بما فيها أولئك الذين يقولون : إنهم يهود أو نصارى أو مسلمون - فكلهم يفصل بين العقيدة والشعائر . والشريعة والتعامل . فيجعل العقيدة والشعائر لله ووفق أمره ، ويجعل الشريعة والتعامل لغير الله ، ووفق أمر غيره . . وهذا هو الشرك فى حقيقته وأصله . .

وإن كان لا يفوتنا أن اليهود وحدهم اليوم هم الذين يتمسكون بأن تكون أوضاعهم ومعاملاتهم وفق مايزعمونه عقيدتهم وشريعتهم - وذلك بغض النظر عما فى هذه العقيدة من انحراف وما فى هذه الشريعة من تحريف - فلقد قامت أزمة فى « الكنيست » مجلس تشريعهم فى إسرائيل بسبب أن باخرة إسرائيلية تقدم لركابها - من غير اليهود - أطعمة غير شرعية . وأرغمت الشركة

Marfat.com

والسفينة على تقديم الطعام الشرعي وحده – مهما تعرضت للخسارة – فأين من يدعون أنفسهم « مسلمين ! » من هذا الاستمساك بالدين ؟ ! !

إن بيننا اليوم – ممن يقولون : إنهم مسلمون ! – من يستنكر وجود صلة بين العقيدة والأخلاق ، وبخاصة أخلاق المعاملات المادية .

وحاصلون على الشهادات العليا من جامعاتنا وجامعات العالم ، يتساءلون أولا في استنكار : وما للإسلام وسلوكنا الشخصي ؟ ما للإسلام والعرى في الشواطىء ؟ ما للإسلام وزى المرأة في الطريق ؟ ما للإسلام وتصريف الطاقة الجنسية بأي سبيل ؟ ما للإسلام وتناول كأس من الخمر لإصلاح المزاج ؟ ما للإسلام وهذا الذي يفعله « المتحضرون » ؟ ! فأي فرق بين هذا وبين سؤال أهل مدين : « أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا ؟ »

وهم يتساءلون ثانيا ، بل ينكرون بشدة وعنف ، أن يتدخل الدين في الاقتصاد ، وأن تتصل المعاملات بالاعتقاد ، أو حتى بالأخلاق من غير اعتقاد .. فما للدين والمعاملات الربوية ؟ وما للدين والمهارة في الغش والسرقة مالم يقعا تحت طائلة القانون الوضعي ؟ لا بل إنهم يتبجحون بأن الأخلاق إذا تدخلت في الاقتصاد تفسده . وينكرون حتى على بعض أصحاب النظريات الاقتصادية الغربية – النظرية الأخلاقية مثلا – ويعدونها تخلفا من أيام زمان ! .

فلا يذهبن بنا الترفع كثيرا عن أهل مدين في تلك الجاهلية الأولى . ونحن اليوم في جاهلية أشد جهالة ، ولكنها تدعى العلم والمعرفة والحضارة . وتتهم الذين يربطون بين العقيدة في الله ، والسلوك الشخصي في الحياة ، والمعاملات المادية في السوق .. تتهمهم بالرجعية والتعصب والجمود ! ! !

وما تستقيم عقيدة توحيد الله في القلب ، ثم تترك شريعة الله المتعلقة بالسلوك والمعاملة إلى غيرها من قوانين الأرض . فما يمكن أن يجتمع التوحيد والشرك في قلب واحد . والشرك ألوان . منه هذا اللون الذي نعيش به الآن . وهو يمثل أصل الشرك وحقيقته التي يلتقي عليها المشركون في كل زمان وفي كل مكان !

Marfat.com

ويسخر أهل مدين من شعيب - كما يتوقع بالسخرية اليوم ناس على دعاة التوحيد الحق - فيقولون :

« إنك لأنت الحليم الرشيد ! » . .

وهم يعنون عكس معناها . فالحلم والرشد عندهم أن يعبدوا ما يعبد آباؤهم بلا تفكير ، وأن يفصلوا بين العبادة والتعامل في السوق ! وكذلك هو عند المثقفين المتحضرين اليوم الذين يعيبون على المتعصبين الرجعيين ! ! !

* * *

ويتلطف شعيب تلطف صاحب الدعوة الواثق من الحق الذي معه ؛ ويعرض عن تلك السخرية لا يباليها وهو يشعر بقصورهم وجهلهم . . يتلطف في إشعارهم أنه على بينة من ربه كما يجده في ضميره وقلبه ؛ وأنه على ثقة مما يقول لأنه أوتي من العلم ما لم يؤتوا ، وأنه إذ يدعوهم إلى الأمانة في المعاملة سيتأثر مثلهم بنتائجها لأنه مثلهم ذو مال وذو معاملات ؛ فهو لا يبغي كسبا شخصيا من وراء دعوته لهم ؛ فلن ينهاهم عن شيء ثم يفعله هو لتخلو له السوق ! إنما هي دعوة الإصلاح العامة لهم وله وللناس . وليس فيما يدعوهم إليه خسارة عليهم كما يتوهمون :

« قال : ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ، ورزقني منه رزقا حسنا ، وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب » . .

« ياقوم . . . » . .

في تودد وتقرب ، وتذكير بالأواصر القريبة .

« أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ؟ » . .

أجد حقيقته في نفسي وأستيقن أنه هو يوحي إلي ويأمرني بما أبلغكم إياه . وعن هذه البينة الواضحة في نفسي أصدر واثقا مستيقنا .

« ورزقني منه رزقا حسنا » . .

ومنه الثروة التي أتعامل مع الناس مثلكم فيها .

« وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » . .

Marfat.com

فأنهاكم ثم أذهب من خلفكم فأفعل ما نهيتكم عنه لأحقق لنفسى نفعا به !

« إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت » . .

الإصلاح العام للحياة والمجتمع الذى يعود صلاحه بالخير على كل فرد وكل جماعة فيه ؛ وإن خيل إلى بعضهم أن اتباع العقيدة والخلق يفوت بعض الكسب الشخصى ، ويضيع بعض الفرص . فإنما يفوت الكسب الخبيث ويضيع الفرص القذرة ؛ ويعوض عنهما كسبا طيبا ورزقا حلالا ، ومجتمعا متضامنا متعاونا لا حقد فيه ولا غدر ولا خصام !

« وما توفيقى إلا بالله » . .

فهو القادر على إنجاح مسعاى فى الإصلاح بما يعلم من نيتى ، وبما يجزى على جهدى .

« عليه توكلت » . .

عليه وحده لا أعتمد على غيره .

« وإليه أنيب » . .

إليه وحده أرجع فيما يحزبنى من الأمور ، وإليه وحده أتوجه بنيتى وعملى ومسعاى .

ثم يأخذ بهم فى واد آخر من التذكير ، فيطل بهم على مصارع قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط : فقد يفعل هذا فى مثل تلك القلوب الجاسية مالم يفعله التوجيه العقلى الهين الذى يحتاج إلى رشد وتفكير :

« وياقوم لا يجرمنكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح . وما قوم لوط منكم ببعيد » . .

لا يحملنكم الخلاف معى والعناد فى مواجهتى على أن تلجوا فى التكذيب والمخالفة ، خشية أن يصيبكم ما أصاب الأقوام قبلكم . وهؤلاء قوم لوط قريب منكم فى المكان ، وقريب كذلك فى الزمان . فديارهم كانت بين الحجاز والشام .

ثم يفتح لهم ـ وهم فى مواجهة العذاب والهلاك ـ باب المغفرة والتوبة ، ويطمعهم فى رحمة الله والقرب منه بأرق الألفاظ وأحناها :

« واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه ، إن ربى رحيم ودود » . .

Marfat.com

وهكذا يطوف بهم فى مجالات العظة والتذكر والخوف والطمع ، لعل قلوبهم تتفتح وتخشع وتلين .

ولكن القوم كانوا قد بلغوا من فساد القلوب ، ومن سوء تقدير القيم فى الحياة ، وسوء التصور لدوافع العمل والسلوك ، ما كشف عنه تبجحهم من قبل بالسخرية والتكذيب :

« قالوا : ياشعيب مانفقه كثيرا مما تقول ، وإنا لنراك فينا ضعيفا ، ولولا رهطك لرجمناك ، وما أنت علينا بعزيز » . .

فهم ضيقو الصدور بالحق الواضح ، لا يريدون أن يدركوه :

« قالوا ياشعيب ما نفقه كثيرا مما تقول » . .

وهم يقيسون القيم فى الحياة بمقياس القوة المادية الظاهرة :

« وإنا لنراك فينا ضعيفا » . .

فلا وزن عندهم للحقيقة القوية التى يحملها ويواجههم بها .

« ولولا رهطك لرجمناك » . .

ففى حسابهم عصبية العشيرة ، لا عصبية الاعتقاد ، وصلة الدم لاصلة القلب . ثم هم يغفلون عن غيرة الله على أوليائه فلا يضعونها فى الحساب .

« وما أنت علينا بعزيز » . .

لاعزة التقدير والكرامة ولا عزة الغلب والقهر . ولكننا نحسب حساب الأهل والعشيرة !

وحين تفرغ النفوس من العقيدة القوية والقيم الرفيعة والمثل العالية ؛ فإنها تقبع على الأرض ومصالحها القريبة وقيمها الدنيا ؛ فلا ترى حرمة يومئذ لدعوة كريمة ، ولا لحقيقة كبيرة ؛ ولا تتحرج عن البطش بالداعية إلا أن تكون له عصبة تؤويه ؛ وإلا أن تكون معه قوة مادية تحميه . أما حرمة العقيدة والحق والدعوة فلا وزن لها ولا ظل فى تلك النفوس الفارغة الخاوية .

* * *

Marfat.com

وعندئذ تأخذ شعيبا الغيرة على جلال ربه ووقاره ؛ فيتنصل من الاعتزاز برهطه وقومه ؛ ويجبههم بسوء التقدير لحقيقة القوى القائمة فى هذا الوجود ، وبسوء الأدب مع الله المحيط بما يعملون . ويلقى كلمته الفاصلة الأخيرة . ويفاصل قومه على أساس العقيدة ، ويخلى بينهم وبين الله ، وينذرهم العذاب الذى ينتظر أمثالهم ، ويدعهم لمصيرهم الذى يختارون :

« قال : ياقوم : أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا ؟ إن ربى بما تعملون محيط . وياقوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل، سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب » . .

« أرهطى أعز عليكم من الله ؟ » . .

أجماعة من البشر مهما يكونوا من القوة والمنعة فهم ناس . وهم ضعاف ، وهم عباد من عباد الله . . أهؤلاء أعز عليكم من الله ؟ . . أهؤلاء أشد قوة ورهبة فى نفوسكم من الله ؟

« واتخذتموه وراءكم ظهريا » . .

وهى صورة حسية للترك والإعراض ، تزيد فى شناعة فعلتهم ، وهم يتركون الله ويعرضون عنه ، وهم من خلقه ، وهو رازقهم ومحتهم بالخير الذى هم فيه . فهو البطر وجحود النعمة وقلة الحياء إلى جانب الكفر والتكذيب وسوء التقدير .

« إن ربى بما تعملون محيط » . .

والإحاطة أقصى الصور الحسية للعلم بالشىء والقدرة عليه .

إنها غضبة العبد المؤمن لربه أن يستباح جلاله ـ سبحانه ـ ووقاره . الغضبة التى لايقوم إلى جوارها شىء من الاعتزاز بنسبه ورهطه وعشيرته وقومه . . إن شعيبا لم ينتفخ ولم ينتفش أن يجد القوم يرهبون رهطه ، فلا تمتد إليه أيديهم بالبطش الذى يريدونه ! ولم يسترح ولم يطمئن إلى أن يكون رهطه هم الذين يحمونه ويمنعونه من قومه ـ الذين افترق طريقهم عن طريقه ـ وهذا هو الإيمان فى حقيقته . . أن المؤمن لايعتز إلا بربه ؛ ولايرضى أن تكون له عصبة تخشى ولا يُخشى ربه ! فعصبية المسلم ليست لرهطه وقومه ، إنما هى لربه ودينه . وهذا هو مفرق الطريق فى الحقيقة بين التصور الإسلامى والتصور الجاهلى فى كل أزمانه وبيئاته !

Marfat.com

ومن هذه الغضبة لله . والتنصل من الاعتزاز أو الاحتماء بسواه ، ينبعث ذلك التحدى الذى يوجهه شعيب إلى قومه ؛ وتقوم تلك المفاصلة بينه وبينهم ـ بعد أن كان واحداً منهم ـ ويفترق الطريقان فلا يلتقيان :

« ياقوم اعملوا على مكانتكم » ..

وامضوا فى طريقكم وخطتكم ، فقد نفضت يدىّ منكم .

« إنى عامل » ..

على طريقتى ومنهجى .

« سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب » ..

أنا أم أنتم ؟

« وارتقبوا إنى معكم رقيب » ..

للعاقبة التى تنتظرنى وتنتظركم .. وفى هذا التهديد مايوحى بثقته بالمصير . كما يوحى بالمفاصلة وافتراق الطريق ..

* * *

ويسدل الستار هنا . على هذه الكلمة الأخيرة الفاصلة وعلى هذا الافتراق والمفاصلة ، ليرفع هناك على مصرع القوم . وعلى مشهدهم جاثمين فى ديارهم ، أخذتهم الصاعقة التى أخذت قوم صالح ، فكان مصيرهم كمصيرهم ، خلت منهم الدور ، كأن لم يكن لهم فيها دور ، وكأن لم يعمروها حيناً من الدهر مضوا مثلهم مشيعين باللعنة ، طويت صفحتهم فى الوجود وصفحتهم فى القلوب :

« ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا ، وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين ، كأن لم يغنوا فيها . ألا بعداً لمدين . كما بعدت ثمود ... » .

وطويت صفحة أخرى من الصفحات السود ، حق فيها الوعيد على من كذبوا بالوعيد

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ، وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ * يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ،

Marfat.com

وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ! * وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ . بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ » ⑨٩

وخاتمة ذلك القصص هـذه الإشارة إلى قصة موسى مع فرعون ، لتسجيل نهاية فرعون وملئه ، ونهاية قومه الذين ائتمروا بأمره . وتتضمن هذه الإشارة العابرة إيماءات كثيرة إلى وقائع القصة التي لم تذكر هنا ، كما تضم مشهدا من مشاهد القيامة الحية المتحركة . وهذا وذلك إلى تقرير مبدأ رئيسي من مبادىء الإسلام . مبدأ التبعة الفردية التي لا يسقطها اتباع الرؤساء والكبراء ..

* * *

ويبدأ المشهد المعروض هنا بإرسال موسى بالآيات مزودا بقوة من الله وسلطان ، إلى فرعون ذى السلطان وكبراء قومه .

« ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه » ..

ويحمل السياق خطوات القصة كلها ليصل إلى نهايتها ، فإذا هم يتبعون أمر فرعون ، ويعصون أمر الله . على مافى أمر فرعون من حماقة وجهل وشطط :

« فاتبعوا أمر فرعون . وما أمر فرعون برشيد » ..

ولما كانوا تبعا لفرعون فى هذا الأمر ، يمشون خلفه . ويتبعون خطواته الضالة بلا تدبر ولا تفكر ، ودون أن يكون لهم رأى ، مستهينين بأنفسهم ، متخلين عن تكريم الله لهم الإرادة والعقل وحرية الاتجاه واختيار الطريق .. لما كانوا كذلك فإن السياق يقرر أن فرعون يقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعا :

« يقدم قومه يوم القيامة » .

وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضى ووعدا عن المستقبل ، إذا المشهد ينقلب ، وإذا المستقبل ماض قد وقع . وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النار وانتهى :

« فأوردهم النار » !!

Marfat.com

أوردهم كما يورد الراعى قطيع الغنم . ألم يكونوا قطيعا يسير بدون تفكير ؟ ألم يتنازلوا عن أخص خصائص الآدمية وهى حرية الإرادة والاختيار؟ فأوردهم النار . ويابئساه من ورد لا يروى غلة ، ولا يشفى صدى ، إنما يشوى البطون والقلوب :

« وبئس الورد المورود ! »

وإذا ذلك كله . قيادة فرعون لهم ، وإيرادهم موردهم . إذا ذلك كله حكاية تروى ، ويعلق عليها :

« وأتبعوا فى هذه لعنة ويوم القيامة » ..

ويسخر منها ويتهكم عليها :

« بئس الرفد المرفود » ..

فهذه النار هى الرفد والعطاء والمنة التى رفد بها فرعون قومه ! ! ! ألم يعد السحرة عطاء جزيلا ورفدا مرفودا . . فهاهو ذا رفده لمن اتبعه . . النار . . وبئس الورد المورود . وبئس الرفد المرفود !

وذلك من بدائع التعبير والتصوير فى هذا الكتاب العجيب ..

« ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ .

« إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ . ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ ، وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ * وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ * يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ ، لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ - إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ - إِنَّ رَبَّكَ

Marfat.com

فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ـ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ـ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ .

« فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ، مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ، وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ * وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ، وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ * وَإِنَّ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ، إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ .

« فَاسْتَقِمْ ـ كَمَا أُمِرْتَ ـ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ، وَلَا تَطْغَوْا ، إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ، وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ، ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ * وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ * وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ .

« فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ ـ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ـ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ، وَكَانُوا مُجْرِمِينَ * وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ .

« وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * ـ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ـ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

« وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ؛ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ ، وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ : اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ .

Marfat.com

« وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ، فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ؛ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » ﴿١٢٣﴾

هذه خاتمة السورة . تشتمل على تعليقات وتعقيبات متنوعة ، مبنية على ماسبق في سياق السورة . من المقدمة ومن القصص . وهذه التعليقات والتعقيبات شديدة الاتصال بما سبق من سياق السورة ، متكاملة معه في أداء أهدافها كذلك .

والتعقيب الأول في هذا الدرس تعقيب مباشر على القصص : « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم ، فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء - لما جاء أمر ربك - وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى، وهي ظالمة . إن أخذه أليم شديد » . .

والتعقيب الثاني يتخذ مما نزل بالقرى من عذاب موحيا بالخوف من عذاب الآخرة الذي يعرض في مشهد شاخص من مشاهد يوم القيامة : « إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة . ذلك يوم مجموع له الناس، وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقي وسعيد . فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها مادامت السماوات والأرض - إلا ما شاء ربك - إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض - إلا ماشاء ربك - عطاء غير مجذوذ » .

يليه تعقيب آخر مستمد من عاقبة القرى ومن مشهد القيامة لتقرير أن المشركين الذين يواجههم محمد - صلى الله عليه وسلم - شأنهم شأن من قبلهم في الحالين . وإذا كان عذاب الاستئصال لايقع عليهم في الأرض ، فذلك لكلمة سبقت من ربك إلى أجل كما أجل العذاب لقوم موسى مع اختلافهم فيما جاءهم من كتاب . ولكن هؤلاء وهؤلاء سيوفون أعمالهم على وجه التأكيد . فاستقم أيها الرسول على طريقتك أنت ومن تاب معك ، ولا تركنوا إلى الذين

Marfat.com

ظلموا وأشركوا ، وأقم الصلاة واصبر ، فإن الله لا يضيع أجر المحسنين : « فلاتك فى مرية مما يعبد هؤلاء ـ مايعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل ، وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص . ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ، ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب . فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ومالكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون . وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين » . .

ثم عودة إلى القرون الخالية التى لم يكن فيها إلا قليل من الذين ينهون عن الفساد فى الأرض . أما الكثرة فكانت ماضية فيما هى فيــه ، فاستحقت الهلاك . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلهــا مصلحون : « فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض؛ إلا قليلا ممن أنجينا منهم ، واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » . .

وكشف عن سنة الله فى كون الناس مختلفين فى مناهجهم واتجاهاتهم . ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . ولكن إرادته اقتضت إعطاء البشر قدرا من الاختيار : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم ، وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .

وفى النهاية يسجل السياق غرضا من أغراض هذا القصص هو تثبيت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم ، ويؤمر الرسول أن يلقى للمشركين كلمته الأخيرة ، ويكلهم إلى ما ينتظرهم من غيب الله . وأن يعبد الله ويتوكل عليه . ويدع له أخذ الناس بما يعملون : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك فى هذه الحق ، وموعظة وذكرى للمؤمنين وقل للذين لايؤمنون : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون . وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السماوات والأرض وإليــه يرجع الأمر كله . فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون » . .

***

Marfat.com

« ذلك من أنباء القرى نقصه عليك . منها قائم وحصيد . وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم . فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب . وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة . إن أخذه أليم شديد » . .

ومصارع القوم معروضة ، ومشاهدهم تزحم النفس والخيال ؛ منهم الغارقون في لجة الطوفان الغامر ، ومنهم المأخوذون بالعاصفة المدمرة ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفت به وبداره الأرض ، ومنهم من يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار . وما حل بهم من قبل في الدنيا يخايل الأنظار . . في هذا الموضع وقد بلغ السياق من القلوب والمشاعر أعماقها بتلك المصارع والمشاهد . . هنا يأتي هذا التعقيب :

« ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد » . .

« ذلك من أنباء القرى نقصه عليك » . . فما كان لك به من علم ، إنما هو الوحي ينبئك بهذا الغيب المطمور . وذلك بعض أغراض القصص في القرآن (١) .

« منها قائم » . . لا تزال آثاره تشهد بما بلغ أهله من القوة والعمران ، كبقايا عاد في الأحقاف وبقايا ثمود في الحجر . ومنها « حصيد » كالزرع المحصود . اجتث من فوق الأرض وتعرى وجهها منه ، كما حل بقوم نوح أو قوم لوط .

وما الأقوام ؟ وما العمران ؟ . . إن هي إلا حقول من الأناسي كحقول النبات . غرس منها زكي وغرس منها خبيث ؟ غرس منها ينمو وغرس منها يموت ؟

« وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم » . .

فهم قد عطلوا مداركهم ، وتولوا عن الهدى ، وكذبوا بالآيات ، واستهزأوا بالوعيد ، وصاروا إلى ما صاروا إليه ظالمين لأنفسهم لا مظلومين .

« فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تتبيب » . .

(١) تراجع بتوسع أغراض القصة وفصل القصة والقرآن في كتاب : « التصوير الفني في القرآن » :

Marfat.com

وهذا غرض آخر من أغراض هذا القصص . فقد افتتحت السورة بإنذار الذين يدينون لغير الله سبحانه ؛ وتكرر الإنذار مع كل رسول ؛ وقيل لهم : إن هذه الأرباب المفتراة لا تعصمهم من الله . . فها هى ذى العاقبة تصدق النذر . فلا تغنى عنهم آلهتهم شيئاً ، ولا تدفع عنهم العذاب لما جاء أمر ربك ، بل ما زادتهم هؤلاء الآلهة إلا خسارة ودمارا . (ولفظ تتبيب أقوى ببنائه اللفظى وجرسه المشدد) ذلك أنهم اعتمدوا عليهم ، فزادوا استهتارا وتكذيباً . فزادهم الله نكالا وتدميرا . فهذا معنى « مازادوهم » فهم لا يملكون لهم ضرا كما أنهم لا يملكون لهم نفعاً . ولكن بسببهم كانت الخسارة المضاعفة والتدمير المضاعف والنكال الشديد . .

« وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة » . . .

كذلك الذى قصصناه عليك ، وبمثل هذا الدمار والنكال يأخذ ربك القرى حين يأخذها وهى ظالمة . . ظالمة : مشركة حين تدين لغير الله بالربوبية ، وظالمة لنفسها بالشرك والفساد فى الأرض والإعراض عن دعوة التوحيد والصلاح . وقد ساد فيها الظلم وسيطر الظالمون .

« إن أخذه أليم شديد » . . .

بعد الإمهال والمتاع والابتلاء ، وبعد الإعذار بالرسل والبينات ، وبعد أن يسود الظلم فى الأمة ويسيطر الظالمون . ويتبين أن دعاة الحق المصلحين قلة منعزلة لا تأثير لها فى حياة الجماعة الظالمة السادرة فى الضلال . . ثم . . بعد أن تفاصل العصبة المؤمنة قومها السادرين فى الضلال ؛ وتعتبر نفسها أمة وحدها لها دينها ولها ربها ولها قيادتها المؤمنة ولها ولاؤها الخاص فيما بينها . وتعلن الأمة المشركة من قومها بهذا كله ، وتدعها تلاقى مصيرها الذى يقدره الله لها . وفق سنته التى لاتتخلف على مدار الزمان .

* * *

ذلك الأخذ الأليم الشديد فى الدنيا علامة على عذاب الآخرة ، يراها من يخافون عذاب الآخرة ، أى الذين تفتحت بصائرهم ليدركوا أن الذى يأخذ القرى بظلمها فى هذه الحياة سيأخذها بذنوبها فى الآخرة ، فيخافوا هذا العذاب . . وهنا يعبر السياق بالقلب البشرى

Marfat.com

من مشاهد الأرض إلى مشاهد القيامة على طريقة القرآن فى وصل الرحلتين بلا فاصل فى السياق :

« إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة . ذلك يوم مجموع له الناس ، وذلك يوم مشهود . وما نؤخره إلا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ، فمنهم شقى وسعيد . فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها مادامت السماوات والأرض – إلا ماشاء ربك – إن ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السماوات والأرض – إلا ماشاء ربك – عطاء غير مجذوذ » .

« إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة » . .

ففى ذلك الأخذ الأليم الشديد مشابه من عذاب الآخرة ، تذكر بهذا اليوم وتخيف . . وإن كان لا يراها إلا الذين يخافون الآخرة فتتفتح بصائرهم بهذه التقوى التى تجلو البصائر والقلوب .

والذين لا يخافون الآخرة تظل قلوبهم صماء لا تتفتح للآيات ، ولا تحس بحكمة الخلق والإعادة ، ولا ترى إلا واقعها القريب فى هذه الدنيا . وحتى العبر التى تمر فى هذه الحياة لا تثير فيها عظة ولا فهما .

ثم يأخذ فى وصف ذلك اليوم . .

« ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود » . .

وهنا يرتسم مشهد التجميع يشمل الخلق جميعا ، على غير إرادة منهم ، إنما هو سوق الجميع سوقا إلى ذلك المعرض المشهود ، والكل يحضر والكل ينتظر ماسوف يكون . .

« يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه » . .

فالصمت الهائل يغشى الجميع ، والرهبة الشاملة تخيم على المشهد ومن فيه . والكلام بإذن لا يجرؤ أحد على طلبه ، ولكن يؤذن لمن شاء الله فيخرج من صمته بإذنه . . ثم تبدأ عملية الفرز والتوزيع :

« فمنهم شقى وسعيد » . .

Marfat.com

ومن خلال التعبير نشهد : « الذين شقوا » نشهدهم فى النار مكروبى الأنفاس « لهم فيها زفير وشهيق » من الحر والكتمة والضيق . ونشهد « الذين سعدوا » نشهدهم فى الجنة لهم فيها عطاء دائم غير مقطوع ولا ممنوع ..

هؤلاء وأولئك خالدون حيث هم « مادامت السماوات والأرض » . وهو تعبير يلقى فى الذهن صفة الدوام والاستمرار . والتعبيرات ظلال . وظل هذا التعبير هنا هو المقصود .

وقد علق السياق هذا الاستمرار بمشيئة الله فى كلتا الحالتين . وكل قرار وكل سنة معلقة بمشيئة الله فى النهاية . فمشيئة الله هى التى اقتضت السنة وليست مقيدة بها ولا محصورة فيها . إنما هى طليقة تبدل هذه السنة حين يشاء الله :

« إن ربك فعال لما يريد » . .

وزاد السياق فى حالة الذين سعدوا ما يطمئنهم إلى أن مشيئة الله اقتضت أن يكون عطاؤه لهم غير مقطوع ، حتى على فرض تبديل إقامتهم فى الجنة . وهو مطلق فرض يذكر لتقرير حرية المشيئة بعد ما يوهم التقييد .

* * *

بعد هذا الاستطراد إلى المصير فى الآخرة ، بمناسبة عرض مصائر الأقوام فى الدنيا ، والمشابه بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، وتصوير ما ينتظر المكذبين هنا أو هناك ، أو هنا ثم هناك .. يعود السياق بما يستفاد من القصص ومن المشاهد إلى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقلة المؤمنة معه فى مكة ـ تسرية وتثبيتا ؛ وإلى المكذبين من قومه بيانا وتحذيرا . فليس هناك شك فى أن القوم يعبدون ما كان آباؤهم يعبدون ـ شأنهم شأن أصحاب ذلك القصص وأصحاب تلك المصائر ـ ونصيبهم الذى يستحقونه سيوفونه . فإن كان قد أخر عنهم فقد أخر عذاب الاستئصال عن قوم موسى ـ بعد اختلافهم فى دينهم ـ لأمر قد شاءه الله فى إنظارهم . ولكن قوم موسى وقوم محمد على السواء سيوفون ما يستحقون ، بعد الأجل ، وفى الموعد المحدود . ولم يؤخر عنهم العذاب لأنهم على الحق . فهم على الباطل الذى كان عليه آباؤهم بكل تأكيد .

« فلاتك فى مرية مما يعبد هؤلاء . مايعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل . وإنا لموفوهم

Marfat.com

نصيبهم غير منقوص . ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه . ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم . وإنهم لفى شك منه مريب . وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمالهم . إنه بما يعملون خبير » . .

لايتسرب إلى نفسك شك فى فساد عبادة هؤلاء . والخطاب للرسول - صلى الله عليه وسلم - والتحذير لقومه . وهذا الأسلوب أفعل فى النفس أحيانا ، لأنه يوحى بأنها قضية موضوعية بينها الله لرسوله ، وليست جدالا مع أحد ، ولاخطابا للمتلبسين بها ، إهمالا لهم وقلة احتفال بهم ! وعندئذ يكون لتلك الحقيقة الخالصة المجردة أثرها فى اهتمامهم أكثر مما لو خوطبوا بها خطابا مباشرا . .

« فلاتك فى مرية مما يعبد هؤلاء . مايعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل » . .

ومصيرهم إذن كمصيرهم . . العذاب . . ولكنه يلفه كذلك فى التعبير تمشيا مع الأسلوب :

« وإنا لموفوهم نصيبهم غير منقوص » . .

ومعروف نصيبهم هذا من نصيب القوم قبلهم . وقد رأينا منه نماذج ومشاهد !

وقد لايصيبهم عذاب الاستئصال - فى الدنيا - كما لم يصب قوم موسى :

« ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه » . .

وتفرقت كلمتهم واعتقاداتهم وعباداتهم . ولكن كلمة سبقت من الله أن يكون حسابهم الكامل يوم القيامة :

« ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم » . .

والحكمة ما سبقت هذه الكلمة ، ولم يحل عذاب الاستئصال بهم ، لأن لهم كتابا ، والذين لهم كتاب من أتباع الرسل كلهم مؤجلون إلى يوم القيامة ، لأن الكتاب دليل هداية باق ، تستطيع الأجيال أن تتدبره كالجيل الذى أنزل فيه . والأمر ليس كذلك فى الخوارق المادية التى لا يشهدها إلا جيل ، فإما أن يؤمن بها وإما أن لا يؤمن فيأخذه العذاب . . والتوراة والإنجيل كتابان متكاملان يظلان معروضين للأجيال حتى يجئ الكتاب الأخير ، مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل فيصبح هو الكتاب الأخير

Marfat.com

للناس جميعا يدعى إليه الناس جميعا ، ويحاسب على أساسه الناس جميعا ، بمافيهم أهـل التوراة وأهـل الإنجيـل . « وإنهم » . . أى قوم موسى . . « لفى شك منـه مريب » . . من كتاب موسى ، لأنه لم يكتب إلا بعـد أجيال ، وتفرقت فيـه الروايات واضطربت ، فلا يقين فيه لمتبعيه .

وإذا كان العذاب قد أجل . . فإن الـكل سيوفون أعمالهم خـيرها وشرها . سيوفيهم بها العليم الخبير بها ولن تضيع :

« وإن كلا لما ليوفينهم ربك أعمـالهم . إنه بما يعملون خبـير » وفى التعبير توكيدات منوعـة حتى لا يشك أحـد فى الجزاء والوفاء من جراء الإنظار والتأجيـل . وحتى لايشك أحد فى أن ماعليه القوم هو الباطل الذى لاشك فى بطلانه ، وأنه الشرك الذى زاوله من قبل كل المشركين . .

ولقد كان لهذه التوكيدات مايقتضيها من واقع الحركة فى تلك الفترة . فقد وقف المشركون وقفتهم العنيدة منها ومن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والقلة المؤمنة معه ، وتجمدت الدعوة على وجه التقريب . بينما عذاب الله الموعود مؤجل لم يقع بعـد . والأذى ينزل بالعصبة المؤمنـة ويعضى أعداؤها ناجين ! . . إنها فترة تهتز فيها بعض القلوب . وحتى القلوب الثابتـة تنالها الوحشة ، وتحتاج إلى مثل هذه التسرية وإلى مثل هذا التثبيت .

وتثبيت القلوب المؤمنة لايكون بشىء كما يكون بتوكيد أن أعداءها هم أعداء الله ، وأنهم على الباطل الذى لاشك فيه !

كذلك لا يكون تثبيت القلوب المؤمنة بشىء كما يكون بجلاء حكمة الله فى إمهال الظالمين ، وإرجاء الطغاة إلى يوم معلوم ، ينالون فيه جزاءهم ولا يفلتون !

وهكذا نلمح مقتضيات الحركة بهـذه العقيدة فى النصوص القرآنية ، ونرى كيف يخوض القرآن المعركة بالجماعة المسلمة ، وكيف يكشف لها معالم الطريق !

* * *

ذلك البيان مع هـذا التوكيد يلقى فى النفس أن سنة الله ماضية على استقامتها فى خلقه وفى

Marfat.com

دينه وفى وعده وفى وعيده . وإذن فليستقم المؤمنون بدين الله والداعون له على طريقتهم – كما أمروا – لايغلون فى الدين ولا يزيدون فيه ، ولا يركنون إلى الظالمين مهما تكن قوتهم ، ولا يدينون لغير الله مهما طال عليهم الطريق . ثم يتزودون بزاد الطريق ، ويصبرون حتى تتحقق سنة الله عندما يريد .

« فاستقم كما أمرت – ومن تاب معك – ولا تطغوا . إنه بما تعملون بصير . ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لاتنصرون . وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين ، واصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين » . .

هذا الأمر للرسول – صلى الله عليه وسلم – ومن تاب معه :

« فاستقم كما أمرت » . . أحس – عليه الصلاة والسلام – برهبته وقوته حتى روى عنه أنه قال مشيرا إليه : « شيبتنى هود . . . » . فالاستقامة : الاعتدال والمضى على النهج دون انحراف . وهو فى حاجة إلى اليقظة الدائمة ، والتدبر الدائم ، والتحرى الدائم لحدود الطريق ، وضبط الانفعالات البشرية التى تميل الاتجاه قليلا أو كثيرا . . ومن ثم فهى شغل دائم فى كل حركة من حركات الحياة .

وإنه لما يستحق الانتباه هنا أن النهى الذى أعقب الأمر بالاستقامة ، لم يكن نهيا عن القصور والتقصير ، إنما كان نهيا عن الطغيان والمجاوزة . وذلك أن الأمر بالاستقامة وما يتبعه فى الضمير من يقظة وتحرج قد ينتهى إلى الغلو والمبالغة التى تحول هذا الدين من يسر إلى عسر . والله يريد دينه كما أنزله ، ويريد الاستقامة على ما أمر دون إفراط ولا غلو . فالإفراط والغلو يخرجان هذا الدين عن طبيعته كالتفريط والتقصير . وهى التفاتة ذات قيمة كبيرة ، لإمساك النفوس على الصراط ، بلا انحراف إلى الغلو أو الإهمال على السواء . .

« إنه بما تعملون بصير » . .

والبصر – من البصيرة – مناسب فى هذا الموضع ، الذى تتحكم فيه البصيرة وحسن الإدراك والتقدير . .

Marfat.com

فاستقم - أيها الرسول - كما أمرت . ومن تاب معك . . .

« ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » . .

لا تستندوا ولا تطمئنوا إلى الذين ظلموا . إلى الجبارين الطغاة الظالمين ، أصحاب القوة فى الأرض ، الذين يقهرون العباد بقوتهم ويعبدونهم لغير الله من العبيد . . لا تركنوا إليهم فإن ركونكم إليهم يعنى إقرارهم على هذا المنكر الأكبر الذى يزاولونه ، ومشاركتهم إثم ذلك المنكر الكبير .

« فتمسكم النار » . .

جزاء هذا الانحراف .

« وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » . .

والاستقامة على الطريق فى مثل هذه الفترة أمر شاق عسير يحتاج إلى زاد يعين . .

والله - سبحانه - يرشد رسوله - صلى الله عليه وسلم - ومن معه من القلة المؤمنة إلى زاد الطريق :

« وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل » .

ولقد علم الله أن هذا هو الزاد الذى يبقى حين يفنى كل زاد ، والذى يقيم البنية الروحية ، ويمسك القلوب على الحق الشاق التكاليف . ذلك أنه يصل هذه القلوب بربها الرحيم الودود ، القريب المجيب ؛ وينسم عليها نسمة الأنس فى وحشتها وعزلتها فى تلك الجاهلية النكدة الكنود !

والآية هنا تذكر طرفى النهار - وهما أوله وآخره . وزلفا من الليل أى قريبا من الليل . وهذه تشمل أوقات الصلاة المفروضة دون تحديد عددها . والعدد محدد بالسنة ومواقيته كذلك .

والنص يعقب على الأمر بإقامة الصلاة - أى أدائها كاملة مستوفاة - بأن الحسنات يذهبن السيئات . وهو نص عام يشمل كل حسنة ، والصلاة من أعظم الحسنات ، فهى داخلة فيه بالأولوية . لا أن الصلاة هى الحسنة التى تذهب السيئة بهذا التحديد - كما ذهب بعض المفسرين - :

« ذلك ذكرى للذاكرين » . . .

فالصلاة ذكر فى أساسها ومن ثم ناسبها هذا التعقيب . .

Marfat.com

والاستقامة فى حاجة إلى الصبر . كما أن انتظار الأجل لتحقيق سنة الله فى المكذبين يحتاج إلى الصبر . . ومن ثم كان التعقيب على الأمر بالاستقامة وعلى ماسبقه فى السياق هو :

« واصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين » . .

والاستقامة إحسان . وإقامة الصلاة فى أوقاتها إحسان . والصبر على كيد التكذيب إحسان . . . والله لايضيع أجر المحسنين . . .

* * *

ثم يعود السياق إلى تكملة التعليق والتعقيب على مصارع القرى والقرون . فيشير من طرف خفى إلى أنه لو كان فى هذه القرون أولو بقية يستبقون لأنفسهم الخير عند الله ، فينهون عن الفساد فى الأرض ، ويصدون الظالمين عن الظلم ، ما أخذ تلك القرى بعذاب الاستئصال الذى حل بها ، فإن الله لا يأخذ القرى بالظلم إذا كان أهلها مصلحين ، أى إذا كان للمصلحين من أهلها قدرة يصدون بها الظلم والفساد . إنما كان فى هذه القرى قلة من المؤمنين لا نفوذ لهم ولا قوة ، فأنجاهم الله . وكان فيها كثرة من المترفين وأتباعهم والخانعين لهم ، فأهلك القرى بأهلها الظالمين :

« فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ! إلا قليلا ممن أنجينا منهم . واتبع الذين ظلموا ماأترفوا فيه وكانوا مجرمين . وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » . .

وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله فى الأمم . فالأمة التى يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله ، فى صورة من صوره ، فيجد من ينهض لدفعه هى أمم ناجية ، لايأخذها الله بالعذاب والتدمير . فأما الأمم التى يظلم فيها الظالمون ، ويفسد فيها المفسدون ، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد ، أو يكون فيها من يستنكر ، ولكنه لايبلغ أن يؤثر فى الواقع الفاسد ، فإن سنة الله تحق عليها ، إما بهلاك الاستئصال . وإما بهلاك الانحلال .. والاختلال !

فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده ، وتطهير الأرض من الفساد الذى يصيبها بالدينونة لغيره ، هم صمام الأمان للأمم والشعوب .. وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله

Marfat.com

وحده ، الواقفين للظلم والفساد بكل صوره .. إنهم لا يؤدون واجبهم لربهم ولدينهم فحسب ، إنما يحولون بهذا دون أممهم وغضب الله ، واستحقاق النكال والضياع ..

* * *

والتعقيب الأخير عن اختلاف البشر إلى الهدى وإلى الضلال ، وسنة الله المستقيمة فى اتجاهات خلقه إلى هذ أو ذاك :

« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة . ولا يزالون مختلفين . ـ إلا من رحم ربك ـ ولذلك خلقهم . وتمت كلمة ربك : لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » ..

لو شاء الله لخلق الناس كلهم على نسق واحد ، وباستعداد واحد .. نسخا مكرورة لاتفاوت بينها ولاتنويع فيها . وهذه ليست طبيعة هذه الحياة المقدرة على هذه الأرض . وليست طبيعة هذا المخلوق البشرى الذى استخلفه الله فى الأرض .

ولقد شاء الله أن تتنوع استعدادات هذا المخلوق واتجاهاته . وأن يوهب القدرة على حرية الاتجاه . وأن يختار هو طريقه ، ويحمل تبعة الاختيار . ويجازى على اختياره للهدى أو للضلال .. هكذا اقتضت سنة الله وجرت مشيئته . فالذى يختار الهدى كالذى يختار الضلال سواء فى أنه تصرف حسب سنة الله فى خلقه ، ووفق مشيئته فى أن يكون لهذا المخلوق أن يختار ، وأن يلقى جزاء منهجه الذى اختار .

شاء الله ألا يكون الناس أمة واحدة . فكان من مقتضى هذا أن يكونوا مختلفين . وأن يبلغ هذا الاختلاف أن يكون فى أصول العقيدة ـ إلا الذين أدركتهم رحمة الله ـ الذين اهتدوا إلى الحق ـ والحق لا يتعدد ـ فاتفقوا عليه . وهذا لا ينفى أنهم مختلفون مع أهل الضلال .

ومن المقابل الذى ذكره النص :

« وتمت كلمة ربك : لأملأن جهنم من الجنة والناس اجمعين » ..

يفهم أن الذين اتفقوا على الحق وأدركتهم رحمة الله لهم مصير آخر هو الجنة تمتلىء بهم

Marfat.com

كما تلتقي جهنم بالضالين المختلفين مع أهل الحق ، والمختلفين فيما بينهم على صنوف الباطل ومناهجه الكثيرة !

* * *

والخاتمة الأخيرة . خطاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن حكمة سوق القصص إليه في خاصة نفسه وللمؤمنين . فأما الذين لايؤمنون فليلق إليهم كلمته الأخيرة ، وليفاصلهم مفاصلة حاسمة ، وليخل بينهم وبين ماينتظرهم في غيب الله . ثم ليعبد الله ويتوكل عليه ، ويدع القوم لما يعملون ..

« وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لايؤمنون : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ، وانتظروا إنا منتظرون . ولله غيب السماوات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون » ..

وبالله الرسول - صلى الله عليه وسلم - لقد كان يجد من قومه ، ومن انحرافات النفوس ، ومن أعباء الدعوة ، مايحتاج معه إلى التسلية والتسرية والتثبيت من ربه - وهو الصابر الثابت المطمئن إلى ربه - :

« وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك » ..

« وجاءك في هذه الحق » ..

أي في هذه السورة .. الحق من أمر الدعوة ، ومن قصص الرسل ، ومن سنن الله ، ومن تصديق البشرى والوعيد .

« وموعظة وذكرى للمؤمنين » ..

تعظهم بما سلف في القرون وتذكرهم بسنن الله وأوامره ونواهيه .

فأما الذين لايؤمنون بعد ذلك فلا موعظة لهم ولا ذكرى . وإنما الكلمة الفاصلة ، والمفاصلة الحاسمة :

« وقل للذين لايؤمنون : اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون » ..

Marfat.com

كما قال أخ لك ممن سبق قصصهم فى هذه السورة لقومه ثم تركهم لمصيرهم يلاقونه .. وما ينتظرونه غيب من غيب الله :

« ولله غيب السماوات والأرض » ..

والأمر كله إليه . أمرك وأمر المؤمنين ، وأمر الذين لا يؤمنون . وأمر هذا الخلق كله ما كان فى غيبه وما سيكون .

« فاعبده » ..

فهو الجدير وحده بالعبادة والدينونة .

« وتوكل عليه » ..

فهو الولى وحده والنصير . وهو العليم بما تعملون من خير وشر ، ولن يضيع جزاء أحد :

« وما ربك بغافل عما تعملون » ..

* * *

وهكذا تختم السورة التى بدئت بالتوحيد فى العبادة ، والتوبة والإنابة والرجعة إلى الله فى النهاية . بمثل مابدئت به من عبادة الله وحده والتوجه إليه وحده . والرجعة إليه فى نهاية المطاف . وذلك بعد طول التطواف فى آفاق الكون وأغوار النفس وأطواء القرون ..

وهكذا يلتقى جمال التنسيق الفنى فى البدء والختام ، والتناسق بين القصص والسياق . بكمال النظرة والفكرة والاتجاه فى هذا القرآن . ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ..

* * *

وبعد . فإن المتتبع لسياق هذه السورة كلها ــ بل المتتبع للقرآن المكى كله ــ يجد أن هنالك خطا أصيلا ثابتا عريضا عميقا ، هو الذى ترتكز عليه ؛ وهو المحور الذى تدور حوله ؛ وإليه ترجع سائر خطوطها ، وإليه تشد جميع خيوطها كذلك .. إنه خط العقيدة الذى يرتكز إليه هذا الدين كله .. وإنه محور العقيدة الذى يدور عليه هذا المنهج الربانى لحياة البشرية جملة وتفصيلا ..

Marfat.com

ونحتاج - فى التعقيب الإجمالى على هذه السورة - أن نقف وقفات إجمالية كذلك على ذلك الخط وعلى هذا المحور - كما يتجلى فى سياق السورة - وبعضها مما يكون قد سبق لنا الوقوف عنده شيئاما . ولكننا فى هذا التعقيب الإجمالى سنحتاج إلى الإلمام به ، ربطا لأجزاء هذا التعقيب الأخير :

* * *

إن الحقيقة الأولى البارزة فى سياق السورة كله . . سواء فى مقدمتها التى تعرض مضمون الكتاب الذى أرسل به محمد - صلى الله عليه وسلم - أو فى القصص الذى يعرض خط الحركة بالعقيدة الإسلامية على مدى التاريخ البشرى . أو فى التعقيب الختامى الذى يوجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مواجهة المشركين بالنتائج النهائية المستخلصة من هذا القصص ومن مضمون الكتاب الذى جاءهم به فى النهاية . .

إن الحقيقة الأولى البارزة فى سياق السورة كله . . هى التركيز على الأمر بعبادة الله وحده، والنهى عن عبادة غيره . . وتقرير أن هذا هو الدين كله . . وإقامة الوعد والوعيد ، والحساب والجزاء ، والثواب والعقاب ، على هذه القاعدة الواحدة الشاملة العريضة . . كما أسلفنا فى تقديم السورة وفى مواضع متعددة من تفسيرها . .

فبقى هنا أن نجلى أولا طريقة المنهج القرآنى فى تقرير هذه الحقيقة ، وقيمة هذه الطريقة :

إن حقيقة توحيد العبادة لله ترد فى صيغتين هكذا :

« ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره . . . » . .

« ألا تعبدوا إلا الله ، إنى لكم منه نذير وبشير . . . » . .

وواضح اختلاف الصيغتين بين الأمر والنهى . . فهل مدلولهما واحد ؟ . إن مدلول الصيغة الأولى : الأمر بعبادة الله ، وتقرير أن ليس هناك إله يعبد سواه . . ومدلول الصيغة الثانية : النهى عن عبادة غير الله . .

والمدلول الثانى هو مقتضى للمدلول الأول ومفهومه . . ولكن الأول « منطوق » والآخر

Marfat.com

« مفهوم » . . ولقد اقتضت حكمة الله ـ فى بيان هذه الحقيقة الكبيرة ـ عدم الاكتفاء بالمفهوم ، فى النهى عن عبادة غير الله . وتقرير هذا النهى عن طريق منطوق مستقل . وإن كان مفهوما ومتضمنا فى الأمر الأول !

إن هذا يعطينا إيحاء عميقا بقيمة تلك الحقيقة الكبيرة ، ووزنها فى ميزان الله سبحانه ، بحيث تستحق ألا توكل إلى المفهوم المتضمن فى الأمر بعبادة الله وتقرير أن لا إله يعبد سواه ؛ وأن يرد النهى عن عبادة سواه فى منطوق مستقل يتضمن النهى بالنص المباشر لا بالمفهوم المتضمن ؛ ولا بالمقتضى اللازم !

كذلك تعطينا طريقة المنهج القرآنى فى تقرير تلك الحقيقة بشطريها . . عبادة الله . وعدم عبادة سواه . . أن النفس البشرية فى حاجة إلى النص القاطع على شطرى هذه الحقيقة سواء . وعدم الاكتفاء معها بالأمر بعبادة الله وتقرير أن لا إله يعبد سواه ؛ وإضافة النهى الصريح عن عبادة سواه إلى المفهوم الضمنى الذى يتضمنه الأمر بعبادته وحده . . ذلك أن الناس يجيء عليهم زمان لا يجحدون الله ، ولا يتركون عبادته ، ولكنهم ـ مع هذا ـ يعبدون معه غيره ؛ فيقعون فى الشرك وهم يحسبون أنهم مسلمون !

ومن ثم جاء التعبير القرآنى عن حقيقة التوحيد بالأمر وبالنهى معاً ؛ بحيث يؤكد أحدهما الآخر ، التوكيد الذى لا تبقى معه ثغرة ينفذ منها الشرك فى صورة من صوره الكثيرة . .

وقد تكرر مثل هذا فى التعبير القرآنى فى مواضع شتى ؛ هذه نماذج منها من هذه السورة ومن سواها :

• « الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير : ألا تعبدوا إلا الله ، إننى لكم منه نذير وبشير » . . . (هود : ١ ـ ٢)

• « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه : إنى لكم نذير مبين : ألا تعبدوا إلا الله ، إنى أخاف عليكم عذاب يوم أليم » . . . (هود : ٢٥ ـ ٢٦)

• « وإلى عاد أخاهم هودا ، قال : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، إن أنتم إلا مفترون » . . . (هود : ٥٠)

Marfat.com

- « وقال الله : لا تتخذوا إلهين اثنين . إنما هو إله واحد . فإياى فارهبون » . . .
(النحل : ٥١)

- « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا . ولكن كان حنيفا مسلما . وما كان من المشركين » . . .
(آل عمران : ٦٧)

- « إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا . وما أنا من المشركين » . . .
(الأنعام : ٧٩)

وهو منهج مطرد فى التعبير القرآنى عن حقيقة التوحيد ، له دلالته من غير شك . سواء فى تجلية قيمة هذه الحقيقة وضخامتها التى تستدعى ألا توكل فى أى جانب من جوانبها إلى المفهومات الضمنية والمقتضيات اللازمة ، وإنما ينص نصا منطوقا على كل جانب فيها . أو فى دلالة هذه الطريقة على علم الله - سبحانه - بطبيعة الكائن الإنسانى ، وحاجته فى تقرير هذه الحقيقة الكبيرة وصيانتها فى حسه وتصوره من أية شبهة أو غبش ، إلى التعبير الدقيق عنها على ذلك النحو ، الذى يتجلى فيه القصد والعمد . . ولله الحكمة البالغة . . وهو أعلم بمن خلق ، وهو اللطيف الخبير .

* * *

ثم نقف أمام مدلول مصطلح « العبادة » الوارد فى السورة - وفى القرآن كله - لندرك ماوراء ذلك التركيز على الأمر بعبادة الله وحده ، والنهى عن عبادة غيره . وما وراء هذه العناية فى التعبير عن شطرى هذه الحقيقة فى نص منطوق ، وعدم الاكتفاء بالدلالة الضمنية المفهومة .

لقد جلينا من قبل فى أثناء التعقيب على قصة هود وقومه - فى هذه السورة - ماهو مدلول مصطلح « العبادة » الذى استحق كل هذا التركيز وكل هذه العناية ؛ كما استحق كل ذلك الجهد من رهط الرسل الكرام ، وكل تلك العذابات والآلام التى عاناها الدعاة إلى عبادة الله وحده على مر الأيام(١) . . فالآن نضيف إلى ذلك التعقيب بعض اللمحات :

(١) ص ١٠١ - ص ١٠٤ من هذا الجزء .

Marfat.com

إن إطلاق مصطلح « العبادات » على الشعائر وعلى مايكون بين العبد والرب من تعامل ، فى مقابل إطلاق مصطلح : « المعاملات » على مايكون بين الناس بعضهم وبعض من تعامل . إن هـذا جاء متأخرا عن عصر نزول القرآن الـكريم ؛ ولم يكن هـذا التقسيم معروفا فى العهد الأول .

ولقد كتبنا من قبل فى كتاب « خصائص التصور الإسـلامى ومقوماته » شيئا عن تاريخ هذه المسألة نقتطف منه هذه الفقرات :

« إن تقسيم النشاط الإنسانى إلى « عبادات » و « معاملات » مسألة جاءت متأخرة فى التأليف فى مادة « الفقه » . ومع أنه كان المقصود به ـ فى أول الأمر ـ مجرد التقسيم « الفنى » الذى هو طابع التأليف العلمى ، إلا أنه ـ مع الأسف ـ أنشأ فيما بعد آثارا سيئة فى التصور ، تبعها ـ بعـد فترة ـ آثار سيئة فى الحياة الإسـلامية كلها ؛ إذ جعل يترسب فى تصورات الناس أن صفة « العبادة » إنما هى خاصة بالنوع الأول من النشاط ، الذى يتناوله « فقه العبادات » . [illegible] هـذه الصفة تبهت بالقياس إلى النوع الثـانى من النشاط ، الذى يتناوله « فقه المعاملات » ! وهو انحراف بالتصور الإسلامى لاشك فيه . فلا جرم يتبعه انحراف فى الحياة كلها فى المجتمع الإسلامى .

« ليس فى التصور الإسلامى نشاط إنسانى لاينطبق عليه معنى « العبادة » أو لايطلب فيه تحقيق هذا الوصف . والمنهج الإسلامى كله غايته تحقيق معنى العبادة ، أولا وأخيرا .

« وليس هناك من هدف فى المنهج الإسلامى لنظام الحكم ، ونظام الاقتصاد ، والتشريعات الجنائيـة ، والتشريعات المدنيـة ، وتشريعات الأسرة . . وسـائر التشريعات التى يتضمنها هذا المنهج . . .

« ليس هناك من هدف إلا تحقيق معنى « العبادة » فى حياة الإنسان . . والنشاط الإنسانى لايكون متصفا بهـذا الوصف ، محققا لهـذه الغاية ـ التى يحدد القرآن أنها هى غاية الوجود الإنسانى ـ إلا حين يتم هـذا النشاط وفق المنهج الربانى ؛ فيتم بذلك إفراد الله ـ سبحانه ـ بالألوهية ؛ والاعتراف له وحـده بالعبودية . وإلا فهو خروج عن العبادة . لأنه خروج عن

Marfat.com

العبودية . أى خروج عن غاية الوجود الإنسانى كما أرادها الله . أى خروج عن دين الله !

« وأنواع النشاط التى أطلق عليها الفقهاء اسم « العبادات » وخصوها بهذه الصفة - على غير مفهوم التصور الإسلامى - حين تراجع فى مواضعها فى القرآن ، تتبين حقيقة بارزة لا يمكن إغفالها ، وهى أنها لم تجئ مفردة ولا معزولة عن أنواع النشاط الأخرى التى أطلق عليها الفقهاء اسم « المعاملات » . . إنما جاءت هذه وتلك مرتبطة فى السياق القرآنى ، ومرتبطة فى المنهج التوجيهى . باعتبار هذه كتلك شطرا من منهج « العبادة » التى هى غاية الوجود الإنسانى ، وتحقيقا لمعنى العبودية ، ومعنى إفراد الله - سبحانه - بالألوهية .

« إن ذلك التقسيم - مع مرور الزمن - جعل بعض الناس يفهمون أنهم يملكون أن يكونوا « مسلمين » إذا هم أدوا نشاط « العبادات » - وفق أحكام الإسلام - بينما هم يزاولون كل نشاط « المعاملات » وفق منهج آخر . . لا يتلقونه من الله ولكن من إله آخر . . ! هو الذى يشرع لهم فى شؤون الحياة مالم يأذن به الله !

« وهذا وهم كبير . فالإسلام وحدة لا تنفصم - وكل من يفصمه إلى شطرين - على هذا النحو - فإنما يخرج من هذه الوحدة . أو بتعبير آخر : يخرج من هذا الدين .

« وهذه هى الحقيقة الكبيرة التى يجب أن يلقى باله إليها كل مسلم يريد أن يحقق إسلامه؛ ويريد فى الوقت ذاته أن يحقق غاية وجوده الإنسانى »(١).

فالآن نضيف إلى هذه الفقرات ما قلناه من قبل فى هذا الجزء من أن العربى الذى خوطب بهذا القرآن أول مرة لم يكن يحصر مدلول هذا اللفظ وهو يؤمر به فى مجرد أداء الشعائر التعبدية . . بل إنه يوم خوطب به أول مرة فى مكة لم تكن قد فرضت بعد شعائر تعبدية ! إنما كان يفهم منه عندما يخاطب به أن المطلوب منه هو « الدينونة » لله وحده فى أمره كله ، وخلع الدينونة لغير الله من عنقه فى أمره كله . ولقد فسر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - « العبادة » نصا بأنها « الاتباع » وليست هى الشعائر التعبدية ، وهو يقول لعدى ابن حاتم عن اليهود والنصارى ، واتخاذهم الأحبار والرهبان أربابا : « بلى . إنهم أحلوا لهم الحرام ، وحرموا

(١) ص ١٢٩ - ص ١٣٠ من كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » القسم الأول .

Marfat.com

عليهم الحلال ، فاتبعوهم ، فذلك عبادتهم إياهم » . . إنما أطلقت لفظة « العبادة » على « الشعائر التعبدية » باعتبارها صورة من صور الدينونة لله في شأن من الشؤون . صورة لا تستغرق مدلول العبادة ، بل إنها تجيء بالتبعية لا بالإصالة ! . .

* * *

ولقد قلنا من قبل في هذا الجزء : « إن الواقع أنه لو كانت حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات ؛ وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلها الرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان ! إنما الذي استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد ، وردهم إلى الدينونة لله وحده في كل أمر وفي كل شأن ، وفي منهج حياتهم كله للدنيا وللآخرة سواء .

« إن توحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد القوامة ، وتوحيد الحاكمية ، وتوحيد مصدر الشريعة ، وتوحيد منهج الحياة ، وتوحيد الجهة التي يدين لها الناس الدينونة الشاملة . إن هذا التوحيد هو الذي يستحق أن يرسل من أجله كل هؤلاء الرسل ، وأن تبذل في سبيله كل هذه الجهود ، وأن تحتمل لتحقيقه كل هذه العذابات والآلام على مدار الزمان . لا لأن الله سبحانه في حاجة إليه . فالله سبحانه غني عن العالمين . ولكن لأن حياة البشر لا تصلح ولا تستقيم ولا ترتفع ولا تصبح حياة لائقة بالإنسان . إلا بهذا التوحيد الذي لا حد لتأثيره في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء » . .

وقد وعدنا هناك أن نزيد هذا الأمر بيانا في هذا التعقيب الختامي الأخير .

فالآن نبين إجمالا قيمة حقيقة التوحيد في الحياة البشرية في كل جوانبها على السواء :

• ننظر ابتداء إلى أثر حقيقة التوحيد - على هذا النحو الشامل - في كيان الكائن الإنساني نفسه من ناحية وجوده الذاتي ، وحاجته الفطرية ، وتركيبه الإنساني . . أثرها في تصوره . وأثر هذا التصور في كيانه :-

Marfat.com

« إن هذا التصور إذ يتناول الأمر على هذا النحو الشامل - بكل معانى الشمول - يخاطب الكينونة البشرية بكل جوانبها ، وبكل أشواقها ، وبكل حاجاتها ، وبكل اتجاهاتها ، ويردها إلى جهة واحدة تتعامل معها ، جهة تطلب عندها كل شيء ، وتتوجه إليها بكل شيء . جهة واحدة ترجوها وتخشاها ، وتتقى غضبها وتبتغى رضاها . جهة واحدة تملك لها كل شيء ، لأنها خالقة كل شيء ، ومالكة كل شيء ، ومدبرة كل شيء .

« كذلك يرد الكينونة الإنسانية إلى مصدر واحد ، تتلقى منه تصوراتها ومفاهيمها ، وقيمها وموازينها ، وشرائعها وقوانينها . وتجد عنده إجابة عن كل سؤال يجيش فيها وهى تواجه الكون والحياة والإنسان ، بكل مايثيره كل منها من علامات الاستفهام .

« عندئذ تتجمع هذه الكينونة .. تتجمع شعورا وسلوكا ، وتصورا واستجابة . فى شأن العقيدة والنهج . وشأن الاستمداد والتلقى وشأن الحياة والموت . وشأن السعى والحركة . وشأن الصحة والرزق . وشأن الدنيا والآخرة . فلا تتمزق مزقا ؛ ولا تتجه إلى شتى السبل والآفاق ؛ ولا تسلك شتى الطرق على غير اتفاق !

« والكينونة الإنسانية حين تتجمع على هذا النحو ، تصبح فى خير حالاتها ، لأنها تكون حينئذ فى حالة « الوحدة » التى هى طابع الحقيقة فى كل مجالاتها .. فالوحدة هى حقيقة الخالق - سبحانه - والوحدة هى حقيقة هذا الكون - على تنوع المظاهر والأشكال والأحوال - والوحدة هى حقيقة الحياة والأحياء - على تنوع الأنواع والأجناس - والوحدة هى حقيقة الإنسان - على تنوع الأفراد والاستعدادات - والوحدة هى غاية الوجود الإنسانى - وهى العبادة - على تنوع مجالات العبادة وهيئاتها - وهكذا حيثما بحث الإنسان عن الحقيقة فى هذا الوجود ..

« وحين تكون الكينونة الإنسانية فى الوضع الذى يطابق « الحقيقة » فى كل مجالاتها ، تكون فى أوج قوتها الذاتية ؛ وفى أوج تناسقها - كذلك - مع « حقيقة » هذا الكون الذى تعيش فيه ، وتتعامل معه ؛ ومع « حقيقة » كل شيء فى هذا الوجود ، مما تتأثر به وتؤثر فيه .. وهذا التناسق هو الذى يتيح لها أن تنشىء أعظم الآثار ، وأن تؤدى أعظم الأدوار .

Marfat.com

« وحينما بلغت هذه الحقيقة أوجها فى المجموعة المختارة من المسلمين الأوائل ، صنع الله بها فى الأرض أدوارا عميقة الآثار فى كيان الوجود الإنسانى ، وفى كيان التاريخ الإنسانى ..

« وحين توجد هذه الحقيقة مرة أخرى – وهى لابد كائنة بإذن الله – سيصنع الله بها الكثير ، مهما يكن فى طريقها من العراقيل . ذلك أن وجود هذه الحقيقة فى ذاته ينشئ قوة لاتقاوم ؛ لأنها من صميم قوة هذا الكون ؛ وفى اتجاه قوة المبدع لهذا الكون أيضا .

« . . . إن هذه الحقيقة ليست أهميتها فقط فى تصحيح التصور الإيمانى . وإن كان هذا التصحيح فى ذاته غاية ضخمة يقوم عليها بناء الحياة كله – بل إن أهميتها كذلك فى حسن تذوق الحياة ، وبلوغ هذا التذوق أعلى درجات الكمال والتناسق . فقيمة الحياة الإنسانية ذاتها ترتفع حين تصبح كلها عبادة لله ؛ وحين يصبح كل نشاط فيها – صغر أم كبر – جزءا من هذه العبادة ؛ أو كل العبادة ، متى نظرنا إلى المعنى الكبير الكامن فيه . وهو إفراد الله – سبحانه – بالألوهية والإقرار له وحده بالعبودية . . هذا المقام الذى لايرتفع الإنسان إلى ما هو أعلى منه ؛ ولا يبلغ كماله الإنسانى إلا فى تحقيقه . وهو المقام الذى نافه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى أعلى مقاماته التى ارتقى إليها . مقام تلقى الوحى من الله . ومقام الإسراء أيضا :

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » ... (الفرقان : ١)

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله . لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير ».... (الاسراء : ١)(١) .

● وننتقل إلى قيمة أخرى من قيم توحيد العبادة بمعنى الدينونة لله وحده وآثارها فى الحياة الإنسانية :

إن الدينونة لله تحرر البشر من الدينونة لغيره ؛ وتخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله

---

(١) عن كتاب : « خصائص التصور الإسلامى ومقوماته » القسم الأول . فصل : « الشمول » ص ١٢٦ – ص ١٣١ مقتطفات .

Marfat.com

وحده . وبذلك يحقق للإنسان كرامته الحقيقية وحريته الحقيقية ، هذه الحرية وتلك الكرامة اللتان يستحيل ضمانهما في ظل أي نظام آخر - غير النظام الإسلامي - يدين فيه الناس بعضهم لبعض بالعبودية ، في صورة من صورها الكثيرة .. سواء عبودية الاعتقاد ، أو عبودية الشعائر ، أو عبودية الشرائع .. فكلها عبودية ؛ وبعضها مثل بعض ؛ تخضع الرقاب لغير الله ؛ بإخضاعها للتلقي في أي شأن من شئون الحياة لغير الله .

والناس لا يملكون أن يعيشوا غير مدينين ! لابد للناس من دينونة . والذين لا يدينون لله وحده يقعون من فورهم في شر ألوان العبودية لغير الله ؛ في كل جانب من جوانب الحياة !

إنهم يقعون فرائس لأهوائهم وشهواتهم بلا حد ولا ضابط . ومن ثم يفقدون خاصتهم الآدمية ويندرجون في عالم البهيمة :

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، والنار مثوى لهم » ... (محمد : ١٢)

ولا يخسر الإنسان شيئاً كأن يخسر آدميته ، ويندرج في عالم البهيمة ، وهذا هو الذي يقع حتماً بمجرد التخلص من الدينونة لله وحده ، والوقوع في الدينونة للهوى والشهوة .

ثم هم يقعون فرائس لألوان من العبودية للعبيد .. يقعون في شر ألوان العبودية للحكام والرؤساء الذين يصرفونهم وفق شرائع من عند أنفسهم . لا ضابط لها ولا هدف إلا حماية مصالح المشرعين أنفسهم - سواء تمثل هؤلاء المشرعون في فرد حاكم ، أو في طبقة حاكمة ، أو في جنس حاكم - فالنظرة على المستوى الإنساني الشامل تكشف عن هذه الظاهرة في كل حكم بشري لا يستمد من الله وحده ، ولا يتقيد بشريعة الله لا يتعداها ..

ولكن العبودية للعبيد لا تقف عند حدود العبودية للحكام والرؤساء والمشرعين .. فهذه هي الصورة الصارخة ، ولكنها ليست هي كل شيء ! .. إن العبودية للعباد تتمثل في صور أخرى خفية ؛ ولكنها قد تكون أقوى وأعمق وأقسى من هذه الصورة ! ونضرب مثالاً لهذا تلك العبودية لصانعي المودات والأزياء مثلاً ! أي سلطان لهؤلاء على قطيع كبير جداً من البشر ؟ .. كل الذين يسمونهم متحضرين .. ! إن الزي المفروض من آلهة الأزياء

Marfat.com

ـ سواء فى الملابس أو العربات أو المبانى أو المناظر أو الحفلات . . . الخ . . لتمثل عبودية صارمة لاسبيل لجاهلى ولا لجاهلية أن يفلت منها ؛ أو يفكر فى الخروج عنها ! ولو دان الناس ـ فى هـذه الجاهلية « الحضارية ! » لله بعض مايدينون لصانعى الأزياء لكانوا عبادا متبتلين ! . . فماذا تكون العبودية إن لم تكن هى هذه ؟ وماذا تكون الحاكمية والربوبية إن لم تكن هى حاكمية وربوبية صانعى الأزياء أيضا ؟ !

وإن الإنسان ليبصر أحيانا بالمرأة المسكينة ، وهى تلبس مايكشف عن سوآتها ، وهو فى الوقت ذاته لايناسب شكلها ولا تكوينها ، وتضع من الأصباغ ما يتركها شائهة أو مثارا للسخرية ! ولكن الألوهية القاهرة لأرباب الأزياء وللمودات تقهرها وتذلها لهـذه المهانة التى لاتملك لها ردا ، ولا تقوى على رفض الدينونة لها ، لأن المجتمع كله من حولها يدين لها . فكيف تكون الدينونة إن لم تكن هى هذه ؟ وكيف تكون الحاكمية والربوبية إن لم تكن هى تلك ؟ !

وليس هذا إلا مثلا واحدا للعبودية المذلة حين لايدين الناس لله وحده ؛ وحين يدينون لغيره من العبيد . . وليست حاكمية الرؤساء والحكام وحدها هى الصورة الكريهة المذلة لحاكمية البشر للبشر ، ولعبودية البشر للبشر !

• وهذا يقودنا إلى قيمة توحيد العبادة والدينونة فى صيانة أرواح الناس وأعراضهم وأموالهم ، التى تصبح كلهاولا عاصم لها عندمايدين العبادللعباد ، فى صورة من صور الدينونة . . سواء فى صورة حاكمية التشريع ، أو فى صورة حاكمية الأعراف والتقاليد ، أو فى صورة حاكمية الاعتقاد والتصور . .

إن الدينونة لغير الله فى الاعتقاد والتصور معناها الوقوع فى براثن الأوهام والأساطير والخرافات التى لا تنتهى ؛ والتى تمثل الجاهليات الوثنية المختلفة صورا منها ؛ وتمثل أوهام العوام المختلفة صورا منها ؛ وتقدم فيها النذور والأضاحى من الأموال ـ وأحيانا من الأولاد ! ـ تحت وطأة العقيدة الفاسدة والتصور المنحرف ؛ ويعيش الناس معها فى رعب من الأرباب الوهمية المختلفة ، ومن السدنة والكهنة المتصلين بهـذه الأرباب ! ومن السحرة

Marfat.com

تلتصين بالجن والعفاريت! ومن المشايخ والقديسين أصحاب الأسرار! ومن .. ومن ... من الأوهام التى مازال الناس منها فى رعب وفى خوف وفى تقرب وفى رجاء، حتى تتقطع أعناقهم وتتوزع جهودهم، وتتبدد طاقاتهم فى مثل هذا الهراء!

وفيما يتمثل تكاليف الدينونة لغير الله فى الأعراف والتقاليد بأرباب الأزياء والمودات؛ يكفى أن نعلم كم من الأموال والجهود تضيع - إلى جانب الأعراض والأخلاق - فى سبيل هذه الأرباب!

إن البيت ذا الدخل المتوسط ينفق على الدهون والعطور والأصباغ؛ وعلى تصفيف الشعر وكيه؛ وعلى الأقمشة التى تصنع منها الأزياء المتقلبة عاما بعد عام، وما يتبعها من الأحذية والمناسبة والحلى المتناسقة مع الزى والشعر والحذاء! ... إلى آخر ماتقضى به تلك الأرباب النكدة. إن البيت ذا الدخل المتوسط ينفق نصف دخله ونصف جهده لملاحقة أهواء تلك الأرباب المتقلبة التى لاتثبت على حال. ومن ورائها اليهود أصحاب رؤوس الأموال الموظفة فى الصناعات الخاصة بدنيا تلك الأرباب! ولا يملك الرجل ولا المرأة وهما فى هذا الكد الناصب أن يتوقفا لحظة عن تلبية ما تقتضيه تلك الدينونة النكدة من تضحيات فى الجهد والمال والعرض والخلق على السواء!

وأخيرا تجيء تكاليف العبودية لحاكمية التشريع البشرية .. وما من أضحية يقدمها عابد الله لله، إلا ويقدم الذين يدينون لغير الله أضعافها للأرباب الحاكمة! من الأموال والأنفس والأعراض ..

وتقام أصنام من «الوطن» ومن «القوم» ومن «الجنس» ومن «الطبقة» ومن «الإنتاج» ... ومن غيرها من شتى الأصنام والأرباب ...

وتدق عليها الطبول؛ وتنصب لها الرايات؛ ويدعى عباد الأصنام إلى بذل النفوس والأموال لها بغير تردد .. وإلا فالتردد هو الخيانة، وهو العار .. وحتى حين يتعارض العرض مع متطلبات هذه الأصنام، فإن العرض هو الذى يضحى؛ ويكون هذا هو الشرف الذى يراق على جوانبه الدم! كما تقول الأبواق المنصوبة حول الأصنام، ومن ورائها أولئك الأرباب من الحكام!

Marfat.com

إن كل التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ؛ ليعبد الله وحده في الأرض ؛ وليتحرر البشر من عبادة الطواغيت والأصنام ، ولترتفع الحياة الإنسانية إلى الأفق الكريم الذي أراده الله للإنسان .. إن كل هذه التضحيات التي يقتضيها الجهاد في سبيل الله ليبذل مثلها وأكثر من يدينون لغير الله ! والذين يخشون العذاب والألم والاستشهاد وخسارة الأنفس والأولاد والأموال إذا هم جاهدوا في سبيل الله ، عليهم أن يتأملوا ماذا تكلفهم الدينونة لغير الله في الأنفس والأموال والأولاد ، وفوقها الأخلاق والأعراض .. إن تكاليف الجهاد في سبيل الله في وجه طواغيت الأرض كلها لن تكلفهم ما تكلفهم الدينونة لغير الله ؛ وفوق ذلك كله الذل والدنس والعار !

• وأخيرا فإن توحيد العبادة والدينونة لله وحده ، ورفض العبادة والدينونة لغيره من خلقه : ذو قيمة كبيرة في صيانة الجهد البشري من أن ينفق في تأليه الأرباب الزائفة ، كي يوجه بجملته إلى عمارة الأرض ، وترقيتها ، وترقية الحياة فيها .

وهناك ظاهرة واضحة متكررة أشرنا إليها فيما سبق في هذا الجزء .. وهي أنه كلما قام عبد من عبيد الله ، ليقيم من نفسه طاغوتا يتعبد الناس لشخصه من دون الله .. احتاج هذا الطاغوت كي يعبد (أي يطاع ويتبع) إلى أن يسخر كل القوى والطاقات : أولا لحماية شخصه . وثانيا لتأليه ذاته . واحتاج إلى حراس وذيول وأجهزة وأبواق تسبح بحمده ، وترتل ذكره ، وتنفخ في صورته « العبدية » الهزيلة لتتضخم وتشغل مكان « الألوهية » العظيمة ! وألا تكف لحظة واحدة عن النفخ في تلك الصورة العبدية الهزيلة ؛ وإطلاق الترانيم والتراتيل حولها . وحشد الجموع – بشتى الوسائل – للتسبيح باسمها ، وإقامة طقوس العبادة لها ... !

وهو جهد ناصب لا يفرغ أبدا . لأن الصورة العبدية الهزيلة ما تني تنكمش وتهزل وتتضاءل كلما سكن من حولها النفخ والطبل والزمر والبخور والتسابيح والتراتيل . وما تني تحتاج كرة أخرى إلى ذلك الجهد الناصب من جديد !

وفي هذا الجهد الناصب تصرف طاقات وأموال – وأرواح أحيانا وأعراض ! – لو أنفق بعضها في عمارة الأرض ، والإنتاج المثمر ، لترقية الحياة البشرية وإغنائها ، لعاد على البشرية

Marfat.com

بالخير الوفير .. ولكن هـذه الطاقات والأموال ـ والأرواح أحيانا والأعراض ـ لاتنفق في هـذا السبيل الخير المثمر ما دام الناس لايدينون لله وحـده ؛ وإنما يدينون للطواغيت من دونه .

ومن هذه اللمحة يتكشف مدى خسارة البشرية في الطاقات والأموال والعمارة والإنتاج من جراء تنكبها عن الدينونة لله وحده ؛ وعبادة غيره من دونه .. وذلك فوق خسارتها في الأرواح والأعراض ، والقيم والأخلاق . وفوق الذل والقهر والدنس والعار !

وليس هـذا في نظـام أرضي دون نظام ، وإن اختلفت الأوضـاع واختلفت ألوان التضحيـات .

« ولقد حدث أن الذين فسقوا عن الدينونة لله وحده ، فأتاحوا لنفر منهم أن يحكموهم بغير شريعته ، قد وقعوا في النهاية في شقوة العبودية لغيره . العبودية التي تأكل إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم ، مهما اختلفت أشـكال الأنظمة التي تحـكمهم ، والتي ظنوا في بعضها أنها تكفل لهم الإنسانية والحرية والكرامة .

« لقد هربت أوربا من الله ـ في أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية الباغية باسم الدين الزائف (١) ـ وثارت على الله ـ سبحانه ـ في أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التي أهدرت كل القيم الإنسانيـة في عنفوان سطوتها الغاشمة ! ثم ظن الناس أنهم يجـدون إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم ـ ومصالحهم كذلك ـ في ظل الأنظمة الفردية (الديمقراطية) وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية ، والأوضاع النيابية البرلمانية ، والحريات الصحفية ، والضمانات القضائية والتشريعية ، وحكم الأغلبية المنتخبة ... إلى آخر هـذه الهالات التي أحيطت بها تلك الأنظمة .. ثم ماذا كانت العاقبة ؟ كانت العاقبة هي طغيان « الرأسمالية » ذلك الطغيان الذي أحال كل تلك الضمانات ، وكل تلك التشكيلات ، إلى مجرد لافتات ، أو إلى مجرد خيالات ! ووقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغيـة التي تملك رأس المال ، فتملك معـه الأغلبية البرلمانية ! والدساتير الوضعيـة ! والحريات الصحفيـة ! وسائر

---

(١) يراجع فصل : « الفصام النكد » في كتاب : « المستقبل لهذا الدين » .

Marfat.com

الضمانات التي ظنها الناس هنـاك كفيـلة بضمان إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم ، في معزل عن الله سبحانه !!!

« ثم هرب فريق من الناس هنـاك من الأنظمة الفردية التي يطغى فيها « رأس المال » و « الطبقة » إلى الأنظمة الجماعية ! فماذا فعلوا ؟ لقد استبدلوا بالدينونة لطبقة « الرأسماليين » الدينونة للطبقـة « الصعاليك » ! أو استبـدلوا بالدينونة لأصحـاب رؤوس الأموال والشركات الدينونة للدولة التي تملك المـال إلى جانب السلطان ! فتصبح أخطر من طبقـة الرأسماليين !

« وفي كل حـالة ، وفي كل وضـع ، وفي كل نظـام ، دان البشر فيـه للبشر ، دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبـة الفادحـة . دفعوهـا للأرباب المتنوعـة في كل حال .

« إنه لابد من عبودية ! فإن لاتـكن لله وحـده تكن لغـير الله . . والعبودية لله وحـده تطلق النـاس أحرارا كراما شرفاء أعليـاء . . والعبودية لغـير الله تأكل إنسانيـة النـاس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم . ثم تأكل أموالهم ومصـالحهم المـادية في النهاية .

« من أجـل ذلك كله تنال قضية الألوهيـة والعبودية كل تلك العنـاية في رسالات الله ـ سبحانه ـ وفي كتبه . . وهذه السـورة نموذج من تلك العناية . . فهي قضية لاتتعلق بعبدة الأصنام والأوثان في الجاهليات السـاذجـة البعيدة . ولـكنها تتعلق بالإنسـان كله ، في كل زمان وفي كل مكان ؛ وتتعلق بالجاهليات كلها . . جاهليات ماقبـل التاريخ ، وجاهليات التاريخ . وجاهلية القرن العشرين . وكل جاهليـة تقوم على أساس من عبادة العباد للعباد »(١).

والخلاصة التي ينتهي إليها القول في هذه القضية : أنه يتجلى بوضوح من التقريرات القرآنية

---

(١) مقتطفات من الجزء الحادى عشر ص ١١٤ ـ ص ١١٥ و التعليق على سورة يونس ، وهي بذاتها تصلح هنا التعقيب على سورة هود !

Marfat.com

بجملتها - وهذه السورة نموذج منها - أن قضية الدينونة والاتباع والحاكمية - التي يعبر عنها في هذه السورة بالعبادة - هي قضية عقيدة وإيمان وإسلام ؛ وليست قضية فقه أو سياسة أو نظام !

إنها قضية عقيدة تقوم أو لاتقوم . وقضية إيمان يوجد أو لايوجد . وقضية إسلام يتحقق أو لايتحقق . . ثم هي بعد - بعد ذلك لا قبله - قضية منهج للحياة الواقعية يتمثل في شريعة ونظام وأحكام ؛ وفي أوضاع وتجمعات تتحقق فيها الشريعة والنظام ، وتنفذ فيها الأحكام .

وكذلك فإن قضية « العبادة » ليست قضية شعائر ؛ وإنما هي قضية دينونة واتباع ونظام وشريعة وفقه وأحكام وأوضاع في واقع الحياة . . وأنها من أجل أنها كذلك استحقت كل هذه العناية في المنهج الرباني المتمثل في هذا الدين . واستحقت كل هذه الرسل والرسالات . واستحقت كل هذه العذابات والآلام والتضحيات .

* * *

والآن نجيء إلى تتابع هذا القصص في السورة ؛ ودلالته على الخط الحركي للعقيدة الإسلامية في تاريخ البشرية :

لقد بينا من قبل في التعقيب على قصة نوح (١) أن الإسلام كان هو أول عقيدة عرفتها البشرية على يدي آدم عليه السلام أبي البشر الأول ، ثم على يدي نوح - عليه السلام - أبي البشر الثاني . . ثم بعد ذلك على يدي كل رسول . . وأن الإسلام يعني توحيد الألوهية من ناحية الاعتقاد والتصور والتوجه بالعبادة والشعائر . وتوحيد الربوبية من ناحية الدينونة والاتباع والطاعة والخضوع : أي توحيد القوامة والحاكمية والتوجيه والتشريع

ثم بينا كذلك أن الجاهلية - سواء كانت جاهلية الاعتقاد والتصور والعبادة والشعائر ؛ أو جاهلية الدينونة والاتباع والطاعة والخضوع - أو هما معاً - كانت تطرؤ على البشرية بعد معرفة الإسلام على أيدي الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - وكانت تفسد عقائدهم وتصوراتهم ، كما

---

(١) ص ٧٠ - ص ٧٦

Marfat.com

تسد حياتهم وأوضاعهم ؛ بالدينونة لغير الله - سبحانه - سواء كانت هذه الدينونة لطوطم أو حجر أو شجر أو نجم أو كوكب، أو روح أو أرواح شتى : أو كانت هذه الدينونة لبشر من البشر : كاهن أم ساحر أم حاكم . فكلها سواء في دلالتها على الانحراف عن التوحيد إلى الشرك، والخروج من الإسلام إلى الجاهلية .

ومن هذا التتابع التاريخي - الذي يقصه الله سبحانه في كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - يتبين خطأ المنهج الذي يتبعه علماء الدين المقارن ؛ وخطأ النتائج التي يصلون إليها عن طريقه ..

خطأ المنهج لأنه يتبع خط الجاهليات التي عرفتها البشرية، ويهمل خط التوحيد الذي جاء به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم - وهم حتى في تتبعهم لخط الجاهليات لا يرجعون إلا لما حفظته آثار العهود الجاهلية التي يحوم عليها التاريخ - ذلك المولود الحدث الذي لا يعرف من تاريخ البشرية إلا القليل، ولا يعرف هذا القليل إلا عن سبيل الظن والترجيح ! - وحتى حين يصلون إلى أثر من آثار التوحيد الذي جاءت به الرسالات راسبا في إحدى الجاهليات التاريخية في صورة توحيد مشوه كتوحيد أخناتون مثلا في الديانة المصرية القديمة ؛ فإنهم يتعمدون إغفال أثر رسالة التوحيد - ولو على سبيل الاحتمال - وقد جاء أخناتون في مصر بعد عهد يوسف - عليه السلام - وتبشيره بالتوحيد كما جاء في القرآن الكريم - حكاية عن قوله لصاحبي السجن في سورة يوسف - :

« إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله، وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون . ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله، أمر ألا تعبدوا إلا إياه، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ...

(يوسف : ٣٧ - ٤٠)

وهم إنما يفعلون ذلك، لأن المنهج كله إنما قام ابتداء على أساس العداء والرفض للمنهج

Marfat.com

الدينى ، بسبب ماثار بين الكنيسة الأوربية والبحث العلمى فى كل صوره فى فترة من فترات التاريخ . فبدأ المنهج وفى عزم أصحابه أن يصلوا إلى ما يكذب مزاعم الكنيسة من أساسها ، الوصول إلى تحطيم الكنيسة ذاتها . ومن أجل هذا جاء منهجا منحرفا منذ البدء ، لأنه يتعمد الوصول سلفا إلى نتائج معينة ، قبل البدء فى البحث !

وحتى حين هدأت حدة العداء للكنيسة بعد تحطيم سيطرتها العلمية والسياسية والاقتصادية القاصمة فإن المنهج استمر فى طريقه . لأنه لم يستطع أن يتخلص من أساسه الذى قام عليه ، والتقاليد التى تراكمت على هذا الأساس ، حتى صارت من أصول المنهج !

أما خطأ النتائج فهو ضرورة حتمية لخطأ المنهج من أساسه . هذا الخطأ الذى طبع نتائج المنهج كلها بهذا الطابع ..

على أنه أيا كان المنهج وأيا كانت النتائج التى يصل إليها ؛ فإن تقريراته مخالفة مخالفة أساسية للتقريرات الإلهية كما يعرضها القرآن الكريم . . وإذا جاز لغير مسلم أن يأخذ بنتائج تخالف مخالفة صريحة قول الله سبحانه فى مسألة من المسائل ؛ فإنه لا يجوز لباحث يقدم بحثه للناس على أنه « مسلم » أن يأخذ بتلك النتائج . ذلك أن التقريرات القرآنية فى مسألة الإسلام والجاهلية ، وسبق الإسلام للجاهلية فى التاريخ البشرى ، وسبق التوحيد للتعدد والتثنية ... قاطعة ، وغير قابلة للتأويل . فهى مما يقال عنه : إنه معلوم من الدين بالضرورة . وعلى من يأخذ بنتائج علم الأديان المقارنة فى هذا الأمر ، أن يختار بين قول الله سبحانه وقول علماء الأديان . أو بتعبير آخر : أن يختار بين الإسلام وغير الإسلام ! لأن قول الله فى هذه القضية منطوق وصريح ، وليس ضمنيا ولا مفهوما !

وعلى أية حال فإن هذا ليس موضوعنا الذى نستهدفه فى هذ التعقيب الأخير .. إنما نستهدف هنا رؤية الخط الحركى للعقيدة الإسلامية فى التاريخ البشرى ؛ والإسلام والجاهلية يتعاوران البشرية ؛ والشيطان يستغل الضعف البشرى وطبيعة التكوين لهذا المخلوق المزدوج الطبيعة والاتجاه ، ويحتال الناس عن الإسلام بعد أن يعرفوه ، إلى الجاهلية ؛ فإذا بلغت هذه الجاهلية مداها بعث الله للناس رسولا يردهم إلى الإسلام . ويخرجهم من الجاهلية .

Marfat.com

وأول ما يخرجهم منه هو الدينونة لغير الله سبحانه من الأرباب المتفرقة . . وأول ما يردهم إليه هو الدينونة لله وحده فى أمرهم كله ، لا فى الشعائر التعبدية وحدها ، ولا فى الاعتقاد القلبى وحده .

إن هذه الرؤية تفيدنا فى تقدير موقف البشرية اليوم ، وفى تحديد طبيعة الدعوة الإسلامية كذلك . .

إن البشرية اليوم - بجملتها - تزاول رجعية شاملة إلى الجاهلية التى أخرجها منها آخر رسول - محمد صلى الله عليه وسلم - وهى جاهلية تتمثل فى صور شتى :

بعضها يتمثل فى إلحاد بالله سبحانه ، وإنكار لوجوده . . فهى جاهلية اعتقاد وتصور ، كجاهلية الشيوعيين .

وبعضها يتمثل فى اعتراف مشوه بوجود الله سبحانه ، وانحراف فى الشعائر التعبدية وفى الدينونة والاتباع والطاعة ، كجاهلية الوثنيين من الهنود وغيرهم . . وكجاهلية اليهود والنصارى كذلك .

وبعضها يتمثل فى اعتراف صحيح بوجود الله سبحانه ، وأداء للشعائر التعبدية ، مع انحراف خطير فى تصور دلالة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . ومع شرك كامل فى الدينونة والاتباع والطاعة . وذلك كجاهلية من يسمون أنفسهم « مسلمين » ويظنون أنهم أسلموا واكتسبوا صفة الإسلام وحقوقه - بمجرد نطقهم بالشهادتين وأدائهم للشعائر التعبدية ؛ مع سوء فهمهم لمعنى الشهادتين ؛ ومع استسلامهم ودينونتهم لغير الله من العبيد !

وكلها جاهلية . وكلها كفر بالله كالأولين . أو شرك بالله كالآخرين (١) . .

إن رؤية واقع البشرية على هذا النحو الواضح ؛ تؤكد لنا أن البشرية اليوم بجملتها قد ارتدت إلى جاهلية شاملة ، وأنها تعانى رجعية نكدة إلى الجاهلية التى أنقذها منها الإسلام مرات متعددة ، كان آخرها الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . . وهذا بدوره يحدد طبيعة الدور الأساسى لطلائع البعث الإسلامى ، والمهمة الأساسية التى عليها أن تقوم بها للبشرية ؛ ونقطة البدء الحاسمة فى هذه المهمة .

---

(١) يراجع فصل : « لا إله إلا الله منهج حياة » فى كتاب : « معالم فى الطريق » .

Marfat.com

إن على هـذه الطلائع أن تبدأ فى دعوة البشرية من جديد إلى الدخول فى الإسـلام كرة أخرى ، والخروج من هذه الجاهلية النكدة التى ارتدت إليها . على أن تحدد للبشرية مدلول الإسلام الأساسى : وهو الاعتقاد بألوهية الله وحـده ، وتقديم الشعائر التعبدية لله وحده والدينونة والاتباع والطاعة والخضوع فى أمور الحياة كلها لله وحده .. وأنه بغير هذه المدلولات كلها لايتم الدخول فى الإسلام ؛ ولا تحتسب للناس صفة المسلمين ؛ ولا تـكون لهم تلك الحقوق التى يرتبها الإسـلام لهم فى أنفسهم وأموالهم كذلك . وأن تخلف أحد هذه المدلولات كتخلفها جميعاً ، يخرج الناس من الإسلام إلى الجاهلية ، ويصمهم بالـكفر أو بالشرك قطعاً . .

إنها دورة جديدة من دورات الجاهلية التى تعقب الإسلام . فيجب أن تواجهها دورة من دورات الإسلام الذى يواجه الجاهلية ، ليرد الناس إلى الله مرة أخرى ، ويخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده .

ولا بد أن يصل الأمر إلى ذلك المستوى من الحسم والوضوح فى نفوس العصبة المسلمة التى تعانى مواجهة الجاهلية الشاملة فى هذه الفترة النكدة من حياة البشرية . . فإنه بدون هـذا الحسم وهذا الوضوح تعجز طلائع البعث الإسلامى عن أداء واجبها فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ البشرية : وتتأرجح أمام المجتمع الجاهلى ـ وهى تحسبه مجتمعاً مسلماً ـ وتفقد تحديد أهدافها الحقيقية . بفقدانها لتحديد نقطة البـدء من حيث تقف البشرية فعلا . لا من حيث تزعم ! والمسافة بعيدة بين الزعم والواقع . . بعيدة جداً .

* * *

ونقف الوقفة الأخيرة فى هذا التعقيب الأخير أمام موقف الرسل الموحد من أقوامهم الذين أرسلوا إليهم . واختلاف هـذا الموقف عند البدء وعنـد النهاية ؛ كما يعرضه قصص الرسل فى هذه السورة :

لقد أرسل كل رسول إلى قومه . وعند بدء الدعوة كان الرسول واحداً من قومه هؤلاء . يدعوهم إلى الإسلام دعوة الأخ لإخوته ؛ ويريد لهم مايريد الأخ لإخوته من الخير الذى هداه الله إليه ؛ والذى يجد فى نفسه بينة من ربه عليه .

Marfat.com

هذا كان موقف كل رسول من قومه عند نقطة البدء .. ولكن هذا لم يكن موقف أى رسول عند نقطة الختام !

لقد استجابت للرسول طائفة من قومه فآمنوا بما أرسل به إليهم . عبدوا الله وحده كما طلب إليهم ، وخلعوا من أعناقهم ربقة الدينونة لأى من خلقه .. وبذلك صاروا مسلمين .. صاروا « أمة مسلمة » . ولم تستجب للرسول طائفة أخرى من قومه . كفروا بما جاءهم به ؛ وظلوا فى دينونتهم لغير الله من خلقه ؛ وبقوا فى جاهليتهم لم يخرجوا منها إلى الإسلام . ولذلك صاروا « أمة مشركة » ..

لقد انقسم القوم الواحد تجاه دعوة الرسول إلى أمتين اثنتين : أمة مسلمة وأخرى مشركة ولم يعد القوم الواحد أمة واحدة كما كانوا قبل الرسالة . مع أنهم قوم واحد من ناحية الجنس والأرومة . إلا أن آصرة الجنس والأرومة ، وآصرة الأرض والمصالح المشتركة ... لم تعد هى التى تحكم العلاقات بينهم كما كانوا قبل الرسالة .. لقد ظهرت مع الرسالة آصرة أخرى تجمع القوم الواحد أو تفرقه . تلك هى آصرة العقيدة والمنهج والدينونة .. وقد فرقت هذه الآصرة بين القوم الواحد ، فجعلته أمتين مختلفتين لا تلتقيان ، ولا تتعايشان !

ذلك أنه بعد بروز هذه المفارقة بين عقيدة كل من الأمتين ؛ فاصل الرسول والأمة المسلمة التى معه قومهم على أساس العقيدة والمنهج والدينونة . فاصلوا الأمة المشركة التى كانت قبل الرسالة هى قومهم وهى أمتهم وهى أصلهم . لقد افترق المنهجان ، فاختلفت الجنسيتان . وأصبحت الأمتان الناشئتان من القوم الواحد لا تلتقيان ولا تتعايشان !

وعندما فاصل المسلمون قومهم على العقيدة والمنهج والدينونة فصل الله بينهما ؛ فأهلك الأمة المشركة ، ونجى الأمة المسلمة .. واطردت هذه القاعدة على مدار التاريخ كما رأينا فى السورة ..

والأمر الذى ينبغى لطلائع البعث الإسلامى فى كل مكان أن تكون على يقين منه : أن الله سبحانه لم يفصل بين المسلمين وأعدائهم من قومهم ، إلا بعد أن فاصل المسلمون أعداءهم ؛ وأعلنوا مفارقتهم لما هم عليه من الشرك ؛ وعالنوهم بأنهم يدينون لله وحده ، ولا يدينون لأربابهم

Marfat.com

الزائفة ؛ ولا يتبعون الطواغيت المتسلطة ؛ ولا يشاركون في الحياة ولا في المجتمع الذي تحكمه هذه الطواغيت بشرائع لم يأذن بها الله . سواء تعلقت بالاعتقاد ، أو بالشعائر ، أو بالشرائع .

إن يد الله سبحانه لم تتدخل لتدمر على الظالمين ، إلا بعد أن فاصلهم المسلمون .. وما دام المسلمون لم يفاصلوا قومهم ، ولم يتبرأوا منهم ، ولم يعالنوهم بافتراق دينهم عن دينهم ، ومنهجهم عن منهجهم ، وطريقهم عن طريقهم ، لم تتدخل يد الله سبحانه للفصل بينهم وبينهم ، ولتحقيق وعد الله بنصر المؤمنين والتدمير على الظالمين ..

وهذه القاعدة المطردة هي التي ينبغي لطلائع البعث الإسلامي أن تدركها ؛ وأن ترتب حركتها على أساسها :

إن الخطوة الأولى تبدأ دعوة للناس بالدخول في الإسلام ؛ والدينونة لله وحده بلا شريك ؛ ونبذ الدينونة لأحد من خلقه ـ في صورة من صور الدينونة ـ ثم ينقسم القوم الواحد قسمين ، ويقف المؤمنون الموحدون الذين يدينون لله وحده صفا ـ أو أمة ـ ويقف المشركون الذين يدينون لأحد من خلق الله صفا آخر .. ثم يفاصل المؤمنون المشركين .. ثم يحق وعد الله بنصر المؤمنين والتدمير على المشركين .. كما وقع باطراد على مدار التاريخ البشري .

ولقد تطول فترة الدعوة قبل المفاصلة العملية . ولكن المفاصلة العقيدية الشعورية يجب أن تتم منذ اللحظة الأولى

ولقد يبطئ الفصل بين الأمتين الناشئتين من القوم الواحد ؛ وتكثر التضحيات والعذابات والآلام على جيل من أجيال الدعاة أو أكثر .. ولكن وعد الله بالفصل يجب أن يكون في قلوب العصبة المؤمنة أصدق من الواقع الظاهر في جيل أو أجيال . فهو لا شك آت . ولن يخلف الله وعده الذي جرت به سنته على مدار التاريخ البشري .

ورؤية هذه السنة على هذا النحو من الحسم والوضوح ضرورية كذلك

Marfat.com

للحركة الإسلامية فى مواجهة الجاهلية البشرية الشاملة . فهى سنة جارية غير مقيدة بزمان ولا مكان .. وما دامت طلائع البعث الإسلامى تواجه البشرية اليوم فى طور من أطوار الجاهلية المتكررة ؛ وتواجهها بذات العقيدة التى كان الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - يواجهونها بها كلما ارتدت وانتكست إلى مثل هذه الجاهلية . فإن للعصبة المسلمة أن تمضى فى طريقها ، مستوضحة نقطة البدء ونقطة الختام ، وما بينهما من فترة الدعوة كذلك . مستيقنة أن سنة الله جارية مجراها ، وأن العاقبة للتقوى .

* * *

وأخيرا ، فإنه من خلال هذه الوقفات أمام القصص القرآنى فى هذه السورة تتبين لنا طبيعة منهج هذا الدين ، كما يتمثل فى القرآن الكريم .. إنها طبيعة حركية تواجه الواقع البشرى بهذا القرآن مواجهة واقعية عملية ..

لقد كان هذا القصص يتنزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى مكة . والقلة المؤمنة معه محصورة بين شعابها ، والدعوة الإسلامية مجمدة فيها . والطريق شاق طويل لا يكاد المسلمون يرون له نهاية ! فكان هذا القصص يكشف لهم عن نهاية الطريق ؛ ويريهم معالمه فى مراحله جميعا ؛ ويأخذ بأيديهم وينقل خطاهم فى هذا الطريق ؛ وقد بات لاحباً موصولا بموكب الدعوة الكريم على مدار التاريخ البشرى ؛ وبات بهذا الركب الكريم مأنوسا مألوفا لا موحشا ولا مخوفا ! .. إنهم زمرة من موكب موصول فى طريق معروف ؛ وليسوا مجموعة شاردة فى تيه مقطوع ! وإنهم ليمضون من نقطة البدء إلى نقطة الختام وفق سنة جارية ؛ ولا يمضون هكذا جزافا يتبعون الصدفة العابرة !

هكذا كان القرآن يتحرك فى الصف المسلم ؛ ويحرك هذا الصف حركة مرسومة مأمونة ..

وهكذا يمكن اليوم وغدا أن يتحرك القرآن فى طلائع البعث الإسلامى ، ويحركها كذلك فى طريق الدعوة المرسوم ..

إن هذه الطلائع فى حاجة إلى هذا القرآن تستلهمه وتستوحيه . تستلهمه فى منهج الحركة

Marfat.com

وخطواتها ومراحلها؛ وتستوحيه في مايصادف هذه الخطوات والمراحل من استجابات؛ وما ينتظرها من عاقبة في نهاية الطريق.

والقرآن ـ بهذه الصورة ـ لايعود مجرد كلام يتلى للبركة. ولكنه ينتفض حيا يتنزل اللحظة على الجماعة المسلمة المتحركة، لتتحرك به، وتتابع توجيهاته، وتتوقع موعود الله فيه.

وهذا ماعنيه بأن هذا القرآن لايتفتح عن أسراره إلا للعصبة المسلمة التي تتحرك به، لتحقيق مدلوله في عالم الواقع. لا لمن يقرأونه لمجرد التبرك! ولا لمن يقرأونه لمجرد الدراسة الفنية أو العلمية، ولا لمن يدرسونه لمجرد تتبع الأداء البياني فيه!

إن هؤلاء جميعا لن يدركوا من هذا القرآن شيئا يذكر. فإن هذا القرآن لم يتنزل ليكون مادة دراسة على هذا النحو؛ إنما تنزل ليكون مادة حركة وتوجيه.

إن الذين يواجهون الجاهلية الطاغية بالإسلام الحنيف؛ والذين يجاهدون البشرية الضالة ردعا إلى الإسلام من جديد؛ والذين يكافحون الطاغوت في الأرض ليخرجوا الناس من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده...

إن هؤلاء وحدهم هم الذين يفقهون هذا القرآن؛ لأنهم يعيشون في مثل الجو الذي تنزل فيه؛ ويحاولون المحاولة التي كان يحاولها من تنزل عليهم أول مرة؛ ويتذوقون في أثناء الحركة والجهاد ماتعنيه نصوصه لأنهم يجدون هذه المعاني ممثلة في أحداث ووقائع.. وهذا وحده جزاء على كل مايصيبهم من عذابات وآلام.. أأقول: جزاء؟! كلا والله. إنه لفضل من الله كبير.. «قل: بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون»..

والحمد لله العظيم رب الفضل العظيم..

Marfat.com

سورة يوسف مكية
وآياتها ١١١

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه السورة مكية ، نزلت بعد سورة هود ، فى تلك الفترة الحرجة التى تحدثنا عنها فى تقديم سورة يونس وفى تقديم سورة هود .. بين عام الحزن بموت أبى طالب وخديجة سندى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وبين بيعة العقبة الأولى ثم الثانية التى جعل الله دبهما لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - وللعصبة المسلمة معه وللدعوة الإسلامية فرجا ومخرجا بالهجرة إلى المدينة . . وعلى هذا فالسورة واحدة من السور التى نزلت فى تلك الفترة الحرجة فى تاريخ الدعوة وفى حياة الرسول - صلى الله عليه وسلم - والعصبة المسلمة معه فى مكة . .

والسورة مكية بجملتها ، على خلاف ماورد فى المصحف الأميرى من أن الآيات (١ ، ٢ ، ٣ ، ٧) منها مدنية . ذلك أن الآيات الثلاث الأولى هذا نصها :

« الر تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ، وإن كنت من قبله لمن الغافلين » . .

وهذه الآيات هى مقدمة طبيعية لما جاء بعدها مباشرة من البدء فى قصة يوسف عليه السلام . . ونص الآية التالية فى السياق هو :

« إذ قال يوسف لأبيه : ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر . رأيتهم لى ساجدين . . . » .

ثم تمضى القصة بعد ذلك فى طريقها إلى النهاية .

Marfat.com

فالتقديم لهذه القصة بقول الله تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هـذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » يبـدو هو التقديم الطبيعى المصاحب لنزول القصـة . .

وكذلك هذه الأحرف المقطعة (الر) وتقرير أنها آيات الكتاب المبين . ثم تقرير أن الله أنزل هذا الكتاب قرآنا عربيا . . هو كذلك من جو القرآن المكى ، ومواجهة المشركين فى مكة بعربية القرآن الذى كانوا يدعون أن أعجميا يعلمه لرسول الله صلى الله عليـه وسلم ! وتقرير أنه وحى من الله كان النبي صلى الله عليه وسلم من الغافلين عن اتجاهه وموضوعاته .

ثم إن هذا التقديم يتناسق مع التعقيب على القصة فى نهايتها ، وهو قول الله تعالى :

« ذلك من أنبـاء الغيب نوحيـه إليك ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمـكرون » . .

فهناك حبكة بين التقدمة للقصة والتعقيب عليها ؛ ظاهر منهـا نزول التقدمة مع القصة والتعقيب .

أما الآية السابعة فالسياق لا يستقيم بدونها أصلا ؛ ولا يتأتى أن تكون السورة قد نزلت فى مكة وهى ليست من سياقها ثم أضيفت إليها فى المدينة ! ذلك أن فى الآية الثامنة ضميرا يعود على يوسف وإخوته فى هذه الآية السابعة ، بحيث لا يستقيم نزول الآية الثامنة دون أن تكون معها الآية السابقة . وهذا نصها :

« لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة ، إن أبانا لفى ضلال مبين » . .

مما يقطع بأن الآيتين نزلتا معاً ، فى سياق السورة الموصول .

والسورة كلها لحمة واحدة عليها الطابع المكى واضحا فى موضوعها وفى جوها وفى ظلالها وفى إيحاءاتها . . بل إن عليها طابع هذه الفترة الحرجة الموحشة بصفة خاصة . . ففى الوقت الذى كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعانى من الوحشة والغربة والانقطاع فى جاهلية قريش – منذ عام الحزن – وتعانى معه الجماعة المسلمة هذه الشدة ، كان الله – سبحانه – يقص

Marfat.com

على نبيه الكريم قصة أخ له كريم - يوسف ابن يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم - عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين - وهو يعانى صنوفا من المحن والابتلاءات : محنة كيد الإخوة . ومحنة الجب والخوف والترويع فيه . ومحنة الرق وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد على غير إرادة منه ، ولا حماية ولا رعاية من أبويه ولا من أهله . ومحنة كيد امرأة العزيز والنسوة ، وقبلها ابتلاء الإغراء والشهوة والفتنة ! ومحنة السجن بعد رغد العيش وطراوته فى قصر العزيز . ثم محنة الرخاء والسلطان المطلق فى يديه ، وهو يتحكم فى أقوات الناس وفى رقابهم ، وفى يديه لقمة الخبز التى تقوتهم ! ومحنة المشاعر البشرية وهو يلقى بعد ذلك إخوته الذين ألقوه فى الجب وكانوا السبب الظاهر لهذه المحن والابتلاءات كلها ... هذه المحن والابتلاءات التى صبر عليها يوسف - عليه السلام - وزاول دعوته إلى الإسلام من خلالها ، وخرج منها كلها متجردا خالصا ؛ آخر توجهاته وآخر اهتماماته ، فى لحظة الانتصار على المحن جميعا ؛ وفى لحظة لقاء أبويه ولم شمله ؛ وفى لحظة تأويل رؤياه وتحققها كما رآها : « إذ قال يوسف لأبيه : ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر . رأيتهم لى ساجدين » . آخر توجهاته وآخر اهتماماته فى هذه اللحظة هى التوجه الخالص المتجرد المنيب إلى ربه . منخلعا من هذا كله بكليته كما يصوره القرآن الكريم :

« فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه ، وقال : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش ، وخروا له سجدا . وقال : ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن ، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى . إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم . رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث . فاطر السماوات والأرض . أنت ولىى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما ، وألحقنى بالصالحين » ..

وهكذا كانت طلبته الأخيرة .. بعد ذلك كله وهو فى غمرة السلطان والرخاء ولمة الشمل .. أن يتوفاه ربه مسلما ، وأن يلحقه بالصالحين .. وذلك بعد الابتلاء والمحنة ، والصبر الطويل والانتصار الكبير ..

Marfat.com

فلا عجب أن تكون هذه السورة ، بما احتوته من قصة ذلك النبي الكريم ، ومن التعقيبات عليها بعد ذلك ، مما يتنزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والجماعة المسلمة معه في مكة ، في هذه الفترة بالذات ، تسلية وتسرية ، وتطميناً كذلك وتثبيتاً للمطاردين المغتربين الموحشين !

لا بل إن الخاطر ليذهب بي اللحظة إلى الإحساس بالإيحاء البعيد بالإخراج من مكة إلى دار أخرى يكون فيها النصر والتمكين ؛ مهما بدا أن الخروج كان إكراهاً تحت التهديد! كما أخرج يوسف من حضن أبيه ، ليواجه هذه الابتلاءات كلها ، ثم لينتهي بعد ذلك إلى النصر والتمكين :

« وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » ..

ولقد كان ذلك وهو يضع أقدامه في مصر في قصر العزيز .. حتى وهو مايزال فتى يباع بيع الرقيق ..

وما يذهب بي الخاطر إليه اللحظة يجعلني أتذوق مذاقاً خاصاً - أشير إليه ولا أملك التعبير عنه ! - ذلك التعقيب الذي أعقب القصة :

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ؟ حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » ..

إنه الإيحاء بجري سنة الله عندما يستيئس الرسل - كما استيأس يوسف في محنته الطويلة - والتلميح بالمخرج المكروه الذي يليه الفرج المرغوب ! .. الإيحاء والتلميح اللذان تدركهما

Marfat.com

القلوب المؤمنة، وهي في مثل هذه الفترة تعيش، وفي جوها تتنفس، فتتذوق وتستشرف وتلمح الإيحاء والتلميح.. من بعيد..

والسورة ذات طابع متفرد في احتوائها على قصة يوسف كاملة. فالقصص القرآني - غير قصة يوسف - يرد حلقات، تناسب كل حلقة منها أو مجموعة حلقات موضوع السورة واتجاهها وجوها. وحتى القصص الذي ورد كاملا في سورة واحدة كقصص هود وصالح ولوط وشعيب ورد مختصرا مجملا. أما قصة يوسف فوردت بتمامها وبطولها في سورة واحدة. وهو طابع متفرد في السور القرآنية جميعا.

هذا الطابع الخاص يتناسب مع طبيعة القصة؛ ويؤديها أداء كاملا.. ذلك أنها تبدأ برؤيا يوسف، وتنتهي بتأويلها. بحيث لا يناسبها أن تكون حلقة منها أو جملة حلقات في سورة، وتكون بقيتها في سورة أخرى.

وهذا الطابع كفل لها الأداء الكامل من جميع الوجوه؛ فوق تحقيقه للهدف الأصيل الذي من أجله سيقت القصة، والتعقيبات التي تلتها.

وسنحتاج أن نقول كلمة مفصلة - بعض الشيء - عن هذا الأداء الكامل، تكشف عن ذلك المنهج القرآني الفريد.

وبالله التوفيق..

* * *

إن قصة يوسف - كما جاءت في هذه السورة - تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام في الأداء الفني للقصة، بقدر ما تمثل النموذج الكامل لهذا المنهج في الأداء النفسي والعقيدي والتربوي والحركي أيضا.. ومع أن المنهج القرآني واحد في موضوعه وفي أدائه، إلا أن قصة يوسف تبدو وكأنها المعرض المتخصص في عرض هذا المنهج من الناحية الفنية للأداء!

إن القصة تعرض شخصية يوسف - عليه السلام - وهي الشخصية الرئيسية في القصة - عرضا كاملا في كل مجالات حياتها، بكل جوانب هذه الحياة، وبكل استجابات هذه الشخصية في هذه الجوانب وفي تلك المجالات. وتعرض أنواع الابتلاءات التي تعرضت لها تلك الشخصية

Marfat.com

الرئيسية في القصة ؛ وهى ابتلاءات متنوعة في طبيعتها وفى اتجاهاتها . . ابتلاءات الشدة وابتلاءات الرخاء . وابتلاءات الفتنة بالشهوة ، والفتنة بالسلطان . وابتلاءات الفتنة بالانفعالات والمشاعر البشرية تجاه شتى المواقف وشتى الشخصيات . . ويخرج العبد الصالح من هذه الابتلاءات والمحن كلها نقيا خالصا متجردا في وقفته الأخيرة ، متجها إلى ربه بذلك الدعاء المنيب الخاشع كما أسلفنا فى نهاية الفقرة السابقة .

وإلى جانب عرض الشخصية الرئيسية في القصة تعرض الشخصيات المحيطة بدرجات متفاوتة من التركيز . وفى مساحات متناسبة من رقعة العرض ، وفى أبعاد متفاوتة من مركز الرؤية ، وفى أوضاع خاصة من الأضواء والظلال . . وتتعامل القصة مع النفس البشرية فى واقعيها الكاملة . متمثلة فى نماذج متنوعة : نموذج يعقوب الوالد المحب الملهوف والنبي المطمئن الموصول . ونموذج إخوة يوسف وهواتف الغيرة والحسد والحقد والمؤامرة والمناورة ، ومواجهة آثار الجريمة . والضعف والحيرة أمام هذه المواجهة ، متميزا فيهم أحدهم بشخصية موحدة السمات فى كل مراحل القصة ومواقفها . . ونموذج امرأة العزيز بكل غرائزها ورغائبها واندفاعاتها الأنثوية ، كما تصنعها وتوجهها البيئة المصرية الجاهلية فى بلاط الملوك ، إلى جانب طابعها الشخصى الخاص الواضح فى تصرفها ووضوح انطباعات البيئة . . ونموذج النسوة من طبقة العلية فى مصر الجاهلية ! والأضواء التى تلقيها على البيئة ، ومنطقها كما يتجلى فى كلام النسوة عن امرأة العزيز وفتاها ، وفى إغرائهن كذلك ليوسف وتهديد امرأة العزيز له فى مواجهتهن جميعا . وما وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها ، كما يتجلى فى سجن يوسف بصفة خاصة . . ونموذج « العزيز » وعليه ظلال طبقته وبيئته فى مواجهة جرائم الشرف من خلال مجتمعه ! . . ونموذج « الملك » فى خطفة يتوارى بعدها كما توارى العزيز فى منطقة الظلال بعيدا عن منطقة الأضواء فى مجال العرض المتناسق . . وتبرز الملامح البشرية واضحة صادقة بواقعية كاملة فى هذا الحشد من الشخصيات والبيئات ، وهذا الحشد من المواقف والمشاهد ، وهذا الحشد من الحركات والمشاعر . .

ومع استيفاء القصة لكل ملامح « الواقعية » السليمة المتكاملة وخصائصها فى كل شخصية وفى كل موقف وفى كل خالجة . . فإنها تمثل النموذج الكامل لمنهج الإسلام فى الأداء الفنى

Marfat.com

القصة، ذلك الأداء الصادق، الرائع بصدقه العميق وواقعيته السليمة .. المنهج الذى لا يهمل خاجة بشرية واقعية واحدة، وفى الوقت ذاته لا ينشئ مستنقعا من الوحل يسميه « الواقعية » كالمستنقع الذى أنشأته « الواقعية » الغربية الجاهلية!

وقد ألمت القصة بألوان من الضعف البشرى؛ بما فيها لحظة الضعف الجنسى، ودون أن تزوّر - أى تزوير - فى تصوير النفس البشرية بواقعيتها الكاملة فى هذه المواقف، ودون أن تغفل أية لمحة حقيقية من لمحات النفس أو الموقف، فإنها لم تسف قط لتنشئ ذلك المستنقع المقزز للفطرة السليمة، ذلك الذى يسمونه فى جاهلية القرن العشرين « الواقعية » أو يسمونه أخيرا « الطبيعية! »

وظلت القصة صورة نظيفة للأداء الواقعى الكامل مع تنوع الشخصيات وتنوع المواقف:

• إخوة يوسف والأحقاد الصغيرة فى قلوبهم تكبر وتتضخم حتى تحجب عن ضمائرهم هول الجريمة وبشاعتها ونكارتها وضخامتها! ثم تزين لهم « المحلل الشرعى! » الذى يخرجون به من تلك الجريمة.. ملاحظاً فى هذا واقعيتهم فى بيئتهم الدينية - وهم أولاد نبى الله يعقوب ابن إسحاق ابن إبراهيم - عليهم صلوات الله وسلامه - وانطباعات هذه البيئة فى تفكيرهم ومشاعرهم وتقاليدهم، وحاجتهم النفسية - من ثم - إلى مبرر للجريمة، وإلى طريقة للتحلل من نكارتها وبشاعتها:

« لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين. إذ قالوا: ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا - ونحن عصبة - إن أبانا لفى ضلال مبين! اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم، وتكونوا من بعده قوما صالحين! قال قائل منهم: لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب، يلتقطه بعض السيارة - إن كنتم فاعلين! - قالوا: يا أبانا، مالك لا تأمنا على يوسف؟ وإنا له لناصحون. أرسله معنا غدا يرتع ويلعب. وإنا له لحافظون! قال: إنى ليحزننى أن تذهبوا به، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون. قالوا: لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون. فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم

Marfat.com

هذا وهم لايشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا : ياأبانا ، إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال : بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ماتصفون » ..

ونحن نجدهم - هم هم - فى كل مواقف القصة بعدذلك - كما نجد موقف أحدهم الخاص من أول القصة إلى آخرها - فما إن يذهبوا بأخى يوسف بعد ماطلبه منهم وهم لا يعرفونه يحسبون أنه عزيز مصر الذى قدموا من بلادهم - كنعان - ليشتروا منه القمح فى سنوات الجدب المجاف ، حيث يدبر الله ليوسف أن يأخذ أخاه منهم بحجة أنه وجد صواع الملك فى رحله .. ما إن يروا هذا التدبير - وهم لا يعلمون ماوراءه - حتى ينفجر حقدهم القديم على يوسف :

« قالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ! فأسرّها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم . قال : أنتم شر مكانا ، والله أعلم بما تصفون » ..

كذلك نجدهم - هم هم - بعد مواجهة أبيهم بالفجيعة الثانية فى شيخوخته الحزينة ، فما إن يروا تجدد حزنه على يوسف حتى ينفجر حقدهم القديم ، دون مراعاة لشيخوخة أبيهم ونكبته الأليمة :

« وتولى عنهم وقال : ياأسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ! » ..

ومثلها عندما أرسل يوسف قميصه إلى أبيه فى النهاية - بعد ما كشف لهم عن شخصيته - فلما رأوا أباهم يستنشق عبير يوسف ، غاظهم هذا الاتصال الباطنى الدال على عمق مابينه وبين يوسف ، فلم يملكوا أنفسهم أن يبكتوه ويؤنبوه :

« ولما فصلت العير قال أبوهم : إنى لأجد ريح يوسف ، لولا أن تفندون ! قالوا : تالله إنك لفى ضلالك القديم ! » ..

◆ وامرأة العزيز .. فى عُرّمة الشهوة التى تعمى عن كل شىء فى اندفاعها الهائج الكاسح ،

Marfat.com

فلا تحفل حياء أنثويا ولا كبرياء ذاتيا، كما لاتحفل مركزا اجتماعيا ولا فضيحة عائلية ... والتى تستخدم - مع ذلك - كل مكر الأنثى وكيدها، سواء فى تبرئة نفسها أو حماية من تهوى من جرائر التهمة التى ألصقتها به، وتحديد عقوبة لاتودى بحياته! أو رد الكيد للنسوة من ثغرة الضعف الغريزى الشهوى الذى تعرفه فيهن من معرفتها لنفسها! أو التبجح بشهوانيتها أمام انكشاف ضعف عزيمتها وكبريائها أمام من تهوى، ووقوف نسوتها معها على أرض واحدة، حيث تبدو فيها الأنثى متجردة من كل تجمل المرأة وحيائها، الأنثى التى لاتحس فى إرواء هواتفها الأنثوية أمرا يعاب أصلا! ومع صدق التصوير والتعبير عن هذا النموذج البشرى الخاص بكل واقعيته، وعن هذه اللحظة الخاصة بكل طبيعتها، فإن الأداء القرآنى - الذى ينبغى أن يكون هو النموذج الأعلى للأداء الفنى الإسلامى - لم يتخل عن طابعه النظيف مرة واحدة - حتى وهو يصور لحظة التعرى النفسى والجسدى الكامل بكل اندفاعها وحيوانيتها - ليتشئ ذلك المستنقع الكريه الذى يتمرغ فى وحله كتاب «القصة الواقعية» وكتاب «القصة الطبيعية» فى هذه الجاهلية النكدة بحجة الكمال الفنى فى الأداء!

«وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته: أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا. وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض، ولنعلمه من تأويل الأحاديث، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون. ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما، وكذلك نجزى المحسنين. وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه، وغلقت الأبواب وقالت: هيت لك! قال: معاذ الله! إنه ربى أحسن مثواى، إنه لايفلح الظالمون. ولقد همت به وهم بها، لولا أن رأى برهان ربه. كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، إنه من عبادنا المخلصين. واستبقا الباب، وقدت قميصه من دُبُر، وألفيا سيدها لدى الباب، قالت: ماجزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم؟! قال: هى راودتنى عن نفسى، وشهد شاهد من أهلها: إن كان قميصه قُدَّ من قُبُل فصدقت وهو من الكاذبين. وإن كان قميصه قُدَّ من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين. فلما رأى قميصه قُدَّ من دُبُر قال: إنه من كيدكن، إن كيدكن عظيم! يوسف أعرض عن هذا، واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين! . وقال نسوة فى المدينة: امرأة العزيز

Marfat.com

تراود فتاها عن نفسه ! قد شغفها حبا ! إنا لنراها فى ضلال مبين ! فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ، وأعتدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت : اخرج عليهن ! فلما رأينه أكبرنه ، وقطّعن أيديهن ، وقلن : حاش لله ! ماهذا بشرا ، إن هذا إلا ملك كريم . قالت : فذلكن الذى لمتننى فيه ! ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين . قال : رب ، السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصبُ إليهن وأكن من الجاهلين . فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم » . .

وكذلك حين نلتقى بها مرة أخرى بعد ما دخل يوسف السجن بسبب كيدها وكيد النسوة ؛ وبقى هناك حتى رأى الملك رؤياه ، وتذكر الفتى الذى كان سجينا معه أن يوسف هو وحده الذى يعرف تأويل الرؤيا ، فطلب الملك أن يأتوه به ، فأبى حتى يحقق قضيته ، ويبرىء ساحته ، فاستدعاها الملك مع النسوة . وإذا بها ماتزال المرأة المحبة ، مع التغير الطبيعى الواقعى الذى يحدثه الزمن والعمر والأحداث والظروف ؛ ومع تسرب الإيمان الذى تعرفه من يوسف من خلال تلك المشاعر والمؤثرات جميعا :

« وقال الملك : ائتونى به . فلما جاءه الرسول قال : ارجع إلى ربك فاسأله : مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ؟ إن ربى بكيدهن عليم . قال : ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه؟ قلن : حاش لله ! ما علمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين وما أبرىء نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى ، إن ربى غفور رحيم » .

● ويوسف . . العبد الصالح ـ الإنسان ـ لم يزوّر الأداء القرآنى فى شخصيته الإنسانية لحة واحدة ؛ وهو يواجه الفتنة بكل بشريته ـ مع نشأته فى بيت النبوة وتربيته ودينه ـ وبشريته مع نشأته وتربيته ودينه تمثل بمجموعها واقعيته بكل جوانبها . . لقد ضعف حين همت به حتى هم بها ؛ ولكن الخيط الآخر شده وأنقذه من السقوط فعلا . ولقد شعر بضعفه إزاء كيد النسوة . ومنطق البيئة ، وجو القصور ، ونسوة القصور أيضا ! ولكنه تمسك بالعروة الوثقى . . ليست هنالك لمحة واحدة مزوّرة فى واقعية الشخصية وطبيعتها ؛ وليس

Marfat.com

هنالك رائحة من مستنقعات الجاهلية ووحلها الفنى ! ذلك أن هذا هو الواقع السليم بكل جوانبه . .

◆ والعزيز . . وشخصيته بطبيعتها الخاصة ، وبطبيعة سمت الإمارة ؛ ثم بضعف النخوة ، وغلبة الرياء الاجتماعى وستر الظواهر وإنقاذها ! وفيه تتمثل كل خصائص بيئته :

« فلما رأى قميصه قُدّ من دبر ، قال : إنه من كيدكن ، إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين ! » . .

◆ والنسوة . . نسوة هذا المجتمع بكل ملامحه . . اللغط بسيرة امرأة العزيز وفتاها الذى راودته عن نفسه ، بعدما شغفها حبا ! والاستنكار الذى تبدو فيه غيرة النسوة من امرأة العزيز أكثر مما يبدو فيه استنكار الفعلة ! ثم وهلتهن أمام طلعة يوسف . ثم إقرارهن الأنثوى العميق بموقف المرأة التى كن يلغطن بقصتها ويستنكرن موقفها ؛ وإحساس هذه المرأة بهذا الإقرار الذى يشجعها على الاعتراف الكامل ، وهى آمنة فى ظل استسلامهن لأنوثتهن كما تصنعها بيئتهن الخاصة وتوجهها . ثم ميلهن كلهن على يوسف بالإغراء والإغواء ، رغم ماأنطقتهن به الوهلة الأولى من نظافته وطهارته البادية من قولهن : « حاش لله ! ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم » . . نأخذ ذلك من قولة يوسف عليه السلام :

« قال : رب السجن أحب إلىّ مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين » . .

فلم تعد امرأة العزيز وحدها تراوده ؛ ولكن عادت نسوة تلك الطبقة بجملتها تطارده !

◆ والبيئة . . التى تتجلى سماتها من خلال ذلك كله . ثم من خلال ذلك التصرف فى أمر يوسف ، على الرغم مما بدا من براءته . ذلك التصرف المقصود به مواراة الفضيحة ودفن معالمها ؛ ولا يهم أن يذهب برىء كيوسف ضحيتها :

« ثم بدا لهم من بعد مارأوا الآيات ليسجننه حتى حين » .

◆ فإذا تابعنا شخصية يوسف ــ عليه السلام ــ فإننا لانفتقد فى موقف واحد من مواقف القصة ملامح هذه الشخصية ، المنبثقة من مقوماتها الذاتية البيئية الواقعية ، المتمثلة فى كونه

Marfat.com

« العبد الصالح - الإنسان - بكل بشريته ، مع نشأته فى بيت النبوة وتربيته ودينه » . .

فهو فى السجن وظلماته - مع الظلم وظلماته ! - لايغفل عن الدعوة لدينه ، فى كياسة وتلطف - مع الحزم والفصل - وفى إدراك لطبيعة البيئة ومداخل النفوس فيها . . كما أنه لايغفل عن حسن تمثيله بشخصه وأدبه وسلوكه لدينه هذا الذى يدعو إليه فى سجنه :

« ودخل معه السجن فتيان . قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمرا ، وقال الآخر : إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه . نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين . قال : لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمنى ربى ، إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لايشكرون . ياصاحبى السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لايعلمون . ياصاحبى السجن ، أما أحدكما فيسقى ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه ، قضى الأمر الذى فيه تستفتيان » . .

وهو - مع هذا كله - بشر ، فيه ضعف البشر . فهو يتطلب الخلاص من سجنه ، بمحاولة إيصال خبره إلى الملك ، لعله يكشف المؤامرة الظالمة التى جاءت به إلى السجن للظلم . وإن كان الله - سبحانه - شاء أن يعلمه أن يقطع الرجاء إلا منه وحده :

« وقال للذى ظن أنه ناج منهما : اذكرنى عند ربك . فأنساه الشيطان ذكر ربه . فلبث فى السجن بضع سنين . . . » .

ثم تطالعنا ملامح هذه الشخصية كذلك بعد بضع سنين ، وقد رأى الملك رؤياه ، فحار فى تأويلها الكهنة والسدنة ؛ حتى تذكر صاحب السجن يوسف - بعد ماتمت التربية الربانية للعبد الصالح ، فاطمأن إلى قدر الله به واطمأن إلى مصيره - حتى إذا ماطلب للملك - بعد تأويله لرؤياه - أن يأتوه به ، أجاب فى هدوء المطمئن الواثق ؛ وتمنع عن مغادرة سجنه إلا بعد تحقيق تهمته وتبرئة سمعته :

Marfat.com

« وقال الملك : إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . يأيها الملأ أفتونى فى رؤياى ، إن كنتم للرؤيا تعبرون . قالوا : أضغاث أحلام ، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين . وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة : أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون . يوسف أيها الصديق ، أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون . قال : تزرعون سبع سنين دأبا ، فما حصدتم فذروه فى سنبله ، إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ماقدمتم لهن . إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون . . وقال الملك : ائتونى به . . فلما جاءه الرسول قال : ارجع إلى ربك فاسأله : مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ؟ إن ربى بكيدهن عليم . قال : ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن : حاش لله ! ماعلمنا عليه من سوء . قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لايهدى كيد الخائنين . وما أبرىء نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء ، إلا مارحم ربى ، إن ربى غفور رحيم . . وقال الملك : ائتونى به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال : اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظ عليم » . .

ومنذ هذه اللحظة التى تجلت فيها شخصية يوسف مكتملة ناضجة واعية ، مطمئنة ساكنة واثقة ، نجد هذه الشخصية تتفرد على مسرح الأحداث ، وتتوارى تماما شخصيات الملك والعزيز والنسوة والبيئة . ويمهد السياق القرآنى لهذا التحول فى القصة وفى الواقع بقوله :

« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين ، ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون » . .

ومنذ هذه اللحظة نجد هذه الشخصية تواجه ألوانا أخرى من الابتلاءات ، تختلف فى طبيعتها عن الألوان الأولى ؛ وتواجهها بذلك الاكتمال الناضج الواعى ، وبتلك الطمأنينة الساكنة الواثقة .

Marfat.com

• نجد يوسف وهو يواجه – للمرة الأولى – إخوته بعد ما فعلوا به تلك الفعلة القديمة ؛ وهو فى الموقف الأعلى بالقياس إليهم والأقوى .. ولكننا نجد سمة الضبط واضحة فى انفعالاته وتصرفاته :

« وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون . ولما جهزهم بجهازهم قال : ائتونى بأخ لكم من أبيكم ، ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين ؟ فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون . قالوا : سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون . وقال لفتيانه : اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون » ..

• ونجده وهو يدبر – بتدبير الله له – كيف يأخذ أخاه . فنلمح الشخصية الناضجة الواعية الحكيمة المطمئنة ، الضابطة الصابرة :

« ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه ، قال : إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون . فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ؛ ثم أذن مؤذن : أيتها العير إنكم لسارقون – قالوا – وأقبلوا عليهم – ماذا تفقدون ؟ قالوا : نفقد صواع الملك ، ولمن جاء به حمل بعير ، وأنا به زعيم . قالوا : تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض ، وما كنا سارقين . قالوا : فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قالوا : جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه ، كذلك نجزى الظالمين . فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ، ثم استخرجها من وعاء أخيه . كذلك كدنا ليوسف . ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك ، إلا أن يشاء الله ، نرفع درجات من نشاء ، وفوق كل ذى علم عليم . قالوا : إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل ! فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم ، قال : أنتم شر مكانا ، والله أعلم بما تصفون . قالوا : ياأيها العزيز ، إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه ، إنا نراك من المحسنين . قال : معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده ، إنا إذاً لظالمون » ..

• ثم نلتقى به وقد استوفت المحنة يعقوب أجلها ، وقدر الله أن تنقضى الابتلاءات التى نزلت به وببيته ، وحن يوسف إلى أبويه وأهله ، ورق لإخوته والضر باد بهم ، فكشف لهم عن

Marfat.com

نفسه ، فى عتاب رقيق ، وفى عفو كريم ، يجىء فى أوانه ، وكل الملابسات توحى به ، وتتوقعه من هذه الشخصية بسماتها تلك :

« فلما دخلوا عليه قالوا : ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة . فأوف لنا الكيل وتصدق علينا ، إن الله يجزى المتصدقين . قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ قالوا : أئنك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف ، وهذا أخى ، قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين . قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا ، وإن كنا لخاطئين . قال : لاتثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين . اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا ، وأتونى بأهلكم أجمعين » ..

● وفى النهاية يجىء ذلك الموقف الجليل الرائع .. موقف الدعاء الجامع ليوسف فى أوج سلطانه وأوج تأويل رؤياه وتحقق أحلامه .. وإذا به ينسلخ من هذا كله وينتحى جانبا ينفرد بربه ، ويناجيه خالصا له ، وذلك كله مطروح وراءه :

« رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث . فاطر السماوات والأرض . أنت وليى فى الدنيا والآخرة . توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » ..

إنها شخصية موحدة متكاملة ، بكل واقعيتها الممثلة لمقوماتها الواقعية فى نشأتها وبيئتها .

● ويعقوب .. الوالد المحب الملهوف ، والنبى المطمئن الموصول ، وهو يواجه بالاستبشار والخوف معاً تلك الرؤيا الواعدة التى رآها يوسف ؛ وهو يرى فيها بشائر مستقبل مرموق ، بينما هو يتوجس خيفة من الشيطان وفعله فى نفوس بنيه . فتتجلى شخصيته بواقعيتها الكاملة فى كل جوانبها :

« إذ قال يوسف لأبيه : ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين . قال : يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً . إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم » .

Marfat.com

ثم نجد هذه الشخصية كذلك بكل واقعيتها البشرية النبوية ، وبنوه يراودونه عن يوسف ثم وهم يفاجئونه بالفجيعة :

« قالوا : ياأبانا ، مالك لاتأمنا على يوسف ، وإنا له لناصحون . أرسله معنا غدا يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون . قال : إنى ليحزننى أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا : لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون . فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه فى غيابة الجب ، وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون . وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا : ياأبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب ، وماأنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب ، قال : بل سولت لكم أنفسكم أمرا ؛ فصبر جميل ، والله المستعان على ماتصفون » . .

ثم نلتقى بهذه الشخصية ـ بكل واقعيتها تلك ـ وبنوه يراودونه مرة أخرى على السلوة الباقية له . . أخى يوسف . . وقد طلبه منهم عزيزمصر ـ يوسف ـ الذى لايعرفونه ! فى مقابل أن يعطيهم كيلا يقتاتون به فى السنوات العجاف !

« فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يا أبانا منع منا الكيل ، فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون . قال : هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ؟ فالله خير حافظا وهو أرحم الراحمين . ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم ، قالوا : ياأبانا مانبغى ، هذه بضاعتنا ردت إلينا ، ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ، ونزداد كيل بعير ، ذلك كيل يسير . قال : لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله : لتأتننى به إلا أن يحاط بكم . فلما آتوه موثقهم قال : الله على مانقول وكيل . . وقال : يابنى لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شىء ، إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون . ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من الله من شىء ، إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها ، وإنه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لايعلمون » . .

Marfat.com

ثم نلتقى به في لجيته الثانية .. والدا ملهوفا ونبيا موصولا .. ذلك بعد أن دبر الله ليوسف كيف يأخذ أخاه . فيتخلف أحد أبناء يعقوب ـ صاحب الشخصية الخاصة فيهم ، متوافيا مع سماته التى صاحبت مواقفه كلها فى القصة ، مشفقا أن يقابل أباه بعد الموثق الذى آتاه إياه ، إلا أن يأذن له أبوه أو يحكم له الله ـ :

« فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا ، قال كبيرهم : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله ، ومن قبل ما فرطتم في يوسف ؟ فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى ، أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين . ارجعوا إلى أبيكم فقولوا : يا أبانا إن ابنك سرق ! وما شهدنا إلا بما علمنا ، وما كنا للغيب حافظين . واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها ، وإنا لصادقون . قال : بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعا إنه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال : يا أسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ! قال : إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله ، وأعلم من الله ما لا تعلمون . يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيئسوا من روح الله . إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون » . .

وفى آخر مواقف المحنة الطويلة للشيخ المبتلى نجد ذات الملامح وذات الواقعية . وهو يشم ريح يوسف فى قميصه ، ويواجه غيظ بنيه وتبكيتهم فلا يشك فى صدق ظنه بربه :

« ولما فصلت العير قال أبوهم : إنى لأجد ريح يوسف ، لولا أن تفندون . قالوا : تالله إنك لفى ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا . قال : ألم أقل لكم : إنى أعلم من الله ما لا تعلمون ؟ قالوا : يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين . قال : سوف أستغفر لكم ربى ، إنه هو الغفور الرحيم » .

إنها الشخصية الموحدة الخصائص والملامح ، الواقعية المشاعر والتصرفات ، الممثلة لكل واقعية ذاتها وظروفها وبيئتها بلا تزوير ولا نقص ولا تحريف !

* * *

Marfat.com

والواقعية الصادقة الأمينة النظيفة السليمة فى الوقت نفسه ، لاتقف عند واقعية الشخصيات الإنسانية التى تحفل بها القصة فى هذا المجال الواسع ، على هذا المستوى الرائع . ولكنها تتجلى كذلك فى واقعية الأحداث والسرد والعرض وصدقها وطبيعتها فى مكانها وزمانها ، وفى بيئتها وملابساتها . . فكل حركة وكل خالجة وكل كلمة تجىء فى أوانها ؛ وتجىء فى الصورة المتوقعة لها ؛ وتجىء فى مكانها من مسرح العرض ؛ متراوحة بين منطقة الظل ومنطقة الضوء بحسب أهميتها ودورها وطبيعة جريان الحياة بها . . الأمر الملحوظ فى الشخصيات أيضاً كما قررنا من قبل هذا . .

حتى لحظات الجنس فى القصة ومواقفه أخذت مساحتها كاملة ـ فى حدود المنهج النظيف اللائق « بالإنسان » فى غير تزوير ولا نقص ولا تحريف للواقعية البشرية فى شمولها وصدقها وتكاملها ـ ولكن استيفاء تلك اللحظات لمساحتها المتناسقة مع بقية الأحداث والمواقف لم يكن معناه الوقوف أمامها كما لو كانت هى كل واقعية الكائن البشرى ؛ وكما لو كانت هى محور حياته كلها ، وهى كل أهداف حياته التى تستغرقها ! كما تحاول الجاهلية أن تفهمنا أن هذا وحده هو الفن الصادق !

إن الجاهلية إنما تمسخ الكائن البشرى باسم الصدق الفنى ! وهى تقف أمام لحظة الجنس كما لو كانت هى كل وجهة الحياة البشرية بجملتها ؛ فتنشىء منها مستنقعاً واسعاً عميقاً ، مزيناً فى الوقت ذاته بالأزهار الشيطانية !

وهى لاتفعل هذا لأن هذا هو الواقع ، ولا لأنها هى مخلصة فى تصوير هذا الواقع ! إنما تفعله لأن « بروتوكولات صهيون » تريد هذا ! تريد تجريد « الإنسان » إلا من حيوانيته حتى لايعصم اليهود وحدهم بأنهم هم الذين يتجردون من كل القيم غير المادية ! وتريد أن تغرق البشرية كلها فى وحل المستنقع كى تنحصر فيه كل اهتماماتها ، وتستغرق فيه كل طاقاتها ؛ فهذه هى أضمن سبيل لتدمير البشرية حتى تجثو على ركبتيها خاضعة لملك صهيون المرتقب الملعون ! ثم تتخذ من الفن وسيلة إلى هـذا الشر كله ، إلى جانب ما تتخذه من نشر المذاهب « العلمية ! » المؤدية إلى ذات الهدف . تارة باسم « الداروينية » وتارة باسم

Marfat.com

« الفرويدية » وتارة باسم « الماركسية » أو « الاشتراكية العلمية » . . وكلها سواء فى تحقيق المخططات الصهيونية الرهيبة !

* * *

والقصة بعد ذلك تتجاوز الشخصيات والأحداث لترسم ظلال الفترة التاريخية التى تجرى فيها أحداث القصة ، وتتحرك فيها شخصياتها الكثيرة ، وتسجل سماتها العامة ، فترسم مسرح الأحداث بأبعاده العالمية فى تلك الفترة التاريخية . . ونكتفى ببعض اللمحات والسمات التى ترسم تلك الأبعاد :

◆ إن مصر فى هذه الفترة لم يكن يحكمها الفراعنة من الأسر المصرية ؛ إنما كان يحكمها « الرعاة » الذين عاش إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب قريباً منهم ، فعرفوا شيئا عن دين الله منهم . نأخذ هذا من ذكر القرآن للملك بلقب « الملك » فى حين يسمى الملك الذى جاء على عهد موسى ـ عليه السلام ـ من بعد بلقبه المعروف . « فرعون » . . ومن هذا يتحدد زمن وجود يوسف ـ عليه السلام ـ فى مصر . فهو كان ما بين عهد الأسرة الثالثة عشرة والأسرة السابعة عشرة ؛ وهى أسر « الرعاة » الذين سماهم المصريون « الهكسوس » ! كراهية لهم ؛ إذ يقال : إن معنى الكلمة فى اللغة المصرية القديمة : « الخنازير » أو « رعاة الخنازير » ! وهى فترة تستغرق نحو قرن ونصف قرن .

◆ إن رسالة يوسف عليه السلام كانت فى هذه الفترة . وهو كان قد بدأ الدعوة إلى الإسلام . . ديانة التوحيد الخالص . . وهو فى السجن ؛ وقرر أنها دين آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ؛ وقررها فى صورة واضحة كاملة دقيقة شاملة ، فيما حكاه القرآن الكريم من قوله :

« إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ماكان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لايشكرون . ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من

Marfat.com

سلطان ، إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . .

وهي صورة للإسلام واضحة كاملة ودقيقة شاملة - كما جاء به رسل الله جميعا - من ناحية أصول العقيدة . تحتوى الإيمان بالله ، والإيمان بالآخرة ، وتوحيد الله وعدم الشرك به أصلا ، ومعرفة الله سبحانه بصفاته . . الواحد ، القهار . . والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلا ؛ ومن ثم نفى الأرباب التي تتحكم في رقاب العباد ، وإعلان السلطان والحكم لله وحده ، مادام أن الله أمر ألا يعبد الناس غيره . ومزاولة السلطان والحكم والربوبية هي تعبيد للناس مخالف للأمر بعبادة الله وحده . وتحديد معنى « العبادة » بأنها الخضوع للسلطان والحكم والإذعان للربوبية ، وتعريف الدين القيم بأنه إفراد الله سبحانه بالعبادة - أي إفراده بالحكم - فهما مترادفان أو متلازمان : « إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم » . . وهذه هي أوضح صورة للإسلام وأكملها وأدقها وأشملها . .

وواضح أن يوسف - عليه السلام - عندما سيطر على مقاليد الأمور في مصر ، استمر في دعوته للإسلام على هذا النحو الواضح الكامل الدقيق الشامل . . ولابد أن الإسلام انتشر في مصر على يديه - وهو يقبض على أقوات الناس وأزوادهم لا على مجرد مقاليد الحكم بينهم - وانتشر كذلك في القطاع المجاورة ممن كانت وفودها تجيء لتمتار مما تم ادخاره بحكمته وتدبيره - وقد رأينا إخوة يوسف يجيئون من أرض كنعان المجاورة في الأردن ضمن غيرهم من القوافل ليمتاروا من مصر ويتزودوا ، مما يصور حالة الجدب التي حلت بالمنطقة كلها في هذه الفترة .

والقصة تشير إلى آثار باهتة للعقيدة الإسلامية التي عرف الرعاة شيئا عنها في أول القصة ، كما تشير إلى انتشار هذه العقيدة ووضوحها بعد دعوة يوسف بها . .

والإشارة الأولى وردت في حكاية قول النسوة حين طلع عليهن يوسف :

« فلما رأينه أكبرنه ، وقلن : حاش لله ! ما هذا بشرا . إن هذا إلا ملك كريم »

Marfat.com

ووردت فى قول العزيز لامرأته :

« يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك ؛ إنك كنت من الخاطئين » .

أما الإشارة الثانية الواضحة فقد جاءت على لسان امرأة العزيز التى يتجلى أنها آمنت بعقيدة يوسف وأسلمت فى النهاية ، فيما حكاه عنها السياق القرآنى :

« قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحق ، أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب ، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين . وما أبرئ نفسى . إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ، إن ربى غفور رحيم » . .

وإذا اتضح أن ديانة التوحيد ـ على هذا المستوى ـ كانت قد عرفت قبل تولى يوسف مقاليد الحكم فى مصر ؛ فلا بد أن تكون قد انتشرت بعد ذلك واستقرت على نطاق واسع فى أثناء توليه الحكم ، ثم من بعد ذلك فى عهد أسر الرعاة . فلما ستترد الفراعنة زمام الأمور فى الأسرة الثامنة عشرة أخذوا يقاومون ديانة التوحيد ممثلة فى ذرية يعقوب التى تكاثرت فى مصر ، لإعادة الوثنية التى تقوم عليها الفرعونية ! . . .

وهذا يكشف لنا سببا أصيلا من أسباب اضطهاد الفراعنة بعد ذلك لبنى إسرائيل ـ أى يعقوب ـ إلى جانب السبب السياسى ، وهو أنهم جاءوا واستوطنوا وحكموا واستقروا فى عهد ملوك الرعاة الوافدين . فلما طرد المصريون ملوك الرعاة طاردوا حلفاءهم من بنى إسرائيل أيضا . . وإن كان اختلاف العقيدتين ينبغى أن يكون هو التفسير الأقوى لذلك الاضطهاد المظيع . ذلك أن انتشار عقيدة التوحيد الصحيحة يحطم القاعدة التى يقوم عليها ملك الفراعين ! فهى العدو الأصيل للطواغيت وحكم الطواغيت وربوبية الطواغيت !

ولقد وردت إشارة إلى هذا الذى نقرره فى حكاية القرآن الكريم لقول مؤمن آل فرعون فى سورة غافر ؛ فى دفاعه الإسلامى المجيد عن موسى عليه السلام ، فى وجه فرعون وملئه عندما هم فرعون بقتل موسى ، ليقتل معه الخطر الذى يتهدد ملكه كله من عقيدة التوحيد التى جاء بها موسى :

Marfat.com

« وقال فرعون : ذرونى أقتل موسى وليدع ربه ، إنى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد . وقال موسى : إنى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب . وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه : أتقتلون رجلا أن يقول : ربى الله ؟ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب . ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض . فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ؟ قال فرعون : ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد . وقال الذى آمن : ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب . مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، وما الله يريد ظلما للعباد . وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد . يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ، ومن يضلل الله فما له من هاد . . ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به ، حتى إذا هلك قلتم : لن يبعث الله من بعده رسولا ، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب . الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم . كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ! كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ... الخ » . .

فقد كان الصراع الحقيقى بين عقيدة التوحيد التى تفرد الله سبحانه بالربوبية ، فتفرده بالعبادة ـ أى بالدينونة والخضوع والاتباع لحاكميته وحده ـ وبين الفرعونية التى تقوم على أسس العقيدة الوثنية ، ولا تقوم إلا بها .

ولعل التوحيد الناقص المشوه الذى عرف به « أخناتون » لم يكن إلا أثرا من الآثار المضطربة التى بقيت من التوحيد الذى نشره يوسف عليه السلام فى مصر كما أسلفنا ؛ وبخاصة إذا صح ما يقال فى التاريخ من أن أم أخناتون كانت آسيوية ولم تكن فرعونية !

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى اللمحات الدالة على طبيعة الفترة التاريخية التى وقعت فيها أحداث القصة وتحركت فيها أشخاصها . فنجدها تتجاوز حدود الرقعة

Marfat.com

المصرية ، وتسجل طابع العصر كله . فواضح تماما انطباع هذه الفترة الزمنية بالرؤى والتنبؤات التى لاتقتصر على أرض واحدة ، ولا على قوم بأعيانهم . . ونحن نرى هذه الظاهرة واضحة فى رؤيا يوسف وتعبيرها وتأويلها فى النهاية . وفى رؤيا الفتيين صاحبي السجن . وفى رؤيا الملك فى النهاية .. وكلها تُتلقى بالاهتمام سواء ممن يرونها أو ممن يسمعونها مما يشى بطابع العصر كله !

وعلى وجه الإجمال فإن القصة غنية بالعناصر الفنية . غنية كذلك بالعنصر الإنسانى ، حافلة بالانفعال والحركة . وطريقة الأداء تبرز هذه العناصر إبرازا قويا . فضلا على خصائص التعبير القرآنية الموحية المؤثرة ، ذات الإيقاع الموسيقى المناسب لكل جو من الأجواء التى يصورها السياق .

فى القصة يتجلى عنصر الحب الأبوى فى صور ودرجات منوعة واضحة الخطوط والظلال : فى حب يعقوب ليوسف وأخيه وحبه لبقية أبنائه . وفى استجاباته الشعورية للأحداث حول يوسف من أول القصة إلى آخرها .

وعنصر الغيرة والتحاسد بين الإخوة من أمهات مختلفات ، بحسب مايرون من تنوع صور الحب الأبوى .

وعنصر التفاوت فى الاستجابات المختلفة للغيرة والحسد فى نفوس الإخوة : فبعضهم يقودهم هذا الشعور إلى إضمار جريمة القتل ، وبعضهم يشير فقط بطرح يوسف فى الجب تلتقطه بعض السيارة نفورا من الجريمة..

وعنصر المكر والخداع فى صور شتى . من مكر إخوة يوسف به ، إلى مكر امرأة العزيز بيوسف وبزوجها وبالنسوة .

وعنصر الشهوة ونزواتها والاستجابة لها بالاندفاع أو بالإحجام . وبالإعجاب والتمنى ، والاعتصام والتأبى .

وعنصر الندم فى بعض ألوانه ، والعفو فى أوانه . والفرح بتجمع المتفارقين . .

وذلك إلى بعض صور المجتمع الجاهلى فى طبقة العلية من الملأ : فى البيت والسجن

Marfat.com

والسوق والديوان . في مصر يومذاك . والمجتمع العبراني ، وما يسود العصر من الرؤى والتنبؤات .

وتبدأ القصة بالرؤيا يقصها يوسف على أبيه ، فينبئه أبوه بأن سيكون له شأن عظيم ، وينصحه بألا يقصها على إخوته كي لايثير حسدهم فيغريهم الشيطان به فيكيدون له . . ثم تسير القصة بعد ذلك ، وكأنما هي تأويل للرؤيا ولما توقعه يعقوب من ورائها حتى إذا اكتمل تأويل الرؤيا في النهاية أنهى السياق القصة ، ولم يسر فيها كما سار كُتَّاب « العهد القديم » بعد هذا الختام الفني الدقيق ، الوافي بالغرض الديني كل الوفاء .

وما يسمى بالعقدة الفنية في القصة واضح في قصة يوسف . فهي تبدأ بالرؤيا كما سبق ، ويظل تأويلها مجهولا ، يتكشف قليلا قليلا ، حتى تجيء الخاتمة فتحل العقدة حلا طبيعيا لا تمحُّل فيه ولا اصطناع !

والقصة مقسمة إلى حلقات . كل حلقة تحتوي جملة مشاهد . والسياق يترك فجوات بين المشهد والمشهد يملؤها تخيل القارئ وتصوره ، ويكمل ماحذف من حركات وأقوال ، مع مافي هذا من تشويق ومتاع . .

وحسبنا هذا القدر من التحليل الفني لقصة يوسف ، وتمثيلها للمنهج القرآني الإسلامي في الأداء . وفي هذا القدر مايكشف عن مدى الإمكانيات التي يعرضها هذا المنهج للمحاولات البشرية في الأدب الإسلامي ، لتمكينه من الأداء الفني الكامل والواقعية الصادقة السليمة ، دون أن يسف أو يحتاج إلى التخلي عن النظافة اللائقة بفن يقدم لـ « الإنسان » (١) !

* * *

وتبقى وراء ذلك كله عبرة القصة وقيمتها في مجال الحركة الإسلامية ؛ وإيحاءاتها المتوافية مع حاجات الحركة في بعض مراحلها . ومع حاجاتها الثابتة التي لا تتعلق بمرحلة خاصة منها . إلى جانب الحقائق الكبرى التي تتقرر من خلال سياق القصة ، ثم من خلال سياق السورة كلها بعد ذلك . وبخاصة تلك التعقيبات الأخيرة في السورة . .

---

(١) للاستزادة من البحث يراجع كتاب : « منهج الفن الإسلامي » لمحمد قطب .

Marfat.com

ونكتفى فى هذا التقديم للسورة بلمحات سريعة من هذا كله :

◆ لقد أشرنا فى مطالع هذا التقديم إلى مناسبة قصة يوسف بجملتها للفترة الحرجة التى كانت تمر بها الحركة الإسلامية فى مكة عند نزول السورة ، والشدة التى كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والقلة المؤمنة معه يتعرضون لها . وذلك بما تحمل القصة من عرض لابتلاءات أخ كريم للنبى الكريم ؛ ثم بما تحمله بعد ذلك من استفزاز من الأرض ثم تمكين (١) .

وهذا الذى سبق أن قررناه يصور لونا من إيحاءات القصة المتوافية مع حاجات الحركة الإسلامية فى تلك الفترة ؛ ويقرب معنى « الطبيعة الحركية » لهذا القرآن وهو يزود الدعوة ، ويدفع الحركة ، ويوجه الجماعة المسلمة توجيها واقعيا إيجابيا محدد الهدف ،رسوم الطريق .

◆ كذلك أشرنا فى ثنايا تحليل القصة إلى الصورة الواضحة الكاملة الدقيقة الشاملة للإسلام ، كما عرضها يوسف عليه السلام . وهى صورة تستحق الوقوف أمامها طويلا . .

إنها تقرر ابتداء وحدة العقيدة الإسلامية التى جاء بها الرسل جميعا ؛ واستيفاء مقوماتها الأساسية فى كل رسالة ؛ وقيامها على التوحيد الكامل لله سبحانه ، وعلى تقرير ربوبيته للبشر وحده ، ودينونة البشر له وحده . . كما تقرر تضمن تلك العقيدة الواحدة للإيمان بالدار الآخرة بصورة واضحة . وهذا التقرير يقطع الطريق على مزاعم ما يسمونه « علم الأديان المقارن » من أن البشرية لم تعرف التوحيد ولا الآخرة إلا أخيرا جداً ، بعد أن اجتازت عقائد التعدد والتثنية بأشكالها وصورها المختلفة ؛ وأنها ترقت فى معرفة العقيدة كما ترقت فى معرفة العلوم والصناعات . . هذه المزاعم التى تتجه إلى تقرير أن الأديان من صنع البشر شأنها شأن العلوم والصناعات (٢) .

كذلك هى تقرر طبيعة ديانة التوحيد التى جاء بها الرسل جميعا . . إنه ليس توحيد الألوهية فحسب . ولكنه كذلك توحيد الربوبية . وتقرير أن الحكم لله وحده فى أمر الناس

---

(١) ص ١٧٧ من هذا الجزء .

(٢) يراجع ما سبق تقريره عن هذه القضية فى هذا الجزء ص ٧٠ - ص ٧٦ .

Marfat.com

كله ؛ وأن هـذا التقرير ناشئ من أمر الله سبحانه بألا يُعبـد إلا إياه . والتعبير القرآنى الدقيق فى هذه القضية يحـدد مدلول « العبادة » تحديدا دقيقا . فهى الحكم من جانب الله والدينونة من جانب البشر . . وهـذا وحده هو « الدين القيم » فلا دين إذن لله مالم تكن دينونة الناس لله وحـده ، ومالم يـكن الحـكم لله وحده . ولا عبادة لله إذن إذا دان الناس لغير الله فى شأن واحد من شؤون الحياة . فتوحيد الألوهية يقتضى توحيد الربوبية . والربوبية تتمثل فى أن يكون الحـكم لله . . أو أن تكون العبادة لله . . فهما مترادفان أو متلازمان . والعبادة التى يعتبر بها الناس مسلمين أو غير مسلمين هى الدينونة والخضوع والاتباع لحـكم الله دون سواه . .

وهذا التقرير القرآنى بصورته هذه الجازمة ينهى كل جدل فى اعتبار الناس فى أى زمان وفى أى مكان مسلمين أو غير مسلمين ، فى الدين القيم أم فى غير هذا الدين . . فهذا الاعتبار يعد من المعلوم من الدين بالضرورة . . من دان لغير الله وحكّم فى أى أمر من أمور حياته غير الله ، فليس من المسلمين وليس فى هذا الدين . ومن أفرد الله سبحانه بالحاكمية ورفض الدينونة لغيره من خلائقه فهو من المسلمين وفى هـذا الدين . . وكل ماوراء ذلك تمحُّل لا يحـاوله إلا المهزومون أمام الواقع الثقيل فى بيئة من البيئات وفى قرن من القرون ! ودين الله واضح . وهـذا النص وحده كاف فى جعل هذا الحـكم من المعلوم من الدين بالضرورة . من جادل فيه فقد جادل فى هذا الدين !

• ومن الإيحـاءات الواردة فى ثنايا القصة صورة الإيمـان المتجرد الخالص الموصول كما تتجلى فى قلبى عبدين صالحين من عباد الله المختارين : يعقوب ويوسف :

فأما يوسف فقد أشرنا من قبل إلى موقفه الأخير متجردا من كل شىء ، نافضا عنه كل شىء ، متجها إلى ربه ، مبتهلا إليه فى انـكسار وفى خشوع يناجيه :

« رب قد آتيتنى من الملك ، وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السماوات والأرض ، أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » . .

ولـكن هذا الموقف الأخير لم يـكن هو كل شىء فى هذا الجانب ؛ فهو على مدار القصة يقف هذا الموقف ، موصولا بربه ، يحسه ـ سبحانه ـ قريبا منه مستجيبا له :

Marfat.com

فى موقف الإغراء والفتنة والغواية يهتف :

« معاذ الله ! إنه ربى أحسن مثواى . إنه لايفلح الظالمون » . .

وفى الموقف الآخر وهو يخشى على نفسه الضعف والميل يهتف كذلك :

« رب ، السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ، وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين » . .

وفى موقف تعريف نفسه لإخوته ، يبين فضل الله عليه ويشكر نعمته ويذكرها :

« قالوا : أئنك لأنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين » . .

وكلها مواقف تحمل إيحاءات يتجاوز مداها حاجة الحركة الإسلامية فى مكة ، إلى حاجة الحركة الإسلامية فى كل فترة .

وأما يعقوب ففى قلبه تتجلى حقيقة ربه باهرة عميقة لطيفة مأنوسة فى كل موقف وفى كل مناسبة ؛ وكلما اشتد البلاء شفت تلك الحقيقة فى قلبه ورفت بمقدار ماتعمقت وبرزت . .

فمنذ البدء ويوسف يقص عليه رؤياه يذكر ربه ويشكر نعمته :

« وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم » . .

وفى مواجهة الصدمة الأولى فى يوسف يتجه إلى ربه مستعينا به :

« قال : بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ماتصفون » .

وفى مواجهته لعاطفته الأبوية الخائفة على أبنائه ، وهو يوصيهم ألا يدخلوا من باب واحد وأن يدخلوا مصر من أبواب متفرقة ، لاينسى أن هذا التدبير لايغنى عنهم من الله شيئا ، وأن الحكم النافذ هو حكم الله وحده ؛ وإنما هى حاجة فى النفس لاتغنى من الله وقدره :

« وقال : يابنى لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وما أغنى عنكم من الله من شىء ، إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون » . .

Marfat.com

وفي مواجهة الصدمة الثانية في كبرته وهرمه وضعفه وحزنه ، لم يتسرب اليأس من رحمة ربه لحظة واحدة إلى قلبه :

« قال : بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعا ؛ إنه هو العليم الحكيم » . .

ثم يبلغ تجلي الحقيقة في قلب يعقوب درجة البهاء والصفاء ، وبنوه يؤنبونه على حزنه على يوسف وبكائه له حتى تبيض عيناه من الحزن ؛ فيواجههم بأنه يجد حقيقة ربه في قلبه كما لا يجدونها ، ويعلم من شأن ربه مالا يعلمون ؛ فمن هنا اتجاهه إليه وحده وشكواه له وبثه ؛ ورجاؤه في رحمته ورَوْحه :

« وتولى عنهم وقال : ياأسفا على يوسف ! وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا : تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين ! قال : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون . . يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، ولا تيأسوا من روح الله ، إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » . .

ولقد ذكرهم بما يعلمه من شأن ربه وما يجده من حقيقته في قلبه ، وهم يجادلونه في ريح يوسف ، وقد صدّق الله فيه ظنه :

« ولما فصلت العير قال أبوهم : إني لأجد ريح يوسف ، لولا أن تفندون . قالوا : تالله إنك لفي ضلالك القديم . فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا ، قال : ألم أقل لكم : إني أعلم من الله مالا تعلمون ؟ » . .

إنها الصورة الباهرة لتجلي حقيقة الألوهية في قلب من قلوب الصفوة المختارة . وهي تحمل الإيحاء المناسب لفترة الشدة في حياة الجماعة المسلمة في مكة ؛ كما أنها تحمل الإيحاء الدائم بالحقيقة الإيمانية الكبيرة ، لكل قلب يعمل في حقل الدعوة والحركة بالإسلام على مدار الزمان أيضا .

* * *

Marfat.com

وأخيرا نجيء إلى التعقيبات المتنوعة التى جاءت بعد القصة الطويلة إلى نهاية السورة.

◆ إن التعقيب الأول والمباشر يواجه تكذيب قريش بالوحى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بتقرير مأخوذ من هذا القصص الذى لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حاضرا وقائعه:

« ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون » . .

وهذا التعقيب يترابط مع التقديم للقصة فى الاتجاه ذاته:

« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنت من قبله لمن الغافلين » . .

والتقديم والتعقيب على هذا النحو يؤلفان مؤثرا موحيا من المؤثرات الكثيرة فى سياق السورة، لتقرير الحقيقة التى يعرضانها، وتوكيدها فى مواجهة الاعتراض والتكذيب.

◆ ومن ثم يعقب ذلك التسرية عن قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتهوين أمر المكذبين على نفسه. وبيان مدى عنادهم وإصرارهم وعماهم عن الآيات المبثوثة فى كتاب الكون، وهى حسبُ الفطرة السليمة فى التنبه إلى دلائل الإيمان، والاستماع إلى الدعوة والبرهان ثم تهديدهم بعذاب الله الذى قد يفاجئهم وهم غافلون:

« وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين. وما تسألهم عليه من أجر، إن هو إلا ذكر للعالمين. وكأى من آية فى السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون. وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون. أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لايشعرون؟ » . .

وهى إيقاعات مؤثرة بقدر ماتحمل من حقائق عميقة عن طبيعة الناس حين لايدينون بدين الله الصحيح. وبخاصة فى قوله تعالى: « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » . .

Marfat.com

فهذا هو التصور العميق لكثير من النفوس التي يختلط فيها الإيمان بالشرك ، لأنها لم تحسم في قضية التوحيد .

• وهنا يجيء الإيقاع الكبير العميق المؤثر للوحي ، بتوجيه الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى تحديد طريقه وتمييزها وإفرادها عن كل طريق ، والمفاصلة على أساسها الواضح الفريد :

« قل : هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله ، وما أنا من المشركين » . .

• ثم تختم السورة بإيقاع آخر يحمل عبرة القصص القرآني كله ، في هذه السورة وفي سواها . يحملها للنبي - صلى الله عليه وسلم - والقلة المؤمنة معه ، ومعها التثبيت والتسرية والبشرى ؛ ويحملها للمشركين المعاندين ، ومعها التذكير والعظة والنذير . كما أن فيها للجميع تقريراً لصدق الوحي وصدق الرسول ؛ وتقريرا لحقيقة الوحي وحقيقة الرسالة ، مع تخليص هذه الحقيقة من الأوهام والأساطير :

« وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى . أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون ؟ حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا ، فنجي من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » . .

إنه الإيقاع الأخير . والإيقاع الكبير . .

* * *

وبعد فلعل من المناسب في تقديم السورة التي حوت قصة يوسف ، نموذجا كاملا للأداء الفني الصادق الجميل ، أن نلم بشيء من لطائف التناسق في الأداء القرآني في السورة بكاملها وأن نقف عند نماذج من هذه اللطائف تمثل سائرها :

• في هذه السورة - كما في السور القرآنية الأخرى - تتكرر تعبيرات معينة ، تؤلف

Marfat.com

جزءا من جو السورة وشخصيتها الخاصة . وهنا يرد ذكر العلم كثيرا ، وما يقابله من الجهل وقلة العلم فى مواضع شتى :

« وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم » .

« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث . والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لايعلمون » .

« ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما . وكذلك نجزى المحسنين » .

« فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن؛ إنه هو السميع العليم » .

« قال : لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما . ذلكما مما علمنى ربى : . .

« إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لايعلمون » . .

« قالوا : أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » . .

« يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » . .

« وقال الملك : ائتونى به ، فلما جاءه الرسول قال : ارجع إلى ربك فاسأله : مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن؟ إن ربى بكيدهن عليم » . .

« ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لايهدى كيد الخائنين » . .

« قال : اجعلنى على خزائن الأرض ؛ إنى حفيظ عليم » . .

« . . . وإنه لذو علم لما علمناه ، ولكن أكثر الناس لايعلمون » . .

« قالوا : تالله لقد علمتم ماجئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين » . .

« قال : أنتم شر مكانا ، والله أعلم بما تصفون » .

Marfat.com

« فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم : ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله .. » ..

« وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين » ..

« عسى الله أن يأتيني بهم جميعا؛ إنه هو العليم الحكيم » ..

« قال : إنما أشكو بثي وحزني إلى الله ، وأعلم من الله مالا تعلمون » ..

« قال : هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ » ..

« قال : ألم أقل لكم : إني أعلم من الله مالا تعلمون ؟ » ..

« رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ... »

وهي ظاهرة بارزة تلفت النظر إلى بعض أسرار التناسق ولطائفه في هذا الكتاب الكريم .

◆ وفي السورة تعريف بخصائص الألوهية ، وفي مقدمتها « الحكم » وهو يرد مرة على لسان يوسف ـ عليه السلام ـ بمعنى الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم وطاعتهم الإرادية ، ويأتي مرة على لسان يعقوب ـ عليه السلام ـ بمعنى الحاكمية في العباد من ناحية دينونتهم لله في صورتها القهرية القدرية ، فيتكامل المعنيان في تقرير مدلول الحكم وحقيقة الألوهية على هذا النحو الذي لايدع عفوا ولا مصادفة أبدا :

يقول يوسف في معرض تفنيد ربوبية الحكام في مصر ومخالفتها لوحدانية الألوهية :

« ياصاحبي السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ماأنزل الله بها من سلطان . إن الحكم إلا لله ، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، ذلك الدين القيم » ..

ويقول يعقوب في معرض تقرير أن قدر الله نافذ وأن قضاءه ماض :

« يابني ، لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ، وماأغني عنكم من الله من شيء ، إن الحكم إلا لله ، عليه توكلت ، وعليه فليتوكل المتوكلون » ..

وهذا التكامل في مدلول الحكم يشير إلى أن الدين لايستقيم إلا أن تكون الدينونة

Marfat.com

الإرادية لله فى الحكم، كالدينونة القهرية له سبحانه فى القدر. فكلاهما من العقيدة؛ وليست الدينونة فى القدر القاهر وحدها هى الداخلة فى نطاق الاعتقاد، بل الدينونة الإرادية فى الشريعة هى كذلك فى نطاق الاعتقاد.

◆ ومن لطائف التناسق أن يذكر يوسف الحصيف الكيس اللطيف المدخل، صفة الله المناسبة .. « اللطيف » .. فى الموقف الذى يتجلى فيه لطف الله فى التصريف:

« ورفع أبويه على العرش، وخروا له سجدا. قال: يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا. وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن، وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى .. إن ربى لطيف لما يشاء .. إنه هو العليم الحكيم » ..

◆ ومن لطائف التناسق ما سبق أن أشرنا إليه من التطابق فى السورة بين تقديم القصص، والتعقيب المباشر عليه، والتعقيب الختامى الطويل .. وكل هذه التعقيبات تتجه إلى تقرير قضايا واحدة، وتتلاقى عليها بين البدء والختام.

وحسبنا فى التعريف بالسورة هذه اللمسات حتى نلتقى بها فى السياق.

Marfat.com

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

« الٓر تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۞ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ * نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ، وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ .

« إِذۡ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ : يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيۡتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوۡكَبًا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ، رَأَيۡتُهُمۡ لِي سَٰجِدِينَ * قَالَ : يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًا ، إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ * وَكَذَٰلِكَ يَجۡتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ ، وَيُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعۡقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ ، إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ .

« لَّقَدۡ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخۡوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٞ لِّلسَّآئِلِينَ * إِذۡ قَالُواْ : لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ * ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا يَخۡلُ لَكُمۡ وَجۡهُ أَبِيكُمۡ ، وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعۡدِهِۦ قَوۡمٗا صَٰلِحِينَ * قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ : لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ ، وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ .

« قَالُواْ : يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ ، وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ * أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ * قَالَ : إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ ، وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ * قَالُواْ : لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ

Marfat.com

« فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ، وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .

« وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ * قَالُوا : يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا ، فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ، وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ * وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، قَالَ : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ .

« وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ، فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ، قَالَ : يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ! وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ، وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ » ⑳

هذا الدرس هو المقدمة ، ثم الحلقة الأولى من القصة ، وتتألف من ستة مشاهد ، وتبدأ من رؤيا يوسف إلى نهاية مؤامرة إخوته عليه ، ووصوله إلى مصر .. وسنواجه النصوص الواردة فيه مباشرة ، بعد ذلك التقديم السابق للسورة ، وفيه غناء :

* * *

« الر . تلك آيات الكتاب المبين . إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين » . .

ألف . لام . را .. « تلك آيات الكتاب المبين »

هذه الأحرف وما من جنسها وهي قريبة للناس متداولة بينهم . هي هي بعينها تلك الآيات البعيدة المتسامية على الطاقة البشرية . آيات الكتاب المبين . ولقد نزله الله كتاباً عربياً مؤلفاً من هذه الأحرف العربية المعروفة :

Marfat.com

« لعلكم تعقلون » . .

وتدركون أن الذى يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز لا يمكن أن يكون بشرا ، فلا بد عقلا أن يكون القرآن وحيا . والعقل هنا مدعو لتدبر هذه الظاهرة ودلالتها القاهرة .

ولما كان جسم هذه السورة قصة فقد أبرز ذكر القصص من مادة هذا الكتاب ، على وجه التخصيص :

« نحن نقص عليك احسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن » . .

فبإيحائنا هذا القرآن إليك قصصنا عليك هذا القصص ــ وهو أحسن القصص ــ وهو جزء من القرآن الموحى به .

« وإن كنت من قبله لمن الغافلين » . .

فقد كنت أحد الأميين فى قومك ، الذين لا يتوجهون إلى هذا النحو من الموضوعات التى جاء بها القرآن ، ومنها هذا القصص الكامل الدقيق .

* * *

هذه المقدمة إشارة البدء إلى القصة . .

ثم يرفع الستار عن المشهد الأول فى الحلقة الأولى ، لنرى يوسف الصبى يقص رؤياه على أبيه :

« إذ قال يوسف لأبيه : ياأبت ، إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر . رأيتهم لى ساجدين . قال : يابنى لا تقصص رؤياك على إخوتك ، فيكيدوا لك كيدا . إن الشيطان للإنسان عدو مبين . وكذلك يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك ، وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق ، إن ربك عليم حكيم » . .

كان يوسف صبيا أو غلاما ؛ وهذه الرؤيا كما وصفها لأبيه ليست من رؤى الصبية ولا الغلمان ؛ وأقرب ما يراه غلام ــ حين تكون رؤياه صبيانية أو صدى لما يحلم به ــ أن يرى هذه

Marfat.com

الكواكب والشمس والقمر فى حجره أو بين يديه يطوطها . ولكن يوسف رآها ساجدة له، متمثلة فى صورة العقلاء الذين يحنون رؤوسهم بالسجود تعظيما . والسياق يروى عنه فى صيغة الإيضاح المؤكدة :

« إذ قال يوسف لأبيه : ياأبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر » . .

ثم يعيد لفظ رأى :

« رأيتهم لى ساجدين » .

لهذا أدرك أبوه يعقوب بحسه وبصيرته أن وراء هذه الرؤيا شأنا عظيما لهذا الغلام . لم يفصح هو عنه ، ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك . ولا تظهر بوادره إلا بعد حلقتين منها . أما تمامه فلا يظهر إلا فى نهاية القصة بعد انكشاف الغيب المحجوب . ولهذا نصحه بألا يقص رؤياه على إخوته ، خشية أن يستشعروا ماوراءها لأخيهم الصغير — غير الشقيق — فيجد الشيطان من هذا ثغرة فى نفوسهم ، فتمتلىء نفوسهم بالحقد ، فيدبروا له أمرا يسوؤه :

« قال : يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا » .

ثم علل هذا بقوله :

« إن الشيطان للإنسان عدو مبين » . .

ومن ثم فهو يوغر صدور الناس بعضهم على بعض ، ويزين لهم الخطيئة والشر .

ويعقوب ابن إسحق ابن إبراهيم ، وقد أحس من رؤيا ابنه يوسف أن سيكون له شأن ، يتجه خاطره إلى أن هذا شأن فى وادى الدين والصلاح والمعرفة ؛ بحكم جو النبوة الذى يعيش فيه ، ومايعلمه من أن جده إبراهيم مبارك من الله هو وأهل بيته المؤمنون . فتوقع أن يكون يوسف هو الذى يختار من أبنائه من نسل إبراهيم لتحل عليه البركة وتتمثل فيه السلسلة المباركة فى بيت إبراهيم . فقال له :

« وكذلك يجتبيك ربك ، ويعلمك من تأويل الأحاديث ، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب ، كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق ، إن ربك عليم حكيم » . .

Marfat.com

واتجاه فكر يعقوب إلى أن رؤيا يوسف تشير إلى اختيار الله له ، وإتمام نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق (والجد يقال له أب) . . هذا طبيعي . ولكن الذي يستوقف النظر قوله :

« ويعلمك من تأويل الأحاديث » . .

والتأويل هو معرفة المآل . فما الأحاديث ؟ . . أقصد يعقوب أن الله سيختار يوسف ويعلمه ويهبه من صدق الحس ونفاذ البصيرة مايدرك به من الأحاديث مآلها الذى تنتهى إليه ، منذ أوائلها . وهو إلهام من الله لذوى البصائر المدركة النافذة ، وجاء التعقيب :

« إن ربك عليم حكيم » . .

مناسبا لهذا فى جو الحكمة والتعليم ؟ أم قصد بالأحاديث الرؤى والأحلام كما وقع بالفعل فى حياة يوسف فيما بعد ؟

كلاهما جائز ، وكلاهما يتمشى مع الجو المحيط بيوسف ويعقوب .

وبهذه المناسبة نذكر كلمة عن الرؤى والأحلام وهى موضوع هذه القصة وهذه السورة .

إننا ملزمون بالاعتقاد بأن بعض الرؤى تحمل نبوءات عن المستقبل القريب أو البعيد . ملزمون بهذا أولا من ناحية ماورد فى هذه السورة من وقوع مصداق رؤيا يوسف ، ورؤيا صاحبيه فى السجن ، ورؤيا الملك فى مصر . وثانيا من ناحية مانراه فى حياتنا الشخصية من تحقق رؤى تنبؤية فى حالات متكررة بشكل يصعب نفى وجوده . . لأنه موجود بالفعل ! . .

والسبب الأول يكفى . . ولكننا ذكرنا السبب الثانى لأنه حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها إلا بتعنت .

فما هى طبيعة الرؤيا ؟

تقول مدرسة التحليل النفسى : إنها صور من الرغبات المكبوتة تتنفس بها الأحلام فى غياب الوعى .

Marfat.com

وهذا يمثل جانبا من الأحلام . ولكنه لا يمثلها كلها . (وفرويد) ذاته - على كل تحكمه غير العلمى وتمحله فى نظريته - يقرر أن هناك أحلاما تنبؤية .

فما طبيعة هذه الأحلام التنبؤية ؟

وقبل كل شىء نقرر أن معرفة طبيعتها أو عدم معرفته لاعلاقة له بإثبات وجودها وصدق بعضها . إنما نحن نحاول فقط أن ندرك بعض خصائص هذا المخلوق البشرى العجيب ، وبعض سنن الله فى هذا الوجود .

ونحن نتصور طبيعة هذه الرؤى على هذا النحو . . إن حواجز الزمان والمكان هى التى تحول بين هذا المخلوق البشرى وبين رؤية مانسميه الماضى أو المستقبل ، أو الحاضر المحجوب . وأن مانسميه ماضيا أو مستقبلا إنما يحجبه عنا عامل الزمان ، كما يحجب الحاضر البعيد عنا عامل المكان . وأن حاسة ما فى الإنسان لانعرف كنهها تستيقظ أو تقوى فى بعض الأحيان ، فتتغلب على حاجز الزمان وترى ماوراءه فى صورة مبهمة ، ليست علما ولكنها استشفاف ، كالذى يقع فى اليقظة لبعض الناس ، وفى الرؤى لبعضهم ، فيتغلب على حاجز المكان أو حاجز الزمان ، أو هما معا فى بعض الأحيان (١) . وإن كنا فى نفس الوقت لانعلم شيئا عن حقيقة الزمان . كما أن حقيقة المكان ذاتها - وهى مايسمى بالمادة - ليست معلومة لنا على وجه التحقيق : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » !

على أية حال لقد رأى يوسف رؤياه هذه ، وسنرى فيما بعد ما يكون تأويل الرؤيا .

* * *

ويسدل السياق الستار على مشهد يوسف ويعقوب هنا ليرفعه على مشهد آخر : مشهد إخوة يوسف يتآمرون ، مع حركة تنبيه لأهمية ماسيكون :

(١) وأستطيع أن أكذب كل شىء قبل أن أكذب حادثا وقع لى وأنا فى أمريكا وأهلى فى القاهرة وقد رأيت فيما يرى النائم ابن أخت لى شابا وفى عينه دم يحجبها عن الرؤية . فكتبت إلى أهلى أستفسر عن عينه بالذات ، فجاءنى الرد بأن عينه قد أصيبت بنزيف داخلى وأنه يعالج . . ويلاحظ أن النزيف الداخلى لايرى من الخارج ، فقد كان منظر عينه لمن يراها بالعين المجردة منظرا عاديا ، ولكنها كانت محجوبة عن الإبصار بالنزف الداخلى فى قاعها . أما الرؤيا فقد كشفت عن هذا الدم المحجوب فى الداخل ! ولا أذكر غير هذه لأنها وحدها تكفى . .

Marfat.com

« لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة . إن أبانا لفى ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم : لاتقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين » . .

لقد كان فى قصة يوسف وإخوته آيات وأمارات على حقائق كثيرة لمن ينقب عن الآيات ويسأل ويهتم . . وهذا الافتتاح كفيل بتحريك الانتباه والاهتمام . لذلك أشبه بحركة رفع الستار عما يدور وراءه من أحداث وحركات . فنحن نرى وراءه مباشرة مشهد إخوة يوسف يدبرون ليوسف مايدبرون .

ترى حدثهم يوسف عن رؤياه كما يقول كتاب « العهد القديم » ؟ إن السياق هنا يفيد أن لا . فهم يتحدثون عن إيثار يعقوب ليوسف وأخيه عليهم . أخيه الشقيق . ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاء ذكرها على ألسنتهم ، ولكانت أدعى إلى أن تلهج ألسنتهم بالحقد عليه . فما خافه يعقوب على يوسف لو قص رؤياه على إخوته قد تم عن طريق آخر ، وهو حقدهم عليه لإيثار أبيهم له . ولم يكن بد أن يتم لأنه حلقة فى سلسلة الرواية الكبرى المرسومة ، لتصل بيوسف إلى النهاية المرسومة ، والتى تمهد لها ظروف حياته ، وواقع أسرته ، وحجبه لأبيه على كبرة . وأصغر الأبناء هم أحب الأبناء ، وبخاصة حين يكون الوالد فى سن الكبر . كما كان الحال مع يوسف وأخيه ، وإخوته من أمهات .

« إذ قالوا : ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة » . .

أى ونحن مجموعة قوية تدفع وتنفع . .

« إن أبانا لفى ضلال مبين » . .

إذ يؤثر غلاما وصبيا صغيرين على مجموعة الرجال النافعين الدافعين !

ثم يغلى الحقد ويدخل الشيطان ، فيختل تقديرهم للوقائع ، وتتضخم فى حسهم أشياء صغيرة ، وتهون أحداث ضخام . تهون الفعلة الشنعاء المتمثلة فى إزهاق روح . روح غلام برىء لايملك دفعا عن نفسه ، وهو لهم أخ . وهم أبناء نبى ـ وإن لم يكونوا هم أنبياء ـ يهون

Marfat.com

هـذا . وتضخم فى أعينهم حكاية إيثار أبيهم له بالحب حتى توازى القتل . أكبر جرائم الأرض قاطبة بعد الشرك بالله :

« اقتلوا يوسف . أو اطرحوه أرضا » . .

وهما قريب من قريب . فطرحه فى أرض نائيـة مقطوعة منفض فى الغالب إلى الموت . . ولمـاذا ؟

« يخل لـكم وجه أبيـكم » . .

فلا يحجبه يوسف . وهم يريدون قلبه . كأنه حين لا يراه فى وجهه يصبح قلبه خاليـا من حبه ، ويتوجه بهذا الحب إلى الآخرين ! والجريمة ؟ الجريمة تتوبون عنها وتصلحون ما أفسدتم بارتـكابها :

« وتـكونوا من بعده قوما صالحين » ! . .

هكذا ينزغ الشيطان ، وهـكذا يسول للنفوس عندما تغضب وتفقد زمامها ، وتفقد صحة تقديرها للأشياء والأحداث . وهكذا لما غلا فى صدورهم الحقد برز الشيطان ليقول لهم : اقتلوا . . والتوبة بعد ذلك تصلح ما فات ! وليست التوبة هـكذا . إنما تـكون التوبة من الخطيئة التى يندفع إليها المرء غافلا جاهلا غـير ذاكر ؛ حتى إذا تذكر ندم ، وجاشت نفسه بالتوبة . أما التوبة الجاهزة ! التوبة التى تعد سلفا قبل ارتـكاب الجريمة لإزالة معالم الجريمة ، فليسـت بالتوبة ، إنما هى تبرير لارتـكاب الجريمة يزينه الشيطان !

ولـكن ضميرا واحـدا فيهم ، يرتعش لهول ماهم مقدمون عليه . فيقترح حلا يريحهم من يوسف ، ويخلى لهم وجه أبيهم ، ولـكنه لا يقتل يوسف ، ولا يلقيه فى أرض مهجورة يغلب فيها الهلاك . إنما يلقيه فى الجب على طريق القوافل ، حيث يرجح أن تعثر عليه إحدى القوافل فتنقذه وتذهب به بعيدا :

« قال قائل منهم : لا تقتـلوا يوسف ، وألقوه فى غيابة الجب ، يلتقطه بعض السيارة . إن كنتم فاعلين » . .

ونحس من قوله :

Marfat.com

« إن كنتم فاعلين » ..

روح التشكيك والتثبيط . كأنه يشككهم فى أنهم مصرون على إيقاع الأذى بيوسف . وهو أسلوب من أساليب التثبيط عن الفعل ، واضح فيه عدم الارتياح للتنفيذ . ولكن هذا كان أقل مايشفى حقدهم ؛ ولم يكونوا على استعداد للتراجع فيما اعتزموه . . نفهم هذا من المشهد التالى فى السياق ..

* * *

فها هم أولاء عند أبيهم ، يراودونه فى اصطحاب يوسف معهم منذ الغداة . وها هم أولاء يخادعون أباهم ، ويمكرون به وبيوسف . فلنشهد ولنستمع لما يدور :

« قالوا : ياأبانا مالك لاتأمنا على يوسف ؟ وإنا له لناصحون ؛ أرسله معنا غدا يرتع ويلعب ، وإنا له لحافظون قال : إنى ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون . قالوا : لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون » ..

والتعبير يرسم بكلماته وعباراته كل مابذلوه ليتدسسوا به إلى قلب الوالد المتعلق بولده الصغير الحبيب ، الذى يتوسم فيه أن يكون الوارث لبركات أبيه إبراهيم ..

« يا أبانا » ..

بهذا اللفظ الموحى المذكر بما بينه وبينهم من آصرة .

« مالك لاتأمنا على يوسف ؟ » ..

سؤال فيه عتب وفيه استنكار خفى ، وفيه استجاشة لنفى مدلوله من أبيهم ، والتسليم لهم بعكسه وهو تسليمهم يوسف . فهو كان يستبقى يوسف معه ولا يرسله مع إخوته إلى المراعى والجهات الخلوية التى يرتادونها لأنه يحبه ويخشى عليه الا يحتمل الجو والجهد الذى يحتملونه وهم كبار ، لالأنه لايأمنهم عليه . فمبادرتهم له بأنه لايأمنهم على أخيهم وهو أبوهم ، مقصود بها استجاشته لنفى هذا الخاطر ؛ ومن ثم يفقد إصراره على احتجاز يوسف . فهى مبادرة ماكرة منهم خبيثة !

« مالك لاتأمنا على يوسف ؟ وإنا له لناصحون » ..

Marfat.com

قلوبنا له صافية لا يخالطها سوء ـ وكاد المريب أن يقول خذونى ـ فذكر النصح هنا وهو الصفاء والإخلاص يشى بما كانوا يحاولون إخفاءه من الدغل المريب . .

« أرسله معنا غدا يرتع ويلعب وإنا له لحافظون » . .

زيادة فى التوكيد ، وتصويرا لما ينتظر يوسف من النشاط والمسرة والرياضة، مما ينشط والده لإرساله معهم كما يريدون .

وردا على العتاب الاستنكارى الأول جعل يعقوب ينفى ـ بطريق غير مباشر ـ أنه لا يأمنهم عليه ، ويعلل احتجازه معه بقلة صبره على فراقه وخوفه عليه من الذئاب :

« قال : إنى ليحزننى أن تذهبوا به ، وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » . .

« إنى ليحزننى أن تذهبوا به » . .

إنى لاأطيق فراقه . . ولا بد أن هذه هاجت أحقادهم وضاعفتها . أن يبلغ حبه له درجة الحزن لفراقه ولو لبعض يوم ، وهو ذاهب كما قالوا له للنشاط والمسرة .

« وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون » . .

ولا بد أنهم وجدوا فيها عذرا كانوا يبحثون عنه ، أو كان الحقد الهائج أعماهم فلم يفكروا ماذا يقولون لأبيهم بعد فعلتهم المنكرة ، حتى لقنهم أبوهم هذا الجواب !

واختاروا أسلوبا من الأساليب المؤثرة لنفى هذا الخاطر عنه :

« قالوا : لئن أكله الذئب ونحن عصبة ، إنا إذن لخاسرون » . .

لئن غلبنا الذئب عليه ونحن جماعة قوية هكذا فلا خير فينا لأنفسنا وإننا لخاسرون كل شىء ، فلا نصلح لشىء أبدا !

وهكذا استسلم الوالد الحريص لهذا التوكيد ولذلك الإحراج . . ليتحقق قدر الله وتتم القصة كما تقتضى مشيئته !

* * *

والآن لقد ذهبوا به، وها هم أولاء ينفذون المؤامرة النكراء . والله سبحانه يلقى فى روع

Marfat.com

الغلام أنها محنة وتنتهي ، وأنه سيعيش وسيذكر إخوته بموقفهم هـذا منه وهم لا يشعرون أنه هو :

« فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب . وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هـذا وهم لايشعرون » . .

فقد استقر أمرهم جميعا على أن يجعلوه في غيابة الجب ، حيث يغيب فيـه عنهم . وفي لحظة الضيق والشدة التي كان يواجه فيها هذا الفزع ، والموت منه قريب ، ولا منقذ له ولا مغيث . وهو وحـده صغير وهم عشرة أشداء . في هـذه اللحظة اليائسة يلقي الله في روعه أنه ناج ، وأنه سيعيش حتى يواجه إخوته بهذا الموقف الشنيع ، وهم لا يشعرون بأن الذي يواجههم هو يوسف الذي تركوه في غيابة الجب وهو صغير .

* * *

وندع يوسف في محنته في غيـابة الجب ، يؤنسه ولا شك ما ألقى الله في روعه ويطمئنه ، حتى يأذن الله بالفرج . ندعه لنشهد إخوته بعد الجريمة يواجهون الوالد المفجوع :

« وجاءوا أباهم عشاء يبكون ، قالوا : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ، وتركنا يوسف عنـد متاعنا فأكله الذئب . وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين . وجاءوا على قميصه بدم كذب . قال : بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ماتصفون » . .

لقد ألهاهم الحقد الفائر عن سبك الـكذبة ، فلو كانوا أهدأ أعصابا مافعلوها منـذ المرة الأولى التي يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم ! ولـكنهم كانوا معجلين لايصبرون ، يخشون ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى . كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلا على التسرع ، وقد كان أبوهم يحـذرهم منها أمس ، وهم ينفونها ، ويكادون يتهكمون بها . فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا في الصباح ليتركوا يوسف للذئب الذي حذرهم أبوهم منه أمس ! وبمثل هـذا التسرع جاءوا على قميصه بدم كذب لطخوه به في غير إتقان ، فـكان ظاهر الـكذب حتى ليوصف بأنه كذب . .

فعلوا هذا .

Marfat.com

« وجاءوا أباهم عشاء يبكون قالوا : يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب » . .

ويحسون أنها مكشوفة ، ويكاد المريب أن يقول خذونى ، فيقولون :

« وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » . .

أى وما أنت بمطمئن لما نقوله ، ولو كان هو الصدق . لأنك تشك فينا ولا تطمئن لما نقول .

وأدرك يعقوب من دلائل الحال ، ومن نداء قلبه ، أن يوسف لم يأكله الذئب ، وأنهم دبروا له مكيدة ما . وأنهم يلفقون له قصة لم تقع ، ويصفون له حالا لم تكن ، فواجههم بأن نفوسهم قد حسنت لهم أمرا منكرا وذللته ويسرت لهم ارتكابه ؛ وأنه سيصبر متحملا متجملا لا يجزع ولا يفزع ولا يشكو ، مستعينا بالله على ما يلفقونه من حيل وأكاذيب :

« قال : بل سولت لكم أنفسكم أمرا . فصبر جميل . والله المستعان على ما تصفون »

* * *

ثم لنعد سريعا إلى يوسف فى الجب ، لنرى المشهد الأخير فى هذه الحلقة الأولى من حلقات القصة :

« وجاءت سيارة ، فأرسلوا واردهم ، فأدلى دلوه قال : يابشرى . هذا غلام . وأسروه بضاعة ، والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين » . .

لقد كان الجب على طريق القوافل ، التى تبحث عن الماء فى مظانه ، فى الآبار وفى مثل هذا الجب الذى ينزل فيه ماء المطر ويبقى فترة ، ويكون فى بعض الأحيان جافا كذلك :

« وجاءت سيارة » . .

أى قافلة سميت سيارة من السير الطويل كالكشافة والجوالة والقناصة . . .

« فأرسلوا واردهم » . .

Marfat.com

أى من يرد لهم الماء ويكون خبيرا بمواقعه . .

« فأدلى دلوه » . .

لينظر الماء أو ليملأ الدلو — ويحذف السياق حركة يوسف فى التعلق بالدلو احتفاظا بالمفاجأة القصصية للقارئ والسامع — :

« قال : يابشرى ! هذا غلام ! » . .

ومرة أخرى يحذف السياق كل ماحدث بعد هذا وما قيل ، وحال يوسف ، وكيف ابتهج للنجاة ليتحدث عن مصيره مع القافلة :

« وأسروه بضاعة » . .

أى اعتبروه بضاعة سرية وعزموا على بيعه رقيقا . ولما لم يكن رقيقا فقد أسروه ليخفوه عن الأنظار . ثم باعوه بثمن قليل :

« وشروه بثمن بخس دراهم معدودة » . . وكانوا يتعاملون فى القليل من الدراهم بالعد ، وفى الكثير منها بالوزن . .

« وكانوا فيه من الزاهدين » . .

لأنهم يريدون التخلص من تهمة استرقاقه وبيعه . .

وكانت هذه نهاية المحنة الأولى فى حياة النبى الكريم .

« وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ : أَكْرِمِى مَثْوَاهُ ، عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا . وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ ، وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ؛ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ .

« وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ ، وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ ، وَقَالَتْ : هَيْتَ

Marfat.com

لَكَ. قَالَ: مَعَاذَ اللَّهِ، إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا، لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ، كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ * وَاسْتَبَقَا الْبَابَ، وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ، وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ، قَالَتْ: مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا؟ إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ: هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي. وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا: إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ: إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ * يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا، وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ، إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ.

« وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ: امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ. قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا. إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ.

« فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ، وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً، وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا، وَقَالَتِ: اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ. فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ، وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ؛ وَقُلْنَ: حَاشَ لِلَّهِ! مَا هَٰذَا بَشَرًا، إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ * قَالَتْ: فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ؛ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ؛ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ * قَالَ: رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ؛ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » (٣٤)

Marfat.com

الحلقة الثانية من حلقات القصة ، وقد وصل يوسف إلى مصر ، وبيع بيع الرقيق ؛ ولكن الذى اشتراه توسم فيه الخير ـ والخير يتوسم فى الوجوه الصباح ، وبخاصة حين تصاحبها السجايا الملاح ـ فإذا هو يوصى به امرأته خيرا ، وهنا يبدأ أول خيط فى تحقيق الرؤيا .

ولكن محنة أخرى من نوع آخر كانت تنتظر يوسف حين يبلغ أشده ، وقد أوتى حكما وعلما يستقبل بهما هذه المحنة الجارفة التى لا ينجو منها إلا من رحم الله . إنها محنة التعرض للغواية فى جو القصور ، وفى جو مايسمونه « الطبقة الراقية » وما يغشاها من استهتار وفجور . . ويخرج يوسف منها سليما معافى فى خلقه وفى دينه ، ولكن بعد أن يخالط المحنة ويصلاها . .

* * *

« وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته : أكرمى مثواه ، عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا . وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لايعلمون » . .

إن السياق لايكشف لنا حتى الآن عمن اشتراه ، وسنعلم بعد شوط فى القصة أنه عزيز مصر (قيل : إنه كبير وزرائها) ولكننا نعلم منذ اللحظة أن يوسف قد وصل إلى مكان آمن ، وأن المحنة قد انتهت بسلام ، وأنه مقبل بعد هذا على خير :

« أكرمى مثواه » . .

والمثوى مكان الثوىّ والمبيت والإقامة ، والمقصود بإكرام مثواه إكرامه ، ولكن التعبير أعمق ، لأنه يجعل الإكرام لا لشخصه فحسب ، ولكن لمكان إقامته . . وهى مبالغة فى الإكرام . فى مقابل مثواه فى الجب وما حوله من مخاوف وآلام !

ويكشف الرجل لامرأته عما يتوسمه فى الغلام من خير ، وما يتطلع إليه فيه من أمل :

« عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا » . .

ولعلهما لم يكن لهما أولاد كما تذكر بعض الروايات . ومن ثم تطلع الرجل أن يتخذاه

Marfat.com

ولهذا إذا صدقت فراسته ، وتحققت مخايل نجابته وطيبته مع وسامته .

وهنا يقف السياق لينبه إلى أن هـذا التدبير من الله ، وبه وبمثله قدر ليوسف التمكين فى الأرض ـ وها قد بدأت بشائره بتمكين يوسف فى قلب الرجل وبيته ـ ويشير إلى أنه ماض فى الطريق ليعلمه الله من تأويل الأحاديث ـ على الوجهين اللذين ذكرناهما من قبل ـ ويعقب السياق على هـذا الابتداء فى تمكين يوسف بما يدل عليه من أن قدرة الله غالبة ، لاتقف فى طريقها قوة ، وأنه مالك أمره ومسيطر عليه فلا يخيب ولا يتوقف ولا يضل :

« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ، ولنعلمه من تأويل الأحاديث . والله غالب على أمره » ..

وها هو ذا يوسف أراد له إخوته أمرا ، وأراد له الله أمرا ، ولما كان الله غالبا على أمره ومسيطرا فقد نفذ أمره ، أما إخوة يوسف فلا يملكون أمرهم فأفلت من أيديهم وخرج على ما أرادوه :

« ولـكن أكثر الناس لايعلمون » ..

لايعلمون أن سنة الله ماضية وأن أمره هو الذى يكون .

ويمضى السياق ليقرر أن ماشاءه الله ليوسف ، وقال عنه :

« ولنعلمه من تأويل الأحاديث » ..

قد تحقق حين بلغ أشده :

« ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما . وكذلك نجزى المحسنين » ..

فقد أوتى صحة الحكم فى الأمور ، وأوتى علما بمصائر الأحاديث أو بتأويل الرؤيا ، أو بما هو أعم ، من العلم بالحياة وأحوالها ، فاللفظ عام ويشمل الكثير . وكان ذلك جزاء إحسانه . إحسانه فى الاعتقاد وإحسانه فى السلوك :

« وكذلك نجزى المحسنين » .

• • •

Marfat.com

وعندئذ تجيئه المحنة الثانية فى حياته ، وهى أشد وأعمق من المحنة الأولى . تجيئه وقد أوتى صحة الحكم وأوتى العلم ـ رحمة من الله ـ ليواجهها وينجو منها جزاء إحسانه الذى سجله الله له فى قرآنه .

والآن نشهد ذلك المشهد العاصف الخطير المثير كما يرسمه التعبير :

« وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك ! قال : معاذ الله . إنه ربى أحسن مثواى . إنه لايفلح الظالمون ـ ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء . إنه من عبادنا المخلصين ـ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر ، وألفيا سيدها لدى الباب . قالت : ماجزاء من أراد بأهلك سوءا ؟ إلا أن يسجن أو عذاب أليم . قال : هى راودتنى عن نفسى . وشهد شاهد من أهلها . إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ؟ وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال : إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك ، إنك كنت من الخاطئين » . .

إن السياق لم يذكر كم كانت سنها وكم كانت سنه ؟ فلننظر فى هذا الأمر من باب التقدير .

لقد كان يوسف غلاما عندما التقطته السيارة وباعته فى مصر . أى إنه كان حوالى الرابعة عشرة تنقص ولا تزيد . فهذه هى السن التى يطلق فيها لفظ الغلام ، وبعدها يسمى فتى فشابا فرجلا . . . وهى السن التى يجوز فيها أن يقول يعقوب : « وأخاف أن يأكله الذئب » . . وفى هذا الوقت كانت هى زوجة ، وكانت وزوجها لم يرزقا أولادا كما يبدو من قوله : « أو نتخذه ولدا » . . فهذا الخاطر . . خاطر التبنى . . لا يرد على النفس عادة إلا حين لايكون هناك ولد ؛ ويكون هناك يأس أو شبه يأس من الولد . فلا بد أن تكون قد مضت على زواجها فترة ، يعلمان فيها أن لاولد لهما . وعلى كل حال فالمتوقع عن رئيس وزراء مصر ألا تقل سنه عن أربعين سنة ، وأن تكون سن زوجه حينئذ حوالى الثلاثين .

ونتوقع كذلك أن تكون سنها أربعين سنة عندما يكون يوسف فى الخامسة والعشرين

Marfat.com

أو حوالبها . وهى السن التى نرجح أن الحادثة وقعت فيها . . نرجحه لأن تصرف المرأة فى الحادثة وما بعدها يشير إلى أنها كانت مكتملة جريئة ، مالكة لكيدها ، متهالكة كذلك على فتاها . ونرجحه من كلمة النسوة فيما بعد . . « امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » . . وإن كانت كلمة فتى تقال بمعنى عبد ، ولكنها لا تقال إلا ولها حقيقة من مدلولها من سن يوسف . وهو ما ترجحه شواهد الحال .

نبحث هذا البحث ، لنصل منه إلى نتيجة معينة . لنقول : إن التجربة التى مر بها يوسف - أى المحنة - لم تكن فقط فى مواجهة المراودة فى هذا المشهد الذى يصوره السياق . إنما كانت فى حياة يوسف فترة مراهقته كلها فى جو هذا القصر ، مع هذه المرأة بين سن الثلاثين وسن الأربعين ، مع جو القصور ، وجو البيئة التى يصورها قول الزوج أمام الحالة التى وجد فيها امرأته مع يوسف :

« يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » .

وكفى . . !

والتى يتحدث فيها النسوة عن امرأة العزيز ، فيكون جوابها عليهن ، مأدبة يخرج عليهن يوسف فيها ، فيفتتن به ، ويصرحن ، فتصرح المرأة :

« ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » . .

فهذه البيئة التى تسمح بهذا وذلك بيئة خاصة . هى بيئة الطبقة المترفة دائماً . ويوسف كان فيها مولى وتربى فيها فى سن الفتنة . . فهذه هى المحنة الطويلة التى مر بها يوسف ، وصمد لها ، ونجا منها ومن تأثيراتها ومغرياتها وميوعتها ووسائلها الخبيثة . ولسنه وسن المرأة التى يعيش معها تحت سقف واحد كل هذه المدة قيمة فى تقدير مدى الفتنة وخطورة المحنة والصمود لها هذا الأمد الطويل . أما هذه المرة فلو كانت وحدها وكانت مفاجأة بلا تمهيد من إغراء طويل ، لما كان عسيرا أن يصمد لها يوسف ، وبخاصة أنه هو مطلوب فيها لا طالب . وتهالك المرأة قد يصد من نفس الرجل . وهى كانت متهالكة .

Marfat.com

والآن نواجه النصوص :

« وراودته التي هو في بيتها عن نفسه ، وغلقت الأبواب ، وقالت : هيت لك ! » . .

وإذن فقد كانت المراودة في هذه المرة مكشوفة ، وكانت الدعوة فيها سافرة إلى الفعل الأخير . وحركة تغليق الأبواب لاتكون إلا في اللحظة الأخيرة ، وقد وصلت المرأة إلى اللحظة الحاسمة التي تهتاج فيها دفعة الجسد الغليظة ، ونداء الجسد الأخير :

« وقالت : هيت لك ! » .

هذه الدعوة السافرة الجاهرة الغليظة لا تكون أول دعوة من المرأة . إنما تكون هي الدعوة الأخيرة . وقد لاتكون أبدا إذا لم تضطر إليها المرأة اضطرارا . والفتى يعيش معها وقوته وفتوته تتكامل ، وأنوثتها هي كذلك تكمل وتنضج ، فلا بد كانت هناك إغراءات شتى خفيفة لطيفة ، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة .

« قال : معاذ الله . إنه ربي أحسن مثواي . إنه لايفلح الظالمون » . .

« معاذ الله » . .

أعيذ نفسي بالله أن أفعل .

« إنه ربي أحسن مثواي » . .

وأكرمني بأن نجاني من الجب وجعل في هذه الدار مثواي الطيب الآمن .

« إنه لايفلح الظالمون » . . الذين يتجاوزون حدود الله ، فيرتكبون ماتدعيني اللحظة إليه .

والنص هنا صريح وقاطع في أن رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التأبي ، المصحوب بتذكر نعمة الله عليه ، وبتذكر حدوده وجزاء من يتجاوزون هذه الحدود . فلم تكن هناك استجابة في أول الموقف لما دعته إليه دعوة غليظة جاهرة بعد تغليق الأبواب ، وبعد الهتاف باللفظ الصريح الذي يتجمل القرآن في حكايته وروايته :

« وقالت : هيت لك » .

Marfat.com

« ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » !

لقد حصر جميع المفسرين القدامى والمحدثين نظرهم فى تلك الواقعة الأخيرة . فأما الذين ساروا وراء الإسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يصورون فيها يوسف هائج الغريزة مندفعا شبقا ، والله يدافعه ببراهين كثيرة فلا يندفع ! صورت له هيئة أبيه يعقوب فى سقف المخدع عاضا على أصبعه بفمه ! وصورت له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن - أى نعم من القرآن ! - تنهى عن مثل هذا المنكر ، وهو لا يرعوى ! حتى أرسل الله جبريل يقول له : أدرك عبدى ، فجاء فضربه فى صدره .. إلى آخر هذه التصورات الأسطورية التى سار وراءها بعض الرواة وهى واضحة التلفيق والاختراع !

وأما جمهور المفسرين فسار على أنها همت به هم الفعل ، وهم بها هم النفس ، ثم تجلى له برهان ربه فترك .

وأنكر المرحوم الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار على الجمهور هذا الرأى . وقال : إنها إنما همت بضربه نتيجة إبائه وإهانته لها وهى السيدة الآمرة ، وهم هو برد الاعتداء ؛ ولكنه آثر الهرب فلحقت به وقدت قميصه من دبر .. وتفسير الهم بأنه هم الضرب ورد الضرب مسألة لا دليل عليها فى العبارة . فهى مجرد رأى لمحاولة البعد بيوسف عن هم الفعل أو هم الميل إليه فى تلك الواقعة . وفيه تكلف وإبعاد عن مدلول النص .

أما الذى خطر لى وأنا أراجع النصوص هنا ، وأراجع الظروف التى عاش فيها يوسف ، فى داخل القصر مع هذه المرأة الناضجة فترة من الزمن طويلة ، وقبل أن يؤتى الحكم والعلم وبعد ما أوتيهما ..

الذى خطر لى أن قوله تعالى :

« ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه » ..

هو نهاية موقف طويل من الإغراء ، بعد ما أبى يوسف فى أول الأمر واستعصم .. وهو تصوير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف ؛ ثم الاعتصام بالله فى النهاية والنجاة .. ولكن السياق القرآنى لم يفصل فى تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعارضة

Marfat.com

المتغالية ! لأن المنهج القرآني لا يريد أن يجعل من هـذه اللحظة معرضاً يستغرق أكثر من مساحته المناسبة في محيط القصة، وفي محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك . فذكر طرفي الموقف بين الاعتصام في أوله والاعتصام في نهايته ، مع الإلمام بلحظة الضعف بينهما ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعاً .

هـذا ماخطر لنا ونحن نواجه النصوص ، ونتصور الظروف . وهو أقرب إلى الطبيعة البشرية وإلى العصمة النبوية . وما كان يوسف سوى بشر . نعم إنه بشر مختار . ومن ثم لم يتجاوز همه الميل النفسي في لحظة من اللحظات . فلما أن رأى برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه ، بعد لحظة الضعف الطارئة ، عاد إلى الاعتصام والتأبي (١) .

« كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء ، إنه من عبادنا المخلصين » . .

« واستبقا الباب » . .

فهو قد آثر التخلص بعد أن استفاق . . وهي عدت خلفه لتمسك به ، وهي ماتزال في هياجها الحيواني .

« وقدت قميصه من دبر » . .

نتيجة جذبها له لترده عن الباب . .

وتقع المفاجأة :

« وألفيا سيدها لدى الباب » . .

---

(١) قال الزمخشري في الكشاف : « فإن قلت : كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها ؟ قلت : المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ، ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلا يشبه الهم به والقصد إليه ، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسر مابه ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم . ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى هما لشدته لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع ، لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته » . . انتهى . . وهو تعليل صحيح في جملته بغض النظر عن الإشارة الاعتزالية في قول الزمخشري : « ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم » . فهو إشارة منه إلى مذهب المعتزلة في أن البرهان عقلي . والبرهان الذي أخذه الله على المكلفين هو ماقرره في شريعته . . ولكن هـذا خلاف مذهبي تاريخي لاشأن لنا به . فهو بجملته غريب على التصور الإسلامي !

Marfat.com

وهنا تتبدى المرأة المكتملة ، فتجد الجواب حاضرا على السؤال الذى يهتف به المظهر المريب . إنها تتهم الفتى :

« قالت : ماجزاء من أراد بأهلك سوءا ؟ » . .

ولكنها امرأة تعشق ، فهى تخشى عليه ، فتشير بالعقاب المأمون .

« إلا أن يسجن أو عذاب أليم » !

ويجهر يوسف بالحقيقة فى وجه الاتهام الباطل :

« قال : هى راودتنى عن نفسى » !

وهنا يذكر السياق أن أحد أهلها حسم بشهادته فى هذا النزاع :

« وشهد شاهد من أهلها : إن كان قميصه قُدّ من قُبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قُدّ من دُبر فكذبت وهو من الصادقين » . .

فأين ومتى أدلى هذا الشاهد بشهادته هذه ؟ هل كان مع زوجها (سيدها بتعبير أهل مصر) وشهد الواقعة ؟ أم أن زوجها استدعاه وعرض عليه الأمر، كما يقع فى مثل هذه الأحوال أن يستدعى الرجل كبيرا من أسرة المرأة ويطلعه على مارأى ، وبخاصة تلك الطبقة الباردة الدم المائعة القيم !

هذا وذلك جائز . وهو لايغير من الأمر شيئا . وقد سمى قوله هذا شهادة ، لأنه لما مثل رأيه فى الموقف والنزاع المعروض من الجانبين - ولكل منهما وجهة قول - سميت فتواه هذه شهادة ، لأنها تساعد على تحقيق النزاع والوصول إلى الحق فيه . . فإن كان قميصه قد من قبل فذلك إذن من أثر مدافعتها له وهو يريد الاعتداء عليها فهى صادقة وهو كاذب . وإن كان قميصه قد من دبر فهو إذن من أثر تملصه منها وتعقبها هى له حتى الباب ، وهى كاذبة وهو صادق . . وقدم الفرض الأول لأنه إن صح يقتضى صدقها وكذبه ، فهى السيدة وهذا فتى ، فمن باب اللياقة أن يذكر الفرض الأول ! والأمر لايخرج عن أن تكون قرينة .

« فلما رأى قميصه قدّ من دُبر » . .

Marfat.com

تبين له حسب الشهادة المبنية على منطق الواقع أنها هى التى راودت ، وهى التى دبرت الاتهام . . وهنا تبدو لنا صورة من « الطبقة الراقية » فى الجاهلية قبل آلاف السنين وكأنها هى هى اليوم شاخصة . رخاوة فى مواجهة الفضائح الجنسية ؛ وميل إلى كتمانها عن المجتمع ، وهذا هو المهم كله :

« قال : إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . يوسف أعرض عن هذا ، واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين » !

هكذا . إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم . . فهى اللباقة فى مواجهة الحادث الذى يثير الدم فى العروق . والتلطف فى مجابهة السيدة بنسبة الأمر إلى الجنس كله ، فيما يشبه الثناء . فإنه لا يسوء المرأة أن يقال لها : إن كيدكن عظيم ! فهو دلالة فى حسها على أنها أنثى كاملة مستوفية لقدرة الأنثى على الكيد العظيم !

والتفاتة إلى يوسف البرىء :

« يوسف أعرض عن هذا » . .

فأهمله ولا تُعِرْه اهتماما ولا تتحدث به . . وهذا هو المهم . . محافظة على الظواهر ! وعظـة إلى المرأة التى راودت فتاها عن نفسـه ، وضبطت متلبسة بمساورته وتمزيق قميصـه :

« واستغفرى لذنبك . إنك كنت من الخاطئين » . .

إنها الطبقـة الأرستقراطيـة ، من رجال الحاشـية ، فى كل جاهليـة . قريب من قريب !

ويسدل الستار على المشهد ومافيـه . . وقد صور السياق تلك اللحظة بكل ملابساتها وانفعالاتها ولكن دون أن ينشىء منها معرضا للنزوة الحيوانية الجاهرة ، ولا مستنقعا للوحل الجنسى المقبوح !

* * *

ولم يحل السيد بين المرأة وفتاها ومضت الأمور فى طريقها . فهكذا تمضى الأمور فى القصور !

Marfat.com

ولكن للقصور جدرانا ، وفيها خدم وحشم . وما يجرى فى القصور لا يمكن أن يظل مستورا وبخاصة فى الوسط الأرستقراطى ، الذى ليس لنسائه من هم إلا الحديث عما يجرى فى محيطهن . وإلا تداول هذه الفضائح ولوكها على الألسن فى المجالس والسهرات والزيارات :

« وقال نسوة فى المدينة : امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه . قد شغفها حبا . إنا لنراها فى ضلال مبين » . .

وهو كلام أشبه بما تقوله النسوة فى كل بيئة جاهلية عن مثل هذه الشؤون . ولأول مرة نعرف أن المرأة هى امرأة العزيز ، وأن الرجل الذى اشتراه من مصر هو عزيز مصر ـ أى كبير وزرائها ـ ليعلن هذا مع إعلان الفضيحة العامة بانتشار الخبر فى المدينة :

« امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه » . .

ثم بيان لحالها معه :

« قد شغفها حبا » . .

فهى مفتونة به ، بلغ حبه شغاف قلبها ومزقه ، وشغاف القلب غشاؤه الرقيق :

« إنا لنراها فى ضلال مبين » . .

وهى السيدة الكبيرة زوجة الكبير ، تفتتن بفتاها العبرانى المشترى . أم لعلهن يتحدثن عن اشتهارها بهذه الفتنة وانكشافها وظهور أمرها ، وهو وحده المنتقد فى عرف هذه الأوساط لا الفعلة فى ذاتها لو ظلت وراء الأستار ؟ !

* * *

وهنا كذلك يقع مالا يمكن وقوعه إلا فى مثل هذه الأوساط . ويكشف السياق عن مشهد من صنع تلك المرأة الجريئة ، التى تعرف كيف تواجه نساء طبقتها بمكر كمكرهن وكيد من كيدهن :

« فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن ، وأعتدت لهن متكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكينا، وقالت : اخرج عليهن . فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن : حاش لله ! ماهذا بشرا .

Marfat.com

إن هذا إلا ملك كريم . قالت : فذلكن الذى لمتننى فيه . ولقد راودته عن نفسه فاستعصم . ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » . .

لقد أقامت لهن مأدبة فى قصرها . وندرك من هذا أنهن كن من نساء الطبقة الراقية . فهن اللواتى يدعين إلى المآدب فى القصور . وهن اللواتى يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر . ويبدو أنهن كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا على عادة الشرق فى ذلك الزمان . فأعدت لهن هذا المتكأ . وآتت كل واحدة منهن سكينا تستعملها فى الطعام - ويؤخذ من هذا أن الحضارة المادية فى مصر كانت قد بلغت شأوا بعيدا ، وأن الترف فى القصور كان عظيما . فإن استعمال السكاكين فى الأكل قبل هذه الآلاف من السنين له قيمته فى تصوير الترف والحضارة المادية . وبينما هن منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة ، فاجأتهن بيوسف :

« وقالت : اخرج عليهن » . .

« فلما رأينه أكبرنه » . .

« بهتن لطلعته ، ودهشن .

« وقطعن أيديهن » . .

وجرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة المفاجئة .

« وقلن حاش لله ! » . .

وهى كلمة تنزيه تقال فى هذا الموضع تعبيرا عن الدهشة بصنع الله . .

« ماهذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم » (١) .

وهذه التعبيرات دليل - كما قلنا فى تقديم السورة - على تسرب شىء من ديانات التوحيد فى ذلك الزمان .

ورأت المرأة أنها انتصرت على نساء طبقتها ، وأنهن لقين من طلعة يوسف الدهش

---

(١) أتعب الرواة والمفسرون أنفسهم فى وصف حسن يوسف الذى بهر النسوة وبهر امرأة العزيز . ولصور بعضهم أوصافا أقرب ماتكون إلى أوصاف النساء . وما يمثل هذه الأوصاف تبهر النساء ! =

Marfat.com

والإعجاب والذهول . فقالت قولة المرأة المنتصرة ، التى لاتستحى أمام النساء من بنات جنسها وطبقتها ؛ والتى تفخر عليهن بأن هذا فى متناول يدها ؛ وإن كان قد استعصى قياده مرة فهى تملك هذا القياد مرة أخرى :

« قالت : فذلكن الذى لمتننى فيه » . .

فانظرن ماذا لقيتن منه من البهر والدهش والإعجاب !

« ولقد راودته عن نفسه فاستعصم » . .

ولقد بهرنى مثلكن فراودته عن نفسه فطلب الاعتصام - تريد أن تقول : إنه عانى فى الاعتصام والتحرز من دعوتها وفتنتها ! - ثم تظهر سيطرتها عليه أمامهن فى تبجح المرأة من ذلك الوسط ، لاترى بأسا من الجهر بنزواتها الأنثوية جاهرة مكشوفة فى معرض النساء :

« ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين » !

فهو الإصرار والتبجح والتهديد والإغراء الجديد فى ظل التهديد .

ويسمع يوسف هذا القول فى مجتمع النساء المبهورات ، المبديات لفاتنهن فى مثل هذه المناسبات . ونفهم من السياق أنهن كن نساء مفتونات فاتنات فى مواجهته وفى التعليق على هذا القول من ربة الدار ؛ فإذا هو يناجى ربه :

« قال : رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه » . .

ولم يقل : ماتدعونى إليه . فهن جميعا كن مشتركات فى الدعوة . سواء بالقول أم بالحركات واللفتات . . وإذا هو يستنجد ربه أن يصرف عنه محاولاتهن لإيقاعه فى حبائلهن ، خيفة أن يضعف فى لحظة أمام الإغراء الدائم ، فيقع فيما يخشاه على نفسه ، ويدعو الله أن ينقذه منه :

= وإن للرجولة لجالها الخاص فى اكتمال الملامح الرجولية . وإن كان هناك احتمال آخر . وهو أن نساء تلك الطبقة كثيرا ماتنحرف فطرتهن فتعجبهن فى الرجل ملامح وتقاطيع مما يحسب جميلا فى النساء . ويغفلن عن غيرها مما يوجد فى الرجل من سمات الرجال !

Marfat.com

« وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين » . .

وهى دعوة الإنسان العارف ببشريته . الذى لايغتر بعصمته ؛ فيريد مزيداً من عناية الله وحياطته : يعاونه على مايعترضه من فتنة وكيد وإغراء .

« فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، إنه هو السميع العليم » . .

وهذا الصرف قد يكون بإدخال اليأس فى نفوسهن من استجابته لهن ، بعد هذه التجربة ؛ أو بزيادة انصرافه عن الإغراء حتى لايحس فى نفسه أثراً منه . أو بهما جميعاً .

« إنه هو السميع العليم » الذى يسمع ويعلم ، يسمع الكيد ويسمع الدعاء ، ويعلم ماوراء الكيد وما وراء الدعاء . .

وهكذا اجتاز يوسف محنته الثانية ، بلطف الله ورعايته . وانتهت بهذه النجاة الحلقة الثانية من قصة المثيرة .

« ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ * وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ، قَالَ أَحَدُهُمَا : إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ؛ وَقَالَ الْآخَرُ : إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ . نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * قَالَ : لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ، ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ، إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ، وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ، مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ، ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؟ * مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ، أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ،

Marfat.com

وَأَمَّا الْآخَرُ ، فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ . قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ * وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا : اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ ، فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ، فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ .

« وَقَالَ الْمَلِكُ : إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ، وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ . يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ * قَالُوا : أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ * وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ : أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ ، فَأَرْسِلُونِ .

« يُوسُفُ - أَيُّهَا الصِّدِّيقُ - أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ، لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ * قَالَ : تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ، فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ .

« وَقَالَ الْمَلِكُ : ائْتُونِي بِهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ : ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ؟ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ .

« قَالَ : مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ؟ قُلْنَ : حَاشَ لِلَّهِ ، مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ . قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ : الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ . أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (١) * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ - إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي - إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ » ..

---

(١) ينتهي الجزء هنا .

Marfat.com

وهذه هي الحلقة الثالثة والمحنة الثالثة والأخيرة من محن الشدة في حياة يوسف ؛ فكل مابعدها رخاء ، وابتلاء لصبره على الرخاء ، بعد ابتلاء صبره على الشدة . والمحنة في هذه الحلقة هي محنة السجن بعد ظهور البراءة . والسجن للبريء المظلوم أقسى ، وإن كان في طمأنينة القلب بالبراءة تعزية وسلوى .

وفي فترة المحنة هذه تتجلى نعمة الله على يوسف ، بما وهبه من علم لدني بتعبير الرؤيا وبعض الغيب القريب الذي تبدو أوائله فيعرف تأويله . ثم تتجلى نعمة الله عليه أخيرا بإعلان براءته الكاملة إعلانا رسميا بحضرة الملك ، وظهور مواهبه التي تؤهله لما هو مكنون له في عالم الغيب من مكانة مرموقة وثقة مطلقة ، وسلطان عظيم .

* * *

« ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين » .

وهكذا جو القصور ، وجو الحكم المطلق ، وجو الأوساط الأرستقراطية ، وجو الجاهلية ! فبعد أن رأوا الآيات الناطقة ببراءة يوسف . وبعد أن بلغ التبجح بامرأة العزيز أن تقيم للنسوة حفل استقبال تعرض عليهن فتاها الذي شغفها حبا ، ثم تعلن لهم أنها به مفتونة حقا ، ويفتتن هن به ويغرينه بما يلجأ إلى ربه ليغيثه منه وينقذه ، والمرأة تعلن في مجتمع النساء - دون حياء - أنه إما أن يفعل مايؤمر به ، وإما أن يلقى السجن والصغار ، فيختار السجن على مايؤمر به ! .

بعد هذا كله ، بدا لهم أن يسجنوه إلى حين !

ولعل المرأة كانت قد يئست من محاولاتها بعد التهديد ؛ ولعل الأمر كذلك قد زاد انتشارا في طبقات الشعب الأخرى . . وهنا لابد أن تحفظ سمعة « البيوتات » ! وإذا عجز رجال البيوتات عن صيانة بيوتهن ونسائهن ، فإنهم ليسوا بعاجزين عن سجن فتى بريء كل جريمته أنه لم يستجب ، وأن امرأة من « الوسط الراقي ! » قد فتنت به ، وشهرت بحبه ، ولاكت الألسن حديثها في الأوساط الشعبية !

Marfat.com

« ودخل معه السجن فتيان » ..

سنعرف من بعد أنهما من خدم الملك الخواص ..

ويختصر السياق ما كان من أمر يوسف فى السجن ، وماظهر من صلاحه وإحسانه ،فوجه إليه الأنظار ، وجعله موضع ثقة المساجين ، وفيهم الكثيرون ممن ساقهم سوء الطالع مثله للعمل فى القصر أو الحاشية ، فغضب عليهم فى نزوة عارضة ، فألقى بهم فى السجن .. يختصر السياق هذا كله ليعرض مشهد يوسف فى السجن وإلى جواره فتيان أنسا إليه . فهما يقصان عليه رؤيا رأياها ، ويطلبان إليه تعبيرها ، لما يتوسمانه فيه من الطيبة والصلاح وإحسان العبادة والذكر والسلوك :

« قال أحدهما : إنى أرانى أعصر خمرا ؛ وقال الآخر : إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزا تأكل الطير منه . نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين » ..

وينتهز يوسف هذه الفرصة ليبث بين السجناء عقيدته الصحيحة ؛ فكونه سجينا لايعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة والأوضاع الفاسدة ، القائمة على إعطاء حق الربوبية للحكام الأرضيين ، وجعلهم بالخضوع لهم أربابا يزاولون خصائص الربوبية ، ويصبحون فراعين !

ويبدأ يوسف مع صاحبى السجن من موضوعهما الذى يشغل بالهما ، فيطمئنهما ابتداء إلى أنه سيؤول لهم الرؤى ، لأن ربه علمه علما لدنيا خاصا ، جزاء على تجرده لعبادته وحده ، وتخلصه من عبادة الشركاء . هو وآباؤه من قبله .. وبذلك يكسب ثقتهما منذ اللحظة الأولى بقدرته على تأويل رؤياها ، كما يكسب ثقتهما كذلك لدينه :

« قال : لايأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما . ذلكما مما علمنى ربى . إنى تركت ملة قوم لايؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون . واتبعت ملة آبائى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء . ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولكن أكثر الناس لايشكرون » ..

ويبدو فى طريقة تناول يوسف للحديث لطف مدخله إلى النفوس . وكياسته وتنقله فى الحديث فى رفق لطيف .. وهى سمة هذه الشخصية البارزة فى القصة بطولها ..

Marfat.com

« قال : لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ، ذلكما مما علمني ربي » . .

بهذا التوكيد الموحي بالثقة بأن الرجل على علم لدني ، يرى به مقبل الرزق وينبئ بما يرى. وهذا - فوق دلالته على هبة الله لعبده الصالح يوسف - وهي كذلك بطبيعة الفترة وشيوع النبوءات فيها والرؤى - وقوله : « ذلكما مما علمني ربي » يجيء في اللحظة المناسبة من الناحية النفسية ليدخل بها إلى قلبيهما بدعوته إلى ربه ؛ وليعلل بها هذا العلم اللدني الذي سيؤول لهما رؤياهما عن طريقه

« إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون » . .

مشيرا بهذا إلى القوم الذين ربي فيهم ، وهم بيت العزيز وحاشية الملك وللملأ من القوم والشعب الذي يتبعهم . والفتيان على دين القوم ، ولكنه لا يواجههما بشخصيهما ، إنما يواجه القوم عامة كي لا يحرجهما ولا ينفرهما - وهي كياسة وحكمة ولطافة حس وحسن مدخل .

وذكر الآخرة هنا في قول يوسف يقرر - كما قلنا من قبل - أن الإيمان بالآخرة كان عنصرا من عناصر العقيدة على لسان الرسل جميعا ، منذ فجر البشرية الأول ؛ ولم يكن الأمر كما يزعم علماء الأديان المقارنة أن تصور الآخرة جاء إلى العقيدة - بجملتها - متأخرا . لقد جاء إلى العقائد الوثنية الجاهلية متأخرا فعلا ، ولكنه كان دائما عنصرا أصيلا في الرسالات السماوية الصحيحة . .

ثم يمضي يوسف بعد بيان معالم ملة الكفر ليبين معالم ملة الإيمان التي يتبعها هو وآباؤه :

« واتبعت ملة آبائي . إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء » . .

فهي ملة التوحيد الخالص الذي لا يشرك بالله شيئا قط . . والهداية إلى التوحيد فضل من الله على المهتدين ، وهو فضل في متناول الناس جميعا لو اتجهوا إليه وأرادوه . ففي فطرتهم أصوله

Marfat.com

وهواتفـه ، وفى الوجود من حولهم موحياته ودلائله ، وفى رسالات الرسـل بيانه وتقريره ولـكن الناس هم الذين لايعرفون هذا الفضل ولايشكرونه :

« ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ، ولـكن أكثر الناس لايشكرون » ..

مدخل لطيف . وخطوة خطوة فى حذر ولين .. ثم يتوغل فى قلبيهما أكثر وأكثر ، ويفصح عن عقيدته ودعوته إفصاحا كاملا ، ويـكشف عن فساد اعتقادهما واعتقاد قومهما ، وفساد ذلك الواقع النكد الذى يعيشون فيه .. بعد ذلك التمهيد الطويل :

« ياصاحبى السجن ، أأرباب متفرقون خير ؟ أم الله الواحد القهار؟ ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن الحـكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم . ولـكن أكثر الناس لايعلمون » ..

لقد رسم يوسف ــ عليه السلام ــ بهذه الـكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة ، كل معالم هذا الدين ، وكل مقومات هذه العقيدة . كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزا شديدا عنيفا ..

« ياصاحبى السجن ، أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ » .

إنه يتخذ منهما صاحبين ، ويتحبب إليهما بهذه الصفة المؤنسة ، ليدخل من هـذا المدخل إلى صلب الدعوة وجسم العقيـدة . وهو لايدعوهما إليها دعوة مباشرة ، إنما يعرضها قضيـة موضوعية :

« أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟ » .

وهو سؤال يهجم على الفطرة فى أعماقها ويهزها هزا شديدا . إن الفطرة تعرف لهـا إلها واحدا ففيم إذن تعـدد الأرباب ؟ .. إن الذى يستحق أن يـكون ربا يعبد ويطاع أمره ويتبع شرعه هوالله الواحد القهار . ومتى توحد الإله وتقرر سلطانه القاهر فى الوجود فيجب تبعا لذلك أن يتوحد الرب وسلطانه القاهر فى حياة الناس . وما يجوز لحظة واحدة أن يعرف الناس أن الله واحـد ، وأنه هو القاهر ، ثم يدينوا لغـيره ويخضعوا لأمره ، ويتخذوا بذلك من دون الله ربا .. إن الرب لابد أن يكون إلها يملك أمر هذا الـكون ويسيره . ولاينبغى أن

Marfat.com

يكون العاجز عن تسيير أمر هذا الكون كله ربا للناس يقهرهم بحكمه ، وهو لا يقهر هذا الكون كله بأمره !

والله الواحد القهار خير أن يدين العباد لربوبيته من أن يدينوا للأرباب المتفرقة الأهواء الجاهلة القاصرة العمياء عن رؤية ما وراء المنظور القريب – كالشأن في كل الأرباب إلا الله – وما شقيت البشرية قط شقاءها بتعدد الأرباب وتفرقهم ، وتوزع العباد بين أهوائهم وتنازعهم . . فهذه الأرباب الأرضية التي تغتصب سلطان الله وربوبيته ؛ أو يعطيها الجاهليون هذا السلطان تحت تأثير الوهم والخرافة والأسطورة ، أو تحت تأثير القهر أو الخداع أو الدعاية ! هذه الأرباب الأرضية لا تملك لحظة أن تتخلص من أهوائها ، ومن حرصها على ذواتها وبقائها ، ومن الرغبة الملحة في استبقاء سلطانها وتقويته ، وفي تدمير كل القوى والطاقات التي تهدد ذلك السلطان من قريب أو من بعيد ؛ وفي تسخير تلك القوى والطاقات في تمجيدها والطبل حولها والزمر والنفخ فيها كي لا تذبل ولا تنفثئ نفختها الخادعة !

والله الواحد القهار في غنى عن العالمين ؛ فهو سبحانه لا يريد منهم إلا التقوى والصلاح والعمل والعمارة – وفق منهجه – فيعد لهم هذا كله عبادة . وحتى الشعائر التي يفرضها عليهم إنما يريد بها إصلاح قلوبهم ومشاعرهم ، لإصلاح حياتهم وواقعهم . . وإلا فما أغناه سبحانه عن عباده أجمعين ! « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغني الحميد » . . ففرق بين الدينونة لله الواحد القهار والدينونة للأرباب المتفرقة بعيد (١) !

ثم يخطو يوسف – عليه السلام – خطوة أخرى في تفنيد عقائد الجاهلية وأوهامها الواهية :

« ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان » . .

إن هذه الأرباب – سواء كانت من البشر أم من غير البشر من الأرواح والشياطين والملائكة والقوى الكونية المسخرة بأمر الله – ليست من الربوبية في شيء ، وليس لها من

---

(١) يراجع ماسبق تقريره في هذا الجزء عن قيمة العبودية لله وحده في واقع الحياة البشرية . ص ١٥٧ – ص ١٦٦ .

Marfat.com

حقيقة الربوبية شيء . فالربوبية لاتكون إلا لله الواحد القهار ؛ الذى يخلق ويقهر كل العباد . . ولكن البشر فى الجاهليات المتعددة الأشكال والأوضاع يسمون من عند أنفسهم أسماء ، ويخلعون عليها صفات ، ويعطونها خصائص ؛ وفى أول هذه الخصائص خاصية الحكم والسلطان . . والله لم يجعل لها سلطانا ولم ينزل بها من سلطان . .

وهنا يضرب يوسف ـ عليه السلام ـ ضربته الأخيرة الحاسمة فيبين : لمن ينبغى أن يكون السلطان ! لمن ينبغى أن يكون الحكم ! لمن ينبغى أن تكون الطاعة . أو بمعنى آخر لمن ينبغى أن تكون « العبادة » !

« إن الحكم إلا لله . أمر ألا تعبدوا إلا إياه . ذلك الدين القيم . ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . .

إن الحكم لا يكون إلا لله فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته . إذ الحاكمية من خصائص الألوهية . من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته ؛ سواء ادعى هذا الحق فرد ، أو طبقة ، أو حزب ، أو هيئة ، أو أمة ، أو الناس جميعا فى صورة منظمة عالمية . ومن نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته وادعاها فقد كفر بالله كفرا بواحا ، يصبح به كفره من المعلوم من الدين بالضرورة ، حتى بحكم هذا النص وحده !

وادعاء هذا الحق لا يكون بصورة واحدة هى التى تخرج المدعى من دائرة الدين القيم ، وتجعله منازعا لله فى أولى خصائص ألوهيته ـ سبحانه ـ فليس من الضرورى أن يقول : ماعلمت لكم من إله غيرى ، أو يقول : أنا ربكم الأعلى ، كما قالها فرعون جهرة . ولكنه يدعى هذا الحق وينازع الله فيه بمجرد أن ينحى شريعة الله عن الحاكمية ؛ ويستمد القوانين من مصدر آخر . وبمجرد أن يقرر أن الجهة التى تملك الحاكمية ، أى التى تكون هى مصدر السلطات ، جهة أخرى غير الله سبحانه . . ولو كان هو مجموع الأمة أو مجموع البشرية . والأمة فى النظام الإسلامى هى التى تختار الحاكم فتعطيه شرعية مزاولة الحكم بشريعة الله ؛ ولكنها ليست هى مصدر الحاكمية التى تعطى القانون شرعيته . إنما مصدر الحاكمية هو الله . وكثيرون حتى من الباحثين المسلمين يخلطون بين مزاولة السلطة وبين مصدر السلطة . فالناس

Marfat.com

بجملتهم لا يملكون حق الحاكمية إنما يملكه الله وحده . والناس إنما يزاولون تطبيق ماشرعه الله بسلطانه ، أما مالم يشرعه الله فلا سلطان له ولا شرعية ، وما أنزل الله به من سلطان . .

ويوسف - عليه السلام - يعلل القول بأن الحكم لله وحده . فيقول :

« أمر ألا تعبدوا إلا إياه » .

ولا نفهم هذا التعليل كما كان يفهمه الرجل العربي إلا حين ندرك معنى « العبادة » التي يختص بها الله وحده . .

إن معنى عبد في اللغة : دان ، وخضع ، وذل . . ولم يكن معناه في الاصطلاح الإسلامي في أول الأمر أداء الشعائر . . إنما كان هو معناه اللغوي نفسه . . فعندما نزل هذا النص أول مرة لم يكن شيء من الشعائر قد فرض حتى ينطلق اللفظ إليه . إنما كان المقصود هو معناه اللغوي الذي صار هو معناه الاصطلاحي . كان المقصود به هو الدينونة لله وحده ، والخضوع له وحده ، واتباع أمره وحده . سواء تعلق هذا الأمر بشعيرة تعبدية ، أو تعلق بتوجيه أخلاقي ، أو تعلق بشريعة قانونية . فالدينونة لله وحده في هذا كله هي مدلول العبادة التي خص الله - سبحانه - بها نفسه ؛ ولم يجعلها لأحد من خلقه . .

وحين نفهم معنى العبادة على هذا النحو نفهم لماذا جعل يوسف - عليه السلام - اختصاص الله بالعبادة تعليلا لاختصاصه بالحكم . فالعبادة - أي الدينونة - لا تقوم إذا كان الحكم لغيره . . وسواء في هذا حكمه القدري القهري في حياة الناس وفي نظام الوجود ، وحكمه الشرعي الإرادي في حياة الناس خاصة . فكله حكم تتحقق به الدينونة .

ومرة أخرى نجد أن منازعة الله الحكم تخرج المنازع من دين الله - حكما معلوما من الدين بالضرورة - لأنها تخرجه من عبادة الله وحده . . وهذا هو الشرك الذي يخرج أصحابه من دين الله قطعا . وكذلك الذين يقرون للمنازع على ادعائه ، ويدينون له بالطاعة وقلوبهم غير منكرة لاغتصابه سلطان الله وخصائصه . . فكلهم سواء في ميزان الله .

ويقرر يوسف - عليه السلام - أن اختصاص الله - سبحانه - بالحكم - تحقيقا لاختصاصه بالعبادة - هو وحده الدين القيم :

Marfat.com

« ذلك الدين القيم » . .

وهو تعبير يفيد القصر . فلا دين قيما سوى هـذا الدين ، الذى يتحقق فيـه اختصاص الله بالحكم، تحقيقا لاختصاصه بالعبادة . .

« ولكن أكثر الناس لايعلمون » . .

وكونهم « لايعلمون » لايجعلهم على دين الله القيم . فالذى لايعلم شيئا لايملك الاعتقاد فيه ولا تحقيقه . . فإذا وجد ناس لايعلمون حقيقة الدين ، لم يعد من الممكن عقلا وواقعا وصفهم بأنهم على هذا الدين ! ولم يقم جهلهم عذرا لهم يسبغ عليهم صفة الإسلام . ذلك أن الجهـل مانع للصفة ابتـداء . فاعتقاد شىء فرع عن العلم به . . وهـذا منطق العقل والواقع . . بل منطق البداهة الواضح . .

لقد رسم يوسف ـ عليه السلام ـ بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة كل معالم هذا الدين ، وكل مقومات هذه العقيدة ؛ كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهليـة هزا شديدا . .

إن الطاغوت لايقوم فى الأرض إلا مدعيا أخص خصائص الألوهية ، وهو الربوبية . أى حق تعبيد الناس لأمره وشرعه ، ودينونتهم لفكره وقانونه . وهو إذ يزاول هـذا فى عالم الواقع يدعيه ـ ولو لم يقله بلسانه ـ فالعمل دليل أقوى من القول .

وإن الطاغوت لايقوم إلا فى غيبة الدين القيم والعقيدة الخالصة عن قلوب الناس . فما يمكن أن يقوم وقد استقر فى اعتقاد الناس فعلا أن الحكم لله وحده ، لأن العبادة لا تكون إلا لله وحده . والخضوع للحكم عبادة . بل هى أصلا مدلول العبادة .

وإلى هنا يبلغ يوسف أقصى الغاية من الدرس الذى ألقاه ، مرتبطا فى مطلعه بالأمر الذى يشغل بال صاحبيه فى السجن . ومن ثم فهو يؤول لهما الرؤيا فى نهاية الدرس ، ليزيدهما ثقة فى قوله كله وتعلقا به :

« ياصاحبى السجن ، أما أحدكما فيسقى ربه خمرا ، وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه » . .

Marfat.com

ولم يعين من هو صاحب البشرى ومن هو صاحب المصير السيء تلطفا وتحرجا من المواجهة بالشر والسوء . ولكنه أكد لهما الأمر واثقا من العلم الذى وهبه الله له :

« قضى الأمر الذى فيه تستفتيان » ..

وانتهى فهو كائن كما قضاه الله .

وأحب يوسف السجين البرىء ، الذى أمر الملك بسجنه دون تحر ودون بحث ، إلا ما نقله إليه بعض حاشيته من وشاية لعلهم صوروا له فيها حادث امرأة العزيز وحادث النسوة تصويرا مقلوبا ، كما يقع عادة فى مثل هذه الأوساط .. أحب يوسف أن يبلغ أمره إلى الملك ليفحص عن الأمر :

« وقال للذى ظن أنه ناج منهما : اذكرنى عند ربك » ..

اذكر حالى ووضعى وحقيقتى عند سيدك وحاكمك الذى تدين بشرعه وتخضع لحكمه ، فهو بهذا ربك . فالرب هو السيد والحاكم والقاهر والمشرع .. وفى هذا توكيد لمعنى الربوبية فى المصطلح الإسلامى . ومما يلاحظ أن ملوك الرعاة لم يكونوا يدعون الربوبية قولا كالفراعنة ، ولم يكونوا ينتسبون إلى الإله أو الآلهة كالفراعنة . ولم يكن لهم من مظاهر الربوبية إلا الحاكمية وهى نص فى معنى الربوبية ..

وهنا يسقط السياق أن التأويل قد تحقق ، وأن الأمر قد قضى على ما أوله يوسف . ويترك هنا فجوة ، نعرف منها أن هذا كله قد كان . ولكن الذى ظن يوسف أنه ناج فنجا فعلا ثم نفذ الوصية . ذلك أنه نسى الدرس الذى لقنه له يوسف ، ونسى ذكر ربه فى زحمة حياة القصر وملهياتها وقد عاد إليها ، فنسى يوسف وأمره كله ..

« فأنساه الشيطان ذكر ربه » ..

« فلبث فى السجن بضع سنين » ..

والضمير الأخير فى لبث عائد على يوسف . وقد شاء ربه أن يعلمه كيف يقطع الأسباب كلها ويستمسك بسببه وحده ، فلم يجعل قضاء حاجته على يد عبد ولا سبب يرتبط بعبد . وكان هذا من اصطفائه وإكرامه .

Marfat.com

إن عباد الله المخلصين ينبغى أن يخلصوا له سبحانه ، وأن يدعوا له وحده قيادهم ، ويدعوا له سبحانه تنقيل خطاهم . وحين يعجزون بضعفهم البشرى فى أول الأمر عن اختيار هذا السلوك ، يتفضل الله سبحانه فيقهرهم عليه حتى يعرفوه ويتذوقوه ويلتزموه بعد ذلك طاعة ورضى وحبا وشوقا .. فيتم عليهم فضله بهذا كله ..

* * *

والآن نحن فى مجلس الملك ، وقد رأى رؤيا أهمته ، فهو يطلب تأويلها من رجال الحاشية ومن الكهنة والمتصلين بالغيبيات :

« وقال الملك : إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف(١)، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات . ياأيها الملأ أفتونى فى رؤياى ، إن كنتم للرؤيا تعبرون(٢). قالوا : أضغاث أحلام ، ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين » ..

طلب الملك تأويل رؤياه . فعجز الملأ من حاشيته ومن الكهنة عن تأويلها ، أو أحسوا أنها تشير إلى سوء لم يريدوا أن يواجهوا به الملك على طريقة رجال الحاشية فى إظهار كل مايسر الحكام وإخفاء مايزعجهم ، وصرف الحديث عنه ! فقالوا : إنها « أضغاث أحلام » أى أخلاط أحلام مضطربة وليست رؤيا كاملة تحتمل التأويل . « ومانحن بتأويل الأحلام بعالمين » .. إذا كانت أضغاثا مختلطة لاتشير إلى شيء !

والآن لقد مرت بنا رؤى ثلاث : رؤيا يوسف ، ورؤيا صاحبى السجن ، ورؤيا الملك . وطلب تأويلها فى كل مرة ، والاهتمام بها يعطينا صورة من جو العصر كله فى مصر وخارج مصر - كما أسلفنا - وأن الهبة اللدنية التى وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوه ، على مانعهد فى معجزات الأنبياء ، فهل كانت هذه هى معجزة يوسف ؟ ولكن هذا بحث ليس مكانه هذه الظلال . فنكمل حديث رؤيا الملك الآن !

هنا تذكر أحد صاحبيه فى السجن ، الذى نجا منهما وأنساه الشيطان ذكر ربه ، وذكر

(١) من العجف وهو ظهور العظام من الهزال .
(٢) تعبرون : أى تصلون إلى نهايتها وتذكرون مآلها .

Marfat.com

يوسف فى دوامة القصر والحاشية والعصر والخمر والشراب .. هنا تذكر الرجلَ الذى أوّلَ له رؤياه ورؤيا صاحبه ، فتحقق التأويل :

« وقال الذى نجا منهما وادّكر بعد أمة(١) : أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون » !

* * *

أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون .. ويسدل الستار هنا ، ليرفع فى السجن على يوسف وصاحبه هذا يستفتيه :

« يوسف - أيها الصدّيق - أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون » ..

والساقى يلقب يوسف بالصدّيق . أى الصادق الكثير الصدق . وهذا ما جربه فى شأنه من قبل ..

« أفتنا فى سبع بقرات سمان ... » ..

ونقل ألفاظ الملك التى قالها كاملة ، لأنه يطلب تأويلها ، فكان دقيقا فى نقلها ، وأثبتها السياق مرة أخرى ليبين هذه الدقة أولا ، وليجىء تأويلها ملاصقا فى السياق لذكرها .

ولكن كلام يوسف هنا ليس هو التأويل المباشر المجرد ، إنما هو التأويل والنصح بمواجهة عواقبه . وهذا أكمل :

« قال : تزرعون سبع سنين دأبا » ..

أى .. متوالية متتابعة . وهى السنوات السبع المخصبة المرموز لها بالبقرات السمان .

« فما حصدتم فذروه فى سنبله » ..

أى فاتركوه فى سنابله لأن هذا يحفظه من السوس والمؤثرات الجوية .

« إلا قليلا مما تأكلون » ..

فجردوه من سنابله ، واحتفظوا بالبقية للسنوات الأخرى المجدبة المرموز لها بالبقرات العجاف .

---

(١) بعد أمة من السنين أو الأوقات : أى مجموعة . والمقصود عدد من السنين هى بضع سنين مابين ثلاث وتسع .

Marfat.com

« ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد » . .

لازرع فيهن .

« يأكلن ماقدمتم لهن » . .

وكأن هذه السنوات هى التى تأكل بذاتها كل مايقدم لها لشدة نهمها وجوعها !

« إلا قليلا مما تحصنون » . .

أى إلا قليلا مما تحفظونه وتصونونه من التهامها !

« ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » . . .

أى ثم تنقضى هذه السنوات الشداد العجاف المجدبة ، التى تأتى على ما خزنتم وادخرتم من سنوات الخصب . تنقضى ويعقبها عام رخاء ، يغاث الناس فيه بالزرع والماء ، وتنمو كرومهم فيعصرونها خمرا ، وسمسمهم وخسهم وزيتونهم فيعصرونه زيتا . . .

وهنا نلحظ أن هذا العام الرخاء لايقابله رمز فى رؤيا الملك ؛ فهو إذن من العلم اللدنى الذى علمه الله يوسف . فبشر به الساقى ليبشر الملك والناس ، بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخى رغيد .

* * *

وهنا كذلك ينتقل السياق إلى المشهد التالى . تاركا فجوة بين المشهدين يكمل التصور ماتم فيها من حركة . ويرفع الستار مرة أخرى على مجلس الملك . ويحذف السياق مانقله الساقى من تأويل الرؤيا ، وما تحدث به عن يوسف الذى أولها . وعن سجنه وأسبابه والحال التى هو فيها . . كل أولئك يحذفه السياق من المشهد ، لنسمع نتيجته من رغبة الملك فى رؤية يوسف ، وأمره أن يأتوه به :

« وقال الملك : ائتونى به » . .

ومرة ثالثة فى المشهد يحذف السياق جزئيات تفصيلية فى تنفيذ الأمر . ولكنا نجد يوسف يرد على رسول الملك الذى لا نعرف : إن كان هو الساقى الذى جاءه أول مرة . أو رسولا تنفيذيا مكلفا بمثل هذا الشأن . نجد يوسف السجين الذى طال عليه السجن لايستعجل الخروج حتى تحقق قضيته ، ويتبين الحق واضحا فى موقفه . ويعلن براءته — على

Marfat.com

الأشهاد ـ من الوشايات والدسائس والتمز فى الظلام . . لقد رباه ربه وأدبه . ولقد سكبت هذه التربية وهذا الأدب فى قلبه السكينة والثقة والطمأنينة . فلم يعد معجلا ولا عجولا !

إن أثر التربية الربانية شديد الوضوح فى الفارق بين الموقفين : الموقف الذى يقول يوسف فيه الفتى : اذكرنى عند ربك ، والموقف الذى يقول له فيه : ارجع إلى ربك فاسأله مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، والفارق بين الموقفين بعيد . .

« قال : ارجع إلى ربك فاسأله : مابال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ؟ إن ربى بكيدهن عليم »

لقد رد يوسف أمر الملك باستدعائه حتى يستوثق الملك من أمره ، وحتى يتحقق من شأن النسوة اللاتى قطعن أيديهن . . بهذا القيد . . تذكيرا بالواقعة وملابساتها وكيد بعضهن لبعض فيها وكيدهن له بعدها . . وحتى يكون هذا التحقق فى غيبته لتظهر الحقيقة خالصة ، دون أن يتدخل هو فى مناقشتها . . كل أولئك لأنه واثق من نفسه ، واثق من براءته ، مطمئن إلى أن الحق لا يخفى طويلا ، ولا يخذل طويلا .

ولقد حكى القرآن عن يوسف استعمال كلمة « رب » بمدلولها الكامل ، بالقياس إليه وبالقياس إلى رسول الملك إليه . فالملك رب هذا الرسول لأنه هو حاكمه الذى يدين لسلطانه . والله رب يوسف لأنه هو حاكمه الذى يدين لسلطانه . .

ورجع الرسول فأخبر الملك وأحضر الملك النسوة يستجوبهن ـ والسياق يحذف هذا لنعلمه مما يليه ـ :

« قال : ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ » . .

والخطب : الأمر الجلل والمصاب . . وكأن الملك كان قد استقصى فعلم أمرهن قبل أن يواجههن ، وهو المعتاد فى مثل هذه الأحوال ، ليكون الملك على بينة من الأمر وظروفه قبل الخوض فيه . فهو يواجههن مقررا الاتهام ، ومشيرا إلى أمر لهن جلل أو شأن لهن خطير :

« ماخطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ » .

Marfat.com

ومن هـذا نعلم شيئاً مما دار في حفل الاستقبال في بيت العزيز؛ ما قالته النسوة ليوسف وما لَمَّحن به وأشرن إليه، من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة. ومن هـذا نتخيل صورة لهذه الأوساط ونسائها حتى في ذلك العهد الموغل في التاريخ. فالجاهلية دائماً هي الجاهلية. إنه حيثما كان الترف، وكانت القصور والحاشية، كان التحلل والتميع والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الأرستقراطية!

وفي مثل هذه المواجهة بالاتهام في حضرة الملك، يبدو أنه لم يكن هنالك مجال للإنكار:

« قلن: حاش لله! ما علمنا عليه من سوء »!

وهي الحقيقة التي يصعب إنكارها. ولو من مثل هؤلاء النسوة. فقد كان أمر يوسف إذن من النصاعة والوضوح بحيث لا يقوم فيه جدال.

وهنا تتقدم المرأة المحبة ليوسف، التي يئست منه، ولكنها لا تستطيع أن تخلص من تعلقها به.. تتقدم لتقول كل شيء في صراحة:

« قالت امرأة العزيز: الآن حصحص الحق. أنا راودته عن نفسه. وإنه لمن الصادقين ».

الآن حصحص الحق وظهر ظهوراً واضحاً لا يحتمل الخفاء:

« أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين »..

وزادت ما يكشف عن أن قلبها لم يخل من إيثاره ورجاء تقديره والتفاته بعد كل هـذا الأمد؛ وما يشي كذلك بأن عقيدة يوسف قد أخذت طريقها إلى قلبها فآمن:

« ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب، وأن الله لا يهدي كيد الخائنين »..

وهـذا الاعتراف وما بعده يصوره السياق هنا بألفاظ موحية، تشي بما وراءها من انفعالات ومشاعر. كما يشي الستار الرقيق بما وراءه في ترفع وتجمل في التعبير:

« أنا راودته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين »..

شهادة كاملة بنظافته وبراءته وصدقه. لا تبالي المرأة ما وراءها مما يلم بها هي ويلحق بأردانها.. فهـل هو الحق وحده الذي يدفعها لهـذا الإقرار الصريح في حضرة الملك والملأ؟

Marfat.com

يتبع السياق بحفز آخر ، هو حرصها على أن يحترمها الرجل المؤمن الذى لم يعبأ بفتنتها الجسدية . أن يحترمها تقديرا لإيمانها واصدقها وأمانتها فى حقه عند غيبته :

« ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب » . .

ثم تمضى فى هذه المحاولة والمودة إلى الفضيلة التى يحبها يوسف ويقدرها :

« وأن الله لايهدى كيد الخائنين » . .

وتمضى خطوة أخرى فى هذه المشاعر الطيبة :

« ومـا أبرئ نفسى ، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى ، إن ربى غفـور رحـيم » . .

إنها امرأة أحبت . امرأة تكبر الرجـل الذى تعلقت به فى جاهليتها وإسلامها ، فهى لا تملك إلا أن تظل معلقة بكلمة منه ، أو خاطرة ارتياح تحس أنها صدرت عنه !

وهـكذا يتجلى العنصر الإنسانى فى القصـة ، التى لم تسق لمجرد الفن ، إنما سيقت للعبرة والعظة . وسيقت لتعالج قضيـة العقيدة والدعوة . ويرسم التعبير الفنى فيها خفقات المشـاعر وانتفاضات الوجـدان رسما رشيقا رفيقا شفيفا . فى واقعة كامـلة تتناسق فيها جميع المؤثرات وجميع الواقعيـات فى مثل هـذه النفوس ، فى ذات بيئتها ومؤثرات هذه البيئة كذلك .

وإلى هنا تنتهى محنة السجن ومحنة الاتهام ، وتسير الحياة بيوسف رخاء ، الاختبار فيـه بالنعماء لا بالشدة .

وإلى هنا نقف فى هذا الجزء من الظلال ، ونتابع القصة سيرها فى الجزء التالى إن شاءالله .

> انتهى الجزء الثانى عشر ويليه الجزء الثالث عشر مبدوءا بقوله تعالى : « وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربى » . . .

Marfat.com

فهرس المجلد الرابع

في ظلال القرآن

السورة	مطالع الآيات	الصفحة	الجزء
من بقية سورة الأنفال		٥ — ٨٠	العاشر
تفسير الآيات : ٤١ — ٥٤	واعلموا انما غنمتم	٧	
» » : ٥٥ — ٧٥	إن شر الدواب عند الله	٣٨ — ٨٠	
سورة التوبة مدنية وآياتها ١٢٩		٨١ — ٣٥٨	
تفسير الآيات : ١ — ٢٨	براءة من الله ورسوله	١١٣	
» » : ٢٩ — ٣٥	قاتلوا الذين لا يؤمنون	١٦٨	
» » : ٣٦ — ٣٧	إن عدة الشهور عند الله	٢١٦	
» » : ٣٨ — ٤١	يا ايها الذين آمنوا	٢٢٢	
» » : ٤٢ — ٩٢	لوكان عرضا قريبًا وسفرًا قاصدًا	٢٢٧ — ٢٧٠	
» » : ٩٣ — ٩٦	انما السبيل على الذين يستئذنونك	١٨٠	الحادي عشر
» » : ٩٧ — ١١٠	الاعراب اشد كفرًا ونفاقًا	٢٨٤	
» » : ١١١ — ١٢٩	إن الله اشترى من المؤمنين	٣٠٨ — ٣٥٨	
سورة يونس مكية وآياتها ١٠٩		٣٥٩ — ٥٦٥	
تفسير الآيات : ١ — ٢٥	المر تلك آيات الكتاب الحكيم	٣٧٦	
» » : ٢٦ — ٧٠	للذين احسنوا الحسنى وزياده	٤٠٦	
» » : ٧١ — ١٠٣	واتل عليهم نبأ نوح إذ	٤٥٦	
» » : ١٠٤ — ١٠٩	قل : يا ايها الناس إن كنتم في	٤٨٢ — ٤٨٥	
سورة هود مكية وآياتها ١٢٣		٤٨٩ — ٦٥٨	الثاني عشر
تفسير الآيات : ١ — ٢٤	ألمر كتاب احكمت آياته	٥٠٤	
» » : ٢٥ — ٤٩	ولقد ارسلنا نوحًا إلى قومه	٥٣٥	

Marfat.com

السورة		مطالع الآيات	الصفحة
» »	: ٥٠ – ٦٨	والى عاد أخاهم هودًا	٥٧٣
» »	: ٦٩ – ٨٣	ولقد جاءت رسلنا ابراهيم	٥٩٩
» »	: ٨٤ – ٩٥	والى مدين اخاهم شعيبًا	٦٠٧
» »	: ٩٦ – ٩٩	ولقد ارسلنا موسى بآياتنا	٦١٨
» »	: ١٠٠ – ١٢٣	ذلك من أبناء القرى نقصه	٦٢٠ – ٦٥٨
سورة يوسف مكية وآياتها ١١١			٦٥٩ – ٧٣٤
تفسير الآيات	: ١ – ٢٠	آلر تلك آيات الكتاب	٦٩٢
» »	: ٢١ – ٣٤	وقال الذي اشتراه من مصر	٧٠٤
» »	: ٣٥ – ٥٢	ثم بدا لهم من بعد ما رأوا	٧١٨ – ٧٣٤

Marfat.com